

التفسير الميسر

مستخلص من خطب ومحاضرات
ودروس حضرة مرزا بشير الدين محمود
أحمد ﷺ

المجلد الثاني

النساء - التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب: التفسير الميسر – المجلد الثاني
الطبعة الأولى: 1447 هـ الموافق لـ 2026 م

An Arabic Rendering of
The Holy Quran with English Translation and Commentary
(The Five Volume Commentary)
By Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad, Khalifatul-Masīḥ II 
Sūrah an-Nisā' – Sūrah at-Tawbah

Revised and edited by:



— وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ —
**International
Translation &
Research Office**
AMJ INTERNATIONAL

Email: contact.translation-research@amjinternational.org

First Arabic translation published in the UK in 2026
© Islam International Publications Ltd.

Published by:
Islam International Publications Ltd
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in Turkey at:

Book and cover design: Zafer Shobarji
Typesetting: Mamoun Sakkal

For further information please visit:
www.islamahmadiyya.net

ISBN: 978-1-83596-406-4

فهرس المحتويات

أ.....	مقدمة
ه.....	كلمة الناشر
ز.....	تقديم
ط.....	أسماء المراجع واختصاراتها
١.....	سورة النساء
١٧٣.....	سورة المائدة
٢٨٩.....	سورة الأنعام
٤٣٧.....	سورة الأعراف
٦٠٧.....	سورتا الأنفال والتوبة
٦١٥.....	سورة الأنفال
٦٧٧.....	سورة التوبة



نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

مقدمة

بحمد الله تعالى وفضله ورحمته، تشرفت الجماعة بالشروع في نشر «التفسير الميسر»، وهو الترجمة العربية للتفسير ذي المجلدات الخمسة للقرآن الكريم، الذي أُعدّ في الأصل باللغة الإنجليزية تحت إشرافٍ وتوجيهٍ مباشر من حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، خليفة المسيح الثاني ﷺ، ويدخل هذا العمل اليوم إلى العالم الناطق بالعربية كتفسيرٍ موجزٍ سهل الفهم، قائم على علمٍ غزيرٍ وبصيرةٍ موهوبةٍ من الله ﷻ.

ويستند تفسير المجلدات الخمسة نفسه إلى تفسير حضرة الخليفة الثاني البارز باللغة الأردية «التفسير الكبير». وما يُميّز هذا التفسير ليس فقط براعة المؤلف الفكرية، بل المصدر الروحي لفهمه، فطوال حياته، شهد حضرة المصلح الموعود ﷺ مراراً وتكراراً أن الله تعالى كشف له الحقائق العميقة للقرآن الكريم عن طريق الوحي الإلهي. قال حضرته:

«هناك مئات بل آلاف من مفاهيم القرآن الكريم التي قد كشفها الله عليّ بفضله الخاص بالإلهام... ومهما شكرته - سبحانه وتعالى - على هذه النعمة فلن أؤدي حق شكرها. كانت هناك آيات عديدة غير واضحة بالنسبة إليّ، فأنزل الله معانيها على قلبي بوحيه وإلقائه، وهكذا متّعني بعلمه الخاصة». (التفسير الكبير، المجلد 8)

لقد شكّلت هذه الموهبةُ الإلهيةُ المنهجيةُ التي اتبعها في تفسير القرآن الكريم. فقد أوضح أن القرآن الكريم يحمل في طياته معاني عديدة، وأن آياته يجب ألا تُفهم من خلال السياق فحسب، بل من خلال الترابط والانسجام بين جميع سورته، بل وحتى القرآن الكريم ككل. وأعلن أن هذا المفتاح الشامل هو في حد ذاته نعمة من الله وحده.

ومن بين التجارب الروحية الفريدة التي أثرت في تفسيره، المنام الشهير الذي رآه في طفولته، حيث ظهر له ملك وعلمه تفسير سورة الفاتحة. ويقول عن ذلك:

«لقد رأيتُ في الرؤيا وأنا صغير أن أحداً ضرب كأساً معدنيّاً، فخرج منه صوت. ثم رأيت أن الصوت أخذ في الانتشار والاتّسع كاتّسع الماء الذي يلقي فيه حجر فتتحرك أمواجه على شكل دائرة صغيرة، ثم تتسع هذه الدائرة وتتسع. فلم يزل هذا الصوت ينتشر ويتسع في الجو حتى تكوّن في وسط الجو بالضبط إطار فارغ. ثم رأيت أن صورة أخذت تتشكل في الإطار، وتحولت بالتدريج إلى صورة إنسان. ثم تحركت الصورة فجأة، وقفز منها إنسان وجاء ووقف أمامي، وقال: إني ملاك وقد بعثني الله تعالى إليك لكي أعلمك تفسير سورة الفاتحة. فبدأ يعلمني تفسيرها. ولما بلغ قولَ الله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين} قال: إن كل التفاسير السابقة قد انتهت إلى هنا، ولو شئتَ علّمتُك تفسير ما بعده. فقلت: نعم، علّمني المزيد. فعلمّني تفسير سورة الفاتحة كلها». (التفسير الكبير، المجلد 5).

وتشمل تفاسير حضرة المصلح الموعود أمثلة عديدة عن مواضع انكشفت له فيها ترتيبات موضوعية معقدة، وروابط دقيقة بين السور، ومسائل عقائدية متشعبة، وذلك في لحظات من الهداية الإلهية، وأحياناً حتى وهو ساجد في الصلاة. وقد شهد على ذلك بنفسه قائلاً:

«إنه ليكفي ملاحظاتي هذه شرفاً أن كشف الله علي فيها - برحمته وفضله - أموراً كثيرة وفق متطلبات هذا العصر»، (التفسير الكبير، المجلد 3).

وبفضل هذه المعونة الإلهية الفريدة، لا يتناول تفسيره المسائل الدينية التقليدية فحسب، بل يتناول أيضاً التحديات الفكرية المعاصرة. وتُقدّم رؤاه اتساقاً حيث رأى العلماء السابقون صعوبة، وترابطاً حيث رأى المفسرون السابقون تشتتاً، ونوراً جديداً حيث بدت التفسيرات السابقة ناقصة. لقد شرح العديد من هذه الحقائق القرآنية، مثل ترابط سورة البقرة، وأهمية البسملة كمفتاح لكل سورة، والحكمة الكامنة وراء

ترتيب ذكر الأنبياء في بعض الآيات، والنبوءات التاريخية المضمنة في سورة الفاتحة، أو المعنى الأعمق لسور مثل الفجر والنجم، وذلك من خلال تفسيره لأُمُور أوحى الله إليه بها.

لذا فإن التفسير الكبير ليس مجرد تحفة علمية، بل هو تعبير عن البصيرة القرآنية التي أنعم الله بها على المصلح الموعود الذي كان من جملة مهامه إحياء الفهم القرآني في العالم المعاصر.

وعلى هذا الأساس الروحي والفكري جُمعت تفسيرات المجلدات الخمسة باللغة الإنجليزية، وعلى الأساس نفسه أعدّ هذا العمل، التفسير الميسر، للقارئ العربي.

تهدف هذه الطبعة إلى تقديم تلك الأفكار بأسلوب واضح وميسر وموجز، مع الحفاظ على العمق والترابط اللذين يميزان رؤية حضرة المصلح الموعود للقرآن الكريم.

إذ نقدم المجلد الأول من هذا المسعى المبارك، نتقدم بالشكر الجزيل لله عز وجل.

ومع أنه لا يمكن لأي تفسير أن يدّعي الكمال في شرح كلام الله الأزلي، فإن هذا العمل يعكس توليفة فريدة من نوعها بين العلم والإلهام الإلهي.

فآمل أن يكون التفسير الميسر وسيلةً للهداية والتأمل والإثراء الروحي للعلماء والطلاب والباحثين عن الحقيقة في جميع أنحاء العالم العربي.

وأسأل الله العليّ القدير أن يرزقنا القدرة على الاستفادة من بحار المعرفة القرآنية هذه، وأن يوفقنا لتطبيق هدايتها في حياتنا. آمين.

مرزا مسرور أحمد

خليفة المسيح الخامس

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

كلمة الناشر

التفسير الميسر هو الترجمة العربية لتفسير القرآن الكريم ذي المجلدات الخمسة، المبني على تفسير حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام.

يحتوي هذا المجلد الثاني على تفسير سور خمس، من سورة المائدة إلى سورة التوبة. ولا يزال هذا التفسير الفريد، منذ تأليفه وإلى يومنا هذا، مصدراً لاستخراج معانٍ وحِكَمٍ جديدة من القرآن الكريم، يستفيد منها القراء المعاصرون وطلاب العلم والدين في كافة أنحاء العالم.

ترجم هذا التفسير إلى العربية بدايةً عددٌ من العلماء العرب من المسلمين الأحمديين، وقد انتقل عددٌ منهم إلى رحمة الله تعالى. وبناءً على توجيهات وتعليمات حضرة الخليفة الخامس للمسيح الموعود عليه السلام، أُعيدت مراجعة هذه الترجمة وإعدادها للنشر من قبل المكتب المركزي للترجمة والبحث، تحت إشراف الأستاذ إبراهيم إخلف.

نودُّ أن نعبر عن امتناننا لكل من ساهم في هذا العمل في مختلف مراحلهِ. ونسأل الله تعالى أن يبارك في جهودهم ويجزيهم خير الجزاء، وأن يجعل هذا المجلد مصدر هداية ونفعٍ للناطقين بالعربية وقراءها في شتى أنحاء العالم. آمين.

الحاج منير الدين شمس

وكيل التصنيف الإضافي

فارنام، أيار ٢٠٢٦

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

تقديم

هذا التفسير للقرآن الكريم هو الترجمة العربية لتفسير المجلدات الخمسة الإنجليزية المبني في الأساس على ما قدمه حضرة المصلح الموعود مرزا بشير الدين محمود أحمد رحمته الله، الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام من تفسير للقرآن الكريم، من خلال ما جمعه العلماء من دروسه ومحاضراته وخطبه وكتابات وملاحظاته التفسيرية.

تطوير النسخة العربية:

تولى المرحوم الأستاذ مصطفى ثابت والدكتور حاتم الشافعي الترجمة الأولية للمجلد الثاني من هذا التفسير، ندعو الله أن يتقبل منهما ويجعل هذا العمل الفذ في ميزان حسناتهما، آمين.

ومع تقدم المشروع، تولى مسؤولية الترجمة المكتب المركزي للترجمة والبحث بتوجيه مباشر ورعاية كريمة من حضرة خليفة المسيح الخامس عليه السلام، وقد أطلق حضرته على هذا التفسير اسم «التفسير الميسر».

وحيث تبين أن بعض الفقرات تتطلب إعادة ترجمة لضمان الاتساق والدقة والوضوح، أجرى المكتب المركزي للترجمة والبحث مراجعة شاملة ودقيقة للنص العربي ومقارنته بالنص الإنجليزي الأصلي، تلتها مراحل متعددة من التحسين التحريري بهدف الحفاظ على أعلى معايير الجودة اللغوية والدقة في الترجمة، والتي تطلبت فهماً عميقاً للتعبير الاصطلاحي والنطاق الدلالي الأوسع لكل من لغتي المصدر والهدف.

شكر وتقدير:

في هذا السياق، لعبت الأستاذة ريم إبراهيم والأستاذ ذیشان خالد دوراً محورياً في الإشراف على هذا المشروع، فنتقدم لهما بخالص الشكر والامتنان. كما قام الأستاذ محمد إبراهيم إخلف بالمراجعة والتدقيق الأخير.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ ذو الفقار راجا، الذي أشرف على تنضيد هذه الطبعة، وللأستاذ محمد أمين الراقي، الذي ساهم في إتمام هذا العمل.

ونود أن نُعرب عن امتناننا العميق للأستاذ تيم أبو دقة الذي قام بالتدقيق اللغوي، وشكر خاص للأستاذ طارق ملص، والأستاذة روان ملص، والأستاذ مصلح شنبور، والأستاذة زها عامر، والأستاذ مراد إدلي، والأستاذ عماد الدين المصري على مساهمتهم القيمة في هذا العمل.

ونتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ محمد شريف عودة، أمير الجماعة الإسلامية الأحمدية في الديار المقدسة وللأستاذ مظفر أحمد ملك، وفريق دار الرقيم، على ما قدموه من نصائح ثمرة فيما يتعلق بطباعة الكتاب.

جزاهم الله تعالى وأسره خير الجزاء على تضحياتهم، وبارك فيهم دنيا وآخرة، آمين.

المكتب المركزي للترجمة والبحث

فارنام، المملكة المتحدة

نيسان/إبريل ٢٠٢٦

أسماء المراجع واختصاراتها

يستعمل بعض المفسرين حرفاً أو مجموعة من الحروف اختصاراً لاسم المراجع المستعمل، غير أن هذا لا يفيد القارئ كثيراً لأنه يضطر إلى الرجوع مرات ومرات إلى قائمة الاختصارات للتأكد من معنى الحرف المستعمل للدلالة على المراجع. وفي نفس الوقت يبدو أنه من غير المناسب كتابة اسم المراجع بأكمله في كل مرة يُذكر فيها. ولذلك اتبعنا طريقاً وسطاً، وذكرنا اسماً مختصراً للمراجع، فمثلاً بدلاً من كتابة اسم المراجع على النحو التالي: «البحر المحيط لابن حبان»، اكتفينا بكتابة «البحر المحيط» أو «المحيط»، وبدلاً من «السيرة النبوية للشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام» اكتفينا بكتابة «ابن هشام». وهذه الأسماء المختصرة تدل القارئ بسهولة على المراجع المقصود. أما المراجع التي تستعمل بكثرة فلم نذكر لها اختصاراً، وبالنسبة لأسفار الكتاب المقدس، ذكرنا الصيغة التي يستعملها عادة أهل الكتاب، وهي ذكر اسم السِّفَر متبوعاً برقم الإصحاح ثم رقم الفقرة أو الفقرات المستشهد بها. وفيما يلي قائمة بأسماء المراجع والاختصارات المستعملة، وقد راعينا كتابة اسم المراجع ومؤلفه كاملين.

الاسم المختصر	اسم المراجع والمؤلف
كتب الحديث الشريف	
البخاري	صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
مسلم	صحيح مسلم، الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري.
الترمذي	جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
أبو داود	سنن أبي داود، الحافظ سليمان بن الأشعث أبو داود.

ابن ماجه	سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني.
المسند (أو مسند ابن حنبل)	مسند أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل.
النسائي	سنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
البيهقي	سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي.
كنز العمال	كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الشيخ علاء الدين علي المتقي.
الدارقطني	سنن الدارقطني، الحافظ علي بن عمر الدارقطني.
القسطلاني	إرشاد الساري، أحمد بن محمد الخاطب القسطلاني.
فتح الباري	فتح الباري، أبو الفضل شهاب الدين بن علي العسقلاني.
ابن عساكر	تاريخ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر.
المنائوي	فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام عبد الرؤوف المناوي.
الدارمي	سنن الدارمي، الحافظ أبو محمد عبد الله بن الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي.

مراجع تفسير القرآن المجيد

الطبري (أو ابن جرير)	جامع البيان في تأويل آي القرآن، الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
ابن كثير	تفسير القرآن العظيم، أبو الفدا إسماعيل بن كثير.

الكشاف	الكشاف عن غوامض التنزيل، الإمام محمود بن عمر الزمخشري.
البحر المحيط	البحر المحيط، أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الغرناطي، أبو حيان.
الدر المنثور	الدر المنثور، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.
القدير (أو فتح القدير)	فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني.
فتح (أو فتح البيان)	فتح البيان، أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي.
البيان (أو روح البيان)	روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي.
التفسير (أو التفسير الكبير)	التفسير الكبير، حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام .
الثعالي	الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن الثعالي.
التمييز	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.
السراج الوهاج	الشيخ أبو الحسن مصطفى بن إسماعيل السليماني.

المعاجم ودوائر المعارف والدوريات

المنجد	المنجد في اللغة، علي بن الحسن الهنائي الأزدي.
بحار (أو بحار الأنوار)	مجمع بحار الأنوار، الشيخ محمد طاهر العجراتي.
كليات أبي البقا	الكليات، أبو البقا الحسيني.

مفردات (أو مفردات الراغب) لسان العرب	المفردات في غرائب القرآن، الشيخ أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني. لسان العرب، الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.
تاج (أو تاج العروس) لين (أو معجم لين) القاموس	تاج العروس، أبو الفيض سيد محمد مرتضى الحسيني. المعجم العربي الإنجليزي. القاموس، الشيخ نصر أبو الوفا.
أقرب (أو أقرب الموارد) مصباح جيسينيوس	أقرب الموارد، سعيد الخوري الشرتوتي. المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي. المعجم العبري الإنجليزي، جيسينيوس.
دائرة المعارف البريطانية دائرة المعارف اليهودية دائرة معارف الأديان دائرة معارف الكتاب المقدس دائرة معارف الإسلام	دائرة المعارف البريطانية، الطبعة 14. دائرة المعارف اليهودية. دائرة معارف الأديان والأخلاقيات. دائرة معارف الكتاب المقدس. دائرة معارف الإسلام.
مجلة مقارنة الأديان الزمنخشي كردون	مجلة مقارنة الأديان. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمنخشي. معجم كردون لألفاظ العهد القديم (أبو كريف).

مراجع التاريخ والجغرافيا

الطبري	تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
موير	حياة محمد، السير وليام موير 1924.
الخلافة	الخلافة قيامها وضعفها وسقوطها، السير وليام موير.
ابن هشام	سيرة النبي، الشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام.
الخميس	تاريخ الخميس، الشيخ حسين بن محمد الديار البكري.
الزرقاني	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، إمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني.
أسد الغابة	أسد الغابة في معرفة الصحابة، الحافظ أبو الحسن علي بن محمد.
زاد المعاد	زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.
البلدان	معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.
مروج الذهب	مروج الذهب ومعادن الجوهر، العلامة علي بن الحسين المسعودي.
الأثير	كامل ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ابن الأثير.

مراجع التصوف والعقائد

الفتوحات (أو)	الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي.
الفتوحات المكية)	ملائكة الله، حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد،
ملائكة الله	الخليفة الثاني للمسيح الموعود.
عوارف المعارف	شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد السهروردي.

مراجع العلوم والفلسفة والأدب

المبرّد	كتاب الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد.
---------	---

مراجع قواعد اللغة

سيبويه	سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر،
	الملقب سيبويه.

مراجع الفقه

المحلّي	المحلّي، الإمام محمود علي بن أحمد بن سعيد بن حزم.
---------	---

المعاني

المختصر	مختصر المعاني، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني.
---------	---

المطوّل	المطوّل، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني.
---------	---

كتب المسيح الموعود (حضرة مرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام)

توضيح المرام
مرآة كمالات الإسلام

إزالة الأوهام
حقيقة الوحي
فلسفة تعاليم الإسلام

أسفار الكتاب المقدس

التكوين	سفر التكوين.
الخروج	سفر الخروج.
اللاويين	سفر اللاويين.
العدد	سفر العدد.
الأعمال	سفر الأعمال.
الأمثال	سفر الأمثال.
التثنية	سفر التثنية.
نحميا	سفر نحميا.
أشعيا	سفر أشعيا.
إرميا	سفر إرميا.
غلاطية	سفر غلاطية.
روميا	سفر روميا.
دانيال	سفر دانيال.
حزقيال	سفر حزقيال.
ملاخي	سفر ملاخي.

رؤيا	سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي.
متى	إنجيل متى.
لوقا	إنجيل لوقا.
مرقس	إنجيل مرقس.
يوحنا	إنجيل يوحنا.

متنوعات

الماوردي.

جريدة الحكم، قاديان.

جريدة الفضل، قاديان.

إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، حضرة شاه ولي الله.

الزند-أفستا.

الجماسبي، لجاماسب، الخليفة الأول لزرادشت.

الدساتير.

المراجع الإنجليزية وغيرها

AL-KORAN by George Sale.

American Medical Journal.

Capital Punishment in the Twentieth Century, by E. Roy Calvert.

Commentaries on the Old and the New Testaments, published by Society for Promoting Christian Knowledge, London.

Commentary, by C.J. Elliott, Lord Bishop of Gloucester.

Concordance by Alexander Cruden.

Cyclopaedia of Biblical Literature (New York, 1877).

Decline and Fall of the Roman Empire, by Edward Gibbon.
Diodorus Siculus (Translation by C.M. Oldfather, London, 1935).
Elwood Morris Wherry, Comprehensive commentary on the Quran.
Hebrew English Lexicon.
Historians' History of the World, by Henry Smith Williams.
History of Palestine and the Jews, by John Kitto (London, 1844).
History of the Nations by Walter Hutchinson.
John Medows Rodwell Translation of the Quran.
Leaves from Three Ancient Qur'ans, edited by Rev. A. Manganin, D.D.
Life of Napoleon, by John S.C. Abbott.
Merriam–Webster Dictionary.
Midrash Rabbah.
Moses and Monotheism, by Sigmund Freud.
On Heroes and Hero–Worship, by Thomas Carlyle.
The Dawn of Conscience, by James Henry Breasted.
The Jewish Foundation of Islam.
The Making of Humanity, by Robert Briffault.
The Pilgrimage, by LT. Burton.
The Scofield Reference Bible.
The Talmud (Selections by H. Polano).
Translation of the Targums, by J. W. Etheridge (London, 1862).



(٤)

﴿سورة النساء﴾

(مدنية)

تاريخ ومكان النزول:

تتألف هذه السورة من ١٧٧ آية بما فيها البسملة. ويروي البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذه السورة نزلت عندما انتقلت للإقامة في بيت رسول الله ﷺ بعد زواجها منه. ولما كان انتقال السيدة عائشة رضي الله عنها إلى بيت النبي ﷺ قد تم بعد الهجرة، دلّ هذا على أن هذه السورة بأكملها مدنية.

ويقول القرطبي إن الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وهي الآية رقم ٥٨ من هذه السورة، قد نزلت في مكة بعد فتحها، غير أن هذا خطأ اصطلاحياً، إذ إن المتفق عليه أن كل ما نزل بعد الهجرة يُعتبر مدنياً حتى ولو كان قد نزل في مكة. ويتفق القس إ. م. ويري (E. M. Wherry) ونولدكه (Noeldeke) وبعض المستشرقين الأوروبيين الآخرين على أن هذه السورة تتعلق بالفترة المدنية، ويرون أنها نزلت بين السنة الرابعة والخامسة بعد الهجرة. غير أن نولدكه يميل إلى اعتبار بعض آياتها مكية وذلك «لأن اليهود قد جاء ذكرهم بأسلوب طيب»، بينما يرى «ويري» أن عبارة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الواردة في الآية ١٣٤ من هذه السورة دليل على أنها قد نزلت في مكة وذلك لأن استخدام أسلوب التخاطب هذا كان وفقاً على السور المكية.

ومع ذلك، فإن الحقيقة الثابتة هي أن هذه السورة مدنية، وقد نزلت بعض آياتها في فترة متأخرة من بعثة الرسول ﷺ، وقد أخطأ أولئك المستشرقون الذين استنتجوا من صيغة التخاطب في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ دليلاً على أن بعض آياتها تتعلق بالفترة المكية.

وبالمثل، لا وزن لاستنتاجاتهم بأن ذكر اليهود بأسلوب طيب في بعض الآيات يدلّ على أنها نزلت في مكة. كما أن استنتاجاتهم القائمة على أن صيغة التخاطب المذكورة قد استعملت فقط في الفترة المكية لا أساس لها، حيث إن صيغة التخاطب هذه جاءت أيضاً في بعض السور التي أجمع العلماء على نزولها في الفترة المدنية، مثل سورتي البقرة والحج، (انظر الآية ٢٢ من سورة البقرة، والآية الثانية من سورة الحج). فبسبب استعمال هذه الصيغة من التخاطب في هاتين السورتين، اعتبر بعض المستشرقين الأوربيين أن بعض آياتهما قد نزلت في الفترة المكية. غير أن القول إن وجود عبارة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في بعض آياتها يقتضي بالضرورة أن تكون مكية، رغم كل الأدلة على خلاف ذلك، إنما هو مناف تماماً للعقل.

والحقيقة التي لا مراء فيها هي أنه خلال وجود الرسول ﷺ في مكة، لم ينزل من أوامر الشريعة سوى النزر اليسير، وكان أهل مكة هم المخاطب الرئيس الذي توجه إليه التنزيل، وعلى هذا كان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هو الصيغة العامة في توجيه الخطاب. ولكن بعد مجيء الرسول ﷺ إلى المدينة، صار المسلمون ملتحمون سوياً في جماعة المؤمنين، ولذلك فقد تغيرت صيغة الخطاب في المدينة من ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إلى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكان هذا أمراً طبيعياً، غير أن الوحي لم يتجاهل غير المؤمنين، ففي المدينة أيضاً كان هؤلاء يسألون الرسول ﷺ عن كثير من الأشياء، وقد سجّل القرآن المجيد الإجابة عليها. ولذلك، كلما نزلت إجابة على بعض التساؤلات وكان الخطاب فيها موجّهاً للمؤمنين وغير المؤمنين، وردت عبارة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. أما إذا كانت الإجابة خاصة بالمؤمنين فقط، كانت صيغة الخطاب هي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وعلى هذا، لم يكن هناك من سبب يدعو إلى التخلي مطلقاً عن صيغة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. لذا فإن تخصيص مكة وحدها لتكون مكان النزول لسورة معينة لمجرد أنها تحتوي على هذه الصيغة من التخاطب، أمر بعيد عن الصواب.

كذلك فإن استنتاج «نولدكه» بأن بعض آيات هذه السورة لا بد أن تكون من العهد المكي لمجرد أنها احتوت ذكر اليهود بأسلوب ودّي، لا يقوم على أساس سليم. فقد انتهج

القرآن المجيد نهجاً مناسباً في الآيات التي تتعلق باليهود، سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في العهد المكي أو المدني. فمثلاً، ورد في سورة البقرة قول اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ١١٤). ومن الواضح أن القرآن المجيد كان على جانب الحياد مع كل من اليهود والنصارى في هذه الآية. وعلى هذا فلا وزن ولا قيمة للرأي الذي يدعي بأن آية معينة لا بد أن تكون قد نزلت في العهد المكي لمجرد أنها تذكر اليهود بأسلوب ودّي.

موضوع السورة:

يشكل الدين المسيحي الموضوع الرئيس لهذه السورة، كما كان الحال في سورة آل عمران، غير أنه قد أُفردت في هذه السورة مساحة أكبر للمقارنة بين تعاليم الديانتين المسيحية والإسلام، مع الإشارة بوجه خاص إلى تقدم وسيطرة المسيحية في آخر الزمان. ولما كان من المقدّر أن يعلو صوت المسيحية في آخر الزمان بزعم تفوقها على الإسلام على أساس التعاليم الخاصة بالنساء، لذلك تناولت هذه السورة شؤون النساء بشكلٍ واسع. وإن النظرة لهذه التعاليم، حتى ولو كانت عابرة، تبين بكل جلاء أنه حتى فيما يختص بالنساء، فإن التعاليم الإسلامية أسمى وأرفع بكثير من التعاليم المسيحية. ولما كان موضوع اليتامى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمرأة أيضاً، فقد وردت معالجته في هذه السورة أيضاً. وقد كانت التعاليم التي جاءت في هذه السورة من أول ما نزل من الوحي للحفاظ على حقوق النساء، فلم يترسخ فقط حق النساء في أن يكون لهن نصيب في الميراث كما للرجال نصيب، وإنما أعلن القرآن المجيد أنهن صاحبات الأمر والنهي في أموالهن وممتلكاتهن.

الموضوع الرئيس الثاني الذي عالجته هذه السورة هو موضوع النفاق. فلما كان من المقدّر للمسيحية أن تنتشر وتهيمن على العالم، ويضطر الكثير من المسلمين إلى العيش في ظل الحكومات المسيحية، ونتيجة لانخراط الكثير منهم في خدمة الحكام المسيحيين، وخوفهم من الانتقادات المسيحية الموجهة للإسلام، فإنهم سوف ينتهجون منهجاً يتسم بالنفاق نحو دينهم الذي يدينون به. فلذلك عالجت السورة موضوع النفاق

بالذات إلى جانب موضوع النساء، كما تم إلقاء الضوء على المستوى المتدني الذي يمكن أن ينزلق إليه المنافق من الناحية الروحية والدينية. وقد جاءت الإشارة أيضاً إلى النصر المقدر للإسلام في نهاية المطاف، حينما يحقق الحزبي والعار بأولئك الجبناء والمنافقين من المسلمين الذين كانوا يخشون الناس أكثر من خشيتهم الله تعالى.

وعند نهاية السورة يأتي ذكر حادثة محاولة صلب المسيح ﷺ، ويشار إلى أن ظهور المسيحية وتفوقها يعود إلى الاعتقاد بأن المسيح لم يمت وأنه حي في السماء. وتبين السورة أن هذه العقيدة لا أساس لها من الصحة. وحيث إنه قد ثبت أنه لم يمت على الصليب، وإنما مات ميتة طبيعية، فإن موضوع قيامته من الأموات لم يعد مطروحاً أساساً. وفي الآيات الأخيرة من هذه السورة، يتقرر أن هذه العقيدة الخاطئة سوف تنمحى وتزول، وأن عقيدة وحدانية الله تعالى سوف تعلو وتسود في العالم أجمع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

التفسير:

راجع تفسير البسملة في سورة الفاتحة.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

رَقِيبًا: من رقب، يُقال رقبه: أي لاحظته أو حرسه أو انتظره أو صانه. الرقيب: من أسماء الله الحسنی ويعني: المراقب؛ القائم على كل نفس؛ الحافظ الذي لا يخفى عليه شيء. وتأتي «رقيب» أيضاً بمعنى: المراقب أو العين (الجاسوس) (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يمكن أن يعني: (١) آدم؛ (٢) الرجل والمرأة معاً، فحينما يجتمع شيان يؤديان غرضاً واحداً يمكن اعتبارهما شيئاً واحداً. فمثلاً، الآية ٦٢ من سورة البقرة تذكر طعاماً واحداً، بينما في الحقيقة يتكون ذلك الطعام من المرق والسلي؛ أو (٣) الرجل والمرأة، كل منهما على حدة، إذ يمكن القول إن البشر قد خلقوا من نفس واحدة بمعنى أن كل فرد قد خلق من نطفة رجل، وهو يعتبر نفساً واحدة، كما أنه وُلد من امرأة، التي تعتبر أيضاً نفساً واحدة.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أن المرأة قد خلقت من جسم الرجل، وإنما يعني أن المرأة تنتمي إلى نفس الجنس البشري، تماماً كالرجل، حيث إنها تتمتع بنفس الطبيعة البشرية ولها نفس المقومات الإنسانية. ويتضح هذا التعبير بقراءة الآية ٧٣ من سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، والآية ١٢ من سورة الشورى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾. وهذا يعني أن الله تعالى جعل لآدم عليه السلام زوجة من نفس جنسه البشري. وكما أن الزوجات الأخريات لم يُخلقن من أضلاع أزواجهن، فكذلك لم تُخلق زوجة آدم عليه السلام من ضلعه. وكما أن زوجاتنا قد خلقتن من أنفسنا، بمعنى أنهن من نفس النوع البشري الذي ننتمي إليه، كذلك فإن زوجة آدم عليه السلام قد خلقت من ضلعه بمعنى أنها تنتمي إلى نفس الجنس البشري الذي ينتمي آدم إليه. إن حرف «من» الذي أساء البعض فهم مقصوده، قد استعمل في القرآن المجيد في حق الكثير من الرجال وليس عن آدم عليه السلام وحده، فمثلاً: ﴿وَأُولَى

الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٦٠)؛ ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ (التوبة: ١٢٨)؛ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ (يونس: ٣)؛ ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ... وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ (الجمعة: ٣ و٤) وهو يعني الشيء ذاته في جميع الأحوال، أي من نفس النوع أو نفس الجنس. إن القرآن المجيد لا يؤيد بتاتا الرأي الذي يزعم أن حواء قد خلقت من ضلع آدم ﷺ، إذ يقول تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النبا: ٩)، ويقول أيضاً: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الذاريات: ٥٠). فكما أن الله تعالى خلق زوجاً لكل شيء حي، كذلك فقد خلق زوجاً لآدم ﷺ، إذ لم يكن الله تعالى ليحيد عن سُنَّته هذه ويستثني آدم ﷺ منها ليخلق زوجاً له من جسمه.

ويبدو أن فكرة خلق حواء من ضلع آدم ﷺ قد نشأت بسبب حديث للرسول ﷺ جاء فيه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرَتْهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» (البخاري، كتاب النكاح). ويُعتبر هذا الحديث دليلاً ضد هذه الفكرة بدلاً من أن يكون مؤيداً لها، لأنه لا يذكر اسم حواء قط، وإنما يشمل النساء جميعاً، ومن الجلي أن النساء جميعاً لم يخلقن من أضلاع الرجال.

ومن الواضح أن التعبير «خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ» مجازي، فينبغي ألا يؤخذ بحرفيته. والمقصود منه هو أن طبيعة المرأة مثل الضلع الذي به بعض الاعوجاج، مما يضيف إلى حسناتها وجمالها. وهناك تعبير مشابه في القرآن المجيد حيث يقول تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٨)، والمقصود من «العجل» في الآية الكريمة هو التعجل. ومن الواضح أن هذه الكلمات لا تعني أن الإنسان قد خُلِقَ من مادة العجل أو التعجل، وإنما تعني فقط أن الإنسان عجول بطبيعته. وقد أيد «مجمع البحار» هذا الرأي، كما أيده أيضاً «البحر المحيط» و«السراج الوهاج»، حيث اتفق الجميع على أن كلمة «ضلع» في الحديث المشار إليه سابقاً تعني اعوجاجاً معيّناً في طبيعتها، وأن الكلمة نفسها تفيد الاعوجاج.

وفي الحقيقة، يشير الحديث الشريف إلى صفة معينة خاصة بالمرأة، أي دلالتها وتمنعها وتصنعها الغضب، وقد وُصف هذا الاعوجاج في الحديث الشريف باعتباره أكبر خصالها أو أفضل صفاتها. وأولئك الذين يأخذون تصنع الغضب لديها على محمل الجد ويعتبرونه غضباً حقيقياً ثم يسيئون معاملتها بسبب ذلك، فإنهم في الحقيقة يفسدون أجمل خصال المرأة.

ومن الملاحظ أن الآية الكريمة تضع «تقوى الله» جنباً إلى جنب مع «الأرحام»، وبذلك تؤكد على أهمية المعاملة الطيبة للأقارب، ومراعاة صلة الرحم التي أكد القرآن المجيد على أهميتها، وكان من عادة الرسول ﷺ أن يتلو هذه الآية في خطبة النكاح، كي يُذكر طرفي الزواج بواجبات كل منهما تجاه الطرف الآخر.

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ
بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

حُوبًا: من حاب بمعنى: اكتسب الإثم أو فعل شيئاً غير شرعي. حوب تعني: (١) الإثم الكبير أو الذنب أو الجريمة؛ (٢) الأذى أو الظلم؛ (٣) الهلاك أو البلاء أو الضياع؛ (٤) المرض؛ (٥) المحنة أو الورطة أو الوجع (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

بعد ذكر نعمتين من نعم الله تعالى في الآية السابقة، وهما أنه سبحانه قد بثّ رجالاً كثيراً ونساءً من نفس واحدة، وأنه ﷻ قد حفظهم من الانقراض والهلاك بأن أتاح لهم عقد عُرى الزواج، ينتقل القرآن المجيد للتأكيد على أهمية حماية الذرية والحفاظ على حقوق اليتامى. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ يعني أنكم

إن لم تعطوا اليتامى حقوقهم وممتلكاتهم، فإنكم ستفقدون نتيجة لذلك ممتلكاتكم، وتعاونون الأمرين على المدى الطويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ يحتوي تحذيراً للمشرفين على تربية اليتامى ألا يخلطوا ميراث اليتامى مع ثروتهم الخاصة بنية سوء الاستغلال. كذلك يومئ قوله تعالى هذا إلى أنه ينبغي للوصي على اليتيم ألا يأخذ شيئاً من مال اليتيم جزاء الإشراف على تربيته، إذا كان يملك ما لا يغنيه عن مال اليتيم.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

طَابَ: طاب الشيء: لَدَّ وزكا وَحَسُنَ وحلا وَجَلَّ وجاد. وطابت به نفسي: انبسطت وانشرحت. طاب العيش لفلان: فارقت المكاره. وطاب عن الشيء نفساً: تركه (أقرب الموارد ومعجم لين).

مَثْنَى: من ثنى. ثنَّاه: أي جعله اثنين؛ طواه؛ رد بعضه على بعض. وثْنَى: تفيد تكرار الشيء؛ إعادة عمل شيء مرة بعد أخرى؛ الشيء الذي حدث مرتين. ومَثْنَى: أي اثنين اثنين.. بمعنى اثنان واثنان أو اثنان واثنان معاً أو اثنان في مرة واثنان في مرة أخرى. وبالمثل؛ فإن ثَلَاث: تعني ثلاث وثلاث أو ثلاث وثلاث معاً أو ثلاث في مرة وثلاث في أخرى. وكذلك نفس الشيء بالنسبة لكلمة: رُبَاع (معجم لين وأقرب الموارد). لذا فإن التعبير: «مثنى وثلاث ورباع» في الآية الكريمة يعني اثنين في وقت واحد أو ثلاث في وقت واحد أو أربع في وقت واحد.

تَعُولُوا: مشتق من عال بمعنى: (١) كثر عياله؛ (٢) كفى عائلته معاشهم؛ (٣) افتقر؛ (٤) جار ومال عن الحق.

التفسير:

تعود أهمية هذه الآية إلى أنها تبيح تعدد الزوجات في بعض الظروف الخاصة. فالإسلام يسمح للرجل، بدون أي إلزام له، أن يتزوج بأكثر من زوجة بحد أقصى أربع زوجات في وقت واحد. ولما كان الإذن بالتعدد قد جاء في ظل موضوع اليتامى، فينبغي أن يؤخذ على أن هدفه في المقام الأول هو الاهتمام بهذه الفئة من المجتمع، التي يمكن أن ينالها الإهمال وعدم الاهتمام. وهناك بعض الحالات التي يمكن بها الحفاظ على حقوق اليتامى والعناية بهم عندما يتم الزواج من بعض هؤلاء اليتامى أو من بعض النساء الأخريات، حسب ما تقتضي به الظروف أو تتطلبه المناسبات. ويمكن أن يحدث هذا في إحدى الحالات التالية:

(١) قد يقتضي الأمر من شخص ما أن يكون وصياً على بعض اليتامى ومن بينهم بعض الفتيات، بينما يكون هو نفسه أعزب ويخشى على نفسه أن يقع تحت تأثير الفتنة. وفي هذه الحالة يكون مسموحاً له أن يتزوج واحدة أو أكثر من هؤلاء الفتيات حسب ما يكون الحال، وبذلك يصون نفسه من الوقوع في الرذيلة، أو خيانة الأمانة وسوء التصرف تجاه الفتيات اللاتي يشرف عليهن.

(٢) أن يكون متزوجاً، ولكن زوجته لا تحسن معاملته اليتامى. وفي هذه الحالة يكون مسموحاً له أن يتزوج من إحدى هؤلاء اليتامى، حتى يكون لهن دار خاصة بهن، ومكان طيب مناسب لهن يعشن فيه.

(٣) قد يحدث أحياناً أن يكون الرجل مسؤولاً عن بعض أقاربه الصغار، مثل بعض إخوته أو أخواته، بينما لا يستطيع هو ولا زوجته أن يقوموا على رعاية هؤلاء الصغار حق الرعاية. وفي هذه الحالة يكون له أن يتزوج من امرأة ناضجة العمر أو كبيرة السن، يمكن أن تعامل هؤلاء الصغار كأبنائها. وقد سجل التاريخ حالة

مشابهة لهذه الظروف عندما تزوج جابر بن عبد الله ﷺ، وهو أحد صحابة الرسول ﷺ وكان حديث السن، من أرملة كبيرة السن. فلما سأله الرسول ﷺ عن سبب عدم زواجه من فتاة حديثه السن مثله، أجاب جابر ﷺ بأنه فعل هذا حتى تعتني زوجته بإخوته وأخواته الصغار الذين أصابهم اليتيم بعد وفاة أبيه. وقد سّر الرسول ﷺ بعمل جابر ودعا له (البخاري، كتاب البيوع).

(٤) إذا خشي الرجل ألا يُحسن معاملة اليتامى الغرباء عنه، فله أن يتزوج فتاة من بينهم حتى يقيم رابطة من القربى بينه وبين أولئك اليتامى.

(٥) إذا وجد المرء نفسه مسؤولاً عن عدد كبير من اليتامى، وأحس أنه لا يستطيع أن يقوم بواجب العدل تجاههم بغير أن يتزوج بأكثر من زوجة لتعينه على العناية بهم، فله أن يفعل ذلك، بشرط ألا يتجاوز الحد الأقصى وهو أربع زوجات.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ يعني أن الرقم الأخير هو الحد الأقصى لعدد الزوجات المسموح به.

وقد رُوي أنه بعد نزول هذه الآية، أمر الرسول ﷺ أصحابه الذين كانوا قد جمعوا أكثر من أربع زوجات أن يبقوا على أربع فقط، وأن يطلقوا الباقيات، وذلك حتى لا يزيد عدد الزوجات عن الحد الأقصى المسموح به (الترمذي، كتاب النكاح).

ولعله من المفيد هنا أن نذكر كلمة عامة عن موضوع تعدد الزوجات. فرغم أن الآية تذكر موضوع التعدد مع ذكر موضوع اليتامى، إلا أن هناك من الظروف ما يجعل من التعدد علاجاً لكثير من الحالات التي تؤدي إلى الفساد الأخلاقي والاجتماعي.

فإذا أخذنا في الاعتبار أغراض الزواج وحدها، يتبين أن القرآن الكريم ليس محققاً فقط في السماح بالتعدد، بل إن التعدد يكون أحياناً مبرراً وضرورياً. لا بل يكون في بعض الأحيان من الضرر الشديد بمصلحة الأفراد والمجتمع ألا يُستفاد من الإذن بالتعدد. إن أغراض الزواج في القرآن الكريم أربعة وهي:

(١) حفظ النفس من الأمراض الجسمانية والأخلاقية والروحية؛

(٢) سكون النفس ووجود الرفيق المحب؛

(٣) حماية الأطفال؛

(٤) توسيع دائرة صلوات الإنسان.

ويقول القرآن المجيد عن الغرض الأول للزواج: ﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ (أي الحالات التي جاء ذكرها في الآيات السابقة) أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ (أي تُحْصِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَطَرِ تَأْثِيرِ الْغَرِيزَةِ الْجِنْسِيَّةِ) غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (أي بغير الانغماس في إشباع الشهوات) (النساء: ٢٥). وكلمة ﴿مُحْصِنِينَ﴾ التي جاءت في الآية المذكورة مشتقة من كلمة «إحصان» التي تعني طلب الحماية من هجمات الأعداء بالدخول إلى الحصن. وعلى هذا، فالإسلام يعتبر الزواج نوعاً من الحصن الذي يتحصن فيه المرء، أو وسيلة للحماية من الأمراض الأخلاقية والروحية. ويضيف القرآن المجيد أيضاً فيما يختص بهذا الغرض من الزواج قوله تعالى: ﴿هُنَّ (أي زوجاتكم) لِبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ٨٨). ولباس المرء يؤدي أغراضاً ثلاثة:

(١) يحميه من تقلبات الجو؛

(٢) يُستخدم وسيلة للزينة والوقار؛

(٣) يغطي سوءات الإنسان ويخفي ما يمكن أن يكون في جسمه من عيوب.

ويقول القرآن المجيد عن الغرض الثاني للزواج: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢٢). بينما يقول عن الغرض الثالث للزواج: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤).

ويستطيع كل إنسان أن يرى بسهولة الآن أن أحد أو بعض أغراض الزواج هذه قد لا يتحقق أحياناً مع زوجة واحدة فقط، وهي مرة أخرى: (١) صيانة النفس من

الأمراض الجسدية والأخلاقية والروحية؛ (٢) تحقيق النسل والحفاظ على استمرار وجود الجنس البشري؛ (٣) وجود الرفيق المحب في رحلة الحياة الطويلة؛ (٤) توسيع دائرة الروابط والصلات العائلية.

فمن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن القوة الجنسية لدى بعض الرجال تكون أقوى وأشد من أن تلبيها زوجة واحدة فقط. فهذه ضرورة جسدية موجودة في الرجل، والتهوين من شأنها وخطرها يعتبر لعباً بالنار، حيث إنها من أشد الغرائز الجسمانية تأثيراً على النفس. والمجال الوحيد المعقول والمناسب أمام الرجل الذي أوتي قوة جنسية عالية بشكل غير عادي أن يتزوج من امرأة أخرى، إذا لم تستطع الزوجة الواحدة أن تلبي حاجته. وقد تكون مثل هذه الحالات قليلة الوجود، ولكن لا يمكن إغفال وجودها أو إنكارها بالمرّة. والشرعية الكاملة، كما هو الحال في الإسلام، يجب أن تلبي المتطلبات المادية والروحية لجميع أنواع البشر. كذلك إذا حدث أن أصاب الزوجة مرض يمكن أن ينتقل إلى زوجها أو يعطل قدرتها على المعاشرة الزوجية تعطيلًا دائمًا، فحينئذ ينهار أحد أهداف الزواج، إن لم يتمكن مثل هذا الزوج من الزواج من امرأة أخرى. ولن يكون أمام هذا الرجل سوى أحد خيارين، إما أن يتخذ زوجة أخرى بطريق شرعي، وإما أن يقع في الإثم وحياة الرذيلة إن لم ينجح في مقاومة متطلبات جسده. كذلك فإن الزوجة المريضة لا تستطيع أن تكون رفيقاً في الحياة، لأنها مهما كانت ومهما كان ما تستحقه من إعزاز وشفقة، فإن صحبتها لا تخلق في نفس زوجها السكينة المنشودة. وفي الحالة الثالثة، إذا كانت الزوجة عاقراً، وكانت لدى الزوج رغبة قوية في أن يكون له ذرية تخلفه وتحيي ذكراه، فإن هذه الرغبة سوف تظل دون تحقيق، إن لم يكن مسموح له بتعدد الزواج.

ومن أجل تحقيق جميع هذه المطالب، سمح الإسلام بتعدد الزوجات. وإذا حدث في أي من هذه الحالات أن طلق الرجل زوجته الأولى، فسوف يكون هذا العمل سبباً لوصله بالخزي والعار. فمثلاً في حالة الزوجة المريضة، لا يعني تصرفه هذا سوى أنه عاش مع تلك الزوجة طالما كانت سليمة، ولكنه تخلى عنها وهجرها وهي

في أشد الأوقات حاجة إلى عنايته وحمايته. إن التصرف الشريف في هذه الحالة هو أن يستمر في عنايته بزوجته المريضة وكفالتها والسهر على مطالبتها وسد حوائجها بكل حنان وشفقة، ثم يتزوج من امرأة أخرى يمكن أن تؤدي مطالب الحياة التي من المفروض أن تقوم بها الزوجة.

من هذا يتبين أن أهداف التعدد، هي إلى حد ما، نفس أهداف الزواج الواحد. فإذا حدث أن استحال تحقيق أحد أو جميع أغراض الزواج من زوجة واحدة، يكون تعدد الزواج ضرورة ومسموحاً به.

وأحياناً تكون هناك أيضاً بعض الأسباب التي تضطر المرء إلى اتخاذ زوجة أخرى أو أكثر، بالإضافة إلى الزوجة التي يحبها بإعزاز وتحقق له جميع أغراض الزواج وأهدافه. وتتلخص هذه الأسباب فيما يلي: (أ) من أجل حماية اليتامى ورعايتهم؛ (ب) لتوفير الأزواج للأرامل اللاتي لا يزلن في سن الزواج؛ (ج) من أجل العمل على زيادة النسل في بعض العائلات والمجتمعات.

ومن الواضح الجلي في الآية التي نحن بصددھا أن السماح بالزواج بأكثر من واحدة، قد جاء على وجه الخصوص من أجل حماية اليتامى الذين تركوا بغير عائل، إذ تقول الآية بجلاء: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى (الذين هم في حمايتكم وتحت مسؤوليتكم) فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا (بين زوجاتكم) فَوَاحِدَةً﴾. وتومئ الآية إلى أنه من الأوفق أن يتزوج المرء من اليتامى المسؤول عنهم، وبذلك يرتبط بهم ارتباطاً مباشراً، فيهتم بأمرهم ويسهر على راحتهم أكثر مما إذا كان يرعاهم عن بُعد.

ويقول القرآن الحكيم أيضاً: ﴿وَأَنْكِحُوا الْيَتَامَى مِنْكُمْ﴾ (النور: ٣٣) أي تزوجوا الأرامل منكم، فإن توفير الأزواج للأرامل من النساء هو غرض آخر من الأغراض التي يحققها مبدأ التعدد. لقد كان المسلمون في قتال مستمر زمن الرسول ﷺ، وقد سقط الكثيرون منهم في ساحة الوغى تاركين خلفهم العديد من الأرامل واليتامى دون

أن يكون لهم عائل من ذويهم، وقد اقتضت زيادة عدد النساء عن عدد الرجال، مع وجود أعداد كبيرة من اليتامى بلا عائل يرعاهم، وهي نتيجة حتمية للحرب، التشجيع على تعدد الزوجات من أجل حماية المجتمع المسلم من التدهور الخلقي. والحرب العالمية الأخيرة أيدت أيضاً فائدة هذا المبدأ الذي أقره الإسلام، فقد تركت أعداداً غفيرة من النساء صغيرات السن أرامل بلا أزواج. ولا شك أن الزيادة في عدد النساء عن عدد الرجال في الغرب، نتيجة لتلك الحرب، هي المسؤولة عن التسيب الخلقي الذي يأكل أوصال المجتمع الغربي. غير أنه لا بد من تلبية نداء الشهوات الجسدية وإطفاء نيران الغريزة، فكانت النتيجة هي الانحلال والانحطاط. وبسبب الانحلال الخلقي في الكثير من البلدان التي تصر بشدة على إغفال الحكمة وراء مبدأ التعدد في الإسلام، فقد استشرى في الغرب الكثير من الفساد الخلقي والاجتماعي نتيجة لزيادة عدد الإناث على الذكور الذي لا علاج له سوى التعدد.

ومن أهداف مبدأ تعدد الزوجات أيضاً تلبية حاجة الأمة بعد انتهاء حالة الحرب إذ يحصل بالإضافة إلى مظاهر أخرى من التدهور انخفاض في أعداد الرجال إلى الحد الذي يهدد الأمة كلها بالزوال. كذلك فإن الانخفاض الحاد في عدد المواليد، الذي ينتج عن الانحلال الخلقي، والذي تعاني منه الكثير من المجتمعات الغربية معاناة شديدة، يمكن معالجته أيضاً من خلال مبدأ تعدد الزوجات. إن الغرب لن يتخلص مطلقاً من الأمراض الخلقية والاجتماعية الفظيعة التي يعاني منها، بالإضافة إلى الانخفاض الكبير في المواليد الذي يهدد بعض البلاد، ما لم يُنحَّ جانباً بعض المفاهيم الزائفة والعواطف المزيفة ويخضع لمبدأ تعدد الزوجات. إنها تضحية يضطر إليها الرجال والنساء على السواء، تضحية تقتضي التخلي عن بعض المشاعر العابرة من أجل المصلحة العامة للمجتمع، والفائدة المستمرة للبلد بأكمله.

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ
عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيًّا ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

صَدُقَات: جمع «صَدَقَة» - بضم الدال وليس كما يُظَن خطأ أنها جمع «صَدَقَة» بالفتح - وهي مشتقة من صدق. صدق في الحديث: ضد كذب بمعنى: قال الحق. صدق في القتال: تصلَّب فيه واشتدَّ ووفَّاه حقه. صدق في الوعد: أنفذه. صدقه النصيحة والإحاء: أي أخلصهما له. (انظر أيضًا سورة البقرة الآية ٣٢).

إن كلمة (صَدَقَة) والتي جمعها (صَدَقَات) تعني كل ما يقدمه الإنسان بهدف نيل ثواب الله تعالى والفوز برضاه. أما «الزكاة»: فهي الضريبة التي فرضها الإسلام من أجل مساعدة الفقراء وغيرها من الخدمات. أما كلمة (صَدَقَة) والتي جمعها (صَدَقَات) فإنها تعني مهر المرأة الذي يقدم لها عند الزواج (معجم لين وأقرب الموارد). وهناك كلمة أخرى تفيد نفس المعنى وهي كلمة صَدَاق (أو مهر) والذي فرضه الإسلام عند كل عقد زواج ويُزَم الرجل بتقديمه لزوجته؛ وسُمي بهذا الاسم - صداق - لأنه يرمز إلى الصدق والإخلاص من جانب الزوج.

نِحْلَة: من نَحَلَ. «مَهَرُ الْمَرْأَةِ»: أي أعطى زوجته مهرها. و«نَحَلَ فَلَانًا» أي: أعطاه شيئاً من غير عوض بطيب نفس. نِحْلَة: إعطاء المرأة مهرها؛ العطاء بغير عوض؛ العطية على سبيل التبرع. والنِحْلَة أخص من الهبة؛ إذ كل هبة نِحْلَة وليس كل نِحْلَة هبة (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

يمكن أن تؤخذ الآية على أنها مُوجَّهة إلى الزوج، وإلى أقارب الزوجة أيضًا. وفي الحالة الثانية تعني أن على أقارب الزوجة ألا ينفقوا مهرها الذي تسلموه من الزوج على

شؤونهم الخاصة، وإنما عليهم تقديمه إليها بأمانة. إذ يحدث أن يتسلم بعض أقارب الزوجة المسؤولين عنها المهر من الزوج، وبدلاً من إعطائه لها، يبقونه لأنفسهم. غير أن الآية بشكل عام تحاطب الزوج الذي عليه أن يدفع لزوجته عن طيب خاطر المهر المتفق عليه دون أي تردد أو مماطلة. ويحدث أحياناً أن يحدد بعض الأزواج مهراً معيناً لزوجاتهم، ثم يماطلون بعد ذلك في دفعه، بل ويرفضون الدفع، وهم يتوقعون أن تتنازل الزوجات عن حقهن في المهر، وأحياناً يدفعونهنّ دفعاً إلى هذا التنازل. وتدين الآية الكريمة هذا التصرف الفاسد والمشين.

إن كلمة ﴿نَحْلَةً﴾ التي تعني دفع قيمة المهر أو الصداق عن طيب خاطر، تشير أيضاً إلى أن قيمة هذا الصداق ينبغي أن تكون معقولة ومناسبة، أي يجب أن تكون في نطاق قدرة الزوج، حتى لا يكون دفعها عبئاً يثقل كاهله. إذ يجب أن يكون الزوج قادراً على دفع صداقه بصدر رحب وسعة وطيب خاطر.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ فينطبق على أولئك الزوجات اللاتي يتنازلن عن جزء من مهرهن المتفق عليه، أو يُعدنه إلى أزواجهن عن طيب خاطر دون ضغط أو إكراه، ولا ينطبق على الحالات التي يُطلب فيها من الزوجة أن تتنازل عن جزء من حقها أو عن حقها كله في الصداق قبل أن يدفعه لها الزوج. وفي رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يمكن للمرأة أن تطالب بحقها في المهر حتى بعد أن تكون قد تنازلت عنه أو عن جزء منه، إذا كانت قد فعلت هذا تحت أي ضغط أو إكراه.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿فَكُلُّوهْ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ تقديرًا لأولئك الأزواج الذين يحسنون إلى زوجاتهم ويعاملونهن معاملة طيبة، مما يدفع بهؤلاء الزوجات إلى التنازل بكل رضا النفس وطيب خاطر عن مهرهن، أو عن جزء منه، تقديرًا لأزواجهن وتعبيراً لحبهن وامتنانهن لهم.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

قِيَامًا: مشتقة من قام أي وقف. قام بالأمر: تولاه. قام عليه: راقبه. قام باليتيم: تكفل به (معجم لين). لذا فكلمة «قيام» تعني: فعل أو حالة الوقوف؛ قوام المعيشة أو الإعالة.

التفسير:

تتحدث الآية الكريمة عن أموال اليتامى بكونها ﴿أَمْوَالَكُم﴾، فتشير بذلك إلى ضرورة حرص الأوصياء على اليتامى على حسن إنفاق أموال اليتامى، حتى إن عليهم اعتبارها كأموالهم الخاصة. كذلك يمكن أن يعني قوله تعالى ﴿أَمْوَالَكُم﴾ «أموال اليتامى التي في عهدتكم». ويمكن أيضاً أن تكون الكلمة عامة في مضمونها، فتشمل جميع الأموال، سواء كانت تخص اليتامى أو تخص من يكون وصياً عليهم.

ولما كانت الآيات السابقة قد أكدت أهمية العناية باليتامى والسهر على تلبية مطالبهم، فقد يُحتمل أن يقوم بعض المسلمين بإعطاء اليتامى ما يشاؤون من أموالهم عندما يطلبونها. وتحذر الآية الحالية الأوصياء على اليتامى من هذا التصرف المتسرع. فبالنظر إلى صغر سن اليتامى وعدم تمرسهم بخبرة الحياة، قد يهدرون أموالهم، وقد تكون تلك الأموال سبباً في فساد أخلاقهم. لذلك ينبغي على المسلمين أن يعتنوا بتلبية المطالب الضرورية لليتامى، وألا يبددوا أموالهم التي يمكن أن تكفل لهم سبل الحياة الكريمة. وينطبق نفس هذا التوجيه على الأطفال أو على من يعانون من عدم النضج العقلي، حيث إن السبب واحد في الحالتين.

إن كلمة ﴿السُّفَهَاء﴾ لا تعني فقط غير الناضجين عقلياً، وإنما تعني أيضاً أولئك الذين لا يستطيعون الاعتناء بشؤون أموالهم. وقد جاء استعمالها في هذه الآية بدلاً من كلمة «اليتامى» لتبين السبب في هذا التوجيه، وهي كلمة عامة، حيث إنها تشمل جميع أولئك الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف عند إنفاق أموالهم.

وبالنسبة للمختلّين عقلياً الذين كبروا في السن ولم يعودوا أطفالاً، فالآية تتوجّه إلى الدولة التي يجب أن تتخذ الإجراءات المناسبة من أجل تكوين المجالس المختصة لتتولى أمر العناية بهم والإشراف على أموالهم وممتلكاتهم التي لا يستطيعون تدير أمورهم بأنفسهم.

وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
 آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
 تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَنْ
 كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا
 فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
 فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٧﴾

التفسير:

توجه الآية الأوصياء على اليتامى أن يستمروا في اختبارهم وامتحان قدراتهم على حسن التصرف، حتى إذا ما وصلوا إلى سن النضج والبلوغ، الذي يُعتبر لدى البعض ١٨ عاماً، ولدى البعض الآخر ٢١ عاماً، وتبين أنهم قادرون على تولي أمور أموالهم بأنفسهم، فينبغي حينذاك أن تُدفع إليهم أموالهم. ولكن، مهما كانت الظروف، يجب ألا تُدفع أموال اليتيم إليه قبل سن البلوغ، أو قبل أن يصل إلى النضج العقلي الذي

يُمكنه من حسن التصرف والعناية بأمواله. وحتى إذا بلغ سن النضج والبلوغ، سواء كان ١٨ عاماً أو ٢١ عاماً، وتبين أنه غير قادر على حسن التصرف والعناية بشؤون أمواله، فينبغي الاستمرار في الاحتفاظ بهذه الأموال لفترة أخرى بموافقة الدولة.

وتحذر الآية أيضاً الأوصياء على اليتامى ألا يبددوا أموال اليتامى التي في عهدهم قبل أن يبلغ هؤلاء سن النضج الذي يؤهلهم لإدارة أموالهم. ويمكن للوصي إذا كان فقيراً أن ينفق جزءاً معقولاً من أموال اليتامى جزاء عنايته وإدارته لأموال تلك الأموال التي في عهده، على أن يتناسب ذلك الجزء مع قدر العمل الذي يقوم به، ومع قيمة الممتلكات والأموال التي في عهده.

ولكن إذا كان الكفيل موسراً، فينبغي ألا يأخذ شيئاً من أموال اليتيم. إذ عليه في هذه الحال أن يعتبر ما يقوم به من عمل إنما يقوم به من أجل نوال رضا الله تعالى، فلا يبتغي على ما يقوم به من أجر إلا من الله ﷻ. وليست هذه الآية تكراراً للأمر الذي جاء في الآية الثالثة من هذه السورة، وإنما هي شرح لذلك الأمر الذي ينهى الشخص الموسر من أن يأخذ شيئاً من مال اليتيم الذي يكفله نظير الإشراف عليه وعلى أمواله. وبالإضافة لذلك، فإن هذه الآية تؤكد السماح للوصي الفقير أن يأخذ شيئاً من مال اليتيم الذي يكفله نظير عمله ومجهوده.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ لإزالة جميع أسباب الخداع والاحتيال وسوء الفهم. إذ ينبغي أن تُدفع الأموال إلى اليتامى في وجود الشهود الذين يشهدون عملية تسليم الأموال، كما ينبغي أيضاً وجود اليتامى أنفسهم في عملية التسليم هذه، كما يشير إلى ذلك منطوق الآية.

وتنتهي الآية بتحذير صارم يعبر عنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، فعلى الجميع أن يخشوا محاسبة العليم البصير. وفي الواقع، إن الخوف من الحساب أمام الله تعالى هو الأساس الصحيح للبر والتقوى، كما أنه المانع الحقيقي والفعال من ارتكاب الظلم

والخيانة. وينبغي على الإنسان ألا يخشى عقاب الله تعالى فحسب، بل عليه أيضاً أن يخشى فقدان رضاه ومحبته ورحمته.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٨﴾

التفسير:

تقدم هذه الآية الكريمة الأساس الذي تقوم عليه قوانين الميراث في الإسلام دون الدخول في التفاصيل، وسوف تأتي هذه التفاصيل فيما بعد في الآيات التالية. وتضع الآية المبدأ العام لتأكيد المساواة بين الرجال والنساء في الحقوق الاجتماعية، حيث يحق لكل منهم نصيباً مناسباً في الميراث.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
مَعْرُوفًا ﴿٩﴾

التفسير:

بدأت السورة بحث الرجال والنساء على معاملة بعضهم بعضاً بالخير والحسنى، ثم راحت تحت المؤمنين على العناية بأمور اليتامى، حيث إن لهذه الأمور تأثيراً هاماً على النظام الاجتماعي الذي يعيش الناس في ظله. وتعالج الآية الحالية أمراً آخر من أمور المجتمع المهمة.

يشير قوله تعالى: ﴿أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ إلى اليتامى والفقراء والأقارب من ذوي الصلات البعيدة الذين ليسوا ضمن الورثة الشرعيين للمتوفى، وبالتالي فليس لهم الحق في نصيب من تركته. ورغم أن الآية لا تعطي أولئك حقاً شرعياً في التركة، إلا أنها تحث المسلمين المخلصين على أن يخصصوا، عندما يقومون بإعداد وصيتهم بتقسيم تركتهم، جزءاً منها ليكون نصيباً لأولئك اليتامى والفقراء والأقارب من ذوي الصلات البعيدة، والذين ليس لهم حق شرعي في الميراث. غير أن صاحب التركة لا يستطيع أن يوصي بأكثر من ثلث تركته للورثة غير الشرعيين، (البخاري، كتاب الوصايا).

وحسب رأي ابن عباس وابن المسيّب وابن سعيد وأبي جعفر، فإن زمن تقسيم التركة المشار إليه في الآية هو الزمن الذي يقوم فيه صاحب التركة بإعداد وصيته (البحر المحيط). وإن لم يكن من الممكن تخصيص جزء من تركته ليوصي به لهؤلاء، فعليه، على الأقل، أن يوصي بحسن معاملتهم والإحسان إليهم، وأن يوجه لهم بعض الكلمات الطيبة. ولا يقتصر هذا التوجيه الذي تشمله الآية على اليتامى فقط، وإنما يُشكل جزءاً من قوانين الميراث بوجه عام. ولما كان المورث يترك وراءه بعض اليتامى في أغلب الأحوال، وردت التوجيهات الخاصة باليتامى مع التوجيهات المتعلقة بإدارة تركة المتوفى.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا

سَدِيدًا ﴿١٠﴾

التفسير:

تحتوي الآية تحذيراً شديداً، وبأسلوب قوي بليغ، من أجل مصلحة اليتامى. إذ تلفت أنظار الذين يتولون رعاية شؤون اليتامى أن يتصوروا ماذا سيكون شعورهم لو أنهم تركوا وراءهم ذرية ضعفاء ولم يعتن أحد بشؤونهم. والمقصود من الآية هو التوجيه إلى ضرورة معاملة من هم في عهدهم من اليتامى معاملة طيبة، تماماً كما يحبون أن يُعامل أولادهم الحقيقيون بعد وفاتهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا
إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ
سَعِيرًا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

يَصْلُونَ: من صلى، صلى اللحم: شواه. صلى الشيء: ألقاه في النار للإحراق. صلى النار: قاسى حرّها واحترق بها ودخل فيها (أقرب الموارد).

التفسير:

إن كلمة ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ قد تبدو زائدة، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك. فقد جاءت هذه الكلمة لتبين أن النار التي يأكلونها سوف تصير جزءاً من أجسامهم، وبذلك سوف تكون سبباً في استمرار احتراقهم.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَىٰ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ

فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ
مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ
لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ
إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

أَبَوَيْهِ: هي في الأصل أبوينه وأسقط حرف النون للإضافة. كلمة أبوين هي حالة الجر من أبوان وهي مثنى أب التي في الأصل أبو: وتعني الوالد أو الجد أو أي من الأسلاف الذكور أو الأعمام. كلمة أبوان تعني حرفياً: والدان وهي تفيد الأب والأم (معجم لين).
وَلَدٌ: هي كلمة ذات دلالة عامة جداً حيث تعني: (١) طفل؛ ابن؛ ابنة؛ أو شخص صغير؛ (٢) أطفال؛ أبناء؛ بنات؛ ذرية؛ أو الصغار. لذا فإن هذه الكلمة تستخدم سواء للمفرد أو للجمع؛ ولكل من المذكر والمؤنث (معجم لين).

التفسير:

تقدم هذه الآية والتي تليها مع الآية الأخيرة من السورة قانون الميراث في الإسلام بإيجاز. إذ يجعل الإسلام لأقارب المتوفى نصيباً في تركته دون حرمان أحد بسبب الجنس أو زمن المولد. والورثة الشرعيون هم الوالدان والأبناء والأزواج إذا كانوا على قيد الحياة، وقد خصص لكل منهم نصيب مفروض في جميع الأحوال والظروف.

وأما الأقارب الآخرون فلهم نصيب في بعض الأحوال فقط. وقد جُعل للذكر ضعف نصيب الأنثى لأن مسؤولية الإنفاق على الأنثى قد وُضعت على كاهله.

إن قوانين الميراث في الإسلام حكيمة وكاملة، كما أنها تحفظ المجتمع من جميع المفسدات التي يمكن أن تنتج من قوانين الميراث الموجودة في الأديان الأخرى أو المتبعة في بعض المجتمعات. فهي تهدف إلى التوزيع المناسب للثروة ومنح الفرص المتساوية للجميع من أجل التقدم. وأما فكرة إعطاء الميراث كله للابن الذكر البكر فقط، وحرمان الأنثى كلية من أي نصيب في الميراث، أو حرمان الوالدين مع وجود أبناء لهما، حسب ما تقضي به بعض الأديان، فقد ثبت أنه مصدر لعنة دائمة للجميع من عدة نواح، أخلاقية واجتماعية واقتصادية. أما قوانين التوريث الإسلامية التي تعززها قوانين الزكاة والقوانين التي تمنع وتُحرّم أخذ الربا أو إعطاءه، فهي تقدم وسيلة ذهبية تتوسط بين النظام الرأسمالي والشيوعي، وهما الشتران المتطرفان للنظام الاقتصادي في عالم اليوم.

تبدأ الآية الكريمة بوضع القاعدة العامة في تحديد نصيب كل من الذكور والإناث من الأولاد. فللابن ضعف نصيب الابنة، وحيثما وُجد ذكور وإناث من الأولاد، ينبغي تطبيق هذه القاعدة. أما في حالة وجود إناث فقط من دون الذكور، فتخصص الآية ثلثي التركة للبنات إذا زاد عددهن عن اثنتين، وتخصص نصف التركة إذا كانت الوريثة ابنة واحدة. ولم تنص الآية بكلمات محدّدة على نصيب الإناث إذا كان عددهن اثنتين فقط، غير أن الحرف «ف» في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يشير بوضوح إلى أن نصيب اثنتين من النساء قد تم تحديده في قوله تعالى: ﴿مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيْنِ﴾، كما يمكن تحديد نصيب الذكر الذي يساوي نصيبه نصيب الأنثيين، أي أنه إذا كان هناك ابنٌ واحد وابنةٌ واحدة فسوف يكون نصيب الابن ثلثي التركة. ولما كان نصيب الابن الواحد مساوياً لنصيب اثنتين من البنات، فحينئذ يكون نصيب البنتين يساوي ثلثي التركة عندما لا يكون هناك أبناء من الذكور، وهو نفس النصيب الذي تُخصّص لثلاث بنات أو أكثر. وعلى هذا، فإن تركيب الآية نفسه

يبين أنه في حالة وجود ابنتين، وعدم وجود ابن، فلهن أيضاً ثلثي الميراث كما هو الحال في وجود ثلاث بنات. وإن لم يكن القرآن المجيد قد قصد الإشارة إلى نصيب البنيتين في هذه الآية، لما استخدم الله تعالى لفظ ﴿الْأُنثَيْنِ﴾، بل كان اكتفى بالقول إن للذكر ضعف ما تأخذه الأنثى.

ويؤيد هذا التفسير قول الرسول ﷺ، فقد رُوي أنه لما مات الصحابي سعد بن ربيعة، في غزوة أُحد، وترك بنتين وأرملة، استولى أخوه على التركة كلها ولم يترك شيئاً للبنيتين. فذهبت أرملة سعد إلى النبي ﷺ وقالت إن عم ابنتيها قد أخذ كل ميراث أبيهما ولم يترك لهما شيئاً. فأخبرها رسول الله ﷺ أن عليها أن تنتظر حتى يحكم الله تعالى في الأمر. فلما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ أخ سعد وأمره أن يعطي ثلثي التركة للبنيتين والثلث للأرملة ويبقى الباقي لنفسه.

وتذكر الآية الكريمة حالات ثلاث تختص بنصيب الوالدين: (١) إذا تُوفي المرء تاركاً ابناً أو أكثر، فيكون نصيب كل من الأبوين السدس؛ (٢) إذا تُوفي المرء ولم يترك خلفه وريثاً سوى أبويه (أي لا أبناء له ولا زوج)، فحينئذ يكون نصيب الأم الثلث ويذهب الثلثان إلى الأب؛ (٣) الحالة الثالثة هي حالة استثنائية من الحالة الثانية في أن المتوفى ليس له ذرية من بنين أو بنات وليس له زوج، وأبواه هما الوريثان الوحيدان، غير أنه له أخوة وأخوات. ففي هذه الحالة يتغير نصيب كل من الأبوين. فرغم أن الإخوة لا يرثون شيئاً من أخيهام المتوفى، إلا أن نصيب كل من الأبوين يتغير. ففي هذه الحالة تنال الأم سدس التركة (بدلاً من الثلث)، وتذهب الأسداس الخمسة الباقية إلى الأب. والسبب في نوال الأب نصيباً أكبر في هذه الحالة هو أن الأب ملزم بالإنفاق على إخوة وأخوات المتوفى. وتستمر معالجة موضوع الميراث في الآية التالية.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنِ يَمُوتُنَّ
يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ

فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ
يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ
ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

كَلَالَةٌ: مشتقة من كَلَّ أي: تعب وأعيا؛ أو صار لا ولد له ولا والد. والمعنى الأخير مبني على المعنى الأول؛ حيث أن الإنسان الذي لا ولد ولا والدين يصبح كليلاً في مسيرة الجنس البشري. كلاله: (١) من مات وليس له والد ولا ولد سواء ذكر أو أنثى؛ (٢) من مات وليس خلفه والد أو ابن (٣) وقال ابن عباس أن «كلاله» تعني من مات ولم يترك أولاداً بغض النظر إن كان والداه حيين أم لا (لين وأقرب الموارد والمفردات).

التفسير:

يحدد الجزء الأول من هذه الآية نصيب كل من الزوج أو الزوجة، ولا يحتاج إلى شرح آخر. أما الجزء الأخير من الآية فيعالج موضوع «الكلاله»، أي الشخص الذي لا يترك

ذرية ولا أباً ولا أمّاً، وإنما يرثه أخوه وأخته. فإذا كان له أخ واحد وأخت واحدة فكل منهما يحصل على سدس التركة، أما إذا كان هناك أكثر من أخ وأخت فلهم أن يتقاسموا الثلث فيما بينهم. وفي هذه الحالة يمكن أن ينقسم الإخوة والأخوات إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى هم الذرية الأشقاء من نفس الأب ونفس الأم (ويسمى هؤلاء شرعاً باسم «بنو الأعيان»). الفئة الثانية هم الإخوة والأخوات من جانب الأب فقط (وهؤلاء يطلق عليهم شرعاً لفظ «بنو العلات»). والفئة الثالثة هم الإخوة والأخوات من جانب الأم فقط، أي أن أباهم ليس هو أب الشخص المتوفى (وهؤلاء يُطلق عليهم شرعاً اسم «بنو الأخياف»). ويشير الأمر الذي جاء في الآية إلى الفئة الثالثة، بينما جاء نصيب الفئتين الآخرين في الآية الأخيرة من السورة.

ويلاحظ القارئ أن الأنصبة التي خُصّصت للإخوة والأخوات في الفئة الثالثة أصغر من الأنصبة المخصصة في الفئتين الأولى والثانية، والسبب في ذلك هو أنهم إخوة وأخوات من جانب الأم فقط، بينما الإخوة والأخوات في الفئة الأولى والثانية هم من نفس أب الشخص المتوفى.

ويلاحظ أيضاً أن كُلاً من الإخوة الذكور والإناث للشخص الذي يورث «كلالة» كما جاء في هذه الآية، ينال نصيباً متساوياً مع الآخر، إذ لا تنطبق هنا قاعدة: للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ على جانب كبير من الأهمية، فهو يعني أن تسديد الديون يجب ألا يتأثر بسبب الوصية، أي أن الدين يجب أن يتم تسديده قبل دفع ما تنص عليه الوصية. وبسبب هذا الأمر الإلهي كان الرسول ﷺ حريصاً على تسديد ديون الموتي قبل تنفيذ هذا الأمر الإلهي، حتى إنه رفض أداء صلاة الجنازة على رجل تبين أن ما تركه لا يكفي لتسديد ديونه.

ولعله مما يجدر الإشارة إليه هنا أن الورثة قد تم تقسيمهم إلى مجموعتين رئيسيتين:

ذوو الفرائض: أي أولئك الذين حدّد لهم الإسلام أنصبة معينة، أي النصف أو الربع أو الثمن أو الثلث أو الثلثين أو السدس من تركة الشخص المتوفى.

العصبات: أي الورثة الذين يرثون ما يتبقى من التركة بعد أن ينال ذوو الفرائض أنصبتهم المحددة.

وليس من المحتم أن الشخص من المجموعة الأولى يظل دائماً من ذوي الفرائض. ففي بعض الأحوال يمكن أن يكون الشخص من ذوي الفرائض، أي له نصيب محدد، كما يكون أيضاً من العصبة، أي له نصيب فيما يتبقى من التركة، كما يمكن في بعض الأحيان أن يكون من العصبة فقط.

ويبلغ عدد ذوي الفرائض اثني عشر، أربعة ذكور وثمانٍ إناث. والذكور هم: (١) الأب؛ (٢) الجد للأب؛ (٣) الزوج؛ (٤) الأخ من جانب الأم. وأما النساء فهن: (١) الابنة؛ (٢) ابنة الابن؛ (٣) الأم؛ (٤) الزوجة؛ (٥) الأخت الشقيقة؛ (٦) الأخت من الأب؛ (٧) الأخت من الأم؛ (٨) الجدة، سواء كانت من جانب الأب أو الأم.

وأما العصبة فهم أربعة أنواع: (١) أسلاف المتوفى، أي الأب، والجد من جانب الأب. (٢) نسل المتوفى، أي الابن، وابن الابن إلخ. (٣) نسل والد المتوفى، أي الأخ الشقيق، وابن الأخ.. إلخ. (٤) نسل جد الأب، أي العم الشقيق وابن العم الشقيق... إلخ.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾

التفسير:

انظر الآيات: آل عمران: ١٣٣؛ الأنفال: ٢١؛ الأحزاب: ٧٢؛ البقرة: ٢٦.

وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٥﴾

التفسير:

انظر الآية: الجن: ٢٤.

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ
فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ
الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

الْفَاحِشَةُ: من فَحَشَ، يُقال فحش الأمر أي: كان فاحشاً أو كريهاً أو فاسداً أو بذيئاً أو
قدراً أو وقحاً... إلخ. فحشت المرأة: قُبِحت أو كَبِرت. فاحشه: نafسه في البذيء
من القول أو غيره. الفاحشة: كل ما يشتد قبحه من الذنوب؛ أو الزنى. الفحشاء:
بالإضافة إلى أنها تفيد نفس معاني الفاحشة؛ فإنها تعني أيضاً: البخل في دفع الزكاة
(معجم لين).

التفسير:

النساء اللاتي تشير إليهن هذه الآية هن أولئك اللاتي ارتكبن أمراً فاحشاً لا يبلغ مرتبة
الزنى، وقد كان هذا رأي أبي مسلم ومجاهد وآخرين أيضاً.

ويعني قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ
سَبِيلًا﴾ أنهن يجب أن يُمنعن من الاختلاط بالنساء الأخريات إلى أن يُصلحن أنفسهن

أو يَتَزَوَّجْنَ، فالزواج يُعتبر وسيلة ناجعة لمنع الناس من التصرفات غير الإخلاقية. ولما كان ذلك الجرم المذكور خطيراً، فلا بد أن يكون هناك أربعة من الشهداء لضمان حماية النساء من وقوع الظلم عليهن.

وقد أراد بعض العلماء تفسير هذه الآية في ضوء حديث للرسول ﷺ يقول فيه: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب، جلد مئة ثم رجم بالحجارة، وال بكر بال بكر، جلد مئة ثم نفي سنة» (ابن جرير الطبري، ج ٤، ص ١٨٢). وقد اعتبر هؤلاء العلماء أن كلمة «الفاحشة» التي جاءت في الآية تعني «الزنى»، وأن هذه الآية تقضي بأن النساء اللاتي يرتكبن الزنى يجب أن يُمسكن في البيوت إلى أن يأتيهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً، أي يُنزل الشريعة الخاصة بهن، وأن الشريعة التي نزلت فيما بعد كانت تقضي بجلد الزانية غير المحصنة مائة جلدة ونفيها لمدة عام، بينما ينبغي أن تُرجم الزانية المحصنة بعد أن تجلد مائة جلدة. غير أن هناك الكثير من الاعتراضات على هذا التفسير:

(١) إذا كانت كلمات الآية: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ تعني أنهن يجب أن يُحجزن في البيوت إلى أن يقرر الله تعالى أمراً في شأنهن، فإن السؤال الذي ينشأ هنا هو ما الذي منع الله تعالى من تقرير الأمر في شأنهن عندما أنزل هذه الآية التي نحن بصدددها؟ فليس هناك ما يشير إلى أن الوقت لم يكن صالحاً لنزول التشريع المطلوب. إن أي تبرير لهذا يصم الله تعالى بأنه والعياذ بالله لم يكن يعلم بعد ما يقرره من تشريع عندما نزلت هذه الآية، أو أنه كان لا يزال يفكر في الأمر، وحاشا له ذلك.

(٢) إن التشريع المذكور في الحديث المشار إليه غير موجود في القرآن المجيد.

(٣) إن سنة الرسول ﷺ نفسها كانت تختلف مع هذا الحديث. فقد تم رجم ما لا يقل عن أربعة أشخاص خلال حياته ﷺ بسبب الزنى، ولم يحدث أبداً أن أحداً

منهم قد تم جلده مائة جلدة قبل تنفيذ عقوبة الرجم كما يذكر الحديث المشار إليه.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن كلمة «فاحشة» في الاصطلاح القرآني لا تعني «الزنى» دائماً، ولكن كما جاء بيانه في «شرح الكلمات» عاليه، فهي تنطبق أيضاً على جميع أشكال التجاوزات أو الذنوب أو الجرائم أو الأعمال التي فيها تجاوز لحدود الاستقامة. ولتأكيد هذا المعنى، يمكن للقارئ الرجوع إلى الآية ٣١ من سورة الأحزاب التي تقول: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، والآية الثانية من سورة الطلاق التي تقول: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، والآية ٢٩ من سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وكلمة «الفاحشة» في كل هذه الآيات لا تعني «الزنى».

وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمُ فَأَذْوُهُمَا فَإِنْ تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا
رَّحِيمًا ﴿١٧﴾

التفسير:

تشير الآية إلى ذكرين يرتكبان عملاً فاحشاً أو قريباً من ذلك. وأما شكل العقوبة التي ينبغي أن توقع هنا فقد تُرك تحديده للسلطات المختصة. ولم تقرر هذه الآية والآية السابقة لها أي حد شرعي ينبغي تطبيقه، وإنما تُرك الأمر للسلطات المختصة لتحديد العقوبة حسب الظروف المناسبة.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ
بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٨﴾

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أن مرتكبي الذنب يرتكبونه وهم لا يعلمون أنه إثم، إذ في الواقع كل إثم يرتكبه الإنسان، إنما يرتكبه بسبب الجهل وافتقاد المعرفة الحقيقية. فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال ما يفيد بأن بعض العلم جهل؛ أي أن معرفة ذلك الأمر تضر الإنسان (مجمع البحار). ولذلك فقد أضيفت كلمة ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ هنا لبيان فلسفة الإثم، ولحث الناس للحصول على العلم الحقيقي والمفيد من أجل تجنب الإثم. والمقصود من قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ هنا هو «قبل الموت»، الذي يمكن أن يأتي في أي وقت، ولذلك فهو دائماً «قريب». وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ» (مسند أحمد والترمذي وابن ماجة). ويتفق هذا التفسير مع ما جاء في الآية التالية التي تقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾. ويبين هذا أن التوبة يمكن أن تقبل من أي إنسان إذا كان مخلصاً في توبته من قبل أن يدركه الموت.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ
وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٩﴾

التفسير:

انظر الآيات: البقرة: ٦٢؛ آل عمران: ٩٢؛ محمد: ٣٥.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا
النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ
مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ
وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ
فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ
خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٠﴾

التفسير:

قد يرث الرجال النساء كرهاً في أحوال عديدة: (١) عندما لا يحب الرجل زوجته ولا يحسن معاملتها، ولكنه لا يطلقها طمعاً في أن يستولي على ثروتها بعد وفاتها؛ (٢) عندما يسيء الرجل معاملة زوجته، ويضطرها بسوء معاملته إلى الانفصال عنه بأن تختلع منه وتتنازل عن حقوقها أو ترد له كل مهرها؛ (٣) عندما يمنع أقارب الزوج المتوفى أرملة ابنهم من الزواج كي يحصلوا هم على ثروتها بعد وفاتها؛ (٤) عندما يجبر أقارب الزوج المتوفى أرملة على الزواج من أحدهم رغماً عنها، وبذلك يعتبرونها وكأنها جزء من ميراث قريبهم المتوفى؛ (٥) عندما يستولي الزوج بالقوة على ثروة زوجته كما لو كان ذلك حقه الشرعي؛ (٦) عندما يضع أقارب الزوج المتوفى أيديهم على الميراث عنوة ويحرموا زوجته من حقها الشرعي في الميراث.

وليس من حق أقارب الزوج المتوفى أن يمنعوا أرملته من حقها في الزواج من بعده كي يستولوا على ميراث الزوج المتوفى، ولكن من حقهم أن يمنعوها من الزواج من رجل معروف بسوء السمعة والخلق.

وعند تطبيق الآية على الأزواج الرجال، فهي تعني أنه إذا لم تكن الزوجة ترغب في الحياة مع زوجها، فلها أن تطلب التفريق بينهما عن طريق «الخلع»، وليس من حق الزوج أن يمنع زوجته من أن تختلع، إلا إذا كانت تريد ارتكاب فاحشة مبينة.

ويحتوي قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ على لب التعاليم الإسلامية عن معاملة الزوجة، إذ ينبغي ألا تعامل معاملة جافة وكأن العلاقة الزوجية قد تحولت إلى علاقة عمل، وإنما ينبغي أن تقوم هذه العلاقة على الحب والحنان. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ» (الترمذي). ولكن لما كان حسن المعاملة ينبغي ألا يكون من جانب واحد فقط، لذلك جاء لفظ ﴿عَاشِرُوهُنَّ﴾ في صيغة المفاعلة لبيان ضرورة اشتراك الطرفين في هذه المعاملة الطيبة. فالآية تحت كلاً من الزوج والزوجة على معايشة الآخر بالود والمحبة وأن يتبادل كل منهما العطف والحنان.

لا يمكن للمرأة أن تُقدّر مدى الدّين الذي في عنقها للقرآن المجيد، فقد حباها القرآن بمقام عظيم لم تعطه لها أي شريعة أخرى في الصحف الأولى. فهو لم يقرر حقوقها الخاصة فحسب، وإنما حث الرجال على أن يتجاوزوا عن ضعفها ويتغاضوا عن عيوبها ويعاملوها بالمعروف حتى ولو لم تعجبهم. والكلمات الخالدة التي قالها الرسول ﷺ والمذكورة آنفاً، أي: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ» ليست إلا صدّى للتعاليم القرآنية النبيلة التي تختص بمعاملة المرأة.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ
وَأَتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا
أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

بُهْتَانٌ: المصدر من بهت. يُقال بهته أي: قذفه بالباطل وافتري عليه الكذب. البهتان: الافتراء؛ الاتهام الباطل؛ الكذب؛ الزيف الذي يريك الإنسان ويجعله لا يستطيع رؤية طريق الصواب؛ اتهام المرأة كذبًا بالزنى (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

لا تعني الآية الكريمة أن الرجل من حقه أن يُطلق زوجته متى شاء. إذ يروي أنس رضي الله عنه، وهو أحد صحابة الرسول ﷺ، أن أبا أيوب وأبا طلحة رضي الله عنهما أرادا تطليق زوجتيهما دون سبب معقول، وسألا الرسول ﷺ عن ذلك، فأشار عليهما ألا يفعلوا ذلك، ووصف عملهما هذا بأنه يخالف العدل، مما دعاهما أن يعدلا عن الطلاق، وأبقى كل منهما على زوجته. غير أن هذا لا يعني أن الزوج لا يستطيع أن يُطلق زوجته دون الحصول على إذن بذلك من السلطة، فهو يستطيع ذلك إن أراد، ولكنه سيحاسب أمام الله تعالى إن لم يكن الطلاق لسبب معقول. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ» (أبو داود، كتاب الطلاق).

ثم إذا حدث وأراد الرجل أن يطلق زوجته لسبب ما وأن يتزوج بأخرى؛ فلا يجوز له أن يسترد شيئاً مما أعطاه للزوجة السابقة مهما كان كبيراً. فإن فعل -أي إن أخذ شيئاً- فإنه يكون مُدْنِباً بهذا الإثم.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

أَفْضَى: من فضا؛ وتعني: شاغر أو خالٍ أو فارغ؛ وأيضا: اتسع. أفضيت إلى الشيء: بلغته ووصلت إليه. أفضى إلى امرأته: دخل على زوجته؛ أو لامسها؛ أو خلا بها (معجم لين).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لا يعني بالضرورة وقوع العلاقة الحميمة بين الزوجين، إنما يعني معايشة كل منهما للآخر، ورؤية كل منهما الآخر في ظروف خاصة، وانكشاف كل منهما على الآخر. وفي هذه الحالة لا يحل للزوج إذا طلق زوجته أن يسترد منها أية منقولات أو ممتلكات أو مبالغ مالية أعطاها لها، حتى ولو لم يكن قد مارس معها العلاقة الزوجية الحميمة.

وبين قوله تعالى عن النساء: ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أن النساء لسن إماء يخضعن لهوى الرجال ونزواتهم، فالطرفان قد ارتبطا معا بميثاق غليظ وعهد مقدس. ويدين الرجال لزوجاتهم بمسؤوليات جسام لا بد أن يحترموها ويؤدوها على خير وجه، لأنهم جميعاً يقفون على نفس المستوى بالنسبة للحقوق الاجتماعية. والآية تحذر الرجال من أن يستخفوا بقدسية هذا الميثاق الذي أخذته زوجاتهم عليهم، فإن عقدة الزواج لها قوة هذا الميثاق المقدس.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا
مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ
سَبِيلًا ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

مَقْتًا: مقتته تعني: أبغضه أشدّ البغض عن أمرٍ قبيح. المَقْت: البُغْض الشديد بسبب أمرٍ أو فعل قبيح؛ أو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه بعده (أقرب الموارد).

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أنه من الممكن الإبقاء على زوجات الأب اللاتي تزوجهن الأبناء قبل نزول هذه الآية، بل ما تعنيه هذه الكلمات ببساطة هو أنه إذا تاب هؤلاء إلى الله تعالى وأصلحوا من أعمالهم، فلن ينالهم ضرر جزاء ما كانوا قد ارتكبوه من الآثام في الماضي، فما حدث في الماضي سوف يغفره الله تعالى، ولكن بشرط أن يقوم أولئك الذين تزوجوا زوجات آبائهم قبل نزول هذه الآية بتطليق أولئك الزوجات على الفور. وفي الحقيقة، لقد كان وضع المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام مزرياً ومتدنياً، حتى إن الرجال كانوا يعتبرون زوجات الأب ضمن الأملاك المنقولة التي تركها الأب المتوفى، ولهم أن يفعلوا بهن ما يشاؤون. غير أن الإسلام قد منح المرأة حقوقاً لا يمكن الاستهانة بها، كما لا يمكن انتهاكها بغير عقاب صارم من الله تعالى.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ
وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ

وَأَخَوَاتِكُمْ مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمْ
الَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ
بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ
الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ
الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

رَبَائِبُ: مشتق من رَبَّ؛ وهي جمع «ربيبة» أي: بنت الزوج من زوجة أخرى أو بنت الزوجة من زوج آخر وذلك لأن الزوج أو الزوجة يقوم أو تقوم بتربيتها بالرغم أنها ليست ابنة حقا؛ وتعني أيضا امرأة الرجل إذا كان له ولد من غيرها؛ وأيضا تعني الحاضنة للطفل التي تقوم بتربيته أو إرضاعه (لين وأقرب الموارد).

حُجُور: جمع حجر المشتقة من حَجَر أي: منع أو حال دون. الحجر: حضن الإنسان؛ الكنف؛ الرعاية؛ الوصاية. يُقال «نشأ زيد في حجر عمرو» أي: في كنفه ومنعته. لذا فإن قوله تعالى: ﴿الَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ يعني: أولئك اللائي في رعايتكم وتحت وصايتكم (لين وأقرب الموارد والمفردات).

حَلَائِلُ: جمع حليل وحليلة؛ مشتقة من حل بمعنى: حطَّ على أو جاء إلى أو نزل بمكانٍ أو ما شابه؛ أو صار حلالاً؛ أو نقض العقدة أو فتحها.. إلخ. الحليل: الزوج؛ والحليلة: الزوجة. «حليل» تعني أيضاً: من يقيم معك في دار واحدة (أقرب الموارد). وتعني أيضاً: الجار أو الضيف (معجم لين).

أَرْضَعْنَكُمْ: من رضع. «رضع أمه»: امتص ثديها. «هذا أخي من الرضاعة»: أي أخ بالتربية أو كلانا رضع من نفس المرأة. «أرضعته أمه»: كان لها ولد يرضع. «استرضعت المرأة ولدي»: طلبت منها أن ترضعه (معجم لين).

التفسير:

إن تحريم زواج الأمهات والأخوات والأبناء قد يبدو أنه تحصيل حاصل في مجتمع الجزيرة العربية، ولكن بعض الأقوام (مثل بعض الفرق الهندوسية) لا يعتبرون مثل هذا الزواج مسموحاً به فحسب، وإنما يعتبرونه عملاً يستحق الثناء والتقدير. ولما كان القرآن المجيد هو الكتاب الذي يحتوي الشريعة الكاملة، كان من الضروري أن يحتوي من التعاليم ما هو ضروري لمصلحة الإنسان الطبيعية والأخلاقية والروحية. إن القوانين القرآنية تتفق اتفاقاً كاملاً مع الطبيعة الإنسانية، وهي في الواقع تُذكرنا بما كتب الله تعالى بيده في كتاب الطبيعة البشرية. فالطبيعة البشرية تتجاوب مع ما يأمر به القرآن المجيد، والقرآن بدوره يأمر بما تتطلبه الطبيعة البشرية، وينهى عما تأنف منه الطبيعة البشرية. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه نهى عن زواج أقارب الأم من الرضاعة تماماً كأولئك الأقارب المحرم زواجهم للأم الحقيقية، فلا يحل زواج الإخوة من الرضاعة والأبناء من الرضاعة، وهكذا. غير أن هناك اختلافاً في الرأي بين العلماء المسلمين عن كمية الرضاعة التي تتسبب في حرمة الزواج من أقارب الأم من الرضاعة. فالبعض يرى أن الحرمة تقع في جميع الحالات حتى ولو تمت الرضاعة مرة واحدة فقط، بينما يرى الآخرون الذين يبنون رأيهم على حديث للرسول ﷺ روته السيدة عائشة رضي الله عنها يقول فيه: «لا تحرم المصّة والمصّتان» (الترمذي، كتاب الرضاع)، فإن أقل عدد من الرضعات التي تسبب تحريم الزواج هو ثلاث رضعات. ولكن حديثاً آخر للرسول ﷺ روته أيضاً السيدة عائشة رضي الله عنها ينص على أن الرضاعة التي تتسبب في حرمة الزواج هي خمس رضعات معلومات (مسلم)، ويبدو أن هذا هو الرأي الأصح. والرضعة الواحدة تُحسب بالكمية التي يظل يرضعها الطفل في

المرة الواحدة إلى أن يشبع، فيتوقف بنفسه عن الرضاعة إلى أن يعود مرة أخرى إلى الرضاعة. وينبغي أن يكون عمر الطفل الرضيع لم يتجاوز السنتين، وهي المدة التي يرضع فيها الطفل عادة.

وقد أضيفت الجملة الشارحة ﴿اللاتي في حُجُورِكُمْ﴾ لتلفت انتباهنا إلى أنه ينبغي علينا أن ننشئ ربائبنا بنفس العناية والحنان الذي منحناه للأبناء الحقيقيين. وقد حُرِّم الزواج من بنات الزوجة التي تم الدخول بها سواء نشأ كربائب أم لا، ولكن يمكن زواج أولئك البنات ما لم يكن الدخول قد تم بعد الزواج من أمهاتهن، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقد أضيف قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ لتحريم الزواج من زوجات الابن الحقيقي وليس الابن بالتبني، فالإسلام لا يعترف بنظام التبني، لأن الإسلام يريد منا أن نعتبر المسلمين جميعاً أخوة لنا، ولما كان تبني بعض الأفراد واعتبارهم بمثابة الأبناء لنا يتعارض مع هذه القاعدة التي تحت على الأخوة العامة، لذلك فقد حُرِّم التبني في الإسلام، كما أن نظام التبني يتسبب في الكثير من الصراعات والمشاكل القانونية.

وقد روي عن الرسول ﷺ أنه أمر رجلاً أن يطلق إحدى زوجتيه اللتين كانتا أختين (الترمذي، كتاب النكاح)، وذلك بعد نزول أمر الله تعالى المذكور في هذه الآية ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وقد بُني هذا التحريم على ضرورة المحافظة على مشاعر الود والاحترام بين الأخوات، واستبعاد إمكان وقوع الاختلاف والشجار بين أفراد العائلة الواحدة.

ومن أجل نفس هذه الأسباب حرّم الرسول ﷺ الجمع في الزواج بين المرأة وخالتها وبين المرأة وعمتها.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا

وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ
بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنِ اتَّيَاكُمُ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

المُحْصَنَات: جمع محصنة؛ وهي مشتقة من حصن أي: كان منيعاً. حصنت المرأة: كانت عفيفة. أحصنت المرأة: تزوجت. مُحْصَنَة: أي عفيفة؛ أو تزوجت لأن زواجها قد أحصنها. وكذلك المُحصن: الرجل العفيف أو الرجل المتزوج. وعليه فإن كلمة «المحصنات» تعني: النساء اللاتي حمين أنفسهن بالدخول في حصن الزواج. ولقد استخدمت هذه الكلمة في القرآن الكريم بكل معانيها المختلفة؛ وهي: (١) المرأة المتزوجة؛ (٢) المرأة العفيفة؛ (٣) المرأة الحرة. ولكنها استخدمت في الآية التي نحن بصدددها بمعنى المرأة المتزوجة (لين وأقرب الموارد).

مُسَافِحِينَ: اسم الفاعل من سافح؛ المشتق من سفح. سفح الدم أي: سفكه وأراقه. سفح الدمع: انصب. وعليه فإن الفعل لازم ومتعد أيضاً. سافح: نافس الآخرين في سفك الدماء؛ أو زنى. مسافح أي: زانٍ؛ والمسافحة: الزنى (لين وأقرب الموارد).

أُجُور: جمع أجر وتعني: مكافأة. أجر المرأة: مهرها (تاج العروس). وكذلك في الآية ٥١ من سورة الأحزاب؛ جاءت الكلمة بمعنى المهور.

اسْتَمْتَعْتُمْ: من مَتَعَ، مَتَّعها بكذا: أعطاه (أي زوجته) شيئاً. مَتَّعَ بالمرأة: انتفع بها إلى حين. استمتع بكذا: انتفع به زماناً طويلاً. إن اللغة العربية لا تؤيد استخدام كلمة «استمتاع» في حق المرأة بمعنى العلاقة المؤقتة معها (لسان العرب). والجدير

بالملاحظة أنه كلما جاءت كلمة «تَمَتَّعَ» للدلالة على علاقة مؤقتة بالمرأة؛ فإنها تأتي متبوعةً بحرف الجر «الباء» مقترناً بالكلمة التي تشير للمرأة؛ كما جاء في المثال السابق (أي القول: تمتع بالمرأة). أما في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فإن الضمير «هن» الذي يشير للنساء؛ فإنه مسبوق بحرف الجر «من».

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ: تقول العرب «هذا ملك يميني»: أي أملكه وفي تصرُّفي (لسان العرب وأقرب الموارد). إن تعبير: «مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يشير بصفة عامة إلى أسرى الحرب من الرجال والنساء؛ والذين هم في كنف من أسرهم من المسلمين وتحت أيديهم. أما في هذه الآية الكريمة؛ فإن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ تعني أسرى الحرب من النساء فقط. لقد استُخدم هذا التعبير في القرآن الكريم مُقَضَّلاً على لفظ «عباد أو إماء» للإشارة إلى الامتلاك العادل والشرعي؛ كما تشير كلمة «أيمان» إلى الأمر ذاته.

التفسير:

إن التعبير الذي تحتويه الآية الكريمة: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قد استُعمل في القرآن المجيد عن الرجال والنساء الذين يشتركون في الحروب العدوانية ضد الإسلام، ويقعون أسرى في أيدي المسلمين. غير أن السياق في هذه الآية يدل على أن هذا التعبير يعني هنا النساء اللاتي يقعن أسيرات في الحرب. إن الإسلام لا يبيح الزواج من أسيرات الحرب في الحروب العادية، ولكن هذا الأمر الاستثنائي هنا يصبح فعلاً فقط حين تشن أمة معادية حرباً دينية ضد الإسلام بغرض القضاء عليه، ودفع المسلمين بحد السيف إلى التخلي عن دينهم، واتخاذ أسراهم عبيداً، كما كان يحدث في أيام الرسول ﷺ، حين كان العدو يأخذ نساء المسلمين أسيرات ويعاملهن كالإماء. وعلى هذا، فإن الأمر الذي احتوته هذه الآية جاء فقط لمجازاة عمل العدو بمثله، وأيضاً للعمل على حماية أخلاق أولئك النساء الأسيرات اللاتي كن في أعداد كبيرة، واللاتي أدَّت الحرب إلى انفصالهن عن ذويهن. إن القوم الذين يرغمون غيرهم على التخلي عن دينهم بحد السيف، ويعاملونهم معاملة العبيد، إنما هم كالحيوانات المتوحشة،

وليسوا كالبشر الذين يستحقون الاحترام، وينبغي أن يعاملوا بنفس معاملتهم حتى يفيقوا من غلوائهم.

ولعله مما يجدر الإشارة إليه هنا أنه من غير المسموح به الزواج من أقارب الأمة التي تُتخذ زوجة، بنفس درجات القرابة غير المسموح الزواج منها بالنسبة لأقارب المرأة الحرة. فمثلاً أمهات وأخوات وبنات الإماء وغيرهن، لا يجوز الزواج بهن.

وقد حاول عبثاً المنادون بشرعية زواج المتعة (أي الزواج المؤقت) استنتاج شرعية هذا الزواج من هذه الآية، غير أن القرآن المجيد واللغة العربية يناقضان بوضوح هذا الاستنتاج الذي لا أساس له. ويبدو أن سوء الفهم هذا عن زواج المتعة قد نشأ من عدم فهم الفرق بين معنى كلمتي «التمتع» و«الاستمتاع» كما جاء شرحه في معاني الكلمات. ويروي مؤلف كتاب لسان العرب عن الزجاج قوله: «أَنَّ هَذِهِ آيَةَ غَلَطَ فِيهَا قَوْمٌ غَلَطًا عَظِيمًا لَجَهْلِهِمْ بِاللُّغَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ مِنَ الْمَتْعَةِ الَّتِي قَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهَا حَرَامٌ. وَإِنَّمَا مَعْنَى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فَمَا نَكَحْتُمْ مِنْهُنَّ عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَرَى فِي الْآيَةِ».

وحسب الاستعمال العربي للألفاظ، لا يمكن استنتاج شرعية زواج المتعة، التي يؤكدُها البعض، من هذه الآية. فلو كان في الآية أي إشارة يمكن منها استنتاج شرعية زواج المتعة، لاقتضى الأمر أن يكون الحرف المستخدم في الجملة هو حرف «الباء» وليس حرف «من»، بالإضافة إلى أن الفعل المستعمل هنا هو «استمتع» وليس «تمتع»، وللفعل الأول معنى يختلف عن معنى الفعل الثاني.

كذلك لا يمكن استنتاج شرعية زواج المتعة من كلمة «أُجُورَهُنَّ» التي تعني «مهرهن» كما جاء في «شرح الكلمات»، وقد استُعملت بنفس هذا المعنى في القرآن المجيد في الآية ٥١ من سورة الأحزاب حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

وكمبدأ، ينبغي دفع المهر على الفور عند الزواج، ولكن يمكن تأجيل دفع المهر بموافقة الزوجة. ويمكن للزوج أن يزيد من قيمة المهر إذا شاء فيما بعد، ولكنه لا يستطيع إنقاصه إلا بموافقة الزوجة أو القاضي.

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ
بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ
فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ
نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ
تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

طَوْلاً: الاسم من طال أي: امتد نقيض قصر. الطول: الفضل؛ العطاء؛ القدرة؛ أو الغنى والسعة؛ وكذلك يعني: المهر أو نفقات الزواج (لين وأقرب الموارد والمفردات).

أَخْدَان: جمع خَدْن. خادنه: صاحبه وصادقه. أخدان: أصحاب؛ أحباب؛ رفقاء؛ عشاق (معجم لين). وقيل: المصاحب وأكثر ذلك يُستعمل فيمن يُصاحب شهوة؛ يُقال خَدْنُ المرأة وخَدِينُهَا (المفردات).

الْعَنْتُ: المصدر من عَنَتَ بمعنى: فَسَدَ؛ دخل عليه المشقة؛ وقع في أمر شاق؛ لقي الشدة. عَنَتَ: اكتسب مائماً. العنت: الصعوبة البالغة أو الشدة؛ الهلاك؛ الفساد أو الشر أو الضرر؛ الإثم أو الجرم؛ العصيان الذي يستوجب العقوبة؛ التصرف الخاطئ (عن عمد أو بدون عمد)؛ الزنى (لين وأقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ١١٩ من سورة آل عمران والآية ٢٢١ من سورة البقرة.

التفسير:

لما كان الله تعالى يضع اعتباراً كبيراً لإيمان الإنسان المسلم، لم يشأ سبحانه أن يؤثر شيء تأثيراً سلبياً على هذا الإيمان عندما يتزوج المسلم من امرأة كافرة، ومن هنا جاء الشرط أن تكون زوجة المسلم مؤمنة حتى ولو كانت أمة.

والغرض من قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ رفع قيمة الإماء المؤمنات في أعين المسلمين، الذين كان عليهم ألا يعاملوهن باحتقار، أو ينظروا إليهن نظرة دونية كما كن يُعتبرن من قبل في درجة متدنية.

وقوله تعالى: ﴿نُصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني خمسين جلدة، حيث إن عقوبة المرأة الحرة مائة جلدة. (انظر أيضاً الآية الثالثة من سورة النور). وتشير كلمة «نصف» إلى عقوبة يمكن تنصيفها، وليس إلى عقوبة الرجم بالحجارة حتى الموت، التي كانت تُطبق على الزوجات الأحرار اللاتي يرتكبن جريمة الزنى. والعقوبة التي يذكرها القرآن المجيد في سورة النور لجريمة الزنى هي بكل تأكيد مائة جلدة فقط. أما وقد حدث أن طبق الرسول ﷺ عقوبة الرجم على المحصن الزاني قبل نزول الآية، فقد فُهمت هذه الآية على أنها تنطبق على الزاني غير المتزوج فقط.

وبمعنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ﴾ أن على المؤمنين أن يتجنبوا قدر الإمكان الارتباط بعلاقة زواج مع الإماء اللاتي يقعن في الأسر أثناء الحروب التي كانت تُشن على المسلمين. غير أن هذا يكون مسموحاً به فقط إذا كان المرء، من ناحية، لا يستطيع أن يتزوج من امرأة حرة، ومن ناحية أخرى إذا كان يخشى

على نفسه من ارتكاب الإثم إذا ظل بدون زواج. وقد كان أحد أسباب انقسام الإمبراطورية الإسلامية في بغداد، أن الخلفاء كانوا يتزوجون من أسيرات الحروب، وقد ساعد الأمراء غير الأكفاء المولودون من هذا الزواج على انهيار الدولة. وفي أغلب الأحيان يكون لهذه العلاقات الزوجية مع أسيرات الحروب أثر مفسد للأخلاق لكل من الأزواج والأبناء.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

التفسير:

انظر الآية: النساء: ١٧٧.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٨﴾

التفسير:

يريد القرآن المجيد من المسلمين أن يسلكوا مع أسيرات الحروب سلوكاً منضبطاً، وذلك حتى لا يحميدوا عن طريق القيم والأخلاق.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ
ضَعِيفًا ﴿٢٩﴾

التفسير:

إن السبب في إنزال الشريعة هو أن الإنسان بطبعه ضعيف، ولا يستطيع أن يعرف بنفسه وسائل التقدم والرفق الروحاني، ولذلك فقد تولى الله تعالى هذه المهمة، إذ لم يكن الله تعالى ليكلف الإنسان بمهمة لا يستطيع القيام بها.

وتشكل الآية تفنيدياً لعقيدة المسيحية عن الكفارة التي ترفض الشريعة بسبب الضعف الإنساني. وفي الواقع، يؤكد الإسلام أن الضعف الإنساني هو السبب في إنزال الشريعة، وذلك من أجل مساعدة الإنسان على القيام بما هو مقدّر له من مهمة عظيمة. وعلى هذا فالشريعة ليست لعنة، وإنما مصدر بركة ومعونة للإنسان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ
مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣٠﴾

التفسير:

تشمل كلمة ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ جميع الأسباب والوسائل التي حرّمها الشريعة. وتؤكد الآية الكريمة أن جميع المعاملات التجارية التي لا تحظى برضا البائع والمشتري تعتبر ملغاة، ولا قيمة لها.

وبعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أن اغتصاب ممتلكات الآخرين بالوسائل غير المشروعة، أو القيام ببعض التعاملات التجارية بغير الرضا التام من جميع الأطراف المختصة، يؤدي إلى الموت الأخلاقي للطرف المذنب.

كذلك يتضمن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تحريماً لجرمة الانتحار. ويُروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجْأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم، فسمه في يده، يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو مُتردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً» (ابن كثير).

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ
نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾

التفسير:

في الواقع، لا يوجد في القرآن المجيد تقسيم للذنوب إلى كبائر وصغائر، فهذا المصطلح نسبي، لأن ارتكاب أي شيء حرمه الله تعالى يعد ذنباً، والمعاصي التي يجد الإنسان صعوبة في الإقلاع عنها تعد من الذنوب الكبيرة. وبناءً على ذلك، تعني الآية أنه إذا استطاع الإنسان اجتناب المعاصي التي يصعب عليه التخلي عنها، فستكون النتيجة أنه سيتمكن من ترك سائر الذنوب الأخرى أيضاً. ويفسر بعض العلماء كلمة ﴿كَبَائِرَ﴾ على أنها تعني المرحلة الأخيرة من كل فعلٍ آثم. فمثلاً، حين يفكر شخص ما في ارتكاب السرقة، فإن جريمة السرقة نفسها تُعد من الكبائر، أما الخطوات الأولى التي تؤدي إلى ارتكاب السرقة فتُعتبر من الصغائر. فإذا عصم الإنسان نفسه من ارتكاب العمل النهائي، أي السرقة، فإن الله تعالى يغفر له الأعمال الأولى التي ارتكبها بقصد السرقة.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى
بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٣﴾

التفسير:

الجزء الأول من الآية يعني ما يلي: (١) ينبغي ألا يدعو الإنسان أن يعطيه الله تعالى نفس النعمة التي أعطاها لغيره؛ (٢) من الممكن أن يدعو الإنسان أن يعطيه الله تعالى «مثل» ما أعطاه لغيره؛ (٣) أثناء الدعاء، ينبغي ألا يجعل المرء في ذهنه شخصاً معيناً أنعم الله عليه، فيطلب أن ينعم الله عليه كما أنعم على ذلك الشخص الآخر، فلعل الإرادة الإلهية كانت متوجهة إلى الإنعام عليه بأكثر مما أنعم على الشخص الآخر. لذلك ينبغي على الإنسان أن يدعو عموماً لنوال فضل الله تعالى ونعمته، فليس لأفضال الله ونعمه حدود.

ويحتوي قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ على مفتاح التقدم والرقى. فمن حق كل من الرجال والنساء أن يحصلوا على حقهم الذي اكتسبوه واستحقوه. ولذلك ينبغي ألا نطلب الشر للآخرين، وإنما علينا أن نعمل ندعو لنوال فضل الله تعالى، فهذا هو الأسلوب السليم للنجاح في الحياة وللحصول على رضا الله تعالى. وتبين هذه الكلمات أيضاً نوعية كل من الرجال والنساء فيما يختص بعملهم وأجرهم الذي يستحقونه.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ

نَصِيْبُهُمْ إِنْ أَلَّهَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

مَوَالِي: مشتق من ولي؛ وموالي جمع مولى بمعنى: السيد؛ المالك؛ ابن العم؛ القريب مطلقاً؛ العبد المُعتق أو المُحرر؛ الجار؛ الصهر؛ الحليف؛ الصاحب؛ التابع؛ الشريك؛ الوريث... إلخ (لين ولسان العرب).

التفسير:

يمكن أن تعني الآية: «لكل واحد منكم جعلنا ورثة، هم الآباء والأقربون والذين عقدت أيمانكم من أزواجكم، فأعطوا كل ذي حق نصيبه من الميراث». ويمكن أيضاً أن تعني: «لكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم من أزواجكم جعلنا ورثة، فأعطوا كل وريث حقه من الميراث».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني «الأزواج» وذلك يشمل الأزواج الرجال والزوجات النساء. والضمير «هم» في قوله تعالى: ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ يعود على «الورثة» المذكورين في الآية.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ
فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ
اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ
وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ

أَطْعَنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

قَوَّامُونَ: من قام أي: وقف. قام عليه: اعتنى واهتم به. قام باليتيم: تولى أمره. قام على المرأة: أعالها؛ تولى شؤونها؛ حماها وحفظها؛ صانها. قَوْمُ الشيء: عدله وأزال اعوجاجه. قَوَّام: المتكفل بالأمر؛ القوي على القيام بالأمر؛ الأمير (لين وأقرب الموارد).

قَانِتَاتٌ: جمع قانتة وهو اسم الفاعل من قنت. قنت لله: أطاع الله. امرأة قنوت: مطيعة لزوجها (معجم لين). انظر أيضاً سورة البقرة: الآية ١١٧.

نُشُوزٌ: المصدر من نشر بمعنى: ارتفع وامتنع. يُقال نشزت المرأة على زوجها: ارتفعت عليه واستعصت عليه وأبغضته. نشر المرء على زوجته: ضربها وجفاها وأضرَّ بها (لين وأقرب الموارد).

اهْجُرُّوهُنَّ: هجر: امتنع عن العلاقة الحميمة؛ نبذ؛ قاطعه فامتنع عن التحدث معه أو مصاحبته. هجر الشيء: تركه وأعرض عنه. هجر زوجته: اعتزل عنها أو لم يقربها (لين والمفردات).

اضْرِبُوهُنَّ: من ضرب. ضربه: أصابه؛ قرّعه؛ صدمه (بيده أو بعصا.. إلخ) لكي يعاقبه أو يؤدبه.

عَلِيًّا: من علا بمعنى: ارتفع؛ صعد؛ شَرُفَ. تعالى: سما؛ تمجد. عليّ: مرتفع؛ مجيد. العلي: المرتفع؛ الشريف الرفيع؛ الشديد القوي؛ من أسماء الله الحسنى (مثلاً: الآية ٢٥٦ - البقرة). المتعالي: أيضاً من أسماء الله الحسنى (مثلاً: الآية ١٠-الرعد)؛ بمعنى الأكبر؛ الأسمى؛ الأعلى فوق كل من هو عال. تعال: فعل أمر من ذلك وأصله أن الرجل العالي

كان ينادي السافل فيقول تعال؛ ولكن كثر في الاستخدام حتى استعمل بمعنى هُلْمَ مطلقاً (معجم لين).

التفسير:

تُبين الآية سببين لجعل الرجل رأس الأسرة: (أ) تفوّقه بشكل عام في القوى البدنية والذهنية؛ (ب) كونه هو المُنوط به كسب العيش والإنفاق على الأسرة. ومن الطبيعي أن من حق من يكسب عيش الأسرة ويأتي بالمال، أن تكون له الكلمة الأخيرة في كيفية إنفاقه وتدير شؤون الأسرة.

وتشير كلمة ﴿قَانِتَات﴾ التي وُصفت بها الزوجات إلى أولئك الزوجات اللاتي يُطعن الله تعالى أو اللاتي يُطعن أزواجهن.

وقوله تعالى: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ يعني حافظات لأسرار أزواجهن، أي عندما يكون الأزواج في بيوتهم ينبغي على الزوجات أن يُطعنهم ويحفظن أسرارهم، وعندما يكون الأزواج خارج البيوت، فينبغي على الزوجات ألا يحفظن أسرارهم فحسب، بل يحافظن أيضاً على ممتلكاتهم ويحفظن شرفهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ يمكن أن يعني: (أ) الامتناع عن العلاقة الحميمة بين الزوجين؛ (ب) النوم في أسرة منفصلة؛ (ج) الامتناع عن التحدث معهن. وتتضمن أيضاً كلمة ﴿الْمَضَاجِعِ﴾ أنه ينبغي على الزوجات الناشزات أن يبقين في بيوتهن ولا يُسمح لهن بالخروج ولا يُخرجن من بيوتهن.

غير أن الوسائل المذكورة في الآية الكريمة يجب ألا تستمر إلى مدة طويلة غير محدودة، فحسب الآية ١٣٠ من هذه السورة يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾، وكما قال الله تعالى في الآية ٢٢٧ من سورة البقرة، إن أقصى مدة لانقطاع العلاقة الحميمة بين الزوجين هي أربعة أشهر، إذ يقول تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾. أما إذا رأى الزوج أن زوجته قد ارتكبت

جُرمًا فاحشًا فعليه أن يلتزم بالشروط المذكورة في الآية ١٦ من هذه السورة، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

وأما عن «الضرب» المذكور في الآية كوسيلة أخيرة في تقويم الزوجة، فقد روى أحد الصحابة أن الرسول ﷺ قال إنه إذا اضطر المسلم أن يلجأ إلى ضرب زوجته فينبغي ألا يكون الضرب شديداً بحيث يترك أثراً على جسم الزوجة (الترمذي، كتاب الرضاع)، وحسب أبي داود والنسائي، فقد منع الرسول ﷺ ضرب الزوجات على الإطلاق، ولكن لما اشتكى عمر رضي الله عنه من أن بعض الزوجات قد أصابهن التمرد على أزواجهن، سمح الرسول ﷺ باللجوء إلى هذه الوسيلة ولكن بالشروط السابق ذكرها؛ ولكن لما اشتكت الزوجات من سوء معاملة أزواجهن، قال بغضب وسخط إن الأزواج الذين يضربون زوجاتهم ليسوا خير الرجال (ابن كثير ج ٣). وفي مناسبة أخرى قال الرسول ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» (الترمذي).

كذلك فإن الغرض من ذكر الصفات الإلهية المذكورة في نهاية الآية، أي ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ هو تحذير الأزواج من أن ضرب الزوجات، في حالة الاضطراب إلى اللجوء إلى الضرب، ينبغي ألا يكون بظلم أو بغرض الانتقام أو التسلط لأن لهم اليد العليا على زوجاتهم، أو لأنهم أكبر وأقوى منهم، فليعلموا أن الله تعالى هو أعلى وأكبر من الجميع، وأنه سوف يحاسب أولئك الأزواج عن كل سوء استغلال للسلطة التي أعطيت لهم على زوجاتهم.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا
مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا
إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

حَكَمًا: من حَكَم. يُقال حَكَّمَهُ أي وَّلاَهُ. حَكَمَ أو حَاكَمَ: مُنَفَّذَ الحُكْمَ؛ القاضي؛ فيصل أي الذي يقوم بالفصل بين الناس في المنازعات؛ الوالي (معجم لين).

التفسير:

يشير ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ إلى الدولة الإسلامية أو إلى المجتمع أو إلى الناس بوجه عام. ومن المفضل أن يكون «الحَكَمَان» من بين أقارب الطرفين المتنازعين، فمن المتوقع أن يكونا خبيرين بأسباب النزاع الحقيقية، ومن السهل أن يضع الطرفان المتنازعان قضيتهما بين أيديهما. وتبين الآية الكريمة أن الإسلام لا يترك وسيلة للتوفيق بين الزوج وزوجه قبل أن يسمح لهما بفك عقدة الزواج بينهما.

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

جارِ الْجُنُبِ: لفظة مركبة تتكون من كلمتين: جار (مجاور) وجُنُب (غريب أو بعيد). وعليه؛ فإن لفظة (الجارِ الْجُنُبِ) تعني: جارك من غير قومك؛ أو الجار البعيد (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ: هي أيضاً لفظة مركبة تتكون من كلمتين: صاحب (رفيق) والجانب (المصاحب). لذا فلفظة ﴿الصاحب بالجانب﴾ تعني: المُعَايَشِرُ؛ القريب؛ الرفيق؛ الملازم؛ الزميل في العمل (أقرب الموارد ولسان العرب والمفردات).

التفسير:

بعد تأكيد ضرورة عطف الزوج على زوجته ومعاملتها بالحسنى في الآيات السابقة، يحث الله تعالى المسلم في الآية الحالية على أن يوسّع دائرة عطفه لتشمل في نطاقها الإنسانية بأكملها، بدءاً من الأبوين اللذين هما الأقرب للإنسان، إلى الغرباء الذين هم أبعد ما يكونون عنه.

ويمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾: (١) الجار الذي يسكن قريباً؛ (٢) الجار الشفوق. كذلك يمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾: (١) الجار الذي يسكن بعيداً؛ (٢) الجار الذي ليس شفوفاً. أما قوله تعالى: ﴿الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ فيمكن أن يعني: (١) الزوج أو الزوجة؛ (٢) زميل السفر؛ (٣) زميل العمل أو التجارة؛ (٤) زميل المهنة؛ (٥) الجار التالي.

ويشير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلى العبيد، والإماء، والخدم، وحتى الذين يعملون تحت إمرة شخص ما.

وتدين الآية ذلك الذي لا ينقذ الأوامر الإلهية التي تحتويها هذه الآية، فتصفه بأنه مختال فخور، لأنه بدلاً من عمل الخير للآخرين ومعاملتهم بالعطف والشفقة، فهو ينظر إليهم نظرة دونية ويتصرف تجاههم بتعالٍ واستكبار. وإن مجرد الامتناع عن التعاطف مع الإخوة في الإنسانية، سواء كانوا أقارب أو جيراناً أو غرباء، يُعتبر نوعاً من الكبر.

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٨﴾

التفسير:

بعض الناس يتّصفون بالبخل، حتى إنهم بدلاً من أن ينفقوا أموالهم من أجل فائدة الآخرين، فإنهم لا ينفقونها حتى على أنفسهم، خوفاً من أن يعرف الناس شيئاً عن أموالهم. وهؤلاء كأنهم يكتُمون فضل الله تعالى عليهم. ولذلك فإنهم لا يُحرمون فقط من ثواب الإنفاق، ولا يخسرون كذلك فوائد العطاء والتصدق، ولكنهم يأثمون أيضاً بكتمانهم فضل الله تعالى عليهم، الذي منحهم إياه من أجل فائدة الإنسانية. يقول تعالى في سورة الضحى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ
الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

قَرِينًا: صيغة النعت من الفعل قَرَنَ. قَرَنَ شيئاً بشيءٍ: شَدَّه به ووصله إليه. قرين: رفيق؛ مصاحب؛ وأيضاً تعني الزوج (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يُنْفِق بعض الناس أموالهم بينما هم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهم يفعلون ذلك من أجل الحصول على الثناء والتقدير من الناس، وليس من أجل نيل رضا الله

تعالى. ولذلك، بدلاً من أن يفوزوا بالثواب على إنفاقهم، فإنهم يستجلبون غضب الله عليهم. وقد يحدث أحياناً أن ينفق البعض أمام الآخرين بغرض تشجيعهم على الإنفاق أيضاً مثلهم، غير أن هذه العلانية في الإنفاق تنتمي لفئة أخرى تختلف تماماً عن الفئة السابقة، ولها أجرها وثوابها عند الله.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ وَكَانَ اللّٰهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿٤٠﴾

إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً
يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

مِثْقَالٌ: من ثَقُلَ بمعنى: صار ذا وزن كبير؛ أو ثَقِيلٌ جداً. مثقال: وزن الشيء قليلاً كان أم كثيراً؛ ما يُوزَن به؛ وزن محدد تُعرف به الكمية؛ الدرهم؛ الدينار (معجم لين).

ذَرَّةٌ: مشتقة من ذَرَّ بمعنى: فَرَّق ونثر. الذَرَّ ومفردها الذَرَّة تعني: صغار النمل؛ بيض النمل؛ النمل الأحمر الصغير؛ الهباء المنتشر في الهواء (معجم لين).

التفسير:

ليس هناك من عمل طيب يضيع بغير حُسن الجزاء، حتى ولو كان فاعله من الكافرين. ورغم أن أعمال الكافرين الطيبة لا تجعلهم مستحقين للنجاة ودخول الجنة، إلا أنها تساعد على التقليل من شدة العذاب الذي يستحقونه، ويقلل من طول المدة التي كان ينبغي عليهم أن يقضوها في العذاب. وحيثما يقول القرآن المجيد إن أعمال

الكافرين لن تنفعهم بشيء، فإن ذلك يعني إما أن تلك الأعمال لن تكون سبباً في دخولهم الجنة، وإما أن جهودهم التي يبذلونها ضد الحق لن تُكلل بالنجاح. وحُسن الجزاء المذكور في هذه الآية له شقان، أولهما: الجزاء الذي يكون نتيجة لحسن أعمال المرء؛ وثانيهما: الجزاء الذي يكون نتيجة لرضا الله تعالى.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴿٤٢﴾

التفسير:

يوم القيامة سوف يشهد كل نبي على القوم الذي أرسل إليهم أو يشهد لهم، وتشمل كلمة «هؤلاء» كلاً من المؤمنين والكافرين في ذلك القوم، وتختلف طبيعة الشهادة باختلاف الحالات.

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ
لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ
حَدِيثاً ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

حَدِيثاً: من حدث بمعنى: وقع الأمر، لم يكن واقعاً من قبل. حَدَّثَ: روى وأورد الحديث... إلخ. حديث: جزء من معلومة؛ إعلان؛ خبر أو نبأ؛ تقليد أو عُرف؛ قول مأثور؛ كل ما يسمعه الإنسان من كلام أو خطبة. كذلك تعني كلمة «حديث»: جديد أو عصري أو جاء للوجود مؤخراً (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يبين قوله تعالى: ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أن كلمتي الأرض والسماء في القرآن المجيد لا تعنيان دائماً الأرض والسماء الماديتين، ولكنهما قد تعنيان أحياناً الحالة الأخلاقية والروحية للإنسان. فعندما يقف الناس بين يدي الله ﷻ لن يكون لهذه الأرض المادية وجود بالنسبة لهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ
سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا
إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ
مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ
الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

سُكَارَى: جمع سكران المشتقة من سَكَرَ أي: صار ثملاً أو مخموراً. سكر على فلان: اغتاز وغضب منه. سكرت الريح: سكنت. سكر الباب: سده. سكرة الموت: شدته وعشيته. سكرة الهم والنوم: اختلاط الحواس بسبب غلبة الغضب أو النوم. سُكَّرَ: المصدر من سَكَرَ وتعني: الثمالة؛ حالة تعترض بين المرء وعقله؛ وتعبّر عادة عن شرب الخمر ولكن يمكن أيضاً أن تستخدم للتعبير عن الحالات التي تنشأ من الغضب الجم أو الحب الجارف... إلخ (معجم لين). لمزيد من التوضيح انظر سورة الحجر الآية ٧٣ وسورة الحج الآية ٣.

وأخذاً بعين الاعتبار المعاني المختلفة لهذه الكلمة؛ فإن الشخص يُسمى «سكران» إذا كان ثملاً أي مخموراً؛ في نوبة الغضب؛ في نشوة الحب؛ إذا تلقى صدمة شديدة أو مفاجئة؛ إذا ابتلي بالخوف الشديد؛ إذا غلبه النعاس أو أي شيء مزعج يشتت انتباهه أو يفقده صوابه؛ إلخ.

جُنُبًا: من جنب. جنبه: دفعه ونَحَّاه وأبعده. جنب إليه: مال واشتاق وقلق للقياء. الجنابة: الغربة والبعد؛ وتعني أيضاً النجاسة أي حالة عدم الطهر الناتج من العلاقة الجنسية أو خروج المني المستوجب للغسل. الجُنُب: الغريب؛ البعيد؛ الذي أصابته الجنابة للواحد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً (معجم لين).

عَابِرِي سَبِيل: عابري هي في حقيقة الأمر عابرين وهي جمع عابر المشتقة من عَبَرَ. يُقال عبره أي: قطعه وجازه من ناحية للناحية الأخرى. عبر السبيل: شَقَّها أي مرَّ كأنه شَقَّها وقطعها. عبر تعني أيضاً: مات بمعنى أنه قد عبر طريق الحياة (معجم لين). إن تعبير «عابري سبيل» يعني المسافرين المار من غير وقوف ولا إقامة. ولا يُعتبر كل من هو بعيد عن وطنه عابر سبيل؛ إذ لو كان الشخص بعيداً عن وطنه في رحلة ثم توقف في مكان أو قرر الإقامة في بلدة أو قرية لبضعة أيام فإنه في تلك الحالات لا يُعدُّ من «عابري السبيل». أما إذا كان أثناء سفره قد توقف لليلة على جانب الطريق مثلاً في إستراحة أو محطة قطار... إلخ؛ فإنه في تلك الحال يُعتبر من «عابري السبيل».

الْغَائِط: من غاط بمعنى: اختفى في الأرض؛ حفر؛ أحدث فجوة أو حفرة في الأرض؛ غاص أو نزل في الأرض. لذا فإن «غائط» تعني: (١) المطمئن من الأرض أي قطعة من الأرض متسعة ومنخفضة ولها مرتقى يحيط بها؛ (٢) موضع قضاء الحاجة لأن الرجل إذا أراد التبرز كان يرتاد غائطاً من الأرض يغيب فيه عن أعين الناس؛ (٣) براز الإنسان حيث أنه يُطرح في الغائط (المكان المنخفض). «أتى الغائط» تعبير يعني: لبى نداء الطبيعة؛ قضى حاجته؛ تبرز (معجم لين).

تَيَمَّمُوا: مشتق من يممه بمعنى: قصده أو توخَّاه أو تعمَّده. تيمَّم المريض: مسح وجهه ويديه بالتراب. تَيَمَّم: هي عملية ضرب راحة اليدين على التراب الطاهر ثم مسح بهما الوجه والذراعين بالطريقة التي وصفت (تاج العروس).

التفسير:

حسب هذه الآية الكريمة، لا يمكن تأدية الصلاة كما ينبغي بمجرد أن يُتمم المصلّي بعض الكلمات دون أن يفهم معنى ما يقول. وتوَمَّى أيضاً إلى أنه ينبغي على المسلم غير العربي، بالإضافة إلى أداء الصلاة باللغة العربية، أن يدعو الله تعالى بلغته التي يجيدها، والتي يستطيع بها أن يعبرَ جيداً عن أفكاره ومشاعره.

وكلمة ﴿سُكَارَى﴾، رغم أنها تحمل معنى الثمالة في المقام الأول، إلا أنها تحمل معنى أوسع وأشمل، كما جاء ذكر ذلك في «شرح الكلمات». فهي تشمل أي حالة يكون الإنسان فيها غير متمالك لنفسه إما بسبب الغضب المشتعل، أو بسبب الحب الجارف، أو بسبب الجوع الشديد، أو بسبب النوم الغالب على النفس إلخ. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ» (البخاري، كتاب الوضوء). وأيضاً قال ﷺ: «إِذَا وُضِعَ عَشَاءُ أَحَدِكُمْ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَأَبْدَأُوا بِالْعَشَاءِ وَلَا يَعْجَلْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ» (البخاري، كتاب الصلاة)، وأيضاً قال ﷺ: «لَا يُصَلِّي بِمَحْضَرَةِ الطَّعَامِ وَلَا وَهُوَ يَدْفَعُهُ الْأَخْبَتَانِ» (سنن أبي داود، كتاب الطهارة).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُبْنًا﴾ يعني أنه كما أن الإنسان لا ينبغي أن يؤدي الصلاة عندما يكون في حالة سُكْر (أي عندما يكون غير متمالك لنفسه)، كذلك ينبغي عليه ألا يؤدي الصلاة وهو في حالة الجنابة (انظر معناها في شرح الكلمات عاليه)، إلى أن يتطهر تطهراً كاملاً بالاستحمام. إن العلاقة الجنسية تخلق نوعاً من النجاسة التي ينبغي إزالتها بالاستحمام، لضمان توفر حالة من الطهارة والنشاط والحيوية اللازمة لأداء الصلاة.

وبعني قوله تعالى: ﴿إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أن الإنسان عادة ينبغي ألا يؤدي الصلاة عندما يكون في حالة «نجاسة» إلا بعد أن يتطهر بالاستحمام، إلا أن هذا الاستحمام لا يكون فرضاً لازماً لأداء الصلاة إذا ما حدث أن أصبح المرء غير طاهر أثناء السفر على الطريق، إذ يمكن له في هذه الحالة أن يتيمم بالطريقة التي يوضحها الجزء الأخير من الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ يذكر أربعة أصناف من الناس لا يكون الوضوء والغسل مفروضاً عليهم من أجل أداء الصلاة، وإنما عليهم أن يقوموا بالتيمم، وهو مسح الوجه واليدين بالتراب الطاهر، كما جاء تفصيل ذلك في الأحاديث النبوية وفي السُّنة. والأصناف الأربعة من الناس هم: (١) المرضى؛ (٢) المسافرين؛ (٣) العائدون من تلبية نداء الطبيعة؛ (٤) الذين يلامسون زوجاتهم (من خلال العلاقة الحميمة). والصنفان الأخيران من بين هذه الأصناف الأربعة هما اللذان يتسببان في حالة من عدم الطهارة تستدعي الوضوء أو الغسل حسب ما تكون الحالة، ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ تتعلق بهما فقط. وعلى هذا فإن ما تريد الآية بيانه هو أن الصنفين الأخيرين إن لم يجدا ماء فيمكن لهما قبل أداء الصلاة، التيمم، أي المسح على وجوههم وأيديهم بالتراب الطاهر.

أما الصنفان الأولان فلا يوجد شرط توفر الماء أو عدمه عندما يكونان في حالة الجنابة، إذ يمكن لهما اللجوء إلى التيمم حتى مع توفر المياه. والجدير بالذكر أن التعبير ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ في هذه الآية الحالية هو بنفس معنى التعبير ﴿غَابِرِي سَبِيلٍ﴾، فكلاهما يعني الوجود في حالة السفر الفعلي.

وفي النهاية ينبغي ملاحظة أن الماء قد استُبدل بالتراب لتحقيق طهارة الإنسان، وذلك لأنه كما أن الماء يُذكر الإنسان بأصله الذي نشأ منه ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (المرسلات: ٢١)، فيخلق فيه إحساساً بالتواضع، كذلك فإن التراب يُذكر

الإنسان بالمادة البسيطة الأخرى التي خُلق منها، كما يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم: ٢١). غير أنه ينبغي أن يكون التراب طاهراً، وأي زيادة من التراب يجب نفخها أو إزالتها لضمان استعمال أقل كمية منه في التيمم.

ويتبين من الآية بجلاء أنه رغم أن التطهر بالماء وضوءاً أو غسلاً ضروري من أجل أداء الصلاة، فإن الإسلام لكونه شريعة كاملة يسمح للإنسان أن يستبدل الماء بالتيمم في بعض الظروف الخاصة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ
تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٥﴾

التفسير:

انظر الآية: النساء: ٩٠.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى
بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٦﴾

التفسير:

انظر الآيات: النساء: ١٧٤؛ الأحزاب: ١٨، ٦٦.

مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ
مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسُنْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ
أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَاتَ
خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٧﴾

التفسير:

يُسْتَعْمَلُ الْفِعْلُ «يَقُولُونَ» فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ أَيْضًا لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا يَعْبُرُ عَنْهُ الْإِنْسَانُ بِحَالَتِهِ أَوْ بِسُلُوكِهِ (رَاجِعِ الْآيَةَ ٣١ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ). وَقَدْ اسْتُعْمِلَ هَذَا الْفِعْلُ فِي الْآيَةِ بِهِذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ، أَيَّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِالْسُنْتِهِمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَلَكِنْهُمْ يَقُولُونَ بِمَسْلَكِهِمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا.

وَهُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَعَانِي لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «غَيْرَ مُسْمَعٍ» (أَيَّ دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَسْمُوعًا): (١) لَعَلَّكَ لَا تَتِمَكَّنُ مِنَ السَّمْعِ، أَيَّ أَنَّكَ لَا تَسْمَعُ بِسَبَبِ الصَّمَمِ؛ (٢) لَعَلَّكَ لَا تَسْمَعُ كَلَامًا أَوْ أَنْبَاءً لَا تَحِبُّ سَمَاعَهَا أَوْ قَدْ تَسْرَكَ؛ (٣) لَعَلَّ مَا تَقُولُهُ لَا يَكُونُ مَقْبُولًا أَوْ لَعَلَّ دَعْوَتَكَ تَكُونُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ وَنِدَاءُكَ لَا يُبْلَى؛ (٤) لَعَلَّكَ لَا تُطَاعُ؛ (٥) يُمْكِنُ أَنْ يَعْنِيَ هَذَا التَّعْبِيرُ أَنَّهُ رَغْمَ أَنْ الْيَهُودَ لَا يَتَمَنُّونَ هَذَا، فَلَعَلَّكَ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا يَزْعَجُكَ أَوْ يَحْزَنُكَ.

وَلِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «رَاعِنًا» انْظُرْ شَرْحَ الْآيَةِ ١٠٥ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَدْ اسْتُعْمِلَ الْيَهُودَ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتُ الَّتِي كَانُوا يَلُوبُونَ بِهَا أَلْسِنَتَهُمْ لِتُسْمَعَ بِغَيْرِ وَضُوحٍ مِنْ أَجْلِ: (١) إِخْفَاءِ الْمَشَاعِرِ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانُوا يَحْمِلُونَهَا تَحَايَا الرَّسُولِ ﷺ؛ (٢) مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْلِدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِاسْتِعْمَالِ تَعْبِيرَاتٍ مُشَابِهَةٍ عِنْدَ التَّخَاطُبِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ؛

(٣) للسخرية من المسلمين في الأمور التي تتعلق بدينهم، وكأنهم يقولون لهم في واقع الأمر: «إننا نخاطب نبيكم بأسلوب ساخر ونهزأ به باستعمال بعض الكلمات ذات المعاني المتبسة، ولو كان حقيقة نبياً من الله لكان قد عرف ذلك».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ
وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا
أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

وُجُوهًا: جمع وجه ولها العديد من المعاني: أول ما يبدو للناظر من البدن وفيه العينان والأنف والفم قيل سُمِّيَ به لأنه أشرف الأعضاء؛ مستقبل كل شيء؛ سيد القوم؛ القصد والنية؛ إلخ (أقرب الموارد).

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على نبوءتين تتعلقان باليهود: (١) سوف يقضي الله تعالى على قادتهم وسوف ينهزمون ويضطرون إلى أن يولّوا الأدبار، أي أنهم سوف يُنْفَوْنَ من الأرض ويُطردون من بلادهم. (٢) أن الله تعالى سوف يلعنهم كما لعن أولئك الذين انتهكوا حرمة السبت. وقد تم الربط بين الكلمات التي تحتوي كلتا النبوءتين باستعمال الحرف ﴿أَوْ﴾ ليس للتعبير عن الشك، وإنما لبيان أن إحدى العقوبتين سوف تحلّ باليهود؛ أو أن فريقاً من اليهود سوف ينال إحدى العقوبتين بينما تحلّ العقوبة الأخرى بالفريق الثاني. ولا يعني قوله تعالى: ﴿فَنَرُدُّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ كما ظن بعض المفسرين: «أن الله سوف يشوّه خلقهم فيجعل وجوههم في ظهورهم بالفعل». وبالإضافة إلى أن هذا التفسير يتعارض مع التعبيرات العربية، فليس هناك

في التاريخ ما يؤيده. وإذا أخذنا كلمة «وجوه» لتعني حرفياً وجه الإنسان، فحينئذ تكون الجملة كلها مجازية وتعني الانحطاط التام أو الدمار الكامل.

تُوضّح الآية أيضاً أنه عند ذكر عقاب أولئك الذين انتهكوا حرمة السبت بجعلهم قردة خاسئين (البقرة: ٦٦؛ المائدة: ٦١؛ الأعراف: ١٦٤-١٦٩)، فإن هذا لا يعني أن اليهود قد تحوّلوا بالفعل إلى قردة، فكما هو الحال في الآية الحالية، جاء ذكر نفس النبوة عن اليهود الذين كانوا يعارضون الرسول ﷺ، ومع ذلك لم يحدث أنهم تحوّلوا بالفعل إلى قردة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

يُشْرِكُ: من شَرَك، يُقال شرك فيه أي: ساهم فيه أو صار شريكاً له فيه. أشرك بالله: جعل له شريكاً في ذاته أو صفاته أو سلطانه... إلخ. الشِّرْكُ تعني: (١) المشاركة (٢) اتخاذ شريك لله أي الاعتقاد بتعدد الآلهة (معجم لين وأقرب الموارد). إن «الشرك» بمفهومه الواسع لا يقتصر على عبادة الأصنام أو اتخاذ أشخاص أو أشياء شركاء لله تعالى أولهم صفاته أو يشاركونه سلطانه... إلخ. إنما يشمل الشِّرْكُ أيضاً محبة شيء أو شخص المحبة التي تنبغي لله تعالى وحده؛ أو الثقة واليقين في شيء أو شخص كما هو في الله تعالى، وهكذا. فهذا النوع الأخير من الشِّرْك هو ما يُسمى بـ«الشرك الخفي»؛ أي الشِّرْك المستور الذي لا يمكن تمييزه بسهولة.

التفسير:

إن الشرك الذي تشير إليه الآية الكريمة لا يقتصر على عبادة الأصنام وحدها، وإنما يشمل أيضاً الممارسات الوثنية المنتشرة بين العوام من الناس، حتى بين الكثير من مسلمي اليوم، مثل عبادة الأولياء بالتوجه إليهم بالدعاء وتقديم القرابين لهم. إن جميع هذه الممارسات تعتبر شركاً عند الله تعالى. أما «الشرك الخفي»، مثل محبة شيء أو شخص والثقة فيه بالشكل الذي ينبغي لله وحده، فمن الممكن أن يغفره الله تعالى إذا ارتكبه الإنسان بجهل أو بدون حسن تقدير للأمر، بشرط أن يكون الإنسان مؤمناً صادقاً بالله تعالى، ويجاهد من أجل فعل الأعمال الصالحة.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أن الشخص المشرك لا يمكن أن يتوب، أو أن توبته لن تُقبل حتى في هذه الحياة الدنيا، وإنما يتعلق ذلك بمرحلة ما بعد الموت، أي من مات وهو على الشرك.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ
يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

فَتِيلًا: من قَتَلَ، يُقَالُ قَتَلَهُ أَي: لواه كما يلوي أحد الحبل. رجل محكم القتل: رجل مكتنز؛ مُحْكَمُ الهيئة؛ كما لو أنه أُحْكِمَ فتله. فتيل تعني: (١) حبل مفتول أي ملتو؛ (٢) حبل دقيق من خَزَم أو ليف يُشَدُّ على السَّحَاة التي في شق النواة؛ (٣) ما فتلته بين أصابعك من وسخ؛ (٤) الشيء الذي لا قيمة له ولا أهمية. يقولون «ما أغنى عنك فتيلًا»: أي شيئاً (معجم لين).

التفسير:

إن ما أذى باليهود إلى الشرك، واتخاذ الشركاء لله تعالى، هو ذلك الاعتقاد الخاطئ بأنهم قوم صالحون وليسوا في حاجة إلى مصلح سماوي. وقد سقط مسلمو اليوم أيضاً في هوة هذه التصورات الخادعة. فعندما يتدنس القوم من الناحية الدينية، فلا يمكن إصلاحهم إلا عن طريق الله تعالى، وذلك بإرسال المبعوثين من لدنه لإصلاحهم.

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥١﴾

التفسير:

إن دعوى اليهود بأن الله تعالى لن يرسل أنبياء من لدنه لأنهم لم يعودوا في حاجة إلى مزيد من الأنبياء، تبلغ حد الكذب والافتراء على الله تعالى. فإذا فسد قوم يصبح من المؤكد أن يظهر فيهم نبي، وقد ظهر ذلك النبي بالفعل في شخص الرسول ﷺ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجُبَّتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
سَبِيلًا ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

الْجُبَّتِ: تعني: (١) صنم أو أصنام أو اسم صنم من أصنام قريش؛ (٢) كل ما عُبدَ من دون الله؛ (٣) الذي لا خير فيه؛ (٤) الساحر أو الكاهن وما شابه؛ (٥) الشيطان؛ (٦) السحر (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يؤمن المسلمون بجميع الأنبياء المذكورين في الكتاب المقدس، كما يؤمنون أيضاً بأن التوراة في أصلها قد نزلت على موسى عليه السلام من الله تعالى، ومع ذلك فإن الحقد والكرهية التي كان اليهود يحملونها للمسلمين، دفعتهم إلى اعتبار الوثنيين من عبّاد الأصنام، الذين كانوا يكفرون بأنبيائهم وكتبهم المقدسة، أهدى من المسلمين المؤمنين. وإنه لمن المؤسف حقاً أن بعض المسلمين اليوم يقولون إنه من الأفضل أن ينكر المرء الإسلام كلية عن أن يقبل سيدنا أحمد، الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، الذي لا يوجد بطل مدافع عن الإسلام مثله.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ
فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٣﴾

التفسير:

لقد لعن الله تعالى اليهود بسبب قباحة ادّعائهم أن الوثنيين أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، رغم أن أولئك الوثنيين ينكرون ويحتقرون أنبياء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يتضمن نبوءة عن الحالة المزرية التي سوف يؤول إليها اليهود. وقد رأى العالم كله كيف تحققت هذه النبوءة بشكل كامل خلال العصور المتتالية.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ
النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

نَقِيرًا: من نقر وتعني: التقط الطائر الحب من هنا وهنا؛ أصاب السهم الهدف ولم ينفذ من خلاله؛ نقب أو حفر الشيء بآلة مسننة؛ نقش كتابة على الحجر؛ ضرب بأصابعه على العود أو الدف؛ ثقب؛ نقب أو خرم الشيء؛ حفر قطعة من الخشب أو ما شابه. نقيير تعني: (١) كل ما تُثقب أو حُفِرَ أو نُقِرَ؛ (٢) ما نُقِرَ من الخشب والحجر ونحوه؛ أو الجذع يُنقر ويُجعل فيه كالمراق يُصعد عليه؛ (٣) النكتة في ظهر النواة (لين وأقرب الموارد). وتستخدم هذه الكلمة مجازًا للإشارة إلى أقل كمية.

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ فَقَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَأَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾

التفسير:

لقد منح الله تعالى اليهود، الذين هم أبناء إبراهيم عليه السلام، الكتاب والحكمة والملك العظيم، فإذا شاء الله ﷻ أن يمنح نفس هذه النعم لقوم آخرين مثل العرب الذين هم أيضاً أبناء إبراهيم عليه السلام، فليس من حق اليهود أن يحقدوا عليهم.

وعندما نزلت هذه الآية الكريمة، كان المسلمون قد نالوا جزءاً فقط من «الملك العظيم» الذي تذكره الآية، غير أن القرآن المجيد يذكر هذا الملك العظيم كما لو أن المسلمين قد نالوه بالفعل، وذلك لأن وعود الله تعالى تُعتبر دائماً أنها قد وُقيت، لأنها حتماً سوف تتحقق.

فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ
وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٦﴾

التفسير:

انظر الآيات: البقرة: ٢٥٤؛ يونس: ٤١؛ الصف: ١٥.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ
نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٧﴾

التفسير:

لقد أثبت العلم الحديث أن الطبقة الجلدية في الإنسان أكثر حساسية من الطبقة اللحمية التي تحت الجلد، حيث يوجد في الجلد عدد أكبر من الأعصاب. وقد كشف القرآن المجيد عن هذه الحقيقة العظيمة منذ ما يقرب من أربعة عشر قرناً بقوله إن الجلود، وليس لحوم أهل النار، سوف تتجدد كناية عن زيادة الإحساس الألم العذاب.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ
ظِلًّا ظِلِيلًا ﴿٥٨﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ لا تعني «طاهرة»، وإنما تعني أن أزواج المؤمنين قد «جُعلوا مُطهرين» بدرجة من الطهارة العالية التي تتطلبها الحال في الجنة. ويعني قوله تعالى: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ جَوْاً من السلام والهدوء، الذي يخلو تماماً من كل العناصر التي تسبب الألم. ويذكر الله تعالى في مكان آخر من القرآن المجيد قوله ﷺ: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٤).

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ
أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

أَمَانَات: جمع أمانة مشتقة من أَمَن. يُقال أَمَنَهُ أَي: صدَّقه ووثق به؛ عهد إليه النفوذ والسلطة؛ الرقابة على أمر شخص؛ أو المهمة لشيء. الأمانة: الوفاء أو الإخلاص؛ ما عُهِدَ إلى شخص من رعاية أو ثقة؛ الواجب أو المهمة الموكلة لشخص؛ ما فرضه الله على العباد؛ ضد الخيانة؛ الوديعة؛ أهل البيت (معجم لين). روي عن رسول الله ﷺ أنه قال ما معناه إن المنصب أو السلطة أمانة (مسلم؛ كتاب الإمارة).

التفسير:

لما كانت الآيات السابقة تعد المسلمين بالملك والسلطة، يحثهم القرآن المجيد في هذه الآية الكريمة على أن يضعوا أمانة الحكم في أيدي أهل الثقة الذين لديهم المؤهلات

اللازمة للحكم. إن السُّلطة أو القدرة على الحكم قد وُصفت هنا بأنها أمانة، لأنها في حقيقة الأمر تخص الناس، وليست ميراثاً لأحد ولا مِلْكاً لأسرة معيّنة.

وتلفت الآية أنظار المسلمين إلى مسؤوليتهم الكبيرة التي تتعلق باختيار رئيس دولتهم أو الخليفة، كما تحذّرهم بأنهم عند اختيار الخليفة أو رئيس الدولة، إذا سمحوا للاعتبارات الخاصة من الميول الشخصية أو محاباة الأقارب بالتغلب على مصالح الدولة أو المجتمع أو الدين، وأبدوا عدم اهتمام أو قلة اكتراث بهذه المسؤولية، فإن الله تعالى سوف يحاسبهم كما يحاسب من يخون الأمانة. كذلك فإن الآية تدين نظام الحكم الوراثي أو حكم السلالات، وتقنن نظام الحكم الذي يقوم على التمثيل الشعبي. فينبغي انتخاب الحاكم أو الخليفة، وعلى الناس عند انتخابه أن يختاروا الشخص الذي يصلح لهذا المقام. وعلى الخليفة أو الحاكم بدوره أن يكون عادلاً ومنصفاً للأفراد، وللجماعات، وللدولة بوجه عام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ينطبق على رئيس الدولة الإسلامية، كما ينطبق أيضاً على كل أولئك الذين عُهد إليهم بمسؤولية الإدارة، فجميعهم ينبغي لهم أن يستخدموا سُلطتهم استخداماً جيداً وعادلاً.

والغرض من اختيار الصفات الإلهية «السميع والبصير» لذكرها في نهاية الآية، هو تذكير المسلمين بأنهم إذا وجدوا صعوبة في تنفيذ أي أمر من أوامر الله تعالى، فعليهم بدلاً من عصيانه أن يدعوا الله تعالى، وسوف يسمع سبحانه أديعتهم ويعينهم على نوال حقوقهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

أُولِي الْأَمْرِ: مكونة من كلمتين: (١) أولي وهي في الأصل أولو وتعني مالكو أو ذوو بمعنى أصحاب؛ و (٢) الأمر وتعني الحكم أو السلطة أو الشأن أو القيادة... إلخ. أولي الأمر تعني: (١) ذوي السلطة أو الحكم أو النفوذ؛ (٢) رجال العلم الذين بسبب علمهم يحملون مسؤولية المعرفة (تاج العروس وأقرب الموارد).

التفسير:

إن كلمة ﴿أَطِيعُوا﴾ التي تكرر ذكرها قبل كلمة ﴿اللَّهِ﴾ وكلمة ﴿الرَّسُولِ﴾ قد حُذفت قبل كلمتي ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ لتشير إلى أن طاعة أولي الأمر التي يؤكدتها القانون إنما هي في الحقيقة طاعة لله وللرسول ﷺ.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إلى أنه عند وقوع نزاع فينبغي رد الأمر إلى القرآن المجيد وإلى السنة النبوية المؤكدة والحديث الشريف الذي ثبتت صحته. ويتعلق هذا الأمر الإلهي بالنزاعات التي تنشأ بين الحكام والمحكومين، أو بتلك التي تنشأ بين المحكومين. فحينما يكون هناك عدم اتفاق بين الحكام والمحكومين، ينبغي أن يُعرض الأمر على كتاب الله المجيد والسنة المؤكدة والحديث الصحيح. فإذا كانت هذه المصادر لم تقل شيئاً يتعلق بموضوع النزاع، فيجب حينئذ على المحكومين الالتزام بطاعة الحكام، حتى ولو كانوا على غير اتفاق معهم، فإن الطاعة الحقيقية هي الطاعة فيما يتعارض مع ما تميل إليه النفس، وما لا يتفق مع وجهة النظر الشخصية. وكذلك يمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أنه عند وقوع النزاع بين الحكام والمحكومين، فعلى المحكومين

أن يعملوا حسب ما أمرهم به الله والرسول ﷺ في هذه الظروف، أي عليهم في هذه الحالة أن يطيعوا أولي الأمر.

إلا أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ﴾ يشير في المقام الأول إلى الاختلافات التي تنشأ بين المحكومين أنفسهم، وليس إلى الاختلافات التي تنشأ بين الحكام والمحكومين. وعلى هذا يكون الأمر الذي تتضمنه الآية هو أنه في الأمور التي تتعلق بالنظام والإدارة، ينبغي للمسلمين أن يطيعوا أولي الأمر، ولكن فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية، فعليهم الرجوع إلى أوامر الشريعة الإسلامية وليس إلى أي قانون آخر. وهذا هو الرأي الذي أخذ به ابن كثير (ج ٣ ص ١٣٠-١٣١)، كما أنه الرأي الذي يتفق مع السياق. فالآية التالية أيضاً تتعلق فقط بتنازع المحكومين بعضهم بعضاً وليس بتنازع الحكام والمحكومين.

ويشمل نطاق ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ في معناه الواسع أولئك الحكام غير المسلمين الذين قد يكونون في موقع السلطة على المسلمين. وفي هذه الحالة لا تكون كلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ تعني من أنفسكم، وإنما تعني «من بينكم» أي «عليكم». وتبين سنة الرسول ﷺ وأحاديثه بجلاء أنه في الأمور المدنية، ينبغي على المسلمين أن يطيعوا حكامهم، حتى ولو كانوا غير مسلمين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا
أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ
أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا
أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦١﴾

التفسير:

ينبغي ألا تؤخذ كلمات الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ على أنها تختص بواقعة معينة؛ وإنما تشير إلى اتجاه عام بين المنافقين.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٢﴾

التفسير:

انظر الآية: المنافقون: ٦.

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا
وَتَوْفِيقًا ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

تَوْفِيقًا: المصدر من وَفَّقَ المشتقة من وَفَّقَ. يقولون وَفَّقَ أمره أي: كان صواباً أو صادفه موافقاً لإرادته. وفقه لأمر: سده وجعله موافقاً له. وَفَّقَ بين الشيئين: أصلح بينهما أو جعل بينهما انسجاماً أو تآلفاً. وفقت بين القوم: أصلحت بينهم وأفشيت بينهم السلام (معجم لين).

يمكن أن تؤخذ هذه الآية أيضاً على أنها تنطبق على المنافقين بوجه عام. وقد رُويت حادثة معينة في الأحاديث تتعلق بهذه الآية. ورغم أنها رواية غير مؤكدة ولا تبدو صحيحة إلا أنه لا مانع من ذكرها هنا. إذ يُحكى أن نزاعاً وقع بين واحد من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وبين أحد اليهود. وقد ظن المنافق أن الرسول ﷺ سوف يحكم لصالحه، فاقترح على اليهودي أن يذهب إليه ليفصل في الأمر. غير أن النبي ﷺ، خلافاً لما كان يتوقعه المنافق، حكم لصالح اليهودي الذي كان على حق. فلما أسقط في يد المنافق، اقترح أن يذهب إلى أبي بكر ﷺ، آملاً أن يحكم لصالحه بعد أن خذله الرسول ﷺ، ولكن أبا بكر ﷺ حكم أيضاً لصالح اليهودي. فلما خاب أمله للمرة الثانية، ظن المنافق أن عمر ﷺ رجل غيور للإسلام والمسلمين، فلن يحكم لصالح واحد من اليهود. فاقترح على خصمه أن يذهب إلى عمر ﷺ ليقرر الأمر بينهما. ولكن عمر ﷺ، كما تقول الرواية، عندما علم من اليهودي أن النبي ﷺ قد حكم في الأمر لصالحه، ضرب عنق المنافق لأنه يقول إنه مسلم ورغم ذلك رفض قبول حكم الرسول ﷺ. وعلى ذلك اجتمع المنافقون وذهبوا إلى الرسول ﷺ وأخبروه أن الاحتكام إلى عمر ﷺ كان فقط بغرض التوفيق والإصلاح. (البحر المحيط ج ٣ ص ٢٧٩).

وتبين الكلمات ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ التي جاءت على لسان المنافقين أنه كان في الأمر مكيدة. غير أنه من المستبعد أن تكون قصة المنافق واليهودي قد حدثت كما جاءت في الرواية التي تفتقد كل عناصر التوثيق.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٤﴾

التفسير:

يحث الله تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ على أن يُعامل المنافقين برفق، لأنه ﷺ يعلم أن قلوبهم قد أصابها مرض النفاق، ولكنه أمهلهم لعلمهم يتوبون ويصلحون من أنفسهم. ولذلك، كان على الرسول ﷺ أن يعاملهم باللين، وألا يعاقبهم على مكرهم بالإسلام، إذ لم يكونوا قد تخطوا بعد مرحلة الإصلاح، وكان من الممكن أن يدركوا خطأهم يوماً ما ويصلحوا من أنفسهم فيصيروا من المسلمين المخلصين.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا
اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ
تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

التفسير:

يستنتج البعض أحياناً من كلمات هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أن كل نبي ينبغي أن يُطاع من قبل القوم الذي يُرسل إليهم، إلا أنه هو نفسه ينبغي ألا يعطي ولاءه لنبي آخر ولا يكون خاضعاً لشرعة نبي آخر. ومن الواضح أن هذا الاستنتاج في غاية الخطأ. إن معنى هذه الكلمات ببساطة وبشكل مباشر، هو أن الله تعالى حين يرسل نبياً، فإنه يريد من القوم الذين أرسله إليهم أن يطيعوه ويتبعوه، ولكن ذلك لا يعني أنه هو نفسه لا يكون خاضعاً ومتبعاً لنبي آخر. فالحاكم يُرسل إلى المقاطعة ليطيعه أهلها، ولكن ذلك لا يعني أنه ليس خاضعاً لحكم الحاكم العام، أو لحكم الملك. وقد ذكر القرآن المجيد أن هارون عليه السلام كان نبياً تابعاً لموسى عليه السلام، ولذلك لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه على الجبل، وترك هارون عليه السلام ليرعى بني إسرائيل،

فعبدوا العجل، عَنَّفَ موسى ﷺ عند عودته أخاه هارون ﷺ تعنيفاً شديداً وقال له: ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه: ٩٤). وانظر أيضاً الآية ٤٥ من سورة المائدة.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا
شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

حَرَجًا: المصدر من حَرَجَ بمعنى: صار ضيقاً؛ صار قلقاً ضيق الصدر؛ ارتاب وشك لأن الشك يقلق العقل؛ صار في عسر خاصة بسبب ارتكاب إثم أو جريمة تستوجب العقاب. حَرَجٌ: المكان الضيق؛ الشدَّة؛ الإثم؛ الجريمة أو المعصية التي يستحق مرتكبها العقاب (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أن التوجيه الذي تتضمنه هذه الآية لا يتعلق فقط بالرسول ﷺ وحده. فالآية تذكر المنازعات التي يتم الفصل فيها، وعلى ذلك يجب ألا يُحمل التوجيه الذي تحتويه على شخص النبي ﷺ وحده، ولكن باعتباره رئيس الدولة، وبالتالي فهو ينطبق أيضاً على خلفائه. إذ لا يتحتم على المسلمين أن يقبلوا فقط حكم الشريعة الإسلامية فيما يحدث بينهم من خلافات، ولكن عليهم أيضاً أن يقبلوا حكم أولي الأمر ببشاشة ورضا. إن هذا الأمر ضروري وحيوي من أجل المحافظة على التوافق بين أفراد المجتمع. وفي الواقع، إن السبب الرئيس لوجود التنافر والنزاع في المجتمع، هو أن كل طرف من أطراف النزاع يعتبر أن حكمه الشخصي هو الصحيح، ويرفض الإذعان لحكم أولي الأمر. إن الآية لا تأمر المؤمنين أن

يتحاكموا في كل خلافاتهم إلى الرسول ﷺ أو إلى خلفائه ونوابه وممثليه فحسب، بل وأن يتقبلوا قراراتهم بسعة صدر وبدون اعتراض.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ
أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ﴿٦٧﴾

التفسير:

تتعلق هذه الآية بمنافقي المدينة. ولا تعني ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ المعنى الحرفي الذي تحمله هذه الكلمات، لأن الانتحار غير مشروع في الإسلام. إن كلمة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ تعني ببساطة «أفراداً من بينكم» (انظر شرح الآية ٥٥ من سورة البقرة). لقد كان على المهاجرين أن يتخلوا عن مأواهم، ويتركوا بيوتهم، ويقتلوا أقرباءهم من المشركين أثناء الحروب التي فرضت عليهم من جانب أهل مكة المشركين.

وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٨﴾

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٩﴾

التفسير:

تبين الآية التالية المعنى المقصود هنا بالهداية إلى طريق الله المستقيم.

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

مَعَ: كلمة شائعة في اللغة العربية تفيد المصاحبة وتعني مع أو من... إلخ؛ وتفيد المصاحبة والمعية بين شخصين أو أكثر سواء حرفياً أو مجازياً. لذا فإن كلمة «مع» تشير إلى: (١) اجتماع شخصين أو أكثر معاً في المكان؛ (٢) اجتماع شخصين أو أكثر معاً في الزمان؛ (٣) اجتماع شخصين أو أكثر معاً في الشرف والرتبة. كذلك تفيد كلمة «مع» معنى الثُصرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي أن الله تعالى ناصرنا (مفردات الراغب).

التفسير:

تعود أهمية هذه الآية الكريمة إلى أنها تُبين درجات الرقي الروحي المفتوحة أمام المسلمين. هذه الدرجات الأربع هي: (١) النبيين؛ (٢) الصِّدِّيقين؛ (٣) الشهداء؛ (٤) الصالحين، وهي الدرجات التي يمكن نوالها باتباع الرسول ﷺ. وهذا شرف اختص به هو وحده فقط، ولم يشاركه فيه رسول آخر. ومما يدل على صحة ذلك الاستدلال ما جاء في الآية التي تتحدث عن الرسل عامة فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ٢٠). وعند قراءة الآيتين معاً يتضح أنه بينما يمكن لأتباع الأنبياء كافة أن يصلوا إلى درجة الصديقين والشهداء، وليس أعلى من ذلك، فإن أتباع الرسول ﷺ يستطيعون الوصول إلى درجة أعلى من ذلك، وهي درجة النبيين.

وقد اختلف البعض مع هذا الرأي بناء على فهمهم للحرف ﴿مَعَ﴾ الذي يأتي أيضاً بمعنى «مِنْ» فقالوا إنه يعني «المعية» فقط، أي أن أتباع الرسول ﷺ سوف يكونون «مع» النبيين ولكنهم لن يكونوا «من» النبيين. وبالإضافة إلى ما قيل في «شرح الكلمات»، فإن الحرف «مع» إذا كان يعني «المعية» فقط، فإن هذا معناه أن أتباع الرسول ﷺ سوف يحظون بمصاحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ولكن بدون أن يكونوا منهم بالفعل، وبدون الحصول على أي من هذه الدرجات الأربع، مما يعني أنه بناء على التركيب الذي جاءت به الآية، ليس فقط لن يستطيع أحد باتباعه الرسول ﷺ أن يصل إلى درجة النبيين، بل إنه لن يصل حتى إلى درجة الصديقين أو إلى درجة الشهداء أو إلى درجة الصالحين، ولن يكون جزاؤه سوى أن يكون بمعية هؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجات الروحية، بغير أن يحظى هو بها، وهو أمر غير مقبول وغير معقول. فمن الواضح أن حرف ﴿مَعَ﴾ الذي جاء في الآية يحكم الدرجات الأربع المذكورة، أي درجة الصالحين، والشهداء، والصديقين، والنبيين، حيث ترتبط هذه الدرجات الأربع مع بعضها بعضاً في سلسلة واحدة. وما ينطبق على أحدها ينطبق على جميعها. وعلى هذا، إذا كان يمكن لأي فرد من الأمة، بناء على هذه الآية، أن يصل إلى درجة الصالحين بطاعته واتباعه الرسول ﷺ، فيمكن له أيضاً أن يصل إلى درجة النبيين. وإذا امتنع نوال أحد من أتباع الرسول ﷺ درجة النبيين، فلا بد أن يمتنع أيضاً نواله درجة الصالحين.

وكما جاء في شرح الكلمات، فإن من الخطأ القول بأن الحرف ﴿مَعَ﴾ يعني دائماً مصاحبة قوم دون أن يكون المرء منهم أو في درجتهم. وقد استخدم الحرف ﴿مَعَ﴾ في أماكن عديدة من القرآن المجيد بمعنى «مِنْ» أو «من بين»، كقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: ١٩٤) ومثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء: ١٤٧)، حيث يقول الله تعالى إن أيّاً من هؤلاء المنافقين إذا تابوا وأصلحوا أعمالهم، واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، فسيكونون مع المؤمنين. ومهما جمح الخيال بأحد، فلا يمكن له أن يقول بأن هؤلاء سوف يحظون فقط بمعية المؤمنين دون

أن يكونوا من المؤمنين فعلاً. وعلى ذلك فالآية تدل دلالة قاطعة على أن الحرف ﴿مَعَ﴾ قد جاء هنا بمعنى «من» وليس بأي معنى آخر. ونفس الكلام ينطبق على قوله تعالى المذكور في آل عمران: ﴿وَتَوَفَّيْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾. وبهذا المعنى نفسه جاء حرف ﴿مَعَ﴾ في الآية الحالية التي نحن بصدددها. ولو كان الحرف ﴿مَعَ﴾ يعني مجرد المصاحبة والمعية فقط في الآيات السابقة، لصارت تلك الآيات بلا معنى ولا مضمون. إذ لا يمكن أن يكون ذلك هو الأجر الحسن الذي يعده الله تعالى لعبده المؤمن الذي يطيع الله والرسول ﷺ، فيكون جزاؤه أن يجلس في صحبة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولكن بغير أن يكون هو نفسه قد نال إحدى هذه الدرجات الروحية السامية. ومما يعزز أيضاً القول بأن الحرف ﴿مَعَ﴾ لا يأتي دائماً بمعنى المصاحبة والمعية، ما ذكره الرسول ﷺ قبيل وفاته حيث قال: «مع الرفيق الأعلى»، أي الحقني بجمع النبيين في السماء. فهل يعني هذا الدعاء الذي دعا به الرسول ﷺ قبل لحظة وفاته، أنه يريد أن يظفر بصحبة الأنبياء السابقين فقط بدون أن يكون هو نفسه منهم؟.

ويستدل البعض أحياناً على المعنى الخاطئ المذكور فيما سبق بقوله تعالى الذي جاء في الآية التالية: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾، إذ يقول هؤلاء إن كلمة «الفضل» تبين أن ما سوف يناله أولئك الذين يطيعون الله والرسول ﷺ، سوف يكون نتيجة لفضل الله تعالى الخالص، وليس جزاء لأعمالهم ولا نتيجة لأفعالهم. ولكن السؤال الذي ينشأ هنا هو: هل يصل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين إلى درجاتهم العالية هذه بغير «فضل» الله تعالى؟ ألم يقل الرسول ﷺ نفسه حين سئل عما إذا كان سيدخل الجنة بعمله، إنه سيدخل الجنة إذا تعمد الله برحمته (البخاري، كتاب الرقاق)؟ فهل هذه الإجابة منه ﷺ تعني أنه لا «يستحق» دخول الجنة؟ إن الحقيقة التي لا مرأى فيها هي أن كل بركة وكل نعمة ينالها الإنسان هي من فضل الله تعالى، مع أن أعمال الإنسان هي التي تستدرّ رحمته ﷻ.

ولعله يجدر الإشارة هنا إلى أن التفسير الذي قدمناه للآية ليس بجديد ولا مبتدع. فقد أيده أبو حيان، المؤلف المعروف لكتاب «البحر المحيط»، وكذلك الإمام الراغب صاحب المعجم الشهير. وقد نقل البحر المحيط (ج ٣، ص ٢٨٧) قول الإمام الراغب الذي قال: «قسم الله المؤمنين في هذه الآية أربعة أقسام، وجعل لهم أربعة منازل بعضها دون بعض، وحث كافة الناس أن لا يتأخروا عن منزل واحد منهم». ويوضح هذا الشرح أن كلاً من هذين المفسرين كانا يؤمنان بأنه من الممكن نوال درجة النبوة، كما تومئ بذلك الآية. وكتب صاحب التفسير المعروف «روح المعاني» فقال ما يلي: «إن النبوة عامة وخاصة، والتي لا ذوق لهم فيها هي الخاصة؛ أعني نبوة التشريع، وهي مقام خاص في الولاية، وأما النبوة العامة فهي مستمرة سارية في أكابر الرجال غير منقطعة دنيا وأخرى، وبقيناً يمكن لأتباع الرسول ﷺ الوصول إليها». لقد ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا وَلَوْ عَاشَ لَعَتَقْتُ أَخْوَالَهُ الْقَبْطُ وَمَا اسْتُرِقَّ قَبْطِيٌّ» (ابن ماجه، كتاب الجنائز).

كذلك يمكن ملاحظة أنه حتى ولو كان الحرف ﴿مَعَ﴾ يعني «في معية» ولا يعني «من»، فلن يكون هناك فرق كبير في معنى الآية، فكثيراً ما تعني المعية أنك أحد أفراد الفريق، فعندما تكون مع فريق من الناس فإنك واحد منهم. ولمناقشة موضوع النبوة بتفصيل أكبر يرجى مراجعة شرح الآية ٤١ من سورة الأحزاب.

وأخيراً، فإن كلمة ﴿رَفِيقًا﴾ التي وردت في نهاية الآية يجب ألا يفهم منها مجرد الرفقة؛ لأن استخدامها يشير إلى معنى آخر، وهو أن أولئك الذين يطيعون الله تعالى والرسول ﷺ بصدق وإخلاص، لن ينالوا درجة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فحسب، وإنما سوف يشكلون معهم نوعاً من الشراكة أو الأخوة أيضاً.

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧١﴾

التفسير:

انظر الشرح المذكور للآية السابقة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

تُبَاتٍ: (جماعات) مشتق من ثبى وليس من ثبت كما قد يُظن. يُقال ثبى الشيء أي: جمعه ونمّاه. تَبَوُّتُ له خيرًا: أثبتت عليه ثناءً كثيرًا. تُبّة التي جمعها تُبَات تعني: جماعة أو عصابة من الرجال؛ مجموعة معيّنة من الرجال؛ مجموعة من الفرسان؛ مكان تجمع المياه في واد أو على الأرض (لين وأقرب الموارد).

حِذْرُ: الفعل حَذَرَ يعني احترز وتيقظ وتنّبّه؛ تَأَهَّبَ؛ تَجَهَّزَ؛ خاف. حَذَرُ: احتراز؛ تحفظ واحتراس؛ حالة تأهب أو خوف (معجم لين). وهذه الكلمة تتسع لتشمل كل أنواع الاستعداد والتأهب اللازم للدفاع ومنها التسلّح.

التفسير:

يُحَذِّرُ الله تعالى المسلمين من الغفلة ويأمرهم أن يكونوا متيقّظين دائماً، وفي حرص مستمر، وعلى أهبة الاستعداد، حتى حينما يخرجون لمواجهة العدو. ويمكن أن تؤخذ الآية كذلك بالمعنى المجازي، فتتطبق على الأنشطة الفكرية ونشر الدعوة الإسلامية.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ
مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ
مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٣﴾

شرح الكلمات:

لَّيَبْطِئَنَّ: من بطؤ بمعنى: تَلَكَّأَ أو تَوَانَى أو تَأَخَّرَ. بَطَأً: تَأَخَّرَ. «بطأ» يُستخدم أيضاً كفعل غير متعد (لازم) كما في القول المأثور: من بطأ به عمله أي من أَخَّرَ عمله السيء. لذا فإن الفعل «بطأ» يعني: (١) تَأَخَّرَ وتَلَكَّأَ (٢) أَخَّرَ غيره وجعله يتَلَكَّأَ (أقرب الموارد ولين ومفردات الراغب والكشاف)

التفسير:

تشير هذه الآية إلى أعداء الإسلام من الداخل، فهي تذكر صفتين يتميز بهما المنافقون: (١) إنهم لا يخرجون للجهاد مع المسلمين، ويكونون سعداء بذلك؛ (٢) إنهم لا يشاركون المسلمين أفراحهم وأحزانهم، بل هم مشغولون بأنفسهم، ولا يهتمون بانتصار الإسلام. فإن أصاب المسلمين سوء، فرحوا بأن نجوا إذ تخلفوا عنهم، وذكروا المسلمين بشماتة أن ما أصابهم سببه أنهم لم يسمعوا لنصائحهم. وهذا ما فعلوه بعد غزوة أُحُد.

وما ينبغي ذكره هنا فيما يختص بغزوة أُحُد، أن الرسول ﷺ نفسه كان يرى أن يبقى المسلمون بالمدينة ويلاقوا العدو فيها، ومع ذلك فلم يُلقِ باللائمة على المسلمين عندما أصابتهم نكسة، ولم يقل لهم إن ما أصابهم كان بسبب عدم أخذهم بنصيحتهم. ولكن المنافقين راحوا يسخرون من المسلمين بأنهم قد هُزموا لأنهم لم يسمعوا لنصيحتهم. ولهذا تؤنب هذه الآية المنافقين، لأن مثل هذا التصرف يؤدي إلى خلق روح التنافر والشقاق في المجتمع، والقضاء على مشاعر الوئام والتوافق بين أفرادها.

وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ
كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي
كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٥﴾

التفسير:

انظر الآيات: التوبة: ١١١؛ التوبة: ٥٢.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ
هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٦﴾

التفسير:

هذه الآية دليل واضح على أن المسلمين لم يكونوا أول من بدأ بالعدوان، وإنما كانوا يقاتلون في حرب دفاعية من أجل الدفاع عن دينهم، وحماية الضعفاء من إخوانهم في الدين.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا
أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ
ضَعِيفًا ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

الطَّاغُوت: انظر الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ
قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٨﴾

التفسير:

تشير هذه الآية إلى فريق من الناس يتظاهرون بالرغبة في القتال حين يُقال لهم أن يمتنعوا عن القتال، ولكن حين يأتي موعد القتال الحقيقي فإنهم يرفضون القتال ويتحاشونه متعللين بمختلف العلل والأعذار، وبذلك يثبتون أن حماسهم السابق للقتال لم يكن صادقاً، أو أنه كان نتيجة لانفعال مؤقت فقط.

ويمكن أن تنطبق الآية كذلك على «الأنصار» من أهل المدينة، الذين كانوا في حروب مستمرة بعضهم مع بعض قبل مجيء الرسول ﷺ إلى المدينة، فلما دخلوا في الإسلام كان عليهم أن يتوقفوا عن الاقتتال. ولكن لما جاء الوقت الذي كان ينبغي عليهم فيه أن يقاتلوا من أجل الدفاع عن الإسلام، إذا فريق منهم يخشون القتال في سبيل الله.

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي
بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ
مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا
لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُوتَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

مُشِيدَةٌ: من شاد بمعنى: طلا (الجدار أو ما شابه) بالمادة المطلوبة. شاد البناء: رفعه. شادوا الدين: مجّدوه وقوّوه. شيّده: علاه؛ خاصة للبناء أو المكان؛ وكذلك تعني بناه قوياً وراسخاً وشامخاً (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ يمكن أن يشير إلى القانون العام الذي يقرر حتمية الموت، بمعنى أنه ما دام الموت هو مصير الإنسان المحتوم، إن عاجلاً أو آجلاً، فليس هناك ما يجعل الإنسان يخشى الموت لدرجة أن يمتنع عن القتال في سبيل هدف نبيل وشريف. كذلك يمكن أن ينطبق قوله تعالى هذا على المنافقين، الذين عصوا أمر الله تعالى بالقتال، ظانين أنهم بهذا يمكن أن يتجنبوا الموت، فتخبرهم الآية أن الموت سوف يدركهم وسينالهم الدمار، مهما حاولوا حماية أنفسهم منه.

كان من عادة المنافقين أنه إذا حقق المسلمون نصراً أو نجاحاً عزوه إلى الله تعالى، قائلين إنه ما دام الإسلام ديناً من عند الله، فلا بد أن ينال النصر والازدهار. ولكن إذا أصابت المسلمين محنة قالوا إنها بسبب الأخطاء التي ارتكبها الرسول ﷺ. ويقول القرآن المجيد إنهم مثلما يعززون النصر لله ﷻ يجب أن يعزو إليه الهزيمة أيضاً. ولكن عندما يعزو المنافقون النصر لله والهزيمة للرسول ﷺ، فإن غرضهم من ذلك هو تشويه سمعته ﷺ والإساءة إليه والإقلال من مكانته بين المسلمين.

ويشير قوله تعالى: ﴿كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ إلى أن كلاً من النجاح والهزيمة قد سبق أن أخبر بهما الرسول ﷺ (انظر على سبيل المثال الآيات ١٥٦ إلى ١٥٨ من سورة البقرة). وعلى هذا، فحتى الإخفاقات التي تصيب المسلمين، والتي يعزوها المنافقون للرسول ﷺ، إنما تدل في الحقيقة على صدقه. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ صحيح أيضاً من ناحية أن الله تعالى هو القوة النهائية المسيطرة والمتحكمة في كل شيء في الكون، وكل ما يصيب الإنسان من خير أو من شر يعود إما إلى القانون العام للطبيعة الذي وضعه الله تعالى، وإما إلى قضاء الله الذي يقرره سبحانه.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ
مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ
رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٠﴾

التفسير:

تبدو الآية أنها تتعارض مع ما جاء في الآية السابقة، ولكن في الحقيقة ليس هناك تعارض. فالله تعالى قد وهب الإنسان قوى وقدرات، حين يُحسن الإنسان استعمالها يمكن أن يحقق النجاح؛ ولكن حين يسيء استعمالها تحيط به المتاعب. ولذلك، فمن وجهة النظر هذه، كل الخير يعود لله تعالى، وكل الشر يعود إلى الإنسان.

ولما كان مضمون الآية يخص الناس جميعاً، وجه الله الحديث إلى الرسول ﷺ، فهذا هو الأسلوب القرآني في توجيه الخطاب للناس بوجه عام. ومما يدل على أن شخص الرسول ﷺ ليس هو المقصود بالخطاب وإنما الناس عامة، هو أن الرسول ﷺ قد اختصه الله بالكلام في نهاية الآية الحالية وفي الآية التالية أيضاً.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

حَفِيزًا: من حفظ، يقولون حفظ الشيء أي: منعه من الضياع والتلف؛ رعاه؛ صانه من الابتذال. حافظ أو حفيظ (الأخير يفيد المبالغة أكثر): الموكّل بالشيء؛ الحارس؛ الوصي. عندما تستخدم هذه الصفة في حق الله تعالى، فإنها تفيد المعاني السابقة بالإضافة إلى: الراعي والحامي والصائن لكل شيء؛ وكذلك تعني الذي يكتب حسنات الناس وسيئاتهم (معجم لين).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ يشرح معنى قوله ﷺ: ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الذي جاء في الآية ٧٩ السابقة. فما تريد الآية أن تقول هو أن طاعة الرسول ﷺ هي في الحقيقة طاعة لله تعالى، وإذا حدث أن أصاب المسلمين مشكلة بسبب طاعتهم للرسول ﷺ، فإن كل شيء يخضع لإرادة الله تعالى، فلا ينبغي على المسلمين أن ينسبوا المشكلة للرسول ﷺ. ولا يمكن أن تؤدي هذه المشكلة إلى شر وفساد، فإن الله تعالى يعامل نبيه بحسب القوانين الخاصة التي تقررها العناية الإلهية. وعلى ذلك فإن من ينسب الخطأ للرسول ﷺ فإنه في الحقيقة ينسبه لله تعالى.

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

بَيَّتَ: من بات وتعني: سهر الليل. بات زيد نائماً: قضى الليل نائماً. بَيَّتَ الأمر: دبره أو عمله ليلاً. بَيَّتَ رأيه: نوى أمراً وأضره في نفسه؛ أو تصوّره في عقله. بَيَّتَ العدو: أوقع بهم ليلاً من دون أن يعلموا (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

إن كلمة ﴿بَيَّتَ﴾ يجب ألا تؤخذ بحرفيتها. فالأمر يتعلق بالتأمر السري، سواء كان بالليل أو بالنهار. ولما كان التأمر يتم عادة بالليل، جاء استخدام كلمة ﴿بَيَّتَ﴾، لأن وقت الليل يكون نوعاً من الستر لإخفاء التأمر.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ
اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٣﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿اخْتِلَافًا﴾ يمكن أن تحمل أحد أمرين: (١) إما أنها تشير إلى التناقضات في النص القرآني والتعاليم الموجودة فيه؛ (٢) وإما أنها تشير إلى عدم التوافق بين النبوءات القرآنية ونتائجها التي تحققت. والآية تؤكد خلو القرآن الكريم تماماً من هذين النوعين من الاختلافات. ورغم تناول القرآن المجيد لمجالات واسعة من الموضوعات الروحية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية وغيرها، فإن تعاليمه متوافقة توافقاً كاملاً، دون أي تضارب بين أجزائه في المعنى أو الحرف، وبغير أن يربو أحد أجزائه على الأجزاء الأخرى.

ومن ناحية أخرى، فإن الآية تعني أن جميع النبوءات والتأكيدات التي قدمها القرآن الكريم قد صدقت أو سوف تتحقق؛ ولا يمكن أن يكون هناك من اختلاف في هذا المجال أيضاً. ولو لم يكن القرآن المجيد من عند الله تعالى، أو كان من نتاج العقل الإنساني، لما تحققت تلك النبوءات التي جاءت في ظروف من أصعب ما تكون. وعلى ذلك، فإن حقيقة أن النبوءات التي جاءت في القرآن المجيد قد تحققت، وما تزال تتحقق، على عكس جميع التوقعات، وعلى غير كل الحسابات، وبشكل من أروع ما يكون، إنما يدل بدلالة قاطعة على أنه بالحقيقة كلمة الله العليم الخبير.

وينبغي ألا تفهم كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ التي جاءت في وصف الاختلاف على أنها تعني إمكان وجود «بعض» الاختلاف في القرآن المجيد. فالكلمة تعني ببساطة أن الكثير من الاختلافات كانت سوف تظهر في القرآن لو أنه كان من تأليف البشر، ولكن لما كان النص القرآني من عند الله تعالى، فلا يوجد فيه أي اختلاف.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ
أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي
الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ
الشَّيَاطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨٤﴾

التفسير:

جاء ذكر ﴿الْأَمْنِ﴾ قبل ذكر ﴿الْخَوْفِ﴾ لأن القرآن المجيد هنا يتحدث عن الحرب، وأثناء الحرب يكون من الخطر أحياناً ذكر الأمور التي تؤدي إلى نهايات سعيدة دون ذكر الأمور التي تؤدي إلى الخوف. فمثلاً، إذا جاءت الأنباء بأن العدو يستعد لشن الهجوم، فقد يكون نشر هذه الأنباء أقل ضرراً من الإعلان عن أن جيش المسلمين سوف يشن هجومه على نقطة من نقاط الضعف لدى العدو مثلاً. فإن إذاعة مثل هذه الأنباء سوف تكشف عن نية المسلمين في شن هجومهم، وسوف تحذر العدو، مما يجعله يتخذ الخطوات اللازمة من أجل تقوية تلك النقاط الضعيفة. وفي الظروف العادية أيضاً، لا يقل هذا التوجيه الإلهي في أهميته، حيث إنه يؤثر في التزام المجتمع بالنظام العام وكفاءة الأداء.

ويعود قوله تعالى: ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ إلى الرسول ﷺ أو خلفائه أو الرؤساء الذين يعينونهم لتنظيم شؤون المجتمع.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ
وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ
بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ
تَنْكِيلًا ﴿٨٥﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يعني أن الأمر الإلهي بالقتال يتعلق بالرسول ﷺ وحده. ولو كان الأمر كذلك لكان قوله تعالى في الجزء التالي من الآية هو «لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ» بضم السين، أي لا يكون أحد مكلف بالقتال غيرك، ولما كان كما جاء في الآية وهو ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ بفتح السين، أي أنك غير مسؤول إلا عن نفسك. وما تعنيه الآية أن كل مسلم، بما فيهم الرسول ﷺ نفسه، مسؤول أمام الله تعالى. غير أن على الرسول ﷺ واجباً ذا شقين: (١) أن يقاتل في سبيل الله؛ (٢) أن يحرض المؤمنين على قتال المعتدين الظالمين، ولكنه ليس مسؤولاً أمام المؤمنين، وإنما عليه فقط أن يبلغهم بالأوامر الإلهية، فإن عصوها يكونون هم أنفسهم مسؤولين عن ذلك. وقد جاء الأمر الإلهي بفرض الجهاد في الآية ٧٨ السابقة. وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أن الله تعالى سوف يأتي بالظروف التي تجعل الحرب تنتهي بنفسها، أو أن العدولن يستطيع أن يستخدم كل قوته ضد المسلمين وسوف ينهار في النهاية. وهكذا رأينا في غزوة الخندق وفي فتح مكة، أن العناية الإلهية قد خلقت الظروف التي ساعدت المسلمين.

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا
وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ
مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

لشرح كلمات ﴿يَشْفَعُ﴾ و﴿شَفَاعَةً﴾ يمكن الرجوع إلى الآية ٤٩ من سورة البقرة.

التفسير:

حين تُقرأ الآية الكريمة في ضوء سياق الموضوع الذي تتناوله الآيات الأخرى، فإن قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً...﴾ يمكن أن يعني أن الشخص الذي يحضّر الآخرين على القتال في سبيل الله سوف ينال ثوابه من الله تعالى، ومن يشنّي الآخرين عن القتال فسوف ينال عقابه على عمله هذا.

كذلك تعني الآية أنّ على الناس ألا يستهينوا بموضوع الشفاعة أو التزكية، فإن الشخص الذي يشفع لشخص آخر أو يزكيه، مسؤول عن عمله هذا. فإذا كانت الشفاعة أو التزكية صحيحة وعادلة، فسوف ينال ثواباً مناسباً؛ وإلا فإنه يتحمّل نصيباً من النتائج المترتبة على ذلك.

وحين تُؤخذ كلمة ﴿شَفَاعَةً﴾ بمعنى «علاقة»، فيمكن فهم الآية على النحو التالي: «من يرتبط بعلاقة طيبة ينل نصيباً طيباً منها، ومن يرتبط بعلاقة سيئة سوف يتحمّل جزءاً من عواقبها»، وبذلك فإن الآية تؤكد أهمية تكوين علاقة طيبة مع الله تعالى أو مع رُسله أو مع الناس الآخرين. وبينما تكون العلاقة الطيبة سبباً في النهوض والتقدم، فإن العلاقة السيئة يمكن أن تؤدي إلى الانهيار والدمار. (ولمناقشة موضوع الشفاعة بتفصيل أكبر يمكن الرجوع إلى شرح الآية ٤٩ من سورة البقرة).

ومما هو جدير بالذكر اقتران عبارة ﴿شَفَاعَةُ حَسَنَةٍ﴾ بكلمة ﴿نَصِيبٌ﴾، بينما أُتِّبِعَتْ ﴿شَفَاعَةُ سَيِّئَةٍ﴾ بكلمة ﴿كِفْلٌ﴾، وذلك لبيان أن عقوبة الشفاعة السيئة سوف تكون فقط بقدرها، بينما ثواب الشفاعة الحسنة ليس محدوداً، وإنما سيكون كبيراً بالقدر الذي يراه الله تعالى، أي عشرة أضعاف على الأقل.

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

حَيَّيْتُمْ: وتحية وحَيَّوْا مشتقة كلها من حيي وتعني عاش أو كانت له حياة؛ أو حسنت حاله أو صار في حالة طيبة. حَيَّاه: سلَّم عليه داعياً له بحياةٍ مديدة طيبة؛ دعا له بالحياة؛ دعا له. حَيَّاكَ اللهُ: أطال عمرك أو حفظك؛ جعل حياتك خالية من الآفات والشُرور؛ أنعم الله عليك بالطهارة والصلاح؛ وهبكَ اللهُ السيادة والمُلْك. حَيَّاه بتحية المؤمن: سلَّم عليه بسلام المؤمنين المعتاد قائلًا «السلام عليكم». «التحية»: السلام؛ البقاء؛ السلامة من الآفات؛ المُلْك (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

بالإضافة إلى المعنى العام لهذه الآية الكريمة، فإنها تلفت أيضاً أنظار المسلمين إلى النعم العظيمة التي حلَّت عليهم والبركات التي نالوها على أيدي الرسول ﷺ، وتخبرهم بأن عليهم الآن التزاماً أخلاقياً برَدِّ الخير الذي نالوه بخير مثله، وذلك بإسداء المعونة إليه بكل طاقاتهم وعلى قدر وسعهم، لتحقيق الأهداف التي يعتبرها أهدافاً نبيلة وسامية. وسوف يُعتبر ذلك رمزاً من الاعتراف بالجميل نحو النعم الإلهية العديدة والمتنوعة التي تلقوها على يديه. لقد كانت رسالة الحياة التي أتى بها الرسول ﷺ نوعاً من التحية لهم، ولذلك ينبغي على المؤمنين أن يردّوا هذه التحية بما يليق.

تحت الآية أيضاً المسلمين أن يحيّوا بعضهم بعضاً، ويردّوا التحية بشكل لائق عندما يتقابلون، فإن هذا واجب اجتماعي وأخلاقي، يجعل من يهمل أدائه مسؤولاً أمام الله تعالى، كما يبين ذلك الجزء الأخير من الآية.

والصيغة المعتادة للتحية التي وضعها الإسلام هي «السلام عليكم»، التي يمكن عادة إضافة إليها الكلمات «ورحمة الله وبركاته». ومن عادة الأتقياء من المسلمين إضافة بعض الأدعية لهذه الصيغة من التحية، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾. غير أن الآية عامة في مضمونها وتشمل جميع أنواع التحية، والتمنيات، والأدعية، وغيرها.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أنه إذا لم يستطع المرء أن يحيّي الآخرين بأحسن من تحيتهم فعليه على الأقل أن يردها بتحية مماثلة لتحيتهم.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٨﴾

التفسير:

يمكن أن يكون حرف ﴿إلى﴾ بمعنى «في»، أي «ليجمعنكم في يوم القيامة». ولكن الأصح أن يكون بمعنى «حتى»، أي أن الله تعالى سوف يستمر في جمعكم حتى يوم القيامة. والفرق بين المعنيين واضح.. فالناس تولد وتموت، وسيستمر ذلك حتى يوم القيامة، وهكذا تبقى عملية الجمع جارية حتى يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الجميع للحساب.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ
بِمَا كَسَبُوا أْتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ
اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

أَرْكَسَهُمْ: أي هزمهم وقلَّبهم. (انظر أيضاً الآية رقم ٩٢ من السورة).

التفسير:

لقد اختلف المؤمنون فيما بينهم إلى فرقتين بشأن المنافقين الذين يقطنون في الضواحي حول المدينة.. وهم من قبائل البدو. فتعاطف معهم فريق من المؤمنين وأوصوا باللين في معاملتهم على أمل أن تنصلح أحوالهم تدريجياً، بينما اعتبرهم الفريق الآخر تهديداً خطيراً للإسلام والمسلمين، ورأوا وجوب استعمال الشدة في معاملتهم. ولما كان هذا الخلاف خليقاً بأن يحدث انشقاقاً بين المسلمين، لذلك صرح القرآن الكريم بعدم الموافقة على مثل هذا السلوك. فتقول الآية الكريمة بأنه ينبغي على المسلمين الحذر من الانقسام فيما بينهم بسبب المنافقين. وعليهم أن يتذكروا أن الانشقاق في صفوفهم أشد خطورة من الخطر الخارجي. إن المنافقين أعداء الله، ولا ينبغي للمسلمين أن يسمحوا للفرقة والانقسام أن بالتسلل إلى صفوفهم بسبب أعداء الله.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا
سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩٠﴾

التفسير:

لقد عبّرت الآية عن النفاق بالكفر، لأن المنافق ما هو إلا كافر في باطنه. إن المنافقين من قبائل البدو - التي تشير إليهم الآية - ادّعوا الإسلام، ولكنهم لم يقدموا للإسلام أي معونة. ولذلك أمر الله المؤمنين ألا يكون لهم معهم أي علاقة.

وبدل قوله: ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على أن المنافقين المذكورين ليسوا من أهل المدينة وإنما من مناطق خارجة عنها. إن هؤلاء المنافقين لا يعطون أي أهمية أو قيمة للعقيدة، وبسبب جبنهم يودّون أن يكون الجميع مثلهم فيصادقون أعداء الإسلام ويخالطونهم كما يشاؤون. والقرآن يحرم على المسلمين أن يتخذوا من أمثال هؤلاء الناس أصدقاء، أو أن يطلبوا منهم العون، إلا إذا هاجر هؤلاء في سبيل الله وهجروا أعداء الإسلام وقطعوا كل علاقة معهم.

ولما كانت لفظة «قتل» تعني أيضاً القطيعة (راجع الآية ٦٢ من سورة البقرة)، فإن قوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ يمكن أن يعني «قاطعوهم»، أي لا شأن لكم بهم، وعاملوهم كما تعاملون شركاءهم. ويتأكد هذا المعنى بحقيقة أن كلمة ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ متبوعة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي لا تتخذوا صديقاً ولا معيناً منهم.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ
يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ
عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ

يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

يَصِلُونَ: من وصل، يقولون «وصل الشيء بالشيء» أي ربط بينهما أو جمع بينهما. وصله: كانت له به علاقة قرب وصداقة. وصل إليه: جاءه أو لحق به. اتصل إلى بني فلان: انتمى إليهم أو انتسب (أقرب الموارد).

سَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ: «سَلَّطَ» مشتقة من سَلَطَ، وسيأتي شرحها في الآية التالية. «سَلَّطَ عليه»: جعله يغلبه أو يسوده أو يقدر عليه.. إلخ. ويُقال «سَلَّطَ عليه الكلاب» أي أطلقهم عليه (معجم لين).

التفسير:

أمرت الآية السابقة باتخاذ الإجراءات اللازمة ضد قبائل المنافقين من البدو الذين يقطنون حول المدينة، وتستثني هذه الآية حالات معينة هي: (١) الذين لهم علاقة أو رابطة بقبائل أخرى متحالفة مع المسلمين؛ (٢) الذين يحضرون إلى المدينة ويميلون إلى الإسلام ولكن لا يزالون في تردد وتذبذب. والواقع أن الإسلام يُضفي أهمية كبرى على الاتفاقات الصريحة أو الضمنية، ولا يقبل الإخلال بها ونقضها بأي حال من الأحوال. ويتضح من الآية أيضاً أن الجهاد مباح فقط ضد أولئك الذين بدأوا الحرب ضد المسلمين أو حلفائهم، أو ضد من يُتَوَقَّع هجومهم على المسلمين.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ
وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ
أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنَّ لَمْ يَعْزِلُوا إِلَيْكُمُ

السَّلَامَ وَيَكْفُؤَا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

أَرْكَسُوا: الفعل مبني للمجهول مشتق من «رَكَسَ». يُقال «رَكَسَ الشيء»: رَدَّه مقلوبًا وقلب أوله على آخره. أركس الشيء: أعاده إلى حاله الأول، قلبه رأسًا على عقب، عكسه أو رده؛ جعل أوله آخره. أركس الله عدوك: نكس الله عدوك؛ هزم الله عدوك؛ أو قلبه وغير حاله إلى الضد (أقرب الموارد و لين).

الْفِتْنَةُ: تعني بوجه عام: (١) الاضطهاد؛ (٢) الإيذاء؛ (٣) المنازعة والانشقاق؛ (٤) الحرب الأهلية، وما إلى ذلك. وتعني أيضًا الحرب أي العدوان (معجم لين). راجع كذلك الآية ١٩٢ من سورة البقرة.

سُلْطَانًا: المصدر من «سَلَطَ» أي غلب، ساد، قهر؛ رسخ وتوطدت قوته؛ حاز القوة أو السيادة أو المُلْك؛ احتد؛ اشتد؛ فصَّح لسانه وحدَّ كلامه أو عَفَّ كلامه وصرَّح قوله. يقال «جعلت لك سلطانًا على أخذ حقي من فلان» أي أعطيتك القوة أو السلطة لذلك. والسلطان يعني القوة، القدرة، المقدرة، السيادة، النفوذ؛ الهيئة الحاكمة؛ الملك أو الوالي؛ الحدة؛ الشدة، الصلابة؛ الدليل والبرهان، الحجة؛ الذريعة (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير الآية إلى القوم الذين لا يربطهم بالمسلمين حلف أو معاهدة، ولا بأية قبيلة مخالفة للمسلمين، وهم مع هذا يتربصون بالمسلمين وينتهزون الفرص المواتية في الوقت نفسه. والفرق بين هؤلاء ومن أشارت إليهم الآية السابقة أن للفريق المذكور سابقًا

نوع من التحالف مع هذا الفريق أو ذاك، غير أنهم لا يملكون القدرة على الدفاع عن حقوقهم بأنفسهم. أما المذكورون في الآية الحالية فهم يبحثون عن السلامة الذاتية بوسائل خادعة، ويسارعون إلى التحالف مع أعداء الإسلام كلما دُعوا إلى ذلك. وتأمّر الآية بقتال هذا الصنف من الناس إلا إذا عقدوا معاهدة سلام مع المسلمين وحافظوا بأمانة على شروطها.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً
وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ
مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ
مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً
مَنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٣﴾

التفسير:

لما كانت الآيات السابقة تحتوي تعاليم إذا أسيء فهمها أو تطبيقها فإنه قد يحدث أن يقتل مسلمٌ مسلماً، لذلك تسوق هذه الآية تحذيراً في الموضع المناسب ليحول دون وقوع مثل هذه الحوادث.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ ورد بصيغة تحدث تعاطفاً مؤثراً لدى المؤمنين يدعوهم إلى الامتناع عن قتل بعضهم بعضاً، لأنهم إخوة فلا يسوغ في أية حال أن يقتل الأخ أخاه. والعبارة تحتوي تعليماً مهماً يأتي في توقيت مناسب بعد

التعليم الوارد في الآيات السابقة التي تتصل بالمنافقين. وتحذر الآية المسلمين وتأمرهم أن يحتاطوا دائماً لئلا يحدث أن يقتل المسلم أخاه المسلم بسبب التهاون أو الإهمال. وإذا حدث أن قُتل مؤمن وكان من قوم مُعادين فعلى المذنب أن يعتق رقيقاً مؤمناً، ولا يؤدي فدية لأهل القتل، لأن أداء المال للأعداء يزيد من قوتهم العسكرية في مواجهة الإسلام؛ وهذا أمر لا يُسمح به.

وفي الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ لم يتكرر قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لإبراز أن القانون بالنسبة للذميين والمعاهدين هو نفس القانون الذي ينطبق على المسلمين. والذميون هم غير المسلمين الذين هم تحت ولاية المسلمين، والمعاهدون هم غير المسلمين الذين تربطهم معاهدة مع المسلمين.

وجدير بالملاحظة هنا أنه لم يُساو الكافرون المعاهدون بالمسلمين فحسب، وإنما منحوا ميزة لصالحهم أيضاً. ففي حال قُتل مسلم، ورد أمر تسليم الفدية بعد تحرير الرقيق، ولكن في حال قُتل شخص من المعاهدين فالترتيب مختلف، حيث وقع أمر تسليم الفدية إلى ورثة القتل قبل تحرير رقبة مؤمنة. وهذا الاختلاف في الأسلوب مقصود لحث المسلمين على ضرورة مراعاة المعاهدات والمواثيق بصفة خاصة. فأداء الفدية إلى الكافرين المعاهدين إلزام على المسلمين. ولإبراز ضرورة احترام الأحلاف والمواثيق وَرَدَ الأمر بأداء الفدية قبل تحرير الرقبة المؤمنة.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ
خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ
عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٤﴾

التفسير:

إن وحدة المسلمين وروابط الأخوة بين المؤمنين لا يجوز الخروج عليها بأي حال. إن من يقتل أخاه المسلم قاصداً قتله فهو كمن يقتل أخاه الشقيق على مرأى من أبيهما، ولا يمكن للأب أن تكون له أي علاقة بمثل هذا الابن القاتل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ
لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ
اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ
فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٥﴾

شرح الكلمات:

السَّلَامُ: يعني التحية الإسلامية «السلام عليكم». والسلام ضد الحرب، ويعني الأمن، والإذعان... إلخ (أقرب الموارد ولين). راجع أيضاً سورة البقرة: ١١٣، ٢٠٩، وآل عمران: ٢٠.

مَغَانِمُ: من «غنم» أي حاز فيئاً أو حصل على الشيء بلا مشقة أو صعوبة. المغنم والغنيمة: الفيء، أو اكتساب الشيء بلا مشقة، أو الشيء المكتسب، أو أسلاب الكفار في ساحة الحرب (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

لا تعني الآية أن من يقول لمسلم «السلام عليكم» يُعتبر مؤمناً. إن كثيراً من غير المسلمين اليوم يقولونها، وكان اليهود في زمن النبي ﷺ يحَيُّون المسلمين بصيغة التحية الإسلامية، وما كانوا ولا يكونون مسلمين بمجرد التلفظ بكلمات التحية. وإنما تعني الآية الكريمة أنه إذا عرض قوم السلام على المسلمين، أو عاملوهم معاملة حسنة، وجب على المسلمين احترام هذا المسلك السلمي والامتناع عن محاربتهم. ولفظة «سلام» تعني الإذعان أو الأمان أيضاً، ولفظة «مؤمن» تحمل كذلك معنى مانح الأمان أو عارض السلام.

ولا يقتصر معنى ﴿مَعَانِمَ﴾ على أسلاب الحرب وحدها، وإنما تعني أيضاً طيبات هذه الدنيا. ففي البخاري، كتاب التفسير: «كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ...». وكما جاء في شرح الكلمات، كل ما يحصل عليه المرء بلا مشقة فهو غنيمة أيضاً. وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ﴾ يتضمن إثارة قوية لعواطف المسلمين وعقولهم. إذ تُذكر الآية المسلمين بأنهم أنفسهم كانوا من الكفار، وأن الله تعالى منحهم الوقت والفرصة حتى أمكن لهم تبين الحق أخيراً... لذلك ينبغي عليهم التحلي بالأناة والتسامح مع غير المؤمنين حتى يتفكروا في الحق ويقبلوه إذا شاؤوا.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي
الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ

١. الغنيمة هنا في هذا الحديث هي تصغير «غنم» وهي رعية الغنم القليلة. (الناشر)

اللَّهُ أَحْسَنُ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٦﴾

التفسير:

تحدث الآية عن فئات المؤمنين المختلفة وليس عن المنافقين. فالمؤمنون صنفان: الذين قبلوا الإسلام بصدق، ويسعون للعيش وفق تعاليمه، ولكنهم لا يؤدون دوراً في النضال من أجل الدفاع عن الإسلام ونشره. هؤلاء هم المؤمنون السليبيون أو «القاعدون» كما تسميهم الآية.

الذين يعيشون وفقاً لتعاليم الإسلام ثم يشتركون بقوة ونشاط في الدعوة إلى الإسلام ونشره. هؤلاء هم المؤمنون الإيجابيون أو «المجاهدون» حسب تسمية الآية لهم. وهؤلاء عند الله تعالى في مرتبة أسمى بكثير من الصنف الأول. ولا تزال هناك فئة ثالثة من المؤمنين الذين وإن لم ينضموا إلى إخوانهم المجاهدين في القتال الفعلي ضد الكافرين، إلا أنهم ينالون ثواباً مساوياً للقائمين بالنضال العملي. وهؤلاء هم الذين أسمتهم الآية: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ أي غير القادرين. ويرجع عجز هؤلاء عن المشاركة في القتال الفعلي إلى ظروف خارجة عن إرادتهم وتحكمهم. إنهم قلباً وروحاً مع المجاهدين المؤمنين كلما خرجوا للقتال في سبيل الله. لكن ظروفهم الخاصة من مرض أو فقر وما شابه ذلك، لا تسمح لهم بالانضمام إلى الحملات. وعن هؤلاء تحدث الرسول ﷺ ذات مرة إلى أصحابه ﷺ في إحدى غزواته فقال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مَسِير ولا قطعهم من وادٍ إلا وهم معكم فيه». فلما سأله الصحابة في دهشة: وهم بالمدينة يا رسول الله؟. قال ﷺ: «نعم حبسهم العذر» (ابن كثير). فهؤلاء إخوتهم من المؤمنين يتشوقون إلى الخروج معهم ولكن حالت أَعذارهم القهرية بينهم وبين رغبتهم. هؤلاء هم الذين استثنوا من القاعدين في عبارة ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾. ولكن القاعدين فعلاً إذا كانوا صادقين ومخلصين في عقيدتهم فلمهم

ثواب طيب، غير أن كَفَّتْهم لا يمكن أن تستوي مع كَفَّةَ المجاهدين لا في الثواب ولا في المرتبة.

دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٩٧﴾

التفسير:

تضيف هذه الآية مزيداً من البيان والتأكيد على التمييز بين القاعدين في بيوتهم من دون عذر مقبول والمجاهدين في سبيل الله. فالمجاهدون ليسوا فقط متفوقين «درجات» على القاعدين، بل يحظون برحمة الله تعالى ومغفرته أضعافاً مضاعفة.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ
قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ
فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ
وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٨﴾

التفسير:

يتبين من قوله تعالى: ﴿فَتُهَاجِرُوا﴾ أن القوم المشار إليهم هنا ليسوا من الضعف بحيث لا يستطيعون الهجرة من أوطانهم. فهم لم يكونوا عاجزين حقاً كالذين سبق ذكرهم في الآية السابقة، ولذلك تدينهم هذه الآية بشدة. والإسلام لا يكتفي بالإيمان الضعيف أو السلبي، إذ أن ذلك لا خير فيه للمرء أو المجتمع. وإذا كان المحيط الذي

يعيش فيه المؤمن غير مناسب له، فعليه النّزوح إلى محيط غيره أكثر أنسًا لدينه، وإن لم يفعل ذلك فهو غير مخلص في إيمانه.

إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ
سَبِيلًا ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

حيلة: من حال أي تغير أو تبدل؛ دار ومضى؛ تم... إلخ. حيلة: طريقة التغير من حال إلى آخر؛ طريقة أو وسيلة تجنب شيء؛ طريقة أو وسيلة الحصول أو الوصول إلى غرض؛ اختراع؛ حرفة؛ وسيلة؛ خطة (لين).

التفسير:

هناك حالات يكون فيها المرء غير قادر حقًا على الهجرة. وتستثني هذه الآية من لا يدخلون في الصنف المذكور في الآية السابقة، ذلك لأن الله تبارك وتعالى عادل لا يغفل الظروف المخففة.

ويتضح من الآية أن لفظة ﴿يَهْتَدُونَ﴾ تُستعمل أحيانًا بمعنى «يُنْقِذُونَ» إما من شدائد الدنيا أو الآخرة.

فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٠٠﴾

شرح الكلمات:

عَفُوٌّ: من «عفا» أي مُسِحَ، اُمحى، أُلغي؛ هلك، زال، انتهى. يُقال «عفت الريح الدار»: درستته ومحته. سلوا الله العافية: ادعوه ليمسح خطاياكم أو ليصفح عنكم. ولفظة «عفا» تعني كذلك زيادة العدد والكثرة. أعفيت شعر البعير: كثر وطال فغطى دبره. «العَفُوُّ» من أسماء الله الحسنى وتعني الذي يسامح كثيراً، الماحي للذنوب، الغفار (لين وأقرب الموارد). راجع سورة البقرة: ١١٠، ١٨٨، ٢٢٠، ٢٣٨؛ وسورة آل عمران: ١٣٥.

التفسير:

يفيد قوله تعالى: ﴿يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ أن الله تبارك وتعالى سيمحو ضعفهم، ويُنهي حالة الشدة التي يَمُزُون بها بأن ينصر المسلمين ويجعلهم سادة على تلك البقاع التي يعتدي فيها الكافرون القساة على الضعفاء ويعذبونهم.

ولفظة ﴿عَسَى﴾ لا تفيد الشك من جانب الله تعالى، وإنما لتجعل المؤمنين المشار إليهم في الآية في حالة بين الأمل والخوف حتى لا يترخوا في الدعاء وعمل الصالحات. والمقصود من العبارة هو إفساح مجال الأمل بدون الاطمئنان أو الرضا التام عن النفس.

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي
الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ
مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ
الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥١﴾

شرح الكلمات:

المراغم: جمع مرغم المشتقة من «رَغَمَ». يقولون «رَغَمَ أنفه»: التصق أنفه بالتراب أي ذلّ واتّضع. رغمه: كرهه. أرغم أهله أو راغمهم: فارقههم على رغم منهم وكراهة. الرغام: الأرض أو التراب. مرغم ومرام: طريق الارتحال من القوم ومغادرتهم ضد رغبته أو لتكديرهم؛ المهجر؛ الملاذ؛ مكان الأمان الحصين (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تعد الآية الكريمة المؤمنين الذين أجبرتهم الظروف على الهجرة من أوطانهم في سبيل الله بأمينة آمنة كثيرة يلجأون إليها، فليس هناك من عذر إذن أن يبقى أناس في أوطانهم يحيط بهم كفار معادون. ولكن لا بد أن يكون الدافع خيراً وتكون الهجرة خالصة لله تعالى.

وقد روي عن المصطفى ﷺ أنه قال: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». (البخاري - كتاب بدء الوحي) إن الله تبارك وتعالى سيثيب المهاجر في سبيله على هجرته إلى الله ورسوله، أما المهاجر لمنفعة دنيوية فلن تُعتبر هجرته خالصة لوجه الله تبارك وتعالى.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ
كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠٢﴾

التفسير:

وردت في هذه الآية كيفية أداء الصلاة في السفر أو عند الخوف من هجوم العدو، في سياق موضوع الهجرة الذي جاء في الآيات السابقة. ففي ختام هذا الموضوع العارض يعود القرآن الكريم إلى الموضوع الرئيس الذي يتناول المنافقين وضعاف الإيمان.

ولقد تناول القرآن الكريم موضوع صلاة الخوف في ثلاثة مواضع منفصلة: ١- في الآية ٢٤٠ من سورة البقرة التي تتحدث عن الصلاة في حالة الخوف الشديد حيث لا يمكن القيام بالصلاة العادية . ٢- في الآية التي نتناولها الآن، وتحدث عن أداء فردي للصلوات في حالات الخوف المعتاد. ٣- في الآية التالية التي تتناول أداء صلاة الجماعة.

وقصر الصلاة المذكور في هذه الآية، والذي يتعلق بالصلاة الفردية، لا يشير إلى تقليل عدد الركعات، وهو ما حُدد منذ البداية بركعتين في السفر، وإنما يشير إلى أداء الصلاة سريعاً عند خطر هجوم الأعداء. في الأحوال العادية ينبغي للمسلم أن يؤدي صلاته بتأنٍ وانتباه، أما وقت توقع هجوم العدو فيمكن أداء الصلاة باستعجال وسرعة. وصلاة القصر ركعتان في السفر بدلاً من أربع، وفي وقت الخطر يخفف المرء من صلاته، أي يسرع فيها، وهذا هو المقصود من قوله: ﴿تَقْصِرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾. ويقول ابن كثير «فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف، ولذلك قال من قال من العلماء أن المراد من القصر ههنا إنما هو «قصر الكيفية لا الكمية»، أي تخفيفها وليس نقص عدد الركعات أو اختصار الأدعية والتسبيحات. ويرى هذا الرأي مجاهد والضحاك وغيرهم. ويُعبر الإمام محمد بن اسماعيل البخاري عن الرأي نفسه لأنه يجمع بين هذه الآية والتالية لها تحت عنوان «صلاة الخوف».

ويتأيد هذا الرأي بالأحاديث التالية: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأَقْرَبَتْ صَلَاةَ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ

الْحَضَرِ» (البخاري- كتاب الصلاة). وعن عمر رضي الله عنه: «صَلَاةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ وَصَلَاةُ الْأَضْحَى رَكْعَتَانِ وَصَلَاةُ الْفِطْرِ رَكْعَتَانِ وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ رَكْعَتَانِ تَمَامٌ غَيْرُ قَصْرِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ» (مسند الإمام أحمد، النسائي، ابن ماجه).

ولم يصرح القرآن الكريم بعدد الركعات في صلاة الخوف أو السفر، ولكن السنة الشريفة والحديث الشريف توضح أنها ركعتان في الصلوات الرباعية. وهناك حديث مؤداه أن خالداً بن سعيد سأل عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر. فأجابه ابن عمر رضي الله عنه: «إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به». أي أن سنة الرسول ﷺ وقوله حدّد صلاة السفر بركعتين (ابن جرير، والنسائي كتاب الصلاة).

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ
طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا
سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ
أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ
تَغَفَّلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ
كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى
أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٣﴾

التفسير:

تناولت الآية السابقة الصلاة في حالات الخوف الفردية، وتتناول هذه الآية تفصيلات الصلاة إذا كان المؤمنون مجموعين وعليهم أداءها جماعة. ويبدو من الآية أن الخطاب موجه للرسول ﷺ ولكن الآية عامة في تطبيقها. فعندما يكون جيش المسلمين قاصداً أداء الصلاة جماعة، يقوم نصف الجيش بالصلاة خلف الإمام حاملين أسلحتهم، ويقف نصف الجيش أمام العدو ليقا تل أو يدفع العدو إذا هجم. وعندما ينتهي النصف الأول من صلاة الركعة الأولى ينسحب ليأخذ مكان النصف الثاني في مواجهة العدو، ويدخل النصف الثاني إلى الصلاة خلف الإمام ليؤدي الركعة الثانية.

وهناك ما يصل إلى إحدى عشر طريقة أُدِّيت بها صلاة الخوف جماعة في ظروف مختلفة حسب ما بيّنته الأحاديث (راجع البحر المحيط للاطلاع على تفاصيلها). ففي بعض الحالات أدّى كل فريق من الفريقين ركعة خلف الإمام، وصلى الإمام ركعتين. وفي حالات أخرى صلى كل فريق ركعتين، واحدة مع الإمام والثانية منفردين، ثم في حالات غير تلك صلى كل فريق ركعتين مع الإمام الذي صلى بالفريقين أربع ركعات.. اثنتان مع كل فريق منهما. وقد روعيت هذه الطرق المختلفة في الحالات المختلفة، فإذا كان الخطر عظيماً صلى الفريق الواحد ركعة واحدة، وإلا صلى ركعتين بينما يصلي الإمام أربعة ركعات. ثم إن طريقة صلاة الخوف تختلف باختلاف موضع الجيش، فإذا كان العدو مواجهاً للإمام مثلاً اختلفت طريقة صلاة الجماعة عما هي عليه في أوضاع أخرى.

وتلخيصاً لما سبق نقول إن صلاة السفر المعتادة ركعتان في الصلاة الرباعية، أما صلاة الخوف فتتخذ أشكالاً مختلفة أهمها:

(أ) انقسام المصلين إلى فرقتين، كل واحدة تصلي خلف الإمام ثم تتنحى، أو تصلي مع الإمام ركعة وعلى انفراد ركعة أخرى. وعدد ركعات الصلاة إما واحدة أو اثنتان حسب الظروف (الآية الحالية).

(ب) تخفيف الصلاة؛ أي تقصير مدة أدائها فقط (الآية السابقة).

(ج) أداء الصلاة بكل حركاتها وقراءتها أثناء السير أو العدو أو الركوب (آية ٢٤٠ من سورة البقرة).

ولقد راعت الآية فرقاً بين ترك الأسلحة والحذر، فبالنسبة للأسلحة يمكن وضعها جانباً في حالات الأمن النسبي، أما الحذر فلا بد من مراعاته دائماً ولا يُهمل شأنه أبداً (راجع أيضاً الآية ٧٢ من هذه السورة).

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾

التفسير:

في خِصَمِّ المعركة تُؤدَّى الصلوات المكتوبة إما باستعجال أو في ركعة واحدة فقط. وتوصي الآية الحالية المسلمين بالمداومة على ذكر الله والدعاء بعد أداء ساعات الخدمة أو في فترات الراحة، وذلك تعويضاً عن النقص الذي عَرِضَ للصلاة من جانب، ومن جانب آخر ليكون ذلك وسيلة لاستنزال العون والمدد الإلهي في وقت الشدة العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يبين بجلاء الفرق بين «صلّوا» أو «اقضوا الصلاة» وبين «أقيموا الصلاة». فالعبارة الأولى أمر بالأداء، والعبارة الثانية أمر بمراعاة الأداء بوعي وعناية وتوافر كل شرائطها. وبذلك تبين الآية أن الإسلام لا يحدّد العجلة والسرعة في أداء الصلاة، كما يتضح ذلك من أمره تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَ الصَّلَاةَ﴾. (راجع أيضاً الآية ٤ من سورة البقرة).

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا
تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾

التفسير:

لا يقتصر قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ على الرجاء في المكافأة أو العوض عن الخسائر، وإنما يتضمن كذلك الرجاء في اكتساب مرضاة الله تعالى والوصول إلى قربهِ. وليس هناك من حافز لبذل التضحيات في سبيل العقيدة أكبر من الرجاء في أن ينال المرء بها رضوان مولاه وخالقه والقرب منه.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ
بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٦﴾

التفسير:

لما كان القرآن المجيد هو مستودع الحق كله لذلك ينبغي الرجوع إليه في كل المسائل للبت فيها وإصدار قرار بشأنها. ولكن يجب تجنب مساعدة ومساندة أولئك الذين يتصرفون بما يجافي الأمانة والصدق والإخلاص.

والأمر في الآية ليس خاصاً بالرسول ﷺ وحده، وإنما هو توجيه لكل مسلم يؤمن بالقرآن المجيد ويدرسه.

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٧﴾

التفسير:

الاستغفار، أي طلب الصفح، هو مفتاح كل تقدم روحي. ولا تقصد الآية مجرد طلب المغفرة بالقول فحسب، وإنما تشمل الأعمال التي تُؤدِّي إلى ستر الخطايا وتغطية النقائص، وهذا الستر والتغطية يكمن في معنى كلمة الاستغفار (البقرة: ٢٠٠). ويمكن أن يكون لهذا الستر طبائع متباينة هي: (١) ستر الميول الشريرة في الإنسان. (٢) ستر الأفكار الشريرة وكبحها عن التحول إلى أفعال. (٣) ستر الذنوب التي ارتكبت ومنعها من الذبوع. (٤) وأخيراً ستر الخطايا كأنما اختفت عن نظر الله تبارك وتعالى، أي الصفح الكامل المطلق الذي يجعل الذنب كأن لم يكن. فياله من مرتع خصب للمؤمن الحق!

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٨﴾

التفسير:

قوله ﷻ: ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني أيضاً إخوانهم (راجع الآيات ٨٥، ٨٦ من سورة البقرة، ٦٧ من سورة النساء) أي الذين يخونون إخوانهم. وتؤكد الآية على الحقيقة الواردة في الآية رقم ١٠٦ السابقة بأن الذين يعاملون إخوانهم بغير الأمانة والصدق لا يستحقون التأييد والمساندة. وهم لا يستحقونها لأنهم يخونون أنفسهم أو إخوانهم ويعاني منهم مجتمعهم بتلطيخ سمعته فحسب، وإنما لأنهم يتشجعون على السير في هذا السبيل المنحرف ويصرون على مناهجهم الشريرة. والأمر هنا ذو صفة عامة كما هو الحال في الآية رقم ١٠٦ السابقة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ
اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ
الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٩﴾

التفسير:

ذلك الصنف من الناس الذي يتعمد الغش والخديعة والخيانة للمسلمين، ويسعى لإخفاء حقيقته عن الناس لا يمكن أن يختفي أمره عن الله تبارك وتعالى الذي أحاط علمه بكل شيء، وهو يعلم تدابيرهم ومؤامراتهم التي لا يرضى عنها.

هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١١٠﴾

التفسير:

وقوله ﷻ: ﴿أَنْتُمْ﴾ بصيغة الجمع يبين بوضوح أن الخطاب في الآيات السابقة كان موجهاً للمسلمين عامة وليس للرسول ﷺ خاصة، فلا يمكن أن يتجادل الرسول ﷺ على الخونة. إن القرآن الكريم يخاطبه لأنه ﷺ هو الذي يستقبل الوحي الإلهي، ومن خلاله يتلقى الناس الأمر السماوي.

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ
يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١١﴾

التفسير:

إن إله الإسلام رحيم ولم يكن أبداً تَوَاقاً للانتقام. فعندما يرتكب أحد عباده خطيئة أو يعمل عملاً سيئاً ثم يتوب إليه بصدق وإخلاص ويسأله العفو والمغفرة فإنه يجد الله ﷻ دائماً غفوراً رحيمًا. آه.. ما أعظمه من إله محب لعباده! لقد عبر الرسول ﷺ عن ذلك حق التعبير حين ذكر أن الله ﷻ يفرح بتوبة عبده المذنب أكثر مما يفرح الشخص المسافر وحيداً حين يفقد راحلته التي تحمل كل متاعه ومؤنثته من طعام وشراب في الصحراء، حتى إذا ما فقد الأمل في الحياة وأشرف على الهلاك إذا به يعثر عليها^١. (البخاري، كتاب الدعوات)

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ وَعَلَى نَفْسِهِ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٢﴾

١. نص الحديث: «للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مِنْزِلًا وَبِهِ مَهْلِكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي فَارْجِعْ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ» (صحيح البخاري، كتاب الدعوات)

التفسير:

انظر الآيات: البقرة: ٢٨٧؛ الزلزال: ٩.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا
فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا: الفرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة تشمل الأعمال الخاطئة التي ارتكبت بعمد أو بغير عمد، وغالبًا ما يقتصر أثرها على فاعلها، ولكن الإثم هو الخطأ العمد، والذي يمتد أثره على الآخرين. ثم إن الخطيئة قد تكون هجرًا لواجب من حقوق الله ﷻ، ولكن الإثم جريمة في حق الله ﷻ والناس، ولذلك فهو أخطر وأحق بعقاب أشد. (راجع الآيتين ٨٢، ١٧٤ من سورة البقرة).

التفسير:

إن ارتكاب الأخطاء أو الذنوب يتضاعف شرها إذا حاول المخطئ إلصاق فعلته بشخص بريء، ولهذا وُصف مثل هذا العمل بأنه بهتان، أي كذب وافتراء، وبأنه إثم مبين، أي جريمة واضحة. ولما كان لفظ «مبين» يعني أيضًا «الذي يقطع ويُفَرِّق» (راجع الآية ١٦٩ من سورة البقرة)، لذا فإن قوله تعالى: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ يعني أيضًا أن الجريمة المزدوجة، أي ارتكاب الإثم وإلصاقه بالبريء، من الأعمال التي تُعَرِّض الصلة بين الفاعل وبين الله تعالى إلى القطيعة والفرقة.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ
مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

شرح الكلمات:

يُضِلُّوكَ: أي ينجحوا في القضاء عليك وتدميرك. (انظر أيضاً البقرة: ٢٧).

التفسير:

لقد تعددت الطرق التي انتهجها المنافقون ليسببوا الأذى للرسول ﷺ. لقد حاولوا تضليله ليقعوه في قرار خاطئ بشأن مسألة حيوية، ولكن خططهم الشريرة باءت دائماً بالفشل لأن النبي ﷺ كان دائماً وأبداً مهدياً من الله ﷻ إلى الصراط المستقيم في الأمور التي تؤثر على مستقبل الإسلام.

مع أن لكلمتي «فضل ورحمة» معنى عام، إلا أنهما تستخدمان أحياناً للدلالة على الخير الدنيوي والبركات الروحانية (راجع البقرة: ٦٥). وفي هذه الحالة تعني الآية أن النبي ﷺ يتمتع بحماية الله تعالى في الأمور الدنيوية وفي المسائل الروحانية كذلك.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٥﴾

شرح الكلمات:

نجوى: من نجا أي سلم أو هرب. «نجا الجلد عن الذبيحة»: كشطه عنه وسلخه. «نجا الرجل» أي أسر إليه، أو خاطبه. ناجى الرجل: كلمه على انفراد. نجوى: سر بين شخصين أو أكثر، شخص أو أشخاص يتحدثون سرًا، أو يحملون أحداث سرية، أو يتخابرون بالأسرار، أو يتحدثون في تكتّم، أو يعقدون مؤتمرًا مغلقًا؛ وتعني أيضًا التحادث أو التخابر بالأسرار، أو الاجتماع على هيئة مؤتمر مغلق (أقرب الموارد وتاج العروس). والنجوى عند بعض العلماء ليست محدودة في الأسرار وإنما تعني كل المؤتمرات حيث يتقابل جماعة من الناس ليتحدثوا ويناقشوا المسائل معًا سواء كانت سرية أو غير ذلك (لسان العرب). ويرى الزجاج ذلك ويقول بأن السرية ليست ضرورية في النجوى التي تنطبق على كل المؤتمرات سرية كانت أم علنية (المحيط). وهكذا؛ فإن لفظة «النجوى» تشمل تلك المؤتمرات التي وإن كانت غير سرية؛ إلا أنه لا يحضرها سوى الأعضاء الدائمون أو أصحاب الدعوات الخاصة.

التفسير:

تعود أهمية هذه الآية الكريمة إلى أنها تميّز بين الطيب والرديء من المؤتمرات. فتخبر الآية بأن المؤتمرات أو المقابلات أو الاجتماعات التي يمكن أن يتولد منها الخير ثلاثة أنواع: ١- (من أمر بصدقة) أي المؤتمرات التي تُعقد بهدف رعاية شؤون الفقراء والمحتاجين وترقية أحوالهم. ٢- (من أمر بمعروف) أي الجمعيات التي تنشر وتشيع المعرفة والعلم والقانون والفنون والآداب بين الناس وتدفع بحوثها إلى الأمام. ٣- (من أمر بإصلاح) أي الهيئات التي تقام لإزالة الخلافات والمنازعات وأسباب الاحتكاكات في المسائل الداخلية أو الاجتماعية أو القومية أو الدولية. وتشمل هذه أيضًا المسائل السياسية للدولة بغرض تدعيم السلام بين البشر. ولو اتبعت تعاليم هذه الآية بإخلاص وصدق لتحقيق إقرار السلام والانسجام في العالم.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا
تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٦﴾

التفسير:

تعني الآية أن القوم الذين يعارضون النبي ﷺ علانية أو سرًا وابتغون لأنفسهم طريقًا مخالفًا لطريق المؤمنين - رغم أن الهداية الربانية قد تبينت واتضحت لهم - فأولئك سوف يُجرمون من سُبُل الهداية، وسوف يدعهم الله تعالى في طريق الخطأ الذي اتبعوه، أي أن الله تعالى سوف يتركهم في الطريق الذي اختاروه.. طريق النفاق والكفر، فيزدادوا نفاقًا وكفرًا، وهذا ما يجعل وجهتهم إلى جهنم، وما أسوأها من وجهة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾

التفسير:

انظر شرح الآية رقم ٤٩ من نفس السورة.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٨﴾

شرح الكلمات:

إِنَاثًا: جمع مفردة أنثى، المشتقة من أنث أي صار مؤنثًا عكس مذكرًا. أنث الحديد أي لان. الأنثى عكس الذكر جنسًا وصفة. إناث جمع أنثى، وتعني أيضًا الجمادات أو الأشياء التي لا حياة فيها؛ النجوم الصغيرة (لين).

مَرِيدًا: مشتق من مَرَد أي أقدم وعتا. مارد: بلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه الصنف. مريد: الخبيث المتمرد الشرير (أقرب الموارد).

التفسير:

تشمل لفظة ﴿إِنَاثًا﴾ كما سبق شرحه كل المعبودات الباطلة حيّة كانت أو ميّتة. وقد استخدمت اللفظة للإشارة إلى حالة الضعف التام وعدم الحول والنفع الذي تتصف به تلك المعبودات الباطلة.

ولفظة ﴿شَيْطَانًا﴾ تعني أن الوثنيين عندما يدعون آلهتهم إنما في الواقع يدعون الشيطان، لأنهم بإيعاز من الشيطان دعوا أوثانهم الباطلة.

وتقدم هذه الآية سببين للقرار الوارد في الآية السابقة بضلal من يشرك بالله ضلالاً بعيداً: أولاً: لأن عبادة الآلهة الباطلة لا يسوق إلى الوثنيين أي خير. وثانياً: لأن هذه العبادة تُحدث بهم ضرراً محققاً، إذ تُقوّي من ارتباطهم بالشيطان، ذلك العدو المبين للإنسان والناثر العاصي على الإله الحق سبحانه وتعالى.

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿١١٩﴾

التفسير:

فاتحة الآية تشير إلى الشيطان الذي ذكر في الآية السابقة، والذي لما لعنه الله ﷻ، نذر بأن يُضل البشر. ولكنه لا يقدر إلا على تضليل قدر محدد منهم، أي أولئك الذين يقبلونه قائداً لهم. وقوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ يعني القدر المحدد حسب سُنَنِ الله ﷻ.

وَالْأَضِلَّهُمْ وَالْأُمْنِيَّهُمْ وَالْأَمْرَنَّهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ
الْأَنْعَامِ وَالْأَمْرَنَّهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ
خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١٢٠﴾

شرح الكلمات:

فَلْيَبْتَئِكُنَّ: مشتقة من بَتَكَ، يُقَالُ بَتَكَهُ أَي قَطَعَهُ، بَتَرَهُ، شَقَّه، فَصَلَهُ، قَطَفَهُ (لين).

التفسير:

الشرط الأول من الآية تنمة للحديث عن الشيطان الذي بدأ في الآية السابقة. والشرط الثاني يتضمن إعلاناً بحكم الله تعالى.

وعلاوة على النذر للآلهة الباطلة كان العرب يقطعون آذان الحيوانات المندورة لها، وذلك للتمييز بينها وبين الحيوانات الأخرى. ولا يزال هذا التقليد الأحق باقياً بين بعض الجهلة في بلاد الهند وغيرها من البلاد.

ويمكن للشيطان أن يحض أتباعه على تغيير خلق الله بوحدة من الطرق الآتية بوجه عام: (١) بتأليه واحد من مخلوقات الله ﷻ. (٢) بالتحريف والتغيير والإفساد في دين الله تعالى. (٣) بالتشويه والتغيير في جسم المولود الجديد. (٤) بقلب ما خلقه

الله تعالى لهدف الخير إلى استعمال شرير سيئ. ومثلاً لذلك فإن الله تبارك وتعالى وهب للإنسان كثيراً من القدرات والملكات التي إذا استعملها استعمالاً صحيحاً حقق بها التقدم العظيم في جميع مناحي الحياة، ولكن الإنسان كثيراً ما يتحرى تغيير خلق الله تعالى بأن يسيء استعمالها، ونتيجة لذلك يعاني خسارة عظيمة.

يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢١﴾

شرح الكلمات:

غُرُورًا: من غَرَّ، يقال غَرَّه أي خدعه؛ غشَّه؛ مَّناه بأشياء لا طائل وراءها أو باطلة. غرور: باطل أو عبث، الأشياء الباطلة أو لا طائل منها؛ خديعة؛ الشيء الخادع. غُرُور بفتح الغين (راجع لقمان: ٣٤) الشيطان، الدنيا (لين).

التفسير:

إن وعود الشيطان والرغبات التي يضعها في قلوب أتباعه والمخالفة لفعل الله وحكمه لا يمكن أن تتحقق أبداً.

أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ
عَنْهَا مَخِيصًا ﴿١٢٢﴾

شرح الكلمات:

مَخِيصًا: من حَاصَّ، يقال حاص عنه أي أعرض عنه، هرب منه. مخيصًا: طريقاً أو مكاناً للهرب، ملجأ، مهرباً أو مفراً. (أقرب الموارد ولين)

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ
مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٣﴾

التفسير:

انظر الآية: البقرة: ٢٦.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ
مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٤﴾

التفسير:

لا يعني قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ أن رغبات المؤمنين لن تتحقق، ولكن العبارة تعني أن هناك قاعدة عامة مؤداها أن مشيئة الله تعالى هي النافذة. ولما كانت رغبات المؤمنين الصادقين تتفق مع مشيئة الله تعالى فلا بد وأن تتحقق.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٥﴾

التفسير:

تبدو أهمية هذه الآية الكريمة في أنها تضع الرجال والنساء بوضوح في نفس المستوى فيما يتعلق بالأعمال وثوابها. فالرجال والنساء عباد الله تعالى، لهم نفس الثواب إذا أحسنوا العمل وفعلوا الخير. وإنه لغريب حقاً أن بعض رجال البعثات المسيحية، رغم صراحة التعاليم الإسلامية ووضوحها، يجدون في أنفسهم الجرأة على اتهام الإسلام بأن النساء فيه - بخلاف الرجال - مجردات من الروح. وينبغي ملاحظة أن الإيمان الحق شرط ضروري للنجاة، كما هو بين من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٦﴾

شرح الكلمات:

خَلِيلٌ: مشتقة من خَلَّ، يقال خَلَّ الشيء أي ثَقَبَهُ. «خَلَّ في دعائه»: خَصَّ في دعائه. خليل: الصديق المختص الذي يتخلل حبه أي ينفذ إلى القلب (أقرب الموارد ولين). راجع أيضاً الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

التفسير:

تقدم هذه الآية رحيق الإسلام وخلاصته، وهو التسليم والإذعان لمشیئة الله تبارك وتعالى، ونذر جميع مواهب المرء وقدراته لله ﷻ (راجع البقرة: ١١٣). ولقد ساقَت الآية إبراهيم عليه السلام مثلاً لرجل تجسّدت في شخصه خلاصة الإسلام لأنه أذعن تماماً لمشیئة الله تعالى. وإبراهيم عليه السلام عند أهل الكتاب عظيم مُبجّل، وعند العرب جَدُّ

يفخرون بالانتساب إليه. وتخبر الآية أهل الكتاب والعرب بأن العمل الصادق بتعاليم الإسلام هو الذي يتيح للمرء أن يكون مثل إبراهيم عليه السلام.. حباً وصديقاً خاصاً لله تبارك وتعالى.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ» (صحيح مسلم، كتاب الفضائل). أي أن علاقة الصداقة والمحبة الشديدة التي تخترق قلب المرء مسموح بها لله ﷻ وحده، ولذلك فالنبي ﷺ خليلٌ لله تبارك وتعالى.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ
اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٧﴾

التفسير:

تدل لفظة ﴿مُحِيطًا﴾ على شيئين: (١) أن الله تبارك وتعالى قد أحاط علمه بكل شيء. (٢) أن الله ﷻ أحاطت قدرته بكل شيء. فما من شيء إلا وهو في مجال علمه وتحت سلطته وقدرته، وليس من شيء خارج عنهما.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُثَلَّى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي
يَتَامَى النِّسَاءِ الْأَتَى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ
وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا
تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٨﴾

شرح الكلمات:

يَسْتَفْتُونَكَ/يُفْتِيكَمُ: مشتقة من «فَتَو» أو «فَتَي» كان أو صار شاباً أو في أول حياته. فتأ الرجل: فاقه في الفتوة أي الشهامة. «أفتاه في الأمر»: عرّفه وبيّن له حكم الشرع، أو أجابه على سؤاله بحكم الشرع. «استفتيت الفقيه في الأمر»: أي سألت العالم أو القاضي أو رجل القانون في حكم الشرع عن مسألة ما. «فتوى»: شرح أو بيان أو نطق بحكم الشرع بخصوص مسألة صعبة أو غامضة - يصدره عالم أو فقيه أو رجل قانون. «استفتاء»: السؤال عن حكم الشرع، طلب الفتوى (أقرب الموارد ولين). والإفتاء قد يعني الإذن والسماح كما في الحديث المشهور: «الإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس»، أي ما كان له وخز في العقل وإن قال الناس إنه مباح (لسان العرب). وفي هذه الحالة يكون معنى العبارة القرآنية ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ أي يعطيكم الله حكمه، أو تعني «يسمح الله لكم أو يعطيكم إذنه».

التفسير:

تعتبر هذه الآية صعبة نوعاً ما، والحكم المتضمن في قوله ﷺ: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ إشارة إلى ما يأتي في الآيات التالية من ١٢٩ إلى ١٣١.

وقوله ﷺ: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ إيماء إلى ما ورد في الآية رقم ٤ في أول السورة. وكان ممنوعاً للمسلمين أن يتزوجوا من اليتيمات اللاتي لا يمكنهم إعطاءهن حقوقهن بما فيه الكفاية. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يسمح للأوصياء بالزواج من اليتيمات الجميلات الثريات، وكان يصّر على أن يتزوجن من رجال أنسب وأفضل لهن، كما كان يوصي الأوصياء بالزواج من اليتيمات إذا كنّ على قدر قليل من الجمال والثراء، لأنهم يعرفون عيوبهن وضعفهن، وهم أجدر بالتغاضي عن ذلك وحسن معاملتهن. وفي الآيتين ٦، ٧ من السورة بيان أوفى عن حسن معاملة اليتامى.

والمعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُثَلِّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَّى
النِّسَاءِ﴾ أن الله تعالى قد أفتاكم وعلمكم كيف تتصرفون وتتعاملون مع النساء في
آيات سابقة نزل بها القرآن المجيد، وسوف تأتي تعاليم أخرى.

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ
إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا
صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ
وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٩﴾

التفسير:

تحتوي العبارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ على الأسلوب القرآني
الخاص الذي يتضمن الحث والزجر معاً، ويمكن أن تُفهم هكذا: هل يظن الطرفان
المتنازعان أن التصالح والتراضي بينهما يتضمن ذنباً ما؟ لا ليس من ذنب في ذلك، بل
على النقيض، إن الصلح أمر ممدوح مرغوب.

وقوله ﷻ: ﴿أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ تعني حرفياً أن النفوس قد واجهت الطمع،
أي أن النفوس انكبت على وجهها في البخل والجشع. وبهذه الكلمات يتضح السبب
الحقيقي الذي يؤدي إلى النفور والتباعد بين الزوج وزوجته. قد يكون البخل من
جانب الرجل والجشع من جانب المرأة. وعندما لا يحب الرجل زوجته فإنه ينظر
إلى إعالتها على أنها عبء ثقيل، كما أن الزوجة أحياناً تتطلب من زوجها طلبات
باهظة. والآية تحث الطرفين كليهما على أن يتعاملا بالعدل والإنصاف.

وقوله ﷺ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ يتضمن دعوة للزوجين أن يتعاشرا بالمحبة ويتجنبّا الخلافات، لأن في ذلك خيرهما وصالحهما من جميع الوجوه.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ
حَرَضْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا
كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٠﴾

شرح الكلمات:

الْمُعَلَّقَةُ: من علق، يقال علّقه: أي جعله مُعلّقًا. و«علق الأمر»: لم يبت فيه. «المُعَلَّقَةُ»: المرأة التي لا يُعاشرها زوجها معاشرة مناسبة، ولا يطلقها حتى تنزوجه من غيره (أقرب الموارد ولين).

التفسير:

تعني الآية ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَضْتُمْ﴾ أنه ليس في وسع الإنسان أن يساوي بين زوجاته من جميع الوجوه. فالمحبة مثلاً من العواطف القلبية التي لا يتحكم فيها الإنسان، ولا يُنتظر من الرجل أن يحب زوجاته بقدر متساو. ولكن الزوج يستطيع بالتأكيد أن يعدل بين زوجاته في مسائل المال والوقت وما شابه ذلك، وهذا ما ينبغي عليه فعله. فالمعاملة العادلة بين الزوجات التي شرعها الإسلام كشرط أساس لتعدد الزوجات تنطبق فقط على التصرفات العلنية التي يملك المرء التحكم فيها. وهذا هو التفسير الذي وضعه النبي ﷺ للآية بقوله وفعله. فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعامل زوجاته رضي الله عنهن بالعدل والمساواة في الأمور التي في وسع البشر أن يملكوها، وكان يدعو قائلاً: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». أي أنه يقسم بالعدل فيما هو في استطاعته،

ويسأل الله تعالى أن يرفع عنه اللوم في المسائل التي تتعلق بالمشاعر القلبية لأنها في قدرة الله وحده (سُنن أبي داود، باب النكاح). وروى عن الرسول ﷺ أنه قال أيضاً: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشَقُّهُ مَائِلٌ» (أبو داود، باب النكاح). من ذلك يتبين لنا أن قول الرسول ﷺ وسُنَّته توضح أنه ينبغي على الرجل أن يعدل بين زوجاته في المعاملة الظاهرة وإن كان في غير وسعه أن يسوي بينهما في المحبة القلبية، فعلى الزوج أن يُسوِّي بينهما في المعاشرة والإنفاق وغيره. (راجع أيضاً الآية ٤ في أول السورة).

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ
وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣١﴾

التفسير:

وإذا بذل الزوجان كل ما في وسعهما ليعيشا معاً في محبة ووثام، ثم رغم ذلك لم يتمكنوا من الوفاق والانسجام معاً وحدث بينهما الافتراق، فإن الله ﷻ يعد كلًّا منهما بفضل منه، أي قد يُوفِّق الله ﷻ كلًّا منهما في الحصول على شريك مناسب. ونظرة الإسلام إلى الطلاق تتضح تماماً من الحديث المشهور للنبي ﷺ: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ». (سُنن أبي داود، باب الطلاق).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ
وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٢﴾

شرح الكلمات:

حَمِيدًا: مشتق من حَمَدَ، يُقال حَمَدَهُ أي مدحه أو أثنى عليه، أو قرَّضه لشيء يتوقف على إرادته، ولذلك فإن وصف اللؤلؤة بالجمال ليس حمدًا وإنما مدحًا. (راجع سورة الفاتحة الآية ٢). «حميد» أو «محمود» مترادفتان بمعنى المستحق للثناء أو المدح أو التقريظ. «الحميد» من أسماء الله تبارك وتعالى ويعني الذي يُثنى عليه ويستحق الثناء في كل حال (معجم لين).

التفسير:

انظر الآية التالية.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٣﴾

التفسير:

لقد تكرر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ثلاث مرات في الآيتين لتأكيد حقيقة أن الله تعالى سوف يجزل الثواب ويكفل الحماية من الشرور لأولئك الذين يخلصون في طاعة أوامره، لأنه سبحانه هو السيد المالك المتصرف في كل ما في السماوات والأرض، ولأنه ﷻ الحفيظ على كل شيء. ولذلك فهو تبارك وتعالى في مركز القدرة والسلطان على العون والمثوبة لمن ينتهجون نهج التقوى والصلاح، والعقاب لمن يخالفون أوامره ويخرجون على شرعه.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٤﴾

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على نصيح جميل يحث الناس على طلب ما في الآخرة من خيرات وطيبات. وإذا كان الله تبارك وتعالى قادراً على أن يهب الإنسان بأوفى كيل من طيبات الدنيا وبركات الآخرة، فلماذا يهمل الإنسان في الكدح والكد ليحصل على الخيرين معاً، وخاصة على نعيم الآخرة الذي يتميز بأنه خير وأبقى. ولما كان الله سبحانه هو السميع فإنه يسمع الدعاء، وبوسعنا أن نحصل على ما نشاء إذا دعونا؛ وهو البصير الذي يعلم حاجتنا ومطالبنا، وهو القادر على أن يشبعها كلها حتى وإن لم نسألها، ذلك إذا كنا غير مدركين لأي من احتياجاتنا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى
بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ
تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

أُولَى: من وَلِيٍّ، يُقال: «وَلِيَّهُ» أي دنا منه وقرب. «ولي الشيء» أي ملك أمره وقام به. الولي: الصديق، المحب، النصير، الراعي لأُمُورك. «أولى»: أجدر وأحق (أقرب الموارد). يقولون «فلان أولى بكذا» أي أحق به أو أجدر به، أو أنسب له (لين). «أولى» تعني أيضاً أشد اهتماماً واعتباراً ومراعاة (الكشاف والمحيط).

التفسير:

كثيراً ما يحتاج الأمر عند تسوية الخلافات بين الزوجين إلى استدعاء بعض الشهود، ولذلك يعود الحديث القرآني إلى هذا الموضوع في وقته المناسب.

وقوله ﷻ: ﴿شَهِدَاءَ لِلَّهِ﴾ يعني أن يراعي الشاهد الصدق لأجل الله تعالى، وأن يكون حريصاً ودقيقاً في اتباع أوامر الله ﷻ. وقوله ﷻ: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قد تعني ضد أنفسكم أو ضد أهليكم وأولي قرباكم. ويدل هذا على ضرورة مراعاة الصدق والحق في الشهادة ولو كان ذلك ضد أحد أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه الشاهد، أو ضد واحد من أقاربه الأقربين، أو حتى إن تعرّضت مكانة الشاهد أو ممتلكاته للخطر.

ولقد أضيفت عبارة ﴿الْوَالِدَيْنِ أَوْ الْأَقْرَبِينَ﴾ لتُضيف إلى الأمر مزيداً من القوة، بمعنى أن الواجب هو أداء الشهادة حق الأداء، وإن كانت ضد أفراد من جماعتك أو حتى ضد أعزّ الأقارب كالوالدين. ولما كانت الشهادة غالباً ما تكون ضد الغير أكثر من كونها ضد الأهل والأقربين لذلك بدأت العبارة بالسابقين قبل الأخيرين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ
الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾

التفسير:

إن أول إيمان مذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ هو الذي نقره باللسان، والثاني الذي يهم هو الإيمان الحقيقي الصادق. ويتضح من ذلك أن العبارات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ تعني أحياناً الذين أقروا بإسلامهم، ولكنهم لا يرقون لتعاليم الإسلام فلا يطبقون مبادئه بإخلاص. وأمثال هؤلاء لا قيمة لانتسابهم إلى الإسلام بمجرد تلفظ الشفاه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٨﴾

التفسير:

من الواضح أن هذه الآية الكريمة تدحض ادعاء البعض بأن الردّة عن الإسلام عقوبتها الإعدام. ولو كانت الشريعة الإسلامية هكذا لما كان أمام الكافر فرصة للارتداد مراراً وتكراراً كما يتضح من الآية. (راجع كتاب «الإسلام وقانون الردّة» طبعة قاديان للتعرف على تعاليم الإسلام بخصوص الردّة).

ولا تعني الآية أن توبة المرتد لا تقبل إذا تكرر ارتداده، ولكن ما ترمي إليه هو إبراز أن التوبة مفتحة الأبواب دائماً. ولا يُقفل هذا الباب بعد الارتداد إلا إذا استمر المرتد «يزداد كفراً» ويمعن في جحوده كما هو بيّن في الآية.

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٩﴾

التفسير:

انظر الآية: التوبة: ٣.

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ يُبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

التفسير:

تقدم الآية صورة معبرة ومؤلمة لكثير من مسلمي العصر.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا
سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ
إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾

التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا

يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٦٩). وسورة الأنعام مكية، أي نزلت قبل هذه الآية من سورة النساء التي نزلت بالمدينة. وهذا يبين بوضوح أن الترتيب الحالي لآيات القرآن الحكيم وسوره المجيدة ليس نفس الترتيب الذي نزل به وقت وحيتها. فالأمر الوارد في سورة الأنعام نزل قبل الآية التي نحن بصدد شرحها، ومع ذلك فالآية السابقة جاءت تالية في الترتيب الحالي للقرآن. وجدير بالملاحظة أيضاً أن الإشارة إلى آية سورة الأنعام كان بعبارة ﴿نَزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ وليس «يُتلى عليكم» التي وردت في الآية ١٢٨ من سورة النساء إشارة إلى الآية ٤ من نفس السورة، والتي سبقتها في النزول وفي الترتيب الحالي كذلك. ثم إن الآية ١٤٦ من سورة الأنعام تشير إلى الآية ١٦ من سورة النحل بعبارة ﴿أَوْحِيَ إِلَيَّ﴾. فالقرآن المجيد يشير إلى الآيات السابقة في نزولها والتي تتأخر في ترتيب المصحف بقوله «أوحى» و«نزل» ويشير إلى الآيات السابقة نزولاً وترتيباً بقوله «يُتلى». وهذه الحقيقة تكشف بوضوح أن الترتيب الحالي للقرآن الكريم ليس من رأي الرسول ﷺ ولكنه فعلاً طبقاً لما أوحى به الله تبارك وتعالى إليه.

ونقطة أخرى جديرة بالملاحظة تبرزها هذه الآية، فعندما يكون الخطاب القرآني موجهاً إلى الرسول ﷺ فغالباً لا يكون مقصوداً به شخصه الكريم، وإنما يقصد به أتباعه، أي المسلمون بصفة عامة. فالخطاب في الآية ٦٩ من سورة الأنعام المذكورة عاليه يبدو موجهاً إلى النبي ﷺ لأن كل الضمائر من نوع المخاطب المفرد، ولكن الآية الحالية من سورة النساء تخاطب المسلمين بصفة عامة لأن الضمائر من نوع المخاطب الجمع. فلو كان ضمير المخاطب المفرد في الآية الأولى موجه إلى الرسول ﷺ بصفة شخصية، فالخطاب في الآية الثانية التي تشير إلى الأولى لا يصح أن يكون موجهاً إلى جميع المسلمين باستعمال ضمير الجمع، وخصوصاً أنه ليس في القرآن الكريم آية أخرى يمكن أن تُرجع الإشارة إليها.

وقد استبدلت لفظة ﴿أَعْرِضْ﴾ بلفظة ﴿لَا تَقْعُدُوا﴾ في هذه الآية، وفي هذا دلالة على أن عبارة ﴿أَعْرِضْ عَنْ﴾ عندما ترد في القرآن الكريم فإنها تعني «اقطع صلتك». وتتضمن الآية ثلاثة مبادئ: (١) تأكيد الجدّية والأهمية بالنسبة للأمور الدينية. (٢) حماية المؤمنين من تأثير الكفار الهادم للأخلاق. (٣) زرع وتنمية الشعور بالغيرة الدينية الصالحة في قلوب المسلمين.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ
كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ
يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ
لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤٢﴾

شرح الكلمات:

نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ: مشتقة من حاذ، يقال حاذه أي حرسه أو حماه ورعاه. حاذ الإبل أي ساقها بسرعة أو سيطر عليها وجمعها. استحوذ عليه أي تغلب عليه أو تسيده أو سيطر عليه؛ أو استأثر بمودّته (تاج العروس).

نَمْنَعُكُمْ: من منع أي (١) عاق أو درأ. (٢) رفض أو أنكر. (٣) حمى وحرس (لين).

التفسير:

إن العبارة ﴿أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ﴾ موجهة من المنافقين إلى الكفار وهي بمعنى أنكم كنتم في متناول أيدينا ولكننا أبقينا عليكم، وقالوا كذلك ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي وحميناكم من المؤمنين، بمعنى أنهم انفصلوا عن المسلمين فكانت النتيجة أن المسلمين ضعفوا وبذلك نجا الكفار منهم. وقد تعني العبارة أن ضعف القلوب منكم ودّوا مسالة المسلمين ولكننا منعناهم من ذلك، وكانت العاقبة أنكم انتصرت عليهم. وعندئذ يكون معنى عبارة ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي منعناكم أن تعقدوا سلاماً مع المؤمنين.

والعبارة الأخيرة في الآية تعني أن المنافقين لن تكون لهم القدرة على المعارضة الفعالة في مواجهة المسلمين.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ يُرَاءُونَ
النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٦﴾

شرح الكلمات:

يُخَادِعُونَ وَخَادِعُهُمْ: (راجع الآية رقم ١٠ من سورة البقرة). وكلمة ﴿خَادِعُهُمْ﴾ في هذا السياق وإن كانت من نفس الاشتقاق إلا أن معناها هنا «معاقتهم على خداعهم»، وليس «الخداع الفعلي»، (راجع الآية ١٦ من سورة البقرة).

التفسير:

إن المنافقين في واقع الأمر يحاولون خداع الله ﷻ وليس النبي ﷺ لأنه ليس إلا مبعوثاً لله تعالى، فكل المؤامرات التي حاكوها إنما استهدفوا بها إبطال مشيئة الله ﷻ، ولذلك فهو سبحانه الذي سيعاقبهم على خداعهم.

إن الكسل والتباطؤ من خصائص المنافقين. وقد روي عن الرسول ﷺ أن «أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»،^١ وأن «الْمُنافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنِي الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».^٢ (صحيح مسلم). إن الإيمان الصادق اليقيني هو الذي يخلق في الإنسان روح الشوق والحماس ليحيا حسب عقيدته.

مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٤﴾

شرح الكلمات:

مُذَبِّدِينَ: جمع مذذب المشتق من ذَبَّ. يقال ذَبَّ عنه أي دفع عنه ومنع. ذذب الشيء أي حرَّكه جيئةً وزهاباً، حرَّكه، أثاره، هزَّه. ذذبه أي حيَّره أو أربكه بحيث لم يعرف طريقه الصحيح، هزَّه. تذبذب الشيء أي تدلَّى أو تردَّد جيئةً وزهاباً، أو تحرك أو اهتز. مذذب أي مطرود من جانب إلى آخر، مهتز، متردّد بين شخصين أو جماعتين أو أمرين، ليس ثابتاً في ارتباطه إلى واحد منهما (لين وأقرب الموارد).

١. حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُمَرَ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ ثُمَّ أُمِرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ». (مسلم، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف)

٢. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الظُّهْرِ وَدَارُهُ يَجْنُبُ الْمَسْجِدَ فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ أَصَلَيْتُمُ الْعَصْرَ فَقُلْنَا لَهُ إِنَّمَا انْصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنَ الظُّهْرِ قَالَ فَصَلُّوا الْعَصْرَ فَقُمْنَا فَصَلَّيْنَا فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنِي الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا». (مسلم، باب استحباب التكبير بالعصر)

وهناك قراءة أخرى لكلمة ﴿مُذَبِّذِينَ﴾ وهي: «متذبذبين» و«مذبذبين» بالكسر (الكشاف). وعبرة ﴿يُنْزِلُ ذَلِكَ﴾ أي بين الإيمان والكفر أو بين المؤمنين والكافرين.

التفسير:

تصف الآية حالة المنافقين ببراءة، وهناك مثل هندي مشهور يصف المنافق بأنه يضع قدميه في قارين. وبحسب المنافق أنه يتصرف بحكمة وعقل (الآية ١٤ من سورة البقرة)، ولكن تصرفه في الحقيقة قمة في الحماقة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٥﴾

التفسير:

إن الذي يتخذ من الكافرين أصدقاء في الوقت الذي يشتبك فيه المؤمنون معهم في صراع حياة أو موت، إنما ينصر سبيل الكفر على الإسلام. ومثل هذا يستجلب فوق رأسه غضب الله حقاً واستحقاقاً.

وعبرة ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مفضلاً إياهم على المؤمنين، وقد أضيفت لإبراز مدى الحمق في هذا التصرف.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ
وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٦﴾

شرح الكلمات:

الدَّرَك: يقال دَرَكَ المطر إذا سقط متتابعًا. أدرك الشيء أي حصّله أو بلغه أو حازه؛ بحث عنه وتتبعه ثم حصل عليه. دَرَكَ: الحصول أو الوصول إلى الشيء؛ أو حيازته، أو النتيجة؛ أو العاقبة السيئة، أو قاع الشيء أو أسفله، أو قاع شيء عميق كالبحر أو البئر؛ أو حالة الهبوط ويقابلها «درج» أي حالة الارتفاع (لين وأقرب الموارد).

الْأَسْفَل: نقيض الأعلى ويكون اسمًا و ظرفًا؛ من سافل وهو المنخفض، الوضع، المنحط. والأسفل تعني المنخفض مكانًا أو مكانة (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

إن ما يوجّهه القرآن الكريم من التهديد الشديد إلى جماعة المنافقين لهو تفنيد ودحض بين لزعم من يتهمون الإسلام بأنه يحث أتباعه على نشر الإسلام بحدّ السيف. إن المرء الذي يُجَبَّر على قبول الإسلام لا يمكن أن يكون مؤمنًا مخلصًا رغم إرادته، ومثل هذا الشخص سيكون منافقًا. ولا يُتَصَوَّر أن شخصًا يتهم القرآن بأنه يطالب المسلمين بالعمل على زيادة عددهم عن طريق السماح للمنافقين بالانضمام إليهم.

ولسوف يوضع المنافقون في أحط أعماق جهنم لأنهم يجمعون بين خطيئتي الكفر والنفاق. وليس من الضروري أن يكون موضع المنافقين هو الدرك الأسفل بالمعنى المادي ولكنه الدرك الأسفل أي أشدّ العذاب المعدّ للمجرمين من أحط درجة.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ
وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٧﴾

شرح الكلمات:

انظر تفسير الآية ٧٠ من السورة لمراجعة معنى لفظة ﴿مَعَ﴾.

التفسير:

تكمُن أهمية الآية في أنها تساعد على تحديد معنى الأداة ﴿مَعَ﴾ التي لا تعني ولا يمكن حقاً أن تعني مجرد الرفقة، ذلك لأنه من الواضح أن التائب المصلح من بين المنافقين لن يُحتسب مع المؤمنين كمجرد رفيق لهم بل سيكون واحداً منهم وجزءاً لا ينفصل عن جماعة المؤمنين، وسوف يُعَدّ من المؤمنين. وتُلَمِّح الآية أيضاً إلى أن باب التوبة مفتوح حتى للمنافقين الذين شددت الآيات السابقة في لومهم وإدانة فعلهم وسلوكهم.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ
وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴿١٤٨﴾

التفسير:

الشكر من جانب الإنسان أن يكون عنده الإحساس المناسب لأفضال الله تبارك وتعالى ويعبر عن امتنانه بكلمات اللسان وأفعال الجوارح. والشكر من جانب الله ﷻ أنه يمنح الثواب اللائق للإنسان على طاعته وصلاحه وتقواه. راجع سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ
ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴿١٤٩﴾

التفسير:

لا يبيح الإسلام للمسلمين أن يتحدثوا بالسوء علناً عن شخص ما، ولكن المظلوم بوسعه أن يصيح عالياً عندما يُعتدى عليه فعلاً ليسرع إليه من عينه. وبوسعه أيضاً أن يطلب الإنصاف في ساحة القضاء. ولكن لا يجوز له أن يمضي متجولاً شاكياً لكل من يقابله؛ إذ أن ذلك يؤدي إلى خلق الكراهية والمرارة، وبث الحقد والضغينة، وقد يُعكّر صفو السلام العام، وهذا كله لا يسمح به القرآن الكريم بأي حال من الأحوال. وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ للإشارة إلى أنه من الأفضل للمظلوم أن يتصرف بصبر وأن يمتنع عن مقالة السوء عن أي شخص. وهو مُخَيَّر بين أن يلجأ إلى القضاء أو أن يتوجه إلى الله تبارك وتعالى ليجد عنده العدالة والعزاء لنفسه.

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٥٠﴾

التفسير:

تركز هذه الآية وتبرز المعنى الوارد في الآية السابقة، وفي نفس الوقت تلمح إلى أن الأجر بالإنسان أن يحاول العفو عن أخطاء إخوانه نحوه قدر المستطاع. أليس الله تبارك وتعالى - الذي سيقف الجميع أمامه للحساب يوماً ما - هو العفو الأعظم الذي يمحو الخطايا والذنوب؟

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ
أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ يَقُولُونَ نُوْمِنُ

بَعْضٌ وَنَكْفُرُ بَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥١﴾

التفسير:

تقدم الآية دليلاً واضحاً على أن الإيمان بكافة رسل الله ﷺ أمر ضروري وجوهري في العقيدة الإسلامية. فقوله ﷻ: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يشمل جميع رسل الله تعالى ولا يتضمن أي استثناء، ويتطلب الإيمان بكل الأنبياء قديمهم وحديثهم.

وتدين العبارة ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أولئك الناس الذين يؤمنون ببعض المرسلين ويكفرون ببعضهم الآخر. وهناك المزيد حول هذه النقطة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ إشارة واضحة إلى الرسل وليس إلى الله والرسل معاً. وهذا يوضح أن عبارة ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ تشير إلى ما يحاوله البعض من التمييز بين الرسل، وليس التمييز بين الله تبارك وتعالى والرسل. وهذا قد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

ويفسر ابن كثير هذه الآية في تفسيره المعروف كما يلي: «والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض» (الجزء ٣ ص ٢٢٤). والواقع أن الذين يردّون نبوة واحد من أنبياء الله تعالى بدافع الحسد أو العصبية أو الهوى، لا يكون إيمانهم بالنبي الذي يدّعون الإيمان به إيماناً صادقاً مخلصاً بل مجرد إيمان مصطنع. إنهم لو آمنوا حقاً بنبيهم كرسول من عند الله لآمنوا بالآخر الذي هو أيضاً من عند الله تعالى، والذي تثبت دعواه بدلائل مشابهة.

وتعني الآية ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أن مثل هؤلاء الناس يبحثون عن طريق متوسط بين الإيمان والكفر، أي أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، أو يكفروا

ببعض رسله، أو يكفروا ببعض تعاليم رسولهم، أو يرفضوا اتباع نبيهم مع التسليم بصدقه، على اعتبار أنهم يعتبرون أنفسهم غير ملزمين باتباعه. إن الإيمان الحق يكمن في التسليم الكلي.. الإيمان بالله تعالى وجميع رسله وكل دعاواهم، وليس هناك من طريق وسط مباح في هذا الأمر.

أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥٢﴾

التفسير:

إن الذين يحاولون اتخاذ الطريق الوسط في مسألة الإيمان كما بيّنا في شرح الآية السابقة هم في نظر الله تعالى كفار حقيقيون، ولسوف يُجْزَوْنَ بعقاب يُدْلَهُم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٣﴾

التفسير:

تناولت الآية ١٥١ أربعة أصناف من الكفار: (١) من يكفرون بالله ورسله. (٢) من يدعون الإيمان بالله ويكفرون برسله، أي يعترفون بوجود إله ولكنهم يزعمون أنه لم يبعث رسلاً، أو من يظنون أنهم مرتبطون بما أنزله الله تعالى من وحي فقط ولكنهم لا يعتبرون أنفسهم ملزمين بتعاليم الرسل وأوامرهم. (٣) من يقبلون الإيمان ببعض الرسل ويرفضون بعضهم الآخر. (٤) من يقبلون بعض دعاوى أحد الأنبياء ويرفضون بعضها، أو من يصدقون أحد الأنبياء في دعاواه ولكنهم يظنون أنفسهم غير ملزمين

بالدخول في دعوته. واستمراراً لما سبق، تقول هذه الآية إن الذين يرجون ثواب الله هم فقط الذين يتجنبون أنواع الكفر الأربعة المشار إليها آنفاً، وتنطوي صدورهم على إيمان كامل لا انحراف فيه بالله تعالى وأنبيائه جميعاً.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ
كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ
مِنَ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنِ ذَلِكَ وَآتَيْنَا
مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٤﴾

التفسير:

راجع الآية ٥٦ من سورة البقرة لبيان معنى ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ أي العذاب المدمر، ولبیان معنى قوله تعالى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٥﴾

التفسير:

راجع وقارن شرح الآيات رقم ٥٩، ٦٤، ٦٦ من سورة البقرة، والآية ٤٨ من سورة النساء.

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا
غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٦﴾

شرح الكلمات:

طَبَعَ: راجع الآية ٨ من سورة البقرة. وطبع كختم ودمغ ووصم (لين).
غُلْفٌ: أي ملفوفة في الأغشية. راجع الآية ٨٩ من سورة البقرة.

التفسير:

راجع الآيات ٨، ٦٢، ٨٩ من سورة البقرة.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٧﴾

التفسير:

إن ما تقوله اليهود من قذف واتهام في حق السيدة مريم لدليل واضح على أن مولد المسيح عيسى عليه السلام تم من غير وساطة أب، إذ لو كان له أب فما هو الاتهام الذي يقذف به اليهود السيدة مريم؟ إن مجرد تعييرها بادعاءات ابنها لا يمكن أن يسمى ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾. وفي موضع آخر قال القرآن الكريم عن مريم أم عيسى عليه السلام إنها امرأة صالحة وأن الشيطان لا دخل له في مولد ابنها ﴿... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٧)، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (المائدة: ٧٦).

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن
شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ
مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا
قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٨﴾

شرح الكلمات:

وَمَا قَتَلُوهُ: قتله أي قضى عليه بأن ضربه بالسيف أو بحجر أو بالسم أو بأية وسيلة أخرى. (راجع الآية ٦٢ من سورة البقرة).

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا: هذا تعبير عربي خاص. تقول العرب «قتل الشيء خبراً» أي قتل الأمر بالمعرفة الأكيدة والتمحيص الملائم. ومعنى ذلك أنه اكتسب معرفة كاملة عن الشيء بحيث انتفى أي احتمال للشك. فعبارة ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ تعني: أن معرفتهم به ليست قائمة على الإدراك والإحاطة، أو أنهم لم يعرفوا معرفة أكيدة بأنه قُتِلَ، أو أنهم لم يتحوّل التخمين لديهم إلى تأكيد، أي أنهم لم يكونوا متأكدين ولم يحاولوا التأكد ما إذا كان عيسى عليه السلام قد مات على الصليب أم لم يمِت. وفي هذه الحالة يعود ضمير الهاء في ﴿قَتَلُوهُ﴾ على لفظة «الظن» السابقة لها مباشرة (لين وأقرب الموارد والمفردات ولسان العرب).

وبتعبير بسيط فإن العبارة تعني أن علم اليهود عن موت عيسى عليه السلام على الصليب ليس كاملاً أو شاملاً بحيث يصل إلى مرتبة اليقين. وقد تعني العبارة أن اليهود بكل تأكيد لم يقتلوه، أو أنهم لم يقتلوه بصفة مؤكدة، أي أنهم لم ينفذوا فيه القتل بطريقة تضمن لهم موته.

وَمَا صَلَبُوهُ: يقال صلب الشيء أي أحرقه. صلب العظام أي أخرج منها النخاع. صلب اللص أي قتله بطريقة الصلب المعروفة (لين وأقرب الموارد). وعند الصلب يعلق المصلوب بدق المسامير في يديه ورجليه على إطار خشبي يتكوّن من قطعتين متقاطعتين، ويمنع الطعام والشراب عنه حتى يموت موتاً بطيئاً من الألم والجوع والإرهاق والتعريّة.

شُبَّهَ لَهُمْ: شبهه إياه جعله مثله، أو جعله يشبهه. شُبَّهَ عليه الأمر أي لُبَّسَ عليه، أو اختلط عليه أو غُمِضَ عليه. شُبَّهَ عليه الأمر: لَبَّسَهُ عليه؛ جعله مُحَيَّرًا له بأن جعله يماثل شيئاً آخر؛ جعله مبهمًا أو غامضًا عليه (لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير هذه الآية والتي تليها إلى اعتراضين أثارهما اليهود ضد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

الزعم بعدم شرعية مولده. (٢) الزعم بموته على الصليب ميتة ملعونة طبقاً للشرعية اليهودية التي تقول: «... لأن المعلق ملعون من الله» (التثنية ٢١: ٢٣). وعبارة «إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ» قيلت على سبيل السخرية والتعيير، ويعنون بها: «لقد قتلنا عيسى الذي زعم أنه المسيح ورسول الله».

وحجّة اليهود أنه ما دام عيسى عليه السلام قد مات على الصليب فلا يمكن أن يكون نبياً صادقاً طبقاً للشرعية اليهودية. ولقد بنوا فكرتهم هذه على مخطوطاتهم المقدّسة، إذ أن كتابهم المقدّس يقول بأن المعلق ملعون من الرب، وإن النبي الكاذب يلقي الهلاك. تقول التوراة: «وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقتة على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله. فلا تُنَجِّس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيباً» (التثنية ٢١: ٢٢، ٢٣)، وتقول: «وتكون يدي على الأنبياء (الكذبة) الذين يرون الباطل والذين يعرفون بالكذب» (حزقيال ١٣: ٩)، وتقول: «لذلك هكذا قال الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمي

وأنا لم أرسلهم وهم يقولون لا يكون سيف ولا جوع في هذه الأرض، بالسيف والجوع يفنى أولئك الأنبياء» (إرميا ١٤: ١٥).

وبناء على قوة مثل هذه الفقرات في كتابهم المقدس ادّعى اليهود أنه لما كان عيسى عليه السلام قد صُلب ولقي الهلاك فلا يمكن أن يكون نبياً صادقاً من عند الله تعالى، ولكنه مدّع كاذب وملعون من الله تعالى.

وبالنسبة للتهمة المزعومة عن موت المسيح على الصليب يقول القرآن المجيد إن حادثة الصلب لم تكتمل، وإن عيسى عليه السلام أنزل من على الصليب حياً، فلا محلّ إذن لهذه التهمة. وجدير بالذكر أن القرآن الكريم لا ينكر تعليق عيسى عليه السلام على الصليب وإنما ينكر موته على الصليب.

وهناك رأيان سائدان بين اليهود عن الموت المزعوم لعيسى عليه السلام على الصليب. فالبعض يعتقد أن عيسى عليه السلام قد قُتل أولاً ثم عُلق جثته على الصليب، ويرى البعض الآخر أنه مات بالصلب نفسه. وينعكس الرأي الأول مما نقرأه في سفر أعمال الرسل: «.. الذي أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة»، وهي ترجمة غير دقيقة بينما النص

الإنجليزي أكثر وضوحاً: "which ye slew and hanged on a tree"

والقرآن الكريم يُفند كلا الرأيين ويقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾. وتعني الكلمات أيضاً أن القرآن الكريم ينكر أولاً قتل عيسى عليه السلام بأية صورة من الصور، ثم ينكر القتل على الصليب بصفة خاصة.

والفعل ﴿شُبِّهَ﴾ في صيغة المبني للمجهول يعني أن الأمر قد جُعل ليبدو لهم كذلك. وهنا ينشأ تساؤل عمن هو الشخص الذي جُعل ليبدو كالمصلوب؟ من الواضح أن اليهود حاولوا قتل عيسى عليه السلام أو صلبه ولا يمكن أن يُقصد شخص آخر في هذا المقام، إذ أنه لا يوجد مطلقاً أي إشارة إلى شخص آخر في النص. ومن ثم فإن النظرية التي اخترعها بعض المفسرين عن أن يهوذا أو غيره قد وقع عليه شبهة المسيح عليه السلام ثم أُخذ

وَصُلِبَ بدلاً منه، غير معقولة ولا يمكن تحريف النص لإضافة أحدٍ لم ترد عنه أية إشارة في الآية قط.

وكيف شبه لهم؟ إن النص يحوي ردًّا واضحًا لهذا التساؤل. إن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام بعملية الصلب، وإنما جُعل عيسى عليه السلام ليبدو لهم كمن مات على الصليب، وهكذا اعتبروه خطأ أنه قد صُلب. إن عيسى عليه السلام نفسه هو الذي شبه لهم أنه قد مات مصلوبًا. وهذا التفسير لا يتفق تمامًا مع النص فحسب وإنما تؤيده كذلك كل الحقائق التاريخية المتاحة.

والمعنى الثاني لعبارة ﴿شُبَّهَ لَهُمْ﴾ كما في معاني المفردات أن الأمر اختلط عليهم. وهذا التفسير يتأيد بوضوح أيضًا من الحقائق التاريخية، فإن اليهود، ولو أنهم يؤكدون على أنهم قتلوا عيسى عليه السلام بتعليقه على الصليب، إلا أنهم لم يكونوا واثقين من ذلك تمام الثقة، ولما كانت الظروف التي حدث فيها ذلك الموت المظنون ظروفًا غامضة، لذلك صار الأمر محيرًا وغامضًا عليهم. ويؤيد كتابهم المقدس حقيقة أن اليهود أنفسهم لم يكونوا واثقين من أن عيسى عليه السلام قد مات فعلاً على الصليب، وكذلك تؤيد هذه الحقيقة كل دقائق التاريخ المعتمدة.

إن التصريح الذي تعلنه الآية ليجد برهانًا واضحًا من الوقائع التالية التي روتها الأناجيل:

(١) لقد تنبأ عيسى عليه السلام نفسه أنه سينجو من الموت على الصليب قائلاً: «لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال» (إنجيل متى ١٢: ٤٠). ومن الحقائق المسلّم بها أن يونان - أي يونس عليه السلام - دخل جوف الحوت حيًّا وخرج منه حيًّا، وهكذا طبقًا للنبوءة التي أنبأ بها عيسى عليه السلام نفسه فإنه يدخل قلب الأرض - أي قبره - حيًّا ويخرج منه حيًّا.

(٢) إن الوالي «بيلاطس» الذي كان يحاكم عيسى عليه السلام اقتنع ببراءته، وكان تَوَاقُّاً لإنقاذ حياته تعاطفاً منه معه (متى ٢٧: ١٧، ١٨. مرقس ١٥: ٩، ١٠، ١٤. لوقا ٢٣: ٤، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٢. يوحنا ١٨: ٣٨، ٣٩). ولا بد أنه حاول خفية أن يُنقذه أو على الأقل فإنه غَضَّ الطرف عن محاولات الآخرين لإنقاذه.

(٣) لقد رأت زوجة «بيلاطس» حلماً يتعلق ببراءة المسيح عليه السلام: «وإذ كان جالساً (أي بيلاطس) على كرسي الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك البار. لأنني تأملت اليوم كثيراً في حلم من أجله» (متى ١٩: ٢٧). ولا بد أن هذه الرسالة قد أثرت على «بيلاطس»، ولا بد أن زوجته فعلت كل ما في وسعها لإنقاذ المسيح عليه السلام.

(٤) لقد اعتبر «بيلاطس» قتل المسيح عليه السلام أمراً فظيلاً مربعاً لدرجة أنه غسل يده بالماء فعلاً معلناً براءته من دم هذا الرجل البار (متى ٢٧: ٢٤).

(٥) لقد فعل «بيلاطس» كل ما في وسعه لمساعدة المسيح عليه السلام، كما أن الجنود من الحراس عاملوه بعطف يدوأنه بتوجيه من «بيلاطس». وهاك بعض مجاملاتهم الخاصة للمسيح عليه السلام: (أ) كان كل مُذنب يحمل صليبه، ولكن سُخِّر شخص آخر لحمل صليب المسيح (متى ٢٧: ٣٢. مرقس ١٥: ٢١). (ب) أُعطي المسيح عليه السلام نبيذاً أو خللاً ممزوجاً بالمرّ، وكان المقصود بذلك أن يكون أقل إحساساً بالألم، ولم يُعط هذا الشراب لأحد من اللصين اللذين صُلبا معه. وبعد فترة من الوقت عندما بدأ تأثير الشراب يضعف عن المسيح عليه السلام صاح متألماً فَقُدِّم الشراب له مرّة ثانية ليفقده الإحساس بالألم (متى ٢٧: ٣٤، ٤٨. مرقس ١٥: ٢٣، ٣٦. يوحنا ١٩: ٢٩، ٣٠).

(٦) أخطأوا في اعتبار الغيوبة التي أصابت المسيح عليه السلام بعد تناوله الشراب على أنها موت (يوحنا ١٩: ٣٠).

(٧) بقي المسيح عليه السلام على الصليب حوالي ثلاث ساعات (يوحنا ١٩: ١٤. متى ٢٧: ٤٦). ووفقاً لمرقس فإنه بقي ست ساعات (مرقس ١٥: ٢٥، ٣٣)، وهذه الفترة أو تلك غير كافية على الإطلاق للقضاء على شاب مثل المسيح تعليقاً على الصليب.

(٨) عندما جاء يوسف الرامي ودخل إلى «بيلاطس» وطلب جسد المسيح عليه السلام.. «تعجب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً فدعا قائد المائة وسأله هل له زمان قد مات؟» (مرقس ١٥: ٤٤).

(٩) العسكر لم يكسروا ساقَي المسيح عليه السلام مع أنهم كسروا سيقان اللصين اللذين صُلِبوا معه (يوحنا ١٩: ٣٢، ٣٣).

(١٠) لم يُدفن المسيح عليه السلام في الأرض كما دُفن الاثنين المصلوبين معه، ولكنه وُضع جانباً في قبر فسيح منحوت في الصخر ويقع في بستان ملك خاص (مرقس ١٥: ٤٦. يوحنا ١٩: ٤١، ٤٢).

(١١) لم يكن اليهود أنفسهم متأكدين أن المسيح عليه السلام قد مات لأنهم ذهبوا إلى «بيلاطس» وسألوه أن يكسروا ساقَي المسيح (يوحنا ١٩: ٣١).

(١٢) كان يضطرم الشك في عقول اليهود في أن المسيح عليه السلام حيّ لم يمِت وأنه ربما يفرّ من المقبرة بمساعدة المتعاطفين معه. وتذكروا أيضاً نبوءة المسيح عليه السلام بأنه سوف يريهم معجزة يونان النبي ويخرج من جوف الأرض حيّاً. لذلك ذهب رؤساء الكهنة والفرّيسيون متأثرين بهذا الشك وقالوا: «يا سيد، قد تذكّرنا أن ذلك المضلّ قال وهو حيّ إني بعد ثلاثة أيام أقوم، فمُر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه. فأمرهم بيلاطس أن يتّخذوا تدابيرهم «فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر» (متّى ٢٧: ٦٢-٦٦).

(١٣) رغم الحراسة وختم الحجر على القبر فإن المسيح عليه السلام ترك القبر قبل أن يأتي فجر اليوم الثالث... عندما ذهب أمه مريم ومعها مريم المجدلية لرؤية القبر، وجدت الحجر قد تدحرج بعيداً والقبر خالياً (متّى ٢٨: ١-٦. مرقس ١٦: ١-٦). وهذا يدل

على أن أصدقاء المسيح ﷺ قد كسبوا الرجال المكلفين بالحراسة إلى صفّهم وتحالفوا معهم.

(١٤) انتقل المسيح ﷺ في سرّية بعد أن خرج من القبر لئلا يقبض عليه اليهود مرّة ثانية (مرقس ١٦: ١٢. يوحنا ٢٠: ١٩، ٢٦ و٢١: ٤).

(١٥) رأت مريم المجدلية المسيح ﷺ في جسده البشري ونظرته بعينها، كما رآه أيضاً بعض تلاميذه (مرقس ١٦: ٩، ١٢).

(١٦) أراهم المسيح ﷺ جروحه ليؤكد لهم بأنه ليس روحاً وإنما بشر من لحم ودم وأن جسده الذي رآوه هو نفس الجسد الذي علّق بالمسامير على الصليب ﴿لوقا ٢٤: ٣٩، ٤٠. يوحنا ٢٠: ٢٧﴾.

(١٧) أحس المسيح ﷺ بالجوع بعد أن غادر القبر، وتناول الطعام مع تلاميذه (يوحنا ٢١: ٥، ١٣. لوقا ٢٤: ٤١-٤٣).

يتضح من الإشارات السابقة وغيرها أن المسيح ﷺ لم يمت على الصليب وأنه أيضاً أُدخل القبر حياً وخرج منه حياً في الصباح الباكر من اليوم الثالث كما تنبأ هو بذلك، كما أنه ظهر لتلاميذه سرّاً فيما بعد وأكد لهم أنه لم يمت.

(١٨) قال المسيح ﷺ: «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يوحنا ١٦: ١٠). ومن الواضح أنه يشير بهذه الكلمات إلى قبائل بني إسرائيل العشر الضالة التي تبعثرت في أفغانستان وكشمير وغيرها. وبحثاً عن هذه القبائل توجه المسيح ﷺ إلى الشرق بعد هربه ونجاته الإعجازية من موتة الصليب اللعينة، ويرقد الآن مدفوناً بينهم في شارع خانيار ببلدة «سرينجر» بكشمير. وقد توطدت الأدلة التاريخية القطعية على أن القديس المدفون في مقبرة شارع خانيار بسرينجر ليس إلا المسيح عيسى بن مريم ﷺ. (ولمزيد من البحث في هذه المسألة الهامة راجع كتاب «المسيح الناصري في الهند» الذي ألفه المسيح الموعود ﷺ؛ ومجلة

مقارنة الأديان 'Review of Religion' المجلد الثاني، الأعداد ١، ٢، ٥، ٦، ١٠ المنشورة في قاديان؛ و«قبر عيسى» بقلم الدكتور م.م. صادق من قاديان).

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٩﴾

شرح الكلمات:

رَفَعَهُ: راجع الآية ٦٤ من سورة البقرة.

التفسير:

العبارة ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي على عكس قول اليهود فإن الله تعالى أعلى مرتبته، ويتضمن هذا الرد على الذم والتعير الوارد في كلمات اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾. فترمي الآية إلى القول بأن الذي ادّعى اليهود مبتهجين أنهم قتلوه على الصليب لم يُقتل وإنما رفعه الله تعالى وأنعم عليه بالقرب منه. وليس هنا أية إشارة من قريب أو بعيد إلى الرفع المادي المزعوم وصعود عيسى عليه السلام إلى السماوات. وتحتوي الآية فحسب على تفنيد ما زعمه اليهود من أن عيسى عليه السلام بسبب لعنة الصليب قد انحطت منزلته فسقط وطُرد من حضرة الله تعالى. ودحضاً لهذه التهمة الباطلة تُبرّته الآية من الإساءة المتضمنة في قول اليهود بأن تناولت رفعته الروحانية.

وينبغي أيضاً ملاحظة أن القرآن الكريم لا يقول هنا بأن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ولكن يقول بأن الله رفعه إليه. وهذا يُبين بوضوح أن الرفع لم يكن مادياً وإنما روحانياً، لأن الله تعالى ليس له مكان محدد أو مخصص. ومن المؤسف أن مثل هذه الدلالة الكريمة الروحانية السامية للآية تلقى التشويه والانحراف والانحطاط لتكون دليلاً على فكرة ليس لها أساس بالمرّة وهي الزعم بأن عيسى عليه السلام قد أخذ إلى

السماء حياً بجسده العنصري. إن القرآن الكريم لا يقبل بالمرّة فكرة أن يصعد إنسان بجسده إلى السماء وإن كان النبي ﷺ نفسه. (راجع الآية ٩٤ من سورة الإسراء وأيضاً الآية ٥٦ من سورة آل عمران).

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ
بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٦٠﴾

التفسير:

الضمير في لفظة ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ يعود على الاعتقاد الباطل - المشار إليه في الآيات السابقة - من أن المسيح ﷺ لقي الموت على الصليب. فالآية تعني أن كلاً من اليهود والنصارى لا ينفكّون يعتقدون بعقيدة الصلب المزعوم إلى يوم موتهم، وعندئذ يرتفع الثقاب وتتضح كل الأمور. إنهم حقاً مرتبطون بعقيدة موت المسيح ﷺ على الصليب، لأن اليهود إن لم يفعلوا ذلك لتوطّد صدقه وأصبحوا في موقف لا سبيل إلى الدفاع عنه. وبالمثل فإن النصارى إذا لم يؤمنوا بهذه العقيدة فإن فكرة الفداء والكفارة تصبح لا سند لها ويتمزّق نسيج المسيحية إلى قصاصات. ولذلك لا ينفك القومان كلاهما متمسكين بهذه العقيدة المتعارضة مع العقل والعارية عن الأساس، معارضين بذلك كل منطق وكل حقائق التاريخ الثابتة.

ومن خالص السخف تلك المحاولات التي تهدف إلى اتّخاذ عبارة ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ لتعني أنهم سوف يؤمنون بعيسى ﷺ قبل موته - أي قبل موت عيسى ﷺ، فالنص يركل هذه الفكرة وكذلك قراءة أبي بن كعب ﷺ ﴿قبل موتهم﴾ (ابن جرير ج ٦ ص ١٣).

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ
سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾

التفسير:

تشير العبارة ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ إلى التَّعَمُّ والبركات الإلهية التي حُرِّمَ منها اليهود بسبب عدوانهم. ولا تشير الآية إلى أي شيء مادي كان مباحاً لهم ثم حُرِّمَ عليهم، لأنه لم يظهر بين الإسرائيليين بعد موسى عليه السلام أي نبي حامل شريعة بحيث يحرم عليهم أشياء تبيحها التوراة. ويشير المسيح عليه السلام إلى البركات الروحانية التي فقدوها اليهود في قوله: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٥١).. أي جئت لأعيد لكم بركات الله وأفضاله التي حرمت منها بسبب سوء فعالكم.

وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾

التفسير:

لقد حُرِّمَ على اليهود إقراض المال بالربا لليهود، ولكن أُبيح لهم ذلك مع غير اليهود (سفر الخروج ٢٢: ٢٥. سفر اللاويين ٢٥: ٣٦، ٣٧. سفر التثنية ٢٣: ١٩، ٢٠). ولكنهم خرقوا الشريعة وأخذوا يتعاملون فيما بينهم بالربا (سفر نحميا ٥: ٧). ولقد وعدوا بعد ذلك نحميا بالإقلاع عن المعاملات الربوية فيما بينهم (نحميا ٥: ١٢) ولكنهم

عادوا إلى النكث بكلمتهم، ولهذا تحققت فيهم نبوءة حزقيال (حزقيال ١٨: ١٣) وأصابهم الهلاك القومي، وتفرقوا في الأرض ليلاقوا الاضطهاد على أيدي أعدائهم.

لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ
قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾

شرح الكلمات:

الْمُقِيمِينَ: اسم الفاعل من أقام، مشتقة من قام ومعناها انتصب أو ثبت. أقام الأمر: وضعه في موضعه أو حاله الصحيح. أقام الصلاة: أداها أو داوم على أدائها مستكملًا شرائطها (لين وأقرب الموارد). وطبقًا لقواعد اللغة كان ينبغي رفع الاسم فيكون «المقيمون» بدلًا من ﴿الْمُقِيمِينَ﴾، ولكن الكلمة تختلف في إعرابها عما يليها من لفظتي ﴿الْمُؤْتُونَ﴾ و﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾، وذلك بهدف استدعاء انتباه القارئ والتأكيد على أهمية الموضوع في ذهنه. وقواعد اللغة العربية تجيز هذا التغير بغرض التأكيد (ابن جرير والكشاف ج ١ ص ٣٣٦).

التفسير:

تشير الآية ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ إلى علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام. وقد أضيفت لفظة ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للدلالة على أن هؤلاء العلماء قد آمنوا ودخلوا في الإسلام.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ
وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَى وَآيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
وَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٤﴾

شرح الكلمات:

زُبُورًا: تعني أي كتابة أو كتاب، أو الكتاب الذي يتناول العلوم الفكرية والخالقي من الشريعة والقانون. والزبور هو بصفة خاصة كتاب مزامير داود (لين وأقرب الموارد) انظر أيضاً الآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

التفسير:

لقد ورد في هذه الآية وما بعدها ذكر عدد من الأنبياء المشهورين للإشارة إلى أن بعثة نبي الإسلام ﷺ لم تكن شيئاً مستحدثاً. وقد وردت إشارة خاصة إلى الزبور، وهو كتاب الحكمة الذي أنزل على داود عليه السلام، وكذلك وردت في الآية التالية إشارة إلى الوحي التشريعي الذي أنزل على موسى عليه السلام لأنه يتضمن التشريع والحكمة.

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ
وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٥﴾

التفسير:

يذكر القرآن المجيد أربعة وعشرين من الأنبياء بأسمائهم، وقد صرح النبي ﷺ بأن ١٢٤٠٠٠ من الأنبياء قد ظهوروا في العالم (المسند ج ٥ ص ٢٦٦)، ويقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥).

وقد كلم الله تبارك وتعالى موسى ﷺ كلاماً يحتوي على التشريع والحكمة، ومن هذا يتبين أن وحي الله لبعض الأنبياء يحتوي التشريع والحكمة، وأن وحيه تعالى لغيرهم من الأنبياء يتضمن الحكمة من دون التشريع.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٦﴾

التفسير:

تبين الآية ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وظيفتين أساسيتين لرسول الله تعالى. فهم يحملون البشرى لمن يؤمنون بهم، ويعدونهم بسعادة الدنيا والآخرة؛ وينذرون المكذبين بالشقاء والضيق في الدارين. وعندما يغرق أهل الدنيا في حمأة الظلم، يقيم الله تعالى لهم رسولاً ليحذروهم من العقاب الإلهي الذي يوشك أن ينزل على رؤوسهم ويدعوهم إلى التوبة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٦).

إن الله تعالى يرسل رسوله إلى الناس، حتى إذا نزل بهم العذاب لا يكون لهم عذر يعتذرون به فيقولون ما جاءنا من نذير ليبين لنا أخطائنا وسوء فعالنا ويحذرننا من العقاب، وهذا العذر قد ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه: ١٣٥).

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٧﴾

التفسير:

لقد وضع الله تعالى في قرآنه المجيد من كنوز الحقيقة الأزلية والمعرفة الروحية ما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلمة الله تبارك وتعالى. وإن خصائص القرآن المجيد ومميزاته لتحمل دليلاً لا يُدحض لمن يتأمله ويتدبره على أنه إلهي المصدر.

وتشهد الملائكة بصدق القرآن المجيد إذ أنها تظهر في الرؤى والكشوف للصالحين الأتقياء وتخبرهم بأن القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ. كما أنهم يشهدون بصدق القرآن الكريم بالأفكار المناسبة التي يلهمونها لبني الإنسان فترشدهم إلى قبول الإسلام. راجع الآية ١٩ من سورة آل عمران.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٨﴾

التفسير:

إن الذين يرفضون القرآن الكريم يُحرمون مما فيه من كنوز العلم الروحاني، وهؤلاء بحق قد خسروا خسراناً عظيماً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ
لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٩﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعني أنه لا يتفق والمنطق أن يغفر الله تعالى ويهدي إليه أولئك الذين يكفرون بأنبيائه وآياته، ويتصرفون بظلم. (راجع الآية ١٣٨ من السورة).

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٠﴾

التفسير:

إن المال الطبيعي لأولئك الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة هو جهنم. فإن الشخص السيئ لا بد أن تكون عاقبته سيئة.

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧١﴾

التفسير:

ورد قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ليشير إلى أن الكافرين لا يستطيعون إلحاق الضرر بالله ﷻ أو دينه. إنهم لن يضرّوا إلا أنفسهم.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ
مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا
لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ
لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٢﴾

شرح الكلمات:

كَلِمَتُهُ: استخدمت هذه اللفظة في القرآن الكريم للدلالة على معانٍ مختلفة: (١) البشري كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * أَتَاهُمْ لَهْمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (الصافات: ١٧١، ١٧٢). (٢) الإنذار من العقاب كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (الزمر: ٢٠). (٣) الشيء المخلوق من دون وساطة مادية، أي بإرادة الله تعالى المعبر عنها بقوله ﴿كُنْ﴾ كقوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٦-٤٨). (٤) الآية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّلْكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف: ١١٠). (٥) رسالة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٥). (٦) تدبير، كقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ (التوبة: ٤٠). (٧) قول أو لفظ، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ (المؤمنون: ١٠١). (راجع أيضا الآية ١٢٦ من سورة آل عمران).

رُوحٌ: مشتق من راح أي برَدَ وَلَذَّ؛ نَشَطَ وَمَرَحَ وأسرع؛ روح أي نفس، أو المادة اللطيفة في الإنسان التي هي مبعث الحيوية والإحساس والحركة الإرادية وتعم الجسم كله، ويتوقف نَفْسُ الإنسان عند انفصالها عنه؛ الوحي أو الإلهام الرباني؛ القرآن الكريم؛ الْمَلَكُ؛ الحبور والسعادة؛ الرحمة (لين).

التفسير:

من معاني لفظتي «روح» و«كلمة» يتضح أنه لا يمكن عزو أي منزلة روحية لعيسى عليه السلام تعلق به عن سائر أنبياء الله تعالى بسبب استعمال هاتين اللفظتين في الحديث عنه. لقد وردت هاتان الكلمتان في القرآن الكريم عن الأنبياء الآخرين وعن أناس ليسوا من الأنبياء كالسيدة مريم وبني آدم كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٣٠)، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩٢). وجدير بالذكر أن عبارة ﴿رُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي رحمة منه، لا تعني أن الروح تمثل جزءاً من الذات الإلهية ولكنها تعني أنها عطية وهبة من الله تبارك وتعالى، وكلمة ﴿مِّنْهُ﴾ قد استعملت في القرآن المجيد بهذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الحجاثية: ١٤).

والحقيقة أن القرآن المجيد يستعمل هذه العبارات في حق عيسى عليه السلام لأن اتِّهَامَاتٍ باطلة قد أُلْقِيَتْ عليه وعلى أمِّه من قِبَل اليهود. وقُصِدَ من هذه العبارات تبرئة عيسى عليه السلام وأمه وتطهيره من هذه الاتِّهَامَاتِ وليس الغرض منها تأليهه. إن القرآن الكريم لا يُسَوِّغُ - من أي وجه - الرأي الباطل والواهي القائل بأن المسيح عليه السلام أكثر من مجرد كائن بشري. لقد كان عيسى عليه السلام بشراً مخلوقاً من التراب وإن كان رسولاً من رسل الله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا

عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿الزخرف: ٦٠﴾، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣١).

وتشير الآية إلى الأقانيم الثلاثة التي تقوم عليها عقيدة التثليث، أي الأب والابن والروح القدس، فتبين الآية عقيدة التثليث معلنةً أن الله تبارك وتعالى هو الإله الحق، وأن المسيح ﷺ والروح القدس كليهما عبدٌ لله ولا يشاركانه تعالى في ربوبيّته بأية صورة من الصور.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ
وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ
عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٣﴾

شرح الكلمات:

يَسْتَنْكِفُ: من استنكف، وهذه مشتقة من نَكَفَ. يُقال «نكف عنه» أي أَنْفَهُ وامتنع عنه. استنكف الرجل أي استكبر واغترَّ وَأَنْفَ من الآخرين. «استنكف من كذا» أي امتنع عنه أَنْفَهُ وحميةً واستكباراً (أقرب الموارد).

التفسير:

إن الذين آمنوا بالله تعالى ولم يُشركوا معه في ألوهيته أحداً من عباده أو مخلوقاته، وعملوا الصالحات التي بيّنها لهم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فهؤلاء لهم أجرهم كاملاً وافياً، وعند الله ﷻ مزيد من الفضل لهم. أما المتكبرين المعرضين عن ذلك فالعذاب الأليم نصيبهم، ولن ينصرهم أو يؤازرهم أمام الله ﷻ أحد، لأنه هو الإله الواحد.

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ
أَسْتَنكَفُوا وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٤﴾

التفسير:

انظر الآيات: آل عمران: ٥٨؛ النحل: ٩٧؛ الزمر: ١١.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٥﴾

التفسير:

تشير لفظة ﴿بُرْهَانٌ﴾ أي الدليل الواضح، إما إلى القرآن المجيد بما يحتويه من الدلائل والآيات البينات، وإما إلى الرسول ﷺ باعتباره الأسوة الحسنة والمثل الحي الذي أوضح للعالم أن تعاليم القرآن المجيد كانت بركة وخيراً للبشرية جمعاء.

وكذلك يشير قوله تعالى: ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ إما إلى الرسول ﷺ أو إلى القرآن المجيد الذي يمد السالكين لطريق الروحانية بأنصع الضياء. وتنطوي الآية كذلك على تفنيد للقول المسيحي المأثور بأن الشريعة لعنة.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٦﴾

التفسير:

يتضمن قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾ حثاً قوياً للنصارى ألا يتخذوا من عيسى عليه السلام إلهاء، وإنما عليهم أن يؤمنوا ويتمسكوا بالله تعالى وحده على أنه سبيل خلاصهم ورقيتهم.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِن
أَمْرُؤُ هَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ
مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن
كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن
كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَىٰ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

شرح الكلمات:

الْكَلَالَةُ: من مات وليس له ولد ولا والد. راجع الآية ١٣ من السورة.

التفسير:

كلمة «الولد» تشمل المفرد والجمع مذكراً ومؤنثاً، ولكن «الكلالة» تعني من لا ولد ولا والد له. لذلك ينبغي تقدير عبارة «ولا والد» بعد قوله ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾. ولفظة «أُثْنَيْنِ» تعني أختين أو أكثر. ويتأيد هذا المعنى من حكم أصدره الرسول ﷺ واستشهد فيه بالآية في قضية جابر الذي مات وترك وراءه سبع أخوات^١ (ابن جرير). ولفظة «إِخْوَةٌ» تشمل الذكور والإناث كما يظهر من قوله تعالى: ﴿رِجَالًا وَنِسَاءً﴾.

قد يبدو أن هناك خطأ في وضع هذه الآية بين الآيات التي تتناول المسيحية وعقائدها الباطلة الزائفة، ولكن سوف يتضح مما يلي أن هذه الآية قد جاءت في موضعها الأنسب، وفي هذا دليل داحض على أن القرآن المجيد وترتيبه الحالي هما من فعل الله تبارك وتعالى.

تناولت الآية ١٣ من أول السورة نوعاً واحداً من الكلالة، وهو الذي يموت وليس له ولد أو والد، وله إخوة وأخوات من ناحية أمه فقط. والآية الحالية في آخر السورة تتناول نوعاً ثانياً من الكلالة وهو من له إخوة وأخوات أشقاء، من أبيه وأمه، أو من جهة أبيه وحده. وبمقارنة الآيتين معاً تتضح الأسباب الجلية التي من أجلها خُصَّ النوع الأول من الكلالة بنصيب أقل من النوع الثاني.

وهذا الجزء من تشريع الميراث قد قُصِدَ تناوله منفصلاً عن الجزء الأساس من قانون الميراث الوارد في الآيتين ١٢، ١٣ في أول السورة. والغرض من ذلك ليس بعيداً عن البصيرة. فبعد أن تناول القرآن المجيد بشيء من التفصيل اتهامات اليهود للمسيح ثم برأ ساحته منها، التفت بعد ذلك إلى موضوع الكلالة في نهاية السورة. وبذلك

١. الحادثة هي أن جابر بن عبد الله كان قد مرض وظن أنه سيموت، وكان عنده تسع أو سبع أخوات، فعاده ﷺ ونفخ في وجهه ودعا له، وأخبره أنه لن يموت في مرضه هذا، وكان جابر قد سأل عن نصيب أخواته فيما لو توفي، فأخبره النبي ﷺ أن الله تعالى قد أنزل الحكم في هذه الآية. (الناشر)

تحرى القرآن المجيد أن يكمل تشريع الميراث وفي نفس الوقت يلفت انتباهنا بأنسب مثال إلى كون عيسى عليه السلام ليس له وريث روحاني، أي أنه ضرب من الكلالة. لقد وُلد من غير وساطة أب، ولم يترك بعده خليفة روحانياً يخلفه في مهمته النبوية، وقد ورث هذه المنزلة بعد موته أبناء إسماعيل عليه السلام. وفي هذه الحالة فإن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يمكن أيضاً أن يعني أن عيسى عليه السلام كان كلالة.. ليس بالمعنى الروحاني وإنما بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أنه لم يكن له ولد. (راجع شرح الآية ١٣) حيث يُعرّف ابن عباس عليه السلام أن الكلالة هو من لا يخلف ولداً. وإذن فإن عيسى عليه السلام كان كلالة روحانياً بمعنى أنه لم يترك وراءه خليفة روحانياً. قارن أيضاً النبوة التوراتية: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك» (سفر التثنية ١٨: ١٨).



(٥)

﴿سورة المائدة﴾

(مدنية)

اسم السورة وزمن نزولها:

تتخذ السورة اسمها من الدعاء الذي دعاه عيسى عليه السلام، بناءً على طلب حوارِيِّه، سائلاً الله تعالى فيه التقدم والازدهار المادي لأُمته المسيحية. وقد ورد هذا الدعاء في الآيات ١١٣-١١٦ من هذه السورة.

وبحسب ما ورد عن مختلف المفسرين فإن السورة بأكملها تنتمي إلى الفترة المدنية. روى الحاكم والإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن سورة المائدة هي آخر سورة نزلت على النبي ﷺ. قد لا يكون هذا القول دقيقاً على وجه التحديد، ولكن عند النظر في جميع الروايات المختلفة، نستنتج أن هذه السورة قد نزلت بلا شك في السنوات الأخيرة من بعثة النبي ﷺ، وكانت بعض آياتها من أواخر ما نزل من الآيات. ومع أن الإمام أحمد يقول استناداً إلى رواية أسماء بنت يزيد رضي الله عنها إن السورة بأكملها نزلت دفعة واحدة، إلا أن الجزء الأكبر منها قد نزل على ما يبدو في وقتٍ واحد، ولهذا السبب اعتُبرت وكأنّها نزلت بأكملها جملةً واحدة.

موضوع السورة:

تناول هذه السورة، كما هو الحال في سابقتها «آل عمران والنساء»، موضوع المسيحية بشكل رئيس، وتستنكر بشكل خاص الاعتقاد المسيحي الذي يعتبر الشريعة لعنة. وتبدأ السورة بالأمر بوجوب الوفاء بجميع العهود والمواثيق، وبضرورة سن التشريعات التي تبين الحلال والحرام، ثمّ تمضي معلنة أن القرآن الكريم قد وضع التعاليم النهائية التي

تهدف إلى الارتقاء بالإنسان إلى مرتبة الإنسان الكامل، وأنه -لهذا السبب- التشريع الإلهي الأخير المنزل من الله تعالى. وقد ورد هذا المعنى في الآية الرابعة من السورة حيث يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فهذه الآية تُلَخِّص ما تقدّم، إذ تُعلن أنّ الإسلام دينٌ كاملٌ من جميع النواحي وهو التجلّي التام لنعمة الله، وأنّه كنظام تشريعي، لا تشوبه شائبة ولا يعتريه نقص أو عيب. وتتضمن هذه الدعوى الإسلامية أن اعتبار الشريعة لعنة زعمٌ باطل؛ لأنها إنما وُضِعَتْ لتعين الإنسان في تربيته الأخلاقي والروحاني. ولا تُعدّ الشريعة لعنة إلا إذا فشلت في تحقيق هذا الغرض، وأدت إلى فساد أخلاق الإنسان وانحطاطه. وتتضمن الآية كذلك تلميحاً بأنه لما كانت القرابين المذبوحة للأصنام والدم والحيوانات المخنوقة ممنوعة على المسيحيين، وهذا أمر من أوامر الناموس (راجع سفر الأعمال ١٥: ٢٠، ٢٩)، فلا يسعهم بعد ذلك الاعتراض على الشريعة أو وصمها بأنها لعنة.

وتقدم الآية الخامسة توجيهاً إسلامياً يتعلق بما يجوز أكله، إذ تأمر أن يؤخذ من الطعام ما هو طيب فقط. أي لا يكفي أن يكون حلالاً فحسب، بل يجب أن يكون طاهراً وطيباً أيضاً. أي أن تناول الطعام يجب ألا يُفسد في الإنسان أخلاقه أو صحته. وينطوي تحت هذا الأمر تحريم كل الأشياء التي تنافي النظافة أو تضر الصحة، وإن كانت من الأطعمة المشروعة. فعلى سبيل المثال، أكل الخيار حلال، لكن إن كان تناؤله سيعرض الإنسان للإصابة بالكوليرا، فإنه يُصبح محرّماً لكونه غير طيب. وعليه، فإن استخدام الأشياء في الإسلام مشروط بشرطين حيويين، أولاً: أن يكون حلالاً، أي مباحاً وفقاً للشريعة. ثانياً: أن يكون طيباً طاهراً، أي لا يتعارض مع القواعد الصحية أو الأنظمة الطبية بأي شكلٍ من الأشكال.

فالإسلام وحده من بين جميع الأديان، عند وضعه للأحكام المتعلقة بالحلال والحرام، أشار إلى هذا الفرق الدقيق بين ما هو حلال فقط، وما هو حلال وطيب في آن واحد. وتستمر هذه الأحكام إلى الآية التاسعة من هذه السورة، ثم تتحدث الآيات الأربع التالية

(١٠-١٣) عن نِعَم الله السابقة، وتتضمن وعداً إلهياً بأن النتائج الطيبة مضمونة إذا تم الالتزام بهذه الأحكام بإخلاص.

بعد ذلك، يأتي تحذير للمسلمين بأن أتباع الديانات السابقة قد نكثوا عهود الله عز وجل، وأهملوا بعضاً مما أنزل في وحيه وتشريع، مما أدى بهم إلى الإدانة والعار. إنهم ما انحرفوا عن الصراط المستقيم وما فسدوا وذلّوا لأن الناموس كان لعنة لهم، وإنما لأنهم أعرضوا عنه وتناسوه. وعليه، لم يبقَ أمامهم بابٌ مفتوح إلا اتباع النبي الكريم ﷺ، فهو سبيلهم الوحيد لاستعادة نِعَم الله من جديد (الآيات ١٤-١٧).

ثم تمضي السورة فتحدّر المسيحيين من أنهم قد أشعلوا غضب الله عليهم بتأليهم لعيسى عليه السلام، وها هم الآن يضمرون الغيرة تجاه النبي الكريم ﷺ لأن الله اختصه بفضله ونعمته. وتشبه هذه الغيرة التي يضمرونها للنبي ﷺ سلوك قابيل تجاه هابيل، ابني آدم عليه السلام (الآيات ١٨-٣٧). وتتضمن الآية (٣٨) نبوءة بأن المسيحيين سيحيكون المؤامرات ضدّ الإسلام، وأنّ بعض ضعاف الإيمان من المسلمين سيتورطون في تلك المؤامرات. والآية توصي المؤمنين بأن يضعوا ثقتهم الكاملة في الله تعالى، ولا يخشوا أحداً غيره. ولأنّ مدبري هذه المكائد السريّة سيعملون خفية كاللصوص، فقد جاءت الآيات التالية بأحكامٍ تتعلق بالسرقة (الآيات ٣٩-٤٥).

ثم تلفت السورة انتباه المسلمين إلى حقيقة هامة، وهي أن معارضة المسيحيين ستدفع بالمنافقين إلى إثارة الفتنة من جديد، وسيتحالف اليهود معهم في هذا المسعى. كما تبين الآية أن المسيحيين واليهود، مع حرصهم على عدم إضاعة أي فرصة لمناهضة الإسلام، قد بلغ بهم الانحراف أنهم هجروا العمل بتعاليم كتبهم المقدّسة، وتزايد جهلهم بدينهم تدريجياً، ونال منهم الفساد إلى درجة أنهم لا يتردّدون في الاحتكام في منازعاتهم إلى الرسول ﷺ أملاً في الحصول على حكم إسلامي أكثر ملاءمة لهم. وتخبرهم السورة أنهم ما داموا لم يدخلوا في الإسلام فعليهم اتباع أسفارهم والالتزام بناموسهم، ولكنهم إذا

خضعوا لسيادة الحكومة الإسلامية، وأرادوا الاحتكام إليها فسيكون ذلك طبقاً للشرعة القرآنية (الآيات ٤٦-٥٧).

وتستطرد السورة في لفت انتباه المسلمين إلى التغيّر العظيم الذي طرأ على الوضع السياسي للإسلام، وتُخبرهم أنّه بعد انكسار شوكة الوثنية نهائياً، فإن عدوهم الرئيس الآن هم المسيحيون بدلاً من المشركين. وأن اليهود، بالرغم من عداوتهم للمسيحية، سيقفون إلى جانب المسيحيين. ولذلك يجب على المسلمين أخذ الحذر منهم جميعاً، حيث سيسعى اليهود إلى دفع بعض المسلمين إلى النفاق، ورغم أن مسعاهم قد ينجح في إيقاع بعضهم فريسة لمكائدهم، إلا أن الإسلام لن يتعرض لأية خسارة حقيقية، وسوف ينتصر ويسود في نهاية المطاف (الآيات ٥٨-٦٤).

كما تسلط السورة الضوء على الحيل والمكائد التي سيلجأ إليها أعداء الإسلام لصرف المسلمين عن دينهم والخط من قدره في نفوسهم (الآيات ٦٥-٧٢). وتؤكد السورة للرسول ﷺ وللمسلمين أهمية نشر الإسلام، وتُخبرهم أن السبيل الحقيقي الوحيد والفعال لإحباط مساعي اليهود والنصارى هو تبليغهم رسالة الإسلام، وإبراز صدقه من خلال كتبهم وأسفارهم، بحيث لا يبقى لهم مجال لرفضه إلا إذا أنكروا وكذبوا كتبهم المقدسة نفسها. كما يجب أن يوضح لهم أن خلاصهم يكمن في الإسلام، وينبغي إثبات بطلان معتقداتهم الوثنية بالاستدلال من نصوص كتبهم المقدسة، وعلى رأسها عقيدة بنوّة عيسى عليه السلام، وبيان أنّه لم يكن إلهاً من أنبياء الله (الآيات ٧٣-٧٨).

وبالمثل ورد ذكر اليهود الذين، بمعارضتهم واضطهادهم نبيّ الله العظيم داود وعيسى عليه السلام، استجلبوا سخط الله تعالى وأثاروا غضبه عليهم، وأدّى بهم ذلك إلى ضياع كل مشاعر الغيرة لديهم على الدين. وتأمّر الآيات المسلمين بأن يُنبّهوهم إلى أخطائهم وزلاتهم السابقة، وتلفت انتباههم إلى أنهم سيعلمون بالتجربة أن المسيحيين أكثر استعداداً من اليهود لقبول الحق (الآيات ٧٩-٨٧).

وتشهد القرون الثلاثة عشر الماضية بوضوح على هذه الحقيقة، إذ إن عدد النصارى الذين اعتنقوا الإسلام خلال هذه الفترة كان أكبر بكثير من عدد اليهود. ولعلّ زمن إصلاح اليهود قد اقترب أيضاً.

وبعد ذلك، جاءت الأوامر التي تتناول بصورة خاصة الشعوب والبلدان المسيحية؛ وهي أوامر المحرمات والمشرعات، والأوامر المتعلقة بالأيّمان (الحلف)، والأوامر الخاصة بشرب الخمر ولعب الميسر، وأوامر الصيد، والأوامر التي تتعلق بانتقاد الدين، وتعاليم الشعائر والطقوس الدينية، وأخرى تتعلق بأداء الشهادة (الآيات ٨٨-١٠٩).

وفي الختام، يردّ في السورة ذكرٌ مفصّل لأحوال عيسى عليه السلام الخاصة وأنها لا تختلف عن أحوال غيره من أنبياء الله، وأنّه لم يكن هناك شيء يستدعي نسب الألوهية إليه، وأنّ التقدم المادّي الذي أحرزه المسيحيون ما هو إلا ثمرة دعائه عليه السلام. ولكن المسيحيين أساءوا استخدام هذا التقدّم، فبدلاً من أن يؤمنوا بوحداية الله تعالى، أشركوا به آلهة أخرى وأقاموا على عبادتها. وفي يوم الحساب سيقيم الله عليهم الحجة ويخزيهم على لسان عيسى عليه السلام نفسه، إذ سيقرّ بأنّه ما دعاهم إلى الشرك ولا إلى تأليهه أو مساواته بالله عزّ وجلّ قطّ، وأنّ ما وقعوا فيه من ضلال وانحراف عن الصراط المستقيم إنّما كان بعد وفاته عليه السلام. (الآيات ١١٠-١٢٠).

وتنتهي السورة معلنةً أنّ ملكوت السماوات والأرض لله تعالى، وأنّه عليه السلام على كل شيء قدير، وهذا يشير ضمناً إلى بطلان الاعتقاد بأن مملكة الله في السماء فقط دون الأرض، ويؤكد أنّ السلطان كلّهُ لله وحده في السماء والأرض، وأنّه، تدليلاً على ذلك، سيمنح الإسلام، دينه الحق، الغلبة والنصر على الشعوب المسيحية، وهذا ما تحقق بالفعل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

التفسير:

انظر تفسير البسملة في سورة الفاتحة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ
بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّ
الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ②

شرح الكلمات:

العُقُود: وهي جمع «عقد»، مشتقة من الفعل «عَقَدَ». يُقال: «عَقَدَ الحبل»؛ أي ربطه، أو شده بإحكام، أو عقده عُقْدَةً، أو عُقْدًا متعدّدة. و«العقد» في العربية يُطلق على: الميثاق، والعهد، والاتفاق، والمسؤولية، والالتزام، والمعاهدة، والحكم الإلهي (معجم لين وأقرب الموارد).

بَهِيمَةُ: (الدواب ذوات الأربع) جمعها «بهائم» مشتقة من الجذر «بَهَمَ». يُقال: «بهم الرجل»، أي ظلّ يحدّق في الشيء بلا طائل ولا ارتياح، فينظر إليه نظرًا شاردًا، أو يلزم الصمت متحيرًا إذا سُئِلَ عن أمرٍ ما. وتُقال عبارة «أبهم الأمر» إذا غدا غامضًا مُلتبسًا، كما يُقال «أبهم الباب» أي أغلقه. أمّا «استبهم عليه الأمر» فمعناها أنّ المسألة أُطِيقَت دونه حتّى جهل كيف يباشرها أو يُنجزها. أمّا لفظ «بهيمة» فيُطلق على الدابة أو الحيوان المتوحش: كلّ ذي أربع من برّ أو بحر، أو على أيّ حيوانٍ لا يملك القدرة على التمييز أو التعبير؛ ويشمل جميع الحيوانات باستثناء السباع والطيور. (معجم لين وأقرب الموارد).

الأنعام: (الماشية)، جمع «نعم»، وهو اسم يُطلق على الحيوان من فصيلة الماشية. يُقال: «نعم عيشه» أي صار عيشه هنيئاً رغداً طيباً. وكلمة «نعم»، التي جمعها «أنعام»، تطلق على الماشية التي ترعى من الإبل، أو الغنم، أو الماعز، أو جميعها معاً، أو قد تختص بالإبل وحدها (لين وأقرب الموارد).

وقوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ (الدواب ذوات الأربع من بين الماشية) هو تعبير ذو تركيب لغوي غير مألوف إلى حد ما، يتكوّن من كلمتين: «بهيمة» (ذات الأربع) و«أنعام» (الماشية). لا تُشير عبارة «بهيمة الأنعام» إلى الدواب ذوات الأربع من الماشية فحسب، وذلك لأن الحيوانات ذوات الأربع تشكّل صنفًا أوسع من صنف الماشية. وفي الواقع، فإن الإضافة في عبارة «بهيمة الأنعام» هي من قبيل الإضافة التشبيهية أو الإضافة البانية. فوفقاً للإضافة التشبيهية، تعني عبارة «بهيمة الأنعام» الدواب ذوات الأربع من صنف الماشية، وبحسب الإضافة البانية، تعني: الدواب التي تشبه الماشية. وقد استُخدم هذا الأسلوب في القرآن الكريم لبيان أنّه ليست جميع البهائم (ذوات الأربع) حلالاً للأكل، بل يُباح منها فقط ما يشابه الأنعام (الماشية) في الصفات. وهكذا يشمل اللفظ، إلى جانب الماشية المستأنسة، حيوانات البرية التي تماثلها كالماعز البري، والبقر الوحشي، والظبي، والجاموس البري، ونحوها.

التفسير:

في هذه الآية تشير كلمة «عقود» إلى العهود التي يعقدها الإنسان مع الله، أو إلى الالتزامات الواجبة تجاهه سبحانه وتعالى. وقد اكتسبت هذه الكلمة، التي تعني حرفياً «الأنشطة أو العقدة»، هذا المعنى لأنّ الناس كانوا قديماً يربطون عُقداً في الخيوط أو الحبال لتكون رمزاً للعقود المؤثقة. إن الأمر بالوفاء بهذه العهود والالتزامات تجاه الله، الوارد في الآية التي تدور أساساً حول أحكام الطعام، ينطوي على إشارة غير مباشرة إلى أن المسلمين في المستقبل سيواجهون ابتلاءات ومشاقّ لتجنب تناول الطعام المحرّم. وحينئذٍ ينبغي عليهم أن يراعوا أوامر الله في هذا المجال أشدّ المراعاة.

وقد حلَّ هذا الزمان بالفعل؛ فالمسلمون في أوروبا أو أمريكا يجدون صعوبةً بالغة في الحصول على طعامٍ حلالٍ طيبٍ، ويضطرون إلى بذل عناية خاصة في تأمينه إن أرادوا اجتناب الطعام المحرّم.

إن كلمة ﴿الصَّيْدِ﴾ الواردة هنا في سياق الإحرام، تعني الحيوان الذي تم اصطياده، وليس فعل الصيد نفسه، لأن الحكم المتعلق بالصيد قد ذكر بشكل مستقل في الآية ٩٧ من السورة. أمّا هذه الآية فقد خصّت بالذكر تحريم أكل الصيد الذي يصيده الحاج، لأن الحاج لا يحرم عليه صيد حيوان البر فحسب، بل يحرم عليه أكل ما صاده أيضًا. أمّا إذا قتل الحاج حيوانًا بريًا قبل دخوله في حالة الإحرام، فلا يحرم أكله على غيره وإن كانوا محرمين، شريطة ألا يكون لهم يد عونٍ أو مشاركة في عملية الصيد. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يشير إلى اللحوم المحرّمة التي ستذكر لاحقًا في الآية ٤ من السورة، أي: ﴿الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُجِحَ عَلَى النُّصَبِ﴾ ولكن لا يشير قوله عزّ وجلّ إلى الجزء الأول من الآية الرابعة أي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، لأن الخنزير ليس من الأنعام، ولأن الاستثناء هنا من الأنعام فقط، كما أن تحريم الميتة والدم والخنزير قد نزل حكمه سابقًا في سورة البقرة الآية ١٧٤.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ
الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا
حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاةُ قَوْمٍ
أَن صَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن
تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا

عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الْهَدْيُ: اسمٌ مصدرٍ مشتقٌّ من الفعل «هَدَى» بمعنى دَلَّ أو أرشد إلى الطريق. أمَّا «الهدية» فهي ما يُرْسَل أو يُقَدَّم إلى الغير علامةً مودَّةٍ أو احترام أو توفير. أمَّا «الْهَدْيُ» فتعني: (١) الطريقة أو أسلوب التصرف؛ السلوك أو الخلق، (٢) ما يُقَدَّم إلى الكعبة من إبلٍ أو بقرةٍ أو غنمٍ أو ما عَزَّ لِیُضَحَّى به، أو ما يُحْمَل معها من متاع وبضائع، (٣) الإبل عموماً (أقرب الموارد ومعجم لين).

الْقِلَادَةُ: جمع «قِلَادَة»، وهي اسمٌ مصدرٍ مشتقٌّ من الفعل «قَلَدَ» بمعنى جَدَلَ أو لَفَّ أو طَوَّق شيئاً حول شيء آخر. «وقلدها قِلَادَة» أي وضع القِلَادَة حول عنقها. «وقلَّد البدنة» أي علق قِلَادَةً على عنق البعير أو البقرة أو غيرها، مما يُسَاق إلى مكة كقربان، لِیُبَيِّنَ أنها سَتُقَدَّم كأضحية. «القِلَادَة» تعني العقد أو الطوق أو ما شابه، تُعَلَّق على عنق البعير أو البقرة أو غيرها من الحيوانات كعلامة تدل على أنها سيُقَت إلى مكة بقصد التضحية (معجم لين وأقرب الموارد). وقد تأتي كلمة «الْقِلَادَة» بمعنى «الأنعام المقلَّدة» (المحيط). واستُخدمت كلمتا الهدى والقِلَادَة في هذه الآية الكريمة للإشارة إلى الحيوانات التي تُسَاق إلى مكة في الحج لتُذبح كأضاحي. فالقِلَادَة تشير بوجه الخصوص إلى الحيوانات التي عُلقَت على أعناقها قِلَادَة تميزها كأضاحي، بينما تشمل كلمة الهدى جميع الحيوانات التي تُؤخذ للتضحية في مكة دون تمييز.

آمِنٌ: جمعُ «آمٍ»، وهو اسم الفاعل من الفعل «آمَّ»، أي قصدَ وتوجَّه إلى الشيء طالباً بلوغه. يُقال: «آمَّه» أي قصدَه وسعى للوصول إليه. (معجم لين). راجع في سورة آل عمران الآيات: ٨، ٢١، ١١٤.

التفسير:

يدل قوله تعالى: ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ (والمبينة أيضاً في سورة البقرة ١٥٩) على كل ما يهدي إلى معرفة الله وإدراك عظمته. فالقرايين التي تُقدّم لله، أو بهائم الأنعام التي تُساق إلى الكعبة للتضحية، تُعدّ من «شعائر الله» لأنها تُعلّمنا أن نبقى على استعداد دائم للتضحية بكل ما نملك في سبيله تعالى.

قد يُراد بـ ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ كل شهر من الأشهر الأربعة الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم ورجب. إلّا أنّ بعض العلماء يرون أنّ المراد هنا هو ذو الحجة وحده، أي شهر الحجّ الأكبر، لما يشهده من اجتماع عظيم للحُجاج في مكة؛ بينما يرى آخرون أنّ المقصود هو رجب، شهر العمرة المعتاد (الحج الأصغر) الذي لم تُعظّمه بعض قبائل العرب. كما قد يُفهم من النهي عن انتهاك حرمة «الشهر الحرام» ﴿لَا تُحِلُّوا... الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ وجوب تعظيم الأعمال والعبادات التي تُؤدّى فيه.

ويجب أن تتوقف جميع صور القتال في الأشهر الحرم الأربعة. وبما أنّ الحجاج يسافرون إلى مكة ويرحلون عنها خلال هذه الأشهر، فلا يجوز الاعتداء عليهم أو التعرّض لهم ولما معهم من أضياعي، بل ينبغي أن تتوقف كافة الأعمال العدائية ويسود الأمن التام، حتى يؤدّي الحُجاج رحلتي الذهاب والإياب في طمأنينة كاملة. ولهذا السبب أيضاً حُرّم صيد الحيوانات البرية.

ويشير قوله تعالى: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ بوجه خاص إلى حُجاج البيت الذين يقصدون مكة للحجّ الأكبر أو للعمرة. غير أنّه يشمل أيضاً كل من يتوجّه إلى مكة لغرض مشروع آخر، بما في ذلك غير المسلمين الذين يزورون البيت الحرام، بإذن من القائمين عليه، طلباً للعلم والمعرفة الدينية.

إن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ رداً حاسماً على المزاغم المغرضة والخبيثة التي تتهم الإسلام بأنه دين متشدد يحضّ على شنّ الحروب العدوانية ضدّ

المشركين. فكيف لكتابٍ ينهى أتباعه بهذا النهي الصريح أن يأمرهم برفع السلاح في وجه أناسٍ أبرياء مسالمين وقتلهم حيثما وجدوا لمجرد أنهم غير مسلمين؟!

وتنهي الآية، بكل وضوح، المسلمين عن قتال أعدائهم في الأشهر الحُرُم الأربعة، ولو كانت حالة الحرب قائمة بينهم. وقد كان النبي ﷺ أولَ مَنْ امتثل لهذا الأمر؛ إذ امتنع عن قتال مشركي مكة عندما صدّوه هو وألفًا وأربعمئةً من أصحابه يوم الحديبية عن أداء العمرة التي تجشموا لأجلها عناء رحلة شاقّة وطويلة. ورجع ﷺ إلى المدينة بعد أن أبرم صلحًا بدت شروطه آنذاك مُهينةً جدًّا للمسلمين، مع أن أصحابه ﷺ كانوا على أهبة الاستعداد للقتال. لكنّه تغاضى عن مشاعر الغضب التي انتابتهم، وسار على مقتضى البرّ والتقوى. أمّا إذا بادر غيرُ المسلمين بالاعتداء على المسلمين في شهرٍ حرام، فإنّ للمسلمين حينئذٍ الحقّ في الدفاع عن أنفسهم (البقرة: ١٩٥، ٢١٨).

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ
وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ
وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا
ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ

أَضْطَرَّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الْمَيْتَةُ: يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ بِصِفَةِ عَامَةٍ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَيِّتٌ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْحَيَوَانُ الَّذِي مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ أَوْ قُتِلَ بِغَيْرِ ذِكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ. (معجم لين) راجع الآية ١٧٤ من سورة البقرة.

الْمُنْخَنِقَةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ «خَنَقَ». يُقَالُ: «خَنَقَهُ»، أَيْ شَدَّ عَلَى حَلْقِهِ وَعَصَرَهُ حَتَّى مَاتَ، أَوْ ضَغَطَ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ كَتَمَ نَفْسَهُ حَتَّى مَاتَ. «اخْتَنَقَ أَوْ انْخَنَقَ»، أَيْ تَعَرَّضَ لِلَاخْتِنَاقِ حَتَّى انْقَطَعَ نَفْسُهُ وَمَاتَ. وَ«شَاةٌ مَنْخَنَقَةٌ» أَيْ مَاتَتْ بِالْخَنَقِ (معجم لين).

الْمَوْقُودَةُ: (التي ضُرِبَتْ حَتَّى الْمَوْتِ): مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ «وَقَدَّ»، وَيُقَالُ: وَقَدَّهُ، أَيْ ضَرَبَهُ بِعَنْفٍ حَتَّى هَمِدَ وَاقْتَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ، أَوْ هَسَّمَ جَمِيعَتَهُ فَأَصَابَ مَخَّهُ، أَوْ وَاصَلَ ضَرْبَهُ حَتَّى هَلَكَ. وَ«شَاةٌ مَوْقُودَةٌ» أَيْ ضُرِبَتْ حَتَّى الْمَوْتِ، سَوَاءً بِالْعَصَا، أَوْ بِالْحِجَارَةِ، أَوْ مَا شَابَهَهَا. (معجم لين).

الْمُتَرَدِّيةُ: (التي مَاتَتْ بِالسَّقُوطِ مِنْ عَلَوٍّ): مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ «رَدَّى»، يُقَالُ: «رَدَّى الرَّجُلَ» أَيْ هَلَكَ، وَ«رَدَاهُ بِحَجَرٍ» أَيْ رَمَاهُ بِالْحَجَرِ فَأَصَابَهُ. «تَرَدَّى» أَيْ سَقَطَ أَوْ هَوَى فِي بئرٍ أَوْ حَفْرَةٍ، أَوْ سَقَطَ مِنْ جَبَلٍ أَوْ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ فَمَاتَ. وَ«الْمُتَرَدِّيةُ» هِيَ الشَّاةُ وَمَا شَابَهَهَا إِذَا وَقَعَتْ مِنْ جَبَلٍ أَوْ ارْتِفَاعٍ، أَوْ طَاحَتْ فِي بئرٍ، أَوْ سَقَطَتْ فِي حَفْرَةٍ فَمَاتَتْ (معجم لين).

النَّطِيطَةُ: (الميتة بالنطح) مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ «نَطَحَ» يُقَالُ: نَطَحَهُ (الْكَبْشُ أَوْ غَيْرُهُ)؛ أَيْ ضَرَبَهُ بِقَرْنِهِ. وَ«النَّطِيطَةُ» هِيَ الشَّاةُ أَوْ الْمَاعِزُ الَّتِي هَلَكَتْ بِنَطْحِ حَيَوَانٍ آخَرَ. (معجم لين).

مَا ذَكَّيْتُمْ: (ما ذبحتموه ذبحاً شرعياً) «ذَكَّى» مُشتَقَّةٌ من «ذَكَى». يُقال «ذَكَتِ النَّارُ» أي تأججت واستعرت. «ذَكَتِ الْأَرْضُ» أي طُهِرت ونظفت. و«ذَكَّى النَّارَ» أشعلها وأججها. «ذَكَّى الْعَقْلَ» زاده حدة وذكاء. «ذَكَّى الشَّاةَ» أي ذبحها حسب الشريعة الإسلامية (معجم لين).

النُّصَب: (الأوثان) مُشتَقَّةٌ من «نَصَبَ» أي أقام أو ثبَّت. ويذهب بعض أهل اللغة إلى أنَّ «النُّصَبَ» مفردٌ جمعه «أَنْصَابٌ»، بينما يرى آخرون أنه جمعٌ مفردُه «نِصَابٌ». وكلمة «النُّصَبَ» تعني العلامات المنصوبة للدلالة على الطريق، والأحجار التي كان المشركون ينصبونها ويعبدونها دون الله أو يفضّلونها عليه، وكلّ ما يُتخذ معبوداً على هذا النحو، كما تُطلق أيضاً على الحجارة التي كان عربُ الجاهلية يذبحون عندها القرايين ويذكرون اسمَ أحد آلهتهم عند النحر. وتعني أيضاً الصنم أو الأصنام. ويفرّق أهل اللغة بين «الصَّنَم» و«النُّصَب» بأنّ الصنم عادةً منحوتٌ ذو هيئةٍ واضحة، أمّا النُّصَب فمجردُ أحجارٍ بسيطةٍ غير منقوشة. (معجم لين وأقرب الموارد).

الْأَزْلَام: (سهام الاستقسام) جمع «زَلَمَ»، وهي مُشتَقَّةٌ من الفعل «زَلَمَ» الذي يعني قطع الجزء الناقئ من الشيء كقطع الأنف، أو تقليل العطية وكأن شيئاً منها قد اقتطع. ويُقال: «زَلَمَ السَّهْمَ» سَوَّاهُ وَأَجَادَ صَنَعَتَهُ. و«الزَّلَمُ» سهمٌ لا نُصَلُّ له ولا ريش. أمّا «الأزلام» فهي سهام الاستقسام التي كان العرب في الجاهلية يستخدمونها كوسيلةٍ لمعرفة ما قُدِّرَ لهم، حيث كان يُكتب على بعضها كلمة «افعل» وعلى بعضها الآخر «لا تفعل»، ويترك بعضها دون كتابة، ثم توضع جميعها في وعاء مناسب. فإذا همَّ أحدهم بأمرٍ أو سفرٍ أدخل يده في الوعاء دون أن ينظر وسحب سهماً، ف يلتزم بما أمره أو نهاه، فإن خرج سهم لا كتابة عليه أعاد الاستقسام حتى يخرج سهمٌ مكتوبٌ عليه افعل أو لا تفعل (معجم لين).

الْيَوْم: وتعني «الآن» في هذا السياق. راجع الآية ٤ من سورة الفاتحة.

مَخْمَصَةٌ: (الجوع) مُشْتَقَّةٌ من الجذر «خَمَصَ». يُقال: خَمَصَ الْبَطْنُ: خَلَا، فَرَعَ، صُمِرَ، وتعني الجوع؛ ويُقال: خَمَصَتِ الْقَدَمُ إِذَا ارْتَفَعَ بَاطِنُهَا مِنَ الْأَرْضِ فَلَا يَمَسُّهَا؛ ويُقال: خَمَصَهُ الْجَوْعُ أَي هَزَلَهُ وَأَدْخَلَ بَطْنَهُ فِي جَوْفِهِ، أَضْمَرَهُ. فَاَلْمَخْمَصَةُ تَدَلُّ عَلَى خُلُوفِ الْبَطْنِ وَشِدَّةِ الْجَوْعِ. (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تبين هذه الآية الكريمة أن القرآن الكريم لا يعتبر أن غلبة الإسلام تعتمد على الفتوحات وتوسع السلطة والقوة المادية، بل على كونه ديناً كاملاً وتاماً. وتلفت انتباه المسلمين إلى أنه بعد أن أكملت في القرآن الكريم جميع التعاليم اللازمة للتجديد والإصلاح الأخلاقي والروحي للإنسان، فقد بات منوطاً به أن يظفر بالمكانة الأولى بين الأمم وذلك بالعمل بهذه التعاليم والتمسك بها بإخلاص.

كلمتا «إكمال» و«إتمام»، وهما مصدران مشتقان من فعلي «أكملت» و«أتممت» الواردين في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، تحملان معانٍ عميقة ودلالات بالغة، إذ تعبران عن مفهومين متميزين ومختلفين تماماً. «فالإكمال» يختص بجانب النوع والجودة، بينما يختص «الإتمام» بجانب الكم والتمام. إن استعمال كلمة «أكملت» بحق تعاليم القرآن يدل على أن العقائد والأحكام المتعلقة بالتطور المادي والأخلاقي والروحاني للإنسان قد جاءت في القرآن الكريم بأكمل صورة وبأعلى درجة من الكمال، بينما تُبين كلمة «أتممت» أن القرآن الكريم لم يغفل شيئاً من احتياجات الإنسان. ومرةً أخرى، فإن كلمة «الإكمال» تتعلق بالأحكام المرتبطة بالجانب المادي للإنسان بينما يشير «الإتمام» إلى كمال جانبه الروحي أو دخيلته؛ أي استكمال النعم والبركات الروحية التي تنجم عن الالتزام بأحكام الشريعة الظاهرة وتطبيقاتها.

ومن ثمَّ تُشير الآية إلى أن الشريعة الإلهية، بعد أن بلغت غاية الكمال والتمام في القرآن الكريم، لن يعقبها تشريع آخر ينسخها. أمّا الشرائع التي سبقت القرآن الكريم

فقد خُصِّصَتْ لأقوامٍ معيّنين ولفترات زمنية محدودة، إذ كانت تناسب احتياجاتهم الخاصة. وبالمثل، فإنّ الأنبياء الذين سبقوا نبيّ الإسلام محمد ﷺ إنّما بُعثوا إلى أمم بعينها دون غيرها وقد كان ذلك عين الصواب وينسجم تماماً مع مقتضى الأمور ومنطقيها، إذ كانت وسائل الاتصال بين البلدان المختلفة في غاية التخلف، وكان الناس في بلدٍ ما لا يعرفون إلا القليل، أو لا يعرفون شيئاً حتى، عن البلاد البعيدة عنهم. بالإضافة إلى ذلك، كانت شعوب الأرض آنذاك في مراحل متفاوتة من التطور؛ فمنها ما كان متأخراً جداً، ومنها ما كان متطوراً بعض الشيء، ولم يكن العقل البشري قد بلغ مرحلة النضج والتطور الكاملين بعد. لهذا، كانت الظروف السائدة حينها تقتضي أن يبعث الله لكلّ أمةٍ رسولاً خاصاً بها يبلغها التعاليم التي تناسب حاجاتها ومتطلباتها الخاصة. غير أنّ هذه الحال لم يكن مقدراً لها أن تدوم إلى الأبد؛ فوحداية الله تقتضي ضمناً وحدة البشريّة. ولذا كان من الطبيعيّ أنّه حين نضجت القدرات التي وهبها الله تعالى للإنسان نضوجاً كاملاً، وتطورت وسائل الاتصال حتى أصبح التواصل والتعامل بين الأمم والشعوب المختلفة أسهل وأشمل، بعث الله نبياً إلى البشرية جمعاء، ومنحه شريعةً كاملةً تُلبّي حاجات الإنسانية كافة وتعالج كلّ مشكلاتها.

لكنّ مجرّد وجود شريعة كاملة لا يكفل منع الانحطاط الأخلاقي للبشريّة. لذلك، وعلى الرغم من وجود القرآن الكريم، كان من الضروري أن يستمرّ ظهور المجددين الربانيين في أزمنة التدهور والانحطاط، ولما كان هؤلاء المجددون ملهمين من لدن الله تعالى فإنهم يبتّون حياة جديدة في الإنسانية التي أصابها الانحطاط والفساد. وفي الحقيقة إنّ الوعدَ بظهور مثل هؤلاء المُجددين مُتضمّنٌ في قوله تعالى: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، ذلك لأن الدين إذا كُمّل (وذلك باستيفائه لكلّ ما يحتاجه الإنسان، بما في ذلك آليّةُ إصلاحه إذا انحرف) فلا يتفق مع المنطق أنّه عندما ينسى الناس خالقهم وربهم، ويغفلون عن الغرض من خلقهم ووجودهم، ألا يمدّهم ربهم بأسباب إصلاحهم وتجديد إيمانهم. ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأنّ نعمة الله قد تمت، ومن

ثم فإن تمام نعمة الله تعالى على المسلمين تتطلب أن يقيم سبحانه لهم مجددين من بينهم، ينفثون فيهم حياة جديدة، كلما دعا إلى ذلك ما يصيبهم من انحطاط روحاني وانحلال أخلاقي. وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» (سُنن أبي داود، باب الملاحم).

وجدير بالملاحظة أيضا أن كمال الدين وتمام النعمة قد وردا في معرض الحديث عن التشريع الخاص بالطعام الحلال، للإشارة إلى أن تناول الأطعمة الحلال يُعتبر من بين أهم الأسس التي يقوم عليها حسن الخلق، وهذا بدوره العماد الذي يعتمد عليه التقدم الروحي.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ
الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ
تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

الجَوَارِح: جمع «جارحة» مشتقة من «جرح». يقال «جَرَحَهُ» أي أصابه بجرح أو شق جسده، وتعني أيضا اكتسب أو كسب أو نال. و«الجوارح» هي الوحوش والطيور الجارحة التي تصيد الطرائد. وتعني أيضا أطراف الإنسان لأنه يحوز أو يكسب الأشياء بها (معجم لين).

مُكَلِّبِينَ: جمع «مكَلَّب» وهو اسم المفعول المشتق من «كَلَّبَ» وهو الفعل المتعدي من «كَلَب» ويعني اشتد عطشه، أو أكل بشرائه، أو أصيب بداء الكلب، أو نَبَحَ أما

«كَلَّبَ» فتعني: درَّب الكلب على الصيد، أو درَّب أي حيوان أو طائر مفترس على اصطياد الطرائد. «مُكَلَّبٌ» هو الشخص الذي يدرَّب الكلب على الصيد؛ أو الشخص الذي يدرَّب أي نوع من الحيوانات أو الطيور المفترسة على الصيد. وتعني الكلمة أيضا الشخص الذي يمتلك الكلاب المدربة على الصيد ويصطاد بها. والكلب هو الحيوان المعروف أو أي حيوان متوحش (معجم لين).

التفسير:

ذكرت الآية السابقة الأشياء المحرمة، أما هنا فتذكر الآية أن الأشياء الأخرى حلال بشرط أن تكون من الطيبات، أي أن تكون طيبة وطارهرة. وقد ترك الأمر لكل فرد ليقرر ما هو طيب لنفسه وما هو ليس بطيب، وذلك حسب أحواله الخاصة وظروفه الصحية. ومما هو مؤكد أن النبي ﷺ قد استثنى جميع الحيوانات المتوحشة، وجميع الطيور ذات المخالب، من قائمة الأطعمة الحلال. انظر أيضا سورة البقرة الآية ١٧٤.

وتدريب الحيوانات أو الطيور الكاسرة على الصيد والقنص حلال. أما فيما يتعلق بأكل لحوم الطرائد التي تم اصطيادها بهذه الوسيلة (أي بالحيوانات المدربة) فيختلف حكم أكلها حسب الظروف. والرأي الأكثر قبولا كما يلي: (١) إذا وجد الصياد الحيوان المقتنص حيا فإن أكل لحمه حلال في كل الظروف، بشرط أن يتمكن الصياد من ذبحه حسب الشريعة الإسلامية. (٢) إذا وجد الصياد الحيوان المقتنص ميتا فإن أكل لحمه حلال في الأحوال التالية: (أ) إذا كان الحيوان الذي أمسك بالفريسة مُدربا على الصيد. (ب) إذا لم يأكل الحيوان الذي أمسك بالفريسة من الطريدة. (ج) إذا كان الصياد قد أطلق الحيوان لصيد الفريسة بعد أن ذكر اسم الله تعالى. (٣) إذا ماتت الفريسة من الخوف، قبل أن يمسك بها الحيوان المدرب على اقتناصها وقبل أن يجرحها، فلا يحل أكل لحم هذا الصيد.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ
 حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
 قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ
 غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ
 يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي
 الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

مُحْصِنِينَ: أي متعاقدين على الزواج الشرعي.

مُسَافِحِينَ: أي مرتكبين الزنى.

أَخْدَانُ: أي عشيقات وخليلات في السر.

راجع معاني هذه الكلمات تفصيلا في سورة النساء الآية: ٢٥ و ٢٦.

التفسير:

تصرح الآية أنه يحل للمسلم أن يقبل دعوة من يدعوه من أهل الكتاب إلى الطعام وأن يتناول طعامه، شريطة أن يكون الطعام خاليا من كل ما حرمه الإسلام. وبالمثل يجوز للمسلم أن يدعو من أراد من أهل الكتاب إلى طعامه. وقد فهم بعض المفسرين لفظة طعام في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ بمعنى لحم الحيوانات المتخذة طعاما. وبهذا المفهوم فإن الآية تعني أنه يباح للمسلم أن

يأكل من لحم الحيوان الذي ذبحه شخص من أهل الكتاب بشرط أن يُذكر اسم الله تعالى عليه.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ التلميح إلى أنه وإن أبيح زواج المسلم من الكتابية إلا أنه من الأفضل أن يتزوج المسلم من المسلمة في الظروف العادية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ «أي يرفضه» يعني إما الارتداد عن الدين، وهو المعنى الأصلي، أو الجحود بنعمة الإيمان وعدم شكرها. راجع معاني حرف الباء في سورة الفاتحة الآية ١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
بُرُءُوسَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ
كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ
عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ
لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا
طَيِّبًا فَامْسَحُوا بَوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنْهُ مَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ
يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

جُنُب: أي غير طاهر. راجع سورة النساء الآية: ٤٤.

التفسير:

بعد مسائل الطعام والزواج، تأتي مسألة الطهارة التي يوليها الإسلام عنايةً بالغة، ولا سيما ما يتعلق بالنظافة اللازمة لأداء العبادة على الوجه الصحيح. وقد ذُكرت الأقدام بعد الرأس لأنَّ المقصود، كما يزعم بعض الشيعة، أن تُمسح كالرأس، بل لأنها آخر ما يُغسل في ترتيب الوضوء. ويتضح هذا المعنى من القراءة المتواترة للفظـة ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ بفتح اللام معطوفة على ﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وليست بالخفض عطفاً على ﴿بِرءُوسِكُمْ﴾. وواضح أن الغرض من هذا الترتيب في القراءة هو الترتيب في غسل الأعضاء. وفي الحقيقة هناك قراءة منفردة للفظـة «أرجل» بجر اللام، ولكن هذا لا يفيد بالضرورة أنها ليست مفعول به لفعل (اغسلوا)، ذلك لأن من قواعد اللغة العربية ما يسمح بجرّ المفعول به لوقوعه بالقرب من مجرور (الجر بالمجاورة)، كما هو الحال بالنسبة للفظـة (أرجلكم) لقربها من (رءوسكم)، وليس لأنها مجرورة بحرف الباء. ومن الأحاديث الصحيحة للرسول ﷺ والتي تؤيدها سُننه المتواترة ما يؤكد أن غسل القدمين واجب عند الوضوء.

وهناك حالات لا يلزم فيها غسل القدمين، وإنما يكفي المسح عليهما كالرأس، كأن يكون الإنسان مرتدياً جورباً أو خُفّاً. ومن هذا يمكن اعتبار القراءة بالفتح للدلالة على القاعدة العامة بغسل القدمين عند الوضوء، والقراءة بالجرّ للدلالة على الحالات الخاصة التي يمسح فيها على القدمين كالرأس.

وقوله تعالى: ﴿لَا مَسْئَةَ النِّسَاءِ﴾ يتضمن تعبيراً رقيقاً مهذباً للدلالة على المباشرة الجنسية.

ويمكن تلخيص ما تتضمنه الآية فيما يلي:

(١) على المسلم قبل أن يشرع في أداء صلاته أن يتوضأ بأن يغسل وجهه ويديه، ويمسح على الرأس ويغسل قدميه.

(٢) إذا كان جُنُبًا من جماع أو استحلام فليستحم، أي يغسل جسده كاملاً ليظهره قبل الصلاة.

(٣) إذا كان مريضاً وقد يضره الوضوء أو الغسل، أو إذا كان مسافراً ولا يجد ماء فيمكنه بعد قضاء الحاجة أو إذا كان جُنُبًا أن يستغني عن الوضوء أو الغسل بالتميم بتراب طاهر. راجع تفسير الآية ٤٤ من سورة النساء.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي
وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَى

التفسير:

الخطاب هنا موجه إلى المسلمين وليس إلى أهل الكتاب. ولما لم يكن هناك «ميثاق» معين تعهد به المسلمون فإن المقصود بـ «الميثاق» المشار إليه في الآية لا بد وأن يكون «البيعة» التي تؤخذ من كل من يعتنق الإسلام، أو يُقصد به الشرع الإسلامي الذي نزل به القرآن المجيد وآمن به وصدقته المسلمون. وواضح من قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أنه إشارة إلى قبول المؤمنين للإسلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يشير إلى أن مجرد الإيمان باللسان غير مقبول عند الله تعالى. فمن يؤمن بالإسلام، عليه أن يقبله من أعماق قلبه ويسير على نهج تعاليمه باختياره ورضا نفسه. وهكذا فإن هذه العبارة تحمل دحضا قويا لتهمة الذين يدعون زورا أن الإسلام ينتشر بحد السيف. قد يكره السيف اللسان؛ لكنه لا يملك سبيلاً إلى القلوب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ
بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاةُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا
تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

التفسير:

القَوَّام هو الشخص الذي يؤدي عمله بإتقان ومن دون توقف أو ملل (انظر سورة النساء الآية: ٣٥). وقوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي يجب على المسلمين أن يكونوا مستمسكين بتعاليم الله تعالى ومؤدين لها بالتمام والإتقان، غير مترخين في أداؤها أو مهملين لها.

وقوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي ينبغي على المؤمنين أن يكونوا شهادة عملية على صدق الإسلام، وذلك بأن يكونوا مسلمين صالحين، يعيشون حياة طيبة تكون مثلاً حسناً للآخرين. ويعني أيضاً أن على المسلمين تبليغ رسالة الإسلام للآخرين فيكونوا بذلك شهداء عليهم. ولما كانت الدعوة إلى الإسلام تتطلب الاتصال بالأقوام الآخرين، فإن الآية تُختتم ختاماً مناسباً، إذ تأمر المسلمين ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاةُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. ومن المؤكد أنه ما من ديانة أخرى تقدم مثل هذه التعاليم العادلة المنصفة بشأن أعدائها كما يفعل الإسلام. فينبغي على المسلم الحق أن يتصرف وفقاً للعدل والإنصاف، ليس مع إخوانه المسلمين فحسب، بل ومع غير المسلمين حتى وإن كانوا أعداء للإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يتضمن تحذيراً شديداً بالألا يكون العدل والإنصاف مع غير المسلمين على سبيل التظاهر والمفاخرة، وإنما ينبغي أن يكون نابعا من القلب، قائماً على خشية الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

التفسير:

انظر الآيات: الحج: ٥٧؛ التور: ٥٦؛ الفتح: ٣٠.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾

التفسير:

انظر الآيات: المائدة: ٨٧؛ الأنعام: ٥٠؛ الأعراف: ٤١، ٣٧؛ المؤمنون: ٥٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

التفسير:

يرى بعض المفسرين أن الآية تشير إلى واقعة حدثت عند عودة الرسول ﷺ من تبوك. وقيل إن ستة من المنافقين دبوا كميناً لقتله، ولكن الله تعالى أنقذه بأن أطلعه على المؤامرة.

ليس من الضروري أن تكون الآية وقفًا على تلك الحادثة. إذ يمكن أن تكون إشارة عامة إلى الحماية التي أسبغها الله تعالى على المسلمين في مواجهة الهجمات العدوانية التي قام بها أعداء الإسلام. وقوله تعالى: ﴿قَوْمٌ﴾ يقصد به في المقام الأول مشركو مكة الذين يدخروا وسعًا لاجتثاث الإسلام واستئصال المسلمين، ولكن اللفظ يحمل أيضًا مضمونًا عامًا.

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا
مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ
لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ
بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

نَقِيبًا: صفة مشتقة من الفعل «نَقَبَ» يُقال «نَقَبَهُ» أي أحدث فيه ثقبًا أو فتحة، و«نَقَبَ فِي الْأَرْضِ» أي سار فيها، و«نَقَبَ عَنِ الْأَخْبَارِ» أي فحصها وتحري عنها بدقة، و«نَقَبَ عَلَى قَوْمِهِ» أي تولى أمرهم وكان قائداً أو مشرفاً عليهم. ومن معاني «النَّقِيبِ»: الشيء المثقوب أو المخترق، والناي أو المزمار (لما فيه من ثقوب)، وكذلك يُطلق «النقيب» على رئيس القوم أو المسؤول عنهم الذي يتتبع شؤونهم ويشرف على أمورهم ويتحمل مسؤولية أفعالهم (معجم لين).

عَزَّزْتُوهُمْ: من «عَزَرَ»، يُقال «عزّره» أي لأمه وأدّبه؛ ساعده. «عزّره عن كذا»: منعه وصرفه عنه. «عزّره» تعني: (١) أدّبه أو عاقبه أو ضربه أو قومه ليصرفه عن الشر. (٢) ساعده وعاوناه؛ قوّاه؛ أعانه على أعدائه بأن صدّهم. (٣) وقّره وعظّمه واحترمه (معجم لين).

التفسير:

تتضمّن هذه الآية تحذيراً ضمّنيّاً للمسلمين، بأنّ نصر الله وتأييده لهم مرهونٌ بالتزامهم بميثاقهم معه وطاعتهم لأوامره. وأمّا قوله تعالى: ﴿اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا﴾ فيُراد به الأنبياء الاثنا عشر من بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى ﷺ، ويرى بعض المفسّرين أنّ المقصود بهم «الأمرء» الاثنا عشر الذين عيّنهم موسى ﷺ (سفر العدد ١: ٤-١٦). وأمّا قوله تعالى: ﴿قَرَضًا حَسَنًا﴾، فيُحتمل أن يشير إمّا إلى الأعمال الصالحة التي يرجو فاعلها الثواب من الله ﷻ، أو إلى التبرّعات الطوعية المقدّمة لنصرة الدّين. والخطاب في هذه الآية موجّهٌ إلى بني إسرائيل.

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ
قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا
حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ
مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

قَاسِيَةً: من «قسا»، وتعني: (١) غلظ واشتد؛ (٢) أظلم واسودّ (أقرب الموارد). ﴿جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾: أي جعلناها خالية من النور.

نَسُوا: من «نسي» ضد ذكر وحفظ. وتعني أيضا هجر وترك فعل الشيء (أقرب الموارد).
خَائِنَةٌ: مصدرٌ واسم فاعل من «خان» بمعنى خانَ أو غَدَرَ أو نقض العهد. يُقال: «خانه»، أي لم يكن أميناً على ما ائتمن عليه. وتأتي «خائنة» بمعنيين: (١) الخيانة أو الغدر أو عدم الوفاء بالعهد. (٢) شخص شديد الخيانة أو الغدر. وفي هذا المعنى فإن كلمة «خائنة» صيغة مبالغة من «خائن». وقوله تعالى: ﴿خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ﴾ الوارد في موضع آخر من القرآن (غافر: الآية ٢٠) فيعني: النظرَ خفيةً أو عمداً إلى شيء لا يجوز النظر إليه؛ أو النظرَ بطريقةٍ تثير الريبةَ أو سوء الظنِّ؛ أو إعطاء إشارةٍ بالعين تدلُّ على ما يخفيه المرءُ في نفسه؛ أو كما يقول بعض اللغويين، تضيق العين للتعبير عن أمر بصورة مبهمه (معجم لين). وقد تُستخدم كلمة «خائنة» أيضاً بوصفها صفةً لكلمة «أمة» أو «جماعة»، فتقديرُ الكلام يكون عندئذٍ «أمة خائنة» أو «جماعة خائنة»، وتُفهم من السياق.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يمكن أن يُفهم على وجهين: (١) أنهم يُحَرِّفُونَ ويعبثون في نصوص الكتاب. (٢) أنهم يُشوّهون المعنى الحقيقي للنص. أمّا قوله تعالى: ﴿نَسُوا حَظًّا﴾ يعني: «تركوا وأعرضوا عن جزءٍ كبيرٍ، وهجروا العمل به.»

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ
 فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
 وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ
 بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾

بعد الإشارة إلى اليهود في الآيات السابقة، تنتقل الآية هنا إلى الإشارة إلى النصارى الذين تدهورت أحوالهم كذلك بسبب تركهم العمل بأوامر الله. وأما قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ فيمكن أن يُشير إما إلى النصارى واليهود معاً كما ورد في الآية السابقة، أو إلى النصارى وحدهم حسب سياق هذه الآية. وفي كلتا الحالتين، فإنّ هذا النصّ يتضمّن نبوءةً عظيمةً صدّقها الواقع وشهد بصحتها العالم بأسره. فإنّ العداوة والكرهية والمنافسة التي لا تهدأ، ليس بين المسيحيين واليهود وحدهم، وإنما بين طوائف المسيحيين أنفسهم. وهذه العداوة والفرقة نتيجةٌ طبيعيةٌ لرفضهم رسالة الإسلام. فقد جاء النبي ﷺ برسالةٍ عالميّة، تحمل دعوةً لتوحيد الإنسانيّة جمعاء تحت ظلّ رايةٍ واحدةٍ، لتكونَ جميع الأمم أمّةً واحدةً وشعباً واحداً. ولكن أهل الكتاب رفضوه. ولذلك فإنّ اليهود والنصارى، فضلاً عن طوائف النصارى مع بعضها، سيبقون على طرفي نقيض. بيد أن شبح السلام العالمي سيظل أيضاً مخفياً عن أنظار الإنسانية حتى يأتي وقت يعود فيه الناس إلى رحاب النبي العظيم والرسول الكريم ﷺ الذي بعثه الله تعالى ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ولفظه ﴿يَصْنَعُونَ﴾ تستخدم عادة في اللغة العربية بشأن الأعمال الفنية والحرفية، وفي هذا إشارة إلى الصناعات والفنون التي قُدِّرَ للأمم المسيحية أن تنبغ فيها وتتميّز بها.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ
لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ
وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

يَعْفُو: مشتق من الفعل عفا، والذي يحمل عدة معانٍ (انظر: البقرة الآية ١١٠) منها: أنه طمس أو محا الأثر، ويُقال: عفا الله عن الذنب أي غفره وألغى أثره، ويُقال: عفوت عن الحق أي تنازلت عن حقي أو تركت ما كان لي. وتُستخدم كلمة العفو أيضاً بمعنى الترك أو التجاوز أو الإعراض والتغاضي (تاج العروس).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى كتمان أهل الكتاب لكثير من التعاليم النبيلة والحقائق العظيمة، وتلفت أنظارهم إلى أن النبي ﷺ لم يقتصر على إعادة تعليم ما ورد في الكتب السابقة من حقائق، بل أوحى الله إليه أيضاً تعاليم جديدة، ففتحت على يديه سُبُل أوسع للهداية. وفي الوقت نفسه، رُفعت في تعاليم الإسلام بعض الأحكام والتشريعات التي أثقلت كاهل الأمم السابقة أو كانت خاصة بفترة زمنية محددة.

وفي قوله تعالى: ﴿جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ إشارة إلى الرسول ﷺ، وقد سماه الله تعالى في موضع آخر ﴿سِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٧) لأنه المصدر الذي يتلقى منه المجددون الأواخر نور العلم الإلهي. ويتضمن ذلك إشارة إلى أنه ﴿خَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤١)، بمعنى أن من يطيعه ويتبعه أكمل طاعة واتباع، يمكنه نوال مرتبة النبوة من الله تعالى. وقد كشفت هذه الحقيقة العظيمة للملأ في شخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ﷺ.

وهكذا كان الرسول ﷺ نورا روحانيا عظيما، قادرا على إضاءة أنوار أخرى مشابهة. ولكن يجب أن يفهم بكل وضوح أن شريعة الإسلام شريعة كاملة من جميع الوجوه، وموجهة وصالحة لكل الأزمنة، ومن ثم فلا يمكن أن يأتي بعد القرآن المجيد كتاب تشريعي جديد.

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾

التفسير:

يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ إما إلى الكتاب أو إلى النور الواردين في الآية السابقة. واستعمال لفظة ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ بصيغة الجمع يفيد أنه كما أن هناك أنواعا عديدة من الصعاب والعقبات التي تعترض طريق السالك إلى الرقي الروحاني، كذلك قد وفر الله له وسائل عديدة للخلاص والنجاة، حتى يصل سالما إلى هدفه ومقصده. وبما أن (السلام) من أسماء الله الحسنى (الحشر الآية ٢٤)، فقوله تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ يعني الطرق الموصلة إلى الله ﷻ.

وقد أضيف قوله تعالى ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ليبين أن إله الإسلام ﷻ لا يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور فحسب، وإنما يفعل ذلك من أقصر الطرق وأقومها، إذ أن كلمة ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ تعني فيما تعني المعتدل القويم، وأقصر الطرق بين نقطتين هو الطريق المستقيم. راجع الآية ٦ من سورة الفاتحة.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

يُهْلِكُ: من «أهلك». و«هلك» تعني صار إلى عدم؛ انتهى؛ زال. «أهلكه»: قضى عليه؛ دمّره؛ أعدمه (معجم لين)؛ عاقبه (المفردات). وروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» (صحيح مسلم - كتاب البر والصلة)، أي إذا تحدث عن فسادهم بأنه لا يمكن صلاحه فإنه هو المهلك لهم، لأنه يُدخل في نفوسهم اليأس من الإصلاح والخلاص.

وقد استعملت اللفظة بهذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن: (سورة الملوك الآية: ٢٩، وسورة الأنفال الآية: ٤٣).

التفسير:

إن لفظة «يُهْلِكُ» تعني في الآية يُنزل عقاباً مهلكاً. وهذا القول صادر حقاً من إله غيور غاضب. إنه يصدر حكم الإدانة على المسيحيين بلهجة شديدة الغضب، عنيفة اللوم، ذلك بسبب ادعائهم المنافي للعقل بالوهمية عيسى عليه السلام. ولما كان عيسى وأمه مريم عليه السلام قد أصبحا الوسيلة والغرض من هذا الاعتقاد المفرط في الإثم، فإن الآية تشير بهذه المناسبة إلى قدرة الله ﷻ على أن يُنزل عقابه عليهما أيضاً إذا أراد ذلك. وجدير بالملاحظة أن بعض الفرق المسيحية تؤله مريم وتعتبرها فوق البشر.

وواضح أن قوله تعالى: «وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» يشير إلى أولئك الذين يؤلهون المسيح عليه السلام. وغرض الله تعالى من استعمال هذا الأسلوب الشديد أن يكشف عما في الاعتقاد بالوهمية عيسى عليه السلام أو بنوّته عليه السلام لله تعالى من فضاة وبشاعة وشذوذ عن المعقول. وقد استعمل القرآن في مواضع أخرى نفس اللهجة الشديدة مع الذين

يعتقدون مثل ذلك من العقائد التجديفية التي تنسب إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله وكماله، وأنذرهم بأشد العقاب كما في سورة مريم الآيات: ٨٩-٩٢.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يضيف مزيداً من الشدة والقوة إلى الحجة التي وردت في أول الآية، كما أنه يوحى إلى الاضمحلال النهائي للإمبراطوريات المسيحية كنتيجة لعقيدتهم الكافرة عن ألوهية عيسى عليه السلام. (راجع سورة آل عمران الآية: ٢٧).

إن ما يقول به المسيحيون هو أن عيسى ابن مريم هو الله، ولا يقولون إن الله هو عيسى ابن مريم كما تقول الآية. وقد عكس الوضع ليعين للمسيحيين فظاعة خطئهم، ذلك لأن القول بأن المسيح هو الله يكافئ في الحقيقة القول بأن الله هو المسيح. ولكن المسيحيين مدركون لضعف المسيح ولا يجروؤن على قبول الوضع الأخير، وهذا يؤدي إلى إثبات بطلان دعواهم بأن المسيح ابن مريم هو الله.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ
وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ
يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَالِيهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾

التفسير:

نجد دعوى اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه في سورة البقرة الآية: ٨١، ١١٢؛ وسورة آل عمران الآية: ٢٥؛ وسورة الجمعة الآية: ٧. وفي قوله تعالى: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ حجتان تدحضان الزعم الباطل لأهل الكتاب. إنهم إن كانوا حقاً أبناء الله وأحباؤه فلِمَ يرتكبون الخطايا وهي علامة الرجس والدنس؟ إن أبناء

الله تعالى وأحباءه ينبغي لهم أن يكونوا فوق ذلك، لأنه ﷺ لا يحب الدّٰنسين الذين يرتكبون الخطايا. ثم إذا كانوا أبناء الله وأحباءه فلماذا يقعون في المحن ويُنزَل بهم العقاب، بينما المفروض في الكائن الرباني أن يكون فوق مثل هذا الضعف؟

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ
لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا
جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ
وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

فَتْرَةٌ: مصدر من «فَتَرَ» يُقال «فتر الشيء» أي هداً أو سكن بعد ثورة، أو انكسر وضعف بعد عنف. «فتر عن عمله»: تراخى وتكاسل وفقد حماسه. «فتر الحر»: زالت حدّته وانتهت شدّته. و«الفترة»: الضعف والوهن؛ الإهمال والتراخي؛ المرحلة الزمنية بين تبين التي يتوقف خلالها وحي النبوة (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن الاعتقاد السائد بأنه لم يظهر نبي بين اليهود والنصارى بعد عيسى عليه السلام، ويرى بعض المؤرخين أن ثلاثة من الأنبياء قد بعثوا بعده. وعن الكلبي قال: جاء أربعة من الأنبياء بعد عيسى عليه السلام منهم خالد بن سنان الذي ظهر في بلاد العرب والذي قال فيه النبي ﷺ: «ضيعه قومه» (المحيط). ومهما كانت الحقيقة، فإن الرسول ﷺ جاء بعد مرحلة من الزمن فترت فيها النبوة، ولم يظهر قبله مباشرة أحد من الأنبياء. ويشير قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ إلى حقيقة هامة، وهي أن الله تعالى لا يُنزَل عقابه بقوم قط إلا بعد أن يرسل إليهم رسولا (راجع سورة

الإسراء الآية: ١٦)، إذ أن أخذ قوم بالعقاب قبل مجيء رسول إليهم يبرر القول إنهم عوقبوا من دون إخطار بأخطائهم، ومن دون إتاحة الفرصة لهم ليتوبوا ويصلحوا من أحوالهم. وفي العصر الحاضر نزلت بالعالم الكوارث والشدائد على مختلف أشكالها وعلى نطاق غير مألوف، ومن ثم فلا بد وأن رسولا قد ظهر. ولقد ظهر حقا في تمام الوقت في شخص أحمد عليه السلام، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا
مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾

التفسير:

عندما تحدثت الآية عن بعث الأنبياء قالت ﴿فِيكُمْ﴾ ولم تستعمل نفس اللفظة بشأن الملوك، والسبب في ذلك أن بعثة النبي محصورة وقتئذ في قومه الذي يُبعث فيهم، ولذلك ذكرت الآية الأنبياء بأنهم قد بعثوا (فيهم). ولكن الملوك كانوا يحكمون أمما أجنبية أخرى مع أمتهم، ولذلك سقطت لفظة (فيهم) عند ذكرهم. كما أن العبارة القرآنية تشير إلى حقيقة أن الملكية والسيادة تنتمي إلى كل فرد في الأمة الحاكمة، ولكن الحال ليس كذلك في حالة النبي.

وجدير بالملاحظة أن كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ وردت في الآية بمعنى «الناس» في جيل محدد وليس بمعنى الناس في كل عصر. راجع أيضا سورة البقرة الآية: ٤٨.

يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي
كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ
فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾

التفسير:

ينطوي قوله تعالى: ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على وعد ضمني بأن الله تعالى سيعين بني إسرائيل وينصرهم إذا أبدوا الشجاعة والإقدام على دخول الأرض المقدسة. ولكنهم لم يمتلكوا الإيمان الكافي أو الشجاعة المناسبة، ولذلك ﴿انْقَلَبُوا خَاسِرِينَ﴾. راجع الآيتين ٢٥، ٢٧ بعد.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنِّ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن
نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا
فإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

جَبَّارِينَ: جمع «جَبَّار» من «جَبَرَ». يقال «جبر العظم» أو «جبره» أي أصلحه بعد كسر. «جبر الرجل أو جبره» أي أصلح حاله بعد فقر وضعف إلى غنى وقوة. «جَبَرْتُ اليتيم»: أصلحت أموره ونظمتها. «جَبَرَهُ» أي أرغمه واضطره بالقوة إلى ما لا يريد. «جَبَّار» أي متكبر؛ متعال؛ مترفع؛ مستكبر؛ من يبطش عند الغضب أو يبطش ظلماً؛ الحاكم بالسلطة والقوة المطلقة؛ من يتجاوز الحد في فعل الشر والعصيان والتمرد؛ الرجل الضخم الطويل القوي؛ المارد العملاق. و«الجَبَّار» من أسماء الله تعالى وتعني: الذي يجبر مخلوقاته على إطاعة أوامره؛ العليّ؛ الذي لا يداني؛

العظيم فوق المخلوقات؛ المصلح لأحوال الفقير والضعيف إلى الغنى والقوة؛ رافع الأمم من الانحطاط إلى علو الشأن (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يظهر الفرق جلياً بين موقف أصحاب موسى عليه السلام، الذين اتسموا بالجبن والتكبر والوقاحة حين طُلب منهم دخول الأرض المقدسة، وبين موقف أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذين ضربوا أروع الأمثلة في الإيمان والتضحية، فكانوا يندفعون طواعية إلى فم الموت، تلبيةً لأمر نبيهم وسيدهم صلى الله عليه وسلم، دون تردد أو خوف.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ
اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَأِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

عَلَيْهِمُ: لفظة «على» حرف جر له معان متعددة، وهنا تعطي معنى ضد (معجم لين). يقول تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ (الشعراء: ١٥) أي لديهم جريمة أو تهمة قائمة ضدي. ويشير (رايت) في كتابه (قواعد العربية) يُستعمل حرف «على» بمعنى عدائي، ويحل محل «ضد» أو «على» كما في قولهم «خرج عليه» أي خرج في مواجهته أو تمرّد عليه.

التفسير:

يُقال عادة إن الرجلين المذكورين هما يوشع بن نون وكالب بن يفتنة (سفر العدد ٦: ١٤) ولكن النص يجعل الاحتمال الأكبر في جانب كونهما موسى وهارون عليهما السلام. فلفظة «رجل» هنا تعبر عن الرجولة والشجاعة، فكأن القرآن باستعماله هذه اللفظة يرمي

إلى القول بأن من بين هذا الجمع الكبير من الناس برز رجلان فقط يتصفان بالرجولة الحقة والشجاعة. ويتضح من جواب هؤلاء القوم - كما جاء في الآيات التالية - أنهم توجهوا به إلى موسى عليه السلام. وهذا يضيف مزيداً من التأكيد إلى أن الرجلين كانا موسى وهارون عليهما السلام. ثم إنهم لما رفضوا الانصياع لموسى عليه السلام توجه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: «رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (انظر الآية ٢٦). فلو كان الرجلان المذكوران غير موسى وهارون عليهما السلام، لكان من المؤكد ذكرهما في الدعاء، لأنهما يستحقان ذلك لما أبدياه من شجاعة واقتراح جريء على الرغم من المقاومة، وقاما بحث غيرهم على حسن التصرف، ولكن موسى عليه السلام لم يدع إلا لنفسه ولأخيه، وهذا يبين أن الرجلين اللذين أثنى الله عليهما بالرجولة الحق ونوال الفضل الإلهي لم يكونا سوى موسى وهارون عليهما السلام نفسيهما، ولم يصرح المولى باسميهما وإنما ذكر صفتيهما فقال: «رَجُلَانِ» أي رجلان شجاعان، وذلك لكي يبرز شجاعتهما وصدق رجولتهما، وفي نفس الوقت يدين ضمناً جبن بقية بني إسرائيل الذين كانوا معهم.

وفي قوله تعالى: «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ» مضمون روحي، فلكل إنسان أرض مقدسة هي غرضه وجنته، وقد كتب الله هذه الأرض المقدسة للإنسان (انظر الآية: ٢٢) لأنه تعالى خلقه لها. ولكن المتصفين بالجبن وانحطاط الروح وفقد الحماس يخافون دائماً من دخولها. إنهم يخشون مواجهة العصاة والمتمردين من ذوي الميول الشريرة، ويؤدّون دخول الجنة من دون استحقاق، ومن دون أن يبذلوا شيئاً من جانبهم، وبغير مواجهة الميول الشريرة وصراعها، ومن دون قتال مع الذين يقفون في طريقهم. إنهم يرتعدون ويتهاونون أمام الابتلاءات والفتن التي تواجههم، ولكن الله تعالى جعل لكل إنسان «رجلين» - أي ناصحين حكيمين - يشجعانه ويحثانه كي لا يخاف من الصعاب، وأن يسير في طريقه الذي يسلكه دون تكوص، ذلك الطريق الذي يقوده إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم. هذان الناصحان هما: العقل البشري، والفطرة البشرية النقية الخالية من التلوث. ولا ينفك هذان الناصحان يحثان الإنسان ويخبرانه

أن عليه أن يحتفظ بعلوّ روحه وحماسه وأن يسعى ويعمل، وعندئذ سوف يساعده الله تعالى. عليه أن يواجه التجارب بشجاعة وسوف يجعل الله تعالى أمامه كل شيء سهلاً، وسوف يخرج من الصراع فائزاً منتصراً. يود غالبية الناس أن تنكسر شوكة أعدائهم من نفسها، ولكنها لن تنكسر من دون أن يستخدموا حيالهم سلاح التضحية بالنفس. وكما تلمح الآية ٢٧، فإن الوقت اللازم للإنسان كي يصل إلى اكتمال الرجولة هو أربعون سنة. وهذا زمن طويل بما فيه الكفاية، فإذا لم يُصلح المرء من سلوكه خلال هذه الفترة، وتقرّر على ما يمليه العقل والضمير، فإنه سيضل ولن يكون أمامه سوى أمل ضئيل للنجاة. أما إذا حزم أمره بشجاعة، وقرر مواجهة المؤثرات الشريرة، فإنه سينجو وينال الخلاص. كل ما يحتاجه هو أن يتشجع ويدخل المعترك. وما يبدو له كأنه غابة كثيفة من المصاعب سوف يتحوّل إلى بستان، وما يلوح له كأنه جهنم سيتخذ هيئة الجنة الحقة.

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا
دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا
هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير:

ربما لم يكن أصحاب موسى ﷺ في الحضيض كما كانوا في هذه المناسبة. لقد أعربوا في ردّهم هذا عن مدى جبنهم وعدم إيمانهم وبلادتهم. ويدعوننا هذا الموقف الخسيس إلى ذكر المثل النبيل الذي كان عليه الصحابة الأبرار مع رسول الإسلام ﷺ، إذ يُروى أن النبي ﷺ أراد أن يخرج للقاء العدو يوم بدر. وكان معه حفنة قليلة العدد والعدة من أصحابه في مواجهة جيش أكثر عدداً وسلاحاً. واستشار الرسول الكريم ﷺ أصحابه، فوقف واحد منهم وتوجّه إلى النبي ﷺ قائلاً في كلمة خالدة: يا رسول

الله! إنا لن نقول لك ما قال أصحاب موسى.. اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، بل نقول يا رسول الله! إنا دائماً معك، نذهب حيث تذهب، ولسوف نقاتل العدو عن يمينك وعن شمالك، ومن أمانك ومن خلفك. ولعل الله تعالى يريك منا ما تقرُّ به عينك. ويقول الحديث إن الرسول ﷺ عندما سمع تلك المقالة تهلل وجهه الكريم بشراً وقال لا غرو (صحيح البخاري وابن هشام).

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

التفسير:

إن الدعاء الوارد في الآية يبين أن الرجلين كانا موسى وهارون عليهما السلام، وحتى إن كانا يوشع وكالب كما تقول التوراة، فإن الدعاء لا يزال صحيحاً، إذ أن هارون عليه السلام لكونه نبياً لله تعالى فهو الوحيد الذي ينطبق عليه قول موسى عليه السلام: ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

يَتِيهُونَ: مشتق من «تاه» وتعني: (١) فقد طريقه في الصحراء؛ (٢) تحير أو اضطرب فكره؛ (٣) ضرب في الأرض متحيراً وضل عن الطريق الصحيح؛ (٤) اضطرب عقله وهلك؛ (٥) تكبر وتصرف باستعلاء ووقاحة (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

حين أظهر بنو إسرائيل جبناً وتخاذلاً، قضى الله أن يتيهوا في الصحراء أربعين سنة، لكي تكسبهم حياة الصحراء قوة في النفس وصلابة في الأخلاق. وخلال هذه المدة، انقضى الجيل القديم تقريباً، ونشأ جيل جديد نشيط وشجاع، أصبح مؤهلاً لدخول الأرض الموعودة وفتحها. انظر كذلك الحاشية على الآية (المائدة: ٢٤)، وللمقطع المقابل في الكتاب المقدس، راجع سفر العدد، الإصحاح ١٤.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُذِبَّكَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ
قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

قَرَّبَا: وقربانا: مشتق من «قَرَّبَ» أي دنا مكاناً أو منزلة. «قَرَّبَهُ»: أدناه، شرفه أو أكرمه. «قرب لله قربانا»: قدّم لله تعالى شيئاً يطلب به التقرب منه. و«القربان»: كل ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها؛ وتعني أيضاً صاحب المفضل (معجم لين).

التفسير:

لما كانت التضحية أساس كل نجاح على المستوى الفردي أو القومي، لذلك يلتفت القرآن في المناسبة الملائمة إلى موضوع التضحية التي كان افتقار قوم موسى ﷺ إليها سبباً في سقوطهم، ويمكن أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ابْنَى آدَمَ﴾ المعنى الفعلي أو أي شخصين من بني الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذي وجهه هابيل إلى أخيه قابيل، وكلاهما ابنا آدم، يُقصد به بيان أن الثاني لا يكسب شيئا من قتل أخيه إلا أن يزداد بعدا عن التقوى، وهي صفة لازمة لقبول القربان. وتشير هذه العبارة أيضا إلى حقيقة هامة، وهي أن المظهر المجرد في تقديم القربان لا قيمة له، ولكن الروح الباعثة على القربان هي التي تجعله مقبولا مثمرا.

لَيْسَ بَسْطٌ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ
يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

التفسير:

تستمر الآية وما بعدها في سرد قصة ابني آدم. ولا يعني هابيل بقوله هذا أنه لا يود الدفاع عن نفسه، وإنما تعني العبارة أنه إذا اضطر لمد يده نحو أخيه فلن يكون ذلك بغرض القتل وإنما دفاعا عن نفسه فحسب. وكان من اللازم أن يقول ذلك لأن هناك حالات يكون فيها القاتل والمقتول كلاهما متساويين في الجرم. وقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَلِقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». ووضح من هذا الحديث أنه يشير إلى المتقاتلين الحريصين على أن يقتل كل منهما الآخر، وكل ما حدث أن أحدهما نجح في قتل خصمه. وفي مثل هذه الحالات يكون كلا الفريقين على قدم المساواة.. كلاهما مجرم، وكلاهما يستحق أن يُلقى في النار. وقد أوضح الحديث ذلك بتبيان أن كليهما «كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». ولكن هابيل كان حريصا على أن يعيش تقيا وأن يموت تقيا، ولم يرد أن

يلوث سلوكه حتى في لحظة الخطر الشديد، بل أراد أن يكون في غاية الحذر بحيث لا يتعدى حدود حق الدفاع الشرعي عن النفس.

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

أُرِيدُ: من «راد» أي ذهب رواحاً وجيئة، أو رغب الشيء وطلبه. ومعنى «أريد»: أقصد؛ أرغب؛ أشاء؛ أطلب. ولكن الكلمة في بعض الأحيان لا تعبر عن المشيئة الفعلية أو الرغبة، وإنما تعبر عن حالة محتملة الحدوث بكيفية خاصة، إذ يقول العرب عمن اشتد مرضه «يريد أن يموت» أي أنه على وشك الموت، أو أن حالته تنبئ عن قرب موته. ويقول القرآن عن الجدار المذكور في سورة الكهف: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ (الكهف: ٧٨). أي أن الجدار يوشك على الوقوع، أو مهياً لذلك (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

لا تعني الآية، كما قد يتوهم البعض، أن هابيل رغب أن يلقي بأخيه قابيل في النار، ولكن المراد من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ بيان أن النتيجة الطبيعية والحتمية لسلوكه غير العدواني هي أن يلقي بأخيه في النار. والواقع إن هابيل أراد بهذا التعبير أن يصرف أخاه قابيل عن ارتكاب جريمة مروعة، ألا وهي قتل أخيه، فبين له نتائجها المؤلمة. لقد أخبر أخاه أنه من جانبه يفضل الموت معتدئاً عليه، على أن يرفع يده لقتل أخيه، ونتيجة لذلك فإن قابيل سيتحمل وزر قتل هابيل مع آثامه الأخرى. ويمكن فهم العبارة على نحو آخر.. فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ

لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي
قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا
مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ
خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» (صحيح مسلم - كتاب البر والصلة).

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾

التفسير:

بدلاً من أن توجز الآية فتقول إنه قتل أخاه، فإنها تسوق الخبر بشيء من الإطالة،
فتقول إن نفسه سوّلت له قتل أخيه ولذلك قتله. والمراد من ذلك إبراز حقيقة
عظيمة، وهي أن نفس الإنسان أو عقله - أي أن الذات الإنسانية نفسها - كثيراً ما
تكون مصدر الشر له.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ
كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا
أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ
فَأُؤَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٢﴾

التفسير:

اختلف المفسرون حول حادثة الغراب المذكورة، وما إذا كانت قد وقعت بالفعل أم
أنها وردت على سبيل المجاز. وليس مستبعداً أن تقع مثل هذه الحادثة، فلقد نتج عن

دراسة عادات الحيوانات والطيور وملاحظتها اكتشاف الكثير من الأمور النافعة.
راجع قصة ابني آدم في التوراة في سفر التكوين الرابع: ١-١٥، وترجوم أورشليم.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير:

تستخرج الآية الكريمة قيمة خلقية عظيمة من تلك الحادثة البسيطة التي وردت في
الآيات السابقة. إن واقعة ابني آدم لها ما يشابهها في تاريخ الأمم، وقد أشير إلى ذلك
في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ولو كانت الواقعة تخص ابني
آدم فحسب لما كان هناك داعٍ لحملها على بني إسرائيل.

والواقع أن ذكر الواقعة يحمل تلميحا بأن واقعة مشابهة لقصة ابني آدم، ولكنها
أشد وطأة وخطورة، سوف تحدث في زمن لاحق. فلسوف يظهر في الوجود من
بين أخوة بني إسرائيل نبي يتقبل الله تعالى منه القربان، ولكن قربان بني إسرائيل لا
يلقى قبولا بسبب انعدام التقوى فيهم، وافتقارهم إلى الصلاح. ولسوف يشتعل بنو
إسرائيل غضبا على هذا النبي، ويصبحون متعطشين إلى سفك دمه حسداً منهم،
تماما كما كان قابيل متعطشا إلى دم أخيه هابيل. فقصة ابني آدم - كما جاء في
مستهلهما - تحمل تحذيرا إلى بني إسرائيل. فالنبي المقدر بعثه من بين إخوتهم ليس

مجرد نفس واحدة، إنه مصلح عالمي، قُدِّر له أن يأتي بالشرعة السماوية الأبدية لجميع الناس، ويتوقف مستقبل الناس جميعا عليه. ومن ثم فإن قتله يعادل قتل الجنس البشري، والإبقاء على حياته إبقاء على الجنس البشري. إن تلك النفس العظيمة لم تَقْتُل ولم تُفسد في الأرض. ولقد جاء مبعث ذلك النبي في نبوءة بالتوراة، في سفر التثنية ١٨: ٢٢، وفيها أعلن أيضا أن الله تعالى سوف يقتص ممن لا يسمع لهذا النبي ﷺ.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ
يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ
يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾

التفسير:

للآية مدلولان: أحدهما مجازي، وينطبق على أهل الكتاب الذين برفضهم النبي المبعوث من بين إخوانهم، كأنما أثاروا حربا ضد الله ﷻ، والعقاب الذي وصفته الآية واضح في أحداث تاريخهم. والمدلول الثاني ظاهري، وفيه توضح الآية أنواع العقوبات التي ستحل بالذين يعلنون الحرب على المسلمين الأبرياء المسالمين، ويسعون إلى قتلهم وخلق الفساد في الأرض. والغرض من الأمر الذي يتضمن قوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ هو أن يعجز المجرم عن القيام بحرب عدوانية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يدع له شيئا من الكفاءة ليكسب عيشه عن طريق بعض الأعمال. إن قطع اليد والقدم في جانب واحد يجعل المصاب عاجزا عجزا تاما. وتكشف الآية عن أن الإسلام لا يتردد في اتخاذ أشد الوسائل لاقتلاع الشر من جذوره

عندما يتطلب ذلك دواعي حماية المجتمع أو الدولة. إن الإسلام ليس دين مشاعر كاذبة، ولكنه دين الحكم الصائب القائم على العقل والمنطق السليم. راجع أيضا الآية التالية.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾

التفسير:

لا تشير هذه الآية والآية السابقة إلى اللصوص وقطاع الطريق العاديين كما يظن البعض خطأ، ولكنهما تشيران إلى المتمردين والكفار والأشرار الذين يشنون حربا عدوانية على حكومة الإسلام، وهذا واضح جلي من قوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ويتأكد هذا المفهوم من أن هذه الآية تعد التائبين بالعفو، والبيديهي أن مرتكب العدوان ضد الأفراد أو المجتمع - كاللص وقاطع الطريق والنشال - لا يمكن في الأحوال العادية أن يحصل على عفو الدولة حتى وإن تاب، فلا بد من إنزال العقوبة عليهم لما اقترفوه من أعمال الشر طبقا لأحكام الشريعة. إن توبتهم ستمنحهم بلا شك غفران الله تعالى، ولكن سلطان الدولة محدود في هذا الشأن. ومع ذلك فإن المذنبين السياسيين يمكن أن ينالهم العفو من الدولة إذا ما تابوا وأقلعوا عن الماضي في التمرد والخروج على الدولة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

الْوَسِيلَة: مصدر من «وَسَلَ». يقال «وسل إلى الله بعمله» أي عمل عملاً تقرب به إلى الله تعالى. «وسل إليه بكذا» أراد التقرب منه أو التقدم نحو رضاه به. «الوسيلة» تعني طريقة التوصل أو التقرب من شخص، وهي المنزلة الشريفة عند الملك؛ الدرجة؛ الرابطة؛ العلاقة (معجم لين).

التفسير:

من الخطأ أن تُفسر لفظة «الْوَسِيلَة» بأنها وسيط بين الإنسان والله تعالى، فهذا المعنى لا يتفق مع الأسلوب العربي بل ويتعارض مع تعاليم القرآن المجيد وأقوال الرسول الكريم ﷺ. يقول القرآن المجيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء: ٥٨)، أي أن من يدعونهم ليكونوا وسطاء بينهم وبين الله تعالى هم أحوج إلى طلب القرب من الله. وروى أن الرسول ﷺ قال: «اسألوا لي الوسيلة»، أي ادعوا الله لي لأنال قرباً خاصاً منه ﷺ. والدعاء بعد الأذان للصلاة هو: اللهم آت محمداً الوسيلة... أي تفضل عليه يا الله بمزيد من القرب إليك، لا أن يكون ﷺ واسطة بين العبد وربّه. وتشير العبارة التالية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ إلى نفس المعنى لأنها تصف الوسائل التي يمكن من خلالها نيل قرب الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

التفسير:

انظر الآيات: الرعد: ١٩؛ الزمر: ٤٨.

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٨﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ بمعنى دائم. وليس المقصود بذلك أنه دائم بلا نهاية وإنما المقصود إنه يدوم طويلا، وليس مجرد مرحلة انتقالية قصيرة. راجع سورة هود الآية: ١٠٨، ١٠٩.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا
كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٩﴾

التفسير:

لقد تقدمت لفظة «السَّارِقُ» على لفظة «السَّارِقَةُ» لأن السرقة أكثر شيوعا بين الرجال عنها بين النساء. ولكن في سورة النور الآية ٣ تقدمت لفظة «الزَّانِيَةُ» على لفظة «الزَّانِي» لأن ثبوت جريمة الزنى على النساء أسرع عادة من ثبوتها على الرجال. ويتبين من هذا الترتيب في الألفاظ أن هناك نسق بارع، ليس في آيات القرآن وحسب، بل وفي ألفاظه أيضا.

وقد تبدو عقوبة السرقة كما وردت بالآية الكريمة قاسية عند الذين تعبت بهم العواطف الباطلة، ولكن الخبرة بما يحدث في العالم تبين أن العقاب إذا أريد له أن

يكون رادعا فينبغي أن يكون شديدا وعبرة للناس. ومن الأفضل أن يُشْتَدَّ على فرد واحد وينجو الآلاف، بدلا من التراخي والإضرار بالكثيرين.

إن ربَّ الإسلام لا يجعل من المسلمين أطفالا مدللين. ولما كانت أحكام الإسلام تُطَبَّق، لم يحدث أن نُقِّدَ حكم القطع إلا في حالات قليلة، وذلك لسبب بسيط واضح. فإن شدة العقاب التي شرَّعها الإسلام للسرقة جعل حالات السرقة تنخفض كثيرا. واليوم وقد سادت العواطف الباطلة وخفت عقوبة السرقة، زادت جرائم السرقة إلى حد مخيف، وإنه لجراح سيئ ذلك الذي يتردد في بتر عضو فاسد، ويتركه يهدد سلامة الجسد كله.

أما عن تعريف معنى «اليد» فإن سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام يرى أن قطع الأصابع هو بمنزلة قطع يد اللص (المعاني ج ٢ ص ٣٠٤)، ولكن معظم العلماء يرون قطع اليد حتى الرسغ. واختلف الفقهاء في قيمة الحد الأدنى من المال أو الممتلكات المسروقة التي تستوجب إقامة حد السرقة المشار إليه. فعند الإمام أبي حنيفة أنها عشرة دراهم، ويرى الإمام مالك والإمام الشافعي أنها ثلاثة دراهم أو ربع دينار. والدرهم عملة فضية، والدينار عملة ذهبية. وقد اعتمد كلا الفريقين على تفسيرين مختلفين لأقوال الرسول ﷺ. ويقدر الدرهم ب١/١٦ من الأوقية بالنظام الإنجليزي للموازن، والدينار يعادل ٧١,٥ سنبله من الشعير (معجم لين و New Standard Dictionary).

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ۖ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ
يُتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٠﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأنعام: ٥٥؛ طه: ٨٣؛ الفرقان: ٧٢.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن حكم السماء يمضي بطريقة عشوائية، ولا يقوم على نظام أو قانون، وإنما المقصود بهذه العبارة بيان أن الله تعالى هو صاحب الكلمة الأخيرة والسلطان النافذ في الكون، فكلّمته هي القانون الوحيد الذي لا ينقض. فعلى الإنسان أن يراعي بكل حذر مشيئة الله ﷻ ويسير وفق أوامره. ولكن الله تعالى أخبر عن نفسه «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» (صحيح البخاري)، وأن العالم يحكمه قدر الله تعالى خيره وشره (صحيح مسلم - كتاب الايمان).

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ
فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ
إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ

قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤٢﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يحمل معنيين:

أولاً: أنهم يستمعون إليك بنية الكذب، أي أنهم يأتون إليك ليسمعوا منك، ثم يحرفوا كلماتك ويلووا معانيها أمام قومهم، فينسبوا إليك ما لم تقله وما لم تقصده.

ثانياً: أنهم يستمعون إلى الأكاذيب التي تقال عنك ويصدقونها، أي أنهم مستعدون دائماً لتصديق ما يقال عنك من أباطيل وكأنه حق.

وكذلك قوله تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي يستمعون كي ينقلوه إلى الآخرين، مما يعني: (أ) أنهم يستمعون إليك من أجل نقل ما تقوله لقوم آخرين، أو (ب) يصدقون ما يسمعون عنك من غيرهم.

سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ
جَاءُوكَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَإِنْ تَعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ
حَكَمْتَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

السُّحْتُ: مصدر من «سَحَتَ». يقال: «سَحَتَهُ» أي أهلكه واستأصله. «سَحَتَ شعره»: أزال شعره كلية، «سحت في تجارته»: دخلها الغش والحرام. وتقول العرب «ماله سُحْتٌ» أي حلال مباح لا شيء على من أعدمه. «السُّحْتُ» هو الحرام أو الممنوع؛ السيئ ذو السمعة الشائنة؛ الرشوة؛ الشيء القليل في كميته أو عدده، الشيء التافه؛ الحقيق؛ ما لا قيمة له (معجم لين).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَكْأَلُونَ لِّلْسُّحْتِ﴾ يعني: (١) أنهم -أي اليهود- لديهم نهم في أخذ المحرمات والممنوعات. (٢) لديهم نهم إلى الأشياء التي تسبب دمارهم الروحاني والقموي. (٣) أنهم لا يترددون في أخذ التوافه والحقير من الأمور من غير حق مشروع. (٤) أنهم يقبلون الرشاوى. لتفسير قوله تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِّلْكَذِبِ﴾، راجع تفسير الآية السابقة.

وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا
حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا
أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

التفسير:

تعني الآية أنه لما كان اليهود لا يقبلون حكم كتابهم التوراة الذي يعتقدون أنه كلمة الله تعالى؛ فكيف يُتَوَقَّع منهم أن يقبلوا حكم الرسول ﷺ وهم لا يؤمنون به. إن مجيئهم إلى الرسول ﷺ ليحكم بينهم في منازعاتهم -ولديهم كتابهم- يكشف عن سوء نيتهم وخبث دوافعهم ومقاصدهم.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ لا يعني أن القرآن المجيد يعتبر التوراة التي كانت بيد اليهود في عهد الرسول ﷺ تنطوي على حكم الله تعالى في المسائل المختلف فيها، وإنما العبارة تشير فقط إلى موقف اليهود من التوراة. ولا يجوز أيضاً أن يفهم من ذلك أن القرآن يعتبر التوراة كما هي الآن خالية تماماً من الحق، إذ أنها مع ما أصاب نصها من تحريف وتبديل، لا تزال تحتوي على بعض الأوامر والشرائع والحقائق في صورتها النقية الأصلية.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا
النَّاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

الرَّبَّانِيُّونَ: أي المخلصون لله تعالى. راجع آل عمران: ٨٠.

الْأَنْبِيَاءُ: جمع «نَبِيٍّ»، يُقال «نَبِيٌّ» أي زَيْنُهُ؛ حَسَنُهُ؛ سَرَّهُ. و«الحَبَرُ والحَبْرُ»: العالم بين اليهود، أو أي عالم؛ الرجل الصالح أو الطيب (معجم لين وأقرب الموارد).

اسْتُحْفِظُوا: مبني للمجهول من «حَفِظَ». يقال «حَفِظَهُ» أي حرسه؛ راقبه؛ صانه؛ وقاه من الهلاك أو الضياع. «استحفظه» مبني للمعلوم، أي سألته المحافظة عليه

وحمايته، طلب منه مراعاته والانتباه إليه؛ وضعه في حراسته ورعايته؛ وضعه في أمانته أو عهده (معجم لين).

التفسير:

في هذه الآية الكريمة يسوق القرآن إلى اليهود الاتهام المشار إليه في الآية السابقة فإذا كان الأنبياء الذين خلفوا موسى ﷺ قد أمروا باتباع التوراة في أحكامهم، فمن هم حتى يرفضوا الرجوع إليها في منازعاتهم؟

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني أن اليهود يرجعونهم إلى الرسول ﷺ ليحكم بينهم، فكأنهم ما عادوا ينظرون إلى التوراة على أنها كلمة الله تعالى ووحيه، وأنهم يؤمنون إيماناً كاملاً في أمانة الرسول ﷺ وصدقه وعدالته. وما دام الأمر كذلك؛ خاصة وأن هناك أيضاً نبوءات واضحة في أسفارهم تشهد بصدقه؛ فإن رفضهم الإيمان به بعد ذلك يدل على أنهم يخشون الناس أكثر من خشيتهم الله تعالى. ثم إن رفضهم للرسول ﷺ لا يعني رفضهم لنبوءات أسفارهم فحسب، بل يتضمن أيضاً رفضهم لموسى ﷺ نفسه الذي جاء بالكتاب الحاوي لتلك النبوءات.

ويتبين من هذه الآية أيضاً أنه ليس من الضروري أن يأتي كل نبي بشريعة جديدة ولا يكون تابعا لنبي وكتاب سابقين. فالأنبياء الذين بُعثوا في بني إسرائيل من بعد موسى -ومنهم عيسى عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه- ما جاؤوا بشرع جديد، وإنما اتبعوا موسى ﷺ وعملوا بالشريعة التي أنزلت عليه. تقول الآية: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ فالأنبياء الذين حكموا بالتوراة كانوا خاضعين لشريعة التوراة، وما كان لهم شرع خاص بهم.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ
وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ
فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن
لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٤٦﴾

التفسير:

يتضح من الآية الكريمة أن الشرع الوارد فيها ينتمي إلى ما جاء في التوراة، ولكننا لا نجده في الكتاب الذي نجده اليوم باسم العهد القديم. كما أن قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يحمل دليلاً واضحاً على أن تعاليم العفو والتسامح التي يتشدد بها المسيحيون كثيراً لم تكن حكرًا على الأناجيل، فقد كانت أيضاً من بين تعاليم التوراة، وإن كان من الحق الذي لا ينكر أن تعاليم موسى عليه السلام فيها مزيد من التركيز على القصاص، في حين أن تعاليم المسيح تركز أكثر على التسامح وعدم المقاومة.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ
هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾

التفسير:

ويدل قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ على أن عيسى عليه السلام مثل الأنبياء الذين سبقوه من بني إسرائيل؛ جاء تابعا لشرعة موسى عليه السلام، وأن الإنجيل لم يكن إلا شرحا لبعض التعاليم المختارة من التوراة التي تناسب ذلك الزمن.

وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ
وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أن الإنجيل كتاب تشريعي يتضمن قوانين يجب على المسيحيين أن يسيروا عليها. بل إن الإنجيل كتاب لا يحمل تشريعا، ولقد اتبع عيسى عليه السلام نفسه شريعة موسى عليه السلام في التوراة، تلك الشريعة التي قيل إنه لا يزول منها حرف واحد إلى أن يأتي الوحي التشريعي الكامل الذي تضمنه القرآن المجيد.

والواقع أن تلك العبارة كسابقتها (في الآية ٤٥) لا تأمر بالطاعة لأي شريعة موسوية أو عيسوية، وإنما تشير إلى النبوءات الواردة في التوراة والإنجيل عن نبي الإسلام محمد ﷺ. فالآيتان تحذران اليهود والنصارى أنهم إذا خالفوا تلك النبوءات الكتابية ورفضوا الإيمان بالرسول ﷺ فإنهم عند الله تعالى هم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْفَاسِقُونَ﴾. راجع الآيتين ٤٢، ٩٠ من سورة البقرة، وإنجيل يوحنا ١٦: ٧-١٣ للتعرف على النبوءات الكتابية عن نبي الإسلام محمد ﷺ.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم
بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا
جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

مُهَيْمِنٌ: من «هيمن»، يقال «هيمن الرجل»: قال آمين. «هيمن الطائر على فراخه»: رفر. «هيمن فلان على كذا»: صار رقيباً عليه وحافظاً. «المهيمن»: من أسماء الله تعالى وتعني القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم (أقرب الموارد). وفي (لسان العرب) «مهيمن» من «همن» وأصلها «أَمَنَ» فهو مُؤَمِّنٌ بهمزيّن قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة اجتماعهما فصار مُؤَيِّمٌ ثم صِيَّرت الأولى هاء. وقال بعضهم مُهَيِّمٌ معنى مُؤَيِّمٍ والهاء بدل من الهمزة. و«مهيمن» اسم فاعل أصلها «مؤامن»؛ بمعنى المؤمن من آمن غيره من الخوف؛ الأمين؛ المؤتمن؛ الشاهد.

شِرْعَةً: مشتقة من «شرع». يقال «شرع في الأمر»: خاض فيه. «شرع الماشية»: أوردتها الماء. «شرع الله لنا كذا»: أظهره وأوضحه. «شِرْعَةً»: عادة؛ فرائض الدين كالصوم والصلاة والحج وغيرها من أعمال البر؛ طريقة في الاعتقاد والسلوك صحيحة جليلة.

و«الشرعة»: مصدر للسقيا دائم وواضح للعين كالأنهار التي يتجه إليها الإنسان والوحوش؛ طريق إلى الماء؛ دين أو عقيدة للإيمان والسلوك (معجم لين).

مِنْهَاج: من «نَهَج». «نهج الأمر»: أبانه وأوضحه. و«نهج الطريق»: سلكه. «النهج أو المنهاج»: الطريق الواضح (معجم لين). ويقول (المبرد) إن «الشرعة» تعني بداية الطريق، و«المنهاج» تعني الجزء المعبد من الطريق (عبد القادر المبرد). وعليه فإن الشرعة تعني ما يختص بالأمور الروحانية، والمنهاج ما يتعلق بالأمور الدنيوية.

التفسير:

تحدثت الآية عن القرآن المجيد بأنه مهيمن على الكتب السابقة، بمعنى أنه حفظ كل ما هو حق ودائم منها واحتواه في تعاليمه، وترك ما يقتصر على عنصر الدوام، وما لا يناسب احتياجات الناس في كل الأزمنة. وهو مهيمن عليها بمعنى أنه يتمتع بالحفاظة الإلهية، فلا يعبث به أحد أو يحرفه، وهذا أمر لم يتوافر للكتب السابقة، كأن كل ما استحق البقاء من الكتب السابقة بقي محفوظا في القرآن المجيد.

وبعني قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أنه ليس فقط لكل أمة منكم؛ بل لكل فرد منكم أيضا جعل الله طريقين واضحين: أحدهما للأمور الروحية والآخر للشؤون الدنيوية.

وتقدم الآية أيضا إجابة على سؤال هام: لماذا لم يبعث الله رسولا واحدا لكل الجنس البشري منذ بداية العالم، فتكون الشعوب كلها أمة واحدة؟ وتقول الآية إن الله تعالى فعل ذلك ليختبر الناس ويتبين مدى استعدادهم للشرعة النهائية. إن الأمر يشبه تعيين مراحل متعددة للإمتحانات لاختبار قدرة الطلاب، وبذلك يترقون بالتدرج من مرحلة إلى أخرى إلى أن يصلوا إلى الفصل النهائي الأعلى.

وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

يَفْتِنُوكَ: مشتقة من «فتن»، يقال «فَتَنَهُ» أي أحرقه؛ أوقعه في محنة أو شدة أو ضيق؛ استماله؛ أضله (معجم لين وأقرب الموارد). راجع أيضا سورة البقرة الآية: ١٠٣ و ١٩٢ وسورة النساء الآية: ٩٢.

عَنْ: حرف له العديد من المعاني، وهنا يفيد التعليل (معجم لين).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني أن عداوة الكفار وكرهاتهم للنبي ﷺ إنما هو بسبب ما أوحى الله تعالى إليه. وهم يدبرون المؤامرات ويسعون لإيقاع النبي ﷺ في المتاعب بسبب بعض التعاليم التي نزلت عليه فأحدثت عندهم نفورا، لأنها تعارض آراءهم وعقائدهم التي يعتزون بها.

أَفْحِكْهُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُوتَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ
اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

حُكْم: لها عدة معانٍ منها القضاء؛ وتولي السلطة؛ والفصل في الخصومات؛ والسيادة؛ والحكومة؛ والقرار؛ والمرسوم؛ والقانون؛ وتعني أيضا النظام أو الحال. راجع أيضا سورة البقرة الآية: ١٣٠؛ وآل عمران الآية: ٨؛ والنساء: ٣٦.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

التفسير:

ينبغي ألا تفهم الآية على أنها تحرم أو لا تشجع المعاملة بالحسنى مع اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، ففي موضع آخر من القرآن المجيد يقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة الآية ٩). فالآية إذن تحرم مصادقة اليهود والنصارى الذين هم في حالة حرب مع المسلمين.

كما أن لفظة ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لا تعني مجرد الأصدقاء، ولكنها تعني أيضا الأعوان والحماة، فإنها تشير إلى اتخاذهم أصدقاء حماة. ومن المؤكد أن المسلمين لا يسعهم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء بهذا المعنى، ولكن الله تعالى ورسوله وإخوتهم في الدين هم الأصدقاء الحماة لهم. راجع الآية ٥٦ التالية.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني أن اليهود والنصارى ينسون خلافاتهم ويتحدون ضد الإسلام ونبى الإسلام ﷺ. ولقد صدق الرسول ﷺ حين قال:

«الكفر ملّة واحدة» أي أن الكفار أمة واحدة، فهم رغم ما بينهم من خلافات يشكلون جبهة واحدة في مواجهة الإسلام.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ
فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى
اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا
عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

دَائِرَةٌ: مشتقة من «دار» أي تحرك وعاد إلى حيث كان أو إلى ما كان عليه. «دار بالبيت»: طاف به. «دارت الأيام»: عادت. «دارت به دوائر الزمان»: أي لقت به تغيرات الأيام أو الأقدار من حال إلى حال. «دارت عليهم الدوائر» أي نزلت بهم الدواهي. «الدائرة» هي: (١) الحلقة أو ما أحاط بالشئ. (٢) الشئ المستدير. (٣) النائبة من صروف الدهر؛ سوء الحظ؛ نازلة؛ هزيمة؛ القتل أو الموت (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

إن الفعل «سارع» يتعدى عادة بحرف الجر «إلى»، ولكن الأسلوب العربي يسمح أحيانا باستخدام حرف ينتمي إلى فعل آخر سابق أو مفهوم من السياق، وبذلك يعبر الفعل عن معناه بالإضافة إلى معنى الفعل السابق. ففي هذه الآية لم يُستخدم حرف «إلى» الذي يفيد الاتجاه، وإنما استعمل حرف «في» الذي يفيد الدخول. فقوله تعالى: «يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» يعني يسارعون نحوهم ويدخلون فيهم. ولفظة «بِالْفَتْحِ» أي بالنصر؛ إشارة إلى فتح مكة أو النصر بوجه عام. ولفظة «أَمْرٍ» بمعنى حدث

والتي أتت بعد لفظة (الفتح) تشير بوضوح إلى شيء أكبر من النصر. ومن الجلي أنه دخول كل جزيرة العرب في الإسلام وإقامة الحكومة الإسلامية بها.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٤﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

أَذِلَّةٌ: من «ذَلَّ» أي: انحط؛ قل؛ هان؛ تواضع؛ ضعف. «ذلت الدابة»: سهَّل انقيادها.
«ذَلَّ الطريق»: صار معبداً ومسلوكاً. «أَذِلَّةٌ»: جعله ذليلاً. «ذُلٌّ وَذُلٌّ»: الانقياد
والسهولة، اللين والتواضع، الرحمة والرفق. «ذليل»: مفرد أذلة وهو الوضع؛
المنحط؛ الحقير؛ الضعيف؛ السهل والمنبسط؛ اللين والرحيم (معجم لين).

أَعِزَّةٌ: جمع «عزیز» النعت من «عَزَّ» أي قَوِيَ واشتد؛ عَظُم؛ ارتفع؛ اقتدر؛ تعَظَّم؛
صمد وقاوم؛ صار لا يُغلب ولا يُقَهَر؛ قَلَّ وجوده وندر؛ صَعُبَ وغلا. «أعزة» أي

أقوياء؛ أشداء؛ صُعباء المراس؛ غلاظ؛ نادرون؛ شرفاء؛ عِلية (معجم لين وأقرب الموارد). راجع الآية ١٣٠ من سورة البقرة.

وَاسِعٌ: مشتق من «وَسِعَ» أي بَسَطَ وَكَثُرَ. «السَّعة»: اليسار والغنى؛ الطاقة؛ القدرة. «الواسع»: من الأسماء الحسنى ويعني الكثير العطاء؛ القوي؛ الذي يعطي الجميع؛ المحيط بكل شيء (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تضع الآية الكريمة علامة لا تخطئ يُعرف بها الدين الحق والحي، وهو الدين الذي لا يتناقص عدد أتباعه بصفة دائمة. فإذا خرج فرد منه جاء الله تعالى بعدد من الناس عوضاً عنه. فإذا لاحظنا أن أتباع دين من الأديان يتناقصون باضطراد واستمرار من دون ترتيبات لنهضتهم، حق لنا أن نستخلص من ذلك أن هذا الدين قد مات وفارقت الحقيقة.

وبعني قوله تعالى: ﴿إِذْ لَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن المؤمنين الصادقين الذين يأتي بهم الله عوضاً عن المارقين حسّاسون نحو إخوانهم في العقيدة، وهم ودعاء متسامحون في تعاملهم معهم، يغضّون الطرف عن هفواتهم، مستعدون دائماً للصفح ونسيان أخطائهم، يحبونهم ويفرقون بهم. وقوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني أنهم لا يخشونهم، ولا يستجيبون لتأثيراتهم السامة. والواقع أن العبارتين تقدمان ميزتين رئيسيتين لأمة ناهضة تحب الله تعالى.

وبعني قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنهم على العكس من ضعفاء الإيمان المتأهبين دائماً للارتداد عن دينهم والذين يتعثرون عند كل محنة وتجربة، فإن المؤمنين الجُدد سيكونون مؤمنين متّصفين بالحماس والرغبة الشديدة لإدخال غيرهم إلى الإسلام.

وتخبرنا الآية فوق ذلك أن المؤمنين الصادقين لا يخافون أبداً أن يبذلوا حياتهم في سبيل الله تعالى، ولا يهتمون مطلقاً لأقوال المتهمكين والساخرين. إنهم لا يخشون سيف الأعادي ولا لومهم.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

رَاكِعُونَ: أي عابدون لله تعالى وحده. راجع الآية ٤٤ من سورة البقرة.

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٧﴾

التفسير:

يتحرى الناس مصاحبة الكبار من ذوي النفوذ والسلطان والجاه والمال، وذلك لينالوا النجاح في حياتهم. ولكن الآية الكريمة تعرض على الناس صداقة الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين به، وهل هناك من هو أعظم من فريق الله عز وجل ورسوله ﷺ والمؤمنين؟ وهل يمكن لمن يصادقهم أن يفشل في حياته؟.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا
دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾

التفسير:

تتناول هذه الآية الآيات السابقة بمزيد من البيان عن موالاة الكفار. فلا يجوز للمسلمين أن يعقدوا علاقات الصداقة مع الذين يهزأون بدينهم ويسخرون من نبيهم. إن من يفعل ذلك يقتل احترامه لنفسه، وهل هناك من هو أشد غيرة وأعظم احتراماً لنفسه من المؤمن الحقيقي؟ لقد أمر المسلمون في الآية ٥٢ ألا يتولوا الكفار بسبب سلوكهم العدواني وحربهم مع المسلمين، وفي هذه الآية كان النهي عن موالاتهم بسبب استهزائهم وسخريتهم من دينهم. وهذا لا يعني قطع كل علاقة أيا كانت مع الكفار، ولا يعني أيضا الامتناع تماما عن إسداء الخير لهم ومعاملتهم بالحسنى والقسطاس. للمزيد راجع سورة الممتحنة آية ٩ و ١٠. وعندما ترد لفظة (الكفار) مع ذكر أهل الكتاب؛ فالمراد بهم الكفار من عبدة الأوثان. وإذا وردت بصفة عامة فإنها تعني أهل الكتاب والمشركين معا. وفي هذه الآية تشير إلى المشركين.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾

التفسير:

تسوق الآية مثالا عن الكيفية التي يسخر بها أهل الكتاب والكفار من دين الإسلام.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا
أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ
قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

هَلْ: أداة استفهام إذا جاءت قبل (إلا) كانت بمعنى «ما» للنفي، فكأن العبارة القرآنية تعني «يا أهل الكتاب ما تكرهون منا إلا أن آمنا بالله». وقد ترد أحيانا بمعنى «قد» لتفيد التحقيق مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي «حقا قد أتى...».

تَنْقِمُونَ: مشتقة من «نَقَمَ»، يُقال «نقم منه» أي عاقبه؛ ثار منه. «نقم منه كذا» أي أنكروه؛ عابه؛ كرهه أشد الكراهة. «ما تنقم منا؟»: ما تطعن فينا وتقدح؛ ليس لنا عندك ذنب ولا ركبنا مكروهاً (أقرب الموارد). راجع الآية ٥ من سورة آل عمران.

التفسير:

تبين الآية لليهود والنصارى حماقة جورهم وتجنّهم على المسلمين وطيشهم في العيب عليهم. إن الآية تقول لهم بأن العدوان الوحيد الذي ارتكبه المسلمون واستحقوا به هذا الجور والاضطهاد والانتقاد والكراهية لم يكن سوى إيمان المسلمين بكل الأنبياء وجميع الكتب السماوية، في حين أنهم قبل الإسلام ما كانوا يؤمنون بأي واحد منهم. إن المسلم لا يؤمن فقط برسول الإسلام الكريم ﷺ أو بالقرآن المجيد، ولكنه يؤمن أيضاً بموسى وعيسى وكل الأنبياء صلوات الله عليهم، ويعتبر كل ما أوحى إلى كل منهم وحياً سماوياً. فالآية تحمل في ثناياها توبيخاً ضمنيّاً ولكنه شديد الأثر، تلوم به اليهود والنصارى الذين يدعوا الإسلام أتباعه لاحترام أنبيائهم وتكريمهم كرسول من

الله تعالى. كما وإن الآية تنطبق على معارضي كل نبي، إذ إن مسلك الكفار مع أنبياء الله تعالى وسبب اضطهادهم ولومهم لهم يرجع إلى أسباب مماثلة.

قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ
اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ
الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾

التفسير:

كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى أعمال العدوان والاضطهاد من جانب أهل الكتاب للمسلمين والذي سبق التنويه إليه في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾، أوهي إشارة إلى بعض المؤمنين الذين وقع عليهم الاضطهاد. وحسب المعنى الأول يكون معنى العبارة: هل أخبركم عمّن سينالون جزاء من الله تعالى أسوأ مما يلحقونه بالمسلمين من ألم ومشقة؟ وحسب المعنى الثاني يكون معنى العبارة: هل أخبركم عن من سيلقى جزاء من الله تعالى أشد مما نال هؤلاء الذين آذيتموهم؟ والمراد بمن هم «شر من ذلك مثوبة» اليهود طبعاً، فالآية تحذّرهم من عقاب أشد مما بوسعهم إلحاقه بالمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ وردت على سبيل المجاز. فإن بعض التصرفات هي من خصائص حيوانات معروفة، ولا يتأتى بيانها بوضوح إلا بذكر اسم الحيوان المناسب.

ومثالا لذلك؛ تقول العرب «أشأم من بومة» تعبيراً عن سوء الحظ والشؤم المصاحب له. وبالمثل فلفظة ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ ليست على سبيل السُّباب، فالقرآن الكريم لا يستعمل أسلوب السباب، والرسول ﷺ ليس شتاماً، وإنما جاءت جازياً على التعبير

العربي في قولهم «أزنى من قرد». وقد استخدم المسيح ابن مريم عليه السلام هذا المثل في حق اليهود في عصره. والقرد معروف بالتقليد، راجع الآية ٦٦ من سورة البقرة. كذلك فإن الخنزير يتميز بعادات دنسة بعيدة عن الحياء، كما أنه معروف بالحمق أيضا (انظر الآية ١٧٤ من سورة البقرة).

ورغم أن الرسول ﷺ لم يستعمل تلك الألفاظ مطلقا بشأن اليهود، إلا أن القرآن المجيد استعملها في حقهم، ذلك لأن الله تعالى هو الحكم والرب، فهو صاحب السلطة والحق في أن يقول ما يشاء. إن القاضي كثيرا ما يستخدم تعبيرات معينة لتصف تماما حالة المذنب المدان. والواقع أنه إن لم يفعل ذلك لكان مقصرا في عمله. ولقد استعمل عيسى ابن مريم عليه السلام تعبيرات مماثلة في حق يهود عصره، ولم يكن في ذلك شائما لهم، وإنما أدانهم كقاض وممثل لسلطان الله تعالى على الأرض. راجع أيضا الآية ٦٦ من سورة البقرة.

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا
بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

كان اليهود يقولون ﴿ءَامَنَّا﴾ مقالة نفاق، يقلدون بها طريقة المؤمنين في التعبير عن إيمانهم، ولكن من دون فهم أو إدراك لمدلولها الحقيقي. وبمسلكهم هذا يلعبون دور (القردة) في التقليد الأعمى كما أومأت الآية السابقة.

وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير:

تعلل هذه الآية والسابقة تشبيه اليهود بالقردة والخنازير. فهم يقلدون ويحاكون كالقردة، ويأكلون الدنس والوسخ ويفحشون في هجومهم كالخنازير، ويزيدون عنهم سوءا في أعمال أخرى.

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ
الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير:

الواقع أن الإثم يُفعل ولا يُقال، ولذلك يفسر بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ بمعنى (فعلهم الإثم). والحقيقة إن اقتران القول مع الإثم يعبر عن الجمع بين القول والفعل. ولقد سبقت الإشارة إلى قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ومسارعتهم إلى الإثم والعدوان. فالأول هو القول الإثم والثاني هو الفعل الإثم، وتجمعهما العبارة القرآنية في: ﴿قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾.

ولقد تكرر قوله تعالى: ﴿أَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ في الآيتين لتبيان أن أكل الحرام لم يكن قاصرا على عامة اليهود وحدهم، وإنما انحدر معهم قادتهم إلى الإثم والحرام.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وُلِعُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ
كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا
نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

يَدًا: مثنى «يد» مشتقة من «يَدَيَّ» وهي الطرف المعروف، ولها عدة معان مجازية منها
(١) النعمة؛ الإحسان؛ الفضل. (٢) القوة؛ القدرة؛ الولاية؛ السلطان؛ الجاه. (أقرب
الموارد ومعجم لين).

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أن اليهود سوف يُعاقبون العقاب المناسب لقولهم
الوَقْحِ ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، ويمكن اعتبار العبارة دعاء عليهم. ولما كانت مشيئة الله
تعالى نافذة، كان من الأنسب أن تأتي في الصورة الخبرية، بمعنى أن اليهود سيصيرون
إلى البؤس والتعاسة والشح.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رد مفحم على سخرية اليهود. فيقول القرآن
الكريم إن يد الله تعالى ليست مغلولة وإنما هي ممتدة بالعباء الوافر، وسوف يجازي
اليهود على غطرستهم ووقاحتهم. وقوله تعالى: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يتضمن ما تفعله
(يده) من إنعام على المؤمنين بالنعم والأفضال الخاصة، وأيضا بإنزال العقاب الشديد

على اليهود بسبب خطاياهم وذنوبهم. ويُلاحظ أن كلمة (يد) وردت بمعنى الفضل والخير، وبمعنى القوة والسيادة والقدرة على عقاب المخطئين.

ويشير قوله تعالى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ إلى بقائهما ليس فقط بين طوائف اليهود، بل وبين طوائف النصارى، وكذلك بين اليهود والنصارى أيضاً. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ يشير إلى محاولات اليهود لتحريض المشركين في بلاد العرب على إثارة الحرب ضد المسلمين، إلى جانب نشاطهم العدواني ضد الإسلام.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

النَّعِيمُ: مشتق من «نَعِم»، يقال «نَعِمَ عَيْشُهُ» أي طاب ولان واتَّسع. «النَّعْمَةُ»: السهولة والوفرة؛ رغد العيش ولينه؛ الراحة؛ التنعم والتمتع؛ الهناءة؛ النضارة والدَّعة والانتعاش. «النَّعْمَةُ»: الصنعة؛ المنة؛ المسرة؛ الحالة التي يستلذها الإنسان؛ ما أنعم الله عليك به من رزق وغيره. «نَعِيمٌ»: رغد العيش؛ الدعة؛ المال؛ عطاء الله (معجم لين).

التفسير:

تُوضَح الآية تمام الوضوح أنه لإدراك الخلاص والنجاة ودخول الجنة لا بد لأهل الكتاب من الإيمان برسول الإسلام ﷺ والقرآن المجيد، إذ أن إيمانهم بالأنبياء السابقين والكتب السابقة غير كاف لتحقيق ذلك الهدف. راجع الآية ٦٣ من سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يدل على حالة من السعادة الروحية الكاملة بالإضافة إلى الخلود في هذه السعادة. وجدير بالذكر هنا أن القرآن الكريم يصف الجنة بأنها:

- جنات النعيم، أي حدائق السعادة، كما في هذه الآية
 - جنات المأوى، أي الملجأ والملاذ (السجدة: ٢٠)
 - جنات عدن، أي الإقامة والخلود (التوبة: ٧٢)
 - جنات الفردوس، أي البساتين والرياض (الكهف: ١٠٨)
- وهذه الأسماء تمثل أشكالاً مختلفة ودرجات وأقساماً مختلفة من الجنة.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾

التفسير:

لو أن اليهود والنصارى نظروا بعين الاعتبار لما في كتبهم من نبوءات لكان من المؤكد أن يؤمنوا بالقرآن المجيد لأنه نزل مصداقاً لها.

وقوله تعالى: ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني (١) لنالوا بركات السماء من وحي وصلة بالله تعالى ولنالوا أيضاً خيرات الدنيا. (٢) لأمطرتهن السماء من فوقهم ماء أحييت به أرضهم فجاءت بوافر الخيرات. (٣) لأمدهم الله تعالى بكل الوسائل السماوية والأرضية لتقدمهم وازدهارهم.

يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ
يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

التفسير:

هناك خلاف كثير حول زمن نزول هذه الآية المتضمنة لوعده تعالى بحماية نبيه ﷺ من أعدائه. ويذكر ابن جرير وابن كثير والدر المنثور والبحر المحيط عددا كبيرا من الروايات التي تنسب الآية إلى الفترة المكية. ويرى البعض أن الآية نزلت بالمدينة. ويقول صاحب «روح المعاني» إن الآية نزلت أولا في مكة ثم نزلت ثانية في المدينة، ويبدو أن هذا هو الرأي الصحيح. والواقع أنها نزلت أربع أو خمس مرات. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لا يعني أن الرسول ﷺ أوشك أن يتهاون في واجبه، وإنما يعني فقط التعبير عن المبدأ العام بأن من يفشل في أداء جزء من مهمته فهو في الواقع لم يؤد واجبه كلية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لم يرد هنا بمعنى «لا يرشدهم إلى الطريق الصحيح» إذ أن ورود العبارة مباشرة بعد الأمر بتبليغ الرسالة الربانية يقطع الطريق على هذا المفهوم. فإذا كان المراد عدم إرشادهم إلى الحق فما معنى أمر الرسول ﷺ بتبليغ رسالته إذن؟.

إن العبارة هنا تعني الهداية المادية وليست الهداية الروحانية. إن مجيء العبارة عقب الوعد الإلهي بحماية الرسول ﷺ يعني أن الله تعالى لن يتيح لهم النجاح في تحقيق أي أذى يقصدون به القضاء على الرسول ﷺ، فلن يهتدوا إلى الوصول إليه ليقتلوه. وينبغي ألا يفهم من الوعد الإلهي بحماية الرسول ﷺ أن أعداءه لن يستطيعوا إصابته

بأي أذى جسماني، وإنما مضمون الوعد أنه لن يسمح لهم بقتله أو إعاقته عن أداء مهمته بصفة دائمة بحيث يبقى غير صالح لأداء رسالته.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى
تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾

التفسير:

قد يقول معترض أن الآية ١١٤ من سورة البقرة تتضمن توبيخا لكل من اليهود والنصارى عندما يقول كل منهما للآخر ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، وفي هذه الآية يقول القرآن لهم نفس العبارة. والرد على ذلك أن هناك فرقا واضحا بين العبارتين إذا تدبرناهما بتفكير وإمعان. فالعبارة الأولى مطلقة، في حين أن العبارة هنا محددة مقيدة بقوله تعالى: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ
وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٠﴾

التفسير:

راجع الآية ٦٣ من سورة البقرة، والآية ٦٦ من سورة المائدة.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧١﴾

التفسير:

بمقارنة ما جاء في الآية رقم ١٣ من السورة مع هذه الآية، نجد أن النقباء في الآية ليسوا سوى الرسل المذكورين في هذه الآية.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

فِتْنَةٌ: المصدر من «فَتَنَ». والفتنة هي الإثم؛ المعصية التي تستوجب العقاب؛ العذاب؛
الفضيحة؛ المحنة؛ المرض؛ الجنون... إلخ (معجم لين وأقرب الموارد) راجع أيضا الآية
١٩٢ من سورة البقرة، والآية ٩٢ من سورة النساء.

التفسير:

ظن اليهود أن لا عقاب عليهم في تكذيبهم ورفضهم ومناهضتهم للأنبياء، ولكنهم
اخطأوا في ظنهم. لقد تعقبتهم النوازل والشدائد والمحن إلى أن التفت الله تعالى

نحوهم التفات رحمة حين أرسل إليهم الرسول الكريم ﷺ لتكون أمامهم فرصة الإيمان به والخلاص من العقاب السماوي. ولكنهم رفضوه أيضاً، وبذلك فقدوا حاسي النظر والسمع الروحانيتين.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٣﴾

التفسير:

يتضح من دراسة الأناجيل أن المسيح عليه السلام دعا بني إسرائيل إلى عبادة الله تعالى وحده، وهذا على الرغم من أن هذه الأناجيل في صورتها الحالية محرفة. اقرأ مثلاً ما جاء في إنجيل متى ٤: ١٠، وإنجيل لوقا ٤: ٨: وراجع الآية ١٨ من السورة الحالية.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

التفسير:

تشير الآية إلى عقيدة التثليث التي يؤمن بها المسيحيون، تلك العقيدة الغامضة المبهمة عن الشخصيات الإلهية الثلاث أو الأقانيم: الأب والابن والروح القدس، وهي شخصيات تتواجد وتتماثل من كافة الوجوه، وتتحد لتكوّن إلها واحدا، ومع ذلك تبقى ثلاثة. ولقد كان مجمع نيقيا؛ وعلى الأخص الجناح الأثنيسي؛ أول من أعطى هذه العقيدة شكلها النهائي. وهذه العقيدة تمثل أساس الإيمان المسيحي. فيا لها من زلة للغرب المتحضر المتنور!!

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٥﴾

التفسير:

ليست هناك أي حاجة إلى توضيح بديلة تقدم لخلاص الإنسان. إن الله تعالى قادر بنفسه على غفران الخطايا جميعا. إن الأمر لا يتطلب سوى قلب صادق التوبة، سرعان ما يستدرّ رحمة الله تعالى وينال غفرانه. فلماذا لا يعود المسيحيون إلى الله تعالى ويلتمسون منه الصفح عن ذنوبهم؟ وما الحاجة إلى الالتجاء والاعتماد على عقيدة غامضة مبهمّة، كالقول بأن يسوع -ابن الرب- قد صُلب ليكفر عن خطايا البشر، وأن من أراد غفران خطاياهم فيلزمه الإيمان بهذه الكفارة؟ تشير الآية إلى أن الله تعالى يملك مطلق القدرة على الغفران، ومن ثم إن الذين يخلصون في توبتهم إلى الله تعالى ويقلعون عن خطاياهم بقلوب صادقة الندم على ما ارتكبوه من أخطاء، أولئك باب الأمل مفتوح أمامهم دائما ليجدوا من الله تعالى المغفرة والرحمة.

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ
الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ
أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

يُؤْفَكُونَ: مشتقة من «أفك». يقال «أفكه» أي صرفه وقلب رأيه؛ غير حاله؛ غشه أو خدعه. «أفك الرجل عن الخير»: صرف عنه بالغش أو الخداع. «أفك» أو «أفك» أي كذب أو نطق باطلا؛ وهذا في حقيقته تغيير حالة الشيء (معجم لين).

التفسير:

تسوق الآية عدداً من الحجج تدحض به الزعم بالوهية يسوع المسيح. أولها: إنه لم يكن يُفْضَلُ أحداً من رسل الله تعالى من أي وجه. فلم يكن أعلى منهم مرتبة؛ ولم تظهر على يده معجزة لم يظهرها نبي آخر. والواقع إن أعظم معجزة نسبت إليه هي إحياء الموتى، ومع ذلك فقد عزت التوراة معجزات مماثلة لغيره من الأنبياء كما جاء في سفر الملوك الثاني ٤: ١٦، ١٧، ٣٤، ٣٥ و ١٣: ٢١.

ثانياً: إن الذي ألوهه ولدته امرأة، ولا يمكن لمولود من امرأة أن يكون إلهاً. والمعروف أن الوليد يرث من أبويه بعض صفاتهما الغالبة، ويسوع الذي ولدته امرأة لا بد وأن يكون قد ورث عنها طبيعتها وصفاتها، ومن ثم لا يمكن أن يكون إلهاً.

ثالثاً: إن يسوع -لكونه بشراً- خضع لسنن الطبيعة من جوع وغيره، وكان يُشبعها بالطعام وغيره، كما وأنه خضع للظواهر الطبيعية المتولدة عن تلك السنن.

ولقد وصف القرآن المجيد مريم بأنها ﴿صِدِّيقَةٌ﴾، فنفى بذلك ظن اليهود وافتراءاتهم فيما يتعلق بمولد عيسى عليه السلام.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٧﴾

التفسير:

ويسوع الذي يتخذونه إلهًا معبودًا لا يملك ضرًّا ولا نفعًا لغيره؛ وما استطاع بل ولن يستطيع أن يسمع الدعاء فيستجيب له، وهو لا يعلم حاجات البشر فيمدّهم بها؛ فالله تعالى هو السميع العليم.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ
وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٨﴾

التفسير:

يمكن تقدير عبارة «ولا تقولوا» قبل قوله تعالى: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾، وهذه تعني غير العدل وغير الصواب أيضًا، ذلك لأن أقوال المسيحيين وتعاليم المسيحية الباطلة هي التي شاركت أكثر من أفعالهم في إفساد دينهم وانحطاطهم الروحاني. وفي هذه الحالة تُفهم العبارة على أنها: قل يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحدود في أمور دينكم ولا تقولوا ما ليس حقا وصدقا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ يشير إلى أن مبادئ التثليث والفداء والبنوة ليست إلا مبادئ مستعارة أخذها رجال الدين النصارى الأوائل من

أمم ﴿صَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ وغيروا من تعاليم دينهم بحيث تبدو مقبولة عند تلك الأمم الأممية أو الوثنية التي اتصلوا بها. وتذهب البحوث الحديثة عن مصادر المسيحية إلى تأييد تلك الحقيقة التي صرح بها القرآن قبل ثلاث عشر قرناً. (دائرة المعارف اليهودية: عمود ٤٦٩٥ ودائرة معارف الأديان والأخلاق الجزء ٢ صفحة ١٤٣ والجزء ٧ صفحة ٤٣٦).

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى
لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٩﴾

التفسير:

كان النبيان داوود وعيسى عليهما السلام أكثر من عانى من بين أنبياء بني إسرائيل على يد اليهود. ولقد بلغ اضطهاد اليهود ذروته عندما علقوا عيسى ابن مريم عليه السلام على الصليب، وتعتبر الانفعالات العميقة التي ذكرها داوود عليه السلام في المزامير عما لاقاه على يد هؤلاء القوم الجاحدين من مشاق وحرمان. ومع زفريات قلبيهما خرجت لعنات داوود وعيسى عليهما السلام تنصب على رأس اليهود. ونتج عن لعنة داوود عليه السلام أن سبى نبوخذنصر اليهود ودمر أورشليم وأخذهم أسرى إلى بابل عام ٥٨٦ ق.م، وترتب على لعنة عيسى عليه السلام أن نزلت عليهم صنوف العذاب الشديد على يد تيتوس، واستولى على أورشليم في حوالي ٧٠م وخربها ودفن المعبد بأن ذبح الخنازير فيه، وهي حيوانات يكرهها اليهود ويشمئزون منها.

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٠﴾

التفسير:

ومن كبائر خطايا اليهود التي جلبت عليهم غضب الله تعالى أنهم كانوا لا يمنعون بعضهم بعضاً عن ممارسة الشرور التي شاعت بينهم، فمنهم من تغاضى عنها وسكت، ومنهم من استحسناها وشجعها. ومن سوء الحظ أن الكثير من علماء المسلمين ومشايخهم في أيامنا هذه قد سقطوا في هذه الخطيئة المهلكة، إنهم لا يقدمون عظاتهم لمناهضة ما يدمنه الأغنياء والكبراء من شرور.

تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَيْسَ مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

سَخِطَ: يقولون «سخط عليه»: غضب عليه. «سخط الشيء»: كرهه (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم الوثنيون، راجع الآية: ٥٨. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني ما فعلوه من شرور ليتقدمهم أو ما أحضرته لهم نفوسهم؛ أي أن ما زَيَّنَّته لهم أنفسهم على أنه حق وصواب كان في الواقع خطأً وشرًا.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

التفسير:

المراد بالنبي هنا نبي الإسلام ﷺ وليس موسى عليه السلام؛ وفي كل موضع في القرآن الكريم تأتي كلمة «النبي» فيه فإنه يُقصد بها نبي الإسلام ﷺ. ولقد أشار اليهود أنفسهم إليه بقولهم «النبي»، (راجع إنجيل يوحنا ١: ٢١، ٢٥) عندما سألوا يوحنا عن نفسه: أالنبي أنت؟ أي هل أنت ذلك النبي الذي جاءت النبوءات عن مجيئه في سفر التثنية ١٨: ١٨؟.

وتعني الآية أنه كان الأولى باليهود عندما يعقدون صداقاتهم مع الآخرين أن يؤمنوا بالرسول ﷺ وأن يعملوا بمبادئ القرآن الكريم، لأن الأقرب في العقيدة أفضل من غيره، ومن ثم ما كان يليق بهم مطلقاً أن يُفضّلوا الوثنيين على المسلمين في الموالاتة، ذلك لأن المسلمين كانوا يشاركونهم في كثير من العقائد ويؤمنون بكل أنبيائهم، في حين أن الوثنيين كانوا غير ذلك. ومع ذلك فإن اليهود ساروا على نقيض هذا المبدأ العظيم، وعملوا على الإضرار بالمسلمين وتدميرهم بأن صادقوا الوثنيين، وفضّلوه على المسلمين. وبلغ بهم الأمر أن أعلنوا أن أهل الأصنام أهدى من المسلمين الموحّدين (انظر الآية ٥٢ من سورة النساء).

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيَّيْنَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

قِسِّيَّيْنَ: جمع قسيس، مشتقة من «قس». يقولون «قسّه» أي طلبه وتتبعه. «القسيس»: مرتبة من مراتب الرئاسة الدينية عند المسيحيين؛ الرجل الذي المتعلم (معجم لين).

رُهَبَانًا: جمع راهب، مشتقة من «رهب» أي خاف أو خشي. «الراهب»: الخائف؛ الخائف من الله؛ الزاهد؛ من اعتزل الناس إلى دير طلباً للعبادة؛ الناسك؛ من نذر نفسه لخدمة الدين. «رهبانية»: طريقة الرهبان وتعني المبالغة في العبادة واعتزال الناس؛ التنسك؛ الزهد (معجم لين).

التفسير:

كقاعدة عامة؛ يلقي أتباع النبي الجديد أشد المعارضة من أتباع النبي الذي سبقه مباشرة أكثر مما يلقيه من أتباع الأنبياء الذين ظهروا في الأزمنة البعيدة. ولكن على العكس من هذه القاعدة العامة، فإن اليهود الذين كان من المفروض أن يكونوا أقل عداوة للمسلمين، قد أثبتوا بتصرفاتهم - على الأقل في زمن الرسول ﷺ - أنهم أشد عداوة للإسلام من النصارى الذين كانوا عند المقارنة أقل منهم عداوة. غير أن هذه الحال لم تكن لتستمر إلى الأبد، إذ ينذر القرآن المجيد المسلمين في موضع آخر أنهم من المقدّر لهم أن يلقوا أشد المعاناة على أيدي النصارى الذين سوف يشنون عليهم الهجوم والعدوان من جميع الجهات (انظر الآية ٩٧ من سورة الأنبياء). وتوجد أيضاً مثل هذه النبوءات في الحديث الشريف. وعلى هذا؛ يجب ألا تؤخذ الآية التي نحن بصددتها على أنها تنطبق على المسيحيين في جميع الأزمان، وإنما على أولئك الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ وكانوا يعيشون على مقربة منه. ويؤيد التاريخ هذا الرأي،

فإنّ النجاشي -ملك الحبشة المسيحي- جعل من بلاده مأوى للمهاجرين المسلمين، والمقوقس -حاكم القبط في مصر- أرسل بالهدايا للرسول ﷺ.

ويبدو أن التواضع كان أحد الصفات التي تشكل الشخصية العامة للنصارى الأولين، كما يبدو أن تعاليم المسيح ﷺ بإدارة الخد الأيسر لمن يضرب على الخد الأيمن ظلت تجد تأثيرها على حياتهم لعدة قرون. ويتضح هذا جليا من الطريقة التي استقبل بها والمعاملة التي تلقاها مبعوثي الرسول ﷺ إلى كل من ملك فارس، الذي كان وثنيا، وهرقل إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الذي كان مسيحيا. فالأول مزّق الرسالة التي بعث بها إليه الرسول ﷺ، بينما تلقى هرقل رسالة الرسول ﷺ بكثير من الاحترام، بل وهناك ما يدل أيضا على أنه أظهر ميلا نحو الإسلام.

وما دامت الصفات المذكورة تشكل السمات المميّزة للشخصية المسيحية؛ كان المسلمون يتلقون منهم معاملة طيبة. ولكن بمضيّ الزمن تخلى المسيحيون عن صفاتهم ولم يعد يتّصف بها سوى القلة القليلة من رجال الدين المنهمكين بصدق وأمانة في الأمور الدينية، منعزلين بعيدا عن مشاغل الدنيا، ومهتمين اهتماما حقيقيا وفعّالا بالمسائل الدينية. ولقد بدأ علماء الدين المسيحي ينشغلون بالسياسة منذ القرن الثالث أو الرابع عشر الميلادي، ونتيجة لذلك أصبحوا أعداء للإسلام.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٤﴾

التفسير:

وهذا الوصف الذي تقدّمه الآية الكريمة عن بعض المسيحيين في زمن الرسول ﷺ ينطبق على جميع أولئك الذين يبحثون عن الحق، ومن هم على استعداد لقبوله

حيثما وجدوه. وقد انطبقت الآية على النجاشي بصفة خاصة، فعندما قام جعفر بن أبي طالب عليه السلام، ابن عم الرسول ﷺ، الذي تحدّث باسم المهاجرين أمام النجاشي ليوضح نظرة الإسلام والمسلمين في مريم وابنها، وليزيل الشكوك التي أثارها مبعوثو أهل مكة، وتلا الآيات الأولى من سورة مريم، تأثّر النجاشي لذلك، وتأثّر أيضاً الأتقياء من أصحابه، وتحذّرت دموعهم على وجناتهم، وقال النجاشي بصوت يفيض رقة وتعاطفاً إن هذه هي عقيدته بالنسبة لعيسى عليه السلام وأمه، وإن تقديره لهما لا يزيد عما جاء في السورة ولو بغصن جاف. (سيرة ابن هشام ج ١، ص ٣٠٥ و ٣٠٦)

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾

التفسير:

تتضمن الآية خلاصة ما جاء في الآية السابقة من كلام النجاشي إلى أهل بلاطه الذين احتجوا عليه بأن عيسى إله وليس بشراً كما يصفه القرآن، والذين كانوا يحثّونه ليسلم المسلمين المهاجرين إلى وفد مكة. ورُوي أن النجاشي رد على ذلك بقوله إنه لا يمكن أن يمنعه شيء من قبول الحق.

فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خُلِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٦﴾

التفسير:

انظر الآية: البقرة: ٢٦.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٧﴾

التفسير:

انظر الآيات: المائدة: ٨٧؛ الأنعام: ٥٠؛ الأعراف: ٣٧؛ الحج: ٥٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ
لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٨﴾

التفسير:

إن تحليل الحرام يُعتبر من قبيل العدوان وتجاوز الحد كذلك، وأيضا تحريم الحلال الطيب بالقول أو الفعل يُعد عملا خاطئا، وكلا العملين عدوان وظلم. والآية الكريمة: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ تحمل أيضا معنى مجازيا، إذ تحذر قائلة لا تغلقوا أبواب الفضل الإلهي عليكم برفضكم نبي الإسلام.

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير:

انظر الآيات: البقرة: ١٦٩؛ الأنفال: ٧٠؛ النحل: ١٥٥.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ
عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ
إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٩٠﴾

التفسير:

إن فعل ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ صيغة مبالغة للفعل «عَقَدَ» (راجع الآية الثانية في أول السورة)، وتحمل معنى تأكيد العهد وتغليظ القسم، ومن ثمَّ فَإِنَّ قوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ يعني صدرت منكم عهود مؤكدة أقسمتم عليها بأغلظ القسم.

ولفظه ﴿أَوْسَطِ﴾ تعني المتوسط، وتعني أيضا الأفضل (راجع البقرة: ١٤٤)، وهي تشير إلى أنه يمكن تكفير الذنب الذي ارتكبه الحالف أمام الله تعالى إذا حنث في يمينه وذلك بإطعام عشرة مساكين من الطعام الذي يقدمه عادة إلى أهله وعياله، ولكن من الأحسن أن يقدم للمساكين أفضل الطعام الذي يقدمه لأهله.

والضمير «هم» في قوله تعالى: ﴿كِسْوَتُهُمْ﴾ يمكن أن يعود إلى أهل الشخص الحانث في يمينه أو يعود على المساكين. وفي الحالة الأولى، تعني الآية: إن كسوة المساكين العشرة يجب أن تكون من أوسط، أو من أفضل، ما يكسوه المرء أهله. وفي الحالة الثانية فمعنى الآية ما هو ظاهر من النص، أي: كسوة المساكين العشرة.

وينبغي ألا تُفهم الآية الكريمة على أنها تعني ذكر ثلاث طرق مختلفة يختار منها المرء للتكفير عن الحنث بقسمه، فالغاية من ذكر الطرق الثلاث هي إبراز ثلاث مراتب للتكفير عن الحنث بالقسم، الثالثة منها (أي تحرير رقبة) أفضل من الثانية، والثانية (أي كسوة عشرة مساكين) أفضل من الأولى.

والأمر بالتكفير عن الحنث بالقسم لا يعني أبداً أن للمرء أن يحنث بقسمه متى شاء طالما أنه سيكفر عنه، وإنما تقدم الآية وسيلة يمكن استخدامها في الظروف الطارئة فقط. غير أن القسم الذي يخالف أمر الله تعالى لا يُعد قسماً أبداً، ويجب عدم البر بمثل هذا القسم. ثم هناك أيضاً القسم الذي يتعلق بحقوق الغير، ومثل هذه القسم لا يمكن التكفير عنه ولا بأي من الوسائل الثلاث المذكورة في الآية الكريمة. فعل سبيل المثال، إذا أقسم شخصٌ ما على أن يعطي شخصاً آخر مبلغاً من المال، ثم حنث في قسمه وكفر عن قسمه حسبما تنص الآية، فإن هذا التكفير لن يعفيه من دفع المبلغ الذي أقسم على دفعه، وإنما عليه أن يدفع المال بصرف النظر عن تكفيره عن قسمه. فالتكفير عن قسمه يختص بحق الله تعالى الذي أخطأ أمامه حين حنث بقسمه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ
وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ: المسكرات وألعاب المقامرة. راجع الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.

الْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ: الأوثان وأسهم النصيب. راجع الآية ٤ في أول السورة.

رِجْسٌ: مشتق من «رَجَسَ» أي صار دنساً، قدراً، وسخاً، كريهاً، بغيضاً، أو فعل أمرًا سيئاً أو بغيضاً أو شريراً. «رَجَسَ» رجف وتحرك حركةً سُمع لها صوت. «رِجْسٌ»:

قَذَرٌ، وَسَخٌّ، شيء قذر أو وسخ، فعلٌ كَرِهَ لقذره أو دنسه، خطيئة أو جريمة، عمل يقود إلى العذاب، العقاب، الكفر والإلحاد، المأثم (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تُفيد لفظة «رَجُسٌ» في هذه الآية كل ما تحمله من معان. (انظر أيضا الآية ٢٢٠ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة المائدة)

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٢﴾

التفسير:

بعد أن سردت الآية السابقة أربعة أشياء تُعد رجسا من وجه أو آخر، تتناول الآية الحالية اثنين منها، هما الخمر والميسر، فتضيف أسبابا أخرى تكشف عما فيهما من مساوئ. وهذه الأسباب أربعة وتتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية والروحية والعقائدية، وقد أُشير إليها جميعا في العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة. والاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ يتضمن نهياً وتحذيراً شديدين، وذلك أسلوب قوي التأثير في الوعظ والزجر. راجع الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا
فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٣﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ يعني إما الأمر بالحذر والاحتراز من الشرور، وإما الدلالة على أن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ تجعل المطيع قادراً على وقاية نفسه من الشر. وختام الآية يعني أن مهمة رسول الله ﷺ هي فقط تبليغ الناس أوامر الله تعالى، وليس من شأنه أن يجبرهم على اتباعه. وهذا يكشف سخر الاعتراض على الإسلام بأنه استعمل القوة لينتشر بين الناس، وفي موضع آخر يقول القرآن المجيد: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، وهاتان الآيتان ومعهما آيات أخرى مشابهة، نزلت كلها بالمدينة، عندما كانت الحرب قائمة بين المؤمنين والكفار، تبين بكل وضوح أن الرسول ﷺ لم يحمل السلاح إلا دفاعاً عن نفسه وعن أتباعه، وليس لنشر دينه على حد السيوف كما يزعم أعداء الإسلام رغبة في التشويه والإساءة.

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٤﴾

التفسير:

لا تعني الآية - كما يفهم البعض خطأ - أن من يؤمن ويعمل الصالحات بوسعه أن يتناول أي طعام، وإنما على العكس من ذلك فهي تهدف إلى وضع شرط يمكن عند تحققه أن يقي المرء نفسه من استعمال الطعام المحرّم، أي الذي قد يسبب له ضرراً في جسده أو نفسه. والشرط هو «إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، ومن الجليّ أن من يتقون الله تعالى حقاً، ويؤمنون به ﷻ، ويعملون الطيبات، لا يمكن لهم أن يفكروا في تناول طعام محرّم.

نعم، بوسع المرء أن يأكل أي شيء إذا كان أكله يجعله تقياً ورعاً، ومن البين أن مثل هذا الطعام الذي يجعل المرء ورعاً تقياً لا يمكن إلا أن يكون طاهراً طيباً، ذلك لأن الطعام الطيب هو وحده الذي يؤدي إلى تلك النتيجة.

ويقوم على هذه الآية مبدءان هامان:

(أ) أولهما أن أشياء هذه الدنيا قد جُعِلت لينتفع منها الإنسان ويستعملها، وهي على العموم طاهرة طيبة فيما عدا ما نُصّ على تحريمه.

(ب) ثانيهما أن للطعام الطيب الطاهر تأثير مفيد على رقي الإنسان من الناحية الروحية، في حين أن للطعام الخبيث الفاسد تأثير ضار على الإنسان.

ثم تضع الآية ثلاث درجات للرقى الروحاني أمام المؤمنين. ففي الدرجة الأولى يتقي المؤمنون ربهم ويؤمنون ويعملون الأعمال الحسنة. وفي الدرجة الثانية يتقون الله تعالى ويؤمنون، حيث يكون إيمانهم في هذه المرحلة قويا حتى يصبح طبعاً لهم ومنبعاً دائماً للأعمال الطيبة التي تكون جزءاً لا يتجزأ من إيمانهم. وفي الدرجة الثالثة الأخيرة يتقون الله تعالى ويعملون للغير أحسن الأعمال، وهذا لا يتأتى بالطبع من دون إيمان كامل وعمل صالح، ولذلك لم يرد ذكرهما عند ذكر هذه الدرجة لأنهما مفهومان من الآية. وهكذا حذفت عبارة «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» من المرحلة الثانية، وحذفت كلمة «وَأَمَنُوا» واستبدلت بكلمة «وَأَحْسَنُوا» في وصف الدرجة الثالثة.

وجدير بالملاحظة أن كلمة ﴿اتَّقُوا﴾ التي تكررت ثلاث مرات في الآية كلمة فريدة تختص بها اللغة العربية، إذ أنها تؤدي عددا كبيرا من المعاني، ويتضمن معناها الأساس المراقبة الدائمة واتخاذ الله تعالى ملاذا ووقاية دائمة (راجع الآية ٣ من سورة البقرة). وبالمثل فإن كلمة ﴿أَحْسِنُوا﴾ تتضمن أيضاً معانٍ كثيرة، راجع الآية ١١٣ من سورة البقرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ
الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن
يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٥﴾

التفسير:

لما كان الصيد من الأعمال التي تمارس عادة في الغابات حيث يكون المرء بمفرده في الغالب وليس هناك من يراقبه سوى الله تعالى إذا خالف الأوامر الإلهية، جاءت الإشارة إليه هنا في الموضع المناسب لبيان حقيقة التقوى. فعندما يشغل المرء بالصيد، يكون امتناعه عن مخالفة الأوامر الإلهية بيانا حقيقيا عن أن الباعث إليه هو تقوى الله تعالى. وهكذا، وعن طريق الفعل الظاهري تنكشف خبايا قلب الإنسان.

كما أن الآية تُمهّد أيضاً للأوامر الإلهية القادمة في الآية التالية، وتُعدّ المؤمنين لقبول الأمر المخالف للعادة الجارية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ
وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ
مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا
بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ
عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا
اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٦﴾

شرح الكلمات:

انْتِقَامٌ: من «نَقَمَ»، يُقال «نَقَمَ عليه»: أنكره عليه وعابه وكرهه أشد الكراهة. «انتقمت منه»: أخذت الثأر منه؛ أوقعت الجزاء عليه؛ عاقبته. «انتقام»: ثأر؛ عقاب؛ جزاء (معجم لين وأقرب الموارد). راجع آل عمران: ٥ والمائدة: ٦٠.

التفسير:

إذا قتل المرء صيداً وهو مُحَرَّمٌ لزمه أن يقدم أضحية في مكة تعادل الحيوان المقتول، وذلك على سبيل الجزاء التعويضي. فلو قتل على سبيل المثل غزالاً، وجب عليه أن يضحي عوضاً عنه بما عزر. فإذا لم يستطع تقديم حيوان مماثل لما قتل، فعليه أن يقدم حيواناً آخر يناظره في الثمن تقريباً. فإن لم يستطع فعلى الحاج أن يُنفق المبلغ المقدّر على الفقراء بإطعام كل فقير مُدّاً أو صاعاً من القمح. (والمد يبلغ حفتين والصاع أربعة أمثال المد). فإذا لم يكن الحاج قادراً على ذلك فعليه أن يصوم عدداً من الأيام يعادل عدد الفقراء المقدّر عليه إطعامهم بقيمة الصيد الذي قتله. ومن الأفضل أن يكون إطعام الفقراء أو الصوم في مكة.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ
وَالسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير:

إن لفظة «الْبَحْرِ» هنا تشمل الأنهار ومجاري المياه والبحيرات والبرك وغيرها. راجع (الأعراف: ١٣٩).

ولما كان الصيد على الأرض يمثل وضعاً غير مريح أو غير مناسب بل وخطر على الحجاج القادمين إلى مكة، في حين أن صيد البحر لا يتدخل في حركة السفر، لذلك حُرِّم الأول وأُحِلَّ الثاني.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ
وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

قِيَامًا: المصدر من «قام» أي انتصب أو وقف. يقولون «قام المرأة»: أي عاها زوجها أو كفّلها. «قام به قِيَامًا تامًّا»: أدار الأمر بكفاءة. «قِيَامًا» تعني وسيلة الدعم والرقى (معجم لين وأقرب الموارد والزمخشري). راجع أيضاً النساء: ٦.

التفسير:

لقد جعل الله تعالى الحج إلى الكعبة علامة على تقدم المسلمين وازدهارهم. إنهم ما داموا يؤدون فريضة الحج فإن فضل الله تعالى يصحبهم دائما. ولكن للأسف فإن أثرياء المسلمين أصبحوا اليوم متراخين في هذه الناحية، وكان من أثر ذلك أن غادرهم مجدهم وعزهم.

والحج وسيلة دعم للناس من الناحية المادية أيضا، إذ يفد المسلمون من شتى أنحاء العالم لزيارة الكعبة، وهذا مصدر رزق لأهل مكة. لقد ترك إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام في بركة فاران بالقرب من مكة، وبدا أنهما عرضة للموت جوعا. ولكن الله ﷻ كفّل لهما الرزق في تلك الصحراء المقفرة، كما كفله لذريتهما في الأجيال التالية أيضا. (راجع سورة قريش). لكن اختزال الغرض من الوعد الإلهي باستمرار الحج في أنه مصدر رزق لأهل مكة فحسب، إنما يحد مجاله الفسيح ويضيّق مغزاه العميق. فبالأكيد لا تنحصر أهداف الحج في أهل مكة وحدهم وإنما تعم البشر جميعا. وواضح من الآية أن الحج إلى بيت الله الحرام وما فيه من شعائر وذكر لله تعالى سيستمر إلى آخر الدهر. وليس ذلك فحسب، بل وإن الدنيا ستبقى ما دام الحج مستمرا، وإن نهاية العالم ستحل عندما يتوقف الناس عن أداء هذه الشعيرة. وهذه نبوءة عظيمة حقا، فكم من أماكن عديدة في الأرض كانت مقصد الحجاج في عصرهم، ولكنها ما عادت قبلة لهم، وهجرها الناس ونسوها. ولكن الله تعالى قدّر للكعبة المشرفة أن تبقى أبد الدهر ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

التفسير:

إن القرآن المجيد يركز كثيرا على صفتي الغفران والرحمة الإلهيتين، ويقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٧). ولذلك ما أن يحذر الله تعالى قوما من عقابه في القرآن إلا ويذكرهم برحمته وغفرانه ﷻ، مبينا بذلك أن تلكما الصفتين تسبقان غيرهما من الصفات، وأنه تعالى ينتظر بادرة من الخير من جانب الإنسان كي يُبدي نحوه غفرانه ورحمته تعالى.

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاغٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥٠﴾

التفسير:

تلقي هذه الآية ضوءا على مسؤولية النبي وواجبه، إذ ينتهي واجب النبي عند حدّ تبليغ الرسالة التي كُلف بها، وهو ليس مسؤولا عن قومه إن كذبوه ورفضوا رسالته بعد أن حذرهم تحذيرا واضحا، وليس من حقه إكراههم على الإيمان. فكل رسالة إلهية إنما تهدف إلى هداية من وُجّهت إليهم، فإن ساروا على هديها وتابوا عن شرورهم وجدوا الله غفورا رحيمًا، وإن أصروا على فعل الشر، نالهم العقاب الإلهي واستبدلهم الله بقوم آخرين.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٥١﴾

التفسير:

لما كان من طبيعة الإنسان أن يتأثر بالبيئة المحيطة به فهو معرض لاتباع الآخرين وتقليدهم، وعلى الأخص عندما يكونون الأغلبية. ولذلك فالآية تحذر من التقليد الأعمى واتباع الأغلبية من دون وعي أو تفكير. إن المقياس الحق الذي يحكم على قيمة الشيء ليس بعدد من يفعلونه وإنما بما فيه من خير. ولما كان الله تعالى مصدر كل خير لذلك فإن المعيار الصحيح الذي لا يخيب، كما بينته الآية، هو تقوى الله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ
تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ
يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

التفسير:

هذه الآية الكريمة على درجة خاصة من الأهمية، إذ أنها تلقي الضوء على المبدأ الذي تقوم عليه الشريعة، أي قانون السماء. إن قواعد الشريعة الإسلامية ثلاثية المصدر: (١) القرآن (٢) السنة، أي فعل الرسول ﷺ (٣) التعاليم الواردة في أقواله ﷺ.

وتتناول هذه المصادر الثلاثة جميع القضايا الأساسية في حياة الإنسان، أما التفاصيل الجزئية فقد تركت لاجتهاد الإنسان، على أن يسترشد فيها بهذه المشاعل الهادية الثلاثة، مستعيناً بما وهبه الله من عقل وقدرات فكرية. وإلى هذه التفاصيل الصغيرة تشير الآية، فيحذر المولى ﷺ المؤمنين من تعود كثرة السؤال عن مثل تلك المسائل، إذ قد يجر ذلك عليهم من الضرر أكثر مما يجلب من النفع.

والواقع أن الله تعالى بحكمته البالغة يترك للإنسان مجالاً فسيحاً يستطيع فيه تدريب مواهبه وتنمية ملكاته في الحكم والتقدير والموازنة. فإذا ما واجه موقفاً أو ظرفاً لا يجد له إجابة أو هداية محددة مباشرة وواضحة في القرآن المجيد أو في سنة الرسول ﷺ أو في الثابت من قوله، فعليه أن يجد الطريقة للتصرف والمخرج الأنسب، محترزاً دائماً ألا يخالف القرآن أو ما ثبت وصح من سنة الرسول ﷺ من أفعال وأقوال.

فالإسلام ليس نصوصاً جامدة من القوانين، لأنه لا يضع النصوص الجامدة لتقنين التفاصيل الفرعية دائمة التغير، بل على العكس، يمنح الإسلام الأفراد مجالاً كافياً لممارسة الحكم والتقدير، واستخلاص تعليم ذي طبيعة عامة يناسب موقفاً جديداً متغيراً، ولكن المبادئ الأساسية رغم ذلك ثابتة غير متغيرة.

ولما كانت التفاصيل في تغير مستمر، حرص الإسلام على ألا يضع لها قوانين ثابتة جامدة، ونهى المسلمين عن أن يسألوا تقنياً لها. وفي قول الرسول ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة» إشارة إلى اجتهادات المسلمين لمواجهة تلك الظروف الجديدة، أي ما دام قد ترك لهم أن يرسموا طريقهم فيما يتعلق بالتفاصيل الصغيرة التي لا يوجد لها حكم محدد في الشريعة، فمن الطبيعي أن يحدث اختلاف في الرأي حولها بين علماء المسلمين، ولكن هذا الاختلاف سيكون مصدر بركة للأمة الإسلامية لأنه سيتيح الفرص لتدريب المواهب الفكرية واستثمارها، كما أنه يجعل من الشريعة عوناً مناسباً مرناً يواجه كل التفاصيل المتغيرة.

ويتضح للقارئ أيضاً أن هذه الآية الكريمة تفند زعم القائلين بأن الشريعة الإسلامية، كونها جامدة وغير قابلة للتغيير، لا تفسح مجالاً للإنسان لاستعمال فكره وحكمته، وتقيد البشرية إلى الأبد بقواعد صارمة وجامدة وبالتالي فهي تهدف إلى إعاقة التقدم الفكري للإنسان بدلاً من مساعدته.

وبعني قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبَدِّلْ لَكُمْ تَسْوُكُم﴾ أنه لو صدر نص من الله تعالى أو من الرسول ﷺ بشأن التفاصيل الثانوية، ولم يُترك للناس فرصة التصرف حيالها

وإصدار أحكامهم حسب ظروفهم ومصالحهم، لكن الأمر شاقا متعبا لهم، ولتعرش التقدم الفكري الإنساني نتيجة هذه القيود.

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾

التفسير:

إن الاستفسار الذي لا طائل منه، والسؤال عن الأمور التفصيلية والرغبة في تقنينها كان دائما مفسدة للسائلين، إذ يحد من تفكيرهم ويقلل من قدرتهم على الحكم والتمييز، ويقيدهم إلى نصوص مرهقة لا حاجة لهم بها. ولقد روى القرآن المجيد عن بني إسرائيل أنهم سألوا موسى عليه السلام عن تفصيلات لا لزوم لها، فكانت العاقبة أن خلقوا لأنفسهم صعوبات أدت بهم إلى الحيرة والارتباك، ثم انتهى بهم الأمر إلى خرق هذه الأمور الإلهية، فاستحقوا غضب الله (انظر الآية ١٠٩ من سورة البقرة).

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٤﴾

شرح الكلمات:

بَحِيرَةٍ: مشتقة من الفعل «بَحَرَ»، أي شقَّ أو قطع طويلاً. وقد أُطلق هذا الاسم عند العرب في الجاهلية على ناقة (أو عنزة) تُترك لترعى حرةً طليقة بعد أن تُشق أذنها كعلامة، وتُهدى إلى أحد الآلهة المزعومة. وكانت تُحرم على الناس: لا يُشرب لبنها، ولا يُركب ظهرها، ولا يُستخدم شيء منها، ويُتركونها دون انتفاع بها. وقد كانت

تُخَصَّ الإناث عادة بهذا التقليد، مع أن الاسم في أصله يُطلق على الذكر والأنثى. ويُذكر أن وصف «البَحِيرَة» وتفصيل أحكامها كان يختلف من قبيلة إلى أخرى.

سَائِبَة: من الفعل «سَابَ»، أي ذهب على غير هدى أو سار حيث شاء. وكانت «السائبة» في الجاهلية تُطلق على ناقة تُطلق حرة دون قيد أو استخدام، فتذهب حيث تشاء دون أن تُركب أو يُستفاد من لبنها، إلا ما ترضعه لصغارها. وكانت هذه الناقة تُعتق أو تُهمل نذرًا للآلهة المزعومة، كأن ينجو شخص من مرض شديد أو يعود سالمًا من سفر، فيقوم بإطلاق هذه الناقة تقربًا وشكرًا. وأحيانًا تُجعل الناقة سائبة إذا ولدت عشر إناث، فتترك ترعى دون أن يُركب ظهرها أو يُشرب لبنها، وكانت تُعد وقفًا للآلهة.

وَصِيلَة: مشتقة من الفعل «وَصَلَ»، أي رَبَطَ أو وَصَلَ الشيء بغيره. وقد أُطلقت هذه التسمية في الجاهلية على ناقة تُعتق وتترك ترعى دون أن يُركب ظهرها أو يُستفاد من لبنها، وذلك إذا أنجبت سبع إناث على التوالي. فإذا ولدت في المرة السابعة توأمًا ذكرًا وأنثى أعتق كلاهما.

حَامٍ: مشتقة من الفعل «حَمَى». يُقال: «أحمى الشيء» أي منعه، أو حماه، أو دافع عنه ضد التعدي أو الغزو أو الهجوم. و«حَامٍ» تُطلق على الجمل الفحل الذي يُمنع ظهره من الركوب أو تحميل الأثقال، فلا يُركب ولا يُجَزَّوَره، ويُترك طليقًا، لا يُمنع من المرعى أو من الماء. كما تُستخدم الكلمة أيضًا للدلالة على الجمل الفحل الذي لقح ولد ولده (معجم لين).

التفسير:

بعد أن أفاد القرآن الكريم بأن الأمور التفصيلية والفرعية تُترك لاجتهاد الإنسان وفق ما يراه مناسبًا، تركز الآية الحالية على أن هذه الحرية لا ينبغي أن تُمنح في المسائل الجوهرية والهامة؛ إذ إن التوافق فيها أمر حتمي، وإن الاختلاف في مثل هذه المسائل قد يؤدي إلى فتن وبلاءات جسيمة. وتقدم هذه الآية مثالًا توضح فيه أنه لا

يمكن الركون إلى العقل البشري لوضع القوانين الخاصة بالأساسيات، إذ لو وُكِّل إليه الأمر لشرع من القوانين ما يقود الإنسان إلى الدمار. فتسوق الآية نموذجاً لبعض تلك القوانين، والخطاب في الحقيقة مقصود به المسيحيين، ولكن الآية بدلاً من ذكر ما اخترعوه من شرائع تتجه بحكمة إلى بعض تقاليد الوثنيين العرب، فالمرء يسهل عليه رؤية القشة التي في عين غيره ولكن لا يرى العود الذي في عينه. وكان من عادة العرب أن يُطلقوا الدواب المذكورة في الآية تكريماً لأصنامهم. وهذه العادات، بالإضافة إلى أنها مبنيّة على عدم الإيمان والاعتقاد في الخرافات، فهي أيضاً تتسم بالسخف البالغ. فهذه الحيوانات تنطلق حاملة الفوضى والدعر حيثما حلت بين قطعان الماشية، وتُدمر حقول الزراعة والحدائق وتقتل الأطفال بلا رادع ولا رقيب. والقرآن يسوق عادة ترك هذه الحيوانات كمثال لما يسنه البشر من شرع، ويحذر المسيحيين الذين يشككون في حكمة وبركات الشريعة المنزلة. وذلك ليتعلموا درساً من التقاليد المُحطّة التي سقط فيها وثنيو العرب الذين لم يكن لهم شرع سماوي يهديهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
وَالِى الرُّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا أُولُو كَاتَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٥﴾

التفسير:

إنه لأمر عجيب حقاً أنه عندما تتقدّم العلوم والمعارف وتحقق اكتشافات واختراعات جديدة، يُسارع الناس إلى التخلي عن الأفكار والنظريات البالية التي تمسّك بها آباؤهم، ويُسارعون إلى تبني هذه الاكتشافات والاستفادة منها؛ ولكن عندما يأتيهم نبيّ بهدى جديد من عند الله، يرفضون قبوله بحجة أنه لا يوافق

معتقدات أسلافهم ولا يتماشى مع مفاهيمهم ونظرياتهم الراسخة عبر الزمن. يا له من موقف أحمق، وما أضعف هذا العذر في وجه الحقائق الإلهية! وهكذا يفضح القرآن هشاشة موقف الرافضين للحق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾

التفسير:

تخبرنا هذه الآية أن الإنسان وإن كان يضحى بمصالحه الدنيوية من أجل الآخرين إلا أنه لا يضحى بمعتقداته ومبادئه الدينية. وواجبنا في المسائل الدينية أن نبين للناس طريق الحق فحسب، وأن نخثهم على اتباعه، ولكن لا ينبغي علينا أن نهلك أو نظلم أنفسنا من أجلهم. فإزهاق أرواحنا في محاولة لإنقاذ الآخرين لن يجدينا نفعاً ولن ينفع البشرية كذلك. إن التضحية بالجسد ممكنة، أما التضحية بالروح فكلًا. لقد هجر المسيحيون بعض المبادئ الأساسية في دينهم على أمل أن يكسبوا إلى المسيحية أعداداً من الأمم الأخرى. ولكنهم بفعلتهم هذه أضاعوا الحق وأبرموا صفقة خاسرة.

هذا وينبغي ألا تفهم الآية على أنها نهي عن تبليغ الحق إلى الآخرين، وحض على حصر اهتمامنا في خلاص أنفسنا، وألا نفكر في غيرنا أو نعبأ بهم. كلا، فالواقع إن القرآن المجيد يفرض على كل مسلم أن يبذل قصارى جهده ليري غيره الحق، ذلك لأن نشر الحق واجب علينا أولاً. وثانياً لأنه لا يمكننا أن نخلص أنفسنا خلاصاً حقيقياً ما لم نعمل على خلاص من نعيش بينهم. فالآية تعني إذن أن واجبنا يقتصر على دعوة الآخرين إلى الحق. فإن قبلوه فيها ونعمت، وإذا رفضوا الخروج عن طريق الشر رغم

كل جهودنا في بيان الحق وتبليغه، فإنّ رفضهم هذا لن يضرنا شيئاً. لكن لا ينبغي لنا بأي حال من الأحوال التنازل عن مبادئنا لكسب الآخرين إلى طريقنا ومنهجنا إذ أن هذا يعني أن نهلك أنفسنا لإنقاذ الآخرين.

وقد ورد عن الرسول ﷺ حديث يفسر هذه الآية ومفاده أن واجبنا تبليغ الحق تحت أي ظرف، فإذا أصر المدعو على اتباع ميوله الشريرة وأعرض عن الاستماع، فإنّ مسؤوليتنا تنتهي عند هذا الحد، ولن نضار بأفعاله الشريرة ما دمنا متمسكين بالحق. (الترمذي، كتاب التفسير).

ويمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أنكم إذا بلّغتم الدعوة على الوجه الصحيح، وبذلتم جهدكم في اختيار السبيل الأنسب للتواصل مع المدعو، لكنه رفض بعد ذلك الحق، فإنّ ضلاله لن يضركم شيئاً ولن تتحملوا وزره. وفي هذه الحالة فإنّ قوله تعالى: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يعني: إذا وفقتم إلى الطريقة السليمة للدعوة والتبليغ، وبذلتم الجهد المناسب لذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ
ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ
تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ
ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا
نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٥٧﴾

التفسير:

راجع تفسير الآية رقم ١٠٩

فَإِنْ عُرِّرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَآخَرَابِ
يَقُومَاتِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْأُولَيَاتِ فَيقْسِمَاتِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ
شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

أُولَيَاتٍ: مشتقة من الفعل «وَلِيَ»، وتُستخدم للدلالة على الشخصين الأجدرا أو الأحق أو الأكثر أهلية واستحقاقاً للقيام بأمر ما (معجم لين) راجع أيضا النساء: ١٣٦.

استحقا إثماً واستحق عليهما: استحق مشتق من «حق» أي وافق الحكمة والعدل والصواب والصدق؛ ما ثبت صدقه؛ الصحيح؛ الصواب؛ المناسب؛ الملائم؛ الموافق. «استحقه»: طالبه بحقه؛ له حق عليه؛ اكتسبه أو ناله. يقال «استحق إثماً» أذنب ذنباً استوجب به عقوبة. «استحق عليهم»: أي ضدهم؛ لأن حرف «على» يعني أحياناً «ضد». «استحقها على المشتري»: أي له حق يفضل به المشتري، أي أنه أولى بها من المشتري. وقوله تعالى: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ يعني أن الشاهدين اللذين كانا أقدر على تقديم الشهادة الصادقة قدما شهادة باطلة ضد حقهما العادل سعياً لحرمان ورثة الميت من حقوقهم من خلال أداء الشهادة الباطلة ضدهما.

التفسير:

راجع تفسير الآية رقم ١٠٩ التالية.

ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ
يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٩﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿تُرَدُّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: ١- يعاد الحلف بعد حلفهم ٢- تُرفض أيمانهم بعد أن يحلف الشاهدان الآخرين، والمغزى واحد عمليا في الحالتين، أي ترد شهادة الأولين ويُستدعى الثانيان للشهادة.

والهدف من هذه الآيات الثلاث أنه إذا أراد شخص أن يكتب وصيته عند اقتراب أجله، فيجب أن يُشهد عليها اثنين من أهل العدل كي يشهدوا على صحة وصيته بعد موته. ولكن إذا جاءه الموت فجأة وهو في سفر بعيد عن وطنه وأهله، وليس هناك من مسلم ليشهد، فيجوز له أن يُشهد رجلين من أهل الثقة من غير المسلمين. ولكن إذا ارتاب الورثة في شهادتهما وطعنوا فيها فيمكن توثيق الشهادة وإثبات صدق الشاهدين بأن يحلفا على صدقهما بعد أداء الصلاة، ولكن إذا رأى الوارث أو الورثة لأسباب قوية عندهم أن الشاهدين قد شهدا زورا، فيمكن لهم أن يحلفوا بأن شهادتهم أحق من شهادتهما. وفي هذه الحالة يحكم القاضي، إذا اقتنع بما سمع، في صالح الورثة.

وهناك واقعة يُروى أنها حدثت على عهد الرسول ﷺ تلقي الضوء على هذه الآيات. إذ مات أحد المسلمين بعيدا عن وطنه، وكان قد سلّم بضاعته لرجلين قبل وفاته، وطلب منهما أن يسلمها إلى ورثته بالمدينة. وعندما تسلم الورثة البضاعة تفقدا إناء من الفضة فلم يجدها، فسألوا الشاهدين فأنكرا معرفتهما بشيء عنه، وأقسما على ذلك. وحدث بعد ذلك أن رأى بعض الورثة الإناء الفضي مع شخص في مكة، فأخبرهم بأنه اشتراه من الرجلين اللذين تسلما البضاعة من المتوفى. فاستُدعي

الرجلان، وأقسم ورثة المتوفى في حضورهما على أن الإناء الفضي لهما، وعندها استردّاه (الدر المنثور).

وكلمة «الصَّلَاة» في قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ المذكور في الآية ١٠٧ قد تعني أي صلاة، ولكن الأرجح أنها تشير إلى صلاة العصر. وذلك لأن الرسول ﷺ استدعى الشاهدين المذكورين في الواقعة السابقة والمتهمين باختلاس الفضة للمثول أمامه بعد صلاة العصر. ولقد اختير الوقت ليكون بعد الصلاة بهدف إلهام الشاهد الإحساس بالتقوى، وخشية الله تعالى، والميل النفسي نحو الصدق. وإذا كان الشاهد من غير المسلمين، فيُستدعى للقسم والشهادة بعد أداء صلاته حسب ملته، لعل جلال المناسبة يجعله يميل إلى الصدق، ذلك لأن لعبادة الله تعالى تأثير مطهر على الفكر الإنساني، والمرء الذي خرج من صلاته لتوه يُتوقع منه خوف الله تعالى وقول الحق.

وكلمة «الأُولَيَانِ» في الآية ١٠٨ مُثنى أولى وتعني الأجدر والأحق. وتشير الكلمة إلى الشاهدين الأولين، وتدل على أنهما كانا في موقف أفضل لتقديم البيان الصادق الحق، لأنهما اللذان صاحبا المتوفى وحضرا وصيته وعُهد إليهما بتسليم الأمانة إلى الورثة. ويفيد التعبير أيضا معنى اللوم والتقريع لهما، إذ أنهما على الرغم من موقفهما الذي يتيح لهما بيان الحق تعثرا وانحرفا عن طريقه.

وينبغي أن يكون الشاهدان الآخران من بين ورثة المتوفى الذين حُرّموا من حقهم بسبب شهادة الزور على وصيته.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا
لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٠﴾

التفسير:

يتضمن قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا بِإِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ توصية مبطنة وتمجيد لله تعالى، فكأن النبيين يقولون: حقا لقد كفرت بنا أقوامنا ولكنك العليم بكل الأسرار، فلم نكن ندري ما يجول بأذهانهم، وما تنطوي عليه صدورهم، وهل كان كفرهم بنا نابعا من أعماق قلوبهم أم أظهروا الكفر خشية الآخرين. إن الأمر إذن موكل إليك لتحكم على حقيقة مسلكهم وما يستحقونه من معاملة نتيجة لذلك.

ويبدو أن هذه التوصية تتعارض مع قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤٢). وبدراسة الآيتين ينكشف لنا أن المناسبتين مختلفتان. فالقول الأول يقوله الأنبياء في بادئ الأمر عندما يسألهم المولى ﷺ بصفة عامة، وتقديم الشهادة يأتي بعد ذلك عندما يستدعي الله تعالى رسله لتقديم الشهادة عن مكذبيهم. وهكذا فليس ثمة تعارض بينهما. وجواب الأنبياء منسجم أيضا مع هيبة الله تعالى، وينطوي على تمجيد للمولى عز وجل. فالله يعلم تماما ماذا كان جواب الناس للرسول، ومع هذا، فلسوف يسألهم المولى كما لو كان تعالى لا يعرف شيئا عن الأمر. وهنا يبادر الأنبياء إلى إزالة هذا الوهم ونفي عدم المعرفة عن المولى ﷺ، فيكون من المناسب واللائق أن يجيبوا: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

ويتضمن جواب الأنبياء أن الغرض من سؤال الله تعالى لم يكن لاستدراخ الخبر منهم أو لإكمال معلوماته. كلا، فالواقع أن هناك غرضا آخر وراء هذا السؤال، ألا وهو تقديم شهادتهم ضد مكذبيهم، كما هو جلي من الآية ٤٢ في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، وعندئذ ينفذون الأمر الإلهي الوارد في الآية.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ
تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ
فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي
وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٧١﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ يعني التكلم بما يدل على الحكمة والورع في سن الطفولة. وهذا النوع من الكلام يعكس عظيم منزلة أمه، فهي قد أنجبت وربّت طفلاً حكيماً تقيّاً، لأنها نفسها حكيمة تقيّة. والكلام الطيّب في الكهولة لا يقتصر على بيان صلاح أمه، وإنما يكشف صلاح عيسى عليه السلام نفسه، إذ داوم على قول الحكمة والورع بعد أن بلغ منتصف العمر، وتحرر من التأثير المباشر لأمه. وفي سورة آل عمران (٤٧، ٤٩، ٥٠) آيات تشير إلى أعمال مشابهة لعيسى عليه السلام كخلق الطير وإحياء الموتى إلخ، وقد سبق بيانها وشرحها.

وهناك ذكر لحماية مشابهة لما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ وعَدَّ الله تعالى بها النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

(المائدة: ٦٨)، ولقد تحقق هذا الوعد تحققا جليا، فقد كانت حياة الرسول ﷺ معرضة للخطر بصفة مستمرة، وزاد تعرضه للخطر أكثر وأكثر في المدينة. وقد قام الرسول الكريم ﷺ بقيادة الكثير من الغزوات بنفسه، وكان أعداؤه حريصين على النيل منه، وفي يوم أُحُد أصيب بجرح بالغ، ويوم حُنين ترك وحده بين رماة الأعداء المتعطشين إلى الدم، ومع ذلك بقي سالما، وبعد أن أكمل انتصاره على أعدائه وافاه أجله ومضى بسلام إلى بارئه وهو في بيته وبين أهله في المدينة. والإشارة في الآية تعود إلى محاولات اليهود قتل عيسى عليه السلام على الصليب، وهذه ميتة لعينة أنجاه الله تعالى منها. فلا ينبغي أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ أن عيسى عليه السلام لم يتعرض للتعذيب على يد أعدائه، فالقرآن المجيد يستخدم تعبيرا مماثلا بشأن المسلمين الأوائل (الآية ١٢)، ومن الحقائق المعلومة للجميع أنهم لاقوا منهم ابتلاءات ومحن مؤسفة. والمراد من العبارة لم يكن سوى الإفادة بأن أعداء عيسى عليه السلام فشلوا في قتله، وأن الله تعالى كفّل له النجاة من الهلاك على أيديهم.

وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِ
وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾

شرح الكلمات:

أُوحِيَ: لا يعني هذا الفعل دائما الكلام والمشافهة، وإنما قد يراد به أحيانا الإيحاء أو إلهام شخص بفكرة، وبهذا المعنى استخدمت الكلمة هنا في هذه الآية. كما استعملت أيضاً بشأن النحل (النحل: ٦٩).

الخَوَارِجُونَ: راجع آل عمران الآية ٥٣.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾

التفسير:

يتبين من قوله تعالى: ﴿يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أن الحواريين لم يسألوا عيسى عليه السلام وجبة واحدة من الطعام، وإنما طلبوا مدداً دائماً من المؤونة يأتيهم من دون مشقة أو مصاعب. و﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ تنطوي على اتصاف الشيء المنزل باليسر والدوام والضمان.

قَالُوا نُزِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾

التفسير:

ذكر الحواريون في الآية أربعة أمور تتحقق عند استجابة مطلبهم: (١) أن يأكلوا من المائدة ويُسبِعُوا جوعهم. (٢) أن تطمئن قلوبهم، وهذا أيضاً يبين أنهم رغبوا في مدد دائم من المؤونة، لأن الوجبة الواحدة لا يمكن أن تطمئن قلوبهم، وتزيل قلقهم بشأن حياتهم المستقبلية حتى يتمكنوا من تبليغ رسالة الله تعالى وقد تحققوا من كل هم، فيكْرَسُوا كل جهدهم في خدمة دينهم. (٣) أن تتحقق نبوءة المسيح عليه السلام الواردة في الآية ٥٠ من سورة آل عمران. (٤) أن يكونوا شهداء على استجابة دعائه وصدق دينهم، وليعلم الناس أن الله تعالى يؤازر ويفضل من أخلصوا في خدمة دينه.

ويكشف تاريخ الكنيسة المسيحية في فجر نشأتها أن الله تعالى قد كفل لهم بالفعل زادا غير عادي لإعالة الذين تفرغوا لمخلصين لنشر رسالة المسيح ﷺ. بل اليوم، وقد انحرف المسيحيون بعيدا عن الحق، لا يزالون يستمتعون بمائدة عامرة بما لَدَّ وطاب.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا
وآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾

التفسير:

يتضح من الآية الكريمة أن المسيح ﷺ وافق على رغبة حوارييه، ولذلك عندما توجه إلى الله تعالى بالدعاء أدخل نفسه بينهم.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ نبوءة عظيمة، تشير إلى فترتين من الازدهار والتقدم للأمة المسيحية كما يفهم من لفظة «عيد» التي تعني «اليوم الذي يعود». وقد كانت الفترة الأولى بعد المسيح ﷺ مباشرة، وقُدِّرَ للثانية أن تكون في آخر الزمان، والفاصل بينهما يتسم بالانحلال والانحطاط. وهذا بالضبط ما يشير إليه بوضوح قوله تعالى: ﴿أَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾. ولقد منح الله تعالى الشعوب المسيحية كثيرا من الخيرات الدنيوية في العصور الأولى، قبل نهضة الإسلام. وكذلك الآن، بعد اضمحلال الإسلام، نالوا من الرخاء والعظمة المادية ما ليس له نظير في تاريخ أي دين آخر. ولكن بنزول مثيل عيسى ﷺ في شخص أحمد المسيح الموعود ﷺ في الإسلام، قاربت شمس «آخر المسيحيين» على الأفول، وليس بوسعهم اليوم أن يخلصوا أنفسهم إلا إذا أظهروا اهتمامهم بأمر الذي جاء بروح سيدهم وسلطانته.

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ
الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾

التفسير:

وتبين هذه الآية بوضوح أن «المائدة» لا تعني وجبة طعام تنزل عليهم فعلا من السماء، لأن مثل هذه المعجزة لم تحدث قط، فمن المحال أن يكفر من يشهد هذه الظاهرة العجيبة، ويرى بعينه سماءاً ممدوداً حافلاً بالأطعمة نازلاً من السماء. والعقاب المشار إليه هو نفسه الوارد في (مريم: ٩١) ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

ولقد كفر المسيحيون فعلا بعد ذلك، وظهرت بوادر العقاب الذي أُنذروا به، ولقد كانت الحرب العالمية الأخيرة وردود الفعل الناجمة عنها تمثل مرحلة من مراحل تحقق تلك النبوءة، والله تعالى يعلم ما حكم به على المسيحيين وما ينتظرهم من عذاب رهيب في قابل أيامهم مصداقا للنبوءة العظيمة.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالَ سُبْحَانِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا
لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾

شرح الكلمات:

قول المسيح عليه السلام: «مَا يَكُونُ لِي» يمكن فهمه على عدة أوجه مثل: لا يليق مني أو لا يصح مني فعل ذلك؛ لا يناسبني ولا ينبغي لي؛ أو هذا فوق سلطاني ومركزي؛ أو هذا مستحيل عليّ، أو لا حق لي في ذلك.. إلخ. راجع آل عمران: ٨٠.

نَفْس: تعني من بين ما تعني: المعرفة؛ الغرض؛ القصد؛ الرأي (معجم لين) راجع آل عمران: ٢٩.

التفسير:

تلمح كلمة «سُبْحَانَكَ» التي جاءت على لسان المسيح عليه السلام إلى أن الله تعالى وحده هو المُنَزَّه عن النقائص والأخطاء، كما تتضمن أيضا إجابة جميلة منه تناسب السؤال الموجه إليه في قول الله تعالى: «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، والذي يبدو كما لو كان نوعا من اللوم وتعبيرا عن عدم الرضا. وكأن جواب عيسى عليه السلام يقول: لقد كنت يا رب مجرد رسولك المتواضع، فلا يمكن لي أن أسأل الناس تأليهي وأمي من دونك، لأن ذلك لو حدث مني لكان معناه أنك يا رب لم تختَر الرسول الصادق الذي يدعو الناس إلى الحق، وإنما اخترت رسولا ينقلب ليكون عديم الإيمان ويدعو الناس إلى الإشراف بك، ولكن اختيارك يا رب لا يمكن أن يخطئ، ومن ثم فمن المستحيل عليّ إذن، وأنا رسولك، أن آمر الناس بغير ما أمرتني به من توحيد ألوهيتك، وإن علمك المحيط بكل شيء شاهد لي على براءتي.

ولفظ (نفس) عندما ترد بالنسبة لله تعالى فإنها تعني قصده، فالبارة الأخيرة من الآية إذن تعني: إني لم أعلم ما عنيته بسؤالك، فأنت العليم الذي يعلم أنني لم أقل ذلك، ومن ثم فإني لا أفهم الغرض أو الهدف من سؤالك. وهذه الإجابة من عيسى عليه السلام تبين أنه في قرارة فؤاده يشعر بالخشية من أن يكون هناك أي تقصير في أدائه لواجبه، مما يعرضه لعدم الرضا من جانب الله العزيز.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ
رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ
فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾

شرح الكلمات:

تَوَفَّيْتَنِي: أي أمتني. راجع البقرة: ٢٣٥، آل عمران: ٥٦.

التفسير:

للاطلاع على ما يؤكد الجملة الأولى من الآية، أي تعاليم المسيح الخاصة بعبادة الله تعالى وحده، يمكن الرجوع إلى إنجيل متى ٤: ١٠ وإنجيل لوقا ٤: ٨. والجزء الأخير من الآية يقودنا إلى إثبات أمرين: (١) أن عيسى عليه السلام ميت وليس حياً كما يظن غالبية المسلمين اليوم. (٢) أنه لن يعود إلى الدنيا مرة ثانية بشخصه. وهذا الاستدلال لا تشوبه شائبة من شك، فمن الآية يتضح أنه لم يكن هناك فاصل زمني بين حياة عيسى عليه السلام على الأرض وبين وفاته. لو كان حياً لراقب أتباعه ورعاهم بحيث لا يحيدون عن الصواب. أما وإنه لا يدري ما صدر منهم بعد موته؛ فمن هذا يتبين:

أولاً: أن عيسى عليه السلام فارق قومه بالموت وليس بالرفع المزعوم إلى السماء.

ثانياً: أن قومه ألهوه بعد وفاته فقط.

والآن، ولأن أتباعه قد ضلوا فعلاً، فيلزم أن يكون عيسى عليه السلام قد مات، لأن الآية تشير إلى أنهم ما عبدوه إلا بعد وفاته.

وبالمثل، فإنّ حديث عيسى عليه السلام، معبرا عن جهله بما صدر عن أتباعه من تأليهه وأمه، يثبت أنه لن يعود إلى الدنيا. ذلك لأنه لو كان راجعا إلى الدنيا لرأى بعينه فساد أتباعه، وما كان بوسعه أن يعبر عن جهله بمسألة تأليهه التي يعتقدونها إلى اليوم، وفي مثل هذه الحالة يُعتبر جواب عيسى عليه السلام من قبيل الكذب الفعلي. وهكذا فإنّ الآية تثبت بوضوح وحسم أن عيسى عليه السلام ميّت ولن يعود إلى الدنيا أبدا. ولمزيد من النقاش حول مسألة وفاة عيسى عليه السلام ونفي صعوده إلى السماء بجسده راجع آل عمران: ٥٦، النساء: ١٥٩.

إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٩﴾

التفسير:

تعبر هذه الآية عن التماس مثير للشفقة يرفعه عيسى عليه السلام إلى مولاه تعالى لصالح أتباعه، وفي الآية التالية الرد الإلهي على هذا الرجاء.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ إلى يوم الحساب، وهذا يبين أن السؤال الموجه إلى عيسى عليه السلام في الآية ١١٧ السابقة يكون يوم الحساب، أي بعد عودته المفترضة إلى الأرض، كما يعتقد الذين يؤمنون بصعوده ثم نزوله من السماء. وكلمة ﴿الصَّادِقِينَ﴾ تومئ إلى عدم ظهور صدق أتباع عيسى عليه السلام، ومن ثم فليس لهم رجاء في الانتفاع من الرحمة الإلهية. والآية تشير حقا إلى المسلمين الذين صدقوا في اتباع تعاليم نبيهم، وآمنوا كما علّمهم أن يؤمنوا، وعملوا كما علّمهم أن يعملوا، وكانوا صادقين مع ربهم ﷺ.

ويمكن أن يكون في الكلمة إشارة إلى المسيح الموعود، أحمد عليه السلام، الذي أقامه الله تعالى مثيلا لعيسى عليه السلام. وفي هذه الحالة كأن الله تعالى يقول: لقد أرسلنا مسيحين، انحرف أتباع أحدهما بعيدا عن تعاليمه وألهوه وعبدوه وأشركوه مع الله تعالى، ولكن أتباع الثاني صدقوا في اتباعهم لتعاليمه، ومن ثم فإن الصادقين وحدهم هم المستفيدون من صدقهم.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢١﴾

التفسير:

تقدم الآية التهمة المناسبة لسورة تناولت أخطاء الأمة المسيحية فكشفتها وهدمتها. وفي الآية إعلان مستتر بأن المسيحيين سيكونون مثلا سيئا من ناحية العقيدة والعمل،

ولذلك فإنّ مجدهم إلى زوال، ولسوف يتحوّل ملكوت الله إلى أولئك الذين هم
أجدر به وأكثر استحقاقا.



(٦)

﴿سورة الأنعام﴾

(مكية)

اسم السورة وزمن نزولها:

هذه السورة من السور المكية. وقد نزلت -وفقاً لمعظم الروايات- كاملة دفعةً واحدة؛ وورد عن بعض المحدثين أن سبعين ألف ملك قاموا بحراستها عند نزولها، مما يدل على عظم شأنها بين سور القرآن الكريم، وعلى العناية الخاصة التي أحيط بها موضوعها. ويرجح أن يكون سبب تسميتها بهذا الاسم ما ورد في الآيات (١٣٧-١٣٩)، حيث ذُكرت الأنعام (أي المواشي) بوصفها من الأسباب الرئيسة المؤدية إلى الشرك. وبين القرآن المجيد في موضع آخر أن الشرك يهوي بأهله إلى دركٍ سحيق، فيجعلهم كالأنعام، بل أدنى منزلة منها، يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥).

موضوع السورة:

تتناول هذه السورة الموضوع بأسلوب يختلف عما ورد في السور السابقة، إذ تتضمن دحضاً لعقائد الديانات الأخرى التي لم تُنزل على بني إسرائيل. وتبدأ بتفنيد العقيدة الزرادشتية التي تؤمن بثنائية الألوهية، أي بوجود إلهين منفصلين: أحدهما للخير والآخر للشر. ويبيّن القرآن الكريم بطلان هذه العقيدة موضحاً أن قوى الخير والشر إنما هما في الحقيقة حلقتان في سلسلة واحدة، لا تكتمل إحداهما بدون الأخرى، ومن ثم لا يمكن القول إنهما مخلوقتان لإلهين مختلفين. فالنور والظلام كلاهما في الواقع من

خلق إله واحد، وبدلاً من أن يشير إلى ثنائية الألوهية، فإنهما يشكلان برهاناً قوياً على وحدانية الله، كما أن لهما صلة وثيقة بخلق الإنسان وقواه الطبيعية وملكاته الفطرية.

وتمضي السورة في مناقشة موضوع بالغ الأهمية، وهو أن الشر ينشأ من سوء استعمال القوى التي وهبها الله تعالى للإنسان؛ فكلما أساء الناس استخدامها، بعث الله تعالى إليهم نبياً ليعلّمهم استعمالها على النحو الصحيح. غير أنّ هذا النبي، بدلاً من أن يُستقبل بالسمع والصبر والاحترام، يُواجه بالاستهزاء والازدراء، على الرغم من أن هذا الاستهزاء قد جرّ دائماً العواقب الوخيمة.

ثم في الركوع الثاني^١ (الآيات ١٢ إلى ٢١) تتحدث السورة عن أن تأخير إنزال العقاب الإلهي على الكافرين غالباً ما يجعلهم أكثر جسارة، مع أن هذا التأخير يكون دوماً من رحمة الله تعالى وليس لعجزه سبحانه عن محاسبتهم متى وكيف يشاء. ثم تمضي السورة فتقول إن الاضطهاد الشديد الذي يتعرض له الرسول ﷺ وأتباعه لن يفلح أبداً في إضعاف صلتهم بالله تعالى، لأن إيمانهم قائم على الإدراك الحقيقي للصفات الإلهية وهم يبلّغونها للآخرين من خلال الآيات التي يُظهرها الله تعالى على أيديهم. وفي ضوء هذه الآيات، كيف يمكن لمن أنعم الله عليهم بنعمة البصر اتباع أولئك المحرومين منها؟.

وفي الركوع الثالث (الآيات ٢٢ إلى ٣١) تبين السورة أن على الكافرين ألا يقلقوا بشأن صدق النبي المبعوث أو كذبه، لأن الله تعالى قد تكفل بنفسه بالقضاء على كل مدّع كاذب للنبوّة. والحقيقة التي لا مرأى فيها أنّ إيمان المؤمنين بالله تعالى ثابت لا يتزعزع، بينما لا يتردد الكافرون بالتبرؤ من معتقداتهم الشركية كلما أصابهم سوء. ويزداد موقفهم عبثاً حين يقولون للنبي إنهم لا يستطيعون التخلي عن عاداتهم وتقاليدهم الموروثة عن آبائهم، ثم يتعللون في الوقت نفسه برفض الأنبياء بحجة أنهم ليسوا إلا مقلدين لأبائهم

١. تقسم السور إلى ركوعات في مصاحف شبه القارة الهندية، والركوع عبارة عن عدة آيات تستحسن قراءتها في الركعة الواحدة، وعلامة الركوع حرف (ع) يوضع على حاشيتي المصحف اليمنى واليسرى (الناشر).

وأجدادهم. غير أنهم يغفلون عن المنطق البديهي القائل بأن الشرك إن كان ناشئاً عن تقليد الآباء، فلا يمكن أن يكون الإيمان بالتوحيد نتيجةً لتقليد مماثل.

وفي الركوع الرابع (الآيات ٣٢ إلى ٤٢) تُبيّن السورة أن عدم التدبّر ينشأ إمّا من إنكار الحياة بعد الموت، أو من العجز عن إقامة علاقة حقيقية بالله ﷻ. وهذا الإنكار يجعل الكافر أكثر جرأة في رفض الحق. ومع ذلك، تنصح السورة المؤمنين ألا ينزعجوا من تصرف الكفار، لأن جميع أنبياء الله تعالى قد قوبلوا بالمعاملة نفسها. فمعارضة الكفار للأنبياء أمر طبيعي، إذ إن الذين يرجون الله هم وحدهم الذين تربطهم علاقة فطرية بالأمور الروحانية، أما الذين أصابهم الصمم الروحي فلا قدرة لهم على سماع صوت الله ﷻ. إنهم يشهدون الآية تلو الأخرى، لكنهم يكذبونها ويرفضونها مراراً، ويكررون العبارات نفسها كالبغاوات مدّعين أنهم لم يروا أية آية. وتوجّه السورة إليهم تحذيراً صارماً بأنه لم يبقَ لهم سوى آية واحدة، هي آية العقاب الذي سيحلّ بهم، وحينئذ سينسون كل ما كانوا يتبجحون به من إنكار للحق.

وتبيّن السورة في الركوع الخامس (الآيات ٤٣ إلى ٥١) أن الكافرين قد سلكوا الأسلوب نفسه في زمن الأنبياء السابقين حتى نزل بهم العذاب الإلهي. غير أن الله ﷻ لا يجعل بإنزال العقاب، فقد أمهل الكافرين من قبل، وهو يمهلهم الآن أيضاً. فرسل الله تعالى مبشّرون ومنذرون، يسعون أولاً إلى هداية الناس بالتبشير، ولا يُفعل جانب الإنذار إلا حين يُغلق الكافرون على أنفسهم باب الهداية عمداً.

وتستمر السورة فتيّن في الركوع السادس (الآيات ٥٢ إلى ٥٦) أن الذين امتلأت قلوبهم بتقوى الله تعالى هم وحدهم القادرون على قبول الحق. ومن ثمّ توجّه السورة أنظار الرسول ﷺ إلى هؤلاء، وتحتّه على أن يخصّصهم بدعوته. أمّا الآخرون، فلا بد من غرس تقوى الله ومخافته في قلوبهم أولاً حتى ينتفعوا بالحجج والبراهين العقلية. وإلى جانب ذلك، تؤكد السورة أن من أهم عوامل تقدم الإسلام العناية البالغة بالتربية الروحانية للمؤمنين من أغنياء وفقراء على حد سواء، إذ إن النبي - لكونه بشراً - لا بد أن يغادر

الدنيا حين يحين أجله، ولن يبقى حينئذٍ إلا جماعة المؤمنين التي ستتولى حمل لواء الدعوة وتبليغ الرسالة الإلهية.

وفي الركوعين السابع والثامن (الآيات ٥٧ إلى ٧١) وُجِّه النبي ﷺ ليقول للكافرين إن من حماقة أن يعيبوا عليه لمجرد أن العذاب الموعود لا يحلّ بهم سريعاً، فتنزّل العقاب ليس من شؤونه، بل هو بيد الله ﷻ وحده، يُنزله متى يشاء وبالطريقة التي يراها مناسبة. ثم تبين السورة أن من يتولى إنزال العقاب لا بد أن يكون عالماً بالغيب، عارفاً بمستقبل الإنسان؛ إذ قد يُعاقب شخص اليوم لعداوته للحق، بينما قد يكون مكتوباً له في علم الله أن يُحدث في نفسه إصلاحاً صادقاً غداً. ولهذا فإن التعجيل بالعقاب أو تأخير أمره يختص به الله وحده.

وفي ختام الركوع تذكر السورة أنه ما دام الله ﷻ وحده عالم الغيب، فليس من الحكمة الامتناع عن دعوة من يبدو اليوم عدواً للحق، فقد يكون في علم الله الواسع أن هذا الشخص نفسه سيقبل الحق في وقتٍ لاحقٍ من المستقبل.

وينكشف في الركوع التاسع من السورة (الآيات ٧٢ إلى ٨٣) بطلان عقائد الشرك، من خلال محاجة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه، حيث ورد ذكره في هذا الركوع بشيء من التفصيل. ثم يبين الركوعان التاليان (الآيات ٨٤ إلى ٩٥) أن الله تعالى بارك في إبراهيم عليه السلام ونسله، لإيمانهم بوحداية الله تعالى، وجهادهم الكبير في تأصيل دعوة التوحيد في الأرض.

ثم نخبرنا الركوع الثاني عشر (الآيات ٩٦ إلى ١٠١) أن مهمة الأنبياء لا تخيب ولا تفشل أبداً، فهي مثل الأمطار التي تهطل على الأرض القاحلة روحياً فتذهبها النضارة والخضرة والحياة.

ويتناول الركوع الثالث عشر (الآيات ١٠٢ إلى ١١١) موضوعاً بالغ الأهمية، وهو أن المرء لا يمكنه الوصول إلى معرفة الله تعالى معرفة حقيقية إلا إذا أخبر ﷻ بذلك بنفسه، ولذلك كان لا بد من ظهور الأنبياء بين الحين والآخر، لأن الله تعالى يتجلى للناس من

خلالهم، فيعرفونه بواسطتهم. ورغم أن عقائد المشركين فاسدة وباطلة، إلا أن القرآن الكريم يوجه المؤمنين بأنهم إذا تحاوروا معهم في أمور عقائدهم فعليهم الحرص على ألا يجرحوا مشاعرهم أو يستهزئوا بمقدساتهم.

وتبين السورة في الركوع الرابع عشر (الآيات ١١٢ إلى ١٢٢) أن الوصول إلى الإيمان الحقيقي لا يتحقق إلا إذا صاحبه تغيير شامل في صفاء القلب. فبدون هذا التغيير لا تُجدي الآيات والبراهين. وقد ذكرت في هذا الصدد بعض الاعتراضات التي يثيرها الكفار والردود عليها. ويستمر هذا الموضوع في الركوعات التالية حتى الركوع الثامن عشر (الآيات ١٢٣ إلى ١٥١)، وتلفت السورة انتباه المؤمنين إلى المزيد من الاعتراضات السخيفة التي يثيرها الكافرون. ثم يقدم الركوع التاسع عشر (الآيات ١٥٢ إلى ١٥٥) مقارنة بين التعاليم الإسلامية القائمة على الحجة والعدل، وعقائد ووممارسات المشركين التي تفتقر إلى العقل والبرهان. ولهذا تلفت السورة أنظار المشركين إلى أنه في ضوء هذا التباين لا يمكنهم منطقياً إنكار ضرورة نزول الوحي الإلهي.

وفي الركوع الأخير (الآيات ١٥٦ إلى ١٦٦) تُبين السورة أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم ليرفع ويكرم حتى تلك الأقوام التي لم تُعط كتاباً سماوياً من قبل، كي لا يشعروا بأنهم أقل شأنًا أو أدنى مقاماً من أهل الكتاب. فخلافاً للشرائع السابقة والرسالات الأولى التي خُصّت بكل قوم على حدة، جاءت رسالة القرآن الكريم لتكون للناس كافة، ومن أجل أن تقيم سلاماً حقيقياً ودائماً بين مختلف فئات المجتمع الإنساني، وفي الوقت نفسه بين الإنسان وخالقه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

التفسير:

انظر تفسير البسمة في سورة الفاتحة.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

جَعَلَ: تستخدم أحيانا كمرادف لكلمة «خَلَقَ»؛ ولكن تأتي «خلق» بمعنى إيجاد الشيء بعد تسويته وتعديله. أما «جعل» فتأتي بمعنى صنع الشيء بهيئة أو شرط معين؛ أو لهدف محدد.

التفسير:

إن عقيدة نَسَب الشركاء لله ﷻ تقوم على أساس نظريتين مختلفتين. فهناك فئة من الناس تعتقد أن الله تعالى قد فوض بعض قواه الخاصة إلى مخلوقات معينة، وأبرز من يمثل هذه الفئة هم الهندوس. وهناك فئة أخرى تنسب الشركاء لله تعالى بزعم أن الشر لا يمكن أن يصدر عن الله ﷻ، ولا بد أن يكون له مصدر آخر، ولذلك اتخذ أتباعها إلهاً آخر يرون أنه مصدر الشر والظلام. ويمثل الزرادشتيون هذه الفئة، إذ يؤمنون بوجود إله للشر أو الظلام يسمى «أهريمان»، ويعتبرونه مساوياً للخالق «أهورامزدا» الذي هو عندهم إله الخير والنور. وتدحض هذه الآية كلتا هاتين العقيدتين.

وفند القرآن الكريم ادعاءات الفئة الأولى بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فإذا كان الله قد خلق كل شيء، وهو القادر على كل شيء، وله الحمد والثناء كله، فما حاجته إلى أن يوكل جزءاً من عمله إلى غيره؟ إنما يوكل المرء عمله إلى غيره عندما يعجز عن إنجازه بمفرده، أو عندما يرغب في قضاء وقته خاملاً، وهذا قدحٌ في حد ذاته. أما الله ﷻ، فهو منزّه عن ذلك كله، ولا يحتاج إلى نقل قواه

إلى غيره. كما تُفند هذه الكلمات عقيدة التثليث المسيحية؛ إذ لو كانت هذه الأفانيم الثلاثة متساوية في القدرة، وكان كل واحد منها يستحق الحمد الكامل على حدة، فما الحاجة إذن إلى الأقنومين الآخرين؟ وعلى العكس، إذا كان العمل لا يتم إلا باجتماع الثلاثة معاً، وكان كل واحد منها عاجزاً عن القيام به منفرداً، فإن مثل هذا الإله لا يكون جديراً بالحمد كله.

وفند القرآن الكريم عقيدة الفئة الثانية بقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أن عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ ترتبط أيضاً بهذا الجزء من الآية، وكأن الآية تقول: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، والحمد لله الذي جعل الظلمات والنور، وبذلك تشير إلى أنه حتى «الظلمات»، أي الأشياء التي تُعتبر ضارة عادة، مثل الموت والمرض والبؤس والشقاء، هي كذلك مما يستحق الله تعالى عليه الحمد الكامل. وفي الواقع، فإن لكل نوع من «الظلمات» فوائد ومنافع، إذ إن الغرض الأعلى من وجودها في النهاية، هو تحقيق الفائدة العامة للإنسان، ودفعه نحو التقدم، بطريقٍ مباشر أو غير مباشر.

وحين يتبين أن هذه الأشياء التي تبدو ضارة في ظاهرها، إنما خلقت من أجل فائدة الإنسان ومصلحته، فإن افتراض وجود إلهين، أحدهما خلق الأشياء النافعة، والآخر خلق الأشياء التي تبدو ضارة وهي مفيدة في الحقيقة، يقتضي أن تكون نصف الأشياء المفيدة من خلق إله، ونصفها الآخر من خلق إله ثانٍ، وهذه سفاهة لا يقبلها العقل.

وأما بخصوص الأشياء الجيدة التي تبدو ضارة في ظاهرها، فإن الصعوبات والمشاكل التي تحيط بالإنسان قد تكون وسيلة لتربيته وتقريبه إلى التقوى والصلاح، مما يفضي به إلى نيل رضا الله ﷻ. وتلقي البركات الربانية. ولنأخذ الموت مثلاً على ذلك؛ فلو لم يتعرّض الإنسان للموت وبقي على قيد الحياة باستمرار، لما أتاحت له فرصة نيل بركات الجنة، التي هي في الحقيقة أكمل النعم والبركات الربانية. ومن ناحية أخرى لا يمكن للإنسان أن ينال هذه النعم في الحياة الدنيا، إذ لو كانت مُتاحة فيها لأصبحت

ظاهرةً جليةً للجميع، ولما بقي هناك حجاب ولا أمور مكنونة في عالم الغيب، مما يُفقد الإيمان قيمته. إذ لا يستحق المرء أي فضل على إيمانه ما لم يكن هناك نوع من الخفاء يستدعي التفكير والتأمل، حتى يصل المرء إلى الإيمان بما هو مطلوب منه.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا
وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾

التفسير:

إن خلق الإنسان الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إنما هو بيان «للنور» الذي جاء ذكره في الآية السابقة. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أي قضاء الله تعالى أن يكون لكل شخص أجل محدد ينتهي بالموت، فهو بيان «للظلمات» المذكورة في الآية السابقة. وتُسنَد الآية الكريمة كلا هذين العاملين لله تعالى، باعتبار أن كليهما ينبثق من رحمته. وبهذا ترد الآية على من يدعون وجود إلهين منفصلين، أحدهما للخير والآخر للشر. ويشير قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ إلى يوم البعث أو القيامة، حينما يتلقى الإنسان - بعد أن يدلف إلى العالم الآخر من باب الموت - جزاءه من الله تعالى.

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ
سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٢١﴾

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أن الله تعالى يملأ بذاته السماوات والأرض، وإنما المراد أن قدرته وعلمه يحيطان بالكون كله، فالله منزّه في ذاته

عن المكان والزمان. وتؤكد الآية هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ﴾، أي أنه العليم بكل شيء، ظاهراً كان أو خفياً مكنوناً.

ويشير الجزء الأخير من الآية الكريمة إلى أن الكائن لا يمكن أن يتصف بالكمال إذا اعتراه نقص في علمه أو قدرته، بينما الله تعالى كامل في علمه وكامل في قدرته، وهذا ما يشير إليه قوله ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ الذي يؤول إلى فكرة من شقين: (١) أن الله ﷻ هو العليم بكل شيء؛ (٢) وأنه سيحاسب الناس على حسب أعمالهم، أي أنه القدير على كل شيء. ولما كان علم الله تعالى كاملاً، وكانت قدرته أيضاً كاملة، فيترتب على ذلك أن الله كامل في ذاته، وهو عليم بكل شيء، وقدير على كل شيء. وعلى هذا فهو ليس بحاجة لاتخاذ الشركاء أو المساعدين للقيام ببعض عمله.

كذلك تبين كلمات الآية أن الله ﷻ هو الذي يعاقب الأشرار على ما يقترفونه من سيئات، وما دام عقاب الشريّ يأتي من عند الله فإن الظن بوجود إله مستقل للشر ليس إلا ضرباً من الحماقة.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

التفسير:

من أهم الدلائل على كمال علم الله ﷻ وقدرته، الأنباء الغيبية التي يخبر بها ﷻ رسله، وما يقدمه لهم من عون ونصرة في مواجهة التحديات والشدائد، وقد سمي ذلك هنا بالآيات. وهكذا، ولإثبات كمال علم الله تعالى وقدرته، تشير الآية إلى الآيات العظيمة التي أظهرها الله ﷻ لإثبات صدق رسوله ﷺ، وإبراز الكيفية العجيبة التي يؤيده بها.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ
أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أَنْبَاءُ: جمع «نبا»؛ وتستخدم هذه الكلمة عامة في القرآن الكريم للإشارة إلى ما له وقع وشأن عظيم (أقرب الموارد والكلّيات).

التفسير:

يوميء قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ إلى أن الأنباء المهمة المذكورة في الآية، والتي سوف «تأتي» إلى أهل مكة من خارجها. حيث أن كلمات هذه الآية التي نزلت في العهد المكي تتضمن نبوءة خفية بأن الرسول ﷺ سيضطر إلى مغادرة مكة، وأن أهلها سيخرجون لقتاله بعد هجرته منها، ولكنهم سيلقون هزيمة نكراء، وسوف «تأتيهم» أنباء النصر العظيم الذي أحرزه الرسول ﷺ، أو كما عبر عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي ستأتيهم هذه الأنباء من خارج مكة. وقد تحققت هذه النبوءة العظيمة بصورة عجيبة بالانتصار الكبير في غزوة بدر الشهيرة، فتجلى بذلك كمال علم الله ﷻ وقدرته.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرَبٍ
مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ
وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا
مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

قَرْن: الفعل منها هو «قَرَنَ» وتعني: جَمَعَ؛ وَصَلَ؛ رَبطَ. «قَرْن»: أهل زمان واحد؛ أُمَّةٌ بعد أمة؛ أهل زمن ظهر فيهم رسول. «قرين»: المصاحب؛ العشير؛ الرفيق (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تنبىء الآية بهلاك أعداء النبي ﷺ كما هلك أعداء الأنبياء السابقين. فحتى في ربوع الجزيرة العربية كان هناك أقوام حل بهم العقاب الإلهي نتيجة لمعارضتهم الأنبياء الذين بعثهم الله ﷻ إليهم في الأزمنة الخالية. ومن بينهم قبائل تُبَع وعاد وثمود وغيرهم ممن كانت قصصهم وأخبارهم متداولة بين العرب.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أن العالم يتقهقر إلى الوراء. فرغم أن العالم، بوجه عام، يتقدم إلى الأمام، إلا أن بعض الأمم التي بلغت أوج الحضارة في زمنها، تفوقت في بعض فروع الفن أو العلوم لدرجة أن الأجيال التي جاءت بعدها لم تستطع مضاهاتها في هذه المجالات بعينها. خذ على سبيل المثال، المصريين القدماء، فعلى الرغم من الإنجازات العلمية العظيمة في العصر الحديث، لا يزال العالم ينظر بعين الإعجاب والدهشة إلى أعمال الحضارة المصرية القديمة، وبالمثل، كان في العرب أقوام نحتوا من الجبال الصخرية حصوناً ضخمة تدعو للعجب. وهكذا يتبين أن كل أمة بلغت قمة الحضارة في زمنها، قد اختصت ببعض الصفات التي انفردت بها، ولم تشاركها فيها الأمم الأخرى. وما يريد القرآن الكريم قوله من هذا التعبير هو: لما حاق بتلك الأمم الدمار والهلاك بعد أن وصلت إلى قمة الحضارة وانفردت ببعض المعارف، فكيف يمكن لتدابيركم أن تنقذكم من الدمار؟

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ
بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

قِرْطَاس: وتعني: صحيفة يُكتب فيها من ورق ونحوه؛ كل ما يكتب عليه؛ الكتاب؛ كما يطلق على المرمى والهدف (معجم لين).

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أنهم «تأكدوا يقينًا بأنه من السماء لا من الأرض». وتحمل الآية إشارة جميلة إلى العمى الروحاني الذي يصيب معارضي الأنبياء. فبسبب هذا العمى يعجزون عن رؤية حقيقة الأشياء، ولذلك لا بد لهم من أن يلمسوها بأيديهم ليتيقنوا من وجودها. والآية تعني أن المرء عندما يستسلم للشك والتكذيب، فلا يمكن لأي برهان مهما كان واضحًا جليًا أن يقنعه بالحقيقة.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا
لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٩﴾

التفسير:

إن سؤال الكفار ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يكشف عن رغبتهم في أن يأتيهم ملك من السماء يروونه بأعينهم حتى يقتنعوا بأن دعوة الرسول ﷺ سماوية حقًا. ويجب القرآن الكريم على حقمهم هذا بأنه رغم أن الملائكة تنزل بالفعل على الرسول ﷺ، إلا أن نزولها على الكافرين ورؤيتهم لها، لن يكون إلا للعذاب الإلهي الذي سوف يحيق

بهم. وقد نزلت هذه الملائكة بالفعل في غزوة بدر عندما تقرر العقاب الإلهي على الكافرين، أو كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (البقرة: ٢١١). انظر أيضا الآية التالية.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ ﴿١٠﴾

التفسير:

ومن الصور الأخرى التي يمكن أن يظهر بها الملك هي بأن يُرسل إلى الدنيا كرسول. غير أن هذا الظهور لن يغير شيئاً، إذ لا تكون لمهمة هذا الملك قيمة أو فائدة إلا إذا ظهر في هيئة إنسان من البشر، وحينئذ سوف يخالج الناس نفس الشك في حقيقة مهمته السماوية، تماماً كما يشكون الآن في مهمة الرسول ﷺ.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ
فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أن مطلب الكفار بنزول ملك من السماء ليس في الحقيقة إلا نوع من السخرية والاستهزاء. وتحتوي الآية الكريمة أيضاً نبوءة عن هلاك أعداء الرسول ﷺ، فقد سخر أعداء الأنبياء السابقين منهم واستهزأوا بهم، ونتيجة لذلك حل بهم عقاب الله تعالى، وصار عين ما سخروا

منه سبباً لهلاككم. وهكذا فإن أعداء الرسول ﷺ الذي يهزأون به الآن سوف يلقون المصير نفسه الذي لقيه المستهزئون من قبلهم.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢﴾

التفسير:

عندما قيل للكفار ردّاً على طلبهم إنزال ملك من السماء، إنهم لا يرون الملائكة إلا حين يأتون بالعقاب الإلهي، أجابوا متكبرين مغترين: «فليأتوا به إذن». فجاءت الآية لتخبرهم أن الأمم التي سبقتهم قد طالبت بمثل هذه المطالب الطائشة؛ ولذلك عليهم أن يسيروا في الأرض وينظروا كيف كان عاقبة المكذبين من قبلهم.

قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ: خسروا مشتقة من «خَسِرَ» وتعني: ضلّ؛ هلك؛ ضاع (معجم لين). ويتضح مما سبق أن «خَسِرَ» فعل لازم - غير متعد - وفي الآية الحالية فإن استخدامه في صورة الفعل المتعدي ليس إلّا ظاهرياً فقط. فليس المراد من السياق القرآني: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أنهم جعلوا أنفسهم تعاني؛ إنما المراد التوكيد على الخسارة التي لحقت بأنفسهم. إن الفعل «خَسِرَ» إذا كان متعدياً؛ فيعني أنه قد ألحقت بهم

الخسارة؛ أما إذا كان لازماً كما استخدمه القرآن الكريم هنا؛ فإنه يعني أنه ضاع وهلك بنفسه. وهذا الاستخدام للفعل «خَسِرَ» يقصد به التوكيد على المعنى. وعليه فإن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ تعني في حقيقة الأمر «الذين خَسِرُوا وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بمعنى الذين عانوا الخسران وكذلك هم بأنفسهم أهلكوا أنفسهم وأضاعوها؛ ولكن للسهولة جاء الأسلوب القرآني: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهذا يشبه الأسلوب العربي: سَفِهَ نفسه. ويمكن الرجوع لمعجم «لسان العرب» الذي تناول هذا التعبير بمزيد من التوضيح.

التفسير:

يطرح الله تعالى هنا سؤالاً ثم يتولى الإجابة عنه بنفسه، وهو أسلوب تكرر في مواضع أخرى في القرآن الكريم، والغرض منه هو إظهار شدة ضعف إيمان الكافرين، وتنبيههم من أجل إدراك ذلك.

إن كل ما في السماوات والأرض ملك لله ﷻ، ويشمل ذلك حتى أعداء الإيمان. وبطبيعة الحال، فإن أحداً لا يجب أن يُدمر ما يملك، فكيف بالله ﷻ وهو الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة؟ إنه يمهّل أعداء النبي ﷺ ويمنحهم فرصة للتوبة، ويؤخر نزول العقاب عنهم ينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم. لذلك، بدلاً من أن يطالبوا بنزول العذاب، عليهم أن يطلبوا المغفرة، ويتنفعوا من رحمة الله ﷻ.

وجدير بالذكر هنا أن الكفر وحده لا يستوجب نزول العقاب في هذه الحياة الدنيا. فإن مصير المؤمنين والكافرين سوف يُحسم يوم القيامة، عندما يجتمع الناس جميعاً بين يدي الله ﷻ ليفصل بينهم. أما الذي يسرّع نزول العقاب الإلهي في هذه الدنيا على الكافرين والمكذبين فهو إمعانهم في الشر واعتداؤهم على الأنبياء وأتباعهم، وانهماكهم في وضع العراقيل أمامهم.

وعلى هذا فإن الآية الكريمة تحث المكذبين ألا يطلبوا العذاب، وتنصحهم بالتوبة والإنابة إلى الله ﷻ عسى أن يشملهم برحمته.

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤﴾

التفسير:

لم يجعل الله تعالى ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ فحسب، كما ورد في مطلع هذه السورة، بل له ﷻ كل ما يسكن في الليل والنهار. وهذا يدل على أن الله قد خلق الظلمات والنور لغرض معين. وما دام الله ﷻ مالك كل ما يسكن في الظلمات والنور، أي في الليل والنهار، فكيف يعقل أن يأمن غيره على ممتلكاته؟

وكما سبق بيانه عند تفسير الآية الثانية من هذه السورة، فإن للظلمات والابتلاءات فوائدها أيضاً. فالله ﷻ يضع الناس في الظلمات ويصيبهم ببعض الابتلاءات، لكي تتحسن طبائعهم وتطيب صفاتهم وتكامل أخلاقهم، ومن أجل أن يتوجهوا إليه ﷻ بالدعاء فيستجيب لهم، لأنه هو السميع. وحتى إن لم يدعوه ويتوجهوا إليه بالرجاء، لجهلهم بحقيقة الخطر المحدق بهم، أو لضيق وقتهم، أو لعدم معرفتهم بكيفية الدعاء، فإنه ﷻ عليم بأحوالهم، وقد يأتي لعونهم وإغاثنهم حتى ولو لم يدعوه لذلك.

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

فَاطِرٌ: من «فطر»، يُقال «فطره» أي شَقَّه؛ أنشأه أو ابتدعه؛ ابتدأه. «فطر العجين»: اختبزه قبل أن يُخَمَّره. «أفطر»: أكل وشرب الصائم. «انفطر وتفطر»: انشَقَّ. «الفِطْرَة»: الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته. «فاطر»: إذا جاءت في وصف الله ﷻ، فإنها تعني الخالق أو المبدئ أو الباري (تاج العروس).

التفسير:

يشير السؤال في مطلع هذه الآية إلى أن الله ﷻ، لما كان هو وحده خالق السماوات والأرض، وهو وحده الذي يطعم الجميع ولا يطعمه أحد، فيترتب على ذلك أن لا أحد يستحق أن يتخذ ولياً من دونه، ولا أحد غيره يستحق العبادة.

وقوله تعالى: ﴿يُطْعَمُ﴾ يدحض ألوهية الأصنام والأشياء التي لا حياة فيها، والتي اتخذها الناس آلهة من دون الله. فهي لا تطعم أحداً، بينما الله ﷻ هو الذي يطعم الجميع. وعليه فهي لا تستحق أن تُعد آلهة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فينفي ألوهية الأشخاص الذين ألهمهم البشر. إذ كانوا محتاجين إلى الطعام ليستمروا على قيد الحياة، بينما الله ﷻ غني عن الطعام بالكلية، ومن ثم فلا يمكن أن يكونوا آلهة أبداً.

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾

التفسير:

تعبر هذه الآية الكريمة عن استقلال الله ﷻ المطلق، وقد أمر الرسول ﷺ أن يقول للناس: «عجباً لكم لا تخشون عقاب الله تعالى! بينما أنا، رغم أنني رسول الله

رب العالمين، فإني أخاف عقابه إن عصيته». وهذا أسلوب توكيدي يراد به حث الناس على تجنب معصية الله تعالى، وليس في ذلك أدنى إشارة إلى احتمال معصية الرسول ﷺ لربه، أو أن يقرب المعصية حتى، وإنما المقصود ببساطة هو إقناع الكافرين أن الله ﷻ فوق الجميع، وأن أحداً لا يجزئ على معصيته دون أن يلقي جزاءه.

مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

التفسير:

إن اسم الإشارة «ذَلِكَ» في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ يمكن أن يعود على دفع العقاب الإلهي، كما يمكن أن يعود على نوال رحمة الله ﷻ. فإن كلا من دفع العقوبة ونوال الرحمة يُعد فوزاً عظيماً مبيئاً.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

التفسير:

إن أعمال الإنسان هي التي تسبب له الضرر وتصيبه بالسوء. ولا يعني قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أن الله ﷻ هو سبب الضرر، وإنما المقصود هو أن الله ﷻ هو السبب الأول لكل شيء، وأن كل ما يحدث في الكون مرده إليه بوجه أو بآخر. كما يشير هذا التعبير إلى أن الله ﷻ وحده القادر على كشف الضر عن الإنسان. إن

السعادة الحقيقية تأتي من الله، فهو سبحانه المصدر الحقيقي لكل خير، ولذلك حين يتحدث القرآن الكريم عن سعادة الإنسان، فإنه يذكر أن الله ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

قَاهِرٌ: من «قَهَرَ»، يُقال «قهره» أي غلبه أو أخضعه؛ فاقه قوة أو قدرة. وتعني أيضاً ظلمه؛ أو أجبره أو أكرهه. لذا فإن «قاهر» تعني الذي يتغلب أو ينتصر أو يُخضع. «القاهر والقهار»: من أسماء الله ﷻ. الحسنى وتعني الذي يخضع عباده لمُلكه وهيمنته المطلقة؛ والذي تنفذ مشيئته في عباده كيف يشاء (معجم لين).

التفسير:

إن صفة «القاهر» لا تتضمن أي ظلم من جانب الله ﷻ. فكل شيء خادماً لله، وهو لا يقهر إلا ما هو من خلقه وملكه. وهذا يرد على من يزعم أن المادة والروح أزلتا الوجود كالله تعالى وليستا من خلقه ﷻ. فلو لم تكونا من خلق الله لما كان له الحق أن يقهرهما أو ينفذ حكمه ومشيئته عليهما. وعلى ذلك، فإن من يزعم أن الله تعالى لم يخلق المادة والروح، إنما ينسب إليه ما ينافي العدل؛ وفي هذه الحالة ليس أمامنا سوى افتراض أن الله ﷻ قد قهر ما ليس من خلقه.

قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ
لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُوا أَنَّ

مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ
إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾

التفسير:

يجيب الله ﷻ على السؤال الذي طرحه في مطلع الآية، إذ لم يعرف الكفار الإجابة عليه. فهم لم يدركوا أن الله ﷻ يمكن أن يكون شهيداً. فجاء الجواب الإلهي من أجل توجيه المؤمنين وتعليمهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن أن يشهد الله ﷻ على أمر من الأمور؟ تذكر هذه الآية والآيتان التاليتان ثلاث وسائل يشهد بها الله تعالى على صدق الرسول ﷺ، أولها: القرآن الكريم، إذ تحض الآية الكريمة الرسول ﷺ على أن يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وتعني هذه الكلمات أن من يعارض دعوة القرآن الكريم ويحول دون انتشارها، سوف يناله العقاب الإلهي، وسوف يُشكل هذا العقاب وسيلة من الوسائل التي يشهد بها الله ﷻ على صدق الرسول ﷺ. وفي الآيتين التاليتين يُذكر الأسلوبان الثاني والثالث من وجوه شهادة الله تعالى.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾

التفسير:

تذكر هذه الآية الكريمة الطريقة الثانية التي يشهد الله تعالى بها على صدق الرسول ﷺ، وهي الكتب المقدسة السابقة، فهي تحتوي على نبوءات تشير بجلاء إليه ﷺ وتبين

بشكلٍ قاطع أنه النبي الموعود. ومن خلال هذه النبوءات يشهد الله ﷻ على صدق رسوله ﷺ.

وقد يثار سؤال هنا: إذا كان أهل الكتاب يعترفون بأن هذه النبوءات الواردة في كتبهم قد تحققت في شخص الرسول ﷺ، فلماذا لم يؤمنوا به؟ ويجب القرآن الكريم على هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أن أهل الكتاب لن يؤمنوا لأنهم أضاعوا أنفسهم ولم يعد لديهم أي إحساس بالصدق، وهجرهم نور الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يقوم على حقيقة روحانية بالغة العمق وهي أن النبي، أو أي أمر من أمور الإيمان، لا يُعرف بادئ الأمر معرفة يقينية كمعرفة الشمس أو القمر، وإنما يُعرف كما يعرف الأب ابنه، فالأب يعلم بكثير من الشواهد المؤكدة أن ذلك المولود ابنه، ولكنه لا يملك يقيناً مطلقاً بذلك. فالإيمان يجب أن يبدأ دائماً من عالم الغيب.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

تذكر هذه الآية الطريقة الثالثة التي يشهد بها الله ﷻ على صدق رسوله ﷺ. ويقوم هذا النوع من الشهادة على العقل الذي منحه الله تعالى للإنسان. فكل عاقل يدرك أن من يزعم أنه يتكلم باسم الله تعالى، دون أن يكون مأموراً أو مكلفاً منه ﷻ وكان يفترى عليه الكذب، لا بد أن يكون من أكبر المجرمين ولا بد أن يحقه الله ﷻ؛ إذ لو سُمح للمدعي الكاذب أن ينال النجاح كالأنبياء الصادقين، فلن يبقى هناك معيار يمكن بواسطته التمييز بين الصادق والكاذب، ولضاعت الحقيقة.

وعليه، ومن أجل التمييز بين الحق والباطل، لا بد أن يقضي الله ﷻ على المدعي الكاذب. وهكذا، فإن نصر الله للرسول ﷺ وتأييده له رغم المعارضة الشديدة والظروف القاهرة، يعدّ شهادة واضحة من الله ﷻ على كونه نبياً صادقاً.

ومن ناحية أخرى، فإن الذين يكذبون الأنبياء الصادقين ويعارضونهم ويعاملونهم معاملة الكذبة المفترين على الله، هم أيضاً من أكبر المجرمين. وبسبب محاربتهم لرسول الله ﷺ وسعيهم الحثيث للقضاء على دعوتهم، يستجلبون على أنفسهم الغضب الإلهي. فينتهي الأمر بعدم السماح لهم بتدمير هذه الدعوة السماوية، وبالقضاء عليهم. وعلى هذا، فإن الله ﷻ قد شهد على صدق الرسول ﷺ، لا بتأييده ونصره فحسب، بل وبالقضاء على أعدائه وإهلاكهم أيضاً.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير:

لقد استعمل الفعل ﴿تَزْعُمُونَ﴾ في القرآن الكريم على الدوام للدلالة على الكذب والباطل، فهو يشير إلى ادعاء لا يقوم على يقين. وعلى هذا فإن معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنكم كنتم تدعون بالسننكم، بينما كانت قلوبكم تتخبط بالشك والريبة.

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِئَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا
كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٤﴾

التفسير:

تعني الآية أنه في يوم الحساب سينتهي تماماً كل الفساد الذي ارتكبه المشركون في حياتهم الدنيا، ولن يبقى لهم حينها إلا أن ينكروا اتخاذهم شركاء لله ﷻ. غير أن هذا الإنكار سيكون في الحقيقة اعترافاً بعجزهم، ومحاولة لاستجداء رحمة الله تعالى.

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أنهم بإنكارهم إسناد الشركاء لله تعالى، إنما ينطقون بالكذب، مما يثبت جرمهم. ومن ناحية أخرى، فإنهم بقولهم هذا قد أقروا ضمناً بأن إسناد الشركاء لله ﷻ عمل فاسد. وعلى هذا، فإن إنكارهم نفسه سوف يكون اعترافاً بجرمهم.

وتُعبّر الكلمات ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ﴾ عن الدهشة من الأسلوب الذي اتبعوه. إذ بينما يحاولون نفي التهمة عن أنفسهم، إذا بهم ينزلقون إلى الاعتراف بذنبهم.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ
أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ
يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ
يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾

التفسير:

لشرح معنى كلمة «أكنة» التي تكون على القلوب، وكلمة «وقر» التي تكون في الأذان، يمكن الرجوع لشرح الآية ٨ من سورة البقرة.

إن ما يسميه القرآن الكريم بـ «الآيات» يصفه الكافرون بأنه مجرد «أساطير الأولين»، وهو قول مدانٌ من الله ﷻ. وهذا يدل على أن أخبار الأنبياء السابقين والأمم الغابرة التي ذكرها القرآن الكريم ليست في نظر الله مجرد «قصة» أو «أسطورة»، بل هي «آيات» بما تحمله من نبوءات عن أحداث مستقبلية، وأن هذه الأحداث سوف تتحقق، وسيكون تحققها بمنزلة «آيات» للناس.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ
يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٧﴾

التفسير:

إن ترتيب الكلمات في هذه الآية جدير بالتأمل. إذ إن نهي الكفار الناس عن الاستماع إلى القرآن الكريم أو إلى كلام الرسول ﷺ، يعني ضمناً أنهم أنفسهم كانوا يبتعدون عن الرسول ﷺ وعن القرآن الكريم. ومع ذلك، فقد ذكر ابتعادهم هذا بشكل واضح ومنفصل عن ذكر نهيمهم الآخرين، وذلك لبيان أنهم كانوا يخشون على أنفسهم من التأثير بكلام النبي ﷺ وآيات القرآن الكريم. وقد بلغ بهم خوفهم هذا مبلغاً جعلهم لا يكتفون بنهي الآخرين فقط عن الاقتراب من رسول الله ﷺ، ولكنهم أنفسهم كانوا حريصين على الابتعاد عنه وعدم الكلام معه حتى لا تأخذ كلماته بمجامع قلوبهم. ويبين هذا أنهم كانوا يدركون ما للقرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ من تأثير عظيم على قلوب سامعيه. ولا عجب أن المشركين كانوا ينظرون إلى القرآن الكريم باعتباره ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سبأ: ٤٤).

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا
زُرُّدٌ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

وَقَفُوا: من «وقف» وهو فعل لازم ومتعد أيضاً، ويعني قام أو سكن أو ثبت؛ جعله يقوم أو يسكن أو يثبت. «وقف عليه»: فهمه أو تبينه. «وقفته على ذنبه»: أطلعته عليه. «وقف الدار»: جعلها في سبيل الله أو أنه فصلها بشكل غير قابل للتصرف لغرض محدد. «وَقَفَ عليه»: أقيم أو أُسْكِن أو أُثْبِت؛ أُدْخِل فيه وعرف ما به؛ جُعِل على عِلْم به تماماً وبقيناً (تاج العروس).

التفسير:

يمكن أيضاً أن يعني قوله تعالى: ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ «حين يُدْخِلون النار ليمكثوا فيها زمناً طويلاً»، أو «حين يعرفون أو يدركون طبيعة النار».

بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ
رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٩﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أن أعداء الأنبياء يبطنون في وجدانهم قدراً من اليقين بصدق مبعوثي السماء، ولكن بسبب كبرهم وتعصبهم الأعمى، يحاولون كبح هذه الأفكار وإخفاءها وعدم إظهارها لأحد. ويوم القيامة ستتكشف هذه الخواطر

الكامنة وتظهر للعيان، كما سيتضح جلياً أيضاً صدق الأنبياء وتبين الحقيقة التي كانت جذوة منها كامنة في صدور الكافرين.

وقوله تعالى في آخر هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يبين أنه بالرغم من أن الكفار يبدون رغبتهم في العودة إلى الدنيا مرة أخرى من أجل أن يؤمنوا بالأنبياء ولا يكفروا بهم، إلا أنهم لو عادوا حقاً إلى الدنيا، وتكررت لهم نفس الظروف التي عاشوا فيها من قبل، فإنهم سيسلكون نفس المسلك الذي اتبعوه سابقاً، وسوف يرفضون الإيمان برسل الله ﷺ كما فعلوا أول مرة.

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٠﴾

التفسير:

إن متع الدنيا وملذات الحياة هي الشغل الشاغل لأكثر الناس، حتى إنهم لا يتوقفون برهة ليتفكروا في الموت أو الآخرة. ألا ليت الإنسان يدرك غاية خلقه، فيرى الحياة الأبدية الكامنة وراء القبر!

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾

التفسير:

إن عبارة ﴿بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ تعبر عن مشاعر جياشة عميقة، كما تنطوي على مناشدة خفية مثيرة للشفقة لطلب الرحمة. غير أن زمن الرحمة قد ولى، ولم يبق لهم إلا مواجهة قضاء الله ﷻ العادل بما فيه من عذاب.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يُحْسِرْتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا
فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا
سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

فَرَّطْنَا: من «فَرَطَ» المشتقة من «فَرَطَ» وتعني سبق وتقدم. «فَرَطَ مِنْهُ الْكَلَامُ»: سبق من غير رويّة. «فَرَطَ عَلَيْهِ»: عجل وعدا عليه. «فَرَّطَهُ»: قدّمه؛ جعله يسبق. «فَرَطَ عَنْهُ»: كفّ عنه وأهمله. «فَرَطَ فِيهِ»: ضيّعه وأهمله وعجز عن القيام بما ينبغي فيه. «أفرط في الأمر»: زاد فيه حد الشطط. «تفريط» من «فَرَطَ» تعني بصفة عامة: التقصير؛ أما «إفراط» من «أفرط» فتعني: مجاوزة الحدود الصحيحة (معجم لين وأقرب الموارد).

أَلَا: حرف استفهام يفيد النفي؛ أو التأنيب والتوبيخ؛ التّمني؛ الدعاء؛ الطلب. وتستخدم أيضاً كحرف ابتداء أو استهلال بمعنى «الآن» أو «لماذا». كذلك تستخدم بمعنى: يقيناً؛ حقّاً؛ بالتأكيد (معجم لين).

التفسير:

إن الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ قد يعود على ﴿السَّاعَةِ﴾ المذكورة في الآية، وحينئذ يكون معنى «التفريط في هذه الساعة» أن الكافرين لا يؤمنون مطلقاً أن الساعة آتية

ولا يعيرونها أي اهتمام. كما يمكن أن يعود الضمير على «الدنيا» أو «حياتنا الدنيا» الوارد في الآية ٣٠ من نفس السورة، وعندئذ يكون المعنى أنهم قد قضوا حياتهم على هذه الأرض غير مكترثين. ويشير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ إلى مدى ثقل ذنوبهم وعظم أوزارهم.

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

لَعِبٌ: الفعل «لَعِبَ» يعني: مارس رياضة أو مزح؛ أو فعل أمرًا بهدف التسلية أو التنزه. و«لَعِبَ» ضد جدّ. لذا فإن «لَعِبٌ» تعني: رياضة، مزاح، تسلية أو تنزه (أقرب الموارد معجم لين).

لَهُوَ: مشتق من «لها». يُقال «لها عنه» أي سلا عنه وغفل. «لهت المرأة إلى حديث الرجل»: أنست به وأعجبها. «لهو» يعني: تسلية، لعب، الشيء الذي يتلذذ به الإنسان فيلهيه، ما لهوت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما (معجم لين ولسان العرب).

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أن الحياة على هذه الأرض مجرد لعب ولهو؛ إنما المراد من «الحياة الدنيا» هنا تلك الحياة التي تستحوذ عليها أمور الدنيا غافلة عن الآخرة، فمثل هذه الحياة ليست إلا لعبٌ ولهو.

ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء ١٧-١٨)، أي أن الله تعالى لم يخلق هذا الكون من أجل اللعب واللهو؛ لذا فكل البيانين صحيح تمامًا.

كذلك يمكن أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أن أحوال هذه الدنيا - إلا لمن تنبه بكل اهتمام - تجعل الإنسان أكثر عرضة للغفلة عن الحياة الآخرة، فمثله كمن يلهيه اللعب واللهو عن القيام بواجباته في هذه الدنيا.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ
لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٤﴾

التفسير:

تبين هذه الآية أن حزن رسول الله ﷺ من موقف الكافرين لم يكن بسبب تكذيبهم له شخصياً؛ بل لأن تكذيبهم له يعني في الحقيقة تكذيبهم لآيات الله، فحزنه لم يكن لنفسه ﷺ بل لإنكارهم الله ﷻ. لقد كان ﷺ يتألم بشدة لرؤية إنكار الناس لله تعالى، وما كان يعبأ بتكذيبهم له ولكنه لم يكن يحتمل رؤية الناس يرفضون الله ﷻ وآياته.

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا
عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ
مِن نَّبَايِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾

التفسير:

في هذه الآية، يخاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بحبٍ وبكلمات المواساة والتعزية كأنه يقول له: «نعلم أنه لمن المحزن رؤية هؤلاء القوم يكذبون الله ولكن لا تبديل لسنة الله، فإننا لا نكره أحداً على الإيمان».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يشير إلى هذه السنة الإلهية الثابتة، وهي ذات شقين؛ أولاً: عندما يبعث الله ﷻ رسولا، فلا بد من وجود من ينكرونه ويعارضونه. وثانياً: أن الله ﷻ لا يجبر هؤلاء المكذبين على قبول الحق. (راجع أيضاً الآية ٢٥٧ من سورة البقرة، والآية ٢١ من سورة النساء، والآية ٣١ من سورة يس).

وَإِنْ كَانَتْ كِبْرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا
فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ
عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

نَفَقًا: النفق: سَرَبٌ في الأرض له مخرج إلى مكان (أقرب الموارد). انظر أيضاً سورة التوبة الآية ٦٧.

سُلَّمًا: مشتق من «سَلَّمَ». يُقال «سَلَّمَهُ» أي جعله آمناً ومصاناً. «سَلَّمَهُ إِلَيْهِ»: أعطاه إياه أو أوصله إليه. «السُّلَّم»: المرقاة وهو ما يرتقى عليه ومعناه أيضاً الوسيلة والسبب إلى الشيء (معجم لين).

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغِيْ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى الأخذ بالأسباب الدنيوية أي بالدعوة ونشر الحق في الأرض من أجل تقوية الدين، أما قوله تعالى: ﴿سَلَمًا فِي السَّمَاءِ﴾ فيشير إلى الوسائل الروحانية أي الدعاء لله تعالى ليهدي الكافرين، فالدعاء في حقيقة الأمر معراج الإنسان للسماء.

ويخبر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ في هذه الآية أنه لن يكره أحداً على اعتناق الإسلام؛ فإن كان ﷺ يتمنى إسلام قومه كلهم فما عليه إلا أن يواظب على الأخذ بالطريقين المذكورين آنفاً، أي بالأسباب الدنيوية والوسائل الروحانية. فمن ناحية عليه أن يبذل جهده في دعوة الناس ونشر الحق، ومن ناحية أخرى يتהל إلى الله تعالى بكل تضرع وحماس من أجل هداية البشرية ونصرة الإسلام. ومما لا شك فيه أن رسول الله ﷺ قد أخذ بهذين الطريقين إلى أقصى حد، ونتيجة لذلك نصر الله ﷻ الإسلام لدرجة أن جزيرة العرب قد أسلمت كلها خلال فترة قصيرة.

وكلمة «جاهل» الواردة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ليست ذمّاً بل جاءت هنا بمعنى الذي لا يعلم أو لا يعرف أمراً. ولقد استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن الكريم أيضاً. فعلى سبيل المثال، يقول الله تعالى في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾، أي إن من يجهل حقيقة حال الفقراء يظنهم أغنياء. وفي الآية التي نحن بصدددها؛ ينصح الله تعالى الرسول ﷺ ألا يظل على غير دراية بمشيئة الله تعالى المتعلقة بهذا الأمر.

ومما يجب الإشارة إليه أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيْ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّمَاءِ﴾ مخاطباً الرسول ﷺ ليس من قبيل التوبيخ كما قد يُظن؛ لأن هذا القول يصبح بلا معنى إن فهمَ بهذه الطريقة. إنما المراد ببساطة هو اقتراح طريقين لبلوغ هذا المرام، ثبتت فعالية العمل بهما بشكل عجيب.

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٧﴾

التفسير:

تبين الآية الكريمة أن ذوي القلوب الطاهرة المستعدين للإصغاء يقبلون الحق بسهولة عند تبليغه لهم. أما الأموات روحانياً، ولكن لديهم الاستعداد للبعث الروحاني؛ فإن الله ﷻ سوف يحييهم برؤية الآيات، وعندئذ سوف يستمعون ويقبلون الإسلام. وهذا ما حدث عندما أرى الله تعالى آيته عند فتح مكة، فدخلت جزيرة العرب كلها في الإسلام وصدق وعد الله ﷻ.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ
إِنَّا اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِن
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ أنه على الرغم من أن الله تعالى قادر على أن ينزل آية إلا أنه لن يفعل. فكلمة «قادر» في صيغة اسم الفاعل تستخدم للدلالة على الاستعداد لإظهار القدرة المطلوبة، والكلمات التي جاءت في نهاية الآية تدعم هذا الاستدلال. كذلك من معاني كلمة «قادر»: الذي يقيس الأمر ويدبره (معجم لين)، وبهذا فإن الآية تعني أن الله تعالى يدبر الأسباب لفوز الإسلام، حيث إن الناس يدخلون الإسلام بالفعل ويزيدون من عدد المسلمين. وإنّ هذا لدليل ساطع على إرادة الله ﷻ ولكن الكافرين لا يتدبرون فيه. ولقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة بالبيان المناسب في الآية التالية.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَهَّمْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ
شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

أُمَّةٌ: من «أُمَّ» وتعني: قصد أو عمد إلى. «أمم» جمع «أمة» وتعني: الطريقة؛ الجماعة من الناس أو من الأحياء؛ الجيل من الناس؛ الوطن؛ الديانة؛ أتباع دين؛ النوع؛ جنس من الأجناس؛ خلق الله. كذلك تعني الرجل الصالح الذي يكون قدوة ومثلاً أعلى للآخرين؛ أو الذي يتبع الدين الصحيح؛ أو الرجل العليم الذي لا يوجد نظير له في زمنه (معجم لين).

أَمْثَالُكُمْ: جمع «مَثَل» و«مِثْل» كلاهما مشتق من الفعل «مَثَلَ». (لمزيد من التوضيح راجع الآية ١٠٧ من سورة البقرة). «مَثَلَ» تعني: لغة في المِثْل للشبه والنظير؛ الصفة؛ الحُجَّة؛ الحديث؛ القول السائر؛ العبرة؛ الآية. «مِثْل» تعني: كلمة تسوية بمعنى التشبيه؛ نفس الشيء وذاته (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

يلفت القرآن الكريم أنظار الكافرين إلى الحيوانات التي تسير على الأرض والطيور التي تطير في السماء؛ فحتى هذه المخلوقات تستدل من إشارات وعلامات معينة أن هناك تغير يحدث في فصول السنة. أما الكافرون، فهم في هذا أدنى من هذه المخلوقات إذ لا يرون الآيات الدالة على انتصار الإسلام وهزيمة الشرك. حتى الكلب يمكنه أن يميز ما إذا كان سيده غاضباً أو مسروراً؛ أما المشركون فإنهم لا يدركون ما إذا كان ربهم سaxonاً عليهم أم لا؛ وهكذا فالطيور التي تطير في السماء والدواب التي تسير في الأرض أهدي من المشركين.

وبالمناسبة؛ فإن الآية تشير إلى أنه حتى الطيور والحيوانات سوف تُبعث وتُحاسب على أفعالها مثل الإنسان، وإن لم يكن حسابها مماثلاً لحساب البشر. ولقد ورد في بعض أحاديث النبي ﷺ ما يؤيد هذا، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَوُذَّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءُ، مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءُ» (صحيح مسلم، باب تحريم الظلم).

وقد يُراد بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الكافرون؛ وعليه يكون المعنى أن أعمالهم محفوظة كلها ولن يُغفل منها شيء، وسوف يُحاسبون عليها يوم القيامة.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي
الْظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلُهُ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٠﴾

التفسير:

انظر الآيات: البقرة: ١٩، ١٧٢؛ التمل: ٨١-٨٢؛ الروم: ٥٣-٥٤.

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ
أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿السَّاعَةُ﴾ الواردة في هذه الآية الكريمة إلى ساعة الانتصار الحاسم للإسلام أو بتعبير آخر «فتح مكة». ففي حين أن «العذاب» يعني المصائب العادية، فإن «السَّاعَةَ» تشير إلى الحدث النهائي والحاسم في الكفاح. ولقد أُجيب في الآية التالية على السؤال الوارد في هذه الآية.

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ
إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾

التفسير:

بدأت الآية بالرد على السؤال الوارد في الآية السابقة. أما قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ فقد تحقق بالعفو العام الذي منحه الرسول الكريم ﷺ للكافرين عند فتح مكة. وكانت الكلمات الخالدة التي قالها ﷺ في تلك المناسبة: «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء» (الزرقاني الجزء ٢ ص ٣٢٨). وأما قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فقد تحقق أيضاً بصورة رائعة ذلك اليوم، فعند فتح مكة فقد أهلها إيمانهم بآلهتهم، كما أقر بذلك صراحةً بين يدي الرسول ﷺ كل من أبي سفيان وزوجته هند وآخرين، حتى انمحي الشرك من جزيرة العرب في نهاية المطاف.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٣﴾

التفسير:

تشير الآيات السابقة إلى العقاب الإلهي بوجه عام؛ أما في هذه الآية فقد جاء ذكر الأصناف المختلفة لهذا العقاب. ويسيء كثير من الناس فهم طبيعة هذا العقاب، إذ إنه كثيراً ما يأتي مستتراً في صورة الابتلاءات المعتادة، ففي الواقع جميع الابتلاءات المادية والجسدية كال فقر والمرض وغيرهما هي بصورة أو بأخرى عقاب إلهي. وليس الهدف من هذه الابتلاءات تدمير الناس؛ إنما الغرض منها حملهم على إصلاح أنفسهم والإنابة إلى الله ﷻ.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ
قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾

التفسير:

ليس الغرض من كلمة «لولا» هنا مجرد الاستفهام، بل أيضاً للتعبير عن الشفقة، والأسف، لذا فالآية تعني: كان من الواجب عليهم أن يتذللوا لله تعالى، ولكنهم للأسف لم يفعلوا. إن الابتلاءات في الحقيقة رحمة إلهية، غير أن الناس قد قست قلوبهم بدلاً من الإنابة لله تعالى، وعندما تصيبهم الابتلاءات فإنهم لا يعزونها إلى آثامهم، بل إلى الأنبياء. أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيشير إلى الأعمال العدائية التي يقترفها الكافرون.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٥﴾

التفسير:

عندما قست قلوب المشركين وأعرضوا عن النصائح الإلهية، تركهم الله ﷻ في طغيانهم يعمهون. وقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يشير إلى أن الله تعالى قد تركهم يتيهون في ضلالهم ويتمادون في الشرور التي غرقوا فيها. وقد كانت الابتلاءات تُرفع عنهم أحياناً إلى حين، فكانوا يبتهجون ظانين أنهم على صواب وأن الابتلاءات التي أصابتهم لم تكن بسبب ذنوبهم؛ وعندئذ كان عذاب الله يأتيهم بغتةً فيستسلمون لليأس. لذا فالابتلاءات التي تصيب الكافرين في زمن الأنبياء نوعان:

(١) الابتلاءات المؤقتة التي تأتي للتحذير ثم نزول.

(٢) الكوارث العامة التي تباغت الأشرار في النهاية وتُهْلِكُهم.

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

دَابِر: من «دَبَرَ»، يُقال «دَبَرَهُ» أي جاء بعده وخلفه. «أدبر»: ولى. «الدبر»: المؤخرة والعقب؛ آخر الشيء ومنقضاه. «الدابر»: التابع؛ آخر كل شيء (معجم لين).

التفسير:

يمكن فهم قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ على عدة وجوه:

(١) أن القوم قد استؤصلوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد.

(٢) أن زعماءهم قد هلكوا كالشجرة التي اجتثت من جذورها، فهؤلاء الزعماء بمنزلة الجذور لشجرة القوم.

(٣) أن أتباع هؤلاء الزعماء قد استؤصلوا حيث حُرم زعماءهم من قوتهم السياسية القائمة على قوة أتباعهم والتي تعتمد عليها سطوتهم السياسية.

قد يبدو هنا أنه لا توجد مناسبة لقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث تقال هذه الكلمات عادةً عند تلقي نعمة من الله تعالى شكرًا عليها، بينما عند حلول مصيبة، فإن القول المناسب لهذا الظرف والذي أمر المسلمون بترديده هو: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧). غير أنه من السهل توضيح هذا التعارض الظاهري، فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قد جاء هنا ليشير إلى أن قطع دابر ما هو ضار ومؤذٍ هو في الحقيقة أمرٌ يستوجب الشكر لا الأسف. فإذا أصيب طرف بمرض عضال لا يرجى شفاؤه؛ فإننا نبتره، وندفع للجراح بكامل الرضا أتعاب العملية بل ونشكره أيضًا. فكما أن الطرف العليل يُبتر حفاظًا على بقية الجسم، كذلك من الضروري أحيانًا استئصال الجزء الفاسد من البشر حتى لا يتسبب في إفساد البشرية كلها.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ
وَحَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ آيَاتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٧﴾

التفسير:

لقد تحدثت الآية السابقة عن العقاب الذي يَحْتَثُّ من الجذور، غير أن هناك مرحلة قد يصاب فيها جزء من الجسد فقط، أو قد يصاب الجسد كله ولكن المرض لا يكون متأصلاً بعد، فتبقى هناك فرصة للحيلولة دون خسارته بالكامل. ففي مراحل الأولى يكون المرض عادةً قابلاً للشفاء، أما إذا أهمل ولم يعالج في الوقت المناسب فقد يتفاقم ويغدو مستعصياً. وهذا هو التقصير والإهمال الذي تحذّر منه هذه الآية، إذ إن بعض الناس يتباطأون في قبول رسل الله ﷺ وينتظرون المزيد والمزيد من الآيات ويتمادون في تأجيل بيعة الأنبياء حتى يفوت الأوان.

وحين ينزل عذاب الله ﷻ بأعداء الرسل؛ يهلك معهم أيضاً أولئك الذين لم يستفيدوا من نورهم الداخلي وآثروا انتظار المزيد من دلائل صدق الأنبياء. لذلك، تُحذّر هذه الآية المعتادين على التأخير والتأجيل وتحثهم على استخدام نورهم الداخلي للتعرف على رسول الله ﷺ والإسراع بقبوله لئلا يتسبب تقاعسهم في ذلك إلى فقدانٍ كاملٍ لملكاتهم التي وهبها الله ﷻ لهم فيهلكوا مع الآخرين.

وعليهم أن يسارعوا إلى الانتفاع بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم؛ لأنهم إن لم ينتفعوا بها قبل فوات الأوان فإنها ستفسد تدريجياً وتضيع في النهاية ولن تستطيع قوة إعادتها إليهم بعد فقدانها التام.

أما قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ فيبين أن الله ﷻ يظهر آيات مختلفة للناس حتى يتضح الأمر لهم تماماً، فتارة يأتي بآيات من نوع معين، ويأتي بآية من نوع ثانٍ تارة أخرى وذلك لإرضاء كافة أصناف الناس.

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿بُعْتَةً﴾ إلى وقوع العذاب الإلهي دون تحذير أو سابق إنذار، وكان فتح مكة من هذا النوع من الآيات. أما كلمة ﴿جَهْرَةً﴾ فإنها تشير إلى التحذير المسبق - قبل وقوع العقاب - رجاء أن يتنبه أولئك الذين ما زال فيهم نور داخلي واستعداد لاتباع الهدى، فيقبلوا الحق دون المزيد من التأخير، وإلا هلكوا مع الآثمين.

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

التفسير:

لجميع أنبياء الله ﷺ صفتان أو مهمة مزدوجة، فهم يأتون بالبشارات لفئة من الناس وبالإنذارات لفئة أخرى. فالذين يؤمنون بهم يتلقون بشارات النعيم، ويتلقى المكذبون الإنذارات بالعذاب. ومن ثم فعلى الضعفاء أن يسارعوا إلى الانضمام إلى الموعودين بالبشارات، إذ لا داعي للخوف، كما أوضحت هذه الآية الكريمة بكل جلاء أنهم إذا آمنوا بالرسول ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير:

انظر الآيات: آل عمران: ١٢؛ المائدة: ١١؛ الأعراف: ٣٧، ٧٣؛ يونس: ٧٤؛ الحج: ٥٨.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن
اتَّبَعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

التفسير:

يبين قوله تعالى: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أن كون الأنبياء مبشرين، لا يعني أن المرء سينال الثروة بمجرد إيمانه برسولٍ من رسل الله، بل لا بد له من الصبر حتى تأتي أفضال الله ﷻ في حينها المقدر. ويشير قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ إلى أن النبي لا يملك القدرة على إنزال العذاب، فهو ليس ملك العذاب. وقد يثار تساؤل هنا: ما الفائدة من اتباع النبي ما دامت إنعامات الدنيا تحتاج وقتاً لظهورها، وما دام النبي لا يملك القوة الكافية لردع أعدائه؟.

يجيب القرآن الكريم على هذا التساؤل الضمني بأن الثروة المادية ليست النعمة الوحيدة التي يمكن أن يطمح إليها الإنسان، بل إن الهدى الكامل الذي يأتي به النبي هو في حد ذاته نعمة عظيمة، فالذي يقبل الهدى هو كالبصير وأما من يرفضه فهو كالأعمى، ولا يستوي الأعمى والبصير، وهذه أمور تستحق التأمل والتدبر.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير:

لا يفيد الإنذار إلا من يؤمن بوجود الخطر الذي يُحذّر منه، أما من لا يصدق بوجود ما يُنصح بالحدّ منه فلن يجدي معه التحذير نفعاً. لذا فإن النبي ﷺ في هذه الآية الكريمة المتعلقة بأحوال يوم القيامة لم يؤمر بتحذير جميع الناس، بل بأن ينذر من يؤمنون بيوم القيامة بأنه في ذلك اليوم الرهيب لن يكون لهم ولي ولا شفيع. وأما الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، فأسلوب مخاطبتهم يختلف، إذ يجب أولاً إقناعهم بوجود يوم القيامة ثم تحذيرهم من أهوالها. وهكذا، تعلمنا هذه الآية الكريمة أيضاً كيفية الدعوة، إذ علينا أن نقيم حجتنا على ما يعتقده الناس صحيحاً حتى يكون لنصحننا تأثيره المنشود.

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ
شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

الْغَدَاة: مشتق من «غدا» وتعني ذهب في الساعات الأولى من الصباح. «غداوة أو غداة أو غدوة أو غدوية»: البكرة؛ ما بين الفجر وطلوع الشمس؛ أول النهار (معجم لين).

الْعَشِيِّ: من «عشا» وتعني: تناول طعام العشاء؛ ذهب ليلاً. «العشى»: أول الظلام؛ من المغرب إلى العتمة؛ آخر النهار؛ الليل (معجم لين).

وَجْهَهُ: أي محياه. وكلمة «وجه» تعني أيضاً: نفس الشيء (راجع سورة البقرة، الآية ١١٣).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بمعناه الشامل وكما هو موضح في شرح الكلمات، يغطي فعلياً كل ساعات اليوم الأربع والعشرين، باستثناء الأوقات التي تُحرّم فيها الصلاة. وهكذا، من ناحية، تشمل الكلمتان معاً النهار والليل ومن ناحية أخرى تشيران فقط إلى الصباح والمساء.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يمكن أن يعني أيضاً «أنهم يريدون الله نفسه» حيث أن «وجه» تعني أيضاً «الشيء نفسه»، وفي هذه الحالة يكون معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أنهم لا يرغبون شيئاً إلا الله تعالى أي لا يطلبون إلا الله ﷻ فقط. وبنوه قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن بعض الناس يرون أنفسهم أرفع شأنًا من أن ينضموا إلى جماعة قامت على يد نبي، وغالبية أتباعها من الفقراء الذين لا ينتمون إلى ما يُسمى بعلية القوم؛ لذا فإنهم لا يقبلون الانضمام إليها إلا إذا طُرِدَ هؤلاء الفقراء منها. ومن أجل القضاء التام على هذا الأمل، يأمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يعلن أنه لن يطرد أتباعه الفقراء من أجل انضمام ما يُسمى بعلية القوم إلى جماعته. والنهي الوارد في هذه الآية الكريمة لا يعني أن رسول الله ﷺ كان يطرد أتباعه الفقراء بالفعل، وإنما المراد هورد وصد رغبات المتكبرين والمتغطرسين والتأكيد لهم أن أتباع النبي ﷺ المتواضعين هؤلاء والذاكرين الله تعالى ليل نهار لا يمكن طردهم من أجل أحد. ولما كان رسول الله ﷺ قد أعلن في القرآن الكريم: ﴿إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥١)، فإن النهي الحازم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يجعل من يُسمى عليه القوم ييأسون من طرد هؤلاء البسطاء. فهذه الكلمات لم تنزل لتنبية رسول الله ﷺ المعروف برحمته بالفقراء؛ بل لتحطم آمال المتغطرسين.

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يشير أيضاً إلى هذه الحقيقة العظيمة نفسها، فكما لا يمكن لرسول الله ﷺ أن يطرد

الفقراء بسبب تواضع حالهم، فكذلك لا يسوّغ أن يُظن بأنه قد يطردهم بسبب تقصيرهم في بعض الأعمال. وإضافة إلى حقيقة أن الفقراء والأغنياء يقفون على قدم المساواة في هذا الأمر؛ فإن الشرع لا يجعل النبي مسؤولاً عن أعمالهم، وبالتالي لا يمكنه طردهم بناءً على ذلك، إلا إذا اقترفوا جرماً خطيراً.

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا
أَهَؤُلَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ
بَأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى اختبار الله تعالى للأغنياء والمترفين بانضمام الفقراء والبسطاء إلى جماعة أتباع النبي ﷺ، حيث كان وجود الفقراء في جماعة المؤمنين بمنزلة حجر عثرة في طريق الأغنياء إذ منع المتطهرين منهم من الدخول في الإسلام. لقد تساءل الأغنياء وعلية القوم هل اختار الله هؤلاء الفقراء لينالوا أفضاله؟ وكأنهم يقولون: نحن أهل الثراء والغنى ولكن الله فضّل الفقراء علينا وأنعم عليهم دوننا. فرد الله على تساؤلهم وقال: لقد أعطيتهم القليل فشكروني على ذلك، وآمنوا برسولي. وأعطيتمكم الكثير فلم تكونوا شاكرين وكفرتم برسولي، أفلا يستحق إذن هؤلاء الفقراء أن أفضّلهم عليكم بإنعاماتي؟ انظر أيضاً الآية السابقة.

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ

مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾

التفسير:

إِنَّ الرسالة التي يتضمَّنُها قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ هي التي أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يُبلِّغها للمؤمنين، أي إِنَّ هذا «السلام» صادرٌ من الله تعالى نفسه. وإشارةً إلى هذا السلام الموعود في الآية، فقد أمر المؤمنون أن يُحيِّي بعضهم بعضًا بقولهم: «السلام عليكم»، أي ليكن عليكم السلام الذي وُعدتم به. وقد يلاحظ القارئ أن الآية استخدمت لفظ ﴿سَلَامٌ﴾ دون «أل» التعريف، بينما استعملت في التحية بصيغة «السلام»، وذلك للدلالة على أن تحية المؤمنين تجسّد السلام الموعود في هذه الآية الكريمة.

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ
سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾

التفسير:

يوجد هنا محذوف مقدر، فيمكن أن نقدر قبل قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَتِينَ﴾ كلمة «لتستغفروا» أو «لتؤمنوا».

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾

التفسير:

هذه الآية مرتبطة بالآية رقم ٥٣ من هذه السورة. لقد أُمِرَ رسول الله ﷺ في هذه الآية أن يقول للكافرين ما معناه: «لا شأن لي بآلهتكم، ولا يمكنني أن أطرد أتباعي الفقراء إرضاءً لكم. إنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد وأنتم مشركون، فكيف أطرد المؤمنين بالله من أجل الكافرين؟ تزعمون أنكم إذا انضمتم للإسلام فإنه سيحظى بالقوة والتأييد، ولكن في الحقيقة لو اتبعت أهواءكم فسوف تكون النتيجة أن أضل وتُدَمِر دعوتي بدلاً من أن تتقوى. إن مهمتي هي أن يتبع الناس الهدى، أما إذا اتبعت أهواءكم فسوف أضل أنا نفسي ولن يكون هناك إسلام ولا هدى. فما الذي سأجنيه إذن من تأييدكم؟».

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا
عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٨﴾

التفسير:

تطلب هذه الآية من رسول الله ﷺ أن يقول للكافرين ما مفاده: «إنكم تُصَرِّون بعناد على أخطائكم بينما أنا على بَيِّنَةٍ تامة من ربي. وتقولون: إن كنا على ضلال فلم لا يعاقبنا الله؟ يجب أن تتذكروا أنه ليس في قدرتي إنزال العقاب بكم، وإنما هو بيد الله ﷻ وحده، ينزله على من يشاء وقتما يشاء وهو أحكم الحاكمين، وهو الذي يحكم بالحق بيني وبينكم».

قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ
الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾

التفسير:

تبين هذه الآية الكريمة أحد الأسباب التي من أجلها لم يُمنح الأنبياء سلطة إنزال العذاب، إذ إن الله ﷻ وحده العالم بمن هو عادل ومن هو جائر. فلو أوكل أمر إنزال العذاب إلى البشر الذين لا يعلمون بواطن القلوب؛ فلربما عاقبوا الكثيرين ممن هم ليسوا في الحقيقة من الظالمين. على سبيل المثال، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بداية الأمر من أشد المعادين لرسول الله ﷺ ولكن الله ﷻ كان يعلم أنه سيصبح يوماً بطلاً مغواراً من أبطال الإسلام، حتى غدا ثاني خلفاء رسول الله ﷺ. ولو كان أمر إنزال العقاب بيد النبي ﷺ فلربما اختار معاقبة عمر رضي الله عنه في أيام معارضته الشديدة للدين الجديد، ولخسر بذلك الإسلام خسارة كبيرة. لذا فالذي يعلم ما تكنه الصدور هو الذي بيده الحكم بالعذاب لأنه وحده العالم بمن يستحق العقاب ومن لا يستحقه. فكم من أشخاص يظهرون بمظهر الوداعة بينما تضرر قلوبهم شراسة الذئاب الضارية، وكم من آخرين يبدون ظاهرياً قساةً معاندين ولكن قلوبهم تمتلئ بالطيبة. ولو ترك الأمر للأنبياء لمعاقبة أعدائهم فلربما أسرعوا في عقابهم قبل أن يحين الوقت الذي قدره الله ﷻ لذلك.

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا
حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

التفسير:

تُقدم هذه الآية سبباً أخريين لماذا يجب أن يظل أمر إنزال العذاب بيد الله وحده، وهو أن الله ﷻ وحده من عنده مفاتيح الغيب والذي يعلم السر وأخفى وهو المطلع على أسرار القلوب وما تكنه الصدور، لذا فهو من بيده وحده أمر إنزال العذاب.

إن التعابير: ﴿الْبَرِّ﴾ و﴿الْبَحْرِ﴾ و﴿مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ و﴿حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ و﴿رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ كلها أوصاف لأحوال الإنسان المختلفة. ف«البحر» في المفهوم العربي رمز للمصاعب، بينما يرمز «البر» للرخاء والراحة، وتشير عبارة «مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ» إلى أعمال الإنسان التي تذهب هباءً بلا فائدة، أما «حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ» فإنها إن تركت دون حماية ضاعت، تماماً كما تضيع الفضيلة إن تركت دون رعاية. وكذلك فإن «الرَّطْبِ وَالْيَابِسِ» كلاهما معلوم عند الله تعالى، فالشجرة قد تبدو يابسة ولكنها تخضر إذا ما رويت بمياه الأمطار، وكذلك قد يبدو إنسان لنا خالياً من كل روحانية، غير أنه إذا روي بماء الرحمة الإلهية امتلأ بالحياة الروحانية.

وكلمة (كتاب) الواردة في هذه الآية تعني أيضاً «العلم»، ولقد استخدمت هذه الكلمة في مواضع أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٥٧) وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (القلم: ٤٨)، حيث جاءت كلمة «كتاب» في الآية الأولى بمعنى «العلم» بينما جاءت كلمة «يكتبون» في الآية الثانية بمعنى «يعلمون». ولقد ورد أن رسول الله ﷺ كتب لأهل اليمن قائلاً: «قد بعثت إليكم كاتباً من أصحابي» أي رجلاً عالمًا من صحابتي (مجمع بحار الأنوار، الجزء ٣ ص ١٩٣). فقولته تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قد يعني محفوظ في العلم الإلهي المؤكد.

ولما كان الله تعالى وحده مالك مفاتيح الغيب وهو وحده العالم بكل أحوال الإنسان وأعماله؛ لذا فهو الوحيد القادر على عقابه، أما من ينقصه العلم التام فليس أهلاً لذلك. كما أن الله ﷻ وحده العالم بمدى تأثير الشدة أو اليسر على أعمال الإنسان، وهو وحده العالم ما إذا كانت الأعمال الصالحة للإنسان قد حبطت بفعل عوامل أخرى، وهو وحده المطلع على ما في قلب الإنسان من مثقال حبة من صلاح وطهارة ويعلم ما إذا كانت هذه الحبة ستنبت وتنمو وتزدهر وتثمر، وهو وحده الذي يمكن أن يقول إن ذلك الإنسان الذي يبدو في ظاهره «يابساً» وخالياً من الحياة الروحانية سيصبح «مخضراً» عندما يُروى بالماء السماوي أم أنه ميت لا يرجى إحياءه.

باختصار، الله ﷻ وحده الذي يملك العلم الحقيقي بكل شيء وبكل الأحوال والظروف والإمكانات، لذا فهو وحده الذي يقرر ما إذا كان أحد يستحق العقاب أم لا.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا
جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ
مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

يَتَوَفَّاكُم: أي يقبض أرواحكم. كتب العالم المؤلف لتفسير البحر المحيط: «إن كلمة (تَوَفَّى) - كما هو معروف جيداً - تعني الإمامة، ولكن في هذه الآية قد استخدمت مجازياً بمعنى الإنامة لما بين النوم والموت من مشابهة كبيرة». (انظر أيضاً سورة البقرة: ٢٣٥ وسورة آل عمران: ٥٦).

جَرَحْتُمْ: من «جَرَحَ». يُقال «جرحه» أي شق بعض بدنه، و«جَرَحَ» تعني أيضاً اكتسب؛ استحق؛ عمل؛ فعل (معجم لين).

التفسير:

تواصل هذه الآية التأكيد على أن العقاب بيد الله ﷻ وحده، فنقول إن الله وحده العليم بأحوال الإنسان في الليل وبما يفعله في النهار، وإن الأوقات كلها تحت سيطرته وسلطانه. وبناءً على ذلك، فهو وحده الذي يعرف الصالح من الطالح، وهو وحده الذي يملك الحق في إنزال العقاب، وهو وحده الذي يعلم متى يكون الوقت الأنسب لوفاء أحد، ولذلك لم يفوض أمر إنزال العقاب إلى أحد غيره.

وأما قوله تعالى: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فلا يشير إلى أجل محدد اعتباطاً من قبل الله تعالى، بل المراد من «الأجل» هنا هو الأجل المحدد وفق القدرات والملكات التي وهبها الله تعالى للإنسان منذ ولادته، وهي قابلة للزيادة أو النقصان تبعاً لاستخدامها الصحيح أو الخاطئ، ومن ثم لا يوجد ما يشير هنا إلى علم الله الأزلي.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا
وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦٢﴾

التفسير:

تقدم هذه الآية سبباً آخر لكون الله ﷻ وحده صاحب الحق في إنزال العقاب، فهو تعالى «القاهر» أي القوي والقادر على كل شيء، ولهذا فهو قادر على عقاب أي أحد من خلقه متى شاء.

إن الأقوياء لا يتعجلون في إنزال العقاب، فهم يعلمون أنهم يستطيعون ذلك متى أرادوا. وكذلك فإن الله ﷻ هو الذي يحفظ عباده وينصرهم، وهم ينعمون بالأمن بفضل، ولا يصيبهم الدمار إلا إذا نزع الله تعالى عنهم رداء رحمته، وهو يفعل هذا لما يرى ذلك مناسباً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ يفيد أن الله ﷻ إذا قرر أمراً لا يمكن لشيء أن يؤخره أو يبطله.

ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ۚ لَا لَهُ الْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٣﴾

التفسير:

من الملاحظ أن القرآن الكريم عند الحديث عن الموت يستخدم صيغة المفرد كما جاء في الآية السابقة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾، بينما تشير الآية الحالية إلى بعث الناس جميعاً بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾. وذلك لأن الموت يأتي للناس فرادى، وليس لهم جميعاً، بينما بعث الناس سوف يأتي للناس جميعاً في نفس الوقت.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَانًا مِّنْ هَذِهِ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

تَضَرُّعًا: من «ضَرَعَ» أي: ذَلَّ؛ ضَعُف؛ خضع؛ وهن، وتعني أيضاً رضع من أمه. «تَضَرَّعَ»: تقرب؛ تذلل؛ ابتهل (معجم لين).

خُفْيَةً: مشتق من «خَفَى» أي ستر؛ كتم؛ وارى. يُقال «قُتِلَ خَفِيَةً» أي سراً (معجم لين).

التفسير:

تعني كلمة «ظلمات» حرفياً: «ظلام الليل»، غير أن المقصود بها هنا النوازل والكوارث والمصائب؛ إذ كان العرب يعدون الظلام رمزاً للشقاء، وكانوا يسمون اليوم الذي تحدث فيه نكبة كبيرة باليوم النجى لأنه يعتبر حالك الظلام لدرجة تُرى فيه النجوم في كبد السماء.

ينبغي ملاحظة أن القرآن الكريم استعمل في هذا الموضع كلمتي «تضرعاً» و«خفية» بدلاً من «جهراً» و«سراً»، فاستبدل لفظ «تضرعاً» بلفظ «جهراً»، مشيراً بذلك إلى أن الدعاء الجهرى لا يكون نافعاً إلا إذا أُدِّي بتواضع وخشوع. أمّا الدعاء العلني الذي يؤدَّى بدافع الرياء والمباهاة، فلا قيمة له، لأن الدعاء لا يكون مؤثراً إلا إذا أُدِّي بتضرع وتذلل.

قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ
ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾

التفسير:

يبين قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أن الله ﷻ لا ينجيك من الكروب التي تدعوه للنجاة منها فحسب، بل ومن المصائب الأخرى التي لم تدعوه بشأنها أيضاً. وتقدم هذه الآية وسابقتها السبب الثالث في تفرد الله ﷻ في إنزال العذاب، فتبين أن ما من سميع لدعاء العباد غيره وما من أحدٍ غيره ينجيهم من الابتلاءات التي تحل بهم. فمن يستجيب الدعاء ويرفع البلاء هو الوحيد الذي بيده إنزال العذاب، وإلا لو كان معه شريك لكان من المحتم أن يحدث بينهما تعارض ونزاع.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ أَوْ
يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ
أَنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

تبين هذه الآية السبب الرابع لعدم امتلاك أحد من البشر القدرة على إنزال العذاب بالناس بسبب ذنوبهم، وأن الله تعالى وحده مالك هذه القدرة، فالعقوبات التي يوقعها الناس ببعضهم إنما هي عقوبات ظاهرية ومحدودة في طبيعتها؛ أما العقوبات الإلهية فمتنوعة وواسعة النطاق. على سبيل المثال، أقصى ما يستطيع الإنسان فعله هو إنهاء حياة إنسانٍ آخر، بينما قد يُنزل الله ﷻ عقاباً بإنسان يحرق فؤاده ويصيبه بالاضطراب الشديد، وهذا النوع من العقاب الذي هو في الغالب أشد من القتل، لا يمكن أن يوقعه إنسانٌ بغيره.

ويشير القرآن الكريم هنا إلى بعض أنواع العذاب التي يمكن أن ينزلها الله بالبشر. فالعذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يشير إلى المجاعات والزلازل والفيضانات والأعاصير وظلم الجبارة للضعفاء والمعاناة النفسية...إلخ.

أما العذاب ﴿مِّن تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ فيشير إلى الأمراض والأوبئة وعصيان الرعية ونحو ذلك. ثم هناك عذاب الفتنة والشقاق والنزاعات التي يمكن أن تؤدي إلى حرب أهلية، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

جميع هذه الأشكال المختلفة من العذاب بيد الله تعالى فقط، لذا فهو ﷻ وحده صاحب القدرة الحقيقية على إنزال العذاب بالبشر.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٧﴾

التفسير:

يعود الضمير -الهاء- في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾ إما إلى: (١) البحث الذي نحن بصدد، أي أن الله ﷻ وحده الذي بيده إنزال العذاب؛ أو (٢) القرآن الكريم؛ أو (٣) العذاب. فإذا أخذ بالمعنى الأخير، فإن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني أن العذاب الموعود واقع لا محالة. وأما قوله تعالى: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فيعني أنه إذا جاء عذاب الله، بعد أن أبلغتكم رسالته، فإنني لن أستطيع منعه ولا حفظكم منه. ومن الجدير بالذكر أن الكافرين مع إصرارهم على استعجال العذاب؛ كان النبي ﷺ يشفق عليهم ويظهر لهم مواساته.

لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

التفسير:

تبين هذه الآية أن الله تعالى، بحكمته المطلقة، قد قدر وقتاً معيناً لتحقيق كل نبوءة، لذا فإن العذاب الذي وُعد به الرافضون للحق سيأتي في وقته المحدد، وعندها سيدركون أنها لم تكن نبوءة كاذبة. يطالب الكافرون بنزول عذاب الله فوراً، ولكن هذا مستحيل، فالذي له ميعاد محدد لا يمكن أن يأتي قبل أوانه.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا

يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

ذِكْرَى: المصدر من «ذَكَرَ» (انظر سورة البقرة: ٤١ و ١٥٣ و ٢٠١). «ذِكْرَى» تعني: تذكّر؛ وجود شيء في العقل؛ ارتباط الذهن بشيء؛ قبول نصح؛ تذكير بشيء؛ نصح. لذا فالكلمة تستخدم مرتبطة بالفعل المتعدي أو اللازم (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

عندما قيل للكافرين، رداً على طلبهم إنزال العذاب، إن لكل نبأ مستقر وموعده محدد، وإن عذاب الله ﷻ لا يمكن أن يأتي قبل أوانه، سخرُوا من هذه النبوءة. لذا يخاطب القرآن الكريم النبي ﷺ، ومن خلاله المؤمنين، بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عليك أن تترك مجلسهم وتغادر مكانهم حتى لا يثيروا غضب الله ﷻ بخوضهم في حديثهم الفارغ والوَقْح. وتوجه الآية المؤمنين إلى ألا يتيحوا للمشركين فرصة ارتكاب المزيد من التجاوزات بالجلوس معهم؛ بل عليهم مغادرة مجلسهم فوراً في مثل تلك الأحوال حتى يضطروا للخوض في حديث آخر.

يمكن أن تؤخذ عبارة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ على وجه مجازي أيضاً، فيكون معناها: عليك التغاضي عن سخريتهم وكأنك لم تنتبه إليها، ويجب ألا تجادلهم فيها لعلهم يكفون عنها فينصرفوا إلى حديث آخر.

أما كلمة «الشيطان» (المزيد من التوضيح انظر الآية ١٥ من سورة البقرة) فهي لا تعني دائماً الروح الشريرة، بل تطلق أيضاً على أشياء أخرى ضارة.

وقد وردت هذه الكلمة في بعض أحاديث النبي ﷺ بمعنى «الغضب» و«الحسد». وفي هذه الآية التي نحن بصددتها قد يكون المقصود بـ «الشيطان» هو الغضب،

فيكون المعنى: «إذا أنساك الغضب أو السخط أمر مفارقة هؤلاء الناس ومغادرة المكان...» غير أن هذا التفسير لا يصح إلا في حق الناس الذين بلغوا درجة عالية من التقوى، أما بالنسبة لعامة الناس، فإن كلمة الشيطان هنا تفسر بمعنى «الوساوس» أو «الغفلة والإهمال».

وأما كلمة «ذكرى» - كما ورد في شرح الكلمات - فتحتمل معنيين: «التذكُّر» و«التذكير». فإذا أخذت بالمعنى اللازم (غير المتعدي)، فيكون معنى الجملة أنه عندما تتذكر أمر مغادرة المكان، عليك القيام بذلك فوراً. أما إذا أخذت بمعنى «التذكير»، فيكون المقصود: عليك قبل مغادرة المكان تذكير أولئك المستهزئين بسوء تصرفهم وأن تبين لهم أن مسلكهم شرير وشائن، ومن شأنه إثارة غضب الله ﷻ عليهم. ويجدر بنا أن نتذكر أن هذه الآية ليست موجهة في الواقع لرسول الله ﷺ، بل إلى كل مؤمن.

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

ذكرى: انظر الآية السابقة.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا

يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا
لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

تُبْسَلُ: مشتق من «بَسَلَ» أي منع أو حبس أو حظر. «أبسل»: بالإضافة للمعاني السابقة، تعني: رهن. «أبسله»: أسلمه للهلاك (معجم لين وأقرب الموارد).

شَرَابٌ: من «شرب» أي جرع. «شراب»: كل ما يُشرب. هذا هو المدلول الأصلي للكلمة ولكن يستخدم بعض كُتَّاب العصر الحديث كلمة «شراب» بمعنى «الخمر» أيضاً (معجم لين).

حَمِيمٌ: مشتق من «حَمَّ» أي صار (الماء أو غيره) حاراً أو ساخناً جداً. وكفعل متعدٍ يكون حَمَّ بمعنى: سَخَّنَ الماء. «حَمَّ الشحمة»: أذابها. «حَمَّه»: غسله بالماء الساخن أو بالعكس أي بالماء البارد. «حميم»: الماء الحار؛ الماء البارد؛ العَرَق. وتعني أيضاً: الصديق أو الحبيب (معجم لين)، وقد جاء هذا المعنى -الحبيب- غالباً من حرارة المشاعر.

التفسير:

يقضي سياق الجملة ومفهومها أن تُستخدم كلمة «دينك» في قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، لكن القرآن الكريم استخدم كلمة «دينهم» لِيُبَيِّنَ أن الإسلام جاء لخيرهم وأنهم يرفضه قد أضروا أنفسهم. ويعني قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أنه إذا كان الكفار في حالة غضب وهياج، وكان تذكيرهم سيزيدهم غضباً فينبغي تركهم وشأنهم. أما إذا لم يُخَشَّ ذلك، فيجب أولاً نصحتهم وتذكيرهم ثم تركهم بعد ذلك. والضمير في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ يعود على القرآن الكريم.

وتتضمن هذه الآية الكريمة حثاً للمؤمنين على عدم الغضب من استهزاء المشركين،
فبما أن واجبهم نصح الكافرين وتحذيرهم، فعليهم الصبر على سخريتهم.

وكما جاء في شرح الكلمات، فإن كلمة ﴿تُبَسَّلَ﴾ قد تعني «تُرَهَّنَ أو تُسَلَّم»، فيكون
المعنى: ذكّر الناس وانصحهم حتى لا تُسَلَّم أنفسهم إلى ما اقترفوه من السيئات، حتى
لا يتمادوا فيها. (انظر أيضاً البقرة: ١٦)

أما إذا أخذت بمعنى «أسلمه للهلاك»، فيكون المعنى: ذكّرهم بالقرآن حتى لا يُسلموا
للهلاك والعقاب بسبب أعمالهم.

وتخاطب هذه الآية المؤمنين منبهة إياهم إلى ضرورة تبليغ دعوة الحق، وتدعوهم
إلى تصور العواقب الوخيمة إن هم قصروا في دعوة غير المؤمنين. فإن لم يرشدوا
الكافرين إلى الطريق الصحيح؛ ستكون النتيجة استمرارهم في ضلالهم إلى أن يهلكوا
بذنوبهم ويصبحوا بلا ناصر ولا شفيع وعندها لن يُقبل منهم أي فداء.

وأما «الحميم» المذكور في الآية فيعمل عمل العلاج الشافي، بينما يكون «العذاب
الأليم» بمنزلة العملية الجراحية.

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا
وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ
كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ
حَيْرَاتٍ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا
قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

اسْتَهْوَتْهُ: من «هوى»، يُقال «هوى الشيء» أي سقط (من مكان أعلى إلى أسفل). وبالعكس، «هوى الرجل الجبل»: صعد. «هوت الريح»: هبّت. «هويه»: أحبه واشتهاه. «الهوى»: العشق ويكون في الخير أو الشر؛ الرغبة، الميل. استهواء: «استهوته الشياطين»: ذهبت بهواه وعقله؛ وقيل استهامته وحيرته أوزّنت له هواه (أقرب الموارد). وأيضاً «الهوى»: محبة الإنسان الشيء وغلَبَتْهُ على قلبه؛ ميل النفس إلى الشهوة دون أي دعوة شرعية لذلك؛ والرأي الذي ينحرف عن الطريق الصحيح أو عن الحق (معجم لين).

حَيْرَان: من «حار»، يُقال «حار الرجل» أي نظر إلى الشيء فلم يقو على النظر إليه وارتد عنه؛ ضلّ الطريق ولم يهتد لسبيله. «حيران»: كان في حالة ارتباك واضطراب، جهل وجه الصواب، ضل طريقه (معجم لين).

التفسير:

تُعلّم الجملة الافتتاحية من الآية، من خلال مثال، منهج تبليغ الحق. فهي تُشير إلى أن أفضل أسلوب في الدعوة هو البدء ببيان أخطاء الفريق المخالف، كما يلمح إليه قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ثم الانتقال إلى عرض الحق كما يبيّن قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾. ثم تقدم الآية مثلاً جلياً يكشف عبثية الشرك، أي اتخاذ شركاء مع الله تعالى، إذ تشبه حال عابد الأوثان بالرجل المضطرب الذي لا يسير على نهج ثابت، فينتقل من وثن إلى آخر أو من ضريح أحد الأولياء إلى ضريح آخر بلا قناعة أو يقين. أما المؤمن الحقيقي فله غاية محددة وهدف ثابت، إنه يدعو دائماً إلهاً واحداً بإيمانٍ راسخ، ولا يهيم مشتتاً كمن يعبد الأوثان.

وهكذا يلاحظ القارئ كيف قدمت الآية منهج الدعوة الصحيح، فبدأت ببيان خطأ المشركين، ثم عرضت بعد ذلك تعاليم الإسلام.

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٣﴾

التفسير:

تتابع هذه الآية الكريمة الموضوع نفسه الذي انتهت به الآية السابقة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٤﴾

التفسير:

الفعل «كُنْ» يعني: الأمر بإحداث تغيير، فإن كان متعلقاً بشيء غير موجود فإنه يشير إلى خلق شيء بمشيئة الله ﷻ. أما إن كان متعلقاً بشيء موجود أصلاً، فإنه يعني بوجه عام أن هذا الشيء سيصير إلى العدم حين يشاء الله ذلك. لذا فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني أن كل شيء بيد الله ﷻ، فإذا أصدر الأمر بكسر شوكة المشركين، فلا بد أن تكسر لا محالة. وأما قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ فيؤكد أن هذه النبوءة المذكورة صادقة ولا مفر من تحققها، وما من شيء يمكنه ردها. انظر أيضاً معنى كلمة «حق» في (البقرة: ١٤٨ وآل عمران: ٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يعني أن مملكة الله ﷻ سوف تتوطد بكل جلاء عند غلبة الإسلام وزوال الباطل والشرك بمعتقداته وعاداته. إن

رسول الله ﷺ هو في حقيقة الأمر ذلك «الصور» الذي عن طريقه يُسمع صوت الله ﷻ و«نفخ الصور» يرمز إلى الانتشار الكبير لدعوته التي جاء بها وتوطيدها. فهذه الآية تعني أنه عندما تنتشر دعوة الرسول الكريم ﷺ انتشاراً كبيراً ويقبلها العالم، ويزدهر الإسلام ويطفر؛ فحينئذ سيقام ملكوت الله ﷻ على الأرض بصورة جلية، وعندها ستحطم الأوثان إرباً إرباً.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً
إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

أب: أصلها «أبو» وتعني: الوالد؛ السلف؛ العم. «أبو المرأة»: زوجها. «أبو المثنى»: سيد الدار (معجم لين). انظر أيضاً النساء: ١٢.

آزر: لبحث هذه الكلمة وعلاقة القرابة بين «آزر» ب«إبراهيم» عليه السلام؛ انظر التفسير أدناه. يرى البعض أن الكلمة أعجمية وإن كان لها أصل في اللغة العربية. يُقال «آزر النبات» أي غلظ وقوي. «آزر فلاناً»: قوّاه. «آزره»: عاونه (أقرب الموارد). لذا فإن اسم «آزر» يبدو أنه وصفي وأعطى له لمؤازرته قومه في توطيد عبادة الأوثان، وقال مجاهد: هو اسم صنم (فتح القدير).

التفسير:

يتطرق القرآن الكريم في هذه الآية إلى قصة إبراهيم عليه السلام، وذلك لسببين: أولهما؛ أن مشركي قريش هم المخاطبون الأساسيون في هذه الآيات وكانوا يبجلون إبراهيم عليه السلام باعتباره جدهم الأعلى وأباهم الروحي. إذن يريد الله ﷻ بسرد قصة

إبراهيم عليه السلام أن يخبر أهل قريش أن جدّهم الأكبر إبراهيم عليه السلام كان أيضاً مثل الرسول الكريم ﷺ معارضاً للشرك، مما يبيّن أن عبادة الأوثان بدعة متأخرة.

وثانياً؛ يريد الله أن يؤكد للمشرّكين فساد وبطلان الأساس الذي يقوم عليه معتقد عبادة الأوثان وممارستها، وأن الأفكار التي أدت إلى الشرك منافية للعقل.

والآية التي نحن بصدها تصور إبراهيم عليه السلام وهو يجادل أباه حول موضوع الشرك، وقد سُمّي أبوه هنا «آزر». ولننظر الآن ما هي صلة هذا الرجل بإبراهيم عليه السلام وما هو اسمه الحقيقي؟.

لقد انتقد الكتّاب المسيحيون القرآن الكريم لأنه سَمّى والد إبراهيم عليه السلام «آزر» مع أن اسمه الحقيقي «تيرح» (Teah)، بحسب ما جاء في سفر التكوين ١١: ٢٦. ولكن جاء في إنجيل لوقا ٣: ٣٤ أن إبراهيم ابن «تارح» (Thaa) وليس ابن «تيرح» (Teah) وكذلك جاء في التلمود أن والد إبراهيم هو «تارح» (Thaa). أما «يوسيبوس» - المؤرخ الكنسي الكبير - والملقب بجدارة «مؤسس التاريخ الإكليريكي (الكنسي)» بالرغم مما جاء في سفر التكوين ١١: ٢٦ وإنجيل لوقا ٣: ٣٤ - اللذان لا يمكن أن يجھلهما - قد أعطى والد «إبراهيم» اسم «آثر» (Sale). هذا يُظهر بكل وضوح أنه حتى بين اليهود لا يوجد إجماع فيما يخص اسم والد إبراهيم عليه السلام.

إن حقيقة عدم أخذ «يوسيبوس» بما جاء في سفر التكوين ١١: ٢٦ وإنجيل لوقا ٣: ٣٤ يُبيّن أنه كان لديه أسباب قوية لمخالفة هذين المصدرين المعروفين، وعليه فإن الاسم الصحيح هو «آثر» الذي تغير فيما بعد إلى «تارح» أو «تيرح». إن الاسم الذي أقره «يوسيبوس» يتطابق إلى حد كبير - إن لم يكن تماماً - مع ما ذكره القرآن الكريم. والفرق الوحيد هو في النطق فقط، وإلا فإن الصيغتان «آزر» و«آثر» متطابقتان. لذا فليس هناك من سبب يدعو المسيحيين للاعتراض على القرآن الكريم

١. التراجم العربية للكتاب المقدس لا تراعي هذا الفرق بين «تيرح» و«تارح» بل تكتبه في كل مكان «تارح». الناشر

في تسمية والد إبراهيم ﷺ بـ«آزر». ومما يجدر ملاحظته أنه جاء أيضاً في التلمود أن والد إبراهيم ﷺ اسمه «زارح Zaah» (سيل) وهو تقريباً مثل «آزر Azar».

كل ما سبق يُثبت أن القرآن الكريم لم يخطئ في تسمية والد إبراهيم ﷺ بـ«آزر»، وليس هذا فحسب؛ بل إن الرواية القرآنية أوثق بكثير من رواية الكتاب المقدس.

أما السؤال التالي والذي هو محل الاعتبار: ما هي صلة «آزر» بإبراهيم ﷺ؟ لقد جاء في القرآن الكريم أنه «أبو» إبراهيم ﷺ، وكما ذُكر في شرح الكلمات أن «أب» لا تعني فقط الوالد إنما تُطلق أيضاً على العم أو الجد... إلخ ممن يقوم مقام الأب. يتضح من القرآن الكريم أنه بالرغم من أن «آزر» قد دُعي أبو «إبراهيم»، إلا أنه لم يكن والده حقاً. لقد جاء في سورة التوبة الآية ١١٤ أن إبراهيم ﷺ قد وعد أباه «آزر» أن يستغفر الله له ولكن عندما تبين لإبراهيم ﷺ أن أباه عدو لله امتنع عن ذلك، بل في واقع الأمر قد نُهي عن الدعاء له. (انظر أيضاً الشعراء: ٨٧) حيث ذُكر مرة أخرى أن «آزر» هو أبو إبراهيم ﷺ.

ولكن ذُكرت في مواضع أخرى من القرآن الكريم أدعية سيدنا إبراهيم ﷺ في أواخر أيام حياته بعد بناء الكعبة الشريفة بمشاركة ابنه إسماعيل ﷺ، وقد دعا إبراهيم ﷺ فيها لأبيه ولم يُمنع من ذلك، ولقد استخدم كلمة «والد» وليس كلمة «أب» كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم ٤٢). فكما سبق بيانه؛ فإن كلمة «أب» من الممكن أن تُطلق على شخص غير الأب الحقيقي ولكن كلمة «والد» لا تُطلق إلا على الأب الحقيقي. وهذا يُبين بكل جلاء أن «آزر» الذي سُمي «أبو إبراهيم» هو شخص مختلف عن والد إبراهيم ﷺ وهو على الأرجح عمه. ويؤيد هذا الاستنتاج بعض الفقرات من التوراة، فلقد ورد أن إبراهيم ﷺ تزوج سارة ابنة «تيرح» (التكوين ٢٠: ١٢) وهذا يبين أن «تيرح» لم يكن والده في الحقيقة وإلا ما أمكنه الزواج من ابنته أي أخته. يبدو أن والد إبراهيم ﷺ قد توفي وكفله عمه «آزر Azar» أو «آثر Athar» وزوجه ابنته سارة ولأن آزر هو الذي ربى

إبراهيم عليه السلام وكان في مقام والده لذا كان يُنسب إليه على أنه ابنه وهذا ما تسبب في اعتبار «آزر» أو «آثر» خطأ أنه والد إبراهيم عليه السلام الحقيقي.

كذلك يتضح من التلمود أن آزر قد لاحق إبراهيم وقدمه للمثول أمام الملك بتهمة تحطيم الأوثان؛ فإن كان «آزر» هو الوالد الحقيقي لإبراهيم ما كان ليسلك هذا السلوك ضد ابنه.

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

مَلَكُوت: من «مَلَك»، ملك الشيء أي استولى عليه وكان في قدرته أن يتصرف فيه بما يريد. «الملكوت»: الملك العظيم؛ العز والسلطان؛ القدرة على كل شيء؛ مقام الأرواح المقدسة في السماء (أقرب الموارد). وتستخدم كلمة «ملكوت» للدلالة خصوصاً على ملك الله تعالى وسلطانه (المفردات). انظر أيضاً الفاتحة: الآية ٤.

التفسير:

إن كلمة «ملكوت» - كما سبق ذكره - تختص بملك الله ﷻ، لذا فقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أننا أريناه مظاهر قدرتنا وحكمنا على كل شيء في الكون. يقول العالم المسلم الكبير «شهاب الدين السهروردي» في كتابه الشهير «عوارف المعارف»: «عندما يبلغ السالك مراتب الروحانية، وينكشف له عالم الملكوت، يولد ولادةً روحانيةً جديدةً، ولا يدخل أحد الحضرة الإلهية إلا بعد بلوغ هذه الدرجة. فإذا استقر اليقين في قلبه، ورسخ الإيمان في باطنه، زال عنه الشك، وصار عيشه كله في حضرة الله».

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

جَنَّ: أي ستر أو أخفى. يُقال «جَنَّ الليلُ الشيء» أو «جَنَّ الليلُ على الشيء» أي ستره وأظلم عليه. «جَنَّ الليل»: أظلم واختلطت ظلمته. (انظر أيضاً البقرة: ٢٦ والأنعام: ١٢٩).

التفسير:

انظر شرح الآية رقم ٨٠ فيما بعد.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٨﴾

التفسير:

انظر شرح الآية رقم ٨٠ فيما بعد.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي
هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٩﴾

التفسير:

انظر شرح الآية رقم ٨٠ التالية.

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠﴾

التفسير:

تحتوي الآيات من ٧٧ إلى ٨٠ على الحجج التي ساقها سيدنا إبراهيم عليه السلام لعبدة الأوثان من قومه لعلهم يدركون فساد عقائدهم في ألوهية الشمس والقمر والنجوم التي يعبدونها (دائرة المعارف اليهودية). وإنه لمن الخطأ أن يُستنتج من هذه الآيات أن إبراهيم عليه السلام نفسه كان يتخبط في الظلام، لا يعرف من هوربه، وأنه اتخذ نجوم الليل والقمر والشمس آلهة واحداً تلو الآخر، ثم عندما أفل كل واحد منها بدوره، تخلَّى عن اعتقاده في ربوبيتها وأناب لله الواحد خالق السماوات والأرض. وتتضمن هذه الآيات ما لا يقل عن ١١ دليلاً واضحاً على أن إبراهيم عليه السلام لم يتخذ أيّاً من تلك الأجرام السماوية آلهة من دون الله؛ وإنما كان هدفه أن يُبين لقومه، خطوةً خطوة، خواء معتقداتهم. ويمكن تلخيص بعض هذه الأدلة فيما يلي:

أولاً، استُهل هذا المقطع بالآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، وهي مرتبطة بما قبلها بأداة الربط «فلما» (أي: حين) والتي تفيد التعقيب والترابط، أي أن ما ورد في هذه الآية التي نحن بصددھا مرتبط بما سبقه ووقع بعده مباشرة. وقد سبقت هذه الآية الآيتان ٧٥ و٧٦: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَزَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ وهما تظهران بكل جلاء ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من يقين وإيمان راسخ وقوي بالله الواحد، وما بلغه

من مقام عالٍ روحانيًا. وبناءً على هذه المنزلة العالية والحفظ الإلهي، لا يمكن الظن أن إبراهيم عليه السلام كان نائمًا في الظلمات يتخبط كالأعمى متنقلًا من إله لآخر.

ثانيًا، ليس من المعقول افتراض أن إبراهيم عليه السلام قد رأى النجوم أو القمر لأول مرة تلك الليلة، فهو من قوم دأبوا على عبادة النجوم، ولا بد أنه قد رآها سابقًا مرات عديدة. ولو كان إبراهيم عليه السلام من عبدة النجوم حقًا، فلا بد أن يكون قد تشرب هذا الأمر مما سمعه من أبيه والآخرين، وليس بمشاهدته النجوم والتأمل فيها. فعبادة النجوم لم تكن أبدًا فكرة جديدة اكتشفها بمجرد النظر إليها. لذا ما من شك أن قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لا يراد منه التعبير عن إيمانه، وإنما هو حجة ساقها لدحض فكرة عبادة النجوم. فلم يفترض إبراهيم عليه السلام جدلاً أن النجم الذي رآه هو ربه إلا ليثبت عدم ألوهيته لاحقًا عند أفوله، وليبين لقومه خطأهم باتخاذ النجم ربًا لهم.

ثالثًا، لما أفل النجم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ وهو عليه السلام كان يعلم يقينًا أن النجم لا بد له من الأفول، فقد رآه يغيب مرارًا من قبل. ومن ثم فإن هذه الحجة ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ كانت بلا شك حاضرة في ذهنه سلفًا، ولم يكن له - في ضوء هذه الحجة - أن يتجه إلى عبادة النجوم. بل إن مقصد إبراهيم عليه السلام في الحقيقة هو توظيف هذه الحجة في مواجهة عبدة النجوم على نحوٍ بالغ الأثر، فافتراض أولًا، على سبيل الجدال، أن النجم هو ربه، فلما أفل بادر بالإعلان: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾. وسلك المسلك نفسه عند أفول القمر ثم الشمس. وعند حديثه عن الشمس قال عليه السلام على سبيل التهكم والتقريع: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ ليوضح قومه على حماقتهم. ويلاحظ هنا أنه لم يستخدم كلمة «أكبر» عند الحديث عن القمر مع أنه أكبر من النجم، ولهذا الإغفال دلالة، إذ يبين أن إبراهيم عليه السلام كان ينوي منذ البداية الإشارة إلى الشمس بعد الانتهاء من الحديث عن القمر.

رابعًا، لو كان إبراهيم عليه السلام يبحث حقًا عن الله، واتخذ النجوم والقمر والشمس آلهة واحدًا بعد الآخر؛ لكان الاستنتاج الطبيعي الذي ينبغي أن ينتهي إليه بعد رفض

ربوبية هذه الأجرام السماوية الثلاثة هو إنكار وجود إله أصلاً. غير أنه، بدلاً من أن يعلن عدم وجود إله، نجده يتوجه إلى قومه قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾. وهذا يُبين أن إبراهيم عليه السلام كان يعرف الإله الحق ويؤمن به، وأنه كان يحاول أن يجذب قومه تدريجياً إليه.

فليتأمل القارئ في جواب إبراهيم عليه السلام كاملاً (الوارد في الآيات من ٨١ إلى ٨٣) وسيتضح له بكل جلاء أن إبراهيم عليه السلام لم يكن عارفاً بالله ومؤمناً به فحسب، بل كان على دراية عميقة بصفاته ﷻ.

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ
هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾

التفسير:

ثبتت هذه الآية والآيتان التاليتان لها، أن الحادثة المذكورة في الآيات من ٧٧ إلى ٨٠ قد استخدمها إبراهيم عليه السلام عمداً كحجة؛ وإلا فإن إبراهيم عليه السلام كان موحداً راسخ الإيمان وقد غاص عميقاً في أعماق الحب والعرفان الإلهي.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأعراف ٣٤؛ الحج: ٧٢.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾

التفسير:

انظر الآية: لقمان: ١٤.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾

التفسير:

تعتبر هذه الآية الجزء الأخير من المقطع الذي يبدأ بالآية ٧٧ والمتضمن محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه. وهي تحسم بشكل قاطع مسألة ما إذا كان إبراهيم عليه السلام قد آمن بالله في نهاية المطاف بعد أن اتخذ الأجرام السماوية آلهة واحداً تلو الآخر، أم أن ذلك لم يكن إلا وسيلة بارعة للإقناع بالتدرج، وقد استخدمها مع قومه ليُبين لهم خطأهم في اتخاذ هذه الأجرام أرباباً. يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وهكذا يشير القرآن الكريم إلى ما سبق على أنه «حجة» علمها الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام الذي استخدمها بدوره بهذا التأثير القوي في مواجهة قومه. ولا يترك هذا الإعلان القرآني مجالاً لأدنى شك في أن إبراهيم عليه السلام قد تخبط وراء آلهة باطلة؛ وإنما كان يسعى لإقناع قومه بخطئهم من خلال أسلوب منطقي بالغ التأثير، ولهذا أسند هذا الفضل الإلهي في هذه الآية إلى الله الحكيم العليم.

إن هذه الآية، وإن وردت في الركوع العاشر، إلا أنها حقيقة تتبع الفقرة السابقة. ويجب أن نتذكر أن تقسيم القرآن الكريم إلى ٣٠ جزء وتقسيم السور إلى ركوعات لم يكن من عمل النبي ﷺ ولا صحابته رضي الله عنهم، وإنما قام به الكتبة المسلمون بعد ذلك بزمان طويل لتيسير القراءة والرجوع إلى النصوص. أما في زمن النبي ﷺ فلم يكن هناك سوى السور والآيات فقط.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

أَيُّوب: هو بطل سفر أيوب الذي ذُكر في التوراة على أنه عاش في أرض «عَوْص». ذكرت بعض المراجع أنها «إدوم» أو الصحراء العربية؛ وآخرون حددوا بلده أنها بين النهرين بالعراق. يبدو أن أرض «عَوْص» تقع في مكان ما شمال الجزيرة العربية، وقيل إن أيوب عليه السلام عاش هناك قبل خروج بني إسرائيل من مصر. لذا فهو قد عاش قبل موسى عليه السلام، أو كما ذكر البعض أنه كان معاصراً له ولكنه تلقى النبوة قبله بعشرين عاماً تقريباً.

ولم يكن أيوب عليه السلام من بني إسرائيل، بل كان من نسل «عيسو» الأخ الأكبر لإسرائيل». وقد مر بمراحل متقلبة في حياته، إذ ابتلاه الله بشتى أنواع المحن، ولكنه أثبت إيمانه وصلاحه، وكان صبوراً وثابتاً إلى أقصى الحدود. ولا يزال أيوب عليه السلام حياً في ذاكرة البشر كمثالٍ يحتذى به في الصبر (دائرة المعارف اليهودية ودائرة معارف الإسلام).

دَاوُد: ويعني: (١) عزيز أو صديق؛ (٢) العم؛ (٣) الأفضل. وكان داود ملك يهوذا وإسرائيل في أورشليم، وهو ينحدر من نسل إسرائيل من سبط يهوذا، كما أنه مؤسس السلالة اليهودية في القدس. حكم في الفترة ما بين ١٠١٠ إلى ٩٧٠ قبل الميلاد وكان محارباً ورجل دولة عظيم. ومن الصعب تقدير مكانته كمؤسس حقيقي للمملكة العبرانية؛ فبفضله توحدت جميع أسباط بني إسرائيل من دان إلى بئر السبع وكونت أمة قوية امتد سلطانها من الفرات إلى النيل. ولقد عانى داود في نهاية حياته كثيراً بسبب افتراءات الماكرين التي أحزنته كثيراً فصب حزنه في ترانيم مزاميره الشهيرة (دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس). أما القرآن الكريم فقد برأه ﷺ من هذه التهم التي نسبت إليه في الكتاب المقدس (سورة ص: ١٩-٢٦).

سَلِيمَان: هو الابن الثاني لداود من «بَثْشَبَع» والملك الثالث لإسرائيل من عام ٩٧١-٩٣١ ق.م. ولقد سمّاه النبي «ناثان» باسم «يَدِيدِيَّا» (محبوب يهوه أي محبوب الرب). ولكن الله أخبر داود أن اسم ابنه يجب أن يكون «سليمان» (أي رجل السلام). وهذان الاسمان يحملان نبوءة عن فترة ملكه التي كانت على درجة عالية من الازدهار والسلام. وبالإضافة لإسميه الرئيسين (يَدِيدِيَّا وسليمان) هناك العديد من الأسماء الأخرى له مثل «أغور Agur» (الذي شد خصره)؛ و«بن Bin» (باني الهيكل)؛ و«ياقيه Jakeh» (الذي ساد ملكه العالم)؛ و«إيثيئيل Ithiel» (الذي فهم آيات الله)؛ و«أوكل Ucle» (الذي يستطيع مقاومتهم).

من الممكن أن يكون اسم «سليمان» مشتقاً من «سَلَم» ويعني: نجا وبرئ وخلص من كل شر. إن بقاءه في الملك لمدة طويلة امتدت لأربعين عاماً تبين أنه قد رسخ دعائم مملكته التي ورثها عن أبيه. لقد كان ملكاً عظيماً وقاضياً حكيماً ووسّع وطوّر التجارة والصناعة في مملكته وأبرم تحالفات ودّية مع الحكام الآخرين. كان أعظم من قام بالبناء من بين ملوك بني إسرائيل وأكثر ما اشتهر به هو بناء هيكل أورشليم المعروف باسم هيكل سليمان في القدس والذي صار فيما بعد قبلة الإسرائيليين في كل الأزمان. وعلى الرغم من ازدهار مملكته إلا أن فترة ملكه لم تكن كلها هائلة،

فلقد حيكّت المؤامرات ضده من قبل الجمعيات السرية من أجل الإطاحة بحكمه، ويُعتقد أن تنظيم الماسونيين الأحرار قد ظهر في عصره. وقد ورثه ابن غير كفؤ (دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس ودائرة المعارف اليهودية). وكان سليمان، مثل أبيه داود عليه السلام، ضحية الكثير من الافتراءات والأكاذيب التي برأها منها القرآن الكريم (البقرة: ١٠٣).

هارون: ابن «عمرام» وينتمي إلى قبيلة «لاوي» وهو أكبر من أخيه «موسى عليه السلام» بثلاثة أعوام، أما أختهما «مريم» فهي أكبر منهما. ويعتبر هارون عليه السلام مؤسس ورئيس الكهنوت اليهودي، وقد قاد الإسرائيليين مع موسى عليه السلام في رحلة خروجهم من مصر. لقد كُلف هارون وموسى عليه السلام معًا بتحرير بني إسرائيل من قبضة فرعون وتبليغهم رسالة التوحيد، غير أن موسى عليه السلام هو النبي الأعلى مقامًا، وكان هارون عليه السلام تابعًا له. وبينما كان موسى عليه السلام يجمع بين الزعامة الدينية والدنيوية، اقتصر دور هارون عليه السلام على الوظائف الكهنوتية الخاصة بسبطه. وكانت مهامه في الغالب كهنوتية لا توجيهية. وعُرف هارون عليه السلام بفصاحته وقوة إقناعه، كما اتّسم بطبع لئِنٍ وخلقٍ ودود. (دائرة معارف الكتاب المقدس ودائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف اليهودية).

التفسير:

تخبرنا هذه الآية والآيات التي تليها أن إبراهيم عليه السلام لم يكن وحده من نبذ الشرك، بل إن أنبياء آخرين قد قاموا بذلك أيضًا. وتذكر هذه الآية نسل إبراهيم عليه السلام حتى الجيل الثاني، فتسمي ابنه إسحاق عليه السلام، وحفيده يعقوب أو إسرائيل عليه السلام. أما إسماعيل عليه السلام - الابن الأكبر - فقد جاء ذكره ضمن مجموعة منفصلة (الآية ٨٧) وليس بشكل ثانوي تحت إبراهيم عليه السلام.

يمكن للقارئ ملاحظة أن الأنبياء من ذرية نوح عليه السلام قد قُسموا في هذه الآية والآيتين التاليتين إلى ثلاث مجموعات، وأُضيف لكل مجموعة منها وصف خاص بها.

تضم المجموعة المذكورة في هذه الآية «داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام»، وهم أنبياء آتاهم الله السلطة والثروة، فتمكنوا نتيجة لذلك من الإحسان للبشرية، ولهذا وُصف أنبياء هذه المجموعة بـ«المحسنين» لأن سلطانهم وثروتهم مكنتهم من تقديم الخير المادي للناس. فقد كان داود وسليمان عليهم السلام ملكين؛ وأنعم على يوسف وأيوب عليهم السلام بالرخاء بعد أن ابتليا بالمحن التي تحملها بصبر عجيب؛ أما موسى وهارون عليهم السلام فكان لهما سلطان عظيم في قومهما.

وتضم المجموعة الثانية (الآية ٨٦) «زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام»، ولم يكن لأحدٍ منهم سلطة أو وفرة دنيوية، بل عاشوا حياة متواضعة وبسيطة، حتى قيل عن إلياس عليه السلام إنه كان نادر الظهور، وغالبًا ما كان يعيش في الغابات. ولذلك وُصف أفراد هذه المجموعة بـ«الصالحين» كما جاء في الآية ٨٦. وكان زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام معاصرين لبعض، أما إلياس عليه السلام فرغم أنه لم يكن معاصرًا لهم إلا أنه شابه إلى حد كبير يحيى عليه السلام، وجاء -على وجه الاستعارة- بقوة وروحه، ولذلك صُنّف أيضًا ضمن هذه المجموعة.

وتألف المجموعة الثالثة (الآية ٨٧) من «إسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام»، وهؤلاء أيضًا لم تكن لهم سلطة دنيوية، غير أن الله ﷻ حباهم بالنعمة والفضل. وقد اتهموا بالطمع في السلطة والثروة؛ فالتوراة تقول عن إسماعيل عليه السلام: «وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَّا جَمِيعُ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُونَ» (سفر التكوين ١٦: ١٢). أما التلمود فيزعم أن إسماعيل سار خلف أبيه إبراهيم عندما أخذ إسحاق ليضحى به، مبتهجًا بأنه سيرث كل الأراضي والقطعان. وقيل عن اليسع أنه تسبب في قتل ملك لم يُطعه، وذلك من أجل نيل النفوذ السياسي. أما يونس فقيل إنه سخط على الله لأنه شعر بالعار لعدم تحقق نبوءته، وزُعم أن هذا يُظهر أنه كان يسعى للسلطة لنفسه. واتهم لوط بأنه اشتكى أراضي المراعي الخصبة، وأنه كان دائم الشجار مع قريبه إبراهيم. وهكذا وُجهت لجميع هؤلاء الأنبياء تهمة الطمع في المال والسلطة، غير أن القرآن الكريم يفند ذلك كله ويبين أن هؤلاء الأنبياء كانوا زمرة من

الربانيين أنعم الله عليهم بصفاء الصلة به ﷺ. ولم تكن لهم حاجة إلى الطمع أو طلب السلطة؛ لأنه كما جاء في الآية ٨٧ قد فضلهم الله ﷻ على العالمين.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

إِيلَاس: عاش تقريباً في عام ٩٠٠ ق.م من سكان «جلعاد» وهي منطقة ريفية بالضفة الشرقية للأردن. وبحسب التوراة فإنه صعد للسماء (الملوك الثاني: ٢). وجاء في ملاخي: «هَآنَذَا أَرْسَلُ إِلَيْكُمْ إِيلِيَّا النَّبِيَّ قَبْلَ يَوْمِ الرَّبِّ، الْيَوْمِ الْعَظِيمِ وَالْمَخُوفِ» (٤: ٥) وهذه النبوة كما فسرها المسيح في (متى ١١: ١٤) قد تحققت في شخص يوحنا المعمدان الذي بشر بالمسيح والذي جاء: «بِرُوحٍ إِيلِيَّا وَقُوَّتِهِ» (إنجيل لوقا ١: ١٧). وبالمثل فإن النبوة المتعلقة بالمجيء الثاني للمسيح قد تحققت في شخص أحمد عليه السلام، المسيح الموعود الذي جاء بروح المسيح الناصري عليه السلام وقوته.

التفسير:

انظر شرح الآية السابقة.

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

الْيَسَعَ: هو ابن «شَافَاط» وكان من حوارى «إيليا» وخليفته، من سكان «آبَل مَحُولَة» إحدى قرى الجليل. وقد وجده إيليا يحترث فأخذه ومسحه بالزيت ليجعله خليفته

وألقى عليه رداءه بتوجيه من الله. هناك الكثير من المعجزات قد نسبت إلى اليسع، ولكن ما كان لقداسة حياته ولا معجزاته التي جاء بها أثر كبير في إصلاح قومه. وفي النهاية أنهكت أعماله العامة والخاصة ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو في التسعين من عمره في عام ٨٣٨ ق.م.

يونس: (يونا) ابن «أَمْتَيَّ» (متى) ولد في «جَتَّ حَافِرَ» من قبيلة «زبولون»، عاش قبل أو أثناء حُكم «يربعام الثاني» أو «يَهُوَأَحَاز» تقريباً في عام ٨٥٠ ق.م وهو من أنبياء بني إسرائيل بعثه الله إلى أهل «نينوى». لقد أنبأ قومه بهلاكهم خلال ٤٠ يوماً ولكنهم ندموا وتابوا إلى الله متضرعين فرفع الله عنهم العذاب، فاستاء يونس عليه السلام وخجل من أن يظهر وجهه لقومه فهرب منهم وأثناء عبوره البحر ألقى في الماء وابتلعه الحوت (يونا ١: ١٧). ظل يونس عليه السلام في بطن الحوت ثلاثة أيام ثم لفظه ونجا من الهلاك. هذه الحادثة هي التي أشار إليها المسيح عليه السلام عندما قال إنه لن يعطي آية إلا آية يونا (متى ١٦: ٤) أي أنه سوف يعلق على الصليب ولكنه سوف ينزل منه حياً ويوضع في القبر لثلاثة أيام وبعدها سينجو تماماً كما حدث مع يونا عندما خرج من بطن الحوت.

التفسير:

انظر الآية ٨٥ أعلاه. تتحدث هذه الآية عن لوط عليه السلام بأن الله فَضَّلَهُ «عَلَى الْعَالَمِينَ»، وإذا فهمت كلمة «الْعَالَمِينَ» بأنها تعني جميع الناس، فسيكون ذلك خطأ واضحاً، وذلك لأن لوط عليه السلام قد عاش في زمن إبراهيم عليه السلام ومما لا شك فيه أنه لم يكن أرفع شأنًا منه. لذا فكلمة «الْعَالَمِينَ» لا يمكن حتى أن تعني هنا جميع الناس في زمنه كما هي في مواضع أخرى من القرآن الكريم، بل المقصود فئة مخصوصة من الناس. فإن التفصيل المقصود هنا هو تفضيل على الأقوام الذين أرسل إليهم الأنبياء المذكورون في هذه الآية فحسب.

وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٨﴾

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير:

تفيد هذه الآية أن الهدى الحقيقي هو الذي أوتيهِ الأنبياء المذكورون في الآيات السابقة؛ إذ إنهم جميعاً قد دعوا إلى نبذ الشرك. ويشير الجزء الأخير من الآية إلى أن هؤلاء الأنبياء لم يشركوا بالله شيئاً حتى قبل بعثتهم؛ وإلا ما كان لهم أن يرتقوا إلى هذا المقام الروحاني السامي.

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا
قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾

التفسير:

إن الله ﷻ بوجه عام يُعطي الكتاب بطريقتين: أولاً، بطريق مباشر كما هو الحال مع موسى ﷺ ورسولنا الكريم محمد ﷺ. وثانياً، بطريق غير مباشر كما هو الحال مع الأنبياء الذين لم يُوحَ إليهم كتاب جديد، وإنما اتبعوا الكتاب الذي أنزل على نبي سابق. فعلى سبيل المثال يخبرنا القرآن الكريم عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى

وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (المائدة: ٤٥)، وثبتت هذه الآية الكريمة أن العديد من أنبياء بني إسرائيل لم يوح إليهم كتاب جديد وكانوا يتبعون التوراة. ولقد أكد التاريخ صحة ذلك حيث ثبت أن العديد من أنبياء بني إسرائيل لم يُعطوا كتاباً جديداً. وعليه فإن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ لا يعني أن كل نبي قد أنزل عليه كتابٌ على حدة، بل المقصود هو أن جميع الأنبياء قد أعطوا علماً بالكتاب السماوي. ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن كلمة «أُولَئِكَ» التي بُدئت بها الآية لا تشير إلى الأنبياء المذكورين في الآيات السابقة فحسب، بل وإلى بعض آبائهم وأبنائهم وإخوانهم أيضاً: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ (الأنعام: ٨٨) وبالتأكيد فإن هؤلاء لم يُعطوا كتاباً جديداً.

كما أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي ورد فيها التعبير ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بمعنى أنهم لم يُعطوا الكتاب مباشرةً (البقرة ١٢٢ و ١٤٧، العنكبوت ٤٨، الجاثية ١٧). ومن المثير للاهتمام أن الآية الأخيرة أي (الجاثية: ١٧) لم تذكر الكتاب فحسب، بل ذكرت كل الأشياء الثلاثة المذكورة في الآية التي نحن بصدددها على أنها أعطيت لبني إسرائيل حيث تقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الجاثية ١٧).

وباختصار، عندما نتعلم من القرآن الكريم ومن التاريخ أن العديد من الأنبياء لم يُعطوا كتاباً جديداً بشكل مباشر. ونرى أن قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قد استخدم في القرآن الكريم بمعنى إعطاء الكتاب بصورة غير مباشرة. فلا يمكن تفسير الآية التي نحن بصدددها على أنها تعني أن كل نبي قد أُعطي الكتاب مباشرةً من الله ﷻ. ويتفق المفسرون المسلمون على أنه لم يُعط جميع الأنبياء كتاباً مباشرةً من الله وأن قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ في حقهم يعني منحهم علم الكتاب أو فهمه، أو جعلهم ورثة له.

وتشير كلمة ﴿قَوْمًا﴾ الواردة في الجزء الأخير من الآية إلى المسلمين، ويشير الضمير في كلمة ﴿بِهَا﴾ إلى ﴿الكتاب والحكم والنبوة﴾ الواردة في بداية الآية.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ
قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

التفسير:

من الممكن أن يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ موجهاً إلى الرسول ﷺ أو إلى كل مسلم، فالتعاليم الأساسية لكل الأنبياء واحدة.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ
الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا
وَعِلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ
ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٢﴾

التفسير:

يبين القرآن الكريم في هذه الآية سبب الاختلافات في الدين، فهي تنشأ إما عن الجهل أو قلة التدبر أو سوء الفهم، كما يتضح من قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. في الواقع إن الذين يقولون: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ لا يقدرُونَ صفات

الله ﷻ حق قدرها، فرويتهم تلك عن الله تنتقص كثيراً من عظمته وتتعارض تماماً مع صفاته.

وفيما يتعلق بالمعتقدات الدينية، فقد كان الناس زمن الرسول ﷺ على فئتين: فئة تنكر الوحي كلية وترى أنه لم يكن هناك وحي في أي وقت من الأوقات. وفئة أخرى تؤمن بنزول الوحي في الماضي، وأن الله لم يرسل أي وحي في زمنهم. وينتمي المشركون، أي عبدة الأوثان والذين يتخذون مع الله آلهة أخرى، إلى الفئة الأولى. أما الفئة الثانية فهم أهل الكتاب. وقوله تعالى: ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) يحتمل أحد معنيين: (١) أن الله لم يوح مطلقاً لبشر بأي شيء، أو (٢) أن الله لم يوح في هذا الزمن لأحد؛ وبالتالي فهو يشير لكل من المشركين وأهل الكتاب على السواء. كان المشركون هم المعنيين بالخطاب في الآيات السابقة، ولكن في هذه الآية قد شمل الخطاب أهل الكتاب أيضاً.

وفيما يخص أهل الكتاب، فلقد قال القرآن الكريم عنهم: ﴿قُلْ مَنْ أُنْزِلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾، أي أنكم قسّمتم كتاب موسى ﷺ إلى أجزاء تُظهرون بعضها وتخفون ما يحتوي منها على النبوءات والعلامات الدالة على مجيء الرسول الكريم ﷺ، إنكم تنكرون الوحي القرآني مع أن في كتابكم أدلة صدقه، ولكنكم تخفونها.

على أية حال، إن هذا الرد لا يقنع المشركين، لأنهم لا يؤمنون بكتاب موسى ﷺ ولا بأي كتاب سماوي، ولذلك قدّم لهم القرآن الكريم إجابة عقلية وهي: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، فهذا دليل عقلي ليس لأهل الكتاب فحسب بل للمشركين أيضاً، ويثبت أن القرآن الكريم وحي من عند الله ﷻ، فهو يقول لهم: «إذا لم يكن هذا الكتاب - القرآن الكريم - من وحي الله ﷻ، فمن ذا الذي أودع فيه تلك التعاليم الحكيمة والشاملة التي لم تكن معروفة لكم ولا لأبائكم؟ وهي تعاليم تعجزون عن الإتيان بمثلاً، فالله ﷻ وحده القادر على إعطاء هذه التعاليم».

وأما الكلمات الأخيرة من الآية الكريمة: ﴿ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ فلا تعني أن عليك أن تتوقف عن دعوة المشركين، وإنما المقصود «أنبئهم ووضح لهم أن القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ المليء بالحكمة، والذي ليس بمقدور البشر الإتيان بمثله. فإن أصروا على السخرية منه، ابتعد عنهم ودعهم في لهوهم». وهذا الأمر يشبه ما سبق ذكره في الآية ٦٩ من نفس السورة.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٣﴾

شرح الكلمات:

مُبَارَكٌ: من «بَرَكَ»، يُقال «بَرَكَ الجمل» أي استناخ وهو أن يلصق صدره بالأرض. «بَرَكَ» تعني أيضاً ثَبَتَ أو رَسَخَ أو اسْتَقَرَّ. «بَرَكَ على فلان»: دعا له بالبركة. «بارك عليه»: واظب عليه. «بارك الله فيك أو بارك الله عليك»: جعلك مباركا. «تبارك الله»: تقدّس وتنزه. «البركة»: السعادة؛ الزيادة؛ النماء. «البركة»: مستنقع الماء؛ الحوض؛ مكان لبقاء الماء وتجمّعه. «مبارك»: مرضي عنه؛ مُنعم عليه؛ ميمون، سعيد (معجم لين).

أُمّ: بالإضافة لمعناها المعروف -والدة- تعني: أصل؛ منشأ؛ مُعْظَم؛ ما يجمع الشيء. ويُطلق أيضاً على الجماد، تقول العرب: «أُمّ الشجرة» و«أُمّ النجوم» أي المجرة. «أُمّ القرى»: الحاضرة أي أم القرى الصغيرة التي حولها؛ مكة المكرمة لأنها القبلة التي تجمع الناس أو لأنها تتمتع بمكانة عظيمة بين القرى (معجم لين). وسميت مكة بـ«أُمّ القرى» أيضاً لأنها مصدر الغذاء الروحاني للبشر.

تضيف هذه الآية الكريمة مزيداً من الإيضاح إلى الحجة العقلية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ وتبين أن كلمات الآية التي نحن بصددھا تشير إلى القرآن الكريم وتذكر أربعاً من ميزاته وهي أنه: (١) مرسل من الله ﷻ؛ (٢) مفعم بالبركات، فكما جاء في شرح كلمة «مبارك» فإنه قد جمع كل بركات الله، مثل البركة التي تتجمع فيها المياه؛ (٣) جاء مصداقاً لما سبقه من الكتب أي محققاً للنبوءات الواردة في الكتب السماوية السابقة؛ (٤) أوحى به للرسول ﷺ لينذر به أم القرى ومن حولها. فالمكان الذي يظهر فيه نبي من أنبياء الله يُسمى «أم القرى» لأن الناس ينهلون منه اللبن الروحاني كما يرضع الطفل اللبن من ثدي أمه. وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ يشمل الأرض كلها، فبما أن الأرض كروية، فكل جزء فيها يقع حول المكان الذي ظهر فيه الرسول ﷺ أي مكة المكرمة. وهكذا تُثبت الآية الكريمة أيضاً عالمية رسالة الرسول ﷺ.

وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يشير إلى أن من يؤمن حقيقة بالآخرة لا بد وأن يؤمن بالقرآن الكريم. فالذي يؤمن حقاً بالبعث، يكون في قلق دائم بحثاً عن الحق أملاً في النجاة؛ والذي يبحث بصدق عن الحق سوف يهتدي إلى الإيمان بالقرآن؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ٧٠). لذا فالإيمان بالقرآن الكريم هو معيار لصدق الإيمان يوم البعث. ومن يؤمن بالقرآن فإنه، بالتأكيد، سوف يسعى للعمل وفق تعاليمه وسيواظب على أداء صلواته.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ
قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ
قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ

الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ
بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٤﴾

التفسير:

تُقدم هذه الآية الكريمة دليلاً آخر على أن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل، حيث تقول بأنه إن لم يكن هذا الكتاب كلام الله ﷻ؛ فإن من افترى هذا الكذب على الله هو من أكثر الناس إثماً، ولا يمكنه أن ينجو من عقاب الله ﷻ. وتُذكر الآية أيضاً المكذبين والمنكرين بأنه إن لم يكن القرآن الكريم كتاباً مزوراً، بل كلام الله كما هو في الحقيقة، فإنهم يكونون من أكبر المذنبين، تماماً كالذي يفترى على الله الكذب، وسوف ينزل بهم العذاب الإلهي.

ويمكن أن يؤخذ قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ على أنه شرح أو تفصيل لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. أو يمكن أن يكون قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ عاماً، أي أن كل ما ينسب إلى الله كذباً يندرج تحت هذه الفئة، أما قوله ﷻ: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فهو خاص بمن يدّعي زوراً أن الله قد أوحى إليه بكلماتٍ معينة.

ويشير قوله ﷻ على لسان الكافر: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إلى أن الكافر يستعير أسلوب الذين يخاطبهم، أي المؤمنين، ولأنه لا يؤمن بالوحي السماوي ولا بأن الله ينزل شيئاً، فإنه يقتبس فقط ما يقوله المؤمنون فيما يتعلق بالوحي السماوي. ومثال ذلك أيضاً ما جاء في الآية ٤٤ من سورة المائدة.

وبيعني قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أنه لو شاهد أحد العذاب الذي يحيق بمكذبي الرسل عندما تفارق أرواحهم الأجساد، لأدرك على الفور مدى شدة العذاب الذي يحيق بمكفري رسل الله ﷺ. ولا يُقصد بهذا العذاب سكرات الموت العادية والتي يشترك فيها الصالحون والطالحون على حدٍ سواء بموجب قانون الطبيعة العام، وإنما هو عذاب خاص يحيق بمكذبي الأنبياء منذ اللحظة الأولى لموتهم. ولا يشير تعبير ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ في قوله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ إلى عذاب جهنم؛ وإنما إلى العذاب الواقع بالآثمين فور موتهم وقبل يوم البعث، وهو ما يُعرف بـ«عذاب القبر» بحسب المصطلح الديني الإسلامي، حيث أن «القبر» هو اسم المكان الذي تبقى فيه الأرواح بعد الموت قبل بعثها.

ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَى مَقْعَدِهِ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (سنن ابن ماجة - كتاب ذكر القبر والبلية). فمن المؤكد أن عذاب القبر ليس الجزاء النهائي، وإنما هو تمهيدٌ له.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ
مَعَكُمْ شُفْعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ
شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا
كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٥﴾

شرح الكلمات:

خَوَّلْنَاكُمْ: من «خال» وتعني: صار ذا خول - خدم وعبيد وحاشية - بعد انفراد. «خَوَّلَهُ اللهُ مَالًا»: أعطاه إياه متفضلًا. «الخول» - جمع «خولي» - وهم العبيد والإماء وغيرهم من

الحاشية أو الماشية أو الإبل وغيرها هبةً من الله؛ الهبة أو العطية (معجم لين). و«الخول» إعطاء ما يحتاج أن يتعهدده، من قولهم فلانٌ خالٌ مالٍ وخايلٌ مالٍ أي حسنُ القيام به (المفردات).

التفسير:

إن كلمة «خول» كما جاء في شرح الكلمات تفيد إعطاء شيء بهدف الانتفاع منه على الوجه الصحيح أو من أجل تحسين حالة المتلقي لهذا العطاء.

لذا فقوله ﷺ: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يعني بأننا أعطيناكم ما يصلح أرواحكم، ولكنكم تركتموه وراء ظهوركم ولم تستفيدوا منه، وقد مضى الآن زمن الانتفاع به.

ويشير قوله ﷺ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفْعَاءَكُمْ﴾ إلى أنكم عقدتم الآمال على شفعاكم الذين أشركتموهم مع الله ﷻ وظننتم أنهم سوف يعينونكم، ولكن انقطعت الآن كل صلة لكم بهم، فهم ليسوا معكم هنا ليمدوكم بأي عون، بل قد خذلوكم وأضلوكم.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ
فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٦﴾

التفسير:

يشرع القرآن الكريم الآن في تقديم حجج من الطبيعة تثبت الحاجة للوحي والهدي الإلهي، فيلفت الانتباه أولاً إلى الحبوب والنوى التي تنبت منها الأشجار. فما أقل شأن الحبة، ولكن انظر كيف تنمو لتصبح شجرة وارفة. وبالمثل تنظرون إلى الإنسان فترونه ضئيل الشأن، وتقولون: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩٢)، غير

أن هذا الإنسان الذي تظنونه حقير الشأن إنما هو كالحبة، وبمقدوره أن يزدهر ليصبح شيئاً عظيماً.

ويشير قوله ﷺ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إلى أنه كثيراً ما يأتي إنسان شريف وعظيم من والدين سيئ الخلق والتربية، فلم العجب والظن أنه من المستحيل أن يرتقي إنسانٌ صالح روحانياً وينال الأفضال الإلهية؟! فقد جعل الله ﷻ حال الإنسان مثل الحبة ووهبه الكثير من الملكات، وجعله قادراً على التقدم العظيم، فلماذا إذن لا تفهمون ولا ترون الحق؟.

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

حُسْبَانًا: مصدر «حَسَبَ»، يقال «حسبه» أي عدّه. «حُسبان»: الحساب؛ وتعني أيضاً العقاب أو الكارثة أو البلوى التي يُختبر بها الإنسان (معجم لين).

التفسير:

يبين قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أنه كما أن الله تعالى يجعل الفجر يزغ فيتحول الليل نهاراً، كذلك فإنه ﷻ يُخرج الناس من الظلمات الروحانية إلى النور، ومن ظلمات الكفر والإثم إلى نور الإيمان والطهارة. وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يشير إلى أنه كما أن الإنسان يتعب بعد عمل النهار فيلجأ إلى النوم ليلاً ليجدد نشاطه، كذلك كان الناس الذين ظهر فيهم الرسول ﷺ في سبات طويل، فجاء ليجدد طاقاتهم. لقد جاء الرسول ﷺ في الوقت الملائم، إذ كان الناس في أحسن حال للعمل والاستفادة من بعثته ﷺ بعد تجديد قواهم، فامتلاؤا قوة وأصبح

بإمكانهم الارتقاء إلى أعلى المدارج الروحانية تحت قيادته ﷺ وهذا ما حدث بالفعل. وبالإشارة إلى الشمس والقمر في هذه الآية الكريمة، فإن القرآن الكريم يلفت انتباه منكري الوحي إلى حقيقة أنه كما لا يمكن الاستغناء في العالم المادي عن الشمس والقمر لتقدير الوقت وكمصدر للضوء، فكذلك لا غنى عن أنبياء الله في العالم الروحاني.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا
فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٨﴾

التفسير:

تتلخص الحجة الواردة في هذه الآية الكريمة بما يلي: «إذا كان الله في الحياة الدنيا قد جعل النجوم ليُهتدى بها في ظلمات الليل، فكيف يعقل ألا يجعل نجومًا في العالم الروحاني لهداية الإنسان؟ إن سلامة الإنسان الروحانية أهم بكثير من سلامته المادية. فإذا كان الله ﷻ قد هيا أسباب الهداية المادية للإنسان، أفلا يقتضي المنطق أن يوفر أسباب الهداية الروحانية للبشر الخاطئين؟».

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ
وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

أَنْشَأَكُمْ: من «نشأ» وتعني شبَّ وقرب من الإدراك؛ ارتقى؛ نما؛ بزغ. «أنشأ»: ربَّى؛ رفع؛ أحدث (معجم لين).

مُسْتَقَرٌّ: من «قَرَّ» وتعني ثبت وسكن. «استقر» نفس المعنى. «مستقر»: موضع الاستقرار؛ المنزل؛ مكان الراحة (معجم لين).

مُسْتَوْدَعٌ: من «وَدَّعَ» أو «وَدَّعَ» وتعني سكن واطمأن. «وَدَّعَ الشيء»: تركه. «ودع عنده مالا»: تركه وديعة. «وَدَّعَ»: هجره. «استودعه مالا»: دفعه إليه ليكون عنده وديعة. «مستودع»: مكان الحفظ؛ ومكان الولد من البطن (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

رغم أن لكل من كلمتي «مستقر» و«مستودع» معنى مميزاً ومستقلاً، إلا أنهما يُستخدمان أحياناً بمعنى واحد متطابق. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ (الحج ٦)، وجاء أيضاً: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ (البقرة: ٣٧). ويتضح من هاتين الآيتين أن «رحم الأم» و«الأرض» مع كونهما مكاني إقامة مؤقتة؛ إلا أن القرآن الكريم قد اعتبرهما «مستقر»، وبالمثل يُطلق على «الرحم» أيضاً وصف «مستودع».

إن العالم الآخر هو في الحقيقة «المستقر». وفي الواقع، «مستقر» و«مستودع» تعبيران نسبيان، إذ إن المكان الواحد يمكن أن يُعتبر «مستقراً» و«مستودعاً» في آن معاً، فمن الممكن أن يُطلق على مكان ما أنه «مستقر» من حيث كونه موضع الإقامة، ويسمى كذلك «مستودعاً» من حيث ما يوفره من أمان.

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن الله ﷻ حين جعل الناس يتكاثرون من نفس واحدة، لم يكن ذلك عبثاً وبلا هدف. فالغرض الأسمى من خلقه للإنسان وجعله يتكاثر ويتزايد، ليس مجرد منحه فترة من البقاء على هذه الأرض؛ وإنما ليحيا حياة خالدة بعد القبر، حيث ينعم الأبرار منهم بلقاء ربهم، وهو هدف سام لا يُنال إلا بطاعة رسل الله ﷺ.

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرُجُ
مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ
وَالرُّمَّاتَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

شرح الكلمات:

مُتَرَاكِبًا: من «رَكِب»، يقال «رَكِبَهُ» أي علاه. «تراكب»: تراكم. «متراكب»: متراكم بعضه فوق بعض (أقرب الموارد).

طَلْعٌ: من «طَلَعَ» أي ظهر أو بدا. «الطلع»: من النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود؛ ما يبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها (معجم لين).

قِنْوَانٌ: جمع «قَنُو» مشتق من «قَنَا»، يُقال «قَنَا المال»: جمعه وكسبه واتخذته لنفسه لا للتجارة. «القنو»: العِدْق بما فيه من الرطب (أقرب الموارد).

يَنْعُهُ: من «يَنَعَ»، يُقال «يَنَعَ الثمر»: طاب وحن قطافه وقنأ لونه (احمر). «اليانع»: الثمر الناضج. «الينع»: مصدر من الفعل «يَنَعَ» أي نضج؛ وجمع «يانع» أي الثمر الناضج (أقرب الموارد).

التفسير:

تُشَبِّه هذه الآية الوحي بماء المطر؛ وتجيّب عن تساؤل مفاده: لماذا تُثار الخلافات والنزاعات عند بعثة الأنبياء إذا كان الوحي نعمة حقاً؟ فتقول: إنه كما تنمو بنزول

المطر شتى أنواع النباتات، الضار منها والمفيد، بحسب البذور الكامنة في الأرض، كذلك عند نزول الوحي الإلهي ينقسم الناس، بعد أن كانوا مختلطين، إلى صالحين وطالحين. فالصالحون يؤمنون بالمبعوث السماوي وينصرونه، فيصيرون من المتقين الأبرار، مثل الأشجار التي تحمل الثمار الطيبة، أو كالأجمات الجميلة المزهرة، أو الأعشاب ذات الروائح الزكية. وفي المقابل، هناك الطالحون الذين يعادون النبي ويضطهدون أتباعه ويسعون في الأرض فساداً، فمثلهم كمثل الأشجار التي تحمل ثماراً مراً، أو كالأجمات الشوكية الخالية من الزهور، أو النباتات كريهة الرائحة.

ويومئذ قوله ﷻ: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ إلى تشابه بعض الثمار واختلاف بعضها الآخر، وهذا ينطبق على الثمار من مختلف الأنواع والتي تتشابه في جوانب وتختلف في أخرى. كما ينطبق على الثمار من النوع الواحد والتي رغم تشابهها في الخصائص الأساسية، تتباين في التفاصيل الدقيقة؛ فبعضها يكون أكثر حلاوة، وبعضها الآخر يختلف في اللون أو الحجم. وينطبق الأمر نفسه على المؤمنين بالأنبياء والذين يتبعون الهدى السماوي، فرغم تشابههم الكبير، إلا أن بينهم فروقاً، فمنهم من يبلغ درجة أعلى أخلاقياً وروحانياً، وقد يكون بعضهم أرقى روحانياً من زاوية، بينما يتفوق عليه غيره من زوايا أخرى. فمن صحابة النبي ﷺ رأينا من صار أباً بكر ومن صار عمراً ومن صار عثماناً ومن صار علياً رضي الله عنهم أجمعين وهكذا... لقد أحرزوا مراتب روحانية مختلفة وارتقوا إلى مدارج متباينة، كل بحسب قدراته الفطرية والطبيعية.

ويشير قوله ﷻ: ﴿يَنْعِهِ﴾ إلى اعتراض ضمني قد يثيره منكرو الوحي، وهو أن الذين يؤمنون بالوحي الإلهي لم يصبحوا جميعاً أطهاراً أبراراً. فترد الآية على هذا الاعتراض بهذه الكلمة، وتضرب مثلاً لنضج الثمار؛ إذ ينبغي أولاً النظر إلى حال الثمار قبل نضجها، ثم إلى ما تصير إليه بعد نضجها من حلاوة المذاق ولذة الطعم. فكما أنه ليس من الإنصاف الحكم على الثمار غير الناضجة، كذلك ليس من العدل الانتقاص من ثمار الوحي بسبب بعض الأفراد الذين ما زالوا في طور النمو ولم يبلغوا الكمال بعد. وتبين هذه الآية أن وجود بعض الضعف والقصور لدى المؤمنين في البداية أمرٌ لا

مفر منه، تماماً كالمذاق اللاذع الذي لا مناص منه في الثمار غير الناضجة. لذا فليس من الإنصاف إنكار أهمية الوحي وقيّمته بسبب ما قد يظهر من ضعفٍ واردٍ لدى بعض المؤمنين الذين لم تصل حالتهم الروحية بعد إلى درجة الرقي الكامل.

وتلفت هذه الآية الكريمة الانتباه بأسلوبٍ بديعٍ إلى ثلاث نقاط مهمة يمكن استنتاجها من ضرب المثل بما ينمو من مختلف أنواع النباتات نتيجة هطول المطر: (١) أن المطر يُنتج نباتاتٍ نافعة وأخرى ضارة (المؤمنين والكافرين)؛ (٢) حتى في الثمار الطيبة (المؤمنين) يوجد بعض التنوع، أي أوجه تشابه واختلاف؛ (٣) حتى الثمار الطيبة في المراحل الأولى من النضج لا تكون حلوة المذاق، بل قد تكون لازدة الطعم.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا
لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٠﴾

شرح الكلمات:

الْجِنَّ: من «جَنَّ» أي استتر أو خفي، وتشير هنا إلى أولئك الذين يظنون مخفيين ومستترين من الناس كالمملوك والحكام. كما أنها بحسب مدلولها الأوسع تشمل أيضاً الملائكة وكل ما خفي من المخلوقات. (انظر البقرة: ٢٦ والأنعام: ٧٧ و١٢٩).

خَرَقُوا: من «خَرَقَ»، يُقال «خرقه» أي أحدث فيه فتحة أو مزقه. «خرق الأرض»: قطعها حتى بلغ أقصاها. «خرق الكذب»: اختلقه. «خرق» تعني أيضاً: كَذَبَ أو اختلق شيئاً بالباطل على أحد (تاج العروس).

التفسير:

تلقت هذه الآية الانتباه إلى الطريق الذي يتعثر فيه الإنسان حين ينكر الوحي الإلهي فيتبع أهواءه وعقله. وهي تدعو القارئ للتمييز بين التعاليم السماوية والتعاليم البشرية؛ فالذين ساروا من غير هداية النور الإلهي واتبعوا أهواءهم، ضلّوا عن الطريق المستقيم، فاتخذ بعضهم الجن (الملوك وغيرهم) شركاء لله تعالى، كما فعل المصريون في زمن موسى عليه السلام. بينما نسب آخرون إلى الله تعالى البنين والبنات، كما فعل المسيحيون الذين ألّهُوا المسيح عليه السلام واعتبروه ابناً لله تعالى. إن مقارنة التعاليم البشرية بتلك التي أوحاها الله ﷻ تثبت بكل وضوح الحاجة إلى الوحي الإلهي.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾

شرح الكلمات:

وَلَدٌ: من «وَلَدْتُ» أي وضعت حملها. «وَلَدٌ» أو «وُلِدَ» أو «وُلِدَ»: كل ما ولده شيء، ويُطلق على الذكر والأنثى، والمثنى والجمع (معجم لين).

التفسير:

بعد الإشارة إلى التعاليم البشرية، ينتقل القرآن الكريم إلى عرض التعاليم الإلهية، فيبين أنه لا يوجد إلا طريقان ليكون للإنسان ولد: إما عن طريق الزواج أو عن طريق التبني. أما الطريق الأول، فليس لله ﷻ زوجة، ومن ثم يستحيل أن يكون له ولد. وقد اعتبر المسيحيون المسيح «ابن الله» ولكنهم لم يعتبروا «مريم» زوجةً لله ﷻ. وأما إن قيل إن المسيح هو ابن الله بالتبني، فإن هذا لا يجعله مستحقاً لدرجة روحانية

أعلى من غيره من الناس، إذ كان يمكن لله ﷻ أن يتبنى أي إنسان آخر؟ ثم إن الله ﷻ هو خالق كل شيء وهو العليم، ولا حاجة له إلى اتخاذ ولد.

ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ
كُلِّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٣﴾

التفسير:

لأن الله ﷻ هو خالق كل شيء والوكيل عليه، لذا فهو وحده الإله الحق. إذ لو وُجد شيء لم يخلقه الله تعالى أو يحفظه، لما صحَّ أن يكون إلهاً كاملاً.

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ ﴿١٠٤﴾

شرح الكلمات:

لَا تُدْرِكُهُ: من «أدرِك» المشتق من «درِك»، يُقال «أدرِكُهُ» أي لحقه أو علمه أو رآه أو أخذه. «أدرِكُهُ» تعني أيضاً بلغ سن البلوغ أو نضج (معجم لين).

الْأَبْصَارُ: جمع «بصر» وتعني العين أو حاسة النظر أو العلم (أقرب الموارد).

اللطيفُ: من «لطف»، يُقال «لُطِفَ الشيء» أي صَغُرَ وَدَقَّ (ضد ضخَم وكثف). «لُطِفَ

به»: رفق به. «لطيف»: (١) رقيق أو رفيق أو رؤوف؛ (٢) عميق أو مبهم أو دقيق؛

(٣) عليم بدقائق الأمور وخفاياها. وهو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى (تاج

العروس ولسان العرب وأقرب الموارد).

التفسير:

يدّعي بعض الناس أن بإمكانهم معرفة الله ﷻ أو الوصول إليه بالعقل أو الإدراك فقط، فيفند القرآن الكريم بقوة هذا الادّعاء، حيث يقول ﷻ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي أن عقل الإنسان وحده، بدون العون الإلهي، عاجز عن معرفة الله ﷻ أو الوصول إليه. فالله ﷻ هو الذي يدرك الأبصار (أي يحيط بفهم الإنسان) ويُجَلِّي نفسه للبشر؛ إذ إنه من ناحية قد أودع في عقل الإنسان القدرة على البحث عنه ومعرفته، ومن ناحية أخرى أنزل وحيه إليه ليُمكنه من معرفته تعالى. وعلاوة على ذلك، ينير الوحي عقل الإنسان بالنور الذي يُمكّنه من معرفة الله ﷻ.

تقدم الصفتان الإلهيتان «اللطيف» و«الخبير»، في أبهى صورة، الدليل على المحتجين الواردين في مطلع هذه الآية الكريمة.

فالحجة الأولى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، سببها المقابل هو أن الله ﷻ ﴿اللطيف﴾ أي لا يمكن إدراك كنهه بالعقل البشري وحده. والحجة الثانية: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، سببها المقابل هو أن الله ﷻ ﴿الخبير﴾ أي أنه ﷻ يعلم مدى احتياج الناس إلى معرفته، إذ لا وجود للحياة الروحانية من دون هذه المعرفة، لذا فهو بنفسه ﷻ يُقبل على الإنسان ويُجَلِّي نفسه له. وهكذا جاءت الحجتان متبوعتين بالمبررين المناسبين في ترتيب طبيعي محكم. وهنا يلاحظ القارئ الترتيب الحكيم لكلمات القرآن الكريم، التي لم توضع جزافاً، بل وضعت كل كلمة في مكانها المناسب تماماً لتؤدي أفضل غرض منها.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿١٠٥﴾

التفسير:

تسهم كلمة «بصائر» أيضاً في فهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الوارد في الآية السابقة، إذ تُبين أن الله يُظهر الأدلة التي تمكن الإنسان من معرفته ﷺ، فالمراد بكلمة «بصائر» هنا الآيات والعلامات الإلهية التي ينزلها الله ﷻ. وقوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ يراد به من يُعْمِل عقله بعد أن كشف الله ﷻ له البراهين. أما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ فيشير إلى الذين يغلقون أعينهم عن الحق، فيجعلون من أنفسهم عمياناً. ويوضح قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ مهمة النبي ﷺ، وهي تبليغ ما أُوحى إليه من ربه، إذ ليس من مسؤوليته إكراه الناس على الإيمان بالله ﷻ. وهكذا تفنّد هذه الآية الكريمة التهمة الباطلة القائلة إن الإسلام يحيز الإكراه في نشر الدين.

وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

دَرَسْتَ: من «درس» وتعني عفا وامتحن وذبح أثره. «درس الثوب»: صيّرته بالياً فَدَرَسَ أي بلي. «درس الكتاب»: أقبل عليه يحفظه، تعلمه، قرأه (معجم لين).

التفسير:

تعني الآية الكريمة ما مفاده: «لقد بيّنا تعالىمنا بشتى الأساليب، فازداد بها المؤمنون يقيناً، بينما رفضها الكافرون قائلين: إنك قد تعلمت هذه التعاليم من اليهود والنصارى، ثم جئت الآن ترددها علينا».

وقد استعمل الفعل «دَرَسْتَ» هنا على سبيل التهكم والسخرية. وإذا أخذ بمعناه المتعدي، كان معنى الآية أن المشركين قد رفضوا تعاليم النبي ﷺ قائلين: «لقد قرأت

على مسامعنا هذه الآيات والتعاليم التي تزعم أنك جئت بها، وقد سمعناها وهذا يكفي، فلا تزعجنا بعد الآن».

في حقيقة الأمر، فإن تعاليم القرآن الكريم، وإن كانت تنفع من يقبلها، فإنها في الوقت نفسه تُقيم الحجة على من يرفضها، وتجعلهم مسؤولين عن هذا الرفض أمام الله ﷻ.

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٧﴾

التفسير:

انظر الآيات: يونس: ١١٠؛ الأحزاب: ٣.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

التفسير:

لا يعني قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ -ولا يمكن أن يعني- كما قد يُظن، أن المشركين قد اقترفوا الذنوب لأن الله أراد ذلك، بل المقصود هو أن الله ﷻ قد جعل الإنسان حُرّاً في مسائل الإيمان، ولم يفرض مشيئته عليه. ولو فرض الله مشيئته وأجبر الإنسان على الإيمان وعمل الصالحات، لما كان بوسع الإنسان أن يخالف مشيئته، غير أن الله ﷻ بحكمته المطلقة قد جعله حُرّاً في هذا الشأن. وهكذا تبين الآية بكل وضوح أن الله ﷻ لا يُكرِه أحداً على قبول الحق، بل يترك ذلك لاختياره. ولو أراد إجبار الناس؛ لأرغمهم بلا شك على قبول الحق، ولكن، ولأجل خير الإنسان، لم تكن مشيئته ﷻ الإكراه.

وتختتم الآية الكريمة بقوله ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ مؤكدةً الحقيقة نفسها؛ وهي أنه كما أن الله ﷻ لم يجبر أحداً على قبول الحق، كذلك لا يمكن للرسول ﷺ أن يُكره أحداً على الإيمان، إذ هو رسولٌ من الله فحسب. وتشير كلمتا «حفيظ» و«وكيل» إلى أن النبي ﷺ غير مسؤول عن أفعال الكافرين، وليس وكيلاً على شؤونهم. ولمزيد من التفصيل حول هاتين الكلمتين (انظر آل عمران: ١٧٤ وهود: ٥٨).

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ
أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٩﴾

التفسير:

لقد تكلم القرآن الكريم في الآيات السابقة باستخفاف عن تلك الآلهة الباطلة عديمة الحول والقوة، والتي أشركها الناس مع الله ﷻ، وقد يدفع ذلك بعض المسلمين إلى سب آلهة المشركين الباطلة. إلا أن هذه الآية تُحذّر من مثل هذا السلوك. فقد شجب الله الأوثان بصفته قاضياً، وتنديد القاضي لا يُعدّ سباباً، بل هو تعبير ضروري عن الحكم. وهذا لا يمنح الآخرين الحق في سباب من أدانهم القاضي السماوي، أو إيذاء مشاعرهم أو مشاعر من يحبونهم أو يجلّونهم. كما تقدم الآية سبباً آخر لهذا التعليم النبيل، إذ تقول: يا أيها المسلمون، إذا شتمت آلهة الكافرين الباطلة التي يعاملونها بالمحبة والتبجيل، فستكون النتيجة إثارة غضبهم والرد بسبّ الله ﷻ. وهكذا لا تُرسّخ هذه الآية احترام مشاعر الآخرين فحسب، بل تُؤكد أيضاً على ضرورة الوثام بين الأمم والمجتمعات.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿زَيَّاتًا﴾ أن الله ﷻ يُجَمِّلُ الأعمال السيئة فعلًا، إنما المقصود هو أن الله ﷻ قد خلق طبيعة الإنسان هكذا - وفي هذه السُّنَّة الإلهية يكمن السر في رقي الإنسان - بحيث إذا داوم على فعل شيء ما مدةً طويلة، فإنه يكتسب حب هذا الفعل ويره حسناً. ووفقاً لهذه السُّنَّة الإلهية العامة، يصبح المشركون محبين لعبادة الأوثان، ويرونها نافعة وجديرة بالمكافأة.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لْيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾

شرح الكلمات:

إِنَّمَا: تتكون من «إِنَّ» و«ما» وتفيد حصر ما قبلها في ما يأتي بعدها، بمعنى «فقط» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ....﴾ (التوبة: ٦١)، ولكنها لا تفيد الحصر دائماً، بل قد تستعمل أحياناً للإثبات أو الإقرار بمعنى «حقاً» أو «بالتأكيد» كما في الحديث الشريف: «إِنَّمَا الرَّبَّاءُ فِي النَّسِيئَةِ» أي: حقاً الربا هو في بيع الشيء بالتأخير (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

من الممكن فهم الجزء الأخير من الآية على النحو الآتي: «قُلْ: بالتأكيد، إن الآيات عند الله، وسوف تُعرِّفك عند قدومها أنهم لن يؤمنوا»، وفي هذا السياق تكون «ما» اسماً موصولاً بمعنى «الذي» وليست أداة استفهام. وبهذا الفهم تشير الآية الكريمة: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى العقاب الإلهي، ويكون معنى الجملة أنه ليست الآيات الأخرى عند الله ﷻ فحسب، بل إن آية العذاب عنده أيضاً، وعندما تأتي سوف ترى أنها لن تنفعهم شيئاً.

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١١﴾

التفسير:

تُبَيِّنُ الآية أنه حين تأتي آيات الله ﷻ فإنها لا تنفع الكافرين شيئاً، وأن الله سيصرف أفئدتهم وأبصارهم عنها فلا يؤمنون. وإن صرف أفئدتهم وأبصارهم عن آيات الله ﷻ إنما هو نتيجة إنكارهم المتسرع لها منذ البداية، حتى قست قلوبهم وحرموا أنفسهم من الانتفاع بها. ومن سُنَّةِ الله ﷻ أن الذين يرفضون رسله منذ البداية دون أن يتمهلوا ويمعنوا النظر في آياتهم وبراهين صدقهم، يحرمون أنفسهم من نعمة الهداية. أما الذين لا يتعجلون في رفض رسل الله ﷻ ويتدبرون فيما يقولونه بعقلٍ منفتحٍ مخافةً لله ﷻ، وتحذوهم رغبة صادقة في معرفة الحق، فإنهم يهتدون إليه في نهاية المطاف.

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ
الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٢﴾

التفسير:

يستمر في هذه الآية موضوع الآية السابقة. إن من مهام الملائكة حث الناس على الخير ودعوتهم للفضيلة (البقرة: ٣٢)، وهم يقومون بهذا العمل أحياناً عن طريق الرؤى والكشوف، وتشير الكلمات الأولى من هذه الآية إلى هذه المهمة. أما قوله

تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ فيشير إلى شهادة مَنْ مَضَى مِنَ الْأَبْرَارِ عَلَى صَدَقِ رَسْلِ اللَّهِ ﷺ سواء عن طريق ما وصل من نبوءاتهم إلى الأجيال اللاحقة كتابةً أو شفاهةً، أو بظهورهم للناس في الرؤى والكشوف.

وهناك طريق آخر يمكن أن يتكلم به الموتى إلى الناس، وهو ما يحدث عندما تعود الحياة إلى شخصٍ ميتٍ روحانيًا أو إلى أمةٍ خاوية من الروحانية، عند رؤية صدق رسولها، فعندئذ تشهد على صدقه قبل غيرها من الأمم والشعوب.

ويشير قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ إلى شهادة مختلف ظواهر الطبيعة على صدق نبيٍّ أمام أعدائه، إذ تقدم شهادتها في صورة الزلازل والأوبئة والعواصف والفيضانات والمجاعات وغيرها من النوازل التي تنزل بأعدائه عقابًا من الله ﷻ، فتبدو الطبيعة نفسها غاضبة من أعدائه، وكأنها أسلحة موجهة ضدهم. فكل ما لله - وكل شيء في الكون له ﷻ - يقف في وجه أعداء رسله. وهكذا تشهد السماء والأرض على صدق مبعوث السماء.

وجدير بالملاحظة أن كل هذه الآيات قد ظهرت فعليًا في زمن الرسول ﷺ. فقد ظهرت الملائكة في غزوة «بدر» حتى إن بعض الكفار قد رأها (جرير: الجزء ٤ - ٤٧)، غير أن قساة القلوب لم يؤمنوا. لقد كانوا يعلمون أن الرسول ﷺ رجلٌ صادقٌ مستقيم، ولكنهم رفضوا دعوته بسبب رفاق السوء والأهواء الشريرة.

في بادئ الأمر، تأثر حتى رجالٌ أمثال أبي جهل بصدق الرسول ﷺ وأمانته، فقد روي أن أبا جهل عندما قرئت عليه آيات القرآن الكريم أول مرة، أقرَّ بأنها الحق، ولكنه مع ذلك قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف (أجداد النبي ﷺ) الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه! والله لا نسمع به أبدًا ولا نصدق». ثم تمادى في سوء الخُلُق إلى درجة أنه عند غزوة «بدر» دعا الله أن يهلك من كان سبب الفتنة والشقاق (أي هو أو رسول الله ﷺ) وقد استجيب دعاؤه، وكان هو

نفسه ضحية هذا الداء. إن حال هذا الرجل مثال واضح يُظهر كيف قست القلوب بسبب رفضها للرسول ﷺ منذ بداية بعثته رغم علمهم بصدقه وأمانته. ويومئ قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ إلى أنهم لن يؤمنوا إلا إذا فرض الله ﷻ مشيئته عليهم وأجبرهم على قبول الحق، ولكن الله ﷻ لن يفعل ذلك، وهؤلاء الناس جاهلون ولن يغيروا مسلكهم العدائي إلا إذا أُجبروا على ذلك.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ
فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

زُخْرَفُ: يُقال «زُخْرَفَ البيت» أي زَيَّنَه وحَسَّنَه وكَمَّلَه. «زُخْرَفَ الكلام»: حَسَّنَه بترقيش الكذب. «زُخْرَفُ»: الذهب؛ كمال حُسن الشيء؛ الأباطيل المموهة؛ الألوان (أقرب الموارد).

غُرُورًا: انظر شرح الآية ١٢١ من سورة النساء.

التفسير:

إن كلمتي ﴿الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، الواردتين في العديد من آيات القرآن الكريم، لا تشيران إلى صنفين مختلفين من مخلوقات الله ﷻ، بل إلى فئتين من البشر؛ ف«الإنس» هم عامة الناس وغالبيتهم، أما «الجن» فهم عليّة القوم الذين يكونون عادةً بمعزلٍ عن العامة، فلا يختلطون بهم ويعيشون في خفاء عن أعينهم. (انظر أيضًا الآية ١٠١ من سورة الأنعام).

وقد أطلق القرآن الكريم على أولئك الذين يتزعمون معارضة أنبياء الله ﷺ من عامة الناس وخاصتهم وصف ﴿شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ (انظر أيضاً الآية ١٥: سورة البقرة). وتُبين كلمة «شياطين» أن أولئك الذين عاشوا في المعاصي قبل بعثة نبيٍّ من أنبياء الله ﷺ يتمادون بوجه عام في آثامهم عقوبة لهم على أعمالهم السيئة. ولذلك، فإنهم عندما يُبعث نبيٌّ يتولون قيادة العداء ضده ويتزعمون معارضته.

ومن سنن الله ﷻ في كلٍّ من العالم المادي والروحاني أن ملكات الإنسان تتطور بحسب استعماله لها، ولأن هؤلاء الناس قد استخدموا ملكاتهم في غير موضعها الصحيح، كانت النتيجة أنهم، عند ظهور مبعوث من الله ﷻ، يزدادون إثماً ويتزعمون الناس في معارضة الحق. ومن أجل زيادة شرورهم، فإن هؤلاء الزعماء يوسوس بعضهم إلى بعض، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿زُخِرِفَ الْقَوْلُ﴾، بحجج يظنونها حقاً وصواباً، مع أنها في واقع الأمر باطلة وجوفاء، ولا هدف لهم من طرح هذه الأمور إلا خداع ضعاف العقول.

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾

شرح الكلمات:

يَقْتَرِفُوا: من «اقترف» المشتقة من «قَرَفَ». يُقال «قرف لعياله»: كسب لهم. «قرف على القوم»: بغى عليهم؛ كذب وخلط عليهم. «قرف الرجل»: كذب وخلط الحق بالباطل. «قرف الشيء»: قشّره (قشّر لحاء الشجرة). «اقترف الرجل»: اكتسب (خاصة في الشر). «اقترف الذنب»: أتاها وفعله (أقرب الموارد).

التفسير:

يستمر موضوع الآية السابقة هنا، فزعماء الشر من عامة الناس وكبرائهم يوحون إلى بعضهم بعضاً زُخرف القول والحجج المغلوطة لخداع ضعاف العقول وجذب قلوب الكافرين إليهم، طمعاً في تأييدهم وحثهم على الاستمرار في مسارهم الشرير ضد الأنبياء.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٥﴾

التفسير:

يوضح قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ كيف يُقدِّم زعماء الشر على استخدام زخرف القول والمغالطات ضد الأنبياء؛ فهم يحاولون صرف انتباه الناس عن الكتب السماوية التي تشهد على صدقهم، ويستشهدون بتقاليد مشكوك فيها، واقتباساتٍ من كتابات البشر دعماً لأفكارهم الباطلة، أو يقترحون أحياناً أسماء أشخاص معينين ليكونوا قضاة ويصدروا أحكامهم بعد الاستماع إلى حجج الطرفين. ولأن على أنبياء الله كشف أخطاء جميع الأطراف، فإن زعماء الشر على يقين من أن القضاة - المتأثرين بالمعارضة العامة للأنبياء - سيصدرون حكمهم ضدهم. لذا يعلن القرآن الكريم على لسان الرسول ﷺ بحزم: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾، أي لا يمكن اتخاذ أحدٍ غير الله حَكَمًا في الأمور الدينية. ولا يمكن لكتابات علماء الدين أن تُعطينا عن كلام الله المُنَزَّل، ولا يسع أي إنسان أن يكون حَكَمًا في مسائل الدين. فالله وحده هو الحكم، وكلامه وحده هو الذي يرشد إلى الحق.

وهنا ينشأ سؤال: كيف يكون الله أو كلامه حكماً؟ ويجب على هذا السؤال قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي أن القرآن الكريم قد جاء موافقاً لنبوءات الكتب السابقة ومصدقاً لها، ولأنه لا يعلم غيب المستقبل إلا الله، فلا بد من التسليم بأن القرآن الكريم من عند الله ﷻ.

تحتوي الكتب السماوية السابقة على نبوءات واضحة عن النبي ﷺ، وتشهد على صدقه وصدق القرآن الكريم، لذا فإن الذين عندهم علم الكتاب وما يتضمنه من نبوءات لا بد أنهم يعرفون أن رسول الله ﷺ نبي صادق، وأن ما نزل عليه من وحي حق. وهكذا يتبين كيف يكون الله ﷻ حكماً.

إن كلمة «الكتاب» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يمكن أن تشير إلى القرآن الكريم، أي ليس كتب الله ﷻ السابقة فحسب، بل إن القرآن الكريم نفسه يشهد للنبي ﷺ. فالقرآن الكريم يحتوي على تعاليم تتعارض مع الآراء والمعتقدات السائدة بين أمم العالم، ومع ذلك فإن المعارض الذي تُشرح له هذه التعاليم، لا بد له من الاعتراف بمعقوليتها وتفوقها. وعلاوة على ذلك، فإن هذه التعاليم لم يقبلها الآلاف في حياة النبي ﷺ فحسب، بل إن الذين آمنوا بها كانوا على يقين بصدقها إلى درجة جعلتهم على استعداد للتضحية بحياتهم وعدم التخلي عنها. لذا فإن حياة صحابة النبي ﷺ تشهد على صدق القرآن الكريم، فكتابٌ بهذه القوة الروحية لا يمكن رفضه أو اعتباره باطلاً.

وتشير الكلمات الأخيرة من الآية ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ إلى القارئ لا إلى النبي ﷺ. فإذا كان القرآن الكريم والكتب السابقة تشهد شهادة قاطعة على صدق الرسول ﷺ وصدق ما أنزل عليه من وحي، فليس هناك من مبرر لأحد للتشكيك فيها.

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٦﴾

التفسير:

رغم أن الفعل «تمَّت» قد جاء في صيغة الماضي، إلا أنه يفيد هنا المستقبل بمعنى «سوف تتحقق»، فغالباً ما تُستخدم صيغة الماضي في سياق النبوءات للتعبير عن المستقبل، وذلك لتبيان أن النبوءة متحققة حتماً عند الله ﷻ. وهكذا فإن هذه الكلمات تحتوي على نبوءة مفادها أن ما أخبر الله ﷻ به من الانتصار المقبل للإسلام سيتحقق لا محالة. ولقد روي أنه عند فتح مكة ودخول الرسول ﷺ الكعبة -التي كانت ممتلئة بالأصنام حينئذ- أخذ ﷺ يحطم الأصنام بعصاه واحداً تلو الآخر، وهو يتلو كلمات هذه النبوءة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، إشارةً إلى أنه بفتح «مكة» قد تمت بالفعل كلمة الله ﷻ. (الدر المنثور، الأنعام: ١١٦).

ويشير قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ إلى النبوءات أو إلى سنن الله تعالى وطرقه. وفيما يخص سُنَّةَ الله ﷻ، يجب أن نتذكر أنه ليس من شأننا تحديد ما هي سُنَّةُ الله ﷻ أو قانونه، وسُنَّةُ الله بوجه عام هي ما ورد ذكره صراحةً في القرآن الكريم. ومن تلك القوانين الإلهية التي خصها الله بالذكر في القرآن الكريم، انتصار رسله وهزيمة أعدائهم. وتسمى هذه القوانين «سنن الله»، ولا ينبغي الخلط بينها وبين قوانين الطبيعة.

وبين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أن الله ﷻ لا يسمع فقط أدعية المؤمنين، بل يسمع أيضاً ما يقوله أعداء الرسول ﷺ ضده. وكذلك فإنه ﷻ لا يعلم معاناة المؤمنين وتضحياتهم فحسب، بل يعلم أيضاً ما يفعله أعداء الإسلام للإضرار به وتدميره، لذا فإنه تعالى سيحكم بين الفريقين.

وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٧﴾

شرح الكلمات:

يَخْرُصُونَ: من «خَرَصَ» أي حدس وقال بالظن أو افترى وكذب. «خَرَّاصٌ»: كَذَّابٌ أو أَفَّاكٌ (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى أن مسألة صدق الإسلام أو عدمه لا تُحسم بناءً على رأي الأغلبية، فأكثر الناس جهلة. لذا لا يمكن البت في الأمور المتعلقة بالدين بحكم الأغلبية، إذ ليس هناك قوم أغلبهم حكماء أو مثقفين. وكذلك في الأمور التشريعية الدنيوية لا يُعتمد إلا برأي عدد محدود من الناس. وحتى فيما يُسمى بالدول المتقدمة، يكون للجماهير قادة يتبعون آراءهم. لذا في الواقع، يُعتمد دائماً برأي قلة من الناس.

وتشير هذه الآية بوجه خاص إلى أهل الجزيرة العربية زمن الرسول ﷺ، والذين كان غالبيتهم بلا شك من الجهلة.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٨﴾

التفسير:

تُبين هذه الآية الكريمة أنه فضلاً عن الحقيقة المذكورة في الآية السابقة بأن غالبية الناس هم عادة أقل علماء من الأقلية؛ فإنه لا يمكن الوثوق لا بالأغلبية ولا بالأقلية

فيما يخص أمور الدين. ففي بعض الأحيان تكون الأقلية على صواب، بينما في أحيان أخرى تكون الأغلبية هي المحقة. لذا من الضروري أن يحكم الله بنفسه أي الفريقين على حق، فهو تعالى وحده الحكم، وهو الذي يُظهر حُكْمَهُ بآراء الآيات السماوية وتأييد الفريق الذي يتبع طريق الحق.

فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾

التفسير:

قد يبدو لبعض الناس أنه لا علاقة بين الأمر بأكل ما ذُكِرَ اسم الله عليه وموضوع الآيات السابقة، غير أن الأمر ليس كذلك. فقد بدأت الآية الكريمة بحرف «ف» وهو يفيد التعقيب، مما يعني أن الأمر الوارد بعده قد جاء تعقيباً لما سبقه. علاوة على ذلك، فإن الفعل «كُلُوا» قد جاء بصيغة الجمع، ولما كان هذا الأمر امتداداً لما تقدم من أوامر، فإن تلك الأوامر - وإن وردت في صيغة المفرد - عامة من حيث التطبيق، وليست موجهة إلى النبي ﷺ شخصياً. وعلى هذا، فإن الأمر الإلهي ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأنعام: ١١٤) موجهة في الواقع إلى جميع القراء.

أما عن الصلة بين هذا الأمر وما سبقه من أوامر، فيلاحظ أن القرآن الكريم يقول في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٣)، ويقول أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: ٥٢). ويتبين من هاتين الآيتين بوضوح تام أن تناول الطيبات يؤثر تأثيراً مباشراً في أعمال الإنسان، فيجعله شاكراً لله ﷻ ومقبلاً على العمل الصالح. ولما كان الشك قد يداخل ضعاف الإيمان أحياناً عند سماع اعتراضات الكافرين المشار إليها في الآيات السابقة، فإن القرآن الكريم

يأمرهم هنا بتناول الطعام الطيب، فتكون النتيجة أن تتطهر أنفسهم ويتقوى إيمانهم، فيتحصنون أمام الشبهات التي يسعى الكافرون إلى بثها في عقولهم بإثارة الاعتراضات.

قد يثار اعتراض مفاده أن المسلمين في هذا العصر يذكرون اسم الله على ما يذبحونه من الحيوانات، ومع ذلك لم تبرأ عقولهم من الشكوك. والسبب في ذلك أنهم يذكرون اسم الله ذكراً شكلياً خالياً من الصدق والإخلاص. ومما يجب تذكره أن الأمر بأكل ما ذُكِرَ اسم الله عليه لا يقتصر على لحوم الحيوانات فقط، بل يشمل جميع أصناف الطعام. وتأمّر الآية الكريمة المسلمين أن يذكروا اسم الله على ما يأكلونه من طعام حتى يتذكروا الله ﷻ على الدوام فتتطهر حياتهم.

كذلك تبين الآية أن الذين يستغنون عن الوحي الإلهي ويعتمدون على العقل فقط، يرتكبون أخطاء فادحة. ومن الاعتراضات التي يثيرها الكافرون ضد المسلمين أنهم، رغم إعلانهم الإخلاص لله تعالى، لا يأكلون من لحوم الحيوانات التي أماتها الله (أي التي ماتت من تلقاء نفسها) بينما يأكلون بابتهاج لحوم الحيوانات التي يقتلونها (أي التي يقومون بذبحها). وهذا نوع من الاعتراضات التي تُثار أحياناً من قبل من يعتمدون على عقولهم وحدها ويظنون أنهم في غنى عن الوحي الإلهي. وتجب الآية عن هذا الاعتراض عرضاً بالإشارة إلى أن المسألة ليست فيمن قتل الحيوان، بل فيمن يطيع أمر الله ﷻ ويأكل الطعام ذاكراً اسمه تعالى. ولا شك أن الذي يطيع أمر الله ﷻ ويذكر اسم الله عند الطعام هو الذي يفوز برضاه.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا
أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٠﴾

التفسير:

تجيب الآية الكريمة عن اعتراض الكافرين بنفس الكلمات التي اعترضوا بها. فقد قالوا إن المسلمين، على الرغم من إعلانهم الإيمان بالله، لا يأكلون من لحم الحيوان الذي أماته الله، أي الذي مات من تلقاء نفسه. فتجيبهم الآية الكريمة وتقول: «ما دمنا مخلصين لله تعالى، فلم لا نأكل مما ذُكر اسم الله عليه؟»، غير أن اسم الله لا يذكر على الحيوان الذي يموت من تلقاء نفسه، فموته يتم وفق قانون الطبيعة العام. ويشير قوله الله: ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل ١١٦).

كما يفيد قوله ﷺ: ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ أن تلك التعاليم التي يضعها الإنسان والتي يقدمها أغلب الناس في معارضتهم للتعاليم الإلهية، لا تقودهم إلا إلى الضلال. وتشير كلمة ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾ التي جاءت في نهاية الآية إلى أن المعارضة المثارة ضد تعاليم الله ﷻ تنبع من الحقد والعداوة، وأن الذين يشيرون تلك الاعتراضات هم في الحقيقة معتدون.

وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا
كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢١﴾

التفسير:

هناك أمور سيئة على نحوٍ بَيِّن، وأخرى تبدو حسنة وهي في حقيقتها سيئة، وحتى إن لم تبدُ جيدة، يبقى شرها خفياً غير ظاهر. وهنا يوصي القرآن الكريم المسلمين بالابتعاد عن النوعين كليهما، لأن هذا من مقتضيات التقوى الحقيقية. وتوضح الآية الكريمة بشكل جميل سبب تحريم أكل تلك الحيوانات التي ماتت من تلقاء نفسها، أو

التي لم يذكر اسم الله عليها عند ذبحها. فلذكر اسم الله تأثير خفي، فهو لا يغير شيئاً في اللحم من الناحية المادية، وإنما يحدث تطهيراً في القلب. إن قتل الحيوان قد يورث قسوة في القلب، ولكن عندما يذكر الإنسان اسم الله عند الذبح فكأنه يقول: «ليس من حقي أن أقتل هذا الحيوان من تلقاء نفسي ولكن الله الذي خلقه ويملكه قد أذن لي بذلك». وهذا التفكير يقي القلب من القسوة، وعلاوة على ذلك، فإن ذكر اسم الله يُعد ضماناً لأن يُذبح هذا الحيوان باسم إله الكون ومالكة وليس باسم أي أحد آخر. وعلى هذا المبدأ نفسه تصرف سيدنا عمر رضي الله عنه، الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ، عندما قبّل الحجر الأسود أثناء طوافه بالكعبة المشرفة، إذ قال مقالته الخالدة: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» (البخاري - كتاب الحج). وبهذا القول، أكد حضرته ﷺ على الحقيقة العظيمة وهي أن تقوى الله ﷻ تقتضي جعل الإنسان ينفر من أن يشرك مع الله أحداً، وأن يكون عمله كله ابتغاء وجه الله ﷻ.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَأِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ
إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٦٦﴾

التفسير:

تؤكد الآية الكريمة أن المؤمنين إذا أكلوا لحوم الحيوانات التي لم يذكر اسم الله عليها، فإن هذا يُعد عصيانياً وإثماً، والإثم يجر إثماً آخر. فإذا أهمل المؤمن ذكر اسم الله على طعامه، خلا قلبه من تعظيم الله ﷻ، وسيؤدي هذا تدريجياً إلى الوقوع في الشرك.

أَوْ مَنْ كَانَتْ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا
يَمْشَى فِيهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ
لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

التفسير:

لقد أكدت الآيات السابقة أن تلك التعاليم التي يضعها الإنسان تكون دائماً ناقصة، وُبين القرآن الكريم هنا أن هذه التعاليم لا يمكن أن تكون نداءً للتعاليم الإلهية. وتثير الآية تساؤلاً ضمنياً مفاده: «إذا كان هناك تعليم صادر حقاً من الله ﷻ، ألا يكون أفضل من التعليم الذي هو من عند الإنسان؟» وهذا السؤال سيجيب عنه بالإيجاب كل إنسان، حتى الكافر، إذا لا يملك عقل الإنسان الجرأة على إنكار هذا. لذا جاء هذا السؤال ليلفت انتباه الكافرين إلى هذه الحقيقة العظيمة.

ويشير قوله تعالى: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ إلى من يضع القوانين اعتماداً على العقل فقط؛ ذلك العقل المقيد بقيود لا تُحصى يخضع لها الإنسان. فالقوانين التي يسنّها الإنسان تتعرض دوماً للتغيير بسبب ما يشوبها من نقائص جوهرية، فيوضع قانون اليوم ثم يغير غداً لما يظهر فيه من عيوب عند التطبيق، وهكذا دواليك. فالقانون الجديد يتغير مرة أخرى لنفس السبب ويستمر هذا الأمر بلا حدود، بل يصير أحياناً كالحلقة المفرغة. فهؤلاء الذين يسنون قوانينهم اعتماداً على عقولهم فقط كمثل من هو في الظلمات ليس بخارج منها.

وبين قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ أن الشيطان وأعوانه يُزينون للإنسان السيئات. في البداية يُضل الشيطان الناس ويحضهم على اقتراف السيئات، ولكن إذا استمر الإنسان في طريق الشر، بدت له هذه السيئات تدريجياً كأنها حسنات، وهذا من سنن الله تعالى في العقاب. وإلى هذا التزيين للأعمال -وهو من سنن الله تعالى- أشار القرآن الكريم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ١٠٩).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ
مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٤﴾

التفسير:

إن فهم هذه الآية الكريمة أمر دقيق، إذ ذهب بعض المفسرين إلى اعتبار كلمة «أكابر» مفعولاً به أول للفعل «جعلنا» وكلمة «مجرميها» مفعولاً به ثانٍ. غير أن الأنسب والأكثر انسجاماً مع السياق هو اعتبار «أكابر مجرميها» مضاف ومضاف إليه، وهما معاً مفعول به أول للفعل «جعلنا». أما المفعول به الثاني فيفهم من الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾. كما أن حرف «اللام» في قوله تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ ليس لام التعليل، بل هو لام العاقبة.

لقد سبق في الآية ١١٣ من السورة بيان أن من سنن الله ﷺ أن يعادي رسله دائماً زعماء الشر سواء أكانوا من عامة الناس أو من أكابرهم. وتشير الآية التي نحن بصددنا إلى هؤلاء الزعماء الفاسدين الذين تحيط بهم الظلمات الحالكة التي لن يخرجوا منها أبداً (انظر الآية السابقة).

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ
تُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلَمْ
حَيْثُ يَجْعَلْ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ

أَجْرُمُوا صَعَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾

التفسير:

تتضمن هذه الآية آخر حجة أو عذر للكافرين في هذا الحوار، إذ يقولون: «إننا لنؤمن بالوحي الإلهي حتى نؤتي وحياً مثل ما أوتي رسل الله. فإذا كان الله قد كلمهم، فليكلّمنا أيضاً». فيرد الله ﷻ على هذا الاعتراض السخيف بما مفاده أن الله لا يكلم كل الناس، وإنما يكلم من يراه أهلاً لذلك ويختاره لهذا الغرض. أما أولئك الذين جعلوا أنفسهم مستحقين للذل والمهانة، فلا يمكن أن يتشرّفوا برسالات الله ﷻ، ومصيرهم ليس إلا الذل والعذاب الشديد.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا
كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٦﴾

شرح الكلمات:

حَرَجًا: ضيقًا، منغلقًا، عسرًا، هزيلًا (معجم لين). انظر أيضا الآية ٦٦ من سورة النساء.
رَجَسَ: عقاب. انظر الآية ٩١ من سورة المائدة.

التفسير:

إن ما يريده الله ﷻ والمذكور في الآية الكريمة ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ مرتبط بعمل الإنسان، وهو ثمرة ما يقوم به من أعمال صالحة، وليس أمراً اعتباطياً. ويبين قوله

تعالى: ﴿يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أن هذا الإنسان يُقبل على أوامر الله ﷻ وطاعته بصدرٍ رحب، ويشعر بالسعادة في الامتثال لها. فإذا كان مستعداً وراغباً على الدوام في طاعة أوامر الله ﷻ، فهذا يدل على ترقيه الروحاني، أما من يرى الأوامر الإلهية مجرد أعباء وأحمال ثقيلة، فهذا دليل على انحطاطه الروحاني.

إن «إرادة» الله ﷻ في إضلال الإنسان تأتي أيضاً نتيجةً لأعماله السيئة؛ فعندما يرتكب الإنسان الآثام ويقترب الذنوب، ينحرف عن الصراط المستقيم، فيشعر بثقل أوامر الله ﷻ ويجد مشقة ومعاناة نفسية في تنفيذها، فيضيق صدره وينغلق، ويصبح حاله كحال من يُطلب منه تسلق المرتفعات الشاهقة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآية تومئ أيضاً إلى أن الصعود في السماء بالجسد العنصري نوع من العقاب لا النعمة. كما تبين أن الله ﷻ يأخذ بيد الذين يعملون الصالحات ويطيعون أوامره طواعية، فيعينهم على الترقى الروحاني، أما الذين لا يؤمنون ويعيشون حياة الإثم، فإنهم يتمادون في الذنوب والشور. وعلاوة على ذلك، تُعلّمنا هذه الآية الكريمة أن الترقى الروحاني لا يتحقق إلا بطاعة لله ﷻ طوعاً وبقلوبٍ مفعمة بالرضا.

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٧﴾

التفسير:

انظر الآية: الأنعام: ١٥٤.

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

التفسير:

ولأن «السلام» من أسماء الله تعالى الحسنى، فيمكن أن يفهم أن المقصود من قوله تعالى: ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ هو دار الله ﷻ، أي حضرته تعالى، وبهذا وُعد الصالحون بثواب القرب من الله ﷻ.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ
مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنسِ
رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾

شرح الكلمات:

مَعْشَرَ: من «عَشَرَ»، يُقال «عَشَرَ المال» أي أخذ عشرة. «عَشَرَهُم»: أخذ منهم واحداً فصاروا تسعة. «المعشر»: الصحبة؛ الجماعة؛ القوم؛ أهل الرجل. وسُمي هكذا لأن القوم أو الجماعة تتكون من عدة أفراد، ولأنَّ «العَشْرَةَ» هو العدْدُ الكامل الذي لا عدد بعده إلا ما هو مَرْكَبٌ من آحاد (معجم لين).

الْجِنِّ: من «جَنَّ»، يُقال «جَنَّةٌ» أي سَتَرَهُ وكلُّ شيء سَتَرَ عَنْكَ فقد جَنَّ عَنْكَ. وسُميت الحديقة بـ«الجَنَّة» لسترها الأرض بظلالها. وسُمي الطفل في بطن أمه بـ«الجنين» لاستِتارِهِ في بطنِها، والقلب بـ«الجنان» لاستِتارِهِ في الصدر، والقبر بـ«الجنن» لسترِهِ الميت. و«الجَنَّةُ» قطعة الثياب التي تلبسها المرأة فتغطي رأسها وصدرها؛ و«المِجَنَّةُ»: كل ما وقى من السلاح. وسُمي «الجنون» بهذا الاسم لاستِتارِ العقل. وسُميت الحية أو الثعبان بـ«الجان» لاستِتارها في الشقوق والثقوب المظلمة. وكذلك سُمي «الجن»

بهذا الاسم. و«الجنُّ» كلُّ شيءٍ أوَّلُ شِدَّاته لأنه يستر ما يليه (لسان العرب وتاج العروس). لمزيد من الشرح لمعنى كلمة «الجن» (انظر سورة الحجر الآية ٢٨ والأنعام الآية ١٠١).

اسْتَكْثَرْتُمْ: من «كثُر» أي نما وزاد، ضد قل. «استكثر من الشيء»: أكثر فعله؛ أو رغب في الكثير منه (معجم لين). «استكثرتم منهم» أي أضللتهم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم (الكشاف).

مَثْوًى: من «ثوي»، يُقال «ثوى بالمكان» أي أقام به. «المثوى»: المنزل أو مكان الإقامة (معجم لين).

التفسير:

تُثَبِّت الآية بما لا يدع مجالاً للشك، أن القرآن الكريم، في هذا الموضع على أقل تقدير لم يستخدم كلمة «الجن» للإشارة إلى صنف آخر غير البشر. بل إن كلمات الآية نفسها والمعنى الوحيد الممكن لها يناقض هذا التصور. فكلمة «الجن» الواردة في هذه الآية، والتي تشغل موقعاً أساسياً فيها، لا يمكن أن تعني سوى عليّة القوم ذوي النفوذ في مقابل الطبقات الضعيفة والفقيرة من الناس. وكما تبين من شرح الكلمات، فإن جذر كلمة «جن» يدل على الاستتار والخفاء، لذا سُمِّي هذا الصنف من عليّة الناس بـ«الجن» لاستتارهم عن عيون الآخرين، ولأنهم نادراً ما يختلطون بالعامّة، ويظلون في خفاء عنهم. ولقوله تعالى: ﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ معنيان: (١) أنكم اتخذتم جموعاً كثيرة من الناس، أي جعلتموهم في صفكم وتبعاً لكم، فأضللتهموهم؛ (٢) أنكم ظننتم هذه الجموع كثيرة مقابل الله، أي أنكم قد جعلتم لتلك الجماهير شأناً أعظم عندكم من الله ﷻ، فرفضتم قبول الحق خوفاً منهم، خشية أن يتخلوا عنكم ويكفوا عن تعظيمكم.

ومن العجيب حقاً أنه كما أن الضعفاء قد يرفضون أحياناً الحق خشية أن يذيقهم الكبراء الآلام والخسران، كذلك فإن عليّة القوم قد يخشون أتباعهم متواضعي الحال،

فلا يقبلون الحق خوفاً من أن يتركوهم ويتخلوا عنهم. على سبيل المثال، كان هرقل - عظيم الروم - مقتنعاً بصدق الرسول ﷺ، لكنه لم يعلن ذلك صراحةً خوفاً من رعيته، إذ رأى معاداتهم الشديدة للإسلام، وخشي أن يتمردوا عليه إن أعلن إيمانه (البخاري). ويشير قوله تعالى: ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ إلى أن مودة الكافرين زائلة، وأنهم سيختلفون يوم القيامة فيما بينهم، فيقول الضعفاء: «لقد عشنا حياة الذل خاضعين للكبراء الذين انتفعوا منا، فأنزل عليهم يا رب عذاباً مضاعفاً». وهذا يبين أن كلمة «الجن» هنا لا تدل على أي خلق آخر غير البشر، بل تشير إلى طبقة خاصة من الناس. أما إذا فُهمت على أنها مخلوقات أخرى، فإن قوله تعالى: ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ لا يمكن أن ينطبق عليها، إذ لا ينتفع الإنس من الجن، ولا الجن من الإنس. والمقصود بهذه الكلمة صنف من الناس يستفيد من الصنف الآخر، أي ينتفع الكبراء من الضعفاء والعكس صحيح. أما قوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ فهو موجه إلى طبقة الضعفاء من الناس الذين برروا أعمالهم بذريعة أنهم كانوا مجرد أدوات في أيدي الكبراء، فتخبرهم الآية أن أي عذر لن يجديهم نفعاً الآن، وأنه لا بد من دخولهم النار والمكوث فيها إلى أن يشاء الله ﷻ. فكل من الكبراء والضعفاء سواء في الذنب.

وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣٠﴾

التفسير:

تُبين الآية الكريمة أن كلا الفريقين، الضعفاء والكبراء، آثمون، وأنه بسبب ما اقترفوه من ذنوب، صار الضعفاء أدوات في أيدي الكبراء. كما تُقدم الآية دليلاً آخر على أن المراد بكلمة «الجن» هنا فئة من الناس، وهم عليّة القوم وأصحاب النفوذ، إذ يتولون على الفئة الأخرى. أما «الجن» بوصفهم مخلوقات مغايرة للإنس، فإنهم لم يتولوا على الإنس قط ولم يُولَّ الإنس عليهم أبداً.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا
وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

التفسير:

يقدم قوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ دليلاً آخر على أن كلمة «الجن» لا تشير إلى خلقٍ منفصل، وإنما إلى فئة من البشر فقط. ويخبرنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام ورسولنا الأكرم محمد ﷺ قد أرسلوا إلى الجن أيضاً (الأحقاف: ٣٠-٣٣ والجن: ٢-١٦) ولا نجد أي أثرٍ مطلقاً لوجود أنبياء بُعثوا من الجن، مما يدل على أن كلمة «جن» تشير إلى طبقة خاصة من الناس. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن هذه الكلمة، عندما تستخدم في حق كبار القوم وعظمائهم، تومئ بوجه عام إلى معنى سيئ، إذ يراد بها الأشرار منهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ
بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣٢﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿الْقُرَى﴾ إلى جميع المدن والبلدات والقرى التي أرسل الله ﷻ إليها الأنبياء. وحيث إن الرسول الأكرم محمد ﷺ قد بُعث للناس كافة، فإن كلمة ﴿الْقُرَى﴾ هنا تعني العالم كله.

وقوله تعالى: ﴿يُظْلَمُ﴾ يدل على أن هلاكهم لم يكن إلا بسبب جورهم وآثامهم، وعليه فإن معنى الآية الكريمة: ما كان الله ليُهْلِكَ قريةً عقاباً على جورها وظلمها من غير إنذار أهلها. وهكذا تعرض الآية سُنَّة هامة من السنن الإلهية، وهي أن الله ﷻ لا يوقع العقاب الشامل على القرى جزاءً على ظلمها وآثامها ما لم يرسل إليها أولاً نذيراً يحذّرهم من دنو العذاب. فلو أهلك الله ﷻ القرى دون أن يبعث لها رسولاً، لكان لأهلها أن يقولوا: «لم ينذرنا أحد، فاتبعنا عقولنا». أما وقد جاءهم النذير، فلا عذر لهم.

لقد حلّ بالعالم في عصرنا الحاضر العديد من الكوارث واسعة النطاق، وبحسب القانون الإلهي الوارد في هذه الآية، فلا بد أن يكون قد ظهر نذيرٌ في هذا الزمن أيضاً. لقد جاء بالفعل نذيرٌ عظيمٌ في شخص أحمد القادياني رحمه الله، المسيح الموعود ومؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، الذي حذّر العالم من الكوارث الوشيكة ودعاه إلى التوبة، لعلّ الذين يخشون الله يتفكرون.

وتبين الآية الكريمة كذلك أن الكوارث المُشار إليها ليست من النوازل التي تصيب أفراداً بعينهم، بل هي كوارث عامة تضرب أمماً وشعوباً بأكملها، كما هو الحال في الزمن الحاضر.

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٤﴾

التفسير:

إن اسم الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني: المكتفي بذاته والمستغني عن سواه. (راجع الآية ٢٦٤ من سورة البقرة). ولأن الله ﷻ هو الْعَزِيزُ، فإنه قادرٌ على معاقبة المكذبين كيفما يشاء، ولكنه ﷻ «ذو الرحمة» أيضاً، ولذلك يؤخر ساعة العذاب.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بدلاً من «مَنْ يَشَاءُ» للجمع بين معنيين هما: «أي قوم آخر» و«في أي حال أو وضع آخر».

إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٥﴾

شرح الكلمات:

مُعْجِزِينَ: من «أعجز» المشتقة من «عَجَزَ» أي صارت تنقصه القوة أو القدرة أو الصلاحية؛ أو صار بلا قوة. «أعجزه»: صيَّره أو وجده عاجزاً أو فاته (معجم لين).

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ﴾ إلى الوعيد بالهلاك الوارد في الآيات السابقة. وقد نزلت هذه السورة في مكة، في وقتٍ كان المسلمون فيه قلة مستضعفة، بينما كان أعداؤهم أكثرية قوية أذاقتهم ألوان الاضطهاد المرير سعياً للقضاء على الإسلام. وفي مثل تلك الظروف لا يمكن أن تصدر نبوءة حول هلاك الأعداء بتلك الكلمات القوية وبهذه النبرة المفعمة باليقين التام من إنسان لا حول له ولا قوة، كما كان حال الرسول ﷺ آنذاك. لا يمكن أن تصدر هذه الكلمات إلا من الله ﷻ، القادر وحده على تحقيقها. وقد سُجِّلَ في صفحات التاريخ، بكل جلال، كيف تحققت هذه النبوءة. ويستمر ذكر هذه النبوءة أو هذا التحدي في الآية التالية بالقوة نفسها.

قُلْ يَاقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلٰى مَكَانَتِكُمْ اِنِّىْ عَمِلٌ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
اِنَّهٗ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

مَكَانَتِكُمْ: مكان مشتقة من «كان» أي حدث ووجد وصار. «مكان»: موضع كون الشيء. «مكانة»: الموضع والمنزلة. تقول العرب: «مكانك وزيداً» أي ابق في طريقك ولا تقرب زيداً (معجم لين وأقرب الموارد). ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها (الكشاف).

ترى بعض المصادر أن «مكانتكم» مشتقة من «مَكُن» أي قَوِيَ وَمَتَّنَ وَرَسَخَ؛ أو صار ذا منزلة خاصة عند الملك أو الحاكم (معجم لين وأقرب الموارد). وبهذا المعنى يكون المقصود: إنكم ترون أنفسكم عظماء وذوي منزلة رفيعة، فاهلموا الآن وافعلوا أقصى ما تستطيعون ضد الإسلام، ثم انظروا ما ستكون عليه النتيجة.

التفسير:

كما جاء في شرح الكلمات، فإن قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: ائتوا بأسوأ ما عندكم، واستنزفوا ما لديكم من قوة وموارد لاستئصال الإسلام والقضاء على هذه الجماعة المسلمة قليلة العدد، ولكنكم لن تفلحوا أبداً. أما قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فيعني أنكم سترون قريباً أي الفريقين سيفوز في نهاية المطاف. وكلمة ﴿الدَّارِ﴾ يمكن أن تشير إلى الحياة الدنيا أو إلى الآخرة، ففي كلتا الدارين سيكون الفوز النهائي من نصيب المؤمنين.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٧﴾

التفسير:

لاحظ الدلالة والقوة في قوله تعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾، إذ يكشف القرآن الكريم بهاتين الكلمتين حماقة الكافرين وبلوغهم درجة من الوقاحة جعلتهم يُقسِّمون الماشية وما تنتجه الأرض بين الله وآلهتهم، وكأنهم المالكون لها. والحقيقة أن الله ﷻ هو المالك الحق لكل هذه الأشياء، وهو الذي أوجدها. فهي لله ﷻ وحده. غير أن العجب كل العجب من هؤلاء الكافرين الذين يتجراؤون على تقسيم ملك الله ﷻ تبعاً لأهوائهم، فيجعلون لله -وهو المالك الحقيقي- جزءاً، ويخصون آلهتهم الباطلة بالبقية.

كان الكافرون يتصدقون بنوعين من الصدقة: صدقة يجعلونها لله وأخرى لآلهتهم الباطلة. فإذا أنفقوا القسم المخصص لآلهتهم في أغراض أخرى، أخذوا ما خصصه الله وجعلوه من نصيب آلهتهم الباطلة. أما إذا أنفقوا ما كان مخصصاً لله، فإنهم لا يأخذون من نصيب آلهتهم الباطلة ليجعلوه لله. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾، وهو مثال آخر على الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الإنسان عندما يضع القوانين اعتماداً على عقله وحده.

وبين قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أن الله ﷻ لا يقبل تلك الصدقة التي جُعلت فيها الآلهة الباطلة شركاء له. يظن الكافرون أنهم قد خصصوا نصيباً لله تعالى، ولكن في حقيقة الأمر هذه الحصة ليست لله ﷻ، فالله الغيور يستنكف عن قبول مثل هذه الصدقة.

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
 قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا
 عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
 وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

التفسير:

المراد بـ«شركاؤهم» هنا الكهنة والعرفان. وكان «قتل الأولاد» يتم بثلاث طرق: (١) كان بعض العرب يقتلون البنات من أطفالهم ويحافظون على البنين؛ (٢) كان بعضهم إذا رُزق بعدد معين من الأبناء ذكورا أو إناثا، ينذر بذبح أحد أبنائه لله أو لأحد آلهتهم؛ (٣) كان بعضهم يضحي بالأولاد خشية الفقر. وكلمة «كثير» الواردة في قوله تعالى: ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تُبين أنه لم يكن العرب كلهم ولا معظمهم متورطين في هذا الفعل، وإنما عدد كبير منهم. غير أنه أياً كان العدد، فإن هذه الممارسة تُقدّم مثالا آخر على ضلال الناس عندما يضعون القوانين من عند أنفسهم اعتماداً على العقل فقط.

وحرف اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُرْذُوهُمْ﴾ هو لام العاقبة لا لام السببية. وعلى هذا يكون معنى الآية أن عاقبة أعمال الكهنة والعرفان الذين جعلوا شركاء لله تعالى، هي فساد أتباعهم روحانياً. فعندما يبلغ الإنسان حداً يقتل فيه ابنه طاعة لأمر شخص آخر، يكون حينها خاضعاً له تماماً، فيفسد بذلك دينه ويدمر كلياته.

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرُ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا
 مَن نَّشَاءُ بَزْعِمُهُمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا

وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ
سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٩﴾

شرح الكلمات:

حَجَرٌ: «حَجَرَةٌ» أي منعه أو حرمه. «الحَجَرُ»: الحرام؛ العقل لحجره صاحبه عمًا لا ينبغي؛ وتعني أيضًا المَنعة والكنف (أقرب الموارد).

التفسير:

تُقَدِّم الآية الكريمة مثالًا آخر على فساد تلك القوانين التي هي من صنع الإنسان. والمراد من «الحَرْث المحرم» ذلك الزرع الذي خصصوه للأوثان، ولا يُسمح باستخدامه إلاَّ للكهنة القائمين على خدمتها. كذلك يمكن للماشية أن تأكل من كل الزروع ما عدا ما خُصص للأوثان. وأما الماشية التي حُرِّمت ظهورها فهي المذكورة في الآية ١٠٤ من سورة المائدة، إذ كانوا لا يسمحون لأحد بركوبها ولا باستخدامها في نقل الأحمال. وأما الماشية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ فهي التي خصصوها لمن أشركوهم مع الله ﷻ فلا يذكرون اسم الله عند ذبحها.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ
فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿١٤٠﴾

التفسير:

تشير الآية الكريمة إلى عادة أخرى منافية للعقل من عادات العرب، ولقد ورد في الآية الكريمة اسمان من أسماء الله الحسنى وهما «الحكيم» و«العليم» للإشارة إلى أن الذين يقعون في الشرك والممارسات الحمقاء هم أولئك الذين يتعدون عن الله الحكيم العليم، ويتبعون الآلهة الباطلة وأشياءهم الضالين.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤١﴾

التفسير:

تُلَخِّصُ الآية الكريمة ما سبق ذكره من القوانين التي يضعها الإنسان. وفيما يخص قتل الأولاد راجع شرح الآية ١٣٨ أعلاه. أما قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيشير إلى أنهم أقدموا على ذلك لعدم امتلاكهم العلم الموحى به من الله ﷻ، فهو المصدر الوحيد للهداية الحقيقية.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ
مَّعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ
وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا
مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٢﴾

شرح الكلمات:

مَعْرُوشَات: جمع «معروشة» مشتقة من «عَرَشَ» أي بنى بناءً من خشب. «عرش البيت»: بناه. «عرش البئر»: طواها بالحجارة قدر قامة من أسفلها ثم طوى سائرها بالخشب. «معروشة»: مرفوعة على الخشب. «كروم معروشة»: كروم دواليها مرفوعة على الخشب. «العريش»: ما عُرِّش للكرم؛ البيت الذي يُستظل به؛ الحظيرة تسوى للماشية لتحميها من البرد. «العَرْش»: سرير الملك؛ الخشب تُطَوَّى به البئر؛ المظلة؛ الخيمة؛ البيت الذي يُستظل فيه؛ القصر؛ البناء الذي على فم البئر؛ ركن الشيء وقوامه؛ من البيت: سقفه ومن القوم: رئيسهم؛ عرش الطائر: عشه؛ عرش الكرم: ما يُدْعَم به (معجم لين).

حَصَاد: من «حَصَدَ» الزرع: قطعه بالمنجل. «الحصيد»: ما حُصِدَ من الزرع. «الحصاد»: أوان الحصد أو الزرع المحصود (معجم لين).

التفسير:

لقد أشار القرآن الكريم في الآيات السابقة إلى بعض القوانين التي سنّها عبدة الأوثان من العرب من عند أنفسهم بلا هديٍّ من وحي السماء، أما الآن فإنه يُقدِّم بعضاً من قوانينه ليقارن القارئ بين ما سنّه القرآن من تشريعات وبين تلك التي وضعها الإنسان، وذكرت فيما سبق. ومن هذه القوانين التي سنّها الإنسان من عند نفسه ما يتعلق بشمار الأرض كما ورد في الآية ١٤١ السابقة، وهنا قدّم القرآن الكريم قوانينه الخاصة بهذا الشأن، فبيّن مشروعية هذه الثمار وطهارتها وأوضح أهمية عدم الإسراف في تناولها، أي أن يأكل الإنسان ما يشاء منها بالقدر الذي لا يضر بصحته أو أخلاقه.

والضمير في قوله تعالى: ﴿حَقَّه﴾ يمكن أن يعود على الله ﷻ أو على الثمار، ففي الحالة الأولى يكون المراد: أن علينا يوم الحصاد أن نُخرج زكاة هذه الزروع لله ﷻ. وأما في

الحالة الأخرى فيكون المعنى: أن علينا يوم الحصاد أن نتصدق بجزءٍ من هذه الثمار أداءً للحق الذي عليها وتركياً لها.

ومما يجدر ملاحظته هنا أن في الإسلام نوعين من الصدقة: صدقة إلزامية وهي الزكاة، وصدقة اختيارية. وبحسب سُنَّة النبي ﷺ وأحاديثه، فإن الزكاة التي هي فرض لا تؤخذ من جميع الثمار المذكورة في الآية الكريمة، وإنما تؤخذ من ثمار النخيل فقط. وعليه، فإن كان المقصود في الآية الكريمة هو الزكاة الإلزامية، فإن الأمر الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ ينطبق على ثمار النخيل فقط. ولكن على أية حال، من الأفضل اعتبار أن الآية تشير إلى الصدقة الاختيارية والتي يجوز إخراجها من جميع أنواع الثمار. إن صيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ لا تعني بالضرورة الإلزام، فقد استخدم هذا الفعل كثيراً في القرآن الكريم بغرض الحض والحث على فعل أمر ما. وهذا المعنى ينسجم مع عمل صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا يخصصون نصيباً من غلاتهم للفقراء، وهو كذلك مسلك المسلمين الأتقياء هذه الأيام أيضاً.

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٣﴾

شرح الكلمات:

فَرْشًا: من «فَرَشَ»، يُقال «فرشه» أي بسطه أو مدّه أو نشره. «الْفَرْشُ»: المفروش من متاع البيت؛ الموضع يكثر فيه النبات؛ الفضاء الواسع من الأرض؛ الصغار من الشجر والحطب والإبل؛ البقر والغنم التي لا تصلح إلا للذبح (معجم لين).

التفسير:

بالإضافة إلى معناها الأساس، تومىء الآية الكريمة إلى أن أكل الأشياء الحلال يعدّ من وسائل حماية الإنسان من هجمات الشيطان.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ
اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
أُشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ
إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٤﴾

شرح الكلمات:

أَزْوَاجٌ: جمع «زوج» وهو كل واحد معه آخر من جنسه ذكوراً أو إناثاً من البشر أو الحيوان أو النبات أو أي شيء.

الضَّأْنُ: جمع «الضائن» وهو ما له صوف من الغنم (أقرب الموارد ومعجم لين).

الْمَعْزُ: جمع «الماعز» وهو ذوات الشعر والأذنان القصار من الغنم (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

انظر الآية التالية.

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ
ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا أُشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ

وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

التفسير:

في معرض الحديث عن القوانين التي وضعها الإنسان، أشار القرآن الكريم إلى بعض عادات المشركين المتعلقة بالحيوانات (الآيتان ١٤٠ و ١٤١)، وهنا يعرض القرآن الكريم قوانينه الخاصة بهذا الشأن. فعند الحديث عن الضأن والمعز في الآية السابقة، جاء تساؤل من الرسول الله ﷺ للمشركين أن يخبروه: إن كان أكل هذه الحيوانات غير جائز، أي إن كانت لا تصلح للأكل - كما يلمح إلى ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنُوا يَعْلَمَ﴾ - فعليهم أن يأتوا ببرهان معقول أو بسبب علمي يبرر تحريمها. وأما عند الحديث عن البقر والإبل في الآية التي نحن بصددھا، فإن القرآن الكريم يسأل المشركين: هل كانوا شهوداً على تحريم الله لأكل هذه الحيوانات؟ وبعبارة أخرى، تدعوهم الآية الكريمة إلى تقديم مرجع ديني يبين أن البقر والإبل محرمة حقاً. وذلك لأن بعض الناس يحرمون البقر والإبل على أساس ديني. فعلى سبيل المثال، يظن الهندوس أن أكل لحوم البقر محرّم لأسباب دينية، ويحرم اليهود الإبل بحسب أسفارهم.

على أي حال، إن هذا التقييد جائر وظالم. فقد سمحت «الفيدا» بكل وضوح بأكل البقر، وكان هذا يحدث بكل حرية في الهند القديمة، لا بوصفه طعاماً معتاداً فحسب، بل كطعام أساس في العديد من الاحتفالات الدينية أيضاً (الآريون الهنود، منشور في مجلة مراجعة الأديان، عام ١٩٢٣، بقلم راجندرا لاميترا (دكتور في القانون وحاصل على وسام الإمبراطورية الهندية).

وأما فيما يخص الإبل، فإن التوراة قد حرمتها فعلاً، غير أن هذا لا يعني تحريماً دائماً، إذ أعلنت التوراة عن مجيء صاحب شرع آخر ينسخ شريعة التوراة (التثنية ١٨: ١٨).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ﴾ يفيد أنه ما دام المشركون لا يؤمنون بأي وحي، فلا يمكنهم معرفة ما حرّمه الله ﷻ.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
يُطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا
أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٦﴾

التفسير:

تُشير الآية الكريمة إلى أن القوانين التي وضعها المشركون العرب فيما يخص الأطعمة المسموح بها والمُحرمة هي قوانين اعتباطية تفتقر تماماً إلى الحكمة، بينما تلك التي جاء بها الإسلام فهي مبنية على العقل والحكمة العميقة. لقد حرّم الإسلام في الأصل أربعة أشياء: ثلاثة منها لكونها «رجس» وواحدة لأنها «فسق». الأشياء الثلاثة التي ذُكرت أولاً هي: (١) الجيفة، أي الميتة و(٢) الدم المسفوح من الحيوانات عند ذبحها أو جرحها و(٣) لحم الخنزير. وقد وصفت الآية الكريمة هذه الأشياء بأنها «رجس» أي قذرة وملوثة، لذا فهي تضر بصحة الإنسان بدنياً ومعنوياً. ويُلاحظ أن تعبير ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ يُشير إلى كل واحد من هذه الأشياء الثلاثة الأولى المُحرمة. أما المُحرّم الرابع فهو ما ذُكر عليه اسم أحدٍ آخر غير الله، وسبب تحريم هذا النوع من الطعام هو أنه «فسق» أي دنس كما ذكرت الآية الكريمة وهو مبعث لمعصية الله ﷻ. إن تناول مثل هذه الأطعمة يضر بالحالة الروحانية للإنسان ويقضي على مشاعر الحب والغيرة لله تعالى. (انظر أيضاً البقرة: ١٧٤).

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ
ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٧﴾

التفسير:

بمراجعة التوراة، نجد في سفر اللاويين، الإصحاح الثالث، العدد ١٧: «لَا تَأْكُلُوا شَيْئًا مِنْ الشَّحْمِ وَلَا مِنَ الدَّمِ» وكذلك في الإصحاح السابع، العدد ٢٣: «كُلَّ شَحْمِ ثَوْرٍ أَوْ كَبْشٍ أَوْ مَاعِزٍ لَا تَأْكُلُوا»، أما في التلمود فقد استثنى من هذه المنوعات الشحم الملتصق بالصلوع، وكذلك أباح لليهود أكل الشحم الذي لا يمكن فصله عن الأمعاء أو اللحم (موسوعة الكتاب المقدس، الأعمدة ١٥٤٤-٤٥). وهذا يؤيد ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

لقد بينت الآية السابقة أن الأشياء المحرمة في الإسلام هي: (١) الميتة (٢) الدم المسفوح (٣) لحم الخنزير (٤) ما أهّل به لغير الله. وقد يقول اليهود إن هناك أطعمة أخرى غير ما ذكر آنفًا، حرّمها الله ﷻ عليهم، لذا يوضح القرآن الكريم أن هناك بالفعل أطعمة أخرى حرّمت على اليهود لكنها لم تُحرم لأنها أطعمة فاسدة، بل كعقاب لهم على بغْيهم. وعليه، فإن ما صرّحت به الآية الكريمة السابقة يبقى حقًا وصدقًا.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٨﴾

التفسير:

ترد الآية الكريمة على اعتراض ضماني من اليهود، مفاده: إن كان الله قد حرّم عليهم أشياء إضافية، فلماذا لم يستمر هذا التحريم في الإسلام؟ فتبين الآية أن قانون العدل الإلهي اقتضى ضرورة معاقبة اليهود، بينما يقتضي قانون الرحمة الإلهية إظهار الرحمة بالمسلمين، إذ ليس من العدل الاستمرار في تحريم عقابيّ خاص، وفرضه على أمة جديدة.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى
ذَاقُوا بِأَسْنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٩﴾

التفسير:

عند عجزهم عن الرد على الحجج المقدمة في الآيات السابقة، والتي دحضت الشِّرك وما وضعه الإنسان من قوانين؛ لجأ الوثنيون العرب إلى عذرٍ سخيّف لتبرير شركهم، فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، يريدون بذلك تبرير إشراكهم بالله بزعم أنه كان وفق مشيئته ﷻ. فيرد القرآن الكريم على هذا القول بأربع إجابات، اثنتان منها في هذه الآية والأخريان في الآية التالية.

فالإجابة الأولى يتضمنها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَا﴾ وتُبيّن هذه الكلمات أن حجتهم هذه ليست جديدة، فقد قال بها من

سبقهم. فإن كان ما يزعمونه صحيحاً، وأن الله هو الذي شاء لهم الإشراك به، فلماذا عذب الأقسام السابقة؟ إن الحقيقة الواضحة هي أن الله ﷻ قد أنزل بهم العذاب بسبب اتخاذهم شركاء له ﷻ، وهذا يبين أن عملهم هذا لم يكن وفق مشيئة الله ﷻ. أما الإجابة الثانية فهي متضمنة في قوله تعالى: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي ليس لديكم برهان من علم صحيح يؤيد ما تدّعون، وإن قولكم هذا ظنٌّ محض. وتقدم الآية التالية الإجابتين الآخرين.

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٠﴾

التفسير:

تقدم الآية الكريمة الإجابة الثالثة على الاعتراض الوارد في الآية السابقة: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ إذ لمحو فيه إلى أنه قد فرض عليهم نوع من الإكراه لاتخاذ شركاء مع الله تعالى، فكان ذلك بمشيئة الله التي لا يستطيعون مخالفتها، ولا حول لهم ولا قوة أمامه تعالى.

فيرد عليهم القرآن الكريم في هذه الآية بأن الله تعالى ليس بحاجة لاستخدام القهر أو الإكراه ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، أي إن لديه البراهين والأدلة التي تصل إلى أفئدة الناس، وهو ﷻ قادر على أن يجعلهم يفهمون ويدركون الحكمة من أوامره، لذلك لا يحتاج إلى إجبار الناس وإكراههم على العمل وفق مشيئته.

أما الإجابة الرابعة فهي متضمنة في قوله تعالى: ﴿قُلْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء الله تعالى إكراه الناس على ما يريد، لأجبرهم بلا شك على فعل الصواب لا الباطل، ولكنه ﷻ بحكمته المطلقة منح الإنسان حرية الاختيار، وبيّن له الخير والشر،

والحق والباطل، ثم ترك له أن يختار الطريق الذي يسير فيه، وكل إنسان سيحصل ما زرع.

قُلْ هَلَمْ شُهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ
اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥١﴾

شرح الكلمات:

هَلَمْ: كلمة بمعنى الدعاء إلى الشيء كـ«تعال» فتكون لازمة، وقد تستعمل متعدية نحو «هلم شهداءكم» أي أحضروهم. وكلمة «هَلَمْ» عند أهل الحجاز من أسماء الأفعال فيستوي فيها الواحد والجمع والتذكير والتأنيث. ولكن هناك من يختلف معهم في هذا الأمر (أقرب الموارد).

التفسير:

يعود القرآن الكريم هنا للحديث عن تلك القوانين التي وضعها الإنسان من عند نفسه لتحريم بعض الأشياء، حيث تُفيد الآية الكريمة أن على المشركين أن يعلنوا صراحةً عدم موافقتهم على القرآن، وأن ما جاء به أدنى مما عندهم من تعاليم. وعندئذٍ سيحكم الله ﷻ بنفسه بين الفريقين. كما تلمح الآية إلى أن على المرء أن يعبر عن رأيه بحرية عند اختلافه مع الآخرين، وأن يمتنع عن التلبس.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا

أُولَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ
وَصَاحَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥٢﴾

شرح الكلمات:

إِمْلَاقٍ: من «مَلَقَ»، يُقال «ملق الشيء» أي محاه. «ملقه بالعصا»: ضربه. «ملق الولد أمّه»: رضعها. «أملق الرجل»: أنفق ماله حتى افتقر. «إملاق»: الفقر أو العوز (أقرب الموارد).

التفسير:

لقد قدّم القرآن الكريم فيما سبق أوامر ونواهي الشريعة الإسلامية المتعلقة بشمار الأرض ولحوم الحيوانات، في مقابل ما وضعه الإنسان من قوانين. وينتقل هنا إلى بيان أحكام ونواهٍ عامة. ومما يجدر ملاحظته أن ما جاء من وصايا بعد قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ليس من قبيل المحرمات، بل هي الأمور التي يطالبنا الله تعالى بالقيام بها، فهي على خلاف ما سبق ذكره من نواهٍ. وقد ذكرت هذه الأوامر بوضوح متضمنة ما يقابلها من محظورات أيضاً. فمن جهة استخدمت الآية كلمة ﴿حَرَّمَ﴾ ومن جهة أخرى أتبع بصايا موجبة، فجعلت الآية الكريمة بذلك بين الوصايا والمحظورات، وجذبت انتباه القارئ إلى الأمرين معاً. ويمكن تحليل الآية بوجهٍ آخر، وهو أن الجملة الأولى منها تنتهي عند قوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ فيكون الجزء الأول من الآية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، ثم تبدأ الجملة التالية بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فتكون بقية الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

لقد جاء ترتيب الوصايا في الآية الكريمة بشكل يستحق الانتباه، حيث تبدأ بقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾. وكلمة «رب» في اللغة العربية تعني «الخالق والمُدبِّر والمُرَبِّي» (انظر سورة الفاتحة، الآية ٢) ولقد جاء ترتيب الوصايا في هذه الآية الكريمة مراعيًا كون الله ﷻ «المُدبِّر والمُعيل». فالوصية الأولى ﴿عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ تتعلق بالمعيل الأعظم أي الله ﷻ. أما الوصية الثانية فتخص المعيل الأصغر أي الوالدين، وتوضح كلمة «إِحْسَان» أن رعاية الوالدين المفروضة في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يجب أن تؤدي على أفضل وجه، فكلمة «إِحْسَان» تعني لغويًا: «إتقان العمل».

ثم تأتي بعد ذلك الوصية المتعلقة بالأولاد الذين يُعالون ويربون بواسطة المعيل الأصغر أي الوالدين، ولقد أمر الوالدان بحسن رعاية وتربية أولادهم كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾. في الواقع، إن مَنْ يُهمل تربية أولاده تربية سليمة مخافة الفقر، هو فعليًا يقتلهم. وإذا كان على الأولاد أن يحسنوا رعاية والديهم، فبالمثل يجب على الوالدين أن يحسنوا تربية أولادهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ يعود على الوالدين، أما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾ فيعود على الأولاد، وقد قُدِّم الحديث عن رزق الآباء قبل الأولاد للفت الانتباه إلى حقيقة أن الله ﷻ الذي يرزق الآباء، سيرزق بلا شك الأبناء أيضًا.

ثم جاءت الوصية التالية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾. و«الفواحش» جمع «فاحشة»، ومن معانيها: الزنا (انظر سورة النساء، الآية ١٦) وهو شكل آخر من قتل الأولاد. فالرجل الذي يرتبط بعلاقة آثمة مع امرأة ليست زوجته، لا يدمر ذريته فحسب بل إنه يهمل زوجته أيضًا مما يؤثر قطعًا على إنجابه الأطفال من زواج شرعي. كذلك أطفال الزنا الذين ينجبهم الرجل من امرأة غير زوجته لا يعتنى بهم

اعتناءً حقيقياً. وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ المتعلق بالفواحش يشير على الترتيب إلى العلاقة العلنية مع المومسات والعلاقات السرية مع نساء غير الزوجة. وبعد تناول العلاقة مع الوالدين والأبناء، يأتي الحديث عن العلاقة مع الإخوة والأصدقاء والزملاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾. هذه الوصية تتطلب منا أن نعامل أصدقاءنا وإخواننا وأفراد مجتمعنا بالعدل والإنصاف. إن كلمة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ لا تعني فقط النهي عن إزهاق الأرواح، بل تفيد أيضاً النهي عن محاولة الاعتداء عليهم أو إلحاق الضرر بهم أو مقاطعتهم.. إلخ. (انظر معنى «قتل» في البقرة: ٦٢، وآل عمران: ١٥٥، والنساء: ١٥٨)

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ عند معرض الحديث عن القتل يعني: إلا إذا ارتكب شخص فعلاً يستوجب القصاص. فعلى سبيل المثال، إذا ارتكب شخص جريمة قتل، فإنه يُعاقب بالقصاص على جريمته، وذلك بأمرٍ من السلطات المختصة فقط. وكذلك عند مقاطعة شخص، فإن ذلك لا يتم إلا بقرارٍ من الأشخاص المخولين بذلك أو من السلطات المسؤولة، وليس من حق أحد أن يأخذ القانون بيده.

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
 حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ
 بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ
 فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا
 ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾

بعد الحديث عن الأمر الإلهي المتعلق بحماية أرواح الناس، يأتي الأمر المتعلق بحماية ممتلكاتهم، وقد خص القرآن الكريم في المقام الأول أولئك الذين لا يستطيعون رعاية وإدارة أملاكهم، وهم اليتامى. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فنحن مأمورون بحسن رعاية وإدارة أموال من مات آباؤهم وهم ما زالوا صغاراً لا يقدرّون على القيام بذلك. فيجب علينا أن نتعامل مع ممتلكاتهم بكل أمانة، ولا يجوز مطلقاً الاستيلاء عليها أو تبديدها. والنهي الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ لا يعني عدم استخدام أموالهم فيما يعود بالنفع عليهم، كأن تُستثمر في تجارات مربحة تعود عليهم بالكسب، فالقرآن الكريم يميز مثل هذا الاستثمار الذي يعود بالنفع على اليتامى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ويقول تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يُذكرنا القرآن الكريم بأن رعاية أموال اليتامى لا تكون لشهرٍ أو عامٍ فحسب، بل تستمر حتى يبلغوا السن التي يصبحون فيها قادرين على إدارة أموالهم والاعتناء بشؤونهم الخاصة.

وإلى جانب اليتامى، يتناول القرآن الكريم الحديث عن أولئك الذين، رغم قدرتهم على رعاية أموالهم، يقعون أحياناً ضحية لخداع الآخرين، فجاء الأمر الإلهي التالي وصية عامة: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وهو أمرٌ بالآلِ نغش أو نخدع الآخرين في ممتلكاتهم وأموالهم بأي وجهٍ من الوجوه، حتى وإن كانوا غير متيقظين أو قادرين على حماية مصالحهم.

وبعد الوصية المتعلقة بحماية الأموال، يأتي الأمر بحفظ ألسنتنا. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي إذا دُعينا إلى الشهادة، وجب علينا الصدق وقول الحق، حتى لو ترتب على شهادتنا هذه ضرر بقریب أو عزيز لدينا. ومن ناحية أخرى علينا أيضاً ألا نؤذي أقاربنا بظلمهم، بل يجب أن نصدق معهم ونخلص لهم لأنهم أيضاً يندرجون تحت هذه الوصية العامة.

وبعد الأمر بحفظ اللسان تأتي الوصية بحفظ القلب، يقول الله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ومن الواضح أن هذا أمر متعلق بالقلب، فهو عهد مع الله ﷻ، أما الوصايا السابقة فهي تختص بالعهود مع الناس. ومما هو جدير بالملاحظة أن الأوامر الإلهية الواردة في الآية السابقة تتعلق بالسيئات الظاهرة لذا جاء بعدها قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إنكم إذا عملتم بما جاء فيها من وصايا فسوف تتقوى قدراتكم العقلية. أما الوصية الواردة في الجزء الأخير من الآية الحالية فإنها تتعلق بالقلب لذا أتبعها الله تعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ
وَصَّاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٤﴾

التفسير:

تشير الآية الكريمة هنا إلى كل ما سبق ذكره من وصايا، وتبين أن الالتزام بها يدخل الإنسان في حصن الله ﷻ فيوفقه لاتقاء كل الشرور.

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾

شرح الكلمات:

تَمَامًا: المصدر من «تَمَّ»، يُقال «تَمَّ الشيء» أي كُمِّلَ أو لا ينقصه شيء. «تم إلى كذا»: بلغه. «تم عليه»: جعله تامًا. «أتمَّ» التي مصدرها «إتمام» تعني كُمِّلَ أو مَلَأَ (معجم لين). «تمامًا» جاءت في الآية هنا بمعنى: كملت أجزاؤه.

التفسير:

أشار القرآن الكريم فيما سبق من آيات إلى شتى السبل التي إذا سلكها الإنسان أبعدته عن طريق الله ﷻ، وتخبنا الآية الكريمة هنا أنه إذا تشتت السبل، فإن الله ﷻ يبعث رسولاً ليزيل الاختلافات ويوحد السبيل للجميع، فيصبح اتباعه واجباً عليهم، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يعود على موسى ﷺ، أي أن الله ﷻ أنزل عليه الكتاب ليتم نعمته عليه. كما يمكن فهم قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على وجه عام فيكون المعنى: كل مَنْ أَحْسَنَ مِنَ النَّاسِ، أي إن الله ﷻ قد أنزل الكتاب ليتم نعمته على المحسنين الذين يعملون الصالحات.

ولا يراد بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ كل شيء على الإطلاق، وإنما المقصود هو تلك الأمور التي كانت بحاجة إلى الشرح والتوضيح في زمن موسى ﷺ، أي إن الكتاب الذي أُعطي لموسى ﷺ قد لبي جميع احتياجات ذلك الزمن ومتطلباته.

وتبين الآية الكريمة أن للكتاب المنزل من الله ﷻ أربعة أهداف رئيسة:

- (١) إتمام نعمة الله ﷻ بواسطته.
- (٢) اشتماله على جميع الوصايا اللازمة للفترة التي أنزل من أجلها.
- (٣) أن يدل على سبل هداية الناس للصراط المستقيم.
- (٤) أنه رحمة، أي من يعمل به ينال بركات الله ﷻ.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٦﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ إلى القرآن الكريم، وقبل الأمر باتّباعه تقدم هذه الآية أسباب ذلك، أولها أنه كتابٌ منزلٌ من الله ﷻ. وثانيها أنه كتابٌ مبارك، أي أنه يحتوي على كل التعاليم المباركة الواردة في الكتب السماوية السابقة. (لمعنى كلمة «مبارك» انظر الآية ٩٣ أعلاه).

وخلاصة فحوى الآية الكريمة:

- (١) بما أن القرآن الكريم كتاب موحى به من الله ﷻ، فعليكم قبوله حتى تنالوا جميع البركات الإلهية المرتبطة بالكتب السماوية.
- (٢) وبما أنه يحتوي على كل ما جاء من تعاليم في الكتب السماوية الأخرى، فعليكم ترك جميع الكتب الأخرى واتّباعه وحده.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى
طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا
عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٧﴾

شرح الكلمات:

غَافِلِينَ: جمع «غافل» ومن معانيها من تنقصه المعرفة الأساسية (معجم لين).

تخاطب هذه الآية وما تليها عبدة الأوثان من القبائل العربية، وتبين سبب نزول القرآن الكريم على نبي من هذه البلاد. فلو لم ينزل القرآن الكريم على الوثنيين العرب لكان لهم أن يتذرعوا بأن الكتب الأخرى قد نزلت على قومين آخرين (سيأتي ذكرهما لاحقاً) وبلغات لا يفهمها العرب، وأنه لو أنزل عليهم كتابٌ لعملوا بما جاء فيه بإخلاص. ومن أجل دحض هذا العذر، أوحى الله تعالى بالقرآن الكريم إلى نبي من العرب ولسانهم، فلم يبق لهم الآن مجال للتذرع بهذا العذر.

وأما قوله تعالى: ﴿طَائِفَتَيْنِ﴾ فيشير إلى: (١) اليهود الذين أنزل عليهم كتاب موسى ﷺ، وكان بعثه في شمال الجزيرة العربية. و(٢) الزرادشتيين الذين أنزل عليهم الزندأفيستا، وكان موطنهم شرقي جزيرة العرب. أما المسيحيون فلم يؤتوا شرعاً جديداً، إذ إن المسيح ﷺ وحواريه اتبعوا شريعة موسى ﷺ. ولذلك فهم، من حيث الشرائع السماوية، لا يعدون قوماً مستقلين، بل يندرجون مع اليهود.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا
أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهَدَى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا
كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٨﴾

التفسير:

يمكن فهم قوله تعالى: ﴿أَهْدَى﴾ على لسان مشركي العرب إما أنه يعبر عن رأي محتمل لديهم مفاده أن القومين المذكورين آنفاً لم يلتزما باتباع التعاليم السماوية، أو إنه مجرد تعبير عن الحسرة لكونهم لم يؤتوا ما أوتيته الأقوام الأخرى من هداية إلهية.

ويحسب للعرب أنه لما نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، فإن الذين آمنوا به، اتبعوه بإخلاص أعظم من القومين السابقين المشار إليهم آنفاً، بل وأكثر من أي قوم آخر. فعندما اعتدى كفار مكة في موقعة «بدر»، جمع رسول الله ﷺ صحابته ليستشيرهم في الأمر، فأجابه دون أدنى تردد: «لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى فَأَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة ٢٥) وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ» (البخاري- كتاب المغازي)، أي أنهم لن يسمحوا للعدو أن يصل إليه ﷺ إلا على جثثهم.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ
يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ
يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٩﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إلى إنزال العقاب بالناس عن طريق الحروب، إذ جاء في القرآن الكريم ذكر نزول الملائكة في سياق المعارك التي دارت بين المسلمين وأعدائهم (آل عمران: ١٢٥ و ١٢٦ - الأنفال: ١٠).

وأما قوله تعالى: ﴿يَأْتِي رَبُّكَ﴾ الوارد في معرض الحديث عن المشركين، فقد استخدم في القرآن الكريم للتعبير عن إهلاكهم وإفنائهم (البقرة: ٢١١)، وبالتالي، تشير هذه العبارة إلى عقاب الموت الذي سيحل بأعداء الإسلام بطرق أخرى غير الحرب. في الواقع عندما يُذكر استدعاء مذنب للمثول أمام الله ﷻ فهذا لا يكون إلا لإنزال العقاب به فقط.

ويشير قوله تعالى: ﴿يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ إلى أنواع أخرى من العذاب مثل المجاعات والأوبئة ونحوها. ثم تبين الآية الكريمة في ختامها أن إيمان الإنسان عند وقوع العذاب لن ينفعه شيئاً، وتوضح أن هناك حالتين لا ينفع فيهما الإيمان: أولاً، إيمان الإنسان عندما يباغته العذاب. وثانياً، إيمان لم يكتسب منه الإنسان خيراً، أي إيمان لم يقترن بعملٍ صالح ولا بنيات طيبة. ولا تعني الآية الكريمة أن الإيمان لن ينفع أحداً عند مجيء آيات الله ﷻ، إنما المقصود أنها عندما تأتي، فإن الإيمان لن ينفع أولئك الذين أريد إنزال العقاب عليهم.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾

شرح الكلمات:

شِيعًا: جمع «شيعه» وتعني الفرقة أو الطائفة من الناس، كل مجموعة ترتبط معاً بشأن ما أو على أمر ما. مشتق من «شاع» أي ذاع وفشا ويعني أيضاً تبع ورافق. «شيع إبله»: صاح بها ودعاها. «شيعه»: شجعه وتبعه. «تشايعت الإبل»: صاروا شيعاً أي فرقاً أو ذهبوا معاً (معجم لين).

التفسير:

يبين قوله تعالى: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أنه عندما يتبع الناس أهواءهم فإنهم بلا شك سيختلفون فيما بينهم، ولا يمكن لأرائهم أن تتوحد.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

التفسير:

توضح الآية الكريمة بيان رائع كيف تسبق رحمة الله ﷻ غضبه، فالعمل الصالح كالبدرة الطيبة التي تُثمر عشرة أمثالها أو أكثر (البقرة: ٢٦٢، النساء: ٤١، يونس: ٢٧ - ٢٨، الترمذي: كتاب الصوم) بينما تُحسب السيئة بمثلها فقط. وتلقي الآية الكريمة أيضاً الضوء على حقيقة مفادها أنه ما دام هناك ثواب وعقاب فلا بد من وجود نظام وقانون، إذ لا يمكن أن يكون هناك ثواب أو عقاب بلا قانون.

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾

شرح الكلمات:

قِيمٌ: من «قام» أي انتصب أو وقف. «قام بالأمر»: تولاّه. «قِيمٌ»: مستقيم؛ صحيح؛ حق. «قيم الأمر»: متوليه وراعيه (معجم لين). راجع أيضاً النساء: ٦ و ٣٥ و ١٦٣.

التفسير:

تثبت الآية الكريمة السابقة الحاجة إلى الدين السماوي، وتبين الآية التي نحن بصدددها أن الدين الموحى به من الله ﷻ اليوم هو ما جاء به رسول الإسلام ﷺ وهو في جوهره دين إبراهيم عليه السلام، الدين الحنيف.

وكلمة «حنيف» تعني: (١) المستقيم، و(٢) المائل دائماً إلى الله. ومثل هذا الإنسان لا يكون إلا المؤمن بجميع رسل الله ﷻ.

قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾

شرح الكلمات:

نُسُكٌ: من «نَسَكَ»، يُقال «نَسَكَ الثوب» أي غسله بالماء فطهره. «نُسك الذبيحة»: ذبحها وتطوّع بها. «نُسك البيت»: قصد الكعبة للحج. «نُسك الرجل»: تزهد وتعبد وتقشّف. «نُسك لله»: تطوّع بقربة لله تعالى وذبح ابتغاء وجهه الكريم. «النُسك»: التضحية؛ العبادة؛ القربان؛ الدم المراق للتضحية أو وفاء لنذر؛ الذبيحة (أقرب الموارد).

التفسير:

تصف هذه الآية الكريمة والآية التي تليها، بشكل بديع، الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، والذي أُشير إليه في الآية السابقة. إن التعبيرين المذكورين في آخر الآية ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ يقابلهما ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ في بدايتها، فحيث أن الصلاة تهب الحياة للعابد لذا أعقبها قوله تعالى: ﴿مَحْيَايَ﴾، وحيث إن النُسك يعني التضحية بالنفس، فقد أعقبه قوله تعالى: ﴿مَمَاتِي﴾.

وتشمل هذه الكلمات الأربعة: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ جميع مجالات عمل الإنسان، وهنا يُطلب من الرسول ﷺ أن يعلن أن كل مراحل حياته خالصة لله ﷻ وحده، فصلواته كلها لله تعالى، وتضحياته له ﷻ، وكل حياته قد كرسها لوجهه ﷻ، وإن كان ينشد الموت في سبيل الدين، فإنه يُقدم عليه ابتغاء مرضاة الله ﷻ أيضاً. لقد عاش لله ﷻ ولن يموت إلا على ذلك.

وفيما يتعلق بالصلاة خاصة، فلقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «جُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (النسائي).

لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾

التفسير:

لم يُكرّس رسول الله ﷺ قواه وطاقاته كلها لله ﷻ فحسب، بل لم يؤمن بإله غير الله ﷻ، وكانت عيناه مغمضتين عن كل شيء إلا عن ربه وخالقه ﷻ، ولم يخضع لأحد سواه. لقد كان رسول الله ﷺ بحق «أول المسلمين».

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
وَايزَةً وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٥﴾

التفسير:

تُبين هذه الآية الكريمة سبب وجوب أن يخلص الإنسان الدين لله ﷻ، وذلك لأنه وحده ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾. كما توضح بجلاء أنه يوم يقف الإنسان بين يدي الله ﷻ ليحاسب على أعماله، لا يمكن لأحد أن يحمل من أوزاره شيئاً، وكلمة «أوزار» هنا تعني «الذنوب». وفي قوله تعالى: ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ إشارة أيضاً إلى أن هذا المبدأ يختص ببني البشر فقط، فهم الذين يحملون الأوزار، ولكن إذا شاء الله ﷻ، محا هذه الأوزار أي غفرها.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ
بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ
فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٦﴾

التفسير:

لقد بدأت هذه السورة بالحديث عن «الظلمات» و«النور» وهنا في آخر آياتها إشارة إلى الأمر نفسه ولكن بعبارات مختلفة، حيث تشير كلماتها إلى أن كلا من أهل الظلام وأهل النور سينالون جزاءهم بين يدي الله ﷻ. فقوله تعالى: ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ يشير إلى عقاب من هم في الظلمات، بينما يدل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على الجزاء الحسن لأهل النور.

كما يشير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ إلى الهدف الأسمى من خلق الظلمات والنور، فيبين قوله تعالى: ﴿مَا آتَاكُمْ﴾ أن كلا منهما قد خُلِقَ لنفع الإنسان المطلق. في الواقع لولا وجود الظلام لما كان هناك تقدم. (انظر أيضاً الآية ٢ من نفس السورة).



(٧)

— ﴿سورة الأعراف﴾ —

(مكية)

مكان النزول:

وفقاً لابن عباس، وابن الزبير، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد، نزلت هذه السورة في الفترة المكية، باستثناء الآيات من ١٦٥ إلى ١٧٢. وتحتوي هذه السورة على ٢٠٧ آيات، بما فيها البسملة. ويرى قتادة أن الآية ١٦٥ نزلت بالمدينة. كما ذهب المستشرق القس ويري (E.M. Wherry) أيضاً إلى أن هذه السورة مكية، باستثناء الآيات الثماني المذكورة آنفاً، أي من ١٦٥ إلى ١٧٢، وكذلك الآيات من ١٥٩ إلى ١٦١. غير أن استثناءه للآيات ١٥٩ إلى ١٦١ من الآيات المكية يثير الاستغراب، إذ لم يسبق لذلك سبباً وجيهاً، ولم يستند إلى أي دليل تاريخي موثوق، ولم يؤيده في هذا الرأي أي محدث ولا حتى مستشرق. ويبدو أن دافع هذا الادعاء هو أن هذه الآيات تتضمن إشارات إلى اليهود وإلى بعض نبوءات الكتاب المقدس التي تحققت في شخص الرسول ﷺ، فخشي ويري أن تُفسي هذه النبوءات إلى إقناع القارئ بصدق القرآن المجيد والرسول الأكرم ﷺ، فارتأى، تفادياً لهذا الاحتمال، وخلافاً لجميع الأدلة التاريخية وإجماع المستشرقين، اعتبار هذه الآيات مدنية، حتى يُظن أن الرسول ﷺ قد أدرج هذه النبوءات في القرآن الكريم بعد سماعها من يهود المدينة.

لا يمكن عزو هذا الاستنتاج الباطل إلا إلى التحيز الأعمى، إذ إن ورود نبوءة في كتاب ما لا يعني بالضرورة تحققها، وهو أمر لا يخفى حتى على الإنسان العادي. وإذا ثبت تحققها بكل وضوح في شخص النبي ﷺ، فكيف يمكن الزعم أنه نقلها من كتاب آخر؟ وإن

لم تتحقق، فما الفائدة من اقتباسها أو نقلها أصلاً؟ بل إن عدم تحققها فيه ﷺ وحده كافٍ لإبطال دعواه، سواء أدرجت في النص القرآني في مكة، أم بعد سماعها من اليهود في المدينة. والأعجب من ذلك أن السيد ويرى، في محاولته المستميتة لإثبات أن هذه النبوءات لم تتحقق في شخص الرسول ﷺ، قد أغفل وتجاهل كل القواعد والمبادئ التي وضعها هو بنفسه وزملاؤه المستشرقون للتمييز بين الآيات المكية والمدنية، إذ يتفقون جميعهم على أن الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قد نزلت في مكة، وأن المقصود بكلمة «الناس» هم أهل مكة. وقد ترسخت هذه القاعدة في أذهانهم حتى أصبح كافياً وجود عبارة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في الآية القرآنية ليتقرر أنها مكية، دون البحث عن أي دليل آخر. وقد بالغ المستشرق سيل (Sale) في الأخذ بهذه القاعدة إلى الحد الذي جعله يترجم الآية رقم ٢٢ من سورة البقرة، والتي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ على النحو التالي: «يا أهل مكة اعبدوا ربكم...». ومن الواضح أنه أقدم على هذا التصرف تصديقاً وتأيداً لوجهة النظر القائلة بأن المقصود دائماً بعبارة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هم أهل مكة، وذلك على الرغم من أن كلمة «مكة» لم ترد أبداً في هذه الآية.

وقد بنى القس ويرى تفسيره للقرآن المجيد على ترجمة سيل، ولم يكتفِ بعدم انتقاد ما أقدم عليه سيل من تصرف في نص القرآن الكريم، بل صرح في مقدمته لتفسير سورة البقرة بأن هذه الآية مكية.

وإنه لما يدعو إلى الأسف حقاً أن يبلغ التعصب بالإنسان حداً يعميه عن مقتضيات العدل والإنصاف، إذ اعتبر هؤلاء المستشرقون الآيات من ١٥٩ إلى ١٦١ مدنية، رغم احتوائها على عبارة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. ويتضح من ذلك أنهم كانوا، إذا وجدوا أدنى فرصة للطعن في الإسلام من خلال نسب آية قرآنية معينة تتضمن هذه العبارة إلى العهد المكي، سارعوا إلى اعتبارها مكية، أما إذا تيسرت لهم فرصة الطعن في الإسلام عن طريق نسبها إلى العهد المدني، عدوها مدنية. نسأل الله تعالى أن يفتح قلوبهم لرؤية الحق، حتى لا يكون ذلك مدعاة لخرج السيد المسيح ﷺ بسببهم يوم القيامة.

هذا، وقد رفض المستشرق تولدكه اعتبار الآيات من ١٦٥ إلى ١٧٢ مدنية، غير أن رفضه هذا قائم على الظن المجرد ولا يستند إلى أي دليل تاريخي موثوق، ومن ثم لا يمكن قبوله. ولا يصح رد الدليل التاريخي إلا استناداً إلى وقائع تاريخية دامغة أو حقائق قاطعة لا تقبل الإنكار.

اسم السورة:

تُعرف هذه السورة باسم «الأعراف»، ويُفترض أنها سُمّيت بهذا الاسم لورود كلمة «الأعراف» فيها في الآية رقم ٤٧. غير أنه من غير المقبول أن تكون السورة قد سُمّيت بهذا الاسم لمجرد ورود هذه الكلمة في إحدى آياتها، إلا إذا ثبت أن لكلمة «الأعراف» علاقة مباشرة بموضوع السورة. ولم يستطع المفسرون ولا المستشرقون إيجاد صلة بين كلمة «الأعراف» وموضوع السورة، وذلك لأنهم فسروا هذه الكلمة تفسيراً خاطئاً، إذ ذهبوا إلى أن «الأعراف» اسم لمرحلة روحية تتوسط بين الجنة والنار، وأن أهل هذه المرحلة يتميزون بوضوح عن أهل جهنم مع أنهم لم يدخلوا الجنة بعد. ولكن القرآن المجيد يرفض هذا التفسير، إذ لا يذكر سوى فئتين من الناس: أهل الجنة وأهل النار، ولا يشير إلى وجود فئة ثالثة. وعلى هذا فالقرآن المجيد لا يؤيد تفسير كلمة «الأعراف» بأنها مكان أناس ذوي منزلة روحية متوسطة. وليس هناك دليل في الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة يؤيد هذا التفسير.

فالقرآن المجيد يصوّر لنا أهل الأعراف وهم يخاطبون أهل الجنة تارةً وأهل النار تارةً أخرى، وقد وصفت معارفهم الروحية بالسعة والشمول حتى إنهم يستطيعون التعرف على أهل الجنة بسيماهم، كما يتعرفون على أهل النار بما فيهم من علامات مميزة. وهم يلومون ويوبّخون أهل النار، ويدعون لأهل الجنة، كما جاء في الآيات ٤٧، ٤٩، ٥٠. فهل يُعقل أن يتجرأ شخص معلق في حالة من عدم اليقين بين الجنة والنار على التظاهر بالتفوق كما فعل أهل الأعراف؟.

الحقيقة أن أهل الأعراف هم أنبياء الله تعالى، الذين سيتبأون مقاماً روحياً رفيعاً يوم القيامة، وسوف يدعون لأهل الجنة ويؤجّون أهل النار. ولما كانت هذه السورة أول سور القرآن المجيد التي تتناول سير الأنبياء ﷺ بشيء من التفصيل، فقد سُمّيت بالأعراف تقديراً لمقام رسل الله ﷺ الرفيع.

كذلك فإن تركيب كلمة «الأعراف» نفسه يؤيد هذا الرأي، فهي جمع كلمة «عُرِفَ»، التي تعني المكان المرتفع (معجم لين)، وتطلق كذلك على التعاليم التي تثبت صحتها بالحجج المنطقية وشهادة الفطرة الإنسانية. وبما أن تعاليم الأنبياء تتصف بكل هذه الخصال، فهم وحدهم من يستحقون هذه المكانة الروحية الرفيعة، ولذلك استحقوا عن جدارة أن يُسمَّوا أهل الأعراف. وتدل منزلتهم السامية على أنهم، إلى جانب فضل الله الخاص، يقفون على أساس راسخ من شهادة الفطرة البشرية والعقل، ومثل هذه المكانة السامية تفوق قدرة عامة الناس.

وخلاصة القول، سُمّيت سورة الأعراف بهذا الاسم لأنها عرضت قبسات من حياة رجال ذوي مكانة روحية عالية، علّموا البشرية في الماضي حقائق أبدية تنسجم مع متطلبات الفطرة البشرية والعقل، فعارضهم أهل الدنيا وسعوا إلى إزلالهم، لكن الله الغيور لم يسمح لهم بالهوان، بل رفعهم إلى منزلة رفيعة.

موضوع السورة:

من الناحية الروحية، تُعدّ هذه السورة بمنزلة البرزخ الذي يفصل بين السور السابقة والسور اللاحقة، أي إن الموضوع الذي تناولته السور السابقة قد بلغ في هذه السورة طوراً جديداً. فقد كان الخط العام المشترك لموضوعات السور السابقة يدور حول تفنيد اليهودية والمسيحية، إلى جانب العقائد والديانات الأخرى التي تزعم أنها تقوم على أسس فلسفية وعقلانية. أمّا هذه السورة فقد جمعت بين هذين المحورين، فأثبتت بطلان كلتا المجموعتين من الأديان، وبَيّنت في الوقت نفسه صدق الإسلام لأتباعها.

واستهلّت السورة ببيانٍ حاسم مفاده أنّ القرآن المجيد، كونه كلام الله تعالى المنزل من لدنه، لا يمكن أن يؤوّل أمره إلى الفشل، ولا أن يمتنى بالخسران أو بالإخفاق في تحقيق غايته. ثم جاءت الآيات ٤-١٠ متضمّنة تحذيراً للمسلمين من التسرّع، في لحظات الخوف أو الجزع، إلى قبول أي تنازل أو تسوية مع أتباع الأديان الأخرى؛ إذ إنّ الذين يتخذون موقفاً عدائياً من الدين الحق لا ينالون في نهاية المطاف إلا الخزي والهوان. وتذكر الآية ١١ أن الله تعالى خلق الإنسان من أجل غرض غاية في العلو والسمو، ولكن أكثر الناس ينسون هذا الهدف النبيل ويغفلون عنه.

وفي الآيات ١٢-٢٧ جاء ذكر حياة آدم عليه السلام في الجنة وخروجه منها مثلاً على هذا الموضوع، كما بينت هذه الآيات كيف أن الله تعالى، منذ بدء الخليقة، قد هياً للإنسان الوسائل اللازمة للارتقاء إلى أعلى الدرجات الروحية، غير أنه لم يعبأ بما أعد الله تعالى له، وأطاع الشيطان واتبعه. وتخبّرنا الآيات ٢٨-٣٠ أن الشيطان تسبب في تعرية آدم عليه السلام من الناحية الروحية، فأرسل الله تعالى رسوله الكريم محمد المصطفى ﷺ ليلبسه رداء التقوى، فهو النبي الذي جاء لينجّي الإنسان من تبعات أخطائه وذنوبه، ويجعله يستعيد حياته الفردوسية التي حُرّم منها، ولذلك ينبغي على المؤمنين أن يكونوا على حذر كي لا تحرمهم أعمالهم من تلك الحياة الفردوسية.

وفي الآيات ٣١-٣٥ جاءت الإشارة إلى أن الإسلام لا يهدف إلى تحقيق التقدم الروحي للفرد فحسب، كما هو شأن الأديان الأخرى، بل يسعى أيضاً إلى تحقيق تقدم المجتمع بأكمله، فبينما كان الأنبياء السابقون يحرصون على إدخال الأفراد إلى الجنة، يحرص الإسلام على أن تنال المجتمعات كلها هذه البركة، وتنعم الأمم جميعها بهذا الفضل. ولكن، لما كان كل إصلاح يُقابل دائماً بالعديد من العراقيل والعقبات المتتالية قبل أن يبلغ غايته، تخبّرنا الآيات ٣٦-٣٨ أنه إذا انحرف المجتمع الإسلامي عن مبادئ الإسلام وحاد عن تعاليمه، فإن الله تعالى سيبعث لإصلاحه مبعوثين من بين أتباع الرسول الأكرم ﷺ، لتلا يفقد الناس، بانحرافهم عن طريق التقدم وسبيل الرقي الجماعي، الجنة التي بلغوها.

وفي الآيات ٣٩-٤٨ وردت جملة من القواعد والمعايير التي يمكن من خلالها التعرف على هؤلاء المبعوثين المصلحين الذين وعد الله تعالى بإرسالهم، كما تُسلط الضوء أيضاً على مصير الهلاك المحتوم الذي سيؤول إليه معارضوهم. وتبين الآيات ٤٩-٥٢ أن رسل الله تعالى وحدهم القادرون على استنهاض القوى الكامنة في الطبيعة البشرية وتحريكها، وإحياء القيم الإنسانية فيها، وهم وحدهم المؤهلون لقيادة الناس إلى سبيل الهدى والصراط المستقيم المؤدي إلى التقدم والازدهار.

ثم تنصح الآيتان التاليتان أهل مكة بقبول نور النبوة والانتفاع به، ذلك النور الذي نالوا منه حظاً عظيماً ببعث الرسول الأكرم ﷺ فيهم، وتحذره من أن يجعلوا أنفسهم عرضة لغضب الله تعالى إذا ما رفضوه وأعرضوا عنه.

وتذكر الآيات ٥٥-٥٩ أن كل أعمال الله تعالى تتحقق بالتدرّج. وكما يحدث في العالم المادي، كذلك يحدث في العالم الروحي، إذ إن كل تقدم منوط بقانون التطور، وعن طريق استمرار التطور يتحقق الرقي الروحي للإنسان من عهد آدم ﷺ إلى زمن الرسول ﷺ، الذي توجّه فيه الاهتمام الأكبر نحو تحسين أحوال المجتمع كله وتنظيمها، بدلاً من الاقتصار على الاهتمام بالفرد، وسوف يتحقق كمال هذا أيضاً من خلال نظام التطور. وعلى هذا ينبغي على المسلمين التوافق مع إرادة الله تعالى ومشيئته وأن يسعوا جاهدين لتحقيق هذه المهمة العظيمة. وعليهم أن يضعوا نصب أعينهم دائماً أن البذور الصغيرة تنمو لتصبح أشجاراً وارفة، وأن الأمور العظام تبدو في أول أمرها تافهة حقيرة الشأن، وتبقى خافية عن أعين الناس. لذلك فمن الخلق بهم أن يفتحوا أعينهم ويحلوا بصائرهم ولا يتركوا هذا الهدف العظيم خافياً عن أنظارهم، لأنه إذا اختفى عن أعينهم فسوف يظل خافياً إلى الأبد.

ويبدأ مع الآية ٦٠ سرد موجز لحياة بعض أنبياء العصور القديمة الذين كانت مهمتهم إعادة الإنسان كفرد إلى الجنة التي طرد منها. ويستمر هذا السرد إلى الآية ١٧٢. وتذكر الآيات ١٧٣-١٧٨ أن الخير متأصل في الطبيعة البشرية، ويكون أحد خصائصها وصفاتها،

بينما يأتي الشر لاحقاً نتيجة للمؤثرات الخارجية. وتذكر الآيات ١٧٩-١٨٤ أنه رغم الخير الفطري الكامن في نفس الإنسان، فإنه لا يستطيع الوصول إلى الكمال بغير عون من الوحي الإلهي، وأنه عندما يرفض قبول ذلك الوحي الإلهي فإنه يحرم نفسه من ذلك الخير الفطري، ويودي بنفسه إلى الهلاك.

وفي الآيات ١٨٥-١٨٧ جاءت الإشارة مرة أخرى إلى مهمة الرسول ﷺ، وأن على معارضيه أن ينتبهوا إلى حقيقة أنه ليس بمجنون، بل عاقلٌ وحكيم، ودوافعه نقية وطاهرة وطيبة، وتعاليمه تتوافق تماماً مع الفطرة البشرية ومع قوانين الطبيعة، وأن شهادة عصره تؤيده.

وفي الآيات ١٨٨-١٩٩ أزيلت بعض ظنون وشكوك الكافرين، وذكر أن الكفار سيعارضون النبي ﷺ معارضة شديدة، لكن الله تعالى سيحميه ويحفظه من كل مكروه، ولن تستطيع الأصنام أن تعين المشركين أو تنفعهم بشيء. وتحت الآيات ٢٠٠-٢٠٣ المسلمين ليس فقط على تحمّل أذى المخالفين والمعارضين بصبر وطول أناة (لأن كل هذه المعارضة إنما هي نتيجة الجهل وافتقاد المعرفة الحقيقية)، وإنما عليهم أيضاً أن يدعوا لهم بالهداية. ثم تقول الآية ٢٠٤ للرسول ﷺ إن معارضيه، كما فعل أعداء الأنبياء السابقين، سيظلون يطالبونه بالآيات، وعليه أن يرد عليهم بأن إظهار الآيات بيد الله تعالى وحده، يظهرها بحكمته متى رأى ذلك مناسباً. ولكن عليه ﷺ أن يخبرهم: ألا يعد القرآن المجيد في ذاته والذي يحقق الغاية الحقيقية من النبوة، آية كافية؟ وتحت نهاية السورة المسلمين على تقدير معجزة القرآن المجيد حق قدرها، لأنه كلما زاد نزول النور السماوي على الإنسان اقتضى ذلك منه زيادة التقدير والاعتبار.

وكما هي عادة القس ويرى، وجه في مقدمته لهذه السورة الكريمة تهمة باطلة ضد الرسول ﷺ، إذ يذكر أن الوقائع التاريخية لحياة الأنبياء الذين جاء ذكرهم في هذه السورة هي مجرد انعكاسات لتجاربه الشخصية في الحياة، وهاكم ترجمة نص كلماته حرفياً:

«وحتى أكثر القراء بلادة لا يغيب عنه أن يرى أن جميع هؤلاء الأنبياء عبارة عن نُسخ من محمد نفسه؛ فخصالهم، والسلطة التي يتكلمون بها، ورسالاتهم وما صاحبها من ادعاء تلقي الوحي، وتكذيب أقوامهم لهم، وقسوة قلوبهم، وما ترتب على ذلك من رفض قبول الأنبياء، والتهديدات التي ذكروها عن العقاب السماوي الذي سوف يحل فجأة بالمكذّبين، كل ذلك يتطابق تماماً مع تجربة محمد. والاستنتاج الذي توّمى إليه كل قصّة هو أن إنكار نبي مكة سوف يأتي بالعقاب المهلول لقريش، تماماً كما نزل العقاب الأليم بتلك القبائل التي رفضت الأنبياء السابقين».

ويقصد القس ويرى أن الحوادث المذكورة في تلك القصص لم تحدث في الواقع أبداً لأولئك الأنبياء؛ وإنما نسب النبي ﷺ تجربته الخاصة إليهم. ولكن هل لدى هذا القس المحترم الشجاعة الكافية لإنكار أن هذه الحوادث التي يذكرها القرآن المجيد في حق أولئك الأنبياء قد جاء ذكرها أيضاً في الكتاب المقدس على أنها قد وقعت بالفعل؟ هل حدث أن عاش نبي من الأنبياء الذين ذكر الكتاب المقدس جانباً من ظروف حياته، ولم يعلن أنه كان يتلقى الوحي من الله تعالى؟ بل نجد أن كل نبي جاء ذكره في الكتاب المقدس قد ادّعى تلقيه الوحي من الله تعالى؛ وكيف يمكن لأي إنسان عاقل أن يتصور أن يدّعي أحد النبوة دون أن يدّعي في الوقت نفسه أنه يتلقى الوحي من الله تعالى؟ وعلاوة على ذلك، لا عجب أن المعارضة والقسوة التي واجهها الأنبياء السابقون تماثل وتشابه القسوة والمعارضة التي واجهها الرسول ﷺ من معارضيهِ. فما الذي يثير الدهشة في وجود التماثل بين الظروف والملابسات التي صاحبت الرسول ﷺ وتلك التي صاحبت الأنبياء السابقين؟ إن كل نبي يأتي من لدن الله تعالى يأتي برسالة جديدة تخالف العقائد السائدة بين قومه وتهدمها، فيعارضونه بطبيعة الحال، فهذه تجربة كل نبي، وكلهم يتشابهون في هذا الأمر، فإذا كانت هذه المماثلة تبدو غريبة للسيد ويرى، فلا بد أنه وحده من عرف أنبياء لم يتعرضوا لمعاملة قاسية من أقوامهم. وإن كان الأمر كذلك، فماذا يقول عمن قال: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها» (متى ٢٣: ٣٧)، وقال: «لكي يُطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق

منذ إنشاء العالم» (لوقا ١١: ٥٠). فهل سيخبرنا السيد ويرى، وأولئك الذين يوافقونه الرأي، أن الرجل الذي نطق بهذه الكلمات كان ينسب تجربته الشخصية للأنبياء الذين سبقوه، وأنهم في حقيقة الأمر لم يتلقوا مثل هذه المعاملة؟ هل كان المسيح ﷺ يكذب حين قال هذا؟ أم أنها كانت حقيقة واقعة؟ وأن جميع الأنبياء منذ بدء الخليقة قد تلقته أقوامهم بالتكذيب والرفض والمعارضة؟ إذا كان السيد ويرى على استعداد لاتهام المسيح ﷺ بالكذب فهذا شأنه ولا لوم عليه، ولكن إذا كان ما قاله السيد المسيح ﷺ هو الحق، وهو كذلك بلا شك، فلا يمكن إنكار حقيقة أن الأنبياء كانوا يُقَابَلُونَ دائماً بالرفض وسوء المعاملة من معارضيهم. إن العداوة والتعصب الأعمى هما ما دفعنا السيد ويرى إلى توجيه هذه التهمة الباطلة إلى الرسول ﷺ.

وبالمثل، إذا صحَّ اعتراض السيد ويرى بأن ما ورد في القرآن المجيد من أن تحذير الأنبياء السابقين لأقوامهم من نزول العقاب الإلهي عليهم لم يكن سوى انعكاساً لما كان يدور في رأس الرسول ﷺ من أفكار، وأن ذلك لم يحدث أبداً في واقع الأمر، فماذا سيقول عن الكتاب المقدس المليء بنبوءات تحتوي على وعيد وإنذار لمعارضى الأنبياء؟ ألم يحذّر كل من نوح وموسى وإرميا وحزقيال ودانيال ﷺ معارضيهم من العقاب السماوي؟ ألم يهدد السيد المسيح ﷺ نفسه معارضيهِ بالعقاب الإلهي والهلاك الذي سوف يحل بهم؟ فإن كان الأمر كذلك، ألا يكون التعصب الأعمى هو الذي دفع السيد ويرى للاختلاف مع القرآن المجيد الذي يذكر أن جميع الأنبياء قد حذّروا معارضيهم من الهلاك الذي سوف يحل بهم، وأن ذلك الهلاك قد حل بهم بالفعل؟ فليتذكر السيد ويرى، وكل من يرى رأيه، أن جميع أنبياء الله ﷻ يشابهون بعضهم بعضاً، كما يتشابه خصومهم أيضاً، ولعل هذا هو السبب في أن الاعتراضات التي يسوقها السيد ويرى تشابه إلى حدٍ كبير الاعتراضات التي ساقها الكتبة والفريسيون زمن المسيح ﷺ؛ وأن ما أجاب به الرسول ﷺ على تلك الاعتراضات يشابه أيضاً ما أجاب به موسى وعيسى ﷺ على خصومهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

التفسير:

راجع تفسير البسملة في سورة الفاتحة.

الْمَصّ ②

التفسير:

وفقاً لابن عباس، تعني مجموعة الحروف الأربعة «المص»: «أنا الله أعلم وأفصل». ويؤيد مضمون هذه السورة هذا التفسير؛ إذ لا تقتصر السورة على بيان العلم الإلهي فحسب، بل «تُفَصِّل» أيضاً بشرح مطوّل وبيانٍ وافٍ الموضوع الذي عالجته السورة السابقة. انظر أيضاً شرح الحروف المقطّعة «الم» في مطلع سورة البقرة.

كِتَابٌ أَنْزَلَبَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ
خَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ③

التفسير:

الخطاب في هذه الآية الكريمة موجّه إلى كل مؤمن، وليس إلى الرسول ﷺ وحده. وهي تؤكد للمؤمنين أن القرآن المجيد وحيٌّ من عند الله تعالى، وليس نتاج فكرِ النبي ﷺ. وبما أنه كلامُ الله العليم، فلا ينبغي أن يعتري المؤمنين أيُّ ضيقٍ أو تردّدٍ في العمل بأحكامه ونشرها بين الناس.

اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

التفسير:

لا يمكن لأيِّ قوم أن تنفعهم أيُّ مساعدةٍ أو دعمٍ من أيِّ جهةٍ كانت في معاداة الله ورسوله. وهذا درسٌ راسخٌ في صفحات التاريخ، جديرٌ بالتذكُّر.

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ
هُمْ قَائِلُونَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

بَيَاتًا: مصدر من الفعل «بات»، أي قضى الليل. «بات يفعل كذا»: إذا فعله ليلاً. «أتاهم الأمر ببياتًا»: وقع الأمر لهم ليلاً، أو في آخر الليل (أقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ٨٢ من سورة النساء.

قَائِلُونَ: مشتقة من «قال» (مضارعه يقيّل وليس يقول): نام في القائلة، أي في نصف النهار؛ أو استراح فيه. «قائل»: النائم في القائلة. «القيولة»: النوم أو الراحة في نصف النهار. «القائلة»: الظهيرة (أقرب الموارد).

التفسير:

إن حرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَهَا﴾ هنا بمعنى العطف، أي «و». ويمكن أن يُفهم أيضاً بمعنى «حينئذ»، وفي هذه الحالة تعني الجملة: «وحينئذ جاءها بأسنا». وعلى هذا يكون معنى الفعل ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: قدّرنا هلاكها. وقد ذكرت الآية زمينين محدّدين للهلاك: (١) ﴿بَيَاتًا﴾، وهو الجزء الأخير من الليل؛ (٢) ﴿وَهُمْ قَائِلُونَ﴾، أي

عند منتصف النهار، وهذان هما الزمان اللذان يكون الناس فيهما عادةً في حالة نوم أو استرخاء.

فَمَا كَانَتْ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَاءٍ إِلَّا أَنْ
قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٦﴾

التفسير:

إن أشدَّ الناس إلحاداً يصرخ إلى الله تعالى عندما يحلُّ بهم العقاب الإلهي؛ وذلك لأنَّ الإنسان في تلك اللحظة الرهيبة يدرك مدى عجزه الكامل، كما يدرك أيضاً قوَّة الله سبحانه وتعالى وقدرته.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ
وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

التفسير:

تجسَّد هذه الآية الكريمة مبدأً مهماً مفاده أن الجميع مسؤولون أمام الله تعالى بوجهٍ أو بآخر. فسيُسأل الناس عن كيفية استقبالهم لرسَل الله تعالى، كما سيُسأل الرسل عن كيفية تبليغهم رسالات ربهم، وعن موقف أقوامهم منها.

فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٨﴾

التفسير:

إن غرض الله تعالى من سؤال الناس وسؤال المرسلين، المشار إليه في الآية السابقة، ليس تحصيل العلم أو الاستزادة من المعرفة؛ فالله سبحانه وتعالى علیمٌ بكل شيء. بل إن الغرض من هذا السؤال للفريقين هو إظهار مدى كمال علم الله تعالى. فبعد أن يُدلي الناس والمرسلون بما عندهم من قول، يُخبرهم سبحانه بتفصيل ما فعلوه، وما كان ينبغي لهم أن يفعلوه ولكنهم أخفقوا فيه، وبذلك يتبين لهم، على نحو عملي، مدى إحاطة علم الله تعالى بكل شيء.

وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

مَوَازِينُهُ: «موازين» جمع «ميزان»، مشتقة من «وزن». يُقال: «وزن الشيء»: راز (قاس) ثقله وخفّفه وامتحنه بما يعادله. «وزن الشعر»: قَطَّعه ونظمه موافقاً للميزان. «وَزَنَ الشيء»: ثَقُلَ. «الْوِزْنُ»: مصدر؛ وتعني المِثقال. «وَزَنَ الرجل»: كان أصيل الرأي. «الميزان»: آلة ذات كفتين يُوزن بها الشيء ويُعرف مقداره من الثقل؛ العدل؛ المقدار؛ ميزان الشعر (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

لا تعني الآية الكريمة أن موازين مادية ستُنصب حرفياً لتوزن فيها الأعمال كما تُوزن الأشياء المادية، وإنما استخدمت الآية الأسلوب المجازي. إن الأشياء المادية تُوزن في موازين من خشب أو من معدن، ولكن وزن الأشياء غير المادية يعني تقدير قيمتها الحقيقية ومدى أهميتها.

وَتُلْقِي الآيَةَ أَيضًا ضَوْءًا عَلَى حَقِيقَةِ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فَقَطْ هِيَ الَّتِي سَوْفَ يَكُونُ لَهَا ثَقْلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ يَزِيدُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ وَضُوحًا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، أَيِ إِنْ الَّذِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَوْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَقْتَرِفُوا إِلَّا السَّيِّئَاتِ، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

التفسير:

إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ قَلَّتْ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ وَكَثُرَتْ سَيِّئَاتُهُمْ. وَالظُّلْمُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يَعْنِي وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ، وَقَدْ اسْتُخْدِمَ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ لَمْ يَتَعَامَلُوا مَعَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَنْبَغِي، إِذْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ هُوَ غَرَسُ التَّوَاضُّعِ وَمُخَافَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُلُوبِ، وَلَكِنَّهُمْ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، أَزْدَادُوا عَجْرَفَةً وَغَطْرَسَةً، وَاسْتَقْبَلُوا آيَاتِ اللَّهِ ﷻ بِالْإِسْتِهْزَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ وَالسَّخَرِيَّةِ.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا
مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾

التفسير:

تَهْدَفُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى إِخْبَارِ النَّاسِ بِأَنَّهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُوَدِّعُوا شُكْرَ هَذِهِ النِّعَمِ، وَفِي ذَلِكَ تَحْذِيرٌ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ سَيَجْنُونَ عَوَاقِبَ أَعْمَالِهِمْ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢﴾

التفسير:

لقد سبقت الإشارة إلى جزء من قصة آدم ﷺ في الآيات ٣١-٤٠ من سورة البقرة، وقد ذكر الله تعالى هنا جزءاً آخر من القصة مع شيء من التفاصيل الإضافية توضيحاً لغرض آخر. ففي سورة البقرة كان الغرض من ذكر قصة آدم ﷺ بيان أن الله تعالى كان يُنزل الوحي من لدنه منذ بدء الخليقة، وعلى ذلك فإن نزول الوحي على الرسول ﷺ لم يكن بدعةً ولا شيئاً غير مألوف. أما الغرض هنا من ذكر التفاصيل الإضافية في قصة آدم ﷺ فهو توضيح أن أعداء الأنبياء كانوا دائماً موجودين، وعلى ذلك فإن العداوة التي يلقاها الرسول ﷺ إنما هي في حقيقتها دليل على صدقه.

ولا يمكن فهم قصة آدم ﷺ على حقيقتها تماماً دون التعرف أولاً على مسرح الأحداث التي وقعت فيه. فهل كان آدم ﷺ يعيش في الجنة التي وعد الله عباده المتقين في الحياة الآخرة، وهل في تلك الجنة وقعت الأحداث التي تصفها الآيات التالية؟ إن كل الشكوك التي تدور حول هذا الموضوع تزول بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣١)، مما يوضح بكل جلاء أن خلق آدم ﷺ وحياته وكل ما وقع له من أحداث إنما وقع هنا على هذه الأرض. ويؤيد الكتاب المقدس هذا الرأي، كما تؤيده أيضاً الكتابات الدينية الهندوسية والزرادشتية. وقد روي عن الرسول ﷺ قوله إن نهري النيل والفرات هما نهرا من أنهار «الجنة»، مشيراً إلى الجنة التي كان يعيش فيها آدم ﷺ (مسلم، كتاب الجنة)، وجاء في الحديث أيضاً أن آدم ﷺ كان يعيش في الأرض التي يرونها نهرا دجلة والفرات. وعلى ذلك، عاش آدم ﷺ هنا على هذه الأرض، وكل ما ذكره الكتاب العزيز من أحداث قد وقع كذلك هنا؛ ولو كانت

هناك واقعة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض حرفياً، فلا بد من اعتبار أنها ذكرت بأسلوب مجازي.

وهناك حقيقة أخرى لا بد من وضعها نصب الأعين، وهي أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لا يشير فقط إلى أن آدم ﷺ قد خلق على هذه الأرض، وإنما يدل أيضاً على أنه لم يكن أول البشر وجوداً عليها، بل سبقه بشر كثيرون؛ فالآية الكريمة تصفه بأنه ﴿خَلِيفَةً﴾، أي خلف من سبقوه. والآية التي نحن بصددتها في سورة الأعراف تشير إلى هذه الحقيقة نفسها، إذ تقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. وصيغة الجمع في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، التي تسبق الأمر بالسجود لآدم، مع حرف الترتيب مع التراخي ﴿ثُمَّ﴾، تدل على أن الأمر بالسجود صدر بعد خلق الناس، لا بعد خلق آدم وحده، وعلى ذلك عندما تلقت الملائكة الأمر بالسجود كان كثير من البشر يعيشون بالفعل على هذه الأرض. ومن ثم فمن الخطأ القول إن الجنس البشري بدأ كله من آدم ﷺ، وأن عمره لا يزيد إلا قليلاً عن ستة آلاف سنة، أو أن جميع الأعراق البشرية الموجودة اليوم قد جاءت بالضرورة من نسله.

ومن هنا، فليس من اللازم أن يكون السكان الأصليون في أستراليا، أو الهنود الحمر في أمريكا، أو السود في أفريقيا، جميعهم من نسل آدم المذكور في هذه الآية. (انظر أيضاً البقرة: ٣١).

وكما سبق ذكره، فإن الوقائع التي لا يمكن إثبات وقوعها حرفياً على هذه الأرض ينبغي فهمها على أنها وردت بأسلوب مجازي. ويتضح هذا الأسلوب في القصة من خلال الحقائق التالية:

(١) إن الملائكة تلقوا أمراً بالسجود لآدم ﷺ، والسجود الحرفي لغير الله تعالى غير جائز، ومن ثم يستحيل أن يكون المراد به السجود الحقيقي، بل المقصود به

الخنوع له ومساندته في تحقيق مهمته وتقديم التأييد والعون له بأمر الله تعالى، ولهذا يُفهم قوله «اسجدوا» هنا بمعنى الخنوع.

(٢) إن الأمر بالسجود صدر للملائكة، غير أن إبليس ليس منهم، ومع ذلك كان داخلًا في جملة المأمورين، مما يدل على أن التعبير جاء بأسلوب مجازي.

(٣) يذكر القرآن أن إبليس خُلِقَ من نار، وأنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف: ٥١)، ومن ثم كان خفيًا عن أعين البشر، غير أن الآيات تصوره محاورًا لآدم عليه السلام، مما يدل على أن لفظ «الشيطان» استخدم هنا استعمالًا مجازيًا.

(٤) تذكر الآيات أن آدم عليه السلام وزوجه لما ذاقا من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، ولا يُعرف وجود شجرة يؤدي الأكل منها إلى إدراك العري، ومن ثم فذكر الشجرة والعري يُفهم على سبيل المجاز.

(٥) تذكر الآية ١١٩ من سورة طه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾، بينما تفيد آية الأعراف أنه قد تعرّى، مما يدل على أن إحدى العبارتين جاءت بأسلوب مجازي.

والمعنى المباشر للآية هو أن الله تعالى أمر الملائكة أن يخضعوا لآدم عليه السلام بمعنى معاونته في أداء مهمته عندما صار نبيًا، إذ من وظائف الملائكة إلهام الخير، ولذلك أمروا بغرس الأفكار الطيبة في عقول الناس وحثهم على قبول دعوته. ورئيس الملائكة جبريل عليه السلام، وفي مقابل ذلك توجد الأرواح الشريرة وزعيمها إبليس، وهي تحت الناس على فعل الشر، ولذلك بينما خضعت الملائكة لآدم طاعةً لأمر الله تعالى، رفض إبليس الخنوع له وامتنع عن معاونته.

والجدير بالذكر أن الوقائع المذكورة هنا لا تتصل بمجد البشر الذي يمكن أن يُطلق عليه «آدم الأول»، بل تتعلق بآدم اللاحق الذي عاش على الأرض قبل نحو ستة آلاف سنة، والذي جاء نوح وإبراهيم عليهما السلام وذريتهما من نسله مباشرة. انظر أيضًا تفسير الآيتين ٣١ و ٣٥ من سورة البقرة.

قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾

التفسير:

إن ما جاء ذكره على أنه حوار بين الله تعالى وإبليس لا يعني بالضرورة أنه قد حدث في الواقع تبادل في الكلام بينهما، فالكلمات يمكن أن تكون تصويراً لأحوال معينة، أو للظروف التي نجمت عن رفض إبليس الخضوع لآدم عليه السلام. والفعل «قال»، كما سبق شرحه في الآيتين ٣١ و ٣٤ من سورة البقرة، لا يعني دائماً التلفظ بالكلمات، وإنما يأتي أحياناً للتعبير عن أحوال معينة.

ولشرح معنى ﴿مِنْ نَّارٍ﴾ و﴿مِنْ طِينٍ﴾ انظر البقرة: ٨١ وآل عمران: ٥٠.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٤﴾

التفسير:

لم يأت ذكر اسم يعود عليه الضمير «ها» في كلمة ﴿مِنْهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، ويمكن اعتبار أن الاسم مقدّر ويعود إلى الحالة أو المكانة التي كان يشغلها إبليس قبل أن يرفض الخضوع لآدم عليه السلام. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي انحط من مقامك ودرجتك الحالية.

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾

التفسير:

إن البعث الذي يشير إليه قول إبليس: ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ ليس هو البعث العام للخلقة في الآخرة، بل هو البعث الروحي الذي يحدث للإنسان عندما يبعث الله تعالى نبياً. ويعني هذا أن إبليس لا يستطيع أن يضل الإنسان إلا إذا لم يبعث روحياً، ولكن متى بلغ الإنسان مرتبة «البقاء»، أو البعث الروحي الجديد، فإن إبليس لا يستطيع أن يلحق به أي ضرر. وهذه مرحلة روحية مماثلة لتلك المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الإسراء: ٦٦).

قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٦﴾

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

أَغْوَيْتَنِي: «أغويت» من «أغوى»، مشتقة من «غوي»، أي ضلّ؛ خاب؛ هلك؛ انهمك في الجهل؛ فسد عيشه. «أغواه»: أضله؛ أزلّه؛ يأسه؛ خيبه؛ أغراه؛ خدعه؛ أهلكه؛ أمره بمعصية ففعلها (معجم لين ولسان العرب وأقرب الموارد والمفردات).

التفسير:

يقول إبليس هنا إنه، بما أن الله تعالى قد حكم عليه بالضلال، فإنه سيعمل على إغواء الناس وإضلالهم كما ضلّ هو، وأنه سيجعل من هذا العمل شغله الشاغل وهدف حياته.

ويمكن أن يدل حرف «الباء» في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ على القسم، وفي هذه الحالة يكون معنى الجملة: «أقسم بحكمك عليّ بالضلال أنني سأفعل كذا وكذا».

ثُمَّ لَا تَنِيَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٨﴾

التفسير:

لاحظ شبكة الإغواءات التي نسجها الشيطان، ولكن الحقيقة العظيمة ستبقى إلى الأبد، وهي: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الإسراء: ٦٦). إن الملجأ الوحيد هو الله تعالى وحده، رب الإنسان ورب الشيطان ورب العالمين.

قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لِّمَن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ لَا أُمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾

التفسير:

توضح الآية الكريمة أن إبليس لن يستطيع أن يترصد لعباد الله المختارين الذين بلغوا مرتبة البعث الروحي، كما أنه لن يستطيع أن يجبر أحداً على معصية الله ﷻ، فكما تشير الآية بوضوح، لن يقع فريسةً لتأثيره ونفوذه إلا من اختار اتباعه بنفسه.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا
مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ٣٦ من سورة البقرة.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ
عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا
عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِنِ أَوْ
تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

وَسْوَسَ: حرفياً تعني: تكلم بصوتٍ خفيض؛ همس. يُقال: «وسوس له الشيطان»: حدّثه بشراً أو بما لا نفع فيه ولا خير. «وسوس الرجل»: أُصيب في عقله وتكلم بغير نظام. «الوسواس»: الهمس؛ الإيحاءات الشريرة. «الوسواس»: مرض يحدث من غلبة السّوداء ويختلط معه الذهن؛ الشيطان (أقرب الموارد).

سَوْءَاتِهِمَا: سَوَات جمع سوءة، مشتقة من «ساء» أي: قَبِحَ؛ فَسَدَ. «سوءة»: الفاحشة؛ الخلّة القبيحة؛ العورة؛ الجنّة؛ العُرْي (معجم لين وأقرب الموارد). وتستخدم هذه الكلمة أيضاً مجازاً كإشارة إلى الضعف البشريّ المخفي داخل الإنسان.

التفسير:

لما كان المكان الذي يعيش فيه آدم ﷺ قد وُصف مجازاً بأنه «جنة»، استمر أسلوب المجاز في وصف المشهد التالي، وجاء ذكر منع آدم ﷺ من أن يقرب «شجرة» معينة، ولم تكن شجرة بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنها كانت كنايةً عن عائلة أو أسرة أو قبيلة أمره الله تعالى بالابتعاد عنها؛ لأن أفراد تلك العائلة أو القبيلة كانوا أعداءه، ولن يتورّعوا عن إيذائه بشتى الطرق والوسائل. ولشرح معنى كلمة «شجرة» انظر الآية ٣٦ من سورة البقرة.

وهناك قراءة أخرى لكلمة ﴿مَلَكَيْنِ﴾ التي تعني اثنين من الملائكة، وهي «مَلَكَيْنِ» التي تعني اثنين من الملوك. ويؤيد هذه القراءة ما جاء في الآية ١٢١ من سورة طه، حيث جاء على لسان الشيطان: ﴿هَلْ أَذُكُّ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنِّ وَمُلَكٍ لَّا يَبْلَى﴾.

إن ذلك الرجل الشرير الذي سُمي هنا باسم الشيطان قد رسم خطته الخبيثة كما يلي: جاء إلى آدم ﷺ وقال له إن السبب في أن الله تعالى قد منعه من التعامل مع العائلة المذكورة هو أن أفرادها كانوا يناصرونه العداء، وأنهم كانوا سيتآمرون للقضاء عليه إذا أقام معهم أي علاقة. ولكن لما أصبحت هذه الأسرة ودودة معه زال الخطر، بل إنها يمكن أن تصبح الآن مصدر قوة ومنعة له، وعلى هذا فإن الأمر بمنع التعامل معها لم يكن أبدياً.

ولما كانت الظروف التي صدر أمر المنع بسببها قد انتهت، فقد انتهى بانتهائها أمر المنع أيضاً، ولا ضير الآن من استئناف العلاقات مع هذه الأسرة. وبهذه الطريقة نجح الشيطان في خداع آدم ﷺ وزوجه، وأقسم لهما أنه لهما ناصح أمين (انظر الآية ٢٢). وبعد تردد اقتنع آدم ﷺ أنه ما دامت الظروف التي صدر أمر الله تعالى بمنعه من التعامل مع هذه العائلة بسببها قد انتهت، فلا بد أن يكون هذا الأمر قد انتهى أيضاً.

ولا شك أن هذا كان اجتهداً خاطئاً من جانب آدم عليه السلام في فهم الأمر، ولم يعص أمر الله تعالى عن عمد أو خبث طوية. وفي ذلك يذكر القرآن المجيد في مكان آخر: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٦)، ﴿فَنَسِيَ﴾ توضح أنه لم يقصد معصية الله تعالى.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٢﴾

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ
الشَّجَرَةِ وَأَقْبَل لَكُمَا ابْنُ الشَّيْطَانِ لَكُمَا
عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

دَلَّاهُمَا: مشتقة من «دلا» أو «دَلَّى». يُقال: «دلا الدلو»: أرسلها في البئر؛ جذبها ليخرجها. «دلا حاجته»: طلبها. «أدلى الدلو»: أرسل الدلو في البئر. «دَلَّى الشيء»: أوقعه؛ أسقطه. «دَلَّاهُ بغرور»: أوقعه فيما أراد من الغرور (معجم لين).

وَيُبَيِّنُ قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أن الشيطان قد خدع آدم عليه السلام وجذبته وزوجه إليه، أو إلى الشجرة المحرمة، بأقوالٍ معسولة؛ فتسبب في وقوعهما في الخطأ دون علمهما.

وَرَق: مفرد وجمع، مشتقة من «وَرَقَ». يُقال: «وَرَقَ الشجر»: ظهر ورقه. «أورق الرجل»: كثر ماله. «الورق»: الصُّحف؛ رقائق معدنية؛ دراهم فضية؛ الحي من كل حيوان؛ شباب القوم؛ نضرة وحدثة الشيء (أقرب الموارد ومعجم لين ولسان العرب).

التفسير:

لكل شخص مواطن ضعف قد تكون خفية أحياناً حتى على نفسه، ولكنها تتضح في وقت الشدة، أو عند التعرض للإغراء أو الاختبار. فمثلاً، بعض الأشخاص قد يكونون جبناءً، ولكنهم لا يدركون وجود هذه النقيصة فيهم، وعندما يتعرضون للخطر وتخفق قلوبهم، يدركون ضعفهم. وهكذا كان الأمر مع آدم عليه السلام عندما أغواه الشيطان وخدعه، أدرك موطن ضعفه الفطري. والقرآن المجيد لا يقول إن مواطن ضعف آدم عليه السلام وزوجه قد صارت معروفة للناس، وإنما صارت معروفة لهما أنفسهما.

إن كلمة «سَوَاء» التي سبق شرحها في الآية ٢١ أعلاه، لم تأتِ هنا بمعنى «عُزِي»، وإنما جاءت بمعنى سببٍ «للخجل» أو «الضعف» لأن عري الإنسان لا يمكن أن يكون خافياً عنه. إن بعض عناصر الضعف كانت بالفعل خافية عن آدم عليه السلام، ولم تنكشف له إلا بعد أن نجح عدوه في جرّه بعيداً عن موقعه الآمن الذي كان فيه. وقبل ذلك كان يؤدي عمله مستعيناً بالله تعالى وفضله الذي ستر مواطن الضعف لديه، ولكنه لما تحالف مع العائلة التي كان الله تعالى قد حذّره من التعامل معها، تكشّفت له عناصر الضعف هذه وأدرك بكل أسف مدى ضعفه وقلة حيلته.

وبعد أن نجح الشيطان في خلق صدع في المجتمع، وتسبب في خروج بعض ضعاف النفوس منه، جمع آدم عليه السلام «أوراق الجنة» أي راح يجمع شباب المجتمع ويوحّد أفراد قومه ويعيد تنظيمهم بمساعدة أولئك الشباب. فعادة ما يكون الشباب بسبب بعدهم غالباً عن التعصّب وعدم مبالاتهم بالأخطار، هم الذين يتبعون الأنبياء ويقومون بمعاونتهم. وقد ذكر القرآن المجيد ذلك في حق موسى عليه السلام فقال: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ﴾ (يونس: ٨٤).

ومما يجدر ذكره هنا أن الذي ذكره القرآن المجيد بأنه رفض الخضوع لآدم عليه السلام هو «إبليس»، بينما أطلق على من أغواه اسم «الشيطان». ولا يوجد هذا التمييز بين الاسمين في هذه الآية التي نحن بصدها فقط، بل نجده كذلك في جميع الآيات ذات الصلة. وهذا يبين أنه فيما يتعلق بذكر أحداث آدم عليه السلام فإن «إبليس» و«الشيطان» شخصان مختلفان. وفي الواقع، إن كلمة «شيطان» لا تُطلق على الأرواح الشريرة فحسب، وإنما تُطلق أيضاً على الأشخاص الذين يصيرون بسبب خبث طويتهم وسوء أفعالهم كأنهم شياطين متجسدة. فكما يمكن للإنسان أن يرتقي في الفضيلة والتقوى حتى يصبح كالملاك، كذلك قد ينحط أخلاقياً حتى يُسمى شيطانياً. وعلى هذا، فإن الشيطان الذي أغوى آدم عليه السلام وأوقعه في الزلل، لم يكن روحاً شريرة خافية عن الأعين، وإنما كان رجلاً خبيثاً من دم ولحم، وشيطانياً من شياطين البشر، ومظهراً من مظاهر الشيطان، ووكيلاً لإبليس. لقد كان من أفراد العائلة التي أمر الله تعالى آدم بعدم التعامل معها. ويذكر الرسول ﷺ في أحد أحاديثه أن اسمه كان «الحارث»، الذي يعني حرفياً «الفلاح الذي يفلح الأرض ويحرثها» (الترمذي، كتاب التفسير)، وهذا دليل آخر على أنه كان بشراً لا روحاً شريرة. انظر أيضاً الآيتين ١٥ و ٣٧ من سورة البقرة.

لقد كان خطأ آدم عليه السلام أنه ظن أن ذلك الرجل ذا الطوية الخبيثة ناصحاً بالخير، على الرغم من أن الله تعالى قد حذره من التعامل معه بأي شكلٍ من الأشكال.

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾

التفسير:

لم يبق آدم عليه السلام طويلاً على خطئه، إذ سرعان ما أدرك زلته، وسارع إلى الإنابة إلى ربه يسأله العفو والمغفرة.

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٥﴾

التفسير:

تُبين الآية الكريمة أن آدم عليه السلام تلقى أمراً بالهجرة من المكان الذي وُلد وعاش فيه، لأن العداوة تفجرت بين أفراد ذلك المجتمع، وانتشرت بينهم الأحقاد. وهذا يقدم دليلاً آخر على أن «الجنة» التي كان يعيش فيها آدم عليه السلام لم تكن هي جنة الآخرة، ولا الفردوس الذي وعد الله تعالى به المؤمنين يوم القيامة. إذ يذكر الله أن تلك الجنة التي وعد بها المتقين، لا يمكن أن يخرج منها أحد، ولا يمكن أن يدخلها الشيطان ولا أن يخدع أحداً فيها. يقول تعالى عن تلك الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ (الحجر: ٤٩). ويبدو أن آدم عليه السلام قد هاجر من موطنه في أرض ما بين النهرين إلى أرض مجاورة. ولعلها كانت هجرة مؤقتة عاد بعدها إلى وطنه بعد فترة ليست طويلة، وهذا ما تشير إليه كلمات الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، مما يبين أن الهجرة كانت مؤقتة.

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا
تُخْرَجُونَ ﴿٢٦﴾

التفسير:

نُبِّهَ آدم عليه السلام في هذه الآية إلى أن يكون حذراً في المستقبل؛ لأنه سوف يعود إلى أرضه وموطنه الأصلي ويعيش فيه إلى نهاية عمره.

وأما إذا فُهِمَت الآية بمعناها العام، فهي تعني أيضاً أنه لا يمكن للإنسان الصعود إلى السماء بجسمه المادي العنصري، وإنما يتحتم عليه أن يعيش ويموت على هذه الأرض.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي
سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ
ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

ريش: مشتق من «راش». يُقال: «راشه» أي ألزق عليه الريش - للسهم -؛ أطعمه وسقاه وكساه؛ أعانه؛ أغناه؛ نفعه؛ أصلحه. «الرَّيش»: كسوة الطائر وزينته؛ اللباس الفاخر؛ الخصب؛ المعاش؛ المال؛ الأثاث (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تذكر هذه الآية أن هناك غرضين من اللباس: (١) أن يستر عُزِينَا؛ (٢) وأن يُجَمِّلَ مظهرنا ويضفي علينا الأناقة. ومع وجود هذين الغرضين، فمن المؤسف حقاً أن النساء في الغرب قد أخذن في التخلي عن ملابسهن، كما أخذ هذا الداء المنافي للأخلاق يغزو نساء الشرق أيضاً.

ويشرح قوله تعالى: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾ المعنى الحقيقي لكلمة «ريش» التي تعني حرفياً «الرداء الأنيق». فالآية تقول إن لباس التقوى هو في حقيقة الأمر الرداء الأمثل للإنسان، فالرداء المادي يستر عُزِينَا الجسدي، بينما يستر رداء التقوى عُزِينَا الروحي

والأخلاقي. وبهذا اللباس بالذات ستر آدم ﷺ «عُرِيَه» في الجنة، فقد دعا الله تعالى فاستجاب لتضرّعاته وتاب عليه برحمته وغفرانه كما ذكرته الآية ٢٤ أعلاه.

وتُذكرنا الآية بأسلوب جميل أننا حينما نرتدي الملابس الأنيقة لكي نغطي سوءاتنا المادية ونبدو بشكل لائق ومظهر مناسب، فإنه ينبغي علينا أن نكون أكثر حرصاً على تغطية سوءاتنا الأخلاقية وستر عوراتنا الروحية، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الصلاة والدعاء والتضرع لله تعالى لكي يمنحنا عفوه ومغفرته، كما فعل آدم ﷺ.

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا
أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾

التفسير:

الشيطان، ومن على شاكلته، غالباً ما يكونون غير مرئيين للعين البشرية. يمارسون نفوذهم خفية، ويبحثون عن نقاط ضعف الإنسان الكامنة ليفضحوها ويثبتوه على شروره. «الشيطان» اسم وصفي، ويعني «الشخص الذي صار بعيداً عن الله تعالى»، ولا يهلك المرء حقيقةً إلا إذا ابتعد عن الله تعالى. انظر الآية ٣٧ من سورة البقرة للشرح المفصل لكلمة «شيطان».

ويُبين قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أن الشيطان وشركاءه لا يمارسون نفوذهم الخبيث إلا على من هم أصلاً ذوو نزعة خبيثة.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا
وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

التفسير:

تنطبق هذه الآية الكريمة بوجه عام على أولئك الذين يتبعون الشياطين كما ورد في الآية السابقة. كما يمكن أن تنطبق بشكل خاص على النصارى الذين يدعون أن آدم عليه السلام قد ارتكب الخطيئة، وأن ذريته ورثتها عنه عبر الأجيال، فلا يستطيعون التخلص منها. ويدين القرآن المجيد هذه العقيدة بشدة؛ أولاً لأنها ببساطة عبثية وحمقاء، وثانياً لأن القرآن المجيد قد برأ آدم عليه السلام من تهمة ارتكاب الخطيئة.

ويقولهم: ﴿اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يقصد الكافرون أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة على ارتكاب المعاصي، أو أنه هو الذي خلق الشياطين الذين يضلّونهم، وهم بذلك يسعون إلى التنصّل من مسؤولية أعمالهم الفاسدة. ويقدم الجزء الأخير من الآية الردّ القاطع على هذا العذر الواهي، إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

أمّا الشيطان، فالناس لا يفهمون الحكمة من خلقه؛ فهو كالحاجز في سباق الحواجز، فالحواجز لا توضع لعرقلة التقدّم، وإنما الغرض منها بذل مزيدٍ من الجهد للتقدّم والفوز. وإن المتسابق غير الحذر، الذي لا يكثرث بوجود هذه الحواجز في السباق، فيتعثّر ويسقط ويخسر السباق بسبب ذلك، ليس له أن يلوم إلا نفسه، لا الشخص الذي وضع الحواجز في طريق السباق، إذ كان الغرض منها الكشف عن حقيقة قدرة المتسابقين.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

مسجد: مشتق من «سَجَدَ» أي: انحنى خاضعاً؛ وضع جبهته على الأرض متعبداً؛ طائفاً رأسه؛ تواضع. «مسجد»، موضع السجود؛ كل موضع يُتَعَبَّد فيه؛ بيت العبادة؛ مكان عبادة المسلمين (معجم لين). ويمكن أن تستخدم كظرف زمان؛ أي وقت الصلاة.

التفسير:

تخبرنا الآية أنه عندما يقترب موعد أداء الصلاة ونوشك على الذهاب إلى المسجد، ينبغي أن نركّز اهتمامنا على الله تعالى، ونوجّه وجوهنا إليه، ونحرّر عقولنا من أفكار هذه الدنيا واهتماماتها. ويقوم الوضوء الذي نؤدّيه قبل الصلاة بدورٍ مهم في تحويل أفكارنا نحو الله تعالى، لنكون في الحالة المناسبة التي تؤهّلنا لحسن أداء الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ على جانبٍ كبير من الأهمية؛ لأنه يشير إلى حقيقةٍ كبرى، وهي أنه كما أن أجسادنا تتطوّر بالتدرّج في أرحام أمّهاتنا، كذلك فإن أرواحنا تمرّ بعملية نموٍّ مماثلة بعد موتنا. ولذلك ينبغي علينا أن نكون حريصين أشدّ الحرص على سلامة هذه الأرواح.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ
اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

التفسير:

انظر الآيات: النحل: ٣٧؛ الحج: ١٩.

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ
مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٢﴾

التفسير:

قد تكون الزينة التي تذكرها الآية الكريمة زينةً ماديةً أو روحية؛ فإذا أخذناها بالمعنى المادي، فإن الآية تحث المؤمنين على الذهاب إلى المسجد في حالة نظيفة، وبملابس نظيفة ومناسبة بقدر الإمكان، بحيث تكون خاليةً من أي أوساخ أو نجاسة أو روائح كريهة. وقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه نهى المسلمين عن الذهاب إلى المسجد إذا كانوا قد أكلوا البصل أو الثوم وغيرهما مما يسبب الروائح الكريهة في الفم، فيكونون بذلك مصدر ضيقٍ لغيرهم من المصلين. كذلك فقد رُوي عنه ﷺ أنه حث المؤمنين على المحافظة على نظافة الجسم، وذلك بدوام الاستحمام، وخاصة قبل الصلاة يوم الجمعة.

أما عندما نأخذ الزينة بالمعنى الروحي، فتعني الآية أنه ينبغي أداء الصلاة بقلبٍ يتزَيَّن بالتقوى والإخلاص، والتطهّر من جميع ما يُشَدّت الفكر ويؤثّر على القلب من مختلف الأفكار.

ويحتوي الجزء الأخير من الآية على توجيه هام يتعلق بالأكل والشرب. وقد قرُن هذا الأمر بالأمر بأخذ الزينة ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وذلك لأن الملابس والأكل موضوعان متلازمان، وكذلك لبيان أن الإسلام لا يهمل الحاجات المادية للإنسان عندما يصدر أمراً يختص بأمرٍ من الأمور الروحية كالصلاة.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: (١) على الإنسان عدم الإفراط في تناول الطعام؛ (٢) وألا يقتصر على نوعٍ واحدٍ من الطعام، بل عليه أن يُنَوِّع من وقتٍ لآخر، فيتناول اللحوم والخضراوات والفواكه وغيرها بقدرٍ معقول وبكمياتٍ متناسبة.

وفي هذا الخصوص يجدر الاطلاع على كتاب «فلسفة تعاليم الإسلام» الذي كتبه مرزا غلام أحمد، الإمام المهدي عليه السلام.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

التفسير:

الإسلام ليس دين رهبانية، ولذلك تحمل الآية تقريعاً لأولئك الذين يحرمون استعمال الأشياء الطيبة والطاهرة. إن الخيرات والطيبات التي جعلها الله تعالى لعباده المؤمنين

وحدهم، فهم وحدهم الذين يستحقونها، يشاركون فيها الكافرون في هذه الدنيا، أما في الآخرة فستكون حكرًا على المؤمنين دون الكافرين.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

التفسير:

تلقت الآية الكريمة أنظارنا إلى طهارة التعاليم الإلهية، بالإشارة إلى أن الإسلام قد حرّم جميع أنواع الشرور، وفي الوقت نفسه تذكّر القارئ بوجود أمورٍ يخفى شرّها على الناس وهي محرّمة أيضًا، وقد ذكر النبي ﷺ أغلبها.

ثم تبين الآية معنى الفواحش، مقسّمة إياها إلى ثلاثة أقسام:

(١) ﴿الْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، والإثم هو المعصية أو التقصير في أداء الواجب، والبغي هو العدوان أو تجاوز الحدود؛

(٢) ﴿أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، وفواحش الشرك هي المعتقدات الوثنية والشركية؛

(٣) ﴿أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفواحش هذا القسم هي ما يصدر عن الإنسان من فاحش القول وكاذبه.

وعلى هذا فالآية تحثّ المؤمنين على الالتزام بالطهارة والنقاوة، ليس فقط في الأفكار، وإنما في الأقوال والأفعال أيضًا.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا
يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

يَسْتَقْدِمُونَ: مشتق من «قَدَّمَ» أي: سبق. «استقدم القوم»: تقدّمهم (معجم لين وأقرب الموارد). وبما أن الإنسان عندما يسبق شيئاً فإنه عملياً يتركه وراءه، لذا فإن المقصد من (يستقدمون) هو الهروب.

يَسْتَأْخِرُونَ: مشتق من «أَخَّرَ». يُقال: «استأخر القوم»: ظل خلفهم. «استأخر» تعني أيضاً: تباطأ؛ وُضع في الخلف؛ أَجَلٌ أو أُخِّرَ (معجم لين وأقرب الموارد). وبما أن الإنسان عندما يظل خلف الشيء فإنه عملياً يتخلص منه، لذا فإن المقصد من (يستأخرون) هو تأجيل الأمر.

التفسير:

تعني الآية الكريمة أنه عندما تحين ساعة العقاب لقوم ما، فلا سبيل إلى درء ذلك العقاب، ولا يستطيع الكفار الذين استحقّوا ذلك العقاب أن يهربوا منه ولا أن يؤخّروا نزوله ولو للحظة واحدة.

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾

من الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أنه كما جاء في الآيات السابقة رقم ٢٧ و ٢٨ و ٣٢ من هذه السورة، فإن الخطاب الذي تحمله عبارة ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ يخاطب الناس في زمن الرسول ﷺ والأجيال القادمة، وليس الناس الذين عاشوا في الأزمنة السابقة أو الذين جاءوا مباشرة بعد آدم عليه السلام.

وقد استُخدم هذا الأسلوب في الخطاب تمهيداً لتقديم موضوع مهم يُراد إيصاله إلى الأجيال القادمة من البشرية، ومفاده أن رسل الله تعالى سيستمرون في الظهور ما دام بنو آدم يعيشون على هذه الأرض، وأن معارضة الرسول ﷺ لن تستطيع القضاء على دعوته أو وقف نعمة النبوة.

إن الوعد العظيم الذي قطعه الله تعالى لذرية آدم عليه السلام في زمنه، وهو ما ذكرته الآية ٣٩ من سورة البقرة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والذي بموجبه أرسل الله أنبياءه ورسله إلى مختلف الأقوام وفي مختلف البلاد وفي مختلف الأزمنة، سوف يستمر في التحقق إلى آخر الزمان.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أن رسل الله تعالى قد يأتون وقد لا يأتون، تماماً كما أن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ لا يعني أن الهدى قد يأتي وقد لا يأتي. إن الحرف «إمّا» يعني أنه إذا حدث أن كنتم موجودين على قيد الحياة عندما يأتيكم رسولٌ منكم، فإنه ينبغي عليكم أن تقبلوه ولا تكونوا أول كافرٍ به.

فالغرض من حرف «إمّا» هو ترك زمن ظهور رسل الله دون تحديد، إذ يمكن أن يأتي رسولٌ من الله تعالى في هذا الجيل أو ذاك، ولكن المهم هو أنه حينما يأتي فينبغي قبوله وطاعته.

ويشير قوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ إلى حقيقة أن مبعوثي الله تعالى الذين سيأتون فيما بعد سيكونون أتباعاً للرسول ﷺ، ولن يأتوا بشريعةٍ جديدة ولا كتابٍ

ولا دين جديد من لدن الله تعالى، بل سيتبعون شريعة الإسلام، وستكون مهمتهم فقط هي ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ التي جاءت في القرآن الكريم.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾

التفسير:

ترفع هذه الآية بشكل خاص لواء التحذير للمسلمين بأنهم يجب ألا يستخفوا بالمبعوثين الذين سيظهرون بينهم، وألا يرفضوهم أو يكذبوهم. لقد اكتملت الشريعة حقاً في القرآن المجيد، ولكن هذا لا يعني أن رفض مبعوثي الله الذين يأتون فيما بعد يمكن أن يمر دون عقابٍ من الله تعالى.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ
الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ
قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٨﴾

التفسير:

تُقدِّم الآية الكريمة الأسباب التي من أجلها يستحقّ مكذبو الرسل العقاب الإلهي الذي يحلّ بهم. إنهم يستحقّون غضب الله عليهم لأنهم يعتبرون مبعوثه كاذباً

ويعاملونه على أنه أفاق ودجال، كما أنهم يرفضون قبول آيات الله التي يأتي بها إليهم. وفي الحقيقة، إن أولئك الذين يفترون على الله الكذب، وأولئك الذين يكذبون بما جاء به المرسلون، يستحقون جميعاً العقاب الإلهي.

وبعني قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أن مكذّبي الرسل والمبعوثين سيرون بأعينهم تحقق النبوءات التي سبق أن وعدت بهزيمتهم وخيبتهم، وسيذوقون العقاب الذي أعدّ لهم بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ
مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ
أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا
قَالَتْ أَخِرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ
وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

إِدَّارَكُوا: مشتق من «درك». يُقال: «دَرَكَ المطرُ» أي تتابع قطره. «أدركه»: لحق به؛ بلغه؛ أحرزه؛ باغته. «إِدَّارَكُوا» و«تَدَّارَكُوا»: تلاحقوا وتتابعوا، أو لحق بعضهم بعضاً. تلاحقوا أي لحق آخرهم أولهم. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ يعني: حتى يلحق آخرهم أولهم؛ أو حتى يأتوا فيها جميعاً (معجم لين).

التفسير:

يتضح معنى قوله تعالى: ﴿لُكِّلَ ضِعْفٌ﴾ من العقاب عند فهم قول النبي ﷺ: «إن من استنَّ سُنَّةً طيِّبَةً فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن استنَّ سُنَّةً سيئةً فعليه إثمها وإثم من عمل بها».

في الحقيقة، إن الشخص الذي يفعل الخير أو الشر لا ينفع نفسه أو يضرها فحسب، بل يترك من ورائه مثلاً لمن يأتون من بعده، ولذلك فإنه يستحق أجراً مضاعفاً إذا ترك مثلاً طيباً احتذى به الناس، كما أنه يستحق عقاباً مضاعفاً إذا ترك مثلاً سيئاً وقلده فيه الناس.

وتشير كلمات الآية أيضاً إلى حقيقة أن كل فريق يتبع فريقاً آخر، فهو يسبق كذلك الفريق الذي يأتي من بعده، وعلى هذا فليس هناك من سبيل لأن ينال فريقٌ معين ضعف العقاب بينما يفلت الفريق الآخر بعقابٍ واحد فقط.

وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِهِمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٤١﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا
لَا تُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
حَتَّى يَلْجَأَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

الجَمَلُ: اسم مشتق من «جمل». يُقال: «جَمَلَ الشيء» أي جمعه. «جَمَلَ الشحم»: أذابه. «جَمَلَ» و«جَمُلَ»: حَسَنَ خَلْقًا وَخُلُقًا. «الجَمَلُ»: زوج الناقة؛ البعير؛ سَعَف النخيل لأنه يشبه الجمل من ناحية الطول والكبر؛ سمكة قيل طولها يبلغ ثلاثين ذراعًا ولها خرطوم وتُعرف بجمل البحر (معجم لين). وجاء في (أقرب الموارد) أن كلمة «الجَمَلُ» تعني أيضًا: حبل السفينة لغلظه.

التفسير:

يبدأ بهذه الآية الكريمة وصفُ الحياة بعد الموت، بعد أن جاءت الإشارة عابرةً إليها في الآيات الثلاث السابقة.

إن الجنة هي المقام السامي العظيم الذي يقيم فيه المؤمنون الصادقون. وقد ذكر الرسول ﷺ أن أرواح المؤمنين الأتقياء هي التي سوف تقيم في فردوس الجنة، بينما تهبط أرواح الأشرار إلى قاع جهنم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أن الذين يرفضون آيات الله لا تُعطى لهم المعارف الروحية السامية التي يمنحها الله لعباده المؤمنين، ولا ينالون قربه ﷻ كما يناله عباده المقربون.

ورغم أن كلمة «جمل» التي جاءت في الآية الكريمة قد استخدمت بمعناها الحرفي في تعبير مماثل في إنجيل متى ١٩: ٢٤، فإن الجملة العربية يمكن فهمها بطريقة أوضح إذا اعتبرنا أن الكلمة تعني «الحبل»، لأن الحبل - وليس الجمل - هو الذي يحمل شبيهًا بالخيط الذي يدخل في ثقب الإبرة. وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ (أو الحبل) فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أنه سيكون من المستحيل على من يكفر بالأنبياء أن يدخل الجنة.

لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنَ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

غَوَاشٍ: جمع غاشية، مشتقة من «غشي». يُقال «غشيه» أي غطاه؛ حلَّ به؛ غلبه. «الغاشية»: الغطاء؛ الداهية؛ العقاب؛ القيامة؛ نار جهنم؛ السائلين المستجدين؛ الخدم؛ الزوار؛ الأصدقاء؛ العوائل؛ داء يأخذ في الجوف (معجم لين).

التفسير:

كلمة «غواش» التي تعني «أغطية» يمكن أن تعني أيضاً «الخدم» أو «المعالين» الذين يعولهم المرء. وإذا أخذنا الكلمة بهذا المعنى، فيمكن أن تفيد الآية أن خدم الكافرين ومعاليلهم من المؤمنين سيكونون فوقهم يوم القيامة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾

التفسير:

إن الجملة الاعتراضية ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تتعارض مع العقيدة المسيحية القائلة بأن الخطيئة متأصلة في الطبيعة الإنسانية، وأن التخلص منها يفوق قدرة الإنسان، وأن هذا العجز الطبيعي لا علاج له إلا بالإيمان بعقيدة الكفارة التي تزعم أن المسيح عليه السلام قد جاء ليموت على الصليب وليصير ملعوناً من الله تعالى لكي يرفع بدمه اللعنة عن الناس.

ولذلك فإن كلمة ﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ تعني أن الله تعالى لا يفرض على أحد أي عمل يزيد على طاقته أو قدرته.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا
لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ
جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَ
الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

غِلٌّ: مشتق من الفعل «غَلَّ». يُقال: «غَلَّه» أي أدخله فدخل، وهو فعل لازم ومتعدّد. «غَلَّ فلان كذا»: أخذه في خفية ودسّاه في متاعه. «غَلَّ بصره»: حاد عن الصواب. «غَلَّ الرجل»: خان. «الغِلَّ»: الغش؛ الحقد؛ الضغينة؛ الحُبث؛ العداوة؛ الخيانة (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

لا شك أن تحرّز القلب من مشاعر الغلّ وخلوّه من الحقد هو أحد أعظم بركات الجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين. ولما كانت الحياة الفردوسية تبدأ هنا في هذه الحياة الدنيا، فعلى المسلم أن يعمل دائماً على تنقية قلبه من مشاعر الغلّ التي يكون الشخص نفسه أول ضحاياها.

إن السؤال الذي قد ينشأ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ يجد إجابته في الكلمات التالية: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، والتي يمكن فهمها على أنها تعني أنه «لولا أن الله تعالى قد أرسل رسوله بالحق لما كنا نستطيع أن نهتدي،

لأنه من المستحيل علينا أن نخترع أو نبتكر لأنفسنا شريعة، وبدون شريعة ما كنا لنعمل الصالحات. فالشريعة ليست لعنة، وإنما هي نعمة وبركة لأنها تمكّننا من بلوغ الجنة».

وقد جاءت كلمة ﴿تِلْكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ للإشارة إلى شيء ما، ويُشار للمؤمنين هنا إلى الجنة لأنهم لم يدخلوها بعد، مع أنهم وُصفوا في الآية السابقة بأنهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وذلك لأنهم في حقيقة الأمر قد نالوها حقاً بأعمالهم الصالحة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الحياة الفردوسية تبدأ هنا في هذه الحياة الدنيا، رغم أن تجليها بشكلها الكامل لا يكون إلا في الحياة الآخرة (انظر البقرة: ٢٦ والرحمن: ٤٧).

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ
وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾

التفسير:

يبدأ من هذه الآية الكريمة حوارٌ على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

وكلمة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ يمكن أن تعني هنا أيضاً «عبدة الأوثان» أو المشركين الذين يتخذون مع الله آلهةً أخرى. انظر أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٤).

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عُوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٦﴾

التفسير:

تحدّد هذه الآية الكريمة صفات «الظالمين» المذكورين في الآية السابقة. وتعني الكلمات «يَبْغُونَهَا عُوجًا» أن الظالمين يبتغون أن يُخَرَّبُوا الدين الذي أنزله الله تعالى لخيرهم ومصلحتهم، كما أنهم يكفرون أيضًا بالآخرة.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ
يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا
وَهُمْ يَظْمَعُونَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

أَعْرَافٌ: جمع «عُرْف»، أي المكان المرتفع. وهو اسم مشتقّ من الفعل «عَرَفَ». يُقال: «عَرَفَ الشيءَ»: عَلمه؛ أدركه بحاسّة من الحواسّ الخمس. «عَرَفَ على القوم»: دَبَّر أمرهم وقام بسياستهم. «العُرْف»: المعروف؛ الجود؛ العطاء؛ كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه؛ ما ارتفع من رمل ومكان ونحو ذلك (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يجلس عادةً عليّة القوم ووجهاء الناس في الأماكن العالية. وفي رأي الحسن ومجاهد فإن «رجال الأعراف» الذين يشغلون هذه المقامات العالية هم الصفوة من بين المؤمنين أو أكثرهم علمًا، وحسب رأي الكرمانى هم الشهداء، ويرى آخرون أنهم

الأنبياء، ويبدو أن هذا هو الرأي الصائب. فإن الرجال الذين يجلسون في المقامات العليا لا يتمكنون من رؤية الأمور بصورة أفضل من غيرهم فحسب، بل إنهم، بسبب سمو مقاماتهم ورفعة شأنهم، يكونون أكثر علماً بمجريات الأمور، ولذلك يستطيعون التعرف على مقام كل شخص ودرجته من خلال مظهره.

ويشير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ إلى أولئك الذين لم يدخلوا الجنة بعد، غير أنهم يأملون دخولها فوراً. وسوف يتعرف عليهم رجال الأعراف الذين يشغلون المقامات العليا، ورغم أن أولئك الناس لم يدخلوا الجنة بعد، فإن رجال الأعراف يعلمون أنهم من أصحاب الجنة.

وقد شاع خطأ مفاده أن رجال الأعراف هم فئة من الناس العاديين الذين لم تتقرر مصائرهم بعد ولا تزال قيد النظر، ولكن لو كان الأمر كذلك لما استطاعوا توبيخ أهل النار بالطريقة التي وردت في الآية رقم ٤٩. كذلك لا يُعقل وضع أشخاص عاديين في مقامات سامية عالية، بينما المؤمنون الصادقون المخلصون، بمن فيهم النبيون والشهداء، يشغلون مواقع أدنى من ذلك.

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾

التفسير:

إن صيغة المبني للمجهول التي استخدمت في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ تُبَيِّن أن أبصار رجال الأعراف سوف تتحول تجاه أصحاب النار بفعل قدرة الله تعالى، وذلك من أجل تحقيق غرض محدد، وهو الإعلان عن أمورٍ معينة.

والجزء الأخير من الآية الكريمة، وهو ما جاء على لسان أصحاب الأعراف: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، لا يعني أن قائل هذا الكلام سيكونون في حالة من عدم اليقين أو أن مصائرهم لم تتقرر بعد، فهذه الكلمات لا تتم إلا عن التقوى وخشية الله تعالى التي لا يسع حتى الأنبياء إلا أن ينطقوا بها عندما يرون تجلي غضب الله تعالى وعقابه.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ
بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مَّجْمَعُكُمْ وَمَا
كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾

التفسير:

سينادي رجال الأعراف، أي الأنبياء الذين يشغلون المقامات العليا، أشخاصاً معينين من بين الناس، وهم أقوامهم الذين كانوا قد أرسلوا إليهم، وسوف يعرفونهم بسيماهم، فيقولون لهم: انظروا ما آل إليه حالكم بسبب إعراضكم عن الحق. وإن حرف ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مَّجْمَعُكُمْ﴾ يمكن أن يُستعمل بمعنى الاستفهام، أي «ماذا»، وفي هذه الحال يكون السؤال على النمط التالي: «ماذا أغنت عنكم كثرتم وغروركم؟». وبهذا المعنى تُشكّل الجملة توبيخاً شديداً للهِجَة من الأنبياء لأصحاب النار.

أَهْلُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير:

إن لفظ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ في الآية الكريمة يشير إلى أولئك الذين سوف يدخلون الجنة، وسوف يخاطب الأنبياء أصحاب النار ويقولون لهم: انظروا إلى أصحاب الجنة، ثم يسألونهم: هؤلاء الذين أقسمتم أن الله تعالى لن يشملهم بفضله ورحمته؟ وبغير انتظارٍ لتلقي الإجابة منهم سوف يتحوّل الأنبياء إلى أصحاب الجنة الذين لم يدخلوها بعد ويقولون لهم: تعالوا، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. ومن الواضح أن الكلمات ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ تُبيّن أنهم لم يكونوا قد دخلوها بعد، لكنهم يأملون في ذلك قريباً.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ
أَفِضْوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

أَفِضُوا: مشتق من «أفاض» المشتقة من «فاض» بمعنى: كثر (الماء وغيره) وسال. «أفاض»: ملأ (الوعاء) حتى فاض؛ أفرغ الماء أو سكب (معجم لين).

التفسير:

إن استعمال عبارة ﴿أَفِضُوا عَلَيْنَا﴾ من قِبَل أصحاب النار يوحي إلى أنهم سوف يحاولون التملّق لأصحاب الجنة بقولهم إنهم يستمتعون بنعم الله تعالى وأفضاله التي تفيض عليهم بما يشبع رغباتهم ويزيد، فيستجدون منهم جزءاً من الخير العميم الذي أنعم الله تعالى به عليهم. ويتّضح حال أهل جهنم جلياً في مثل إبراهيم ولعازر في إنجيل لوقا (١٦: ٢٣-٢٤).

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا
وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير:

تشرح هذه الآية الكريمة معنى كلمة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ الواردة في الآية السابقة، وهم الذين كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم بصدق الإسلام، لكنهم استخفّوا بأمور الدين واتخذوها لهواً ولعباً، ولم ينصتوا إلى صوت العقل والضمير؛ ولذلك نسيهم الله تعالى كما نسوا لقاء ربهم.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾

التفسير:

الكتاب المذكور في هذه الآية الكريمة هو القرآن المجيد، وهو يتميز بثلاث سماتٍ معيّنة:

- (١) «العلم»، وهو ما لا بدّ منه للتعرف إلى الله تعالى.
- (٢) «الهدى»، وهو ما ينبغي وجوده للقيام بما على الإنسان من واجبات تجاه حقوق الله وحقوق العباد.
- (٣) «الرحمة»، التي تنزل من الله تعالى على المؤمنين.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا
بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ
نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

تَأْوِيلٌ: «التأويل»: التوضيح؛ التفسير؛ بيان أحد احتمالات اللفظ؛ بيان مراد المتكلم؛ العاقبة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: هل ينتظرون تحقق ما سوف يؤول إليه أمرهم، وذلك بظهور الوعود أو التحذيرات التي أنبأ عنها الكتاب (معجم لين). انظر أيضاً الآية ٨ من سورة آل عمران.

وفي الآية التي نحن بصددھا، المعنى المقصود من ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: هل ينتظرون تحقق التحذيرات؟.

التفسير:

تقدم الآية الكريمة توبيخاً وإنذاراً للكافرين في الوقت نفسه، إذ تقول لهم: ماذا ينتظرون بعد أن من الله تعالى عليهم بكتاب كامل مثل القرآن المجيد، وأسوة كاملة مثل النبي ﷺ، إلا أن يحل بهم عذاب الله تعالى الموعود؟.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ

يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

عَرْش: من الفعل «عَرَشَ» أي بنى بناءً أو شيَّده. «عَرَشَ البيتَ»: بناه. «عَرَشَ بالمكان»: أقام به. والقول «من العرش إلى الفرش» يعني: من عنان السماء إلى أدنى الأرض. «العَرْشُ»: سرير الملك؛ العَرْزُ: قوام الأمر؛ ركن الشيء؛ السقف؛ البيت الذي يُسْتَظَلُّ به؛ البيت؛ المقر؛ البناء الذي يكون على فم البئر يقوم عليه المستقي؛ المظلة؛ المُلْكُ. وقوله تعالى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: تَمَكَّنَ من سلطة المُلْك؛ ملك؛ استقر على عرش القوة والجلال. (معجم لين وأقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ٣٠ من سورة البقرة والآية ١٤٢ من سورة الأنعام.

التفسير:

إن كلمة «يوم» تعني بوجه عام أيضاً «فترة من الزمن»، كما في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقد استعملت بهذا المعنى في هذه الآية. ومن الصعب تحديد مدة هذه الفترات الست التي تذكر الآية الكريمة أن السماوات والأرض قد خُلِقَتَا فيها، فلربما امتدَّت لمئات الألوف من السنين. ومن الواضح أن كلمة ﴿أَيَّامٍ﴾ هنا لم تُستعمل بمعنى الأيام العادية التي يبلغ فيها اليوم ٢٤ ساعة، لأن طول هذه الأيام يتحدّد بشروق الشمس وغروبها، والشمس نفسها جزء من هذا الكون، وقد وُجِدَت مع وجوده.

وُثِّبَت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ أن الله تعالى، بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أو «ست فترات»، استوى على العرش في اليوم السابع. وحيث إن كلمة «سبعة» تُستخدم في اللغة العربية رمزاً للكمال، فإن هذا التعبير يعني أنه حينما استوى

سبحانه على عرش قدرته وجلاله في اليوم السابع صار الكون يعمل بحسب نظام كامل.

وكلمتا «الليل والنهار» في قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ ترمزان هنا للخطيئة والفضيلة. وفي الحقيقة، إن ظاهرة وجود الخطيئة في عالم يقوم على نظام كامل يمكن شرحها فقط من خلال ظاهرة الليل؛ فكما أن ذلك الجزء من الأرض الذي لا تصله الشمس يكون مظلماً، كذلك فإن الشخص الذي ينأى بعيداً عن الله تعالى يقع في ظلام الخطيئة، ولكنه عندما يُؤلَّى وجهه شطر الله تعالى فإن نور النهار يشرق عليه، فينعم بنور الحق والتقوى.

وقد جاء شرح قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ بقوله تعالى في الآية ١٦٥ من سورة البقرة، حيث يذكر ﴿اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. وتومئ الآية أيضاً إلى أن سنة الله هي أنه بعد مرور فترة من الظلام يأتي سبحانه بفترة من النهار حتى لا يعاني البشر.

واستخدام كلمة ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ بالنسبة للشمس والقمر والنجوم يذكرنا بأنه ليس في قدرة الإنسان أن يجعل هذه الأجرام السماوية مسخرة لخدمته، وأن الله تعالى هو الذي جعلها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ لمصلحة الإنسان. ولذلك، إذا لم يسمع الإنسان لصوت الله تعالى ويأتمر بأمره، رغم جميع هذه النعم التي أنعم بها عليه، فإنه يُعتبر معتدياً، ولذلك يستحق عقاب الله تعالى.

والفرق بين «الخلق» و«الأمر» هو أن «الخلق» يعني إيجاد شيء من شيء آخر سبق وجود مادته، أما «الأمر» فهو إيجاد شيء دون أن يكون له وجود مادي سابق، وإنما يأتي إلى الوجود بقوله: «كن» فيكون. ويمكن أيضاً أن يعني قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أن الله تعالى لم يخلق الكون فحسب، وإنما يفرض أمره أيضاً وينفذ سلطته عليه.

ولشرح قوله تعالى: ﴿اَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يمكن مراجعة شرح الآية ٤ من سورة يونس، حيث جاء بالتفصيل شرح معنى العرش الإلهي ومعنى الاستواء على العرش.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

التفسير:

لشرح معنى الكلمتين ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يمكن الرجوع إلى تفسير الآية رقم ٦٤ من سورة الأنعام.

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ
قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يعني أنه قبل نزول القرآن المجيد كان للكافرين بعض العذر في غط الحياة الفاسدة التي كانوا يعيشونها، أما الآن، بعد نزول الهدى الكامل من الله تعالى، فلن يُسمح لهم بالاستمرار في اقتراف الشرور والانغماس في الرذيلة والخطيئة والظلم وحياة العبث والفساد دون رادع أو عقاب. فكلمة «إصلاح» تشير إلى الحياة الصالحة المنتظمة التي نشأت بفضل بعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن المجيد.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يشكل قاعدة ذهبية في الوسطية؛ فبعض الأديان تبالغ في التركيز على الخوف، بينما ترخي أديان أخرى الحبل على الغارب

معلقة آمالها على الحياة الأبدية من خلال الإيمان بكفارة تمسح جميع الذنوب دون أية مسؤولية على المذنب. أما القرآن المجيد فيسلك طريقاً وسطاً، فيعلم أتباعه أن يتصفوا بكل من الخوف والرجاء. إن المسلم الحقيقي هو أكثر الناس حذراً من المعاصي وأشدّهم طاعة لله تعالى، فهو يعيش حياته في خوف دائم من الله تعالى حتى لا ينطق بكلمة سفيهة أو يرتكب عملاً غير سويّ يكون سبباً في حرمانه من رحمة الله تعالى. ولكنه يعيش في الوقت نفسه والرجاء يملأ قلبه، لأنه يؤمن يقيناً برحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء. ولذلك فإن المسلم الحقيقي وحده هو الذي يستطيع الحفاظ على التوازن الصحيح بين الخوف والرجاء اللذين يشكّلان العنصرين الأساسيين للإيمان الحق الكامل الذي لا بد من توقّره من أجل القيام بالأعمال الكاملة. ويشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الطريق المؤدي إلى قبول الدعاء؛ فبرحمة الله تعالى يُقبل الدعاء، ولا ينال هذه الرحمة سوى المحسنين الذين يقومون بالأعمال الصالحة. وعلى هذا فعلى المؤمن أن يبذل جهده ليكون «محسناً» بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، لكي يستجيب الله تعالى لدعائه. ولكن لا بد من الأخذ في الاعتبار أن «المحسن» ليس مجرد إنسان عادي يقوم بتأدية الأعمال الصالحة فحسب، بل هو من يبذل قصارى جهده لتحقيق الكمال في عمله. وهناك حديث للرسول ﷺ وصف فيه المحسن بأنه يؤدي الأعمال الصالحة كما لو أنه يرى الله تعالى أمامه، أو يعلم على الأقل بأن الله ﷻ يراه.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ
لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ

كُلِّبَ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

أَقَلَّتْ: مشتق من قل. يُقال: «قل الشيء» ضد كثر؛ صغر؛ قصر. «أقل الشيء»: رفعه؛ حمله؛ نقله (أقرب الموارد).

التفسير:

تشير كلمة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ في هذه الآية الكريمة إلى المطر. وكما يحدث في العالم المادي أنه قبل سقوط المطر تهب النسمات الباردة التي تسبق نزوله، كذلك قبل مجيء مبعوث من لدن الله تعالى تسبقه صحوه دينية بين الناس. وقد شوهدت هذه اليقظة الدينية بين العرب قبل ظهور الرسول ﷺ، فقد ظهر من بينهم بعض الأشخاص الذين أطلق عليهم لفظ الحنفيين الذين رفضوا عبادة الأصنام ودعوا إلى توحيد الله تعالى. وفي عصرنا الحالي أيضاً، سبق ظهور سيدنا أحمد الإمام المهدي والمسيح الموعود ﷺ يقظة دينية عامة بين أمم العالم.

وحرفياً تعني كلمة ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ الأرض الميتة، ولكنها تعني مجازياً البلد الذي مات أهله من الناحية الروحية. فكما أن مياه المطر تبعث حياة جديدة في الأرض الميتة، فتخرج منها الفواكه والخضراوات والحبوب، كذلك تكون مياه الوحي السماوي سبباً في بعث حياة جديدة في القلوب الميتة. وعلى هذا فإن الآية الكريمة تحمل البشري بأن أرض الجزيرة العربية القاحلة والجرداء سوف تتحول عن قريب إلى جنة من أشجارٍ باسقةٍ ومثمرةٍ، وأزهارٍ جميلةٍ لها عبيرٌ طيبٌ وشذاً أخذت نتيجةً لمياه الوحي السماوي التي نزلت عليها فروتها. ولا عجب أن الجزيرة العربية التي كانت تُعتبر مأوى لحثالات الناس وموطناً لأشد الأقوام جهلاً وتخلفاً قد تولّت فجأة قيادة الإنسانية وقامت على تعليمها الحكمة والمعرفة.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي
خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾

التفسير:

كما تُحدِث الأمطار التي تُصيب الأرض نتائجَ مختلفةً في الأراضي المختلفة تبعاً لاختلاف طبيعتها وصفات تربتها؛ كذلك يؤثر الوحي السماوي في طبائع الناس المختلفة تأثيراً متبايناً. وقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه ذكر ثلاثة أنواعٍ للأرض: (أ) الأرض الطيبة السوية التي حينما تُروى بالمطر تمتص الماء وتنتج خضروات بهيئةً وفاكهةً طيبةً كثيرةً؛

(ب) الأرض الحجرية المنخفضة التي تتجمع فيها مياه الأمطار، ولكنها لا تمتصها، وبالتالي فهي لا تنتج خضاراً ولا أثماراً، لكنها تكون مستودعاً للماء يشرب منه الناس والحيوان؛

(ج) الأرض الحجرية العالية التي لا تحتفظ بمياه الأمطار ولا تُنبت نباتاً، فلا نفع منها للزراعة أو لحفظ المياه.

كذلك هناك ثلاثة أنواعٍ من الناس:

(١) أولئك الذين لا ينتفعون بالوحي السماوي بأنفسهم فحسب، بل يكونون مصدرراً لهداية الآخرين أيضاً؛

(٢) أولئك الذين لا ينتفعون هم أنفسهم من الوحي السماوي، ولكنهم يحافظون عليه ويُبقيونه لغيرهم لينتفعوا به؛

(٣) أولئك الذين لا ينتفعون من الوحي السماوي ولا يحتفظون به لينتفع غيرهم به. وهؤلاء مثل الأرض التي لا تثبت نباتاً ولا تحتفظ بالمياه، فلا نفع فيها لا لبشر ولا لحيوان.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

نُوحٌ: نبيٌّ من أقدم الأنبياء؛ فكما جاء في التوراة، فقد عاش بعد آدم ﷺ بتسعة أجيال، وقبل إبراهيم ﷺ بأحد عشر جيلاً (سفر التكوين ٥: ٣-٣٢ وإنجيل لوقا ٣: ٣٤-٣٨). لقد عاش ﷺ في بلاد ما بين النهرين (العراق)، ويُعتبر الجد الأعلى للجزء الأكبر من الجنس البشري.

و«نوح» ربما تكون مشتقة من «ناح»؛ يُقال: «ناحت على زوجها» أي بكت عليه بصياحٍ وعويلٍ وجزع. «ناحت الحمامة نوحاً»: سَجَعَتْ، فهي نائحةٌ ونوَاحَةٌ. ويُعرف النبي نوح ﷺ خاصةً بالطوفان الذي أصاب قومه نتيجةً لتضرّعاته ودعائه لله تعالى بسبب ما لاقاه من اضطهادٍ على أيديهم، فهلكوا بهذا الطوفان. إن أولاد نوح ﷺ الثلاثة: سام وحام وياث يُعدّون أجداد الأعراق البشرية الأساسية الثلاث. انظر أيضاً الآية ٢٦ من سورة هود.

التفسير:

بعد تقديم وصفٍ مختصرٍ للإصلاح الأخلاقي العظيم الذي يحققه ظهور نبيٍّ بين قومه، والعواقب الوخيمة التي تترتب على معارضته، وما يؤدي إليه ذلك من خسرانٍ

وهلاك، تبدأ الآية الحالية في تقديم أمثلة مما حدث للأقوام القديمة السابقة، بدايةً من قوم نوح عليه السلام، لتبين أن من يعارض أنبياء الله لا يلاقي إلا الهلاك. ويُعتقد أن معظم الأجناس المختلفة التي تعيش على هذه الأرض اليوم تنحدر من نوح عليه السلام، فيبدو أن نسله قد انتشر في كل مكان، كما يتضح من قصة الطوفان المعروفة لشعوب أوروبا وآسيا وأفريقيا وحتى أمريكا.

ويدلّ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ على أن الطوفان أصاب فقط القوم الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام، فطوفانه لم يكن ظاهرةً عمّت العالم بأجمعه، غير أن الأجيال التي خرجت من نسله حملت معها قصة الطوفان إلى كل مكانٍ ذهبت إليه، وفي كل مكانٍ انتشرت فيه.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ليعبر عن عقابٍ شديدٍ ما كان لينسى أو يتلاشى من الأذهان بسبب شدّته وقسوته.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

التفسير:

مما يجدر ملاحظته هنا في هذه الآية الكريمة أن قوم نوح عليه السلام لم يتهموه بالكذب والافتراء، وإنما بمجرد الخطأ في الحكم على الأمر الذي عبّروا عنه بالضلال المبين، وليس بالادّعاء الكاذب والافتراء الأقاويل. وهذا يدل على أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه رجلٌ مستقيم، ولا شك أن جميع الأنبياء كانوا يحظون بالاحترام والتقدير من أقوامهم قبل أن تأتي إليهم رسالة السماء، ولكن بعد أن يعلنوا عن دعوتهم السماوية فإنهم يلقون الاتهام بالكذب والافتراء.

قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾

التفسير:

يردّ نوح عليه السلام عن نفسه تهمة الضلالة بقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
الْعَالَمِينَ﴾، وهو ردٌّ حاسمٌ قويٌّ بأسلوبٍ جميلٍ مقنع.

فإن أولئك الذين رفضوا دعوة نوح عليه السلام ظنّوا أنه أخطأ في فهم بعض الأمور، أو أنه
قد ضلّ طريقه، ولكن الردّ الذي قدّمه نوح عليه السلام قد بيّن لهم أن الشخص الذي يعتزم
الذهاب إلى مكانٍ ما قد يخطئ في الوصول إلى مقصوده، أو قد يضلّ طريقه إذا لم
يكن قد سار على ذلك الطريق من قبل وعرف اتجاهه.

ولكن كيف يمكن أن يُقال لشخصٍ عاد لتوّه من مكانٍ معيّن إنه لا يعرف الطريق إلى
ذلك المكان، أو يمكن له أن يضلّ عنه؟ فأجاب نوح عليه السلام إنه لم يكن مخطئاً؛ لأنه جاء
من عند الله تعالى، وعلى هذا فمن المستحيل أن يكون قد ضلّ الطريق الذي يقود
إليه ﷺ.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأعراف: ٦٩، ٨٠؛ الأحقاب: ٢٤.

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا
وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير:

إن السبب الذي يؤدي بالناس إلى رفض قبول أنبياء الله هو أنهم لا يتصورون أنه من الممكن أن ينزل الوحي السماوي على واحدٍ من البشر، أو أن ذلك المقام الروحاني العظيم الذي يشغله رسولٌ من الله تعالى لا يمكن أن يناله رجلٌ عاديٌّ من بينهم.

والآية الحالية تردّ على ذلك الشعور بالتعجب والاندھاش بأسلوبٍ قويٍّ ممتع؛ فهي تسألهم: لِمَ يعجبون إذا جاءهم ذِكْرٌ من ربهم الذي ليس هو خالقهم فحسب، بل هو الذي يرّبّهم أيضاً ويزودهم بمتطلباتهم وحوائجهم المادية والروحية، والذي بإنزاله وحياً جديداً من السماء قد لَبَّى مطلباً اشتدّت ضرورته، وقضى حاجةً طال انتظارها؟.

كذلك ليس هناك سببٌ للدهشة أو العجب في أن ينزل الوحي على واحدٍ من بينهم؛ فهل يظنون أنهم قد انخطؤوا جميعاً إلى الحضيض حتى إنه لم يعد من بينهم أحدٌ يصلح لأن يتلقّى الوحي من الله تعالى؟.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ
وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

عَمِينَ: جمع «أعمى»، مشتق من «عَمِيَ»، أي ذهب بصره كله، أو يُراد به مجازاً من فقد بصيرته أو ضلّ سواء السبيل. «أعمى»: من ذهب بصره كله؛ من فقد بصيرته؛ الجاهل (معجم لين).

التفسير:

على الرغم من كل الحجج والدلائل التي قدّمها نوح عليه السلام لقومه، فإنهم رفضوه وبدأوا يعاملونه معاملة الكاذبين، وذلك لأنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾؛ فقدوا البواصر والبصائر، فلم يعودوا يرون قوّة الحجج التي قدّمها لهم نوح عليه السلام، ولم يستطيعوا أن يفهموا دلائل صدقه؛ ولذلك أخذهم الطوفان جميعاً.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١١﴾

شرح الكلمات:

عَادٌ: إحدى القبائل التي سكنت الجزيرة العربية في الماضي البعيد. حكمت في وقتٍ من الأوقات معظم الأراضي الخصبة في الجزيرة العربية، ولا سيما اليمن والشام وبلاد ما بين النهرين. وكانت من أوائل من بسطوا سيطرتهم على كامل الجزيرة العربية تقريباً. ويُعرفون باسم عاد الأولى. «عاد»: رجع. ولمزيد من التوضيح راجع الآية ٥١ من سورة هود.

هُودٌ: هو النبي الذي أرسل لقوم عاد، وهو من النسل السابع من نوح عليه السلام. «هود» مشتقة من «هاد» وتعني تاب ورجع إلى الحق؛ دخل في اليهودية. و«هود» تعني أيضاً اليهود وهي جمع هائد. انظر أيضاً الآية ١١٢ من سورة البقرة.

التفسير:

بعد ذكر أحوال نوح عليه السلام الذي انتشرت قصته في تراث جميع أمم الأرض تقريباً، يذكر القرآن المجيد أحوال الأنبياء الذين ظهوروا في شبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص. وقد جاء ذكر هؤلاء الأنبياء في القرآن المجيد فقط، إذ لم يذكر الكتاب المقدس عنهم شيئاً، ولم يأت ذكرهم أيضاً في تاريخ الأمم، رغم أنهم معروفون جيداً لقبايل العرب من خلال قصصهم الشعبية وحكاياتهم المتوارثة.

وتبيّن الآية التي نحن بصددّها أن الأنبياء جميعاً قد جاءوا بأمرٍ متشابهة فيما يختص بأساسيات الدين، وهي عبادة الله تعالى وتوحيده والوصول إلى التقوى.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ
فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٧﴾

التفسير:

لما نسب قوم عاد إلى هود عليه السلام السفاهة، كانوا يقصدون ما يتعلق بمهمته ورسالته. وكلمة «سفاهة» التي جاءت في هذه الآية تشابه كلمة «ضلالة» التي جاءت في الآية ٦١ السابقة. ويبدو من هذه الآية أن أعداء هود عليه السلام قد اتهموه بأمرين: السفاهة والكذب.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾

التفسير:

يردّ نبيّ الله هود عليه السلام تهمةً السفاهة بنفس الأسلوب والحجج التي استعملها نوح عليه السلام (انظر الآية ٦٢ السابقة)، فالله تعالى منبع كلِّ حكمة، ومن يأت من لدنه تعالى لا يمكن أن يتّصف بالسفاهة. أمّا التهمة الثانية، وهي تهمة الكذب، فيتّم دحضها في الآية التالية.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ
نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٩﴾

التفسير:

تردّ هذه الآية الكريمة تهمةً الكذب التي ألصقها الأعداء بهود عليه السلام. يلجأ المرء إلى الكذب إمّا: (١) لأنه يبتغي بذلك الحصول على بعض المكاسب؛ (٢) أو لإلحاق الضرر ببعض الأشخاص؛ (٣) أو لأن الكذب عادة متأصلة فيه.

ويردّ هود عليه السلام عن نفسه تهمةً الكذب فيقول: ﴿أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، أي لأنني ناصح لكم فليس لي مطمعٌ شخصي، ولا أبغي الإساءة إلى أحد، بل على العكس من ذلك أنا حريصٌ على نفعكم. ولأني أمين - أي على خُلُقٍ ودين - فأنا لست معتاداً الكذب حتى أكذب عليكم.

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
بَسْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

خُلَفَاءُ: جمع «خَلِيفَة»، وهو اسمٌ مُشتقٌّ من الفعل «خَلَفَ»، أي جاء بعد؛ تَبَعَ؛ تَلَا؛ بَقِيَ بعد. «خَلَفَهُ»: كان خليفته. «خَلَفَ الرَّجُلَ»: بَقِيَ بعده وقامَ مقامه. «خَلِيفَة»: مَنْ يَخْلُفُ غيره ويقومُ مقامه؛ الإمام الذي لا إمامَ فوقه؛ خليفة النبي (معجم لين وأقرب الموارد). وفي الآية التي نحن بصددِها جاءت كلمة «خلفاء» بمعنى ورثة الفضل الإلهي؛ إشارة إلى أنه كما أن نوح عليه السلام وأتباعه كانوا ورثة الفضل الإلهي في زمنهم، كذلك فإن هود عليه السلام وأتباعه -الذين جاءوا بعدهم- كانوا أيضاً ورثة الفضل الإلهي. انظر أيضاً الآية ٣١ من سورة البقرة.

بسطة: وسطة المصدر من «بسط». يُقال «بسطه»: نشره؛ مدّه. «بسطه» أو «بسطه»: التوسع؛ الكثرة؛ الزيادة (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

انظر شرح الآية ٦٤ من نفس السورة.

كان قوم عاد أمة حاكمة، وكانوا قومًا أقوىاء أشداء، وامتد حكمهم على بقعة واسعة من الأرض، وكانوا أول أمة عربية تمتلك سطوة الحكم وسلطانه في الجزيرة العربية.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتِّبِعْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٦١﴾

التفسير:

حينما عجز قوم هود عليه السلام عن مقارعة حُجَجِهِ ودحض دلائله، راحوا يسلكون معه طريقاً آخر؛ فاعلنوا أنهم يُفَضِّلون الموت على أن يتخلَّوا عمَّا كان يعبدُ آبائهم. وكان

عقاب الله هو الذي تحدوا هوداً عليه السلام أن يُنزلهُ عليهم. ويتَّضح ذلك من رده عليهم، والوارد في الآية التالية: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ
وَوَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٢﴾

التفسير:

تُبَيِّنُ هذه الآية الكريمة أنَّه يمكن للمرء أن يتَّبِعَ آباءَهُ إذا كان العقل والمنطق يُؤَيِّدَانِ طريقَهُم، أمَّا الاتِّبَاعُ الأعمى الذي يخلو من التفكير فهو أمرٌ مُدَانٌ.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾

التفسير:

إِنَّ كَلِمَةَ ﴿دَابِرَ﴾ التي تعني حرفياً «بقيّة» تعني أيضاً «جذر» (انظر الأنعام: ٤٦)، وفي هذه الحالة يمكن فهمها على أنَّها تُشِيرُ إلى القادة في المجتمع، أي أولئك الذين يتولَّون قيادة الناس، ويُنظِّمون المعارضة ضدَّ النبي المبعوث من لدن الله تعالى، وابتغون الحيل والوسائل التي يقضون بها عليه. وقد أَهْلَكَتْ قبيلة عادٍ بريِّح عاتية (انظر الحاقة: ٧).

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

ثَمُود: قبيلة عاشت بعد عادٍ. وربما يكون اسمها مشتقاً من «ثَمَد»، يُقال: «ثَمَدُهُ»، أي حفر حفرةً في الأرض ليتجمّع فيها الماء (أقرب الموارد). سكنت قبيلة ثمود المناطق الغربية من الجزيرة العربية، وامتدّت من عدن حتى سورية شمالاً. ويُقال إنّها جاءت قبل إسماعيل عليه السلام بزمنٍ قليلٍ، وكانوا يقطنون بالقرب من قوم عادٍ، ولكنهم كانوا يسكنون التلال في أغلب الأحيان. ولمزيدٍ من التوضيح انظر الآية ٦٢ من سورة هود.

صَالِح: مشتقة من «صَلَح» ضد فسد أو زال عنه الفساد. «صالح»: قائم بما عليه من حقوق العباد وحقوق الله تعالى. انظر الآيات ١٢ و١٦١ من سورة البقرة. جاء النبي صالح بعد هود عليه السلام ومن المرجح أنه معاصر لسيدنا إبراهيم عليه السلام.

التفسير:

كان الجمل الوسيلة الرئيسة للتنقل في الصحراء العربية، وكان نبيُّ الله صالح عليه السلام يستخدم ناقته للانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ حتى يستطيع أن يُبلِّغ وينشر رسالته. لذا قال لقومه إنّ وضع أيِّ عراقيل في طريق حركة الناقة أو إيذاءها بأيِّ حالٍ من الأحوال يُعدُّ عرقلةً متعمّدةً للعمل الذي استأمنه الله تعالى عليه، وأنهم إن لم يتنحّوا عن طريقها فسوف يأخذهم عذابٌ شديدٌ من الله تعالى. وهكذا صارت

الناقة علامة أو آية لشمود قوم صالح، ولم يكن هناك سرٌّ أو أمرٌ عجيبٌ يختصُّ بالناقة نفسها، بل كانت ناقةً عاديةً.

إنَّ القداسةَ المتعلقةَ بها هي أنَّ اللهَ تعالى قد أعلنَ أنَّها آيةٌ ورمزٌ لقداسة وحرمة شخص النبيِّ صالحٍ عليه السلام، ومُسْئِها بأيِّ سوءٍ يُعَدُّ مُعَادِلًا لِإِذَاءِ شَخْصِ النَّبِيِّ صَالِحٍ عليه السلام نفسه، بتعطيلِ عمله ومنعِهِ من القيامِ بمهمَّته.

ولا تعني كلماتُ الآية ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أنَّ من حقِّها أن ترحى وتأكل من أيِّ حقلٍ تريده، وإنما تعني فقط عدمَ وضعِ أيِّ عراقيلَ تمنعُ حركتها، وبالتالي يكونُ النبيُّ صالحٌ عليه السلام حرًّا في الحركة والانتقالِ إلى أيِّ مكانٍ يبتغي الوصولَ إليه. كذلك فإنَّ طلبَ النبيِّ صالحٍ عليه السلام بأن تنتقلِ ناقتهُ بحريَّةٍ كان يتفقُ مع عادةٍ قديمةٍ وعريقةٍ عند العرب.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ
اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

بَوَّأَكُمْ: «بَوَّأَ» مُشْتَقَّةٌ مِنْ «بَاءَ» بمعنى: رَجَعَ. «بَوَّأَهُ مَنْزِلًا»: أَنْزَلَهُ فِيهِ. «بَوَّأَ لَهُ مَنْزِلًا»: هَيَّأَهُ لَهُ وَمَكَّنَ لَهُ فِيهِ (معجم لين).

التفسير:

تشير عبارة ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ إلى الأماكن التي كانوا يقيمون فيها أثناء فصل الشتاء، بينما تشير عبارة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى أماكن الإقامة

الصفية على قمم الجبال. لقد كانت قبيلة ثمود قومًا متحضرين، تميزوا بالثراء والمهارة. وبمعايير ذلك الزمن كانوا في مجبوحة من العيش، يعيشون حياة رغيدة ومريحة، يقضون فصل الصيف هربًا من قيظه على قمم الجبال، ويقضون الشتاء في دافئ السهول.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَالِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

الملأ: انظر الآية ٢٤٧ من سورة البقرة.

التفسير:

لما وجد زعماء قبيلته أن صالحًا ثابت على موقفه كالصخرة ويصر على ما يؤمن به ويعتقد بصحته، وليس هناك من أمل في زحزحته عن أهدافه مهما فعلوا، بدأوا ينالون من أتباعه بالإيذاء والتجريح، ولكنهم وجدوهم أيضًا شجعانًا ثابتين.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾

التفسير:

تدلّ عبارة ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ في التعبير الدارج على نوع خاص من الكِبَر، إذ إن مثل هذه التهديدات المبطنّة يوجّهها عادةً الأثرياء وأصحاب النفوذ في المجتمع إلى الفئة الأضعف والأفقر فيه. ويمكن فهم هذه الكلمات على النحو التالي: كيف تبلغ بكم الجرأة، وأنتم ضعفاء وفقراء، أن تقبلوا أموراً وتؤمنوا بتعاليم نرى نحن - الأفضل منكم والأعلى مرتبةً - أنها لا تستحق سوى الرفض؟.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ
اِئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

عَقَرُوا: مشتقٌّ من «عَقَرَ». يُقال: «عَقَرَهُ» أي جرحه، أو نحره، أو أديره، أو قطع قوائمه (الحيوان) بالسيف، أو حصد قوائمه (الناقة) بالسيف، أو قطع رأسها (النخلة) كلّهُ فَيَبِسَتْ. ويُقال: «عَقَرَنِي» أي حبسني. و«عَقَرَ» و«عَقَرَتْ» صار أو صارت عاقراً، أي عقيماً (معجم لين).

التفسير:

إن الضمير «ما» في عبارة ﴿اِئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يعود إلى العقاب الإلهي الذي سبق ذكره في الآية ٧٤ أعلاه. وقد اعتُبرت الناقة آيةً، وكان من المفروض أن تُشاهد هذه الآية إذا عرقل الكفار حرية سير تلك الناقة. ولم يقتصر أمرهم على عرقلة حرية حركتها فحسب، بل عقروها وقتلوها، الأمر الذي عُدَّ بمنزلة تحدٍّ سافر للنبي لكي يفعل أقصى ما يمكن أن يفعله، وهو أن يدعو ربّه ﷻ أن يُنزل عليهم العقاب الذي سبق أن هدّدهم به.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

الرَّجْفَةُ: مشتقة من «رَجَفَ»، أي تحرك واضطرب بشدة. و«الرَّجْفَةُ»: الزلزلة؛ والعذاب الشديد الواقع على الناس؛ والصيحة الشديدة من السماء (معجم لين).
أَصْبَحُوا: مشتق من «أَصْبَحَ»، المشتقة من «صَبَحَ». يُقال: «صَبَحَ القومُ» أي أتاهم وأغار عليهم صباحًا. و«أَصْبَحَ»: (١) دخل في الصباح؛ (٢) صار. ويُقال: «أصبح زيدٌ عالمًا» أي صار عالمًا. و«أصبحوا جاثمين»: صاروا منبطحين؛ أو دخل عليهم الصبح وهم منكبتون (معجم لين وأقرب الموارد).

جَاثِمِينَ: جمع «جاثم»، اسم الفاعل من «جَثَمَ»، أي تلبّد بالأرض؛ أو انكبّ ساجدًا؛ أو ظلّ في مكانه لا يغادره. و«جاثم»: من تلبّد بالأرض؛ أو من انكبّ ساجدًا. وتأتي أيضًا بمعنى بلا حراك أو ميّت (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

حسب المعاني المختلفة لكلمة «جَثَمَ» كما وردت في شرح الكلمات، تعني الآية الكريمة ما يلي:

- (١) إنهم سُحقوا في الأرض حتى الموت بفعل الزلزلة، فظلّوا جاثمين؛
- (٢) وإنهم عندما ضربتهم الزلزلة أصابهم الرعب، فسقطوا على الأرض ساجدين لله تعالى يطلبون منه النجاة.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا
تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٨٠﴾

التفسير:

غادر صالح عليه السلام المدينة المنكوبة في حزنٍ شديد، إذ لم يعد يحتمل رؤية المشهد المروّع،
وتتم بهذه الكلمات التي يملؤها الأسى وهو حزين الفؤاد، كما فعل الرسول ﷺ بعد
غزوة بدر.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا
سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

لُوطٌ: كان ابن أخ إبراهيم عليه السلام وعاش في زمانه (التكوين ١١: ٢٧، ٣١)، وانظر أيضاً
الأنعام: ٨٧.

التفسير:

تلقي هذه الآية الكريمة بعض الضوء على مسألة أن الشريعة الكاملة لم تكن لتنزل من
عند الله تعالى في بداية الزمان؛ لأن الغرض من الشريعة هو معالجة المفسد والتصدي
لها، ولذلك نزلت الشرائع الإلهية بالتدرّج كلما زادت تلك المفسد وانتشرت. ولو
أن الشريعة الكاملة قد نزلت منذ البداية، فعُدّت جميع المفسد وطرائق مقاومتها،
لكانت - إلى حدٍّ ما - سبباً في تعليم الناس أنواعاً من المفسد كانوا يجهلونّها.

وعليه، كان لا بدّ من إنزال الشريعة الكاملة بعد أن تكون قد ظهرت تلك المفاسد جميعها، ولا سيما ما يُعدّ منها مفاسد جذرية. وكان هذا هو الحال عند نزول القرآن المجيد، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الروم: ٤٢)، مما يعني أن الزمن الذي بُعث فيه الرسول ﷺ كانت فيه المفاسد الجذرية قد ظهرت. وكلمة «الفاحشة» الواردة في هذه الآية قد جاء بيانها في الآية التالية، كما أن قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يدلّ على أن تلك الفاحشة كانت مفسدة جديدة لم تكن معروفة من قبل، أو أن انتشارها حينئذٍ لم يكن له نظير.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٢﴾

التفسير:

لقد وَجَّحَ لوط عليه السلام قومه؛ لأنهم لم يبتدعوا تلك الفاحشة الدنيئة فحسب، بل لأنهم تفوّقوا أيضاً في ارتكاب كثيرٍ من أنواع المفاسد الأخرى.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ
مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٣﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يمكن أن تعني أيضاً أنهم يتصنّعون الطهر؛ إذ إن الفعل من باب التفعّل كثيراً ما يُستعمل للدلالة على التكلف. وقد استعمل معارضو لوط عليه السلام هذه الكلمة في وصف أتباعه على سبيل السخرية، قاصدين أنهم يبالغون في الظهور بمظهر الأتقياء والقديسين.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

الْغَابِرِينَ: مشتقة من «غَبَرَ» أي مكث وبقي؛ ذهب ومضى (ضدُّ)؛ اندمل (الجرح) على فساد ثم انتقض بعد البرء؛ أضمر العداوة أو الكراهية في قلبه. «غابر»: الباقي. (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

لا تعني الآية بالضرورة أن زوجة لوط عليه السلام كانت من الكافرين. وحقيقة أنها بقيت لتحذر أهلها من العقاب القادم تشير في ذاتها إلى أنه ربما كان لديها بقية من إيمان، ولكن لأنها لم تُطع الأمر بعدم إخبار أحد من الكافرين عن العقاب القادم، فقد نالها العقاب هي الأخرى. وكلمة «غابرين» (أي الذين تحلفوا)، والتي جاء شرحها في شرح الكلمات، تُلقي بعض الضوء على الحالة الحقيقية التي كانت فيها زوجة لوط عليه السلام، فعلى الأرجح أنها آمنت بزوجها من الناحية الظاهرية، أما من الداخل فكانت كجرح ظلّ ينزف، وقد بقيت أو تأخرت بينما أسرع لوط عليه السلام وأصحابه بترك المكان الذي كان من المقرر أن تحلّ عليه لعنة الله تعالى.

وهناك بعض الاختلاف في الرأي بين دارسي التاريخ حول المكان الذي كان قوم لوط يعيشون فيه. فحسب رأي البعض، كان البحر الميت هو المكان الذي دُمّرت فيه المدينتان سدوم وعمّورة، بينما يبدو أن القرآن المجيد يضعهما على الطريق من المدينة إلى الشام (الحجر: ٨٠).

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٥﴾

التفسير:

يبدو أن انفجاراً عظيماً قد وقع، فقدفت الأرض موادَّ مشتعلةً من باطنها، ودفنت تحتها الكافرين.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

مَدْيَنَ: هو ابن إبراهيم عليه السلام من قُطُورَةَ (سُفْرُ التَّكْوِينِ ٢٥: ١-٢)، وقد استوطن نسله شمال الحجاز. و«مَدْيَن» هو أيضاً اسمُ مدينةٍ تقع على الساحل العربي للبحر الأحمر، قبالة سيناء. وسميت بهذا الاسم لأن سلالةَ مَدْيَن قد عاشت فيها. ويرى بعضهم أنها ميناءٌ بحريٌّ لقربها من البحر، إذ لا تبعد عنه سوى ثمانية أميال، بينما يرى آخرون أنها مدينةٌ داخلية.

شُعَيْب: هو نبيٌّ غيرُ إسرائيليٍّ جاء قبل موسى عليه السلام، ويُعدّ عمومًا حموًى موسى عليه السلام، رغم أن التوراة لم تذكر اسمه. وبحسب القصة المذكورة في التوراة، فإن «يثرون» هو

حمو موسى ﷺ، وهو ليس بنبي. أمّا في القرآن الكريم، فإن موسى قد أُرسِل بعد شُعَيْب ﷺ، لذا لا يمكن أن يكون معاصراً له (الأعراف: ١٠٤). وحيث إن شُعَيْب ﷺ قد ذُكر في الآية التي نحن بصدددها أنه «أَخٌّ» لِمَدْيَنَ، فيُستدلّ بذلك على أن شُعَيْب من نسل إبراهيم ﷺ، إذ إن مَدْيَنَ هو ابن إبراهيم ﷺ من جاريته قُطُورَةَ. ولمزيد من الشرح عن شُعَيْب ﷺ انظر سورة هود، الآية ٨٥.

إن كلمة «إصلاح»، التي تعني وضع الأمور في نصابها، تشير هنا إلى نزول الوحي الإلهي ومجيء النبي شُعَيْب ﷺ (انظر الآية ٥٧ من هذه السورة). وحسب الآية التي نحن بصدددها، كان من أكثر المفاسد التي انتشرت في أهل مدين أنهم كانوا يبخسون الناس أشياءهم ولا يوفون الكيل والميزان.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾

التفسير:

يبدو أن قبيلة شُعَيْب ﷺ كانت تماثل العرب في كثيرٍ من سلوكهم وعاداتهم؛ فمثلاً، ما فعله أهل مكة مع الرسول ﷺ كان يماثل ما فعله قوم شُعَيْب ﷺ معه، إذ عرقل كلُّ منهما الغرباء ومنعهم من الوصول إلى النبي المبعوث للاستماع إليه. وكلمات الآية ﴿لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ تعني: لا تجلسوا في كل طريقٍ تهددون كلَّ من يأتي لسماع صوت الحق وتصدونه عن صراط الله تعالى، كما يمكن أن تعني أيضاً «لا تستخدموا جميع الوسائل»، مما يدل على أن قوم شُعَيْب قد حاولوا استخدام كل ما في قدرتهم لصرف الناس عن قبول الحق.

إن أبناء إبراهيم عليه السلام من زوجته قُطُورَة، التي كانت أمة، كانوا مكروهين من جانب إخوتهم بني إسرائيل وبني إسماعيل، وكانوا قلةً مستضعفين ومحتقرين، ويُنظر إليهم بنظرةٍ دونية، غير أن الله تعالى كثّر أعدادهم ومنحهم القوة والثروة. ولذلك فإنه ﷻ يأمرهم أن يتذكروا نعمه عليهم، وأن يكونوا شاكرين له وممتنين لفضله.

وَإِنْ كَانَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي
أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى
يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٨﴾

التفسير:

تشير الآية إلى السبيل الأخير الذي يلجأ إليه النبي بعد أن تفشل جميع جهوده في أن يجعل الناس يدركون خطأهم ويقبلوا الحق؛ إذ يترك الأمر كله في يد الله تعالى، ويطلب من قومه الصبر والانتظار حتى يصدر حكم الله، فيتجلى بآية قاطعة تُفَرِّق بوضوح بين الحق والباطل.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ
قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَارِهِينَ ﴿٨٩﴾

التفسير:

إن الكفار المطمئنين إلى قوتهم وثروتهم لا يريدون أن يسمعون لأيِّ مطلبٍ مهما كان معقولاً، ويقولون دائماً، كما قال قوم شعيب، إنه لا داعي لأن يحكم أحدٌ بين الفريقين؛ فنحن نحكم بأنفسنا، وحكمنا هو: «لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ بِلَادِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا»، فمن يتبع ديننا فقط يُسمح له بالعيش معنا.

ومن ناحيةٍ أخرى، فإن أتباع كل نبي، مثل أتباع شعيب عليه السلام يتوجّهون إلى أولئك الذين يضطهدونهم بنداءٍ يتّسم بالشفقة، رغم أنه لا يلقى أذاناً صاغية، فيقولون: «هل تُجبروننا على تبني أفكاركم ومفاهيمكم عن الدين، حتى ولو كانت تتنافى مع عقولنا وتتعارض مع ضمائرنا؟».

وتبيّن الكلمات الأخيرة من الآية الكريمة أيضاً أنه خلال أحقاب التاريخ كان هناك كثيرٌ من الناس الذين آتاهم الله تعالى العقل والحكمة، فأمنوا دائماً بأن القوة يجب ألا تُستخدم في الأمور التي تتعلّق بالقلب والضمير.

قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ
فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ
شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٩٠﴾

التفسير:

يستمر في هذه الآية سردُ الحجة التي ساقها أتباع شعيب عليه السلام لعدم تخلّيهم عن دينهم، إذ قالوا إنهم لن يتخلّوا عن دينهم إلا في حالتين اثنتين: أولاً، إذا كانوا غير صادقين

في اتباع ذلك الدين؛ وثانياً، إذا كان ذلك الدين باطلاً. ولما لم تتوافر هاتان الحالتان، فإنه من المستحيل عليهم أن يتخلّوا عن دينهم.

ثم راحوا يؤكدون حجتهم بقولهم: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، وهم يعنون بذلك أنهم على قناعة تامة بأن دينهم هو دين الله تعالى، وأن الله ﷻ على الحق دائماً، وبذلك يكون من المستحيل عليهم أن يتخلّوا عن دينهم. والسبيل الوحيد لذلك هو ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، أي أن يكون فيهم ضعفٌ خفيٌّ، أو أنهم يرتكبون من الإثم ما يجعل الله تعالى يجتثهم كما يُبتر العضو المريض، ولكنهم يثقون بالله تعالى ويتوكلون عليه؛ فهو الذي منحهم الفرصة والقدرة على قبول الحق، وهو سبحانه لن يتخلّى عنهم ولن يتركهم للضلال والانحراف عن طريق الحق؛ لأن هذا يتعارض مع صفة الربوبية.

وتأتي الكلمات ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لتبيّن أنهم، لما كانوا أتباع الحق، فإنهم على يقين تامّ في إيمانهم بالله تعالى، ولن يؤثر فيهم أيُّ مقدارٍ من الاضطهاد، ولن يجعلهم يتخلّون عن دينهم، وإنهم يتلقّون العون والتأييد منه تعالى من خلال الدعاء، لكي يُنجّيهم سبحانه من مؤامرات أعدائهم وتدابيرهم الشريرة.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِبَن
أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩١﴾

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

الرَّجْفَةُ: أي الزلزال. انظر الآية رقم ٧٩ أعلاه.

التفسير:

إن قوم شعيب عليه السلام قد أهلكوا عن طريق زلزال ضربهم على ما يبدو في ساعة من الصباح المبكر.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾

التفسير:

هدد الكفار شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه أن يخرجوهم من قريتهم أو يعودوا في ملتهم (الآية ٨٩)، وقد نسوا أن القرية ليست قريتهم، وإنما هي قرية الله تعالى، وهو عليه السلام الذي يسمح لمن يشاء أن يسكن فيها. ومن أجل أن يبين ذلك بطريقة عملية، وأن الأرض لله يورثها من يشاء، دمرهم تماماً من على وجه الأرض، كما محاً تماماً كل أثر لبيوتهم التي كانوا يقيمون فيها، حتى بدت وكأنهم لم يسكنوها قط. ولقد كان هذا هو العقاب المناسب لأولئك الذين يظنون أن أرض الله تعالى ملكية خاصة لهم، وأرادوا أن يطردوا منها نبي الله.

وقد تكررت عبارة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ في الجزء الثاني من الآية الكريمة لكي تُضفي مزيداً من التأكيد على العقاب الشديد الذي لحق بالذين كذبوا شعيباً عليه السلام. وقوله تعالى في نهاية الآية: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ يحمل رداً مُفحماً على قول الملائكة من قوم شعيب الذين قالوا للمؤمنين في الآية ٩١ أعلاه: ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾، فيؤكد سبحانه أنهم - وليس الذين آمنوا بشعيب عليه السلام - كانوا هم الخاسرين.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٤﴾

التفسير:

إن الكلمات التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام في هذه الآية الكريمة مليئة بالحزن والأسى. فشعيب عليه السلام، ككل نبي صادق، يشعر بحزن أليم وأسى عميق من أجل قومه، ولكنه يحاول أن يُسري عن قلبه المكبوم، فيقول: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، أي إن أولئك القوم الذين لم يقدروا الخير والمعروف الذي قدمه الله إليهم، رفضوا أن يقبلوا الحق الذي جاءهم من ربهم. لقد تحدوا رسول ربهم وعصوه، وكذبوا آيات الله تعالى، فجلبوا على أنفسهم غضبه، وبذلك تسببوا بأيديهم في هلاك أنفسهم ودمارهم. وبالرغم من ذلك فإن قلبي يحزن من أجلهم، فيا ليتهم غيروا من سلوكهم وأمنوا فكانوا من الناجين.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٥﴾

التفسير:

تشير هذه الآية الكريمة إلى قانون عام يعمل دائماً وأبداً كلما ظهر نبي من عند الله تعالى؛ إذ يصحب ظهور النبي وقوع الكثير من الكوارث والمصائب بصورة استثنائية، وذلك لتكون وسيلة تلفت أنظار الناس وتفتح عيونهم ليروا الغضب الواقع بهم إذا هم أصروا على تكذيب مبعوث الله تعالى.

وإذا بعث الله تعالى نبياً إلى قومٍ من الأقوام، فإن المصائب تصيب ذلك القوم وحده، ولكن إذا جاء نبيٌّ إلى العالم كله، فإن العالم بأجمعه يعاني من وقوع هذه المصائب والكوارث. والغرض منها هو تحذير الناس ولفت أنظارهم إلى ضرورة طاعة الله تعالى واتباع رسوله.

ويمكن استنتاج أمرين من هذه الآية: (١) أن الكوارث العامة لا تصيب الناس إلا إذا ظهر أولاً رسولٌ من لدن الله تعالى؛ (٢) أنه لم يحدث قط أن ظهر نبيٌّ ولم يكن ظهوره مصحوباً بوقوع كوارث بشكلٍ عام.

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَاتَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٦﴾

شرح الكلمات:

عَفَوْا: مشتق من «عفا» وتعني: (١) محَا أو طمس (٢) مُجِي أو طُمِسَ (٣) صفح أو ترك عقوبته (٤) كثر أو زاد (٥) كَثُرَ أو زاده؛ إلخ (معجم لين).

التفسير:

إن كلمة «حسنة»، أي الحالة الطيبة، وكلمة «سيئة»، أي الحالة السيئة، لم تُستعملتا هنا بمعناهما العادي المعروف، وإنما استُعملتا بمعنى السَّرَّاء والضَّرَّاء.

لقد جرت العادة دائماً أنه عندما تنتهي المصائب والكوارث التي حلت بقوم نتيجةً لرفضهم الإيمان بالنبي المرسل إليهم، ثم تحلّ محلها فترةٌ من اليسر والراحة، فإنه بدلاً من أن يُحسّن الناس موقفهم وسلوكهم فيرجعوا إلى الله تعالى بالتوبة والشكر، يرفضون الاعتراف بأن تلك الكوارث كانت عقاباً من الله تعالى وآيةً منه على صدق

نبيه الذي أرسله إليهم، ويقولون إنها لم تكن سوى ظواهر طبيعية وأموراً عادية وقعت فيما مضى، حتى إن آباءهم قد عانوا منها لبعض الوقت ثم انتهت.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ إلى جميع أولئك الأقوام الذين جاء ذكرهم في الآيات السابقة. وبذلك تكون الآية بمنزلة مُلَخِّص لما سبق ذكره، ومقدّمة لإبراز أحوال الناس في زمن الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: «لَكُنَّا عَلَّمْنَاهُم الحكمة ووهبناهم المعرفة من السماء ومن الأرض». والمقصود بالحكمة والمعرفة اللتين تأتيان من الأرض هما اللتان يكتسبهما المرء نتيجةً لملاحظاته الشخصية أو من أترابه وزملائه؛ وأمّا الحكمة والمعرفة اللتان تأتيان من السماء فهما اللتان تأتيان مباشرةً من الله تعالى.

ويمكن فهم كلمة ﴿بَرَكَاتٍ﴾ أيضاً بمعناها الحرفي المادي، وفي هذه الحالة يمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هطول الأمطار التي تتطلبها الأرض، وتحقيق النجاح بشكلٍ خارقٍ للعادة، أو شفاء الأمراض، وغير ذلك؛ بينما تعني «بركات من الأرض» وفرة المحاصيل وانتشار الأمن والسلام، وما إلى ذلك.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٨﴾

التفسير:

في هذه الآية والآية التي تليها، يشير قوله تعالى: ﴿أَهْلُ الْقُرَى﴾ إلى أهل زمن الرسول ﷺ، الذين يتوجه إليهم القرآن المجيد هنا كخاتمة مناسبة لقصة أقوام غابرة أهلكها الله نتيجة رفضها قبول الأنبياء الذين أرسلهم إليها. وبذلك فإن الآية الكريمة تُحذّر أهل مكة وأهل القرى الأخرى في الجزيرة العربية من أن دورهم يقترب سريعاً، وأن العقاب الإلهي سوف يحلّ بهم في أي لحظة غفلة.

أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى
وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٩﴾

التفسير:

وبينما ذكرت الآية السابقة زمن الليل وموعد النوم ﴿بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، فإن الآية الحالية تذكر زمن النهار ووقت اللعب ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وكلاهما يدل على وقت الغفلة التامة وعدم الوعي أو الاكتراث.

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير:

كما ورد في الآية رقم ٩٨ أعلاه، أخبر القرآن المجيد عن المصير الذي آلت إليه الأقوام التي كذّبت رسل الله في الأزمان الغابرة، ليكون في ذلك تحذيراً لأولئك الذين يكذبون الرسول ﷺ بأنهم ليسوا بمنجاةٍ من ذلك المصير نفسه إذا أصرّوا على تكذيبه ورفض الإيمان به.

لقد عاشت أقوام أولئك الأنبياء الذين جاء ذكرهم في الآيات السابقة في الجزيرة العربية أو في الأراضي المجاورة لها، وكانت أخبار تلك الأمم والمصير الذي آل إليه الذين عارضوا الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إليهم لا تزال معروفةً ومنتشرةً انتشاراً واسعاً بين الأقوام العربية التي كانت موجودة في زمن الرسول ﷺ.

كان موطن قبيلة عاد في اليمن، ولكن غزواتهم وفتوحاتهم امتدّت عبر كامل الجزيرة العربية. ويذكر التراث العربي أن عاداً غزت العالم كله: فارس والهند والصين؛ ولكن لا توجد في التاريخ أدلةٌ تؤيّد هذا الادعاء.

وأما المنطقة التي عاشت فيها قبيلة ثمود فكانت بين المدينة وبلاد الشام، وقد مرّ الرسول ﷺ على أطلالهم التي كانوا يعيشون فيها عندما ذهب إلى غزوة تبوك. وكانت ثمود تعبد الأصنام، وكان من بينها اللات والعزى.

وعاش أهل مدين شمال الجزيرة العربية بالقرب من ساحل البحر الأحمر. وكان تاريخ جميع هذه الأقوام معروفاً بين العرب الذين كانوا يعلمون جيّداً مدى ما وصلوا إليه من قوة، وما دبّروه من مكائد، وما اقترفوه من شرورٍ ومفاسد، ويعلمون أيضاً ما أصابهم من دمارٍ وهلاكٍ نتيجة رفضهم وتكذيبهم للأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إلى هذه الأقوام. ومن هنا جاءت الإشارة في الآية إلى «القوم الخاسرين».

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ
أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾

التفسير:

إن التهديد المُبطن المذكور في الآيات السابقة جاء واضحاً في هذه الآية الكريمة؛ إذ ينبغي على أعداء الإسلام أن يختاروا أحد أمرين: إما أن يتّعظوا من تجربة الأقيام السابقة والنهاية المؤسفة التي انتهوا إليها، فيتخلّوا عن معارضةهم؛ وإما أن يستعدّوا لمواجهة مصيرٍ مشابه. وقد جاءت كلمة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بمعنى الفهم والإدراك، وليس بمعنى السمع والإنصات.

تِلْكَ الْقَرْىُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا
كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿الْقَرْىُ﴾ هنا إلى المدن القديمة التي حلّ بها الدمار والخراب. وقد أعاد القرآن المجيد ذكرها للتركيز على خطورة تكذيب النبي المبعوث من لدن الله تعالى، ولتقديم مثالٍ آخر لما حدث للأقيام السابقة، وما ترتّب على تكذيب موسى عليه السلام.

وتبيّن كلمات الآية ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أن القرآن المجيد لم يسرد التاريخ الكامل لتلك الأقيام السابقة، وإنما ذكر الأنباء ذات الصلة فقط. ومع هذا فلا يوجد كتابٌ

آخر من كتب التاريخ يحتوي على معلوماتٍ حقيقيةٍ عن قوم عاد وثمود يماثل ما قدّمه القرآن المجيد. وقد اعترف المتخصّصون في دراسة التاريخ بأن ما يخبرنا به القرآن المجيد هو أصحّ وأدقّ المعلومات عن هذه الأقوام القديمة، وأن القصص الأخرى السائدة عنهم والمنتشرة بين الناس ليست في الحقيقة سوى أساطير وخيالات.

وأما فيما يتعلّق بلوط عليه السلام فقد اعترف الكتاب اليهود فيما بعد بأنه نبيّ من الله تعالى كما ذكر القرآن المجيد، رغم أن الكتاب المقدّس لا يبدو أنه يمنحه هذه المرتبة.

وتومئ الآية الكريمة إلى أن الرسول ﷺ يمثّل في نفسه جميع الأنبياء الذين جاءوا قبله، ولذلك فإن الذين كذبوه ورفضوا الإيمان به سوف ينالهم من العقاب ما حلّ بجميع الأمم السابقة التي كذّبت ورفضت الإيمان بالأنبياء السابقين.

إن من عادة أعداء الأنبياء رفض دعواتهم بناءً على الأقاويل والخيالات التي يسمعونها عنهم، ويتربّ على ذلك التكذيب والرفض المتسرّع أن تصاب قلوبهم بالمرض، وبذلك يحرّمون أنفسهم من القدرة على فهم الدلائل التي يأتي بها النبيّ، ويعطلون في أنفسهم القدرة على رؤية آيات الله تعالى التي يُظهرها تصديقاً لرسله ومبعوثيه. وبذلك تُبين الآية كيف يتمّ الختم على قلوب المنكرين والمكذّبين؛ إذ لا يتمّ الختم عليها إلا عندما يرفض هؤلاء المعارضون استعمال القوى والملكات والمواهب التي منحها الله تعالى لهم للفهم والإدراك.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا
أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧٤﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ لا يعني أن موسى ﷺ قد بُعث مباشرةً بعد أولئك الأنبياء ﷺ الذين جاء ذكرهم في الآيات السابقة؛ فمن الممكن أن يكون الله تعالى قد بعث أنبياء آخرين بعد هؤلاء وقبل موسى ﷺ، ويبدو أن شعيباً ﷺ كان أقرب هؤلاء زمناً إلى موسى ﷺ. إن عبارة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ لا تعني سوى أن موسى ﷺ قد ظهر وعاش بعدهم بفترة، وهذا ما يتعارض مع المفهوم الشائع عن أن النبي شعيباً ﷺ كان معاصراً لموسى ﷺ وحمواً له.

وحرفيّاً، تعني الكلمات ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أنهم ارتكبوا الظلم بواسطة آيات الله تعالى، أو أنهم ظلموا هذه الآيات. والمعنى المقصود هو أنهم «رفضوا قبول آيات الله تعالى واعتبروها مجرد أكاذيب، أو أنهم استخدموا تلك الآيات مجرد حجةٍ يبررون بها ارتكاب الظلم في حق المؤمنين والاستهزاء بهم، وبذلك فإنهم عملوا على خداع الآخرين».

إن كلمة «الظلم» تعني وضع الشيء في غير محله، أو استعمال الشيء استعمالاً خاطئاً (أقرب الموارد). ومن هذه الزاوية يُفهم معنى الآية، إذ إنهم استخدموا آيات الله تعالى استخداماً خاطئاً؛ أي برغم أن الغرض من تلك الآيات كان غرس الخوف من الله تعالى في قلوب الناس، فإن أولئك المكذّبين قد سخروا منها وهزئوا بها.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَلْفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

التفسير:

انظر الآيات: الشعراء: ١٧؛ طه: ٤٨؛ الزخرف: ٤٧.

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ
بَنِي إِسْرَٰئِيلَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

حَقِيقٌ: مشتقٌّ من «حَقَّ» بمعنى وَجَبَ وَثَبَتْ؛ أصبح أهلاً لمتطلبات الحكمة أو العدل أو الصدق أو الصواب؛ أصبح منصفاً أو عادلاً أو مناسباً؛ صار لازماً أو ضرورياً أو واجباً. يُقال: «يحقّ عليك أن تفعل كذا»، أي وجب عليك أو ينبغي لك فعل كذا، أو أنت أهلٌ لفعل هذا. «حقيق»: خَلِيقٌ؛ جديرٌ؛ تَوَاقٌ؛ ملائمٌ؛ كفاءٌ؛ مستحقٌّ. وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ﴾ يعني: جديرٌ بأن لا أقول على الله إلا الحق، وحرِيٌّ بي أن ألتزم به؛ حريصٌ على ألا أقول على الله إلا الحق؛ واجبٌ عليّ ألا أقول على الله عزّ وجلّ إلا الحق؛ أرغب بشدةٍ ألا أقول على الله إلا الحق (معجم لين، وأقرب الموارد).

التفسير:

حينما نأخذ كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ بمعنى «تَوَاقٌ»، يكون معنى الجزء الأول من الآية الكريمة: «إني تَوَاقٌ ألا أذكر عن الله تعالى إلا الحق». وكانت هذه الكلمات التي ذكرها

موسى ﷺ هي نفسها الجواب الذي قاله الرسول ﷺ رداً على أولئك الذين اتهموه بالكذب.

وتبيّن الآية أن رسل الله تعالى ومبعوثيه لا يمتنعون عن الكذب فحسب، بل إنهم تواقون وحريصون على ألا ينطقوا إلا بالصدق ولا يقولوا إلا الحق. وتنطبق هنا أيضاً سائر معاني كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ الأخرى.

حينما ذهب موسى ﷺ إلى فرعون، لم يكن غرضه تبليغ رسالته إليه بقدر ما كان طلب السماح لبني إسرائيل بالذهاب معه، وإن كان في الواقع يودّ أيضاً أن يدعوه إلى الحق. وفي الحقيقة، كانت رسالة موسى ﷺ موجّهةً إلى بني إسرائيل في المقام الأول، ولكن لما كان بنو إسرائيل يقيمون في مصر ويختلطون بالمصريين، كان على موسى ﷺ أن يُبلّغ كلا الفريقين دعوته. وعندما غادر بنو إسرائيل مصر، لم يُلْقَ بالاً إلى المصريين، بل اقتصرت دعوته على أبناء قومه الذين أرسل إليهم.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِبَيِّنَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١٠٧﴾

التفسير:

انظر الآية: الشعراء: ٣٢.

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

ثُعْبَان: مشتق من «ثَعَبَ». يُقال: «ثَعَبَهُ»، أي أسأله (الماء ونحوه)، وأجرأه، وفجّره.

«ثُعْبَان»: ضربٌ من الحَيَّاتِ الطَّوالِ، يُطْلَقُ على الذكر والأنثى، وإن كان يُستعمل غالباً للذكر؛ ويُقال أيضاً للحية بصفةٍ عامّةٍ، ذكرًا كانت أو أنثى، صغيرةً أو كبيرةً. كما يُطْلَقُ على الحَيَّةِ الهائلة الخرافية (معجم لين).

التفسير:

استعمل القرآن المجيد ثلاث كلمات للتعبير عن تحول عصا موسى عليه السلام، وهي: (١) ثعبان، كما جاء في الآية التي نحن بصددّها الآن، وفي الآية ٣٣ من سورة الشعراء؛ (٢) حَيَّة، كما جاء في الآية ٢١ من سورة طه؛ (٣) جانّ، كما جاء في الآية ٣٢ من سورة القصص، والآية ١١ من سورة النمل. وتُستعمل كلمتا «ثعبان» و«حية» للأفاعي الكبيرة أو الصغيرة، بينما تُستعمل كلمة «جان» للأفاعي الصغيرة فقط. وعلى هذا فليس هنالك تعارض أو تناقض بين استعمال هذه الكلمات الثلاث للدلالة على الشيء نفسه، إذ إن كلّاً منها قد يطلق على الأفعى الصغيرة.

وعلاوة على ذلك، عند تدبر الآيات التي وردت فيها هذه الكلمات، نجد أن الكلمة المناسبة قد استُعملت في سياقات مختلفة. فكلمة «جان»، أي الأفعى الصغيرة، استُعملت عندما جعل الله تعالى موسى عليه السلام وحده يرى العصا وقد تحولت إلى أفعى صغيرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ (النمل: ١١)، بينما استُعملت كلمتا «ثعبان» و«حية» في المواضع التي اقتضت إظهار موسى عليه السلام آية على صدقه أمام الناس. وهذا يدل على أن العصا بدت لموسى عليه السلام كأنها أفعى صغيرة فقط، بينما في حضور فرعون وغيره من الناس بدت كأنها أفعى كبيرة. وعلى ذلك فإن استعمال ثلاث كلمات مختلفة في مواضع متباينة لم يكن عفويًا، بل كان مقصودًا، والغرض منه إبراز حقيقة معينة.

وبالإضافة إلى ذلك، في الآيات التي ورد فيها استعمال كلمة «جان»، لم يرد بأن العصا قد تحوّلت بالفعل إلى أفعى صغيرة، بل إنها بدت كأنها تتحرك كالأفعى الصغيرة. ولا يعني هذا أن العصا قد تحوّلت فعلاً إلى أفعى صغيرة، وإنما كانت تتحرك

بسرعة كالأفعى الصغيرة، مع أنها كانت تبدو كالأفعى الكبيرة. وعلى هذا فليس هناك تضارب أو تناقض بين الكلمات التي استعملها القرآن المجيد، سواء تحولت العصا إلى أفعى صغيرة أو كبيرة.

والجدير بالذكر هنا أن هذه الآية لا تتعارض مع أي قانون من قوانين الطبيعة. وإذا ثبت بما لا يدع مجالاً للشك حدوث أمر معين، فلا بد من الاعتراف به، حتى ولو لم نستطع تفسيره في ضوء القوانين الطبيعية كما نعرفها. ومن الواضح أن معرفتنا بالقوانين الطبيعية لا تزال محدودة جداً، وعلى ذلك لا يصح إنكار حقيقة ما استناداً إلى معرفتنا المحدودة وغير الكاملة بقوانين الطبيعة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المعجزة المذكورة لم تقع على النحو الشائع عنها، فالمعجزات التي تظهر على أيدي الأنبياء ليست من قبيل الخدع التي يجريها الحواة والمشعوذون. إن هذه المعجزات تقع لتحقيق أغراض روحية معينة أولبيان أهداف عظيمة، ومن أهم أهدافها إيجاد يقين الإيمان وإحداث مشاعر التقوى وخشية الله تعالى في قلوب الذين يشاهدون تلك الآيات. ولو كانت العصا قد تحولت بالفعل إلى أفعى، لبدا الأمر كله وكأنه حركة من حركات الخدع وخفة اليد التي يقوم بها الحواة، لا آية من آيات الأنبياء. ورغم ما ذكره الكتاب المقدس بشأن هذه الآية، فإن القرآن المجيد لا يؤيد فكرة أن العصا قد تحولت بالفعل إلى أفعى تدب فيها الحياة، فهذا لم يحدث قط، بل إن العصا كانت «تبدو» كأنها أفعى تتحرك. فقد كانت نوعاً من الكشف الذي سيطر الله تعالى فيه بشكل خاص على أبصار المشاهدين، فجعلهم يرون العصا على هيئة أفعى، أو أن العصا نفسها قد بدت كأنها أفعى، وقد اشترك في هذا الكشف كل من فرعون والملا في بلاطه والسحرة إلى جانب موسى عليه السلام. لقد ظلت العصا كما هي، مجرد عصا، ولكنها كانت تبدو لموسى عليه السلام وللآخرين كأنها أفعى. وهي ظاهرة روحية كثيراً ما تحدث في حالة الكشف عندما يسمو المرء فوق قيود الجسد، وينتقل، بصورة مؤقتة، إلى المجال الروحي، حيث يمكنه أن يرى أموراً تحدث ولا يجد لها تفسيراً بعقله وتكون

خافية عن عينيه الماديتين. إن معجزة العصا التي بدت كأنها تحولت إلى أفعى كانت واحدة من هذه التجارب الروحية.

وقد وقعت ظاهرة روحية مماثلة في زمن الرسول ﷺ، عندما بدا القمر وكأنه انشق إلى نصفين. ولم يرد ذلك الرسول ﷺ وحده، بل رآه معه بعض أتباعه، وبعض المشركين أيضاً (البخاري، كتاب التفسير). ومثل هذه الكشوف التي تشكل حالة خاصة بين اليقظة والمنام، هي من التجارب الروحية التي يشترك فيها أنبياء الله تعالى وبعض أصفياه ﷺ، وقد يحدث أحياناً أن يشارك فيها الناس العاديون، بل وحتى بعض الكفار أيضاً. وتروي لنا بعض الأحاديث الشريفة أن جبريل عليه السلام الذي كان الرسول ﷺ كثيراً ما يراه في الكشوف، قد رآه أيضاً بعض الصحابة الذين كانوا جالسين معه ﷺ (البخاري، كتاب الإيمان). وبالمثل شاهد بعض الكفار الملائكة في غزوة بدر (ابن جرير الطبري، ج ٦ ص ٤٧). وحدثت واقعة أخرى من هذا النوع عندما كان جيش المسلمين يحارب في العراق تحت قيادة القائد المعروف باسم «سارية»، على مسافة تبعد مئات الأميال عن المدينة، وبينما كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب في صلاة الجمعة، رأى في كشف أن جيش المسلمين قد تعرض لضغط شديد من جانب جيش العدو الذي كان يفوقه عدداً، وأن كارثة بالغة كانت على وشك الوقوع. وحينئذ توقف عمر رضي الله عنه فجأة عن الاسترسال في الخطبة، وصاح من على المنبر: «يا سارية، الجبل! يا سارية، الجبل!»، ورغم أن سارية كان على بعد مئات الأميال، وكانت تحيط به ضوضاء المعركة وقعقة السلاح وصهيل الخيول، فإنه سمع صوت عمر رضي الله عنه وأطاعه، فاحتفى بالجبل، وتم بذلك إنقاذ جيش المسلمين، (تاريخ الخميس، ج ٢ ص ٢٧٠).

إن للآية التي وقعت لموسى عليه السلام والتي تذكرها الآية القرآنية التي نحن بصدددها، معنى خاصاً، ويمكن تفسيرها كما تُفسر الرؤى. إن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يلقي عصاه، فبدت له حينئذ كأنها أفعى تسعى، وحين أمره أن يأخذها إذا بها كما هي، مجرد عصا من الخشب. والأفعى في لغة الأحلام والرؤى ترمز إلى العدو، بينما ترمز العصا

إلى القوم أو المجتمع الذي ينتمي إليه المرء (تعطير الأنعام). وهكذا أخبر الله تعالى موسى عليه السلام من خلال هذا الكشف، أنه إذا ألقى عنه أمور قومه أو تخلى عنهم فإنهم سوف يتحولون إلى أفاعٍ حقيقية، ولكن إذا لم يتخلَّ عنهم وأبقاهم تحت عنايته فإنهم سيكونون مجتمعاً مترابطاً من أشخاص أتقياء يخافون الله تعالى. لقد طلب موسى عليه السلام في أول الأمر أن يعفيه الله تعالى من هذه المهمة الثقيلة، إذ كان يتعَيَّن عليه أن يقوم بإنقاذ قوم تمكن منهم الفساد الروحي، غير أن الله تعالى أخبره، عن طريق هذا الكشف، أن نجاة قومه تتوقف على أخذه بيدهم وتوليهِ أمر إرشادهم وقيادتهم، وأنه إذا لم يقم بذلك، فإنهم سوف يتحولون إلى أفاعٍ حقيقية.

وقد رأى أبو جهل الذي كان عدو الإسلام الأكبر، كشفاً مماثلاً. فقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذهب إليه يوماً يطالبه بدفع دين كان عليه لأحد الفقراء الغرباء عن مكة، وكان قد رفض أن يدفع للرجل حقه. ورغم العداوة الشديدة التي كان يحملها أبو جهل للإسلام وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه دفع الدين على الفور بمجرد أن طالبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك. ولما سأله أصحابه عن السبب الذي دفعه إلى هذا التصرف، قال إنه رأى جملين عن يمين محمد وعن يساره، يريدان أن يمزّقا إرباً إذا امتنع عن الاستجابة لمطلبه (سيرة ابن هشام). لقد كان أبو جهل يعيش في الجزيرة العربية، وهي أرض الجمال، ولذلك أراه الله تعالى جمالاً، بينما كانت مصر أرض الأفاعي المسحورة، ولذلك جعل الله تعالى فرعونَ يرى أفعى.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٩﴾

التفسير:

لقد ذكر الكتاب المقدس معجزة اليد البيضاء أيضاً (الخروج ٤: ٦)، مع وجود اختلاف بين ما جاء فيه وما ذكره القرآن المجيد؛ إذ يذكر الكتاب المقدس أن اليد البيضاء قد أصابها مرض الجذام، بينما يذكر القرآن المجيد أنها كانت ﴿بَيْضَاءَ﴾

مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (القصص: ٣٣). وهناك فرق آخر بين الروایتين، إذ يذكر القرآن أن موسى عليه السلام أرى فرعون كلتا الآيتين، بينما يذكر الكتاب المقدس أنه بالرغم من أن الله أمر موسى أن يُري فرعون كلتا الآيتين (الخروج ٤: ٨)، إلا أنه لا يذكر أن موسى عليه السلام قد أراه فعلاً آية اليد البيضاء. ومن الواضح أن رواية القرآن المجيد هي الأصح، لأنه من غير المعقول أن يُغفل موسى عليه السلام إراءة آية اليد البيضاء لفرعون كما أمره الله تعالى، وكما أقر بذلك الكتاب المقدس نفسه فحسب، بل أيضاً لأن فرعون لم ينتفع بالآية الأولى، ومن ثم فلا بد أن يكون موسى عليه السلام قد أراه الآية الثانية بعد أن رفض قبول الآية الأولى.

ومن المعروف أن أجساد أولئك المنغمسين في الروحانية العالية تصدر أشعة خفية بألوانٍ مختلفة طبقاً لدرجة تقدمهم الروحي وطبيعته. والأشعة التي تنبعث من أجساد الكاملين الصالحين كالأنبياء تكون بيضاء ناصعة. وعلى هذا، فلا بد أن الأشعة التي انبعثت من يد موسى عليه السلام كانت بيضاء، وحين صارت مرئية، كان من الطبيعي أن تظهر يده بيضاء للناظرين. ومن المعروف أن الناس قد شهدوا تجارب مماثلة مع بعض الأنبياء الآخرين أيضاً، فمثلاً هناك تجاربٌ روحية ثابتة وقعت زمن سيدنا أحمد، الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، وقد تم تسجيلها (الفضل، المجلد ٣٢، العدد ٢١٧).

ويذكر القرآن المجيد في سورة القصص قول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (القصص: ٣٣)، وهذه الآية تبين بلغة رمزية لموسى عليه السلام، في إيماء واضحة، أنه إذا أبقى قومه رهن توجيهه وتحت عنايته، فإنهم لن يغمرهم النور ويملاً قلوبهم الضياء فحسب، بل سينشرون هذا النور إلى الآخرين أيضاً، وإلا فسينتابهم المرض ويغشاهم السواد. وعلى هذا، فإن الآية التي أوتيتها موسى عليه السلام لم تكن عمل ساحر، بل كانت آية تفيض بالمعاني الروحية العميقة.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا
لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾

شرح الكلمات:

ساحر: إن كلمة «ساحر» لا تعني بالضرورة من يأتي بأعمال السحر والشعوذة، بل قد تعني أيضاً: الفاتن، والأسر، والشخص العليم أو الماهر أو الذكي، ومن يستطيع القيام بشيءٍ على خلاف ما يبدو، والمخادع أو المضلل أو المُلهي... إلخ (معجم لين). وانظر أيضاً الآية ١٠٣ من سورة البقرة.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿١١١﴾

شرح الكلمات:

تَأْمُرُونَ: مشتق من «أَمَرَ». يُقال: «أَمَرَهُ» أي طلب منه فعل شيء أو فرض عليه. وتعني الكلمة أيضاً: نصحه أو أشار عليه بشيء (معجم لين).

التفسير:

إن الغرض من عبارة ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ هو تأجيج مشاعر الناس ضد موسى عليه السلام، بينما لم يكن لدى موسى عليه السلام أي رغبة في إخراج المصريين من أرضهم، بل كان يريد فقط أن يأخذ قومه ويترك المصريين في بلادهم.

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٢﴾

التفسير:

انظر الآية: الشعراء: ٣٧.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٣﴾

التفسير:

انظر الآية: الشعراء: ٣٨.

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن
كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٤﴾

التفسير:

يبدو أن عبارة ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قد قالها السحرة بعضهم لبعض، ولم تُوجَّه إلى فرعون، غير أنه سمعهم على أي حال.

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٥﴾

التفسير:

عندما سمع فرعون ما قاله السحرة، أو بالأحرى عندما بلغ سمعه ما قاله بعضهم بعض في الآية السابقة، أخبرهم أنهم لن ينالوا الأجر الذي يطمعون فيه فحسب، بل سيكونون أيضاً من المقربين.

قَالُوا يُمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٦﴾

التفسير:

لاحظ شدة المشهد، حيث اصطف الطرفان أمام بعضهما بعضاً استعداداً لمعركة حاسمة.

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾

شرح الكلمات:

سِحْرٌ عَظِيمٌ: انظر الآية ١٠٣ من سورة البقرة، والآية ١١٠ من سورة الأعراف.

التفسير:

لم يتأخر موسى عليه السلام في اغتنام الفرصة، فأجاب على الفور أن عليهم أن يلقوا أولاً. عادةً ما ينتظر رسل الله وقوع العدوان عليهم من جانب مخالفينهم؛ لأنهم يفضلون أن يكونوا في موقف المدافع، وحينئذٍ يلجؤون إلى الله تعالى طالبين عونه.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٨﴾

شرح الكلمات:

تَلَقَّفَ: مشتقة من «لَقِفَ». يُقال: «لَقِفَ الشيء» أي تناوله بسرعة، أو تناوله مُلقًى إليه. و«لَقِفَ الطعام» أو «تَلَقَّفَ الطعام»: بلعه (أقرب الموارد).

التفسير:

من المؤكَّد أنه لم تكن الحيَّة التي صارت من العصا هي التي أبطلت سحر السحرة، بل كانت العصا نفسها. إن عصا موسى عليه السلام، التي استُخدمت بالقوة الروحية لنبيٍّ عظيم وأُلقيت بأمرٍ من الله ﷻ، هي التي كشفت التأثير المخادع الذي أحدثه السحرة في أعين المشاهدين، فقضت على الأشياء التي أوهموا الناس بسحرهم أنها حيَّاتٌ تسعى.

إن عبارة «تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ» تعني حرفياً «تبتلع كل ما افتروه»، وهي في الحقيقة تفيد أن العصا كشفت سريعاً الخداع الذي أحدثه السحرة وأبطلته.

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾

فَغْلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١٢٠﴾

التفسير:

تشير هذه الآية إلى حزب فرعون، لا إلى السحرة؛ إذ ذكر السحرة في الآية التالية، وعلى ذلك فإن قوله تعالى: «وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» لا يتعلق بهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كلمة «صَاغِرِينَ»، أي الذين أصابتهم المذلَّة والهوان، لا يمكن أن تُستعمل في وصف قوم أبدوا تقديرًا كبيرًا للحق إلى درجة أنهم قبلوه دون انتظار ما سيقوله فرعون. وقد استعملت الكلمة نفسها «صَاغِرِينَ» في سورة التوبة في حق الكافرين (التوبة: ٢٩).

ولا تعني كلمة ﴿انقلبوا﴾ مجرد أنهم صاروا منهزمين؛ فالتعبير يزداد قوةً إذا أخذ بمعناه الحرفي، إذ يفيد أن أولئك الذين جاؤوا قبل لحظاتٍ قليلةٍ إلى ميدان النزال بكبرياءٍ وغرور وثقةٍ بتحقيق الفوز والنصر، قد انقلبوا الآن ورجعوا خائبين، يجللهم الخزيُّ والعارُ.

وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢١﴾

التفسير:

إن صيغة المبني للمجهول في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ تفيض بكثيرٍ من المعاني. لقد كانت الهزيمةُ التي مُني بها السحرة هزيمةً ساحقةً إلى درجةٍ بدا معها وكأن قوةً جبَّارةً قد سحبت الأرض من تحت أقدامهم، وأرغمتهم على السجود بأسلوبٍ يملؤه الخضوعُ والدعاءُ لله تعالى.

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾

التفسير:

لقد أثبتت هزيمة السحرة أن رب العالمين كان إلى جانب موسى عليه السلام؛ ولذلك سارعوا إلى إعلان إيمانهم به ﷻ.

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير:

انظر الآيات: طه: ٧١؛ الشعراء: ٤٧.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا
مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾

التفسير:

أثار التغيير المفاجئ الذي طرأ على السحرة، والذي حققته يدُ الله القوية، الشكوك والريبة في نفس فرعون؛ أو لعله اتخذ من ذلك ذريعة لإخفاء خيبته أمام الناس. والمقصود من كلمة ﴿أَهْلَهَا﴾ في الآية هنا هم قومُ فرعون الذين كانوا في جانبه، والذين لم يكونوا سكان مصر الأصليين، بل سكنوا الأرض رغماً عن أبناء تربتها.

ويتفق الكتاب المقدس مع القرآن المجيد في أن السحرة آمنوا بموسى عليه السلام (الخروج ٨: ١٩)، مع اختلاف في أن القرآن المجيد يذكر أن السحرة آمنوا على الفور بعد أن رأوا بأعينهم الآية التي تحققت على يد موسى عليه السلام، بينما يذكر الكتاب المقدس أنهم آمنوا فيما بعد. وبالطبع فإن رواية القرآن المجيد أصح؛ لأنها أكثر منطقية.

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٥﴾

التفسير:

رغم أن الصلب في ذاته يعني الموت المؤلم على الصليب، فإن عقوبة تقطيع الأيدي والأرجل قد أضيفت لجعل العذاب أشد وطأةً والموت أشد إيلاماً. وبالمناسبة، تُبين الآية أن عقوبة القتل عن طريق الصلب كانت شائعة منذ زمن موسى عليه السلام.

قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٦﴾

التفسير:

لم يخشَ السحرة تهديدات فرعون، بل على العكس تحدّوه قائلين: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وكأنهم يقولون له: «إنك إذا أمرت بصلبنا فلا ضير؛ فإنك تُعجلُ برجوعنا إلى الله تعالى، وبذلك يكون لنا حظٌّ في لقائه مبكراً».

لاحظ التغيّر الكبير الذي أحدثه الإيمان الصادق في قلوب هؤلاء الناس الذين لم يكن لهم همٌّ سوى اكتساب الدنيا وزينتها. فمنذ لحظاتٍ قليلةٍ كانوا يسألون عن الأجر الذي سوف ينالونه من مالٍ وثروةٍ، والآن هم على استعدادٍ للتخلي عن متع الدنيا من أجل الله تعالى، وصاروا متشوّقين للقاءه في أسرع وقتٍ ممكن. حقاً إن الإيمان قوةٌ عظيمةٌ، وهو يصنع العجائب.

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٧﴾

شرح الكلمات:

أَفْرِغْ: مشتقٌّ من «فَرَعَ»، أي صار خالياً؛ شاغراً؛ مجزّداً من الشيء؛ غير مشغول. ويقال: «فَرَعَ الماء» أي سكب متتابعاً، و«أَفْرَغَهُ» أي صبّه متتابعاً.

ولذا فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يعني: يا ربّ، أغدق علينا الصبر والثبات كما ينسكب الماء متتابعاً من الدلو، أو أنزل علينا صبراً يغمرنا (معجم لين).

التفسير:

كما تمّ إيضاحه في شرح الكلمات، كان الغرض من عبارة ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ طلب المزيد من الصبر؛ فقد توجّه السحرة بالدعاء إلى الله ﷻ أن يمنحهم مزيداً من الصبر حتى يصبح الصبر كأنه يُغشّيه تماماً ويستوعب وجودهم كلّهُ، فيستطيعوا بذلك تحمّل البلاء المنتظر دون أيّ ضعفٍ أو تخاذل. لقد كانوا متمسّكين بالصبر فعلاً، لكنهم دعوا الله تعالى أن يزيدهم صبراً حتى يثبتوا على الإيمان ويصمدوا أمام الابتلاء، وهذا هو المقام الروحي الحقيقي.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى
وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ
قَالَ سَنُقْتِلُ أبنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا
فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٨﴾

شرح الكلمات:

قَاهِرُونَ: انظر تفسير الآية ١٩ من سورة الأنعام للشرح الكامل لهذه الكلمة.

التفسير:

لقد كان رؤساء البلاط الفرعوني، ﴿الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، هم الذين أشاروا على فرعون أن يُرَجِّحَ موسى وأخاه هَارُونَ، كما جاء ذكر ذلك في الآية ١١٢ أعلاه: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، ولكن هؤلاء أنفسهم يلومونه الآن؛ لأنه ترك موسى وأخاه هَارُونَ لِيُفْسِدَا في الأرض حسب زعمهم. وهكذا يحدث التدهور في أخلاق الذين يلقون الخزي والهوان.

لقد كان قومُ فرعون يعبدونه باعتباره إلهاً، كما ذكر القرآن المجيد: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٩)، وهو بدوره كان يعبد آلهةً أخرى من دون الله تعالى. وعلى هذا، فإن رجال البلاط الفرعوني راحوا يتهمون موسى وهارون بأنهما شجبا عبادةَ فرعون وأنكرا آلهته.

وقد جاء الفعل «نقتل» في صيغة المبالغة ﴿سَنُقْتِلُ﴾ للتعبير عن تكرار القتل ووقوعه ببطءٍ وتدرّج، بما يزيد الإحساس بالألم. فالغرض من هذا التعبير بيانُ القسوةِ والشدّةِ التي اتبعها فرعون تجاه بني إسرائيل، والتي أراد من خلالها أن يدمّرهم ويقضي عليهم قضاءً مبرماً.

وعلى هذا، لا يجوز اتهام القرآن المجيد بالخطأ التاريخي على أساس أن فرعون لم يقتل أبناء بني إسرائيل بعد أن جاءه موسى ﷺ رسولاً من الله تعالى. فمن الحقائق المعروفة تاريخياً أنه قبل ذهاب موسى ﷺ برسالته إلى فرعون وبعده، كان فرعون يضع مخططاتٍ ضد بني إسرائيل بهدف القضاء عليهم وتحقيق دمارهم الحتمي بالتدرّج. وهذا هو السبب الذي من أجله قال بنو إسرائيل لموسى وهارون ﷺ: «ينظر الربُّ إليكما ويقضي؛ لأنكما أنتنما راحتنما في عيني فرعون وفي عيون عبده حتى تُعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا» (الخروج ٥: ٢١).

وهناك إشارةٌ إلى هذا الإيذاء من جانب فرعون قبل مجيء موسى ﷺ وبعد مجيئه في الآية رقم ١٣٠. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الآية الكريمة لا تقول إن فرعون قد قتل بالفعل أبناء بني إسرائيل في هذه المناسبة، بل تذكر فقط أنه هدّد بذلك، لا أنه وضع تهديده موضع التنفيذ.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا
إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٩﴾

التفسير:

كان فرعون مزهواً بقوته وسلطانه، وكان مستبدًا إلى أقصى حد؛ ولذلك فإن موسى عليه السلام يطمئنهم هنا ويواسيهم مؤكداً لهم ألا يخشوا فرعون؛ لأن قوته سوف تنكسر، ومملكه سوف يُنتزع منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ لا يعني بالضرورة أن بني إسرائيل سوف يرثون ملك مصر بعد تدمير فرعون، وإنما يعني أن قوة فرعون سوف تنكسر وأن الآخرين سوف يستولون على مملكه. وتخبّرنا حقائق التاريخ أنه بعد هلاك فرعون وانتهاء حكم أسرته، تولت أسرة أخرى حكم مصر، وكانت على علاقة طيبة ببني إسرائيل.

قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾

التفسير:

يتبين من الكتاب المقدس أن أتباع موسى عليه السلام، شأنهم في ذلك شأن بقية أتباع الأنبياء، كان عليهم تحمُّل أعباء إضافية، فاشتكَوا منها إلى موسى عليه السلام. وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في سفر الخروج ٥: ١٠-٢١. ويشير القرآن المجيد إلى شكوى بني إسرائيل في هذه الآية.

إن كلمة ﴿الْأَرْضِ﴾ الواردة في هذه الآية لا تشير إلى مصر، وإنما إلى الأرض المقدسة التي وُعدوا بها، والتي ورثوها بحسب هذا الوعد. ويمكن أن تعني «الأرض» بوجه عام.

ورغم أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ موجّه في المقام الأول إلى بني إسرائيل الذين كانوا موجودين زمن موسى عليه السلام، فإن دلالته أوسع شمولاً؛ إذ تنطبق بالقوة نفسها على الأجيال اللاحقة أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أن عبارةً مشابهةً قد وُجّهت إلى المسلمين أيضاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٥)، أي إن الله تعالى سوف يستخلف المسلمين في الأرض - كما استخلف بني إسرائيل - ثم ينظر كيف يعملون. وهذا يدل على المشابهة والمماثلة بين الأمة الإسرائيلية والأمة الإسلامية، كما يشير أيضاً إلى أن زمناً سوف يأتي تُصاب فيه الأمة الإسلامية بالفساد والانحراف كما أصيبت الأمة الإسرائيلية. وإلى هذا الفساد والانحراف يشير الدعاء في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. انظر تفسير الآية السابعة من سورة الفاتحة.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣١﴾

شرح الكلمات:

السِّنِينَ: جمع «سَنَة»، وبحسب مراجع مختلفة فهي مشتقة من «سنه» أو «سنى» أو «سنو». يُقال: «سَنَة الطعام» أي تعفن أو تغير إلى الأسوأ بمرور السنين. و«سَنَا السحابُ الأرضَ» أي سقت السحب الأرض. و«سَنَا البعيرُ» أي اتجه إلى البئر ليشرب الماء. و«سَنَى الرجلُ» أي صار ذا رِفْعَةٍ ومكانةٍ عليا.

و«السَّنَة» تُطلق على: العام؛ ودورة الأرض كاملةً حول الشمس؛ والسنة الشمسية التي تُعدّ أطول من العام القمري؛ وسنة مجاعة أو جذب؛ والقحط الشديد (معجم لين، وأقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

التفسير:

تذكر هذه الآية نوعين من العقاب الذي أصاب قوم فرعون، وهما نقص في الأموال ونقص في الأنفس. إن كلمة ﴿التَّمَرَاتِ﴾ تعني كلاً من الأموال والأولاد أو الذرية. وسوف يأتي تفصيل هذا العقاب في الآية ١٣٤.

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

يَطَّيَّرُوا: هي في الأصل «يَتَطَيَّرُوا»، مشتقة من «طار»، ومنها «طائر»، أي نذير شؤم. يُقال: «طار الطائر» أي تحرك في الهواء بجناحيه. و«تَطَيَّرَ بالشيء» أي تشاءم منه؛ فقد كان من عادة العرب أن يأخذوا فألهم بطيران الطيور. و«الطائر»: كل ذي جناح من الحيوان. وتقول العرب: «جرى له الطائر بأمر كذا» أي جلب له الطير - أي الحظ - هذه النتيجة. و«الطائر» يُطلق على: كل ما طار من الحيوان؛ وما تيمّنت به أو تشاءمت منه؛ والحظ من الخير والشر؛ والشؤم؛ وسوء الحظ؛ وعمل الإنسان؛ والرّزق؛ والدماغ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: أن حظهم السيئ من عند الله تعالى؛ ما أصابهم من خير أو شر هو من عند الله؛ إنّما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا، وهو بسبب سوء فعلهم (معجم لين ولسان العرب). انظر أيضاً الآية ٥٠ من سورة آل عمران.

التفسير:

نسب قوم فرعون المصائب التي حلت بهم إلى موسى عليه السلام، وادَّعَوْا أن سبب تلك البلايا هو مجيئه المشؤوم. هذا هو دأب الكافرين دائماً؛ فعندما يصيبهم سوء نتيجة لذنوبهم، فإنهم بدلاً من أن يتوبوا ينسبونه إلى مجيء النبي، ويتهمون به بأنه كان نذير شؤم.

ولما كانت كلمة «طائر» تعني العمل المشؤوم أو الحظ السيئ، فإن الآية تُشكّل توبيخاً شديداً لقوم فرعون، وتُخبرهم بأن ما أصابهم من مصائب وكوارث لم يكن نتيجة ما ينسبونه من الشؤم إلى مقدم موسى عليه السلام، وإنما هو نتيجة ذنوبهم وخطاياهم التي يرتكبونها. وعلى هذا، فإن كلمات الآية ﴿أَلَا إِنَّ طَائِرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعني أن الكلمات الوقحة والخبيثة التي تلفظوا بها في حق موسى عليه السلام سوف تُحفظ عند الله تعالى، وسوف يحلُّ بهم العقاب المناسب بسبب وقاحتهم.

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾

التفسير:

قال قوم فرعون بتكبر لموسى عليه السلام: إنه مهما تكن الآيات التي يأتي بها قوياً وعظيمة، فإنهم لن يخضعوا أبداً له، ولن يؤمنوا به، ولن يسمحوا مطلقاً لبني إسرائيل أن يذهبوا معه.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مَّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٤﴾

شرح الكلمات:

القَمَلُ: مشتقة من «قَمِلَ». يُقال: «قَمِلَ رأسُه» أي صار ذا قَمَلٍ أو كثر عليه القَمَلُ. و«قَمِلَ القَوْمُ» أي تكاثروا وكثر عددهم. و«قَمِلَ فلانٌ» أي سَمِنَ بعد الهزال. و«القَمَلُ»: دويبة تتولد من الوسخ والعرق في بدن الإنسان. و«القَمَلُ»: صغار الذرّ والدبّ الذي لا أجنحة له، أو شيءٌ صغيرٌ له جناحٌ أحمر؛ ودوابُّ صغار كالقِرْدان تركب البعير عند الهزال (أقرب الموارد، ولسان العرب).

مُفَصَّلَاتٌ: أي واضحة، وتعني أيضاً منفصلةً أو متميّزة.

التفسير:

تشرح الآية الكريمة صنفَي العقاب الذي حلّ بقوم فرعون، واللذين سبق ذكرهما في الآية ١٣١ أعلاه. فالطوفان والجراذ يسببان المجاعة، والقَمَل والضفادع والدم تسبب الأمراض التي تؤدي إلى الموت.

ويذكر الكتاب المقدس عشر آياتٍ بالإضافة إلى آية العصا واليد البيضاء، وهي:

(١) تحوّل مياه النهر إلى دم؛ (٢) الضفادع؛ (٣) القَمَل؛ (٤) أسراب البعوض والدُّبّان؛ (٥) وباء الماشية؛ (٦) وباء الدمامل والبثور؛ (٧) سقوط البرد؛ (٨) الجراد؛ (٩) الظلام الدامس لثلاثة أيام؛ (١٠) موت كلّ بكر (الخروج ٧-١١). وجميع هذه الآيات متضمنة في الآية التي نحن بصدددها.

فالطوفان الذي ينتج عن العواصف يشمل آية سقوط البرد والظلام الدامس؛ والقَمَل يشمل البعوض والدُّبّان ووباء الماشية وموت كلّ بكر؛ لأن هذه الآفات كلّها قد تنتج عن القَمَل والبعوض والدُّبّان ونحوها. وآية الدم تتضمن تحوّل مياه النهر إلى دم ووباء الدمامل والبثور. ويمكن أن تشمل آية الدم أيضاً موت كلّ بكر.

كما يمكن أن يُفهم من آية تحويل مياه النهر إلى دم أن المياه أصبحت فاسدة حتى إنها تُفسد دماءً من يشربها؛ أما القول بأنها تحوّلت بالفعل إلى دم، فهذا ما ينفيه الكتاب

المقدس نفسه؛ إذ نقراً: «أنك تأخذ من ماء النهر وتسكبه على اليابسة، فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دماً على اليابسة» (الخروج ٤: ٩). وهذا يعني أن مياه النهر أصبحت لا تصلح للشرب، وكانت تُفسد دماءً من يشربها.

وبالمثل، فإن العواصف التي سببت الطوفان أثارت الغبار، مما ساعد على انتشار القمل. ويبدو أن الكتاب المقدس قد بالغ كثيراً في ذكر هذه الآيات.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُمُوسَى اادْعُ
لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ
عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ
بَنَى إِسْرَآئِيلَ ﴿١٣٥﴾

التفسير:

تشير كلمات الآية ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ إلى وعد الله ﷻ لموسى عليه السلام بأنه سوف يستجيب لأدعيته، أو إلى وعد الله تعالى بأنه سوف يغفر لمن يتوب إليه. وقد ذكر قومُ فرعون موسى عليه السلام بهذه الوعود، وطلبوا منه أن يدعو الله ﷻ لهم كي يعفو عنهم ويغفر لهم ذنوبهم ويرفع عنهم العذاب الذي حلَّ بهم.

ويمكن أن تعني كلمات الآية أيضاً: «ادعُ لنا ربَّك بالأدعية التي علَّمت إياها، أو بالطريقة التي أمرك بها».

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوءِ
إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

أَجَل: أي مُدَّة، وتعني أيضاً «نهاية المدة» انظر أيضاً الآية ٢٣٢ من سورة البقرة. إن العذاب قد رُفِعَ فقط لفترة حتى يُنَحَّ فرعون الفرصة للتوبة والامتنال لمطالب موسى عليه السلام.

فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾

شرح الكلمات:

الْيَمِّ: اسمٌ من الفعل «يَمَمَّ» أو «يَمَمَّ». تقول العرب: «يَمَّ الرجلُ» أي طَرَحَ في اليمِّ أو غرق فيه. و«يَمَّ الساحلُ» أي غلبه البحرُ فطمى عليه. و«اليمُّ»: البحر؛ والبحرُ الذي لا يُدْرِكُ قعره ولا شطاه؛ وما كان مأوّه ملجأ زعاقاً، ويُطلق أيضاً على النهر الكبير العذب الماء (لسان العرب).

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة «يَم» بمعنى البحري الآية التي نحن بصدددها، وكذلك بمعنى النهر الكبير كما في الآية ٤٠ من سورة طه. انظر أيضاً الآية ١٣٩ من هذه السورة.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ
مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ
فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٨﴾

شرح الكلمات:

يَعْرِشُونَ: مشتقة من «عَرَشَ» أي بنى بناءً من خشب لرفع الكرمة ولكي تنمو عليه؛ بنى أو شيّد بيتاً أو سقيفة أو سياج... إلخ (معجم لين). انظر أيضاً الآية ٢٦٠ من سورة البقرة والآية ١٤٢ من سورة الأنعام.

التفسير:

في الأسلوب العربي تعني عبارة ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ البلاد بأكملها. وتشير عبارة ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الأرض المقدسة التي وعد الله تعالى أن يمنحها لذرية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، كما ذكر ذلك القرآن المجيد في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٢٢)، وهي مقدسة؛ لأنها الأرض التي كان من المقدر أن يزدهر فيها بنو إسرائيل ويحققوا نجاحاً واسعاً، فينشئوا دولة عظيمة وأمة كبيرة. ويشير قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى أن وعد الله تعالى لإبراهيم ويعقوب عليهما السلام قد تحقق.

وبعني قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أن المباني والمنشآت التذكارية التي أقامها فرعون، واستغل فيها جهود بني إسرائيل ظلماً وعدواناً، قد دُمّرت في زمن الأسرة التي حكمت مصر من بعده.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى
 قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
 يُمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٩﴾

شرح الكلمات:

الْبَحْرُ: مشتقٌّ من «بَحَرَ» أي شقَّ الشيءَ أو وسَّعه. و«بَحَرَ» أي صار فسيحاً أو واسعاً (معجم لين).

وتُستخدم كلمة «البحر» غالباً لوصف البحر من حيث اتساعه وامتداده، أما كلمة «اليم» (الآية ١٣٧ أعلاه) فتُستخدم للإشارة إلى عمقه الكبير.

التفسير:

رغم أن كلمتي «البحر» و«اليم» تُعدّان مترادفتين عادةً، فإنه مما يلفت النظر أن القرآن المجيد يستعمل كلمة «اليم» عند ذكر غرق قوم فرعون، كما جاء في الآية ١٣٧، ويستعمل كلمة «البحر» عند الحديث عن نجاة بني إسرائيل عبره. وهذا يؤيد الاستنتاج بأن كلمة «البحر» تحمل معنى الاتساع، بينما تحمل كلمة «اليم» معنى العمق.

ولا يعني طلب بني إسرائيل الذي تتضمنه عبارة ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أنهم كانوا يريدون حقاً أن يعبدوا الأصنام؛ إذ إنهم، لما كانوا حديثي عهدٍ بالدين والإيمان بالله تعالى، رأوا الأصنام التي يعبدوها الوثنيون، فأرادوا أن تكون لهم أيضاً صورةً لإلههم يعبدونها. وقد أوحى لهم الأصنام بفكرة أن يكون لهم صورة لله تعالى يركّزون عليها انتباههم. والقول الذي ذكره القرآن المجيد عندما اتخذوا العجل: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ (طه: ٨٩)، يدل على أن بني إسرائيل أرادوا شيئاً ملموساً يرمز إلى إله موسى ﷺ، لكنهم لم يُريدوا التخلّي عن عبادة الله تعالى ولا اتخاذ إلهٍ معادلٍ له.

وتحمل عبارة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الجواب عن طلبهم؛ إذ من الجهل والغباء أن يظنّوا أنهم قادرون على تركيز انتباههم في عبادة الله تعالى بصورةٍ أفضل عندما يوجّهونه إلى صنم. فأولاً: إن الله ﷻ ليس كمثله شيءٌ، وثانياً: من المؤكد أن يؤدّي هذا العمل مستقبلاً إلى عبادة الأصنام بالفعل. والسبيل القويم لتركيز الانتباه في

عبادة الله تعالى هو التفكير في صفاته القدسية وتدبرها. أما أن ينحني الإنسان أمام صورة لا حياة فيها أو صنم أصم، فليس إلا مهانة أخلاقية وروحية للإنسان.

إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى عبّاد الأصنام الذين أراد بنو إسرائيل محاكاتهم. وقد بين موسى عليه السلام لأتباعه أن القوم الذين أرادوا تقليدهم في العبادة سوف يكون مآلهم الخسران والهلاك.

قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾

التفسير:

إن الخطأ الذي وقع فيه بنو إسرائيل برغبتهم في أن يكون لهم صنم يرمز إلى الله تعالى، كما لعباد الأوثان (الآية ١٣٩)، قد شُرح لهم من خلال ثلاثة أسباب مقنعة. أولاً: في الآية ١٤٠ أخبرهم موسى عليه السلام أن مآل القوم الذين أرادوا أن يتمثلوا بهم، فيتخذوا صنماً يعبدون الله من خلاله، سيكون الهلاك والخسران، ولن تنفعهم تلك الأصنام شيئاً.

ثانياً: جاء ذكر السبب الثاني في الآية الحالية، التي تُفند فكرة أن «اتخاذ أيّ شيء ليرمز إلى الله تعالى لا يُعدّ من عبادة الأصنام»؛ إذ تبين أن مثل هذه الصورة لن تكون

إلا ﴿غَيْرَ اللَّهِ﴾، ومن غير المعقول أن يتخذ الإنسان صورةً أو رمزاً لله تعالى ثم يظن أنه لا يعبد شيئاً سواه.

أما السبب الثالث فتضمّنته عبارة ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وهي تُبيّن أن من يصنع صنماً بيديه ثم يأخذ في عبادته إنما يحطّ من نفسه ويهينها، ويجعلها في مستوى متدنٍّ لا يريده الله تعالى له.

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٦﴾

التفسير:

إذا اعتبرنا أن الآية الكريمة تتعلق بزمان موسى عليه السلام، لا بالزمان الذي يسبق بعثته، فإن كلمة ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ تعني أبناءكم البالغين الذين استغلهم فرعون في الأعمال الشاقة بقصد إنهاك قواهم والقضاء عليهم. وقد اشتكى بنو إسرائيل إلى موسى وهارون عليهما السلام فقالوا لهما: «ينظر الرب إليكما ويقضي؛ لأنكما أنتتما رائحتما في عيني فرعون وفي عيون عبده حتى تُعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا» (الخروج ٥: ٢١). انظر أيضاً الآية ١٢٨ أعلاه.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ
مِّقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ

هَارُونَ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾

التفسير:

كان عددُ الليالي التي واعد الله تعالى فيها موسى ثلاثين ليلةً، ثم زادها ﷺ عشرَ ليالٍ بفضلِهِ الخالص. وفي الواقع، لقد كلمَ الله تعالى موسى ﷺ في الفترة التي حدَّدها سبحانه، وهي ثلاثون ليلةً، كما أُومئُ إلى ذلك في الآية التالية. ولم يكن تمديدُ الفترة بعشرِ ليالٍ داخلاً ضمن الوعد الأصلي، وإنما تمَّ بناءً على طلب موسى ﷺ أن يتجلى الله ﷻ له.

ولاستعمال كلمة ﴿لَيْلَةً﴾ مغزىً معيَّن؛ إذ لما كان الغرضُ من هذه الفترة أن يقضيها موسى ﷺ في التَّعبَد والتَّبتُّل إلى الله تعالى، وكان هدوءُ الليل وسكونُهُ يساعدان على ذلك أكثرَ من النهار، استُعملت كلمة ﴿لَيْلَةً﴾.

وتُبيِّن كلماتُ الآية الكريمة ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي﴾ أن هارون كان تابعاً لموسى ﷺ. فقد اعتبر موسى ﷺ بني إسرائيل «قومه»، وطلب من هارون ﷺ أن ينوبَ عنه أثناء غيابه، مما يدل على أن هارون ﷺ لم يشغل مكانةً مستقلةً عن موسى ﷺ، وإنما كان تابعاً له.

وتُشكِّل الكلماتُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ نصيحةً لهارون ﷺ بأن يكون على حذرٍ من دعاة الفساد، وأن يكون حازماً معهم.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ
أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ
نُظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِذَا اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوِّفَ

تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ
مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ
إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾

شرح الكلمات:

تَجَلَّى: مشتقٌّ من «جَلَا». يُقال: «جَلَا الأمرُ» أي وضح أو ظهر أو بدا أو انكشف أو تعرّى. و«تَجَلَّى الشيءُ» أي انفرج وتكشف وظهر. ويُستعمل «تَجَلَّى» متعدّيًا بحرف جرٍّ، فيقال: «تَجَلَّى له»، أي ظهر له في صورةٍ أسمى وأعلى. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي عندما أظهر ربُّه نفسه للجبل (معجم لين، وأقرب الموارد).

دَكًّا: مصدرٌ «دَكَ»، أي دَقَّ الشيءَ أو هدمه أو ضربه أو كسره حتى سَوَاه بالأرض. و«دَكَ الأرضَ» أي سَوَّى صعودها وهبوطها وملاً حُفَرها وسَوَّاهَا. و«دَكَّتْه الحُجَّى» أي أنهكته. و«الدَّكُّ»: ما استوى من الأرض؛ والمكانُ المستوي؛ والجبلُ المنهار؛ والرابيةُ أو الهضبةُ أو التلّ. وقوله تعالى: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ يعني جعله مستويًا بالأرض أو جعله يتفتّت (معجم لين).

التفسير:

تُلقي هذه الآيةُ الكريمة ضوءًا على أحد أهمّ الموضوعات الدينية، ألا وهو إمكان رؤية الله تعالى بالعيون المادّية؛ إذ تنفي الآيةُ إمكانَ رؤيته ﷻ بالعيون المادّية. وناهيك عن رؤية الله تعالى، فإن العيون المادّية لا تستطيع حتى أن ترى الملائكة؛ إذ يقول القرآن المجيد: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (الأنعام: ١٠).

ولما كنا لا نستطيع أن نرى الملائكة، وإنما نستطيع أن نرى تجليًا لهم، فكذلك لا يمكننا إلا أن نرى تجليًا لله تعالى، لا ذاته سبحانه. لذلك فمن غير المعقول أن نبيًّا عظيمًا مثل موسى ﷺ، بكل ما آتاه الله تعالى من علمٍ بصفاته ﷻ، يرغب في أمرٍ يعلم أنه

مستحيل الحدوث. لقد كان موسى ﷺ يعلم أن ما يمكن أن يراه هو تجلُّ لله ﷻ، لا الله تعالى نفسه.

وقد رأى من قبل تجلياً لله تعالى في النار عندما كان مسافراً من مدين إلى مصر، إذ يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٣٠). فما الذي عناه موسى ﷺ بطلبه حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؟.

يبدو أن هذا الطلب كان يتعلق بالتجلي الأكمل لله تعالى، الذي كان من المقدر أن يحدث في زمن الرسول ﷺ، الذي كان من المقدر أيضاً أن يكون مثيلاً لموسى ﷺ؛ إذ تلقى موسى ﷺ وعداً من الله تعالى بأنه سوف يُقيم من بين إخوة بني إسرائيل نبياً مثيلاً له، ويجعل الله تعالى كلامه في فمه (انظر سفر التثنية ١٨: ١٨-٢٢). وقد دلت كلمات ذلك الوعد على تجلُّ لله أعظم وأجل مما تجلَّى به سبحانه على موسى ﷺ؛ ومن ثمَّ كان من الطبيعي أن يكون موسى ﷺ تَوَاقفاً لرؤية ذلك المجد والعظمة.

ولذلك طلب أن يتجلَّى الله تعالى عليه بشيءٍ من المجد والعظمة التي سيتجلَّى بها على ذلك النبي العظيم الذي سيأتي في المستقبل. غير أن ذلك التجلي كان أقوى وأشدَّ من أن يحتمله موسى ﷺ، ولذلك لم يكن من الممكن أن يقع ذلك التجلي في قلبه. ولهذا قال له الله تعالى أن يرى هذا التجلي على الجبل. غير أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الجبل سيستقبل ذلك المجد العظيم؛ فبحسب ما جاء في القرآن المجيد، كان من المؤكد أن قلب موسى ﷺ أقدر على تحمُّل التجلي الإلهي من الجبل، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (الأحزاب: ٧٣).

ولم يكن الجبل إلا الموضع الذي وقع فيه ذلك التجلي العظيم، غير أن هذا التجلي كان من الشدة والعظمة بحيث إن الجبل نفسه اهتزَّ له اهتزازاً شديداً.

إن تأثير ذلك التجلي على الجبل كان يماثل ما شعر به أحد صحابة الرسول ﷺ حين كانت رأس النبي ﷺ تستند إلى فخذه عند نزول الوحي عليه من الله تعالى؛ إذ شعر الصحابي بثقلٍ شديدٍ على فخذه حتى خشي أن تنسحق عظامه.

ولم يستطع موسى ﷺ أيضاً تحمّل رؤية ذلك التجلي العظيم للقدرة والجلال الإلهي، فخرَّ صِعْقاً، رغم أنه تلقى تحذيراً بأن الجبل سوف يتزلزل زلزلاً شديداً. وبذلك أدرك موسى ﷺ أنه لا قدرة له على تحمّل هذا التجلي العظيم للمجد الإلهي الذي سوف يحدث فيما بعد على قلب الرسول ﷺ.

ولهذا، ما إن أفاق حتى قال: ﴿سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وتعني هذه الكلمات أنه أدرك أنه لا قدرة له على تحمّل ذلك التجلي الكامل للمجد الإلهي الذي سيتحقّق من خلال ذلك النبي الموعود ﷺ، وأنه لذلك أوّل المؤمنين بذلك النبي العظيم الذي سيحوز هذا المقام الروحي الجليل.

وقد أُشير أيضاً إلى إيمان موسى ﷺ بالرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (الأحقاف: ١١).

يجب أن لا يؤخذ قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ حرفياً على ظاهره، لأن الجبل لم يتحطم فعلياً، وإنما استعملت هذه العبارة على سبيل المجاز للدلالة على شدة زلزلة الجبل.

كذلك يجدر ملاحظة أن الله تعالى قال لموسى: ﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ وأخبره سبحانه: ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾. فوضّع هذا الشرط يدل على أن موسى ﷺ لم يطلب شيئاً مستحيلاً؛ لأن وضع شرط لتحقيق أمرٍ مستحيلٍ لا معنى له.

وتشير عبارة ﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ إلى أنه كان عليه أن ينظر إلى خارج نفسه؛ لأن ذلك التجلي لا يمكن أن يتحقّق في قلبه. ويدلّ سقوط موسى ﷺ صِعْقاً على أنه رأى شيئاً من ذلك التجلي، الذي لم يكن إلا قبساً غير مكتمل.

فإن التجلي الإلهي الذي يحدث في القلب يكون مستديماً ويستمر أثره، أما التجلي الذي يحدث في الخارج فيكون لحظياً عابراً.

وقد أشار الكتاب المقدس إلى طلب موسى عليه السلام أن يرى الله تعالى في سفر الخروج ٣٣: ١٨.

قَالَ يُمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ
مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

التفسير:

لقد وجه الله تعالى إلى موسى عليه السلام هذه الكلمات الطيبة المذكورة في هذه الآية الكريمة بغرض مواساته بعد أن أدرك أنه لن يستطيع الوصول إلى ذلك المقام الروحي العالي الذي كان من المقدّر أن يصل إليه ذلك النبي العظيم من بيت إسماعيل عليه السلام. وطلب منه ألا يطمع في الحصول على هذه الكرامة العليا المحفوظة «لذلك النبي»، بل أن يقنع بالمقام الذي اصطفاه الله تعالى له، وأن يكون من الشاكرين على ما حباه إياه من نعمة وفضل.

وتؤكد كلمات الآية ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أن موسى عليه السلام لم يطلب أن يرى ذات الله تعالى، وإنما رغب في رؤية تجلّ الله تعالى أعلى وأعظم مما ناله.

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مُّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ

وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٦﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿كَتَبْنَا﴾ هنا لا تعني أن الله تعالى كتب لموسى ﷺ الوصايا بيده في الألواح؛ وقد استعملت الكلمة نفسها في موضع آخر من القرآن المجيد، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٦).

وفي الحقيقة، كان موسى ﷺ هو الذي كتب في الألواح الوصايا التي تلقاها على الجبل، لأن الله تعالى كتبها بيده؛ غير أنه لما كانت تلك الوصايا من وحي الله تعالى، نُسب إليه سبحانه فعل الكتابة. ومن الممكن كذلك أن تعني كلمة ﴿كَتَبْنَا﴾ هنا أيضاً «أمرنا» أو «فرضنا».

ولا تعني عبارتا ﴿مَنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ كلَّ شيءٍ على وجه الإطلاق، وإنما تعنيان - على التوالي - : كلَّ ما كانت هناك حاجةٌ إلى العظة فيه في زمن موسى ﷺ، وكلَّ ما كان ينبغي شرحه لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يشير إلى مبدأٍ ذهبيٍّ للتقدُّم الفرديِّ والقوميِّ. فإن لتعاليم الأنبياء درجاتٍ مختلفةً؛ فبعضُها موجَّهٌ لضعاف الإيمان، وبعضُها الآخر للمؤمنين الراسخين فيه، الذين يُتَوَقَّع منهم أن يكونوا على مستوى عالٍ من التقوى والفضيلة.

وهنا يأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يحثَّ قومه على السعي للوصول إلى أسمى مراتب الفضيلة، وألا يكتفوا بمجرد العمل بالتعاليم الموجَّهة لضعاف الإيمان.

وَتُبَيِّنُ الْآيَةَ ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَنَّهُ سَيَتِمُّ قَرِيبًا تَمْيِيزُ الطَّائِعِينَ مِنَ الْعَصَاةِ. وَفِي زَمَنِ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ كَانَ فِيهِمْ مِنْجٌ مِنْ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ النَّاسِ، خَرَجُوا هَارِبِينَ خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ.

فَلَمَّا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى الشَّرِيعَةَ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، صَارَتْ تِلْكَ الشَّرِيعَةُ سَبَبًا لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّادِقِ وَالكَاذِبِ. فَمَنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ الْمَخْلُصِينَ أَطَاعَ أَوْامِرَ الشَّرِيعَةِ، أَمَّا الَّذِينَ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ تَفْتَقِدُ الْإِيمَانَ فَقَدْ أَهْمَلُوا الْعَمَلَ بِهَا وَتَحَدَّوْا تَعَالِيَهَا. وَبِهَذَا تَمَّ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْفَاسِقِينَ. وَكَلِمَةُ ﴿دَارَ﴾ تَعْنِي الْمَكَانَةَ أَوْ الْمَقَامَ.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا
آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٧﴾

التفسير:

توضح هذه الآية الكريمة المعنى الحقيقي لكلمة ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ الواردة في الآية السابقة.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾

التفسير:

تُشكِّل هذه الآية الكريمة تحذيراً للناس جميعاً؛ إذ ينبغي للمرء ألا يحيا على الآمال الطيبة، فالأعمال الطيبة وحدها هي التي يكون لها وزن عند الجزاء.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا
جَسَدًا لَهُ خُورَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٩﴾

التفسير:

لقد أدانت الآية الكريمة العجل، واستنكرت أن يكون إلهاً؛ لأنه لا يُكَلِّم عباده ولا يهديهم سبيلاً. وهذا يُبين أن الإله لا يكون إلهاً حقاً إلا إذا كان يُكَلِّم عباده ويرشدهم. ويدل ذلك على الخطأ الواضح الذي وقع فيه أولئك الذين يظنون أن الله تعالى، الذي كان يُكَلِّم عباده ويتجلى على أصفائه في الزمن الماضي، قد توقّف عن ذلك الآن. ومن حماقة القول إنه لا ضير في أن يتوقّف الله تعالى عن الكلام الآن، بعد أن كان يتكلّم ويوحى إلى عباده الصالحين في الأزمنة الماضية. ولو كان لهذه المقولة أي وزن، لكان من حقّ عبّاد العجل أن يقدموا حُجّةً مماثلةً بشأنه. والحقيقة أنه لا يمكن أن تتوقّف صفةٌ من صفات الله تعالى، ولا أن تتعطل عن العمل.

إن نعمة تلقى الوحي من الله تعالى ممكنة اليوم كما كانت ممكنة في الماضي، وإن من يعتقدون أن الوحي قد توقف مخطئون خطأ فادحاً. فالله تعالى لا يزال يتكلم الآن كما كان يتكلم في الماضي، ويستطيع من تتوافر فيه شروط الاستعداد والقرب من الله أن يسمع كلامه سبحانه الآن أيضاً.

ولو افترض أحد أن الله ﷻ قد امتنع عن الكلام، فإنه يحط من قدره، ويُنزله إلى مستوى العجل الذي لا يُكلم عباده — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومن السخافة بمكان التذرع بأنه ما دام الدين قد اكتمل، فلا ضرورة لأن يُكلم الله تعالى أحداً من عباده بعد الرسول ﷺ؛ فالوحي لا يأتي من الله ﷻ لمجرد إحصار شريعة جديدة فحسب، بل إن الهدف من الوحي في المقام الأول هو بعث الحياة الروحية في الإنسان، والوصول به إلى قرب ربه وخالقه.

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٠﴾

شرح الكلمات:

سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ: «سَقَطَ» أي: وقع من علو إلى أسفل. و«سَقَطَ فِي كَلَامِهِ»: أخطأ. و«سَقَطَ فَلَانٌ مِنْ عَيْنِي»: صار حقيراً عندي. و«سَقَطَ فِي يَدِهِ»: زَلَّ وأخطأ؛ نَدِمَ؛ تحيّر. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ يعني أنهم ندموا وتحسروا بشدة، أو أنهم ضربوا بأَكْفِهِمْ على أيديهم من شدة الندم. ويمكن أن يُقرأ بالفتح، أي: «سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ»، بمعنى: سقط الندم في أيديهم، أي صار ندمهم ظاهراً. والفعل «سَقَطَ» لازمٌ - غير متعدٍّ - ولكن في الآية التي نحن بصددتها جاء متعدِّدٌ، وهذا الاستعمال

مسموحٌ به في أحوالٍ نادرة، كما في التعبير «تمرّة مسقوطة»، أي: ساقطةٌ (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

إن فريقاً من أولئك الذين اتخذوا العجل شعروا بالحنجل من فعلهم، وتابوا إلى الله تعالى قبل عودة موسى عليه السلام، فنجوا. وأما الفريق الآخر فلم يتوبوا، ولذلك هلكوا، وقد جاء وصفهم هنا بأنهم كانوا من ﴿الْخَاسِرِينَ﴾.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا
قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ
يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا
تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

شرح الكلمات:

فَلَا تُشْمِتْ: «تُشْمِتُ» مشتقة من «أَشْمَتَ»، وهي بدورها مشتقة من «شِمَتَ». يُقال: «شِمَتَ به» أي فرح العدو ببليته. و«أَشْمَتَهُ اللهُ به» أي جعله الله يفرح ببليته عدوه. و«شِمَتَ على العاطس» أي دعا له بقوله مثلاً: «يرحمك الله»، أو دعا له ألا يكون في حالٍ يُشْمِتُ به فيها (معجم لين).

التفسير:

لَمَّا تَأَخَّرَتْ عودة موسى ﷺ بسبب الليالي العشر الإضافية، فقد قَوْمُهُ الصَّبْرَ على غيابه، وظنُّوا أَنَّهُ قد قُتِلَ إلى الأبد. وقد عبَّروا عن نفاذ صبرهم بالقول الذي ذكره الكتاب المقدَّس: «ولَمَّا رَأَى الشعب أَن موسى أَبْطَأَ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلِهَةً تسير أَمَامَنَا، لأن هذا موسى الرجل الذي أَصْعَدَنَا من أرض مصر لا نعلم ماذا أَصَابَهُ» (الخروج ٣٢: ١).

وبحسب الكتاب المقدَّس، أَلْقَى موسى ﷺ الألواح من يديه وكسَّرها في أسفل الجبل (الخروج ٣٢: ١٩)، واقتضى الأمر إعادة نحت ألواح جديدة ثم كتابتها (الخروج ٣٤: ١). ولكن هذا لا يُؤَيِّدُهُ القرآن المجيد، الذي يقرِّر أَنَّهُ ﴿أَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ فقط، وهذا أَكْثَرُ اتِّفَاقًا مع كرامة النبيّ.

وقد أَخَذَ موسى ﷺ بِرَأْسِ أَخِيهِ، لا لأن هارون ﷺ حرَّضَ على عبادة العجل، كما ينسب الكتاب المقدَّس إليه ذلك (الخروج ٣٢: ٢-٤)، ولكن لأنَّهُ لم ينجح في منع الناس من عبادته. وكان ينبغي عليه، بصفته خليفةً لموسى ﷺ، أَن يمنع الناس من عبادة الأصنام، لكنه فشل في ذلك. وكان هذا هو السبب الذي دفع موسى ﷺ إلى الغضب من أَخِيهِ، لا لأنَّهُ ارتكب خطيئةً أو اقترفَ إثْمًا، وإنما لأنَّهُ فقد السيطرة على الناس وفشل في توجيههم الوجهة الصحيحة أثناء غياب موسى ﷺ.

كان هارون ﷺ يَأْمُلُ أَن يَتِمَّكَنَ موسى ﷺ من إعادة الأمور إلى نصابها عند عودته، وكان هذا خطأً في التقدير أو في التصرف من جانبه، لكنه لم يكن خطأً دينيًّا ولا معصيةً للشريعة.

وتدلَّ أيضًا الطريقة التي عامل بها موسى أَخَاهُ هارون ﷺ على أَن هارون كان تابعًا لموسى. غير أَن هذه المعاملة لا ينبغي أَن تُفْهَمَ على أَنها مظهرٌ للقسوة أو الغلظة من جانب موسى ﷺ؛ فقد كان لغضبه ما يبرِّره، إذ اقْتَرِفَ إِثْمٌ عَظِيمٌ، ودُسِّسَتِ

المقدّسات، وتعرّضت ثمرة عمل حياته كلّها للخطر. ولمّا كان هارون عليه السلام تابِعاً له، كان من حقّ موسى عليه السلام أن يتّخذ إجراءً تأديبياً مع أخيه.

وقول هارون لموسى عليه السلام: ﴿ابْنَ أُمٍّ﴾ لا يعني أنه كان أخاً له من جهة الأم فقط، وإنما أراد أن يثير مشاعر العطف والرحمة لدى أخيه، فخاطبه بهذا الأسلوب، وقد نجح في ذلك.

واستخدام الحرف ﴿مَعَ﴾ في كلام هارون عليه السلام ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يساعد على بيان دلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء: ٧٠)، فهناك - كما هو الحال هنا - يفيد الحرف ﴿مَعَ﴾ معنى «مِنْ».

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ
وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٢﴾

التفسير:

لم يلبث موسى عليه السلام أن أدرك براءة أخيه، فشمله في دعائه مع نفسه، ليغفر لهما الله تعالى ويدخلهما في رحمته.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٣﴾

التفسير:

ولمّا كان هارون عليه السلام بريئاً من اتخاذ العجل، لم ينله غضب من الله تعالى ولا ذلّة في الحياة الدنيا، كما كان جزاء الخاطئين المفترين. وهذا يُبرئ هارون عليه السلام من أيّ تواطؤ في عبادة العجل. ولا شك أن الرواية التي جاءت في الكتاب المقدس بهذا الخصوص غير صحيحة، كما اعترفت بذلك دائرة معارف الكتاب المقدس، المجلد الأول، العمود الثاني.

في الواقع، لم يُعاقب إلا من كان له الدور الرئيس في صنع تمثال العجل واتخاذِهِ معبوداً. وأمّا الباقون الذين ضلّلوا بواسطة قادة هذا الأمر ثم تابوا فيما بعد، فقد غفر الله تعالى لهم، كما تضمّنت ذلك الآية التالية.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا
وَأَمَّنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٤﴾

التفسير:

إن إضافة كلمة ﴿وَأَمَّنُوا﴾ بعد كلمة ﴿تَابُوا﴾ لها مغزى خاص، وذلك لأن بني إسرائيل كانوا مؤمنين، مما يجعل كلمة ﴿وَأَمَّنُوا﴾ تبدو كأنها في غير محلّها. غير أن من السهل إزالة هذا الإشكال؛ فإن أولئك الذين اتخذوا العجل قد خالفوا في الحقيقة «إيمانهم»، ولذلك لم تكف توبّتهم، بل كان عليهم أن يجددوا إيمانهم ويزيدوه قوّة وثباتاً أيضاً، لأن الإيمان الحقّ وحده ينبوع كلّ عملٍ صالح.

ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا﴾ لبيان أن أولئك الذين لم يقتصروا على الندم على ما اقترفوا من آثام، بل قاموا أيضاً بالأعمال التي من شأنها تقوية إيمانهم بالله تعالى وتثبيتته، هم وحدهم الذين تنالهم مغفرته.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ
الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٥﴾

شرح الكلمات:

سَكَتَ: أي سكن، أو صمت، أو خمد، أو خرس، أو صار هادئًا، أو مات. ويُقال: «سَكَتَ غضبه»، أي سكن وهدأ. و«سَكَتَ عنه الغضب»، أي فتر غضبه وغادره (معجم لين).

نُسخَتِهَا: «نُسخة» مشتقة من «نسخ» بمعنى: (١) ألغى، أو أزال، أو أبطل، أو مسح الشيء؛ (٢) نقل أو اكتب الكتاب حرفًا بحرف. و«النسخة» هي الكتاب المنقول منه، أو الكتاب المنقول (معجم لين).

التفسير:

تُبَيِّن هذه الآية الكريمة أن موسى عليه السلام لم يكسر الألواح كما يدعي الكتاب المقدس؛ فلو كانت الألواح قد تكسرت، فكيف أخذها موسى عليه السلام مرةً أخرى؟ وتوهم أيضًا كلمة «نُسخَتِهَا» - التي سبق شرحها - إلى أن موسى عليه السلام لم يتسلم من الله تعالى ألواحًا مكتوبةً، وإنما قام هو نفسه بكتابتها تحت توجيه وحي الله تعالى.

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا
أَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ
مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ
مِّنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ

وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِئِنَّا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٦﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿السُّفَهَاءُ﴾ هنا لم تأتِ بمعناها العام، ولكن بمعنى السفاهة فيما يختص بأمر الله تعالى، أي: «الجهلاء»؛ إذ إن كلَّ عملٍ من أعمال المعصية إنما ينتج عن الجهل، حتى وإن كان متعمداً.

أما أولئك الذين استطاعوا تحجيم تأثير هارون عليه السلام فلا يمكن أن يوصفوا بأنهم «سفهاء» بالمعنى العادي للكلمة، وإنما يُطلق عليهم لفظ «السفهاء» بمعنى «الجهلاء»، لأنهم لم يكن لديهم الحسُّ اللازم ولا الذكاء الذي ينبغي وجوده لفهم كلام الله تعالى. لقد كانت واقعةُ اتخاذِ العجل هي المناسبةُ الأولى التي تمَّ فيها التفريقُ بين الصالحين والطارحين، وبذلك تحققت النبوءة التي جاءت في الآية ١٤٦، حيث قال تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ
أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٥٨) يحتوي على شقين:

فالشق الأول، أي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، يعود إلى المخلصين من بني إسرائيل الذين صدقوا في إيمانهم بموسى عليه السلام وتمسكوا بالتقوى في أعمالهم الصالحة.

وأما الشق الثاني، أي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، فيعود إلى المؤمنين بالأنبياء الذين سبعتهم الله تعالى فيما بعد، ولا سيما رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم الذي تشير إليه الآية التالية.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوَلِّيكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٨﴾

شرح الكلمات:

أُمِّي: مشتقٌّ من «أَمَّ». يُقال: «أُمَّهُ» أي ذهب إليه، أو قصده، أو حاول الوصول إليه. ويُقال: «ما كنتِ أُمًّا، ولقد أُممتِ» أي رغم أنك لم تكوني أُمَّهُ، فإنكِ كنتِ كالأمِّ له. و«أُمِّي» يُطلق على من انتسب إلى الأمِّ أو اتصل بها، أي كان بريئاً كالطفل الرضيع من ثدي أُمِّه. ويُطلق أيضاً على: من ليس له كتابٌ موحى به من الله - وخاصةً من العرب -؛ ومن لا يعرف الكتابة والقراءة؛ ومن ينتمي إلى «مَكَّة» التي كانت تُعرف بـ«أُمِّ القرى». راجع أيضاً الآية ٢١ من سورة آل عمران.

أَغْلَال: جمع «غُلٍّ»، مشتقٌّ من «غَلَّ». يُقال: «غَلَّ فلاناً» أي وضع في يده أو عنقه قيداً أو طوقاً، إلخ. و«الغُلُّ» طوقٌ من حديد يُجعل في اليد أو العنق؛ وقيدٌ لليد أو العنق؛ والأصفاذ التي تُقيّد اليدين إلى العنق؛ ويُطلق مجازاً على العمل المضني أو الصعب. ويقول العرب: «هذا غُلٌّ في عنقك» أي لازمٌ لك، وأنت مُجازى عليه بالعذاب (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تُوضح هذه الآية الكريمة وتفسر الجملة الأخيرة من الآية السابقة، أي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتذكر الآية كلمتي «الرسول» و«النبي» جنباً إلى جنب، مما قد يوحي للبعض بإمكانية أن يكون أحد مبعوثي الله رسولاً دون أن يكون نبياً، أو العكس. ولكن الأمر ليس كذلك؛ فرسولُ الله تعالى هو نبيُّه أيضاً. وتُطلق كلمة «رسول» على مبعوث الله تعالى فيما يختص بعلاقته بالله، من حيث كونه يحمل رسالةً منه سبحانه، بينما تُطلق عليه كلمة «نبي» فيما يختص بعلاقته بالناس الذين يُنبئهم بهذه الرسالة؛ إذ إن كلمة «نبي» تعني الشخص الذي يُنبئ عن الله تعالى، أو الذي يُخبر عما خفي من أسرار وأُمور الغيب.

وكلمة «الأمِّي» تعني حرفياً «الذي ينتمي إلى الأم»، أي البريء براءة الطفل الوليد. وقد أُطلق لفظ «الأمِّي» على النبي الموعود، أي رسول الإسلام ﷺ، لأنه كان بريئاً من كل ذنب، براءة الطفل الوليد في حضن أمّه. وقد تُرجمت هذه الكلمة بمعانٍ أخرى، منها: «الذي لا يعرف القراءة والكتابة»، و«الذي ينتمي إلى مكة أم القرى»، و«العربي». غير أن «البريء» أو «الطاهر من الإثم» أنسب معنى لهذه الكلمة، خاصةً أنها تتفق مع روح النبوة الواردة في سفر التثنية (١٨: ١٨-٢٢)، والتي تشير إليها هذه الآية بوجهٍ خاص، وفيها ذكر الصدق المطلق سمةً مميزةً للنبي الموعود ﷺ.

ولمراجعة بعض النبوءات التي ذكرها الكتاب المقدس عن الرسول ﷺ يمكن مراجعة تفسير الآية ٤٢ من سورة البقرة، وإنجيل متى ٢٣: ٣٩، وإنجيل يوحنا ١٤: ١٦، ٢٦: ١٦: ٧-١٤؛ وأعمال الرسل ٣: ٢١-٢٤.

وإذا أخذت كلمة «أمِّي» بمعنى «الذي لا يعرف القراءة والكتابة»، فإن الآية تفيد أنه رغم أن الرسول ﷺ لم يتلقَّ تعليمًا قط، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة، فإن الله تعالى آتاه من المعارف ما به يمنح النور والهداية لأولئك الذين يُعدّون أكثر الناس تقدّمًا في التعليم والتنوير.

إن «أمّية» الرسول ﷺ المذكورة في هذه الآية - والتي أُشير إليها أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ (يونس: ١٧) - قد تعرّضت لكثير من النقد العدائي. ويكتب جورج سيل (George Sale)، أحد مفسري القرآن المعروفين، ما يلي:

«لقد بلغ محمد عمراً كبيراً قبل أن يحمل مهمة النبوة، وخلال تلك الفترة كان رجال بلده يعلمون جيداً أنه لم يتعلّم شيئاً على الإطلاق، ولم يتردّد على مجالس العلماء، ولا مارس قطّ قرض الشعر أو فنون الخطابة التي يمكن بها أن يكتسب رشاقة الكلام» (المناقشة المبدئية، القسم الثاني).

ويشير مفسر آخر، وهو القسيس ويري، إلى مقولة سيل، فيقول:

«إن وجهة النظر هذه لا تتفق مع ما هو مسجّل من تاريخه السابق. فهل يُحتمل أن يكون قد تربّى في البيت نفسه الذي نشأ فيه عليّ، الذي كان يعرف القراءة والكتابة، ومع ذلك لا يكون قد تلقّى تعليمًا مماثلاً؟ وهل كان من الممكن له أن يمارس التجارة لسنوات دون أن يكون على معرفة ببعض الحروف؟ ومن المؤكد أنه كان يعرف القراءة والكتابة في السنوات الأخيرة، إذ يُروى في أحد الأحاديث أنه قال لمعاوية - وكان من كتّابه - : اكتب حرف الباء مستقيماً، وقسّم حرف السين تقسيماً مناسباً، إلخ. وأنه في لحظاته الأخيرة طلب أدوات للكتابة. والسؤال هنا: متى اكتسب هذه المهارة؟ إن المفسّرين يقولون إن الله أعطاه القدرة على ذلك كما أعطاه الإلهام، ويستدلّون بالآية ٤ من سورة العلق: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، وهي من أوائل ما نزل من القرآن. ومن المؤكد أن هذه الآية تدلّ أنه يجيد الكتابة، كما كان يجيد القراءة، وهي لا تذكر أبداً أنه لم يتلقَ هذه المعرفة من قبل، أو أنه لم يتلقّها بالطريقة المعتادة. كما أن استخدامه للكتابة لا يتعارض مع معرفته بالكتابة، إذ كان استعمال الكتابة في ذلك الزمن شائعاً حتى بين العلماء أو أكثر الناس علماً ومعرفة. غير أن شهادة العديد من الأحاديث، والمفهوم العام لدى المسلمين، يقفان على خلاف ذلك. فكيف يمكن تفسير هذا؟ أميل إلى الظن بأن هذا المفهوم قد نشأ من سوء فهم وذلك لوصفه المتكرر بـ«النبيّ الأمّيّ»، أو بالأحرى «نبيّ الأمّيّين»، إذ كان اليهود يطلقون بشكل عام لفظ «الأميين» على العرب. (انظر تفسير الآيتين ٨٥ و٨٦ من سورة النساء). وقد ساهم سوء الفهم هذا في تعزيز ادعاءات محمد، لأن معجزة أسلوب القرآن الفريد سوف تزداد قيمتها عند الأخذ في الاعتبار أن النبي كان أمياً. وعلى وجه العموم، فإن لدينا سبباً وجيهاً للاعتقاد بأن محمداً قد أحاط نفسه علماً بفن القراءة والكتابة في مرحلة متقدمة من حياته» (تفسير القرآن، ج ٢، ص ٣٢٦).

إن ما سبق يُمثّل ملخصاً لنقد القسّ ويرى لحقيقة أن الرسول ﷺ كان أمياً، غير أن هذه المزاعم التي ساقها تبدو بلا أساس ولا وزن. وإنه لاستدلالٌ باطلٌ ذلك الذي

يزعم فيه أن الرسول ﷺ قد تعلّم وتربّى في البيت نفسه مع عليّ ﷺ، الذي كان يُجيد القراءة والكتابة، وبناءً على ذلك فلا بدّ أن يكون هو الآخر قد تعلّم القراءة والكتابة. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدلّ على الجهل المطبق بأبسط الحقائق المتعلقة بحياة الرسول ﷺ. فحتى المعرفة السطحية بسيرة النبيّ الكريم ﷺ تكفي لإدراك أن عليّاً ﷺ والنبيّ ﷺ لم يتربّيا معاً؛ إذ كان بينهما فارقٌ في العمر، فالرسول ﷺ يكبر عليّاً ﷺ بما لا يقلّ عن تسعةٍ وعشرين عاماً، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون الاثنان قد نشأ وتربّيا سوياً.

إن الذين لم يُعمّمهم التعصّب المقيت عن رؤية حقائق التاريخ الواضحة يعلمون جيداً أنه - ناهيك عن أن النبيّ ﷺ لم يتربّ ولم يتلقَ تعليمه مع عليّ ﷺ، وهو أمر لا يمكن إنكاره في ظلّ فارق العمر الكبير بينهما - فإن عليّاً ﷺ هو الذي تربّى في بيت الرسول ﷺ وتحت رعايته (ابن هشام).

لقد كان أبو طالب، الذي تربّى الرسول ﷺ في بيته، رجلاً فقيراً قليل الموارد، ولم يكن يُقدّر قيمة العلم والمعرفة، كما لم يكن العلم والمعرفة يُعدّان مما يحرص الناس على التحلّي به في زمنه؛ ولذلك ظلّ الرسول ﷺ أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

أمّا عليّ ﷺ فقد تربّى في بيت الرسول ﷺ نفسه، بعد أن تزوّج من السيدة خديجة ﷺ، السيدة الثرية التي وضعت كلّ ما تملك تحت تصرفه. ولما كان ﷺ يُدرك تماماً أهمية التعليم وأن قيمته لا تُقدّر بثمن، وكان عليّ ﷺ تحت عنايته الحميدة وتأثيره العظيم الفعّال، كان من الطبيعي أن ينشأ عليّ ﷺ شاباً ذا تعليم جيّد، بالنظر إلى معايير زمنه.

والاعتراض الثاني الذي ساقه القسّ ويرى هو أنه لو كان الرسول ﷺ أمياً حقاً، ولا يُجيد القراءة والكتابة، لما استطاع أن يكون رجل أعمال ناجحاً كما كان بالفعل. وقد نشأ هذا الاعتراض من تصوّر الخاطئ عن الرجل العربيّ الناجح في العمل والتجارة في زمن الرسول ﷺ.

لقد حكم ويرى بمعايير أوروبا الحديثة لرجل الأعمال الناجح، فظن أن النجاح في العمل والتجارة لا يمكن أن يجتمع مع فقدان القدرة على القراءة والكتابة. وما كان ليُبدى مثل هذا الاعتراض لو أنه علم أن في آسيا - حتى في القرن العشرين - كان هناك كثيرٌ من رجال الأعمال الذين بلغوا أعلى درجات النجاح، رغم أنهم لم يتلقوا حتى التعليم الابتدائي.

وفي مكة، في زمن الرسول ﷺ، لم يكن للتعليم سوقٌ رائجة، ولم يكن هناك سوى حفنةٍ من الأفراد الذين يُجيدون القراءة والكتابة، مع أن هناك مئاتٍ من الأشخاص الذين كانوا يشتغلون بالتجارة وحققوا نجاحاتٍ كبيرة؛ فلم يكن التعليم آنذاك شرطاً أساسياً لرجل الأعمال الناجح.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن حقيقة أن السيدة خديجة رضي الله عنها قد أعطت محمداً ﷺ خادمها «ميسرة» - الذي كان يُجيد القراءة والكتابة، وكان يُرافقه في رحلاته التجارية - تكفي لنسف الاعتراض الذي ساقه ويرى من أساسه.

أما الحديث الذي يذكر القس ويرى أنه قد جاء فيه أن الرسول ﷺ أمر معاوية رضي الله عنه أن يكتب حرفي الباء والسين بوضوح، فهو حديثٌ لم تثبت صحته. ففي زمن الخلافة العباسية وُضعت أحاديثٌ كثيرةٌ تحط من شأن بني أمية، ويبدو أن هذا الحديث قد وُضع بقصد الإساءة إلى معاوية رضي الله عنه، أحد رجال بني أمية، وتصويره شخصاً ضعيف التعليم، حتى إنه لم يكن ليستطيع أن يكتب حرف الباء أو السين كتابةً صحيحةً.

وحتى لو ثبتت صحة هذا الحديث، لما كان ذلك دليلاً قاطعاً على أن النبي ﷺ لم يكن أمياً، أو أنه كان يُجيد القراءة والكتابة؛ إذ إنه كان قد اعتاد إملاء القرآن الكريم، ومن غير المتصور ألا يكون قد ألف رؤية أشكال الحروف، وبالتالي كان يمكنه أن يُوجه الكاتب إلى تصحيح شكل بعض الحروف.

ومن الممكن أيضاً أن يكون أحد الصحابة قد قرأ على الرسول ﷺ شيئاً من القرآن الكريم، فلعله توقف عند موضع معين لعجزه عن التعرف على كلمة ما، فلما سأل الرسول ﷺ عن سبب توقفه، قال القارئ إنه لم يستطع في الحال التعرف على الكلمة، لأن حرفي الباء والسين لم يكونا مكتوبين بطريقة واضحة، فكان ذلك سبباً في توجيه النبي ﷺ معاوية إلى الحرص على كتابة هذين الحرفين كتابةً صحيحةً.

كذلك فإن حقيقة أن النبي ﷺ قد أرسل يطلب قلماً وأوراقاً في اللحظات الأخيرة من حياته لا تدلّ على صحة الافتراض الذي ساقه ويرى. فمن الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ كان دائماً يطلب قلماً وأوراقاً كلما نزل عليه الوحي، ويأمر أحد الكتبة أن يَدُون ما أُوحي إليه. إن مجرد طلب أدوات الكتابة في حدّ ذاته لا يمكن أن يكون دليلاً على أن الرسول ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة.

وأيضاً لا تدلّ كلمات الآية التي ساقها القس ويرى على صحة رأيه؛ فإن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ لا يعني بالضرورة معرفة القراءة والكتابة. فكلمة ﴿اقْرَأْ﴾ المذكورة في الآية لا تعني قراءة شيء مكتوب فحسب، وإنما تعني أيضاً ترديد ما يسمعه المرء من شخص آخر. وكذلك فإن عبارة «هو يُحَسِّن القراءة» التي وردت في أحد الأحاديث يمكن أن تُقال حتى في حق شخص أعمى يُحَسِّن تلاوة القرآن الكريم تلاوةً حسنةً جميلةً.

كما أن الحديث الشريف يُبين أنه عند نزول الآيات الأولى من القرآن الكريم، وعندما قال جبريل ﷺ للنبي ﷺ «اقرأ»، لم يُقدِّم شيئاً مكتوباً أمامه ليقراً منه، وإنما طلب منه أن يُردّد شفهيّاً ما كان يتلوه. وهكذا يتبين أن كلمة «قراءة» لا تعني فقط تلاوة شيء مكتوب، وإنما تعني أيضاً ترديد ما يقوله شخص آخر.

إن استنتاج القس ويرى بأن فكرة عدم معرفة الرسول ﷺ القراءة والكتابة قد نشأت في الأصل من سوء فهمٍ لادّعاءه المتكرر بأنه «النبي الأمي» هو استنتاج غريب حقاً، كما أنه بلا أساس.

فمن الغريب حقاً أن أولئك الذين عاشوا معه أياماً وليالي وسنواتٍ طوالاً لم يستطيعوا أن يكتشفوا أنه أُمِّيٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ثم - بعد أن أخذ يردّد وصف نفسه بأنه «النبيُّ الأُمِّيُّ» - استطاع، بحسب زعم ويري، أن يُضللّهم ويدفعهم إلى سوء الفهم الذي يدّعيه.

إن رجلاً مثل ويري، بأسلوبه المتحامل والمتعصّب، هو وحده الذي يمكن أن يصل إلى مثل هذا الاستنتاج. والسؤال هنا: هل كان المعاصرون للرسول ﷺ هم الذين وقعوا في سوء الفهم هذا، أم الذين أتوا من بعدهم؟

فإن قيل إن المعاصرين هم الذين أساءوا الفهم، فإن السؤال المنطقي الذي يثور هو: كيف يمكن لهؤلاء الذين رأوه بأعينهم - على فرض أنه كان يقرأ ويكتب كما يدّعي ويري - أن يقعوا في سوء فهمٍ يخالف الحقيقة الواضحة، ويعتقدوا أنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب؟

وأما إذا قيل إن الذين وقعوا في هذا الفهم هم المتأخرون، فإن نظرية «سوء الفهم» التي قدّمها ويري تبدو عندئذٍ أشدّ تهاافتاً؛ لأنه يفترض أن الناس اعتبروا الأسلوب الفريد الذي لا يُبارى للقرآن معجزةً، فقط لأنهم ظنّوا أن الرسول ﷺ أُمِّيٌّ لا يعرف القراءة والكتابة.

إن هذا الاستنتاج الذي انتهى إليه ويري ضعيفُ الأساس؛ لأن المسلمين، بل وسائر المعاصرين الذين عاشوا في زمن الرسول ﷺ - والذين يفترض ويري أنهم كانوا يعلمون أنه يجيد القراءة والكتابة - ما كانوا ليؤمنوا بمثل هذه المعجزة لو كان الأمر كما يزعم.

أما الحجّة الأخيرة التي ساقها ويري لإثبات ادّعاءاته فهي أن استخدام الرسول ﷺ للكتابة لا يتعارض - في زعمه - مع معرفته بفنّ الكتابة، لأن استعمال الكتابة في ذلك الزمن كان أمراً شائعاً حتى بين أكثر الناس علماً ومعرفةً. وهذه حجّة تكشف جهل ويري بالتاريخ العربي والإسلامي. والحقيقة أنه لم يكن هناك «علماء» أو «أكثر الناس علماً ومعرفةً» في زمن الرسول ﷺ بالمعنى الذي يفهم اليوم من كلمة «علماء»،

كما لم يكن من المعتاد توظيف الكتبة والناسخين. وليس هناك أي سجل يُثبت وجود شخص امتهن الكتابة، أو أن شخصاً كان يعمل كاتباً لدى شخص آخر. إننا نعلم عن فردٍ واحدٍ فقط كان من «العارفين» في زمن الرسول ﷺ، وهو ورقة بن نوفل، وكان يعتمد على نفسه في الكتابة. ومن المؤسف أن بعض الكتاب المسيحيين، في غمرة حماسهم لتشويه صورة الإسلام، لم يترددوا في اختلاق وقائع تاريخية من عند أنفسهم.

وتحتوي عبارة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ التي جاءت في الجزء الأخير من الآية، على إشارة إلى أن المسيحيين الذين يؤمنون بالنبي الموعود ﷺ سوف يتخلصون من إصرلعة وراثه خطيئة آدم وحواء، والعقوبة التي ترتبت على ذلك، والتي - في رأيهم - تسببت في اعتبارهم خطأً بغير ذنب من جانبهم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَّامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٩﴾

التفسير:

تُعلن هذه الآية الكريمة بشكلٍ جميلٍ أن النبوءات التي جاءت في العهدين القديم والجديد عن النبي الموعود ﷺ قد تحققت في شخص الرسول ﷺ.

وتشير عبارة ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى حقيقة أنه كما أن هناك مملكةً واحدةً في السماء، كذلك سوف تكون هناك مملكةٌ روحيةٌ واحدةٌ على الأرض.

نتيجةً لمقدم الرسول ﷺ. وهذه هي المملكةُ الروحيةُ التي دعا المسيحُ ﷺ (متى ١٠: ٦) إلى أن تُقام على الأرض. وقد تضمن ذلك الدعاءُ نبوءةً عن مقدم الرسول ﷺ. وتأسسُ مملكةُ روحيةٍ واحدةٍ على الأرض يشير إلى حقيقة أن ذلك النبي الموعود سوف يكون رسولاً لكل الناس جميعاً، وأنه بقدومه سوف تزول جميعُ الفواصل التي تفصل بين الناس من عرقٍ وجنسٍ ولونٍ.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٠﴾

التفسير:

تبين هذه الآية الكريمة أن الفساد لم يصب كل قوم موسى ﷺ، فقد كان من بينهم من يهدون بالحق ويتصرفون بالعدل. ولم يحدث أبداً أن حكم القرآن المجيد بإدانة قوم من الأقوام على وجه العموم دون أي استثناء، وإنما أدان فقط أولئك الذين وقعوا في الفساد فاستحقوا الإدانة. وحينما يذكر القرآن المجيد المفاصد التي ارتكبتها قوم من الأقوام، فإنه لا يغفل ذكر الصفات الطيبة التي يتحل بها بعض الأفراد من ذلك القوم. وحقاً ما قال القرآن المجيد: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٩).

وَقَطَّعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا
إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشَرَ عِثْنًا
قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ

الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾

التفسير:

انظر تفسير الآيتين ٥٨ و ٦١ من سورة البقرة.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من الدين الذي أنزله الله تعالى، ولا أن يمسه بسوء.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٢﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ٥٩ من سورة البقرة.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.

وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً
الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٤﴾

شرح الكلمات:

شُرْعًا: جمع «شارع»، وهو اسمُ الفاعل من «شَرَعَ». يُقال: «شَرَعَ في الأمر» أي بدأه. و«شَرَعَ المنزل» أي صار على طريقٍ نافذ. و«شَرَعَ الشيء» أي رفعه جدًا. و«شارع» - وجمعه «شُرْع» - يعني: الطريق إلى الماء؛ والطريق النافذ الذي يسلكه جميعُ الناس؛ والطريق البينَ الواسع؛ والظهور على سطح الماء؛ والذي يضع أو يسنّ القانون. و«حِيتَانُ شُرْع»: رافعة رؤوسها فوق الماء؛ متجهة من الماء العميق إلى الشاطئ؛ مُظهرة أنفسها على سطح الماء (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يُقال إن القرية المشار إليها في هذه الآية هي «إيلات» على البحر الأحمر. وهي تقع على الذراع الشمالي الشرقي للبحر الأحمر، الذي كان يُسمى خليج إيلات نسبةً إلى هذه القرية نفسها. وقد ذكرت كإحدى المحطات الأخيرة لبني إسرائيل في تيههم الذي استمر أربعين عامًا. وهي مذكورة أيضًا في سفر الملوك الأول (١ ملوك ٩: ٢٦)، وسفر أخبار الأيام الثاني (٢ أخبار الأيام ٨: ١٧).

وقد وقعت هذه القرية في أيدي بني إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام، ولكن يبدو أنها أخذت منهم لاحقًا. وفيما بعد استطاع عزيّا أن يعيد فتحها، ولكنها فقدت مرة أخرى في عهد أحاز (دائرة معارف الكتاب المقدس، ودائرة المعارف اليهودية).

ولمّا كان لأحد يصطاد الأسماك يوم السبت، فإنها كانت تدرك - بغريزتها - الوقت الذي تكون فيه آمنة، فكانت تقترب من الشاطئ أو تظهر على سطح المياه بأعداد كبيرة يوم السبت. وكان هذا يُشكّل عاملاً قوياً من عوامل الإغراء لليهود الذين بدأوا يُعدّون العُدّة لاصطياد السمك يوم السبت.

ولم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا وسيلةً يلتقون بها حول وجوب الامتناع عن العمل يوم السبت. فقد استعان بنو إسرائيل في صيد السمك ببعض الناس من غير بني إسرائيل، ثم كانوا يشترونه منهم، محاولين التحايل على الوصية الإلهية، مع أنه كان ممنوعاً عليهم أيضاً القيام بعمليات الشراء يوم السبت.

ومن أجل القضاء على هذه الممارسة المشينة، عيّن نحemia بعضَ خدمه على أبواب أورشليم ليمنعوا دخول أيّة حمولاتٍ من الأسماك إلى المدينة يوم السبت (نحميا ١٣: ١٩).

وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ
مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ
إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٥﴾

التفسير:

تبيّن هذه الآية الكريمة مدى ضرورة تبليغ الحق للآخرين، إذ علينا ألا نتقاعس عن تبصير إخواننا بما ينفعهم وما يضرهم. ويجب ألا يصرفنا ظننا بأن الآخرين لن ينتفعوا بالنصيحة التي نُقدّمها لهم عن أداء ما علينا من واجب. إن تبليغنا للحق قد يكون نافعاً، وقد لا يُثمر أيّ نتيجة، ولكننا نكون قد أدّينا واجبنا، فلا نقفُ مسؤولين أمام الله تعالى عن إغفالنا القيام بما علينا من واجب.

وتذكر الآية نتيجتين يمكن أن تنجم إحداهما أو كلاهما عن قيامنا بتبليغ الحق للآخرين، وفي كليهما خيرٌ لنا: (١) أن يكون لعملنا هذا أثرٌ طيبٌ ينعكس إيجابياً على من نرشده إلى الحق، فيتحول إلى التقوى والصلاح؛ (٢) أن نكون - على الأقل - قد أدّينا ما علينا من واجب أمام الله تعالى.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ
بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾

شرح الكلمات:

بَئِيسٍ: نعتٌ من «بُؤْس»، وتعني: عظيم؛ جبار؛ شديد في الحرب؛ شجاع؛ باسل. و«البأس» مصدرٌ من هذا الجذر، وتعني: الشجاعة؛ القوة؛ البسالة؛ الحرب؛ الخوف؛ الضرر؛ العقاب؛ العذاب. و«بَئِيسٍ» تعني: شديد؛ جريء؛ شجاع. و«عذابٌ بَئِيسٌ»: عذابٌ شديدٌ أو قاسٍ (معجم لين). انظر أيضاً الآية ١٧٨ من سورة البقرة.

التفسير:

في الآيتين السابقتين جاء ذكر ثلاثة أنواعٍ من الناس بين بني إسرائيل: (١) أولئك الذين اعتدوا على حرمة السبت؛ (٢) أولئك الذين لم يعتدوا هم بأنفسهم على حرمة السبت، ولكنهم لم يمنعوا الآخرين من انتهاك حرمة؛ (٣) أولئك الذين لم يمتنعوا هم فقط عن تدنيس حرمة السبت، بل منعوا الآخرين أيضاً من ارتكاب هذا العمل الفاسد.

وتذكر الآية الحالية أن من بين هذه الأنواع الثلاثة، فإن الذين امتنعوا عن تدنيس حرمة يوم السبت، وكانوا يحضّون الآخرين أيضاً على الامتناع عن الاعتداء على

حرمته، هم وحدهم الذين نالوا النجاة، وأما الباقون فقد وصفتهم الآية بأنهم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهؤلاء هم الذين حلَّ عليهم عذابٌ بئيسٌ بما كانوا يفسقون.

وبين هذا أن الفريق الثاني من الناس، الذين لم يقوموا هم أنفسهم بتدنيس حرمة السبت، قد أدانتهم الآية واعتبرتهم من ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فنالوا العقابَ مع أولئك الذين عصوا أمر الله تعالى وقاموا بالفعل بانتهاك حرمة السبت.

ويُشكِّل هذا تحذيراً شديداً لنا بأننا لن نكون من الصالحين حقاً إلا إذا امتنعنا عن ارتكاب الشرور والآثام، وحصَّضنا إخواننا أيضاً على فعل الشيء نفسه. إن علينا أن نقوم بواجبنا نحو الخالق والمخلوق على حدٍّ سواء، وكلا هذين الواجبين على الدرجة نفسها من الأهمية.

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا
قِرْدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾

التفسير:

يشرح قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ معنى «العذاب البئيس» الذي جاء ذكره في الآية السابقة. انظر أيضاً تفسير الآية ٦٦ من سورة البقرة.

وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٨﴾

التفسير:

إن هذه الكلمات الخالدة ﴿مَنْ يَسْؤُمْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ تشير إلى أولئك الذين قاموا، خلال العصور والأجيال السابقة، باضطهاد اليهود وتعذيبهم. إن في انخطاط اليهود درساً عظيماً للمسلمين، لأن الذين لا يتصرفون حسب مقتضيات التقوى، ولا يعملون على إصلاح مجتمعهم، ينحرفون شيئاً فشيئاً عن سبيل التقوى، ويسقطون أكثر فأكثر في هوة الفساد، مما ينتج عنه في النهاية أنهم يفقدون استقلالهم، ويخضعون للأمم الأخرى التي تدوسهم تحت أقدامها.

إن هذه الآية وتاليتها أيضاً تُبَيِّنُ أن القوم الذين وُصفوا بأنهم ﴿قَرَدَةٌ حَاسِيْنَ﴾ في الآية السابقة لم يتحولوا بالفعل إلى قردة، بل ظلوا بشرًا آدميين، ولكنهم عاشوا حياة بائسة، وكانوا مُحْتَقَرِينَ من الأمم الأخرى. انظر أيضاً تفسير الآية ٦٦ من سورة البقرة.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الْأَصْحَابُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٩﴾

التفسير:

لقد تحققت النبوة المذكورة في هذه الآية الكريمة تحقيقاً رائعاً، إذ لا يوجد قوم من الأقوام أَرْهَقُوا من أمرهم غُسْرًا وتشتتوا في أنحاء الأرض كما حدث لليهود.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ
يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ
لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ

عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٠﴾

شرح الكلمات:

خَلَفَ: الاسم من «خَلَفَ»، أي: جاء بعد؛ يتبع أو يلي آخر. و«خَلَفَ» تعني: الجهة الخلفية؛ الزمن السابق؛ الجانب المقابل للأمام؛ من جاء بعد غيره؛ البقية من الناس؛ جيلاً بعد جيل؛ الرديء من الولد؛ الذرية الفاسدة؛ من لا خير فيه؛ الشيء الرديء (معجم لين وأقرب الموارد). راجع أيضاً الآية ٣١ من سورة البقرة والآية ٧٠ من السورة نفسها.

عَرَضَ: مشتق من «عَرَضَ». يُقال: «عَرَضَ له الشيء» أي أظهره له. و«العَرَض» هو: ما يعرض للإنسان من مرضٍ ونحوه؛ اسمٌ لما لا دوامَ له؛ حُطامُ الدنيا؛ متاعُ الدنيا؛ الغنيمة؛ المطلب؛ الطمع؛ الآفة (معجم لين وأقرب الموارد).

دَرَسُوا: مشتق من «دَرَسَ»، أي: (١) قرأ الكتاب وبحث فيه؛ (٢) عفا أو انمحى أو زال؛ (٣) محَا الشيء أو طمسه أو أزاله (معجم لين). انظر أيضاً الآية ١٠٦ من سورة الأنعام.

التفسير:

إن «الْكِتَابَ» المذكور في هذه الآية هو «الكتاب المقدس»، والمقصود من الذين «وَرِثُوا الْكِتَابَ» هم أولئك الذين تسلموا الكتاب أمانةً من الله تعالى من خلال أنبيائهم، أو من خلال الأجيال التي سبقتهم.

ويمكن فهم عبارة «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ» أيضاً على أنها تعني «أزالوا ما فيه ومسحوه»، أي أنهم تعلموا ما في الكتاب من تعاليم، ولكنهم نسوها وغفلوا عنها، واعتبروا أنها قد زالت وانمحت.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧١﴾

التفسير:

انظر الآية: لقمان: ٢٣.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ
وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا
فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾

شرح الكلمات:

نَتَقْنَا: مشتقة من «نَتَقَ». يُقال: «نَتَقَهُ» أي: (١) زعزعه؛ (٢) رفعه؛ أو (٣) بسطه.
وتقول العرب: «نَتَقَ اللهُ فوقهم الجبل» أي رفعه مُزعزعاً فوقهم (أقرب الموارد).
ظُلَّةٌ: أي غطاءً. انظر تفسير الآية ٢١١ من سورة البقرة.

التفسير:

نظراً للزلزلة الشديدة التي أصابت الجبل، أخذ الجبل يترنح فوق رؤوسهم حتى كأنه صار غطاءً لهم. انظر أيضاً الآيتين ٦٤ و ٩٤ من سورة البقرة، والآية ١٥٥ من سورة النساء.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾

شرح الكلمات:

ظُهُورِهِمْ: جمع «ظَهَرَ»، وهو مشتقٌّ من «ظَهَرَ»، وتعني: بان أو برز أو وضح. و«الظَّهَر» هو ما يُقابل البطن؛ من مؤخر الكاهل إلى أدنى العُجْز. وقد جاءت في القرآن الكريم الكلمة الأكثر استعمالاً، وهي «أَصْلَاب»، كما جاء في الآية ٢٤ من سورة النساء.

التفسير:

يمكن فهم هذه الآية بطريقتين؛ إذ يمكن اعتبار أنها تتعلق بالفكرة الموجودة في فطرة الإنسان عن وجود كائنٍ أعظم ﷻ، خالق الكون ومدبّر أموره. وقد وضع الله تعالى هذه الفكرة في طبيعة الإنسان، حتى يكون على حذرٍ ويسعى إلى طريق الوصول إلى خالقه. ويؤيد التعبير ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ هذا التفسير، غير أنه ينبغي ألا يفهم من الآية أن هناك محاورَةً قد جرت فعلاً بين الله تعالى وذرية بني آدم؛ فإن هذه الكلمات تعبّر فقط عن لسان الحال.

ويتعلّق التفسير الثاني بظهور الأنبياء الذين يبعثهم الله تعالى ليهدوا الناس إلى سبيله. ومما يستحقّ الملاحظة في هذه الحالة أنه عند الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ فإن الآية لا تذكر آدم ﷺ، وإنما ﴿بَنِي آدَمَ﴾، مما يشير إلى أن المقصود بذرية بني آدم هم قومٌ كلٌّ عصرٍ أو كلٌّ زمنٍ يبعث الله تعالى فيه رسولاً من لدنه؛ فإن مقدّم كلِّ نبيٍّ جديدٍ من عند الله ﷻ هو الذي يدفع إلى إعلان هذا السؤال الإلهي ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

ويؤكد هذا السؤال أنه لما كان الله تعالى قد جعل للناس وسائل الحياة المادية، كما جعل لهم أيضاً وسائل التقدم الأخلاقي والروحي، فإنهم لا يستطيعون إنكار ربوبيته، وحينئذ تكون الإجابة الوحيدة لهذا السؤال هي ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾.

إن الناس في زمانٍ ما يكونون شهداء على أنفسهم فقط عندما يرفضون الإيمان بالنبِيِّ الذي أرسله الله تعالى إليهم؛ ففي هذه الحالة لا يستطيعون الاحتماء وراء عذر أنهم لم يعرفوا الله تعالى، أو أنهم لم يكونوا على علمٍ بشريعته، أو أنهم كانوا يجهلون يوم القيامة.

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ
وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا
بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٤﴾

التفسير:

إن ظهور نبي يمنع الناس في زمنه من التحجج بالحجة المذكورة في هذه الآية؛ لأنه حينئذ يتضح الحق والباطل، ويُدان الشرك وعبادة الأوثان علناً.

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٥﴾

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٦﴾

شرح الكلمات:

اَسْلَخَ: مشتق من «سَلَخَ». يُقال: «سَلَخَ جلدَها» أي كَشَطَ جلدَها. و«سَلَخَتْ عنها قميصَها»: نزعته. و«سَلَخْنَا الشهرَ»: أمضيناه أو مضى. و«سَلَخَ النباتُ»: اخْضَرَ بَعْدَ اليُبْسِ. و«اَسْلَخَ»: تجرَّد؛ مضى؛ ترك الشيءَ تماماً. و«اَسْلَخَتِ الحَيَّةُ من قشرِها»: خرجت منه. و«اَسْلَخَ منه»: انفصل عنه تماماً أو تجرَّد منه كُلياً (معجم لين، وأقرب الموارد).

اَتَّبَعَهُ: «اَتَّبَعَ» مشتق من «تَبَعَ». يُقال: «تَبَعَهُ» أي مشى خلفه أو مضى معه. و«اَتَّبَعَ» - إضافةً إلى ما تفيدُه من السببيَّة - تُستعمل بمعنى «تَبَعَ»: أي سار في إثره. يُقال: «اَتَّبَعَهُ» أي سار في إثره، أو سعى إليه، أو لحق به (معجم لين).

التفسير:

لا تتعلَّق الآية بشخص بعينه، وإنما يمكن أن تنطبق على كل من يُريه الله آياته عن طريق نبيٍّ ثم يرفضها. وقد وردت في القرآن المجيد تعبيراتٌ من هذا القبيل لا تتعلَّق بشخص معيَّن، بل يكون لها مفهومٌ عام؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٨).

وقد طُبِّقت هذه الآية على واحدٍ ممَّن كانوا يعيشون في زمن موسى ﷺ، وهو بلعام بن باعور، ويُقال إنه كان رجلاً صالحاً، ولكن غروره أفسده وأدَّى به إلى نهايةٍ من الذلَّة والحزني. كما أن الآية تصف بدقة حالة أبي جهل، الذي رأى بوضوح - بل واعترف أيضاً - بصدق الرسول ﷺ، غير أن استكباره حمله على الإنكار، وقال إن قومه لن يبايعوا آل عبد مناف، وهم من أجداد الرسول ﷺ.

كذلك يمكن أن تنطبق الآية أيضاً على عبد الله بن أبي بن سلول، كبير المنافقين، الذي رأى كثيراً من الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ، بل أعلن إيمانه به ظاهراً، غير أنه ظلَّ في قرارة نفسه عدواً لدوداً له.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ
تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ
مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾

شرح الكلمات:

تَحْمِلُ عَلَيْهِ: «تَحْمِلُ» مشتقة من «حَمَلَ». يُقال: «حَمَلَهُ» أي استقله أو رفعه. و«حَمَلَ» عليه الشيء: وضعه عليه، أو أثقله به، أو كلفه عبثًا. و«حَمَلَ عَلَيْهِ»: اتَّهمه، أو اعتدى عليه، أو هاجمه (معجم لين). والمعنى الأخير هو المقصود هنا في قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُ عَلَيْهِ﴾.

يَلْهَثُ: مشتقة من «لَهَثَ»: أي عطش. يُقال: «لَهَثَ الكلبُ»: أخرج لسانه عطشًا أو تعبًا أو إعياءً. و«لَهَثَ الرجلُ»: تنفَّس بشدةً تعبًا أو إعياءً، أو صار متعبًا مُجهدًا (معجم لين، وأقرب الموارد).

الْقَصَصُ: مصدرٌ من «قَصَّ». يُقال: «قَصَّ أثره» أي تتبَّعه. و«قَصَّ الشَّعرَ»: قطع منه بالمِقَصِّ. و«قَصَّ عليه الخبرَ»: حدَّثه به. و«الْقَصَصُ»: البيان، أو الحدث، أو سيرة أحدٍ، أو حكاية شيء (معجم لين، وأقرب الموارد). راجع أيضًا قوله تعالى في الآية ٦٣ من سورة آل عمران.

التفسير:

تستكمل هذه الآية الحديث عن المَثَل الذي بدأ في الآية السابقة. فعندما ينغمس الإنسان كليًا في الأمور الدنيوية، ويشعر في اتباع شهواته الفاسدة، ويستجيب لميوله

الشريرة، ويرفض قبول الحق، فإنه ينحطّ حتى لكانه صار في منزلة الكلب. فلا تقف رغبته في اقتناء المال عند حدّ، بل يظلّ يتوق إلى النّعم الزائلة في هذه الدنيا. ويتّفق هذا الوصف تماماً مع حال المنافق أو ضعيف الإيمان؛ فسواء اضطّرتّه الظروف إلى التضحية في سبيل الدين أم لم تضطرّه، فإنه يبدو كأنه يلهث دائماً كالكلب العطشان، وكأن عبء التضحيات المتزايدة قد جعله منهك القوى. ويتّفق هذا التفسير مع التعبير «حُمِلَ عليه» إذا أخذ بمعنى «وُضع عليه عبءٌ ثقيل». أمّا إذا أخذ التعبير بمعنى «هاجمه» أو «دفعه وساقه»، فالمقصود أن ضعيف الإيمان - من الفئة المذكورة هنا - يشعر دائماً بالتّصّب والتعب والإرهاق عند العمل في سبيل الله تعالى، سواء أصابته المحن والابتلاءات أم لم يُصِبْه شيءٌ منها.

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ
كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٨﴾

التفسير:

انظر الآيات: آل عمران: ١٢؛ الأعراف: ١٨٣؛ الأنفال: ٥٥.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٩﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة البقرة.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا
يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا
أُولَئِكَ كَآلُ الْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ
هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨٠﴾

شرح الكلمات:

استُخدم حرفُ اللام في قوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ للإشارة إلى العاقبة أو النتيجة، لا إلى الغرض من خلق الجن والإنس. ويأتي هذا الاستعمال منسجماً تماماً مع ما هو معروف في اللغة العربية بـ«لام العاقبة» (معجم لين).

التفسير:

لا تعني الآية بتاتاً أن الجن والإنس قد خُلِقُوا من أجل أن يُلقُوا في جهنم، واستعمال كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ يُبْطِلُ مثل هذا الاستنتاج. إن الغاية من خلق الجن والإنس هي تحقيق غرض جليل، وهو عبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ولا تتعلق الآية الحالية بالغرض من خلق الإنسان، وإنما تذكر المصير المؤسف الذي سينتهي إليه كثير من الإنس والجن. وتعني كلمة «الجن» هنا طبقة خاصة من الناس، كالزعماء والحكام الذين يعيشون حياة فاسدة؛ فتكون نهايتهم المحتومة جهنم. ولكن بسبب الأسلوب الذي يقضون به حياتهم في الظلم والمعاصي، يبدو كأنهم قد خُلِقُوا فقط من أجل جهنم.

وتعطي الآية الكريمة وصفاً كاملاً - وإن كان موجزاً - لأولئك الذين يكون مآلهم إلى جهنم. فهم الذين وهبهم الله تعالى عقولاً وبصائر وقدرَةً على الفهم، فكان من نصيبهم أن حباهم الله بجميع الوسائل الضرورية التي تمكنهم من معرفة الصراط المستقيم واتباعه، لينالوا القرب من خالقهم؛ غير أنهم بسبب العناد وتصلّب الرأي لم ينتفعوا بتلك الوسائل والمواهب، فكانت النتيجة أنهم ضلّوا بعيداً عن طريق الحق، وسقطوا في هوة الضلال.

فالله تعالى لم يخلقهم لجهنم، بل خلقهم للجنة؛ ولكنهم هم الذين تركوا صراط الجنة، واختاروا سبيل جهنم.

إن حال هؤلاء - في الحقيقة - أسوأ من حال الأنعام؛ لأنهم، مع امتلاكهم وسائل الفهم والإدراك والقدرة على الرقيّ والسموّ، لم ينتفعوا بهذه المواهب، وبدلاً من الارتقاء الذي هو غاية وجودهم، انحطّوا أكثر فأكثر.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا
الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

شرح الكلمات:

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى: «أسماء» جمع «اسم» (انظر تفسير الآية الأولى من سورة الفاتحة والآية ٣٢ من سورة البقرة)، وتُطلق على: (١) الاسم؛ (٢) الصفة. و«الحُسنى» مؤنّث «الأحسن» الذي يعني: الأعظم أو الأفضل، أو البالغ الغاية في الحسن والكمال. وعليه فإن «الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى» تعني أفضل الأسماء وأكمل الصفات، وتُستعمل خاصّةً في الإشارة إلى صفات الله تعالى.

يُلْحِدُونَ: مشتقة من «لَحَدَ»، أي مال أو انحرف عن الطريق الصحيح. ويُقال: «أَلْحَدَ» أو «أَلْحَدَ في الدين»؛ أي مال وحاد وطعن فيه. و«أَلْحَدَ» تعني أيضاً جادل أو خاصم. و«أَلْحَدَ به»: وبَّخه، أو استخفَّ به، أو أزرى به، أو قال عليه باطلاً (معجم لين، وأقرب الموارد).

التفسير:

إن اسم العَلَم الوحيد لله تعالى هو «الله»، وأمّا سائر الأسماء فهي في حقيقتها صفاتٌ له سبحانه. ونُخبِرنا الآية الكريمة عن السرِّ الذي يجعل لأدعيتنا القبول؛ إذ ينبغي عند الدعاء أن نتضرَّع إليه بذكر الصفات القدسيَّة التي تتعلَّق مباشرةً بالغرض الذي ندعو من أجله. فهذا أدعى إلى القبول؛ لأنَّ العبد حينئذٍ يتوسَّل إلى الله بصفته المناسبة لمطلوبه، فيستثير غيرته ﷻ فيما يتعلق بهذه الصفة فيكون دعاؤه أقرب إلى الإجابة.

ويذكر القرآن المجيد نحو تسع وستين صفةً من الصفات الإلهية على وجه الخصوص، وهناك صفاتٌ أخرى تُستنبط من نصوصه، فضلاً عمَّا ورد في الحديث الشريف.

ثم تستطرد الآية فتحتِّ المؤمنين على ترك الذين يضعون لله من عند أنفسهم صفاتٍ لا تليق به، إذ يقول تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾. وما دام ﴿لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ المذكورة في القرآن الكريم والحديث الشريف، فما الحاجة إلى ابتداع أسماءٍ أخرى له؟ فمثل هذه الأسماء لا تخلو من الخطأ.

ومن الأمثلة على الصفات التي أُلصقت بالله ﷻ وصفه بأنه «العادل» من قبل المسيحيين. فالقرآن الكريم يؤكِّد بوضوح أن الله ليس بظلامٍ للعبيد، وأنه لا يظلم أحداً؛ غير أنه لا يَرِدُ فيه اسم «العادل» على جهة التسمية الصريحة. وذلك لأنَّ عزو هذه الصفة إليه يعني أن عدله يقتضي لزوم معاقبة كلِّ مذنبٍ على وجهٍ حتميٍّ، وهو غير ملزم بذلك؛ فهو تعالى غفورٌ رحيم، وله أن يغفر لمن يشاء من عباده المذنبين.

فإنَّ الله ﷻ ليس كالقاضي المقيد بنصوص قانون لا يستطيع الخروج عنه في الحكم على الناس، بل هو المالك لعباده، والمالك للأمر كله؛ يغفر متى شاء وكيف شاء. ولأن الكنيسة المسيحية قد نسبت إلى الله تعالى صفة «العادل»، فقد اضطرت إلى الاستعانة بما سمته «المخلص» الذي كفر بموته المزعوم على الصليب عن خطايا البشر إرضاءً للإله «العادل».

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٢﴾

التفسير:

لا تعني الآية أن من بين معارضي الرسول ﷺ أناساً ممن ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، بل تُفيد أن من بين خلق الله تعالى أناساً يهتدون بالحق ويعملون بمقتضى العدل، ولا يقتصرون على ذلك، بل يحثون غيرهم أيضاً على القيام به. وتوحي الآية إلى وجوب اقتداء الآخرين بهم. ومن الواضح أنها تشير إلى الذين آمنوا بالنبي ﷺ، أو إلى الصالحين من الأمم السابقة قبل الإسلام.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾

التفسير:

تحدث هذه الآية عن أعداء الإسلام، وتُقدِّم معركة بدرٍ مثلاً واضحاً على ما وعد الله ﷻ به من هلاكٍ ودمارٍ لهم؛ إذ لم يكن المسلمون ولا أهل مكة يعلمون أن معركة فاصلة كانت على وشك الوقوع، بل حلت الكارثة بجيش مكة فجأة من غير توقع،

حتى إنه لما وصلت أنباء الهزيمة الساحقة إلى أهل مكة، أُصيب الناس بالذهول عند سماعها. وقد تلا ذلك وقوع كثيرٍ من الكوارث أيضاً.

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٤﴾

شرح الكلمات:

مَتِينٌ: مشتقٌّ من «مَتَنَ». يُقال: «مَتَنَ الشيءُ»؛ أي صَلَبَ واشتَدَّ وَقَوِيَ. و«مَتِينٌ»: الصُّلب الشديد، القويّ (معجم لين). و«الْمَتِين» من أسماء الله الحسنى، ويعني القويّ الشديد الذي لا تلحقه في أفعاله مشقّةٌ ولا كُلفَةٌ (أقرب الموارد).

التفسير:

إن تأخيرَ الله تعالى في إنزال العقوبة على الكافرين لا يدلّ على ضعفٍ - حاشاه سبحانه - بل على العكس؛ فكونه القويّ القدير، فإنه يملك زمامَ أمرهم في قبضته، ولذلك فهو غيرُ مُتَعَجِّلٍ في إنزال العقاب، وإنما يُعاقب حين يرى - بحكمته الخالصة - أن الوقت قد حان لنزوله.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنِ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٥﴾

شرح الكلمات:

صَاحِبٌ: مشتقٌّ من «صَحِبَ»؛ أي لازمه ورافقه وعاشره. و«صاحب» جمعُه «أصحاب»، ويُقال أيضاً «صَحَابَةٌ». ويأتي بمعنى: الرفيق، والزميل، والصديق، والمُعاشِر، ومالك الشيء، والملازم له (معجم لين). وتُستعمل الكلمة أيضاً مجازاً بمعنى الأعوان.

التفسير:

إن كلمة «صاحب» - بمعنى الرفيق والمعين - لا يُراد بها هنا الإشارة المباشرة إلى النبي ﷺ بهذا المعنى، وإنما اختير استعمالها لما تتضمنه من دحض لاتهام الجنون الذي رماه به بعض أعدائه، ولما تنطوي عليه من توبيخ مبطن لأهل مكة؛ إذ تُذكرهم بأنه كان رفيقهم وصاحبهم.

لقد عاش بينهم، وكان يروح ويحيى تحت أنظارهم، وكانوا يعرفونه معرفة وثيقة؛ ومن ثمّ يسهل عليهم أن يدركوا أنه ليس بمجنون، بل هم يعلمون ذلك يقيناً. فقد قضى عمره في معاونتهم، وكان يعمل دائماً لخيرهم ومصلحتهم، مما يدلّ دلالةً أوضح على براءته من هذه التهمة.

وهو أيضاً ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي إنه أنذرهم بأسلوب واضح ومنهج عقلائي، مما يؤكّد أنه ليس بمجنون، بل يتمتّع بكامل قواه العقلية.

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ
عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٦﴾

التفسير:

تلقت الآية الكريمة أنظار أهل مكة إلى التغيّرات العديدة والعظيمة التي تحدث من حولهم، والتي تشير إلى بزوغ فجر عصرٍ جديد. فكلُّ المؤشّرات تدلّ على قرب زوال الوثنية من الجزيرة العربية ليحلّ الإسلام محلّها. وتشير كلمة ﴿مَلَكُوتٍ﴾ إلى سلطان الله تعالى على السماوات والأرض. انظر أيضاً الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

ويمكن فهم الكلمات ﴿فَبَآئِيَ حَدِيثٍ﴾ على أنها بمعنى «فبأي وسيلة»، وفي هذه الحال يشير الجزء الأخير من الآية إلى أنه لما كان الوقت قد أزف للمشرّكين، واقترب أجلهم، لم يعد أمامهم متسعٌ طويلٌ ليؤمنوا ويتوبوا. وعليه، تتضمّن الآية نصيحةً لهم بأن يُسارعوا إلى اغتنام الفرصة قبل أن تفوتهم.

وإذا فُهمت الآية على أنها تعني: «فبأيّ حديثٍ بعد هذا الحديث يؤمنون»، كان المقصود أنه إذا رفض المشرّكون قبول القرآن المجيد - وهو الكتاب الكامل الذي يشتمل على الشريعة الكاملة - فماذا يبقى بعد ذلك ليؤمنوا به؟

مَنْ يُضِلِّبِ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٧﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة البقرة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا
عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

شرح الكلمات:

أَيَّانَ مُرْسَاهَا: «مُرْسَى» مشتقة من «رَسَا». يُقال: «رَسَا الجبل»؛ أي ثبت ورسخ. و«رَسَتِ السفينة»: وقفت على المرساة. و«مُرْسَى» هو المصدر، ويأتي اسمَ زمانٍ أو مكانٍ، بمعنى الرسو أو زمنه أو مكانه؛ أي زمن ثبوته أو مكان وقوعه. فقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ أي متى وقوعها أو ثبوتها (معجم لين، وأقرب الموارد).

حَفِيٌّ: مشتق من «حَفِيٌّ»؛ أي مشى حافي القدمين، أو رقت قدمه من كثرة المشي. ويُقال: «حَفِيٌّ به»؛ أي تلطف به وبالعطف في إكرامه، أو أظهر السرور به. و«حَفِيٌّ عنه»: أكثر السؤال عن حاله. و«حَفِيٌّ»: المستقصي في التعلم، والمبالغ في الإكرام والبر، والمظهر السرور، والمكثر السؤال عن حال غيره، والمُلِحّ في سؤاله (معجم لين، وأقرب الموارد).

التفسير:

إن ﴿السَّاعَةَ﴾ المذكورة في هذه الآية تشير إلى «الأجل» الذي ذكر في الآية ١٨٦. فبعد أن قيل للكافرين إن أجلهم قد اقترب، سألوا الرسول ﷺ عن الموعد المحدد الذي قدره الله تعالى لهم. ولما كان إنزال العقوبة أمراً يثقل على الله تعالى بسبب رحمته المطلقة، كما يثقل على الناس لما فيه من الألم، قال تعالى عنها: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وتعبّر كلمة ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ هنا عن الله تعالى والملائكة، بينما تُعبّر كلمة ﴿الْأَرْضِ﴾ عن الناس.

وتعني كلمة ﴿حَفِيٌّ﴾: (١) المُلِحّ في الاستفسار؛ (٢) العالمُ علماً جيّداً بأمرٍ معيّن. وعليه، يكون معنى هذا الجزء من الآية: (١) إنهم يسألونك عن الموعد المحدد لنزول العقوبة عليهم، كأنك أنت الذي تُلحّ في السؤال عنه؛ أو (٢) إنهم يسألونك عن «ساعة» نزول العقوبة، كأنك على علمٍ تامٍّ بموعدها.

وفي كلتا الحالتين تفيد الآية أن الرسول ﷺ لا يعلم وقت نزول العقاب على الكافرين، كما أنه لا يُلحّ على الله تعالى في السؤال عن تحديد موعده.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
 اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ
 الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
 لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٩﴾

التفسير:

ليس المقصود بكلمة ﴿نَفْعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ النفع المادي، بل النفع الروحي. أما النفع المادي، فمن المعلوم أنه قد تيسر للنبي ﷺ، غير أنه أثر الزهد فيه، وقد دعا ربه بقوله: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمْتِنِي مِسْكِينًا» (الترمذي). وعليه، فليس المراد بـ﴿نَفْعًا﴾ هنا النفع الدنيوي أو الثروة والجاه، وإنما النفع الروحي، وخير الإسلام، ومصلحته التي كان النبي ﷺ يحرص على تحقيقها أشد الحرص.

وكلمة ﴿الْغَيْبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ تُراد بها الوسائل الخفية لتطهير قلوب الناس، وهي مما لا يعلمه على وجه الإحاطة إلا الله تعالى، القادر وحده على هداية الناس جميعاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل: ٩). وكان الرسول ﷺ يقول: «لو أنني أعلم السبل الخفية التي تهدي قلوب الناس إلى قبول الحق، لاستعملتها في هدايتكم جميعاً».

وتعني عبارة ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أنه لو كان بوسعي أن أجمعكم كلكم على الحق وأهديكم إلى الإسلام، لما وقعت حربٌ ولا قتال.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ
 مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا

حَمَلْتُ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلْتُ
دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٠﴾

التفسير:

المقصود بالنفس الواحدة هنا هو الأب، ولا تشير الآية إلى آدم عليه السلام ولا إلى أب بعينه، وإنما تُراد بها حقيقة الإنسان بوجه عام. وانظر أيضاً تفسير الآية الثانية من سورة النساء.

وتذكر الآية الكريمة أحد مقاصد الزواج، وهو أن يكون كل من الرجل والمرأة مصدر راحة وسعادة وهناء للآخر. فالإنسان اجتماعي بطبعه، والزواج هو الوسيلة لتلبية رغبته الفطرية في أن يكون له رفيق يسكن إليه ويطمئن به في مسيرة الحياة. ولولا مؤسسة الزواج، لقضى الإنسان - في أغلب الأحوال - حياته باحثاً عن رفيق مخلص صادق يسكن إليه.

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا
فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أن الوالدين، لما رزقا بطفل صالح، ظنّا أن ذلك الطفل هبةٌ لهما من غير الله تعالى.

أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩٢﴾

التفسير:

تشير هذه الآية الكريمة، والآية التالية لها، إلى البشر الذين اتخذهم الناس آلهة وعبدوهم من دون الله.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٦﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأعراف: ١٩٨؛ الأنبياء: ٤٤؛ يس: ٧٦.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ
عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُكُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٧﴾

التفسير:

تشير هذه الآية إلى الأشياء التي لا حياة لها، كالأصنام والتمائيل وغيرها، التي يتخذها بعض الجاهلة من الناس آلهة.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٨﴾

التفسير:

تُشكِّل هذه الآيةُ الكريمةَ تحدّيًا سافرًا لعبدة الأوثان، أو للذين يؤمنون بتعدّد الآلهة، إذ إن كلّ ما يدعون من دون الله - سواء أكان منهم من ذوي الحياة أم لم يكن - لن يستطيعوا الاستجابة لدعائهم؛ إذ ليست لهم قدرةٌ على ذلك.

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٦﴾

التفسير:

تُعدّ هذه الآية، والتي تليها، تفصيلًا وبيانًا للتحديّ الوارد في الآية السابقة. فالكتاب العزيز يتحدّى الكافرين أن يدعوا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لتعينهم وتؤيّدهم في حملتهم ضد الإسلام، وأن يستخدموا جميع الموارد المتاحة لهم، ويجمعوا كلّ قواهم للقضاء عليه، وأن يستعينوا بأرجلهم وأيديهم وأعينهم وآذانهم - وهي كناية عن مختلف أصناف الناس - وألا يتركوا وسيلةً إلا استخدموها في الكيد للرسول ﷺ، ثم لينظروا بعد ذلك أيّ ضررٍ يستطيعون إيقاعه به، أو أيّ نجاحٍ يمكن أن يحققوه.

فقد وعد الله تعالى بنصرة نبيّه وتأيينه، وأن يتمّ أمره ويجعل النجاح حليف دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٧)، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٨).

وقد صدر هذا التحديّ في مكة، يوم كان الإسلام ضعيفًا في مهده، وكان الرسول ﷺ وأتباعه يبدون كأنهم تحت رحمة عدوّ قويٍّ شرّس. ولم يكن ليصدر مثل هذا التحديّ

في تلك الظروف إلا عن نبيٍّ صادقٍ مُرسَلٍ من عند الله تعالى. وكان من مقاصده أيضاً إظهار العجز البين لآلهة أهل مكة؛ إذ دعاهم إلى الاستعانة بها في مواجهة الإسلام.

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٧﴾

التفسير:

انظر الآية: الجاثية: ٢٠.

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٨﴾

التفسير:

تتضمن الآية الكريمة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ نبوءة ذات شقين؛ فهي تشير من ناحية إلى هزيمة المشركين في محاولاتهم القضاء على النبي ﷺ، ومن ناحيةٍ أخرى إلى زوال عبادة الأصنام من الجزيرة العربية.

وقد تحققت هذه النبوءة تحقّقاً بيّناً عند فتح مكة وتطهير الكعبة المشرفة من الأصنام التي ظلّ العرب يعبدونها من دون الله قروناً باعتبارها آلهتهم القومية. وفي ذلك اليوم أدرك المشركون بجلاءٍ عبثيةَ عبادتها، ودخلوا في الإسلام أفواجاً بأعدادٍ غفيرة.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٩﴾

التفسير:

إِنَّ الشَّخْصَ الْغَارِقَ فِي الضَّلَالِ يَرِفُضُ قَبُولَ الْحَقِّ، مَهْمَا تَكُنِ الْآيَاتُ وَاضِحَةً لَا لَبْسَ فِيهَا تُبَيِّنُ خَطَأَهُ وَضَعْفَ مَوْقِفِهِ. وَتَعْنِي الْآيَةُ أَنَّ الْكَافِرِينَ يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ تَقَدُّمَ الْإِسْلَامِ بِخَطِيءِ حَثِيثَةٍ، وَلَكِنْهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَرُونَهُ، وَلَا يَرِيدُونَ الْاعْتِرَافَ بِهِ.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٠٠﴾

التفسير:

تأمل جمال الإسلام في هذه الآية الكريمة في ظل سياقها الاستثنائي والظروف التي نزلت فيها؛ فقد كان الإسلام من كلِّ جانبٍ مُحاطاً بالأعداء الذين يتوقون إلى سفك دمه، ومع ذلك لم يتخلَّ عن مبادئه العظيمة في التسامح والرحمة. فقد أمر الرسول ﷺ أن يتحمل بصبرٍ جميلٍ ما يلقاه من أذى أعدائه، وأن يحضَّ أتباعه على مثل ذلك. ولا ريب أنه قدَّم مثلاً عظيماً ونموذجاً رفيعاً للصبر والثبات وقوَّة التحمل. غير أنه لما تجاوز إيداء أهل مكة واضطهادهم كلَّ حدٍّ، وتهدَّد وجودُ الإسلام ذاته وأصبح في خطرٍ حقيقيٍّ، عندئذٍ - وعندئذٍ فقط - أذن الله تعالى للمسلمين أن يحملوا السلاح دفاعاً عن أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٤٠ - ٤١).

وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠١﴾

شرح الكلمات:

نَزْغٌ: يُقال: «نَزَعَهُ نَزْغًا»؛ أي طعن فيه، واغتابه، وذكره بقبيح. و«نَزَعَ بين القوم»: أغرى وأفسد، وحمل بعضهم على بعض. و«نَزَعَهُ الشَّيْطَانُ إِلَى الْمَعَاصِي»: حَثَّه عَلَيْهَا. و«النَّزْغُ»: الوسوسة أو القول السيئ الذي يُحَرِّضُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (أقرب الموارد).

التفسير:

الخطاب في هذه الآية موجَّهٌ إلى القارئ بوجه عام، وإلى النبي ﷺ بوجه خاص. ويعني الجزء الأول من الآية ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: (١) إذا حَرَّضَكَ الشَّيْطَانُ عَلَى فِعْلٍ خَاطِئٍ، أَوْ وَسَّوسَ لَكَ بِفِعْلِ الشَّرِّ؛ (٢) أو إذا حَرَّضَكَ أَحَدُ الْأَشْرَارِ عَلَى أَعْدَائِكَ، أَوْ دَفَعَكَ إِلَى الْإِحْكَاقِ الْأَذَى بِهِمْ.

ويعني قوله تعالى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أنه في مثل هذه الحال ينبغي لك أن تملك زمام نفسك، وأن تلجأ إلى الله تعالى مستعيذاً به، طالباً عونه ومساعدته.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ
الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

شرح الكلمات:

طَائِفٌ: مشتقٌّ من «طَافَ، يَطِيفُ». يُقال: «طَافَ بِهِ الْخِيَالُ»؛ أي أَلَمَ بِهِ فِي الْمَنَامِ. و«طَيفٌ» أو «طَائِفٌ»: الشَّيْخُ أَوْ الْوَهْمُ أَوْ الْخِيَالُ؛ وَكُلُّ مَا يَحْجِبُ الْبَصِيرَةَ نَتِيجَةً

وسوسة الشيطان أو غيره - وغالباً ما يكون ذلك في النوم -؛ وكلُّ خاطِرٍ يَعْرِضُ للإنسان؛ وهمزاتُ الشيطان ونزغاته؛ والغضبُ، ونحوُ ذلك (معجم لين).

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾: ١. إذا دفع الشيطانُ الذين اتَّقُوا إلى الغضب؛ ٢. أو إذا أثار بعضُ الأشرارِ الفتنةَ والأذى ضدَّ المتقين.

ويعني قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا﴾: ١. أنهم دعوا الله ﷻ؛ ٢. أو أنهم تذكَّروا أمره بأن يكظموا غيظهم.

وعليه، فمعنى الآية: أنه إذا أصابت أحدَ المسلمين نوبةٌ غضبٍ أفقدته اتزانَه وأعمته عن الحق، أو إذا أثار أعداؤه ضدهُ الفتنةَ والمكائد، فوقع في موقفٍ حرج، فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى، حتى يتمكن - بعونه ﷻ - من استعادة رباطة جأشه، وإيجاد مخرجٍ من ذلك المأزق.

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

التفسير:

يمكن تفسير الآية بطريقتين:

(١) أن الأشرار يُحرِّضون رفاقهم على الاستمرار في الشرِّ والتمادي في الخطأ، فيُعين بعضهم بعضاً، ويحثُّ أحدهم الآخر على ممارساته المنحرفة؛

(٢) أو أن الأشرار يبذلون جهدهم في إغواء المؤمنين واستدراجهم إلى الوقوع في الخطأ.

وبحسب التفسير الثاني، يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ عائداً إلى المؤمنين المتقين.

وتتضمن هذه الآية تحذيراً للمسلمين، تحثهم فيه على أن يكونوا دائماً على حذر، لئلا يتأثروا بالتحريض الفاسد والمكائد الشريرة التي يدبرها أهل الشر.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا قُلْ إِنَّمَا
اتَّبَعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ
رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

اجْتَبَيْتَهَا: مشتقٌّ من «جَبَى». يُقال: «جَبَى المَالُ»؛ أي جمعه. و«اجْتَبَاهُ»: اختاره واصطفاه. ويأتي أيضاً بمعنى ارتجله أو اختلقه أو زوره. وعليه، فالتعبير «لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا» يعني: هَلَّا اخترعتها واختلقتها من عند نفسك وأتينا بها، أو هَلَّا اقترحتها على إلهك (معجم لين، وأقرب الموارد).

بَصَائِرٌ: جمع «بصيرة»، وهي مشتقة من «بَصُرَ»؛ أي رأى، أو صار ذا إدراكٍ أو علمٍ أو إيمانٍ أو فهمٍ أو فطنةٍ أو براعة. ويُقال: «أَبْصَرَ الطريقَ»؛ أي استبان ووضح. و«أنا على بصيرة»؛ أي أنا على يقينٍ أو علم. و«البصيرة»: العقل، والفطنة، والعبرة، والحُجَّة، والشاهد، والإيمان القوي، والبراعة، واليقين القلبي، وما يُستدلُّ به (معجم لين، وأقرب الموارد).

التفسير:

تعني كلمة «آية» الدليل أو البرهان، وسُمِّيت آيات القرآن المجيد آياتٍ لأن كلَّ واحدةٍ منها تُعدُّ دليلاً إلهياً وبرهاناً على مصدره الرباني، وعلى صدق النبي ﷺ. والمقصود في الآية أنه مع أن كلام الله تعالى ينزل كلما اقتضت الحاجة ذلك، وأن آياته تظهر للناس تباعاً، فإنه إذا تأخَّر نزولُ الوحي أو ظهورُ بعض الآيات، تجاهل الكافرون ما نزل من قبل، وتناسوا ما أظهره الله سبحانه من دلائل، ثم أخذوا يسألون الرسول ﷺ

بوقاحة: «لولا جئت بآيةٍ تؤيّد دعواك!»؛ كأن الآيات لم تظهر من قبل، وكأن كلام الله تعالى لم يكن قد تنزل بالفعل.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يردّ على هذا الطلب الصفيق بأن إنزال الوحي وإظهار الآيات بيد الله تعالى وحده، وأنه ﷺ لا يملك أن يأتي بها متى شاء. ولكن ما بالهم يطلبون آياتٍ جديدةً أو وحيًا حديثًا؟ أليست فيما ظهر من الآيات، وفيما تنزل من الوحي، كفايةً للدلالة على صدق الإسلام؟ فلماذا لا يتدبرونها وينتفعون بها؟

ومما يجدر التنبيه إليه أن الله تعالى نادرًا ما يُظهر آياته تلبيةً لرغبة الكافرين. كما أن طلبهم آيةً جديدةً يدل على أنهم لم يُقروا بما سبق من الآيات، ولم يعدّوها أدلةً كافيةً على صدق الرسول ﷺ. والاستجابة لمثل هذا الطلب تعني التشكيك في أن الآيات السابقة لم تكن كافية، فينتقص ذلك من شأنها. ومن ثمّ، فإن الله تعالى لا ينزل آياتٍ جديدةً تبعاً لأهوائهم، بل يوجّههم إلى التفكّر فيما أُظهر بالفعل من الآيات.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٥﴾

التفسير:

ورداً على طلب الكافرين آياتٍ جديدةً، يقول لهم الله تعالى إن عليهم أن يستمعوا إلى القرآن المجيد وأن يُصتوا له جيّداً؛ فإنه يشتمل على ما يكفي من الآيات والدلائل، ومن شأن ذلك أن يقودهم إلى إدراك خطأ طلبهم، فيروا الحقّ، فيستحقّوا بذلك رحمة الله تعالى.

وَأَذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ
الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ
مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٦﴾

التفسير:

إن ذكر الله تعالى هنا لا يُراد به أداء الصلوات المفروضة، وإنما يعني الدعاء بوجه عام. وقد أمر الرسول ﷺ أن يدعو الله تعالى صباحاً ومساءً لهداية الكافرين. فمن جهة، يُوجه الله تعالى الكافرين إلى أن يستمعوا إلى القرآن المجيد بانتباه وإنصاتٍ شديد (كما في الآية السابقة)، ومن جهةٍ أخرى يحثُّ الرسول ﷺ على الدعاء لهدايتهم.

ويمكن كذلك أن تُفهم الآية على أنها موجَّهة إلى الكافرين أنفسهم، فتحثُّهم على الاستماع إلى القرآن الكريم بحرص وإنصات، وعلى التوجه إلى الله تعالى بالدعاء بإخلاص وتواضع.

ومع أن الإسلام يُجيز الدعاء جهراً وخفياً، فإن هذه الآية تحثُّ على الدعاء سرّاً دون جهراً؛ لما في ذلك من إحياء روح التواضع في القلب، وتعميق الإخلاص، واستحضار الخشوع والرهبة.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٧﴾

التفسير:

هذه هي الآية الأخيرة من السورة، وهي تُخاطب الكافرين بأن يتوجَّهوا إلى الله تعالى بالدعاء طلباً للهداية؛ فإن العباد الأتقياء المؤمنين المقربين إلى الله تعالى - وهم أرفعُ شأنًا وأسمى منزلةً من الكافرين في كل مجال - لا يترفعون عن عبادته وتسبيحه.

وتذكر الآية الكريمة ثلاث علاماتٍ لمن ينالون القرب من الله تعالى:

(١) أنهم لا يستكبرون عن عبادته؛ أي لا يعبدونه تعالى فحسب، بل يعبدونه في تواضعٍ وتذللٍ.

(٢) أنهم يُسَبِّحُونَ الله تعالى؛ أي لا يعبدون الله سرًّا في قلوبهم فحسب، بل يُظهرونه جهاراً، وينشرون الحق، ويسعون إلى إقامة مملكة الله في الأرض.

(٣) أنهم يسجدون لله تعالى؛ أي يخضعون له، ويكرِّسون حياتهم لخدمة مقاصده وتحقيق إرادته سبحانه.

ومما يجدر ذكره أن النبي ﷺ كان إذا مرَّ بآيةٍ فيها ذكرُ سجود المؤمنين لله تعالى سجدَ لله، وحثَّ المؤمنين على أن يفعلوا مثل ذلك. وفي هذا درسٌ عظيمٌ لنا؛ إذ لا ينبغي أن نكون مستعدين لطاعة الله تعالى إذا صدر إلينا أمرٌ مباشرٌ فحسب، بل ينبغي أيضاً أن نكون حريصين على الاقتداء بالأفعال الصالحة التي يقوم بها المؤمنون، ولو لم يُوجَّه إلينا أمرٌ صريحٌ بذلك.

وهذه الآية تشتمل على أول سجدةٍ في القرآن المجيد.



(٨) و (٩)

﴿سورتا الأنفال والتوبة﴾

(مدنيتان)

التسمية والعلاقة بين السورتين

مع أن الشائع أن السورة الأولى من هاتين السورتين تعرف وحدها باسم الأنفال، فإن سورة الأنفال في الواقع تتألف من جزأين: أحدهما يعرف بالأنفال والآخر بالتوبة. وهذا يعني أن سورة التوبة ليست سورةً مستقلة، وإنما هي جزء من سورة الأنفال. وهذه هي الحالة الوحيدة التي انقسمت فيها سورة إلى جزأين، بينما جاءت جميع السور الأخرى وحدات متكاملة. والدليل على أن التوبة أو براءة ليست سورة مستقلة بل جزء من سورة الأنفال، هو أنها لم تُستهل بالبسملة، مع أن رسول الله ﷺ كان يأمر -بتوجيه إلهي- بكتابة البسملة في مطلع كل سورة. ويروي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله:

«قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مَا حَمَلَكُم أَنْ عَمَدْتُمُ إِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي وَإِلَى بَرَاءَةِ وَهِيَ مِنَ الْمِثَالِ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوْلِ؟ مَا حَمَلَكُم عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ تَنْزِيلُ عَلَيْهِ السُّورِ ذَوَاتُ الْعَدَدِ فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ صَعُوا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَيَقُولُ صَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا وَكَانَتِ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا أُنْزِلَتْ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ بَرَاءَةً مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا فَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ

بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ».

(الترمذي، كتاب تفسير القرآن).

ويتضح مما سبق وجود تماثلٍ شديد بين موضوعي هذين الجزأين، ولما كانت البسملة لم تنزل في مطلع براءة، على خلاف جميع السور الأخرى، فلا بد أن تكون جزءاً من سورة أخرى. وأما الافتراض القائل إن عثمان رضي الله عنه هو الذي وضع براءة مع الأنفال فلا أساس له في الحديث الشريف، ولعل أحد رواة الرواية المذكورة قد أخطأ التعبير، لأنه من الثابت بالأدلة التاريخية القاطعة أن ترتيب القرآن الكريم بشكله الحالي لم يتم على يد عثمان رضي الله عنه أو غيره، وإنما قام بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. والذين نسبوا ترتيب القرآن الكريم إلى الصحابة لم ينسبوه إلى عثمان وإنما إلى أبي بكر رضي الله عنه. فما فعله عثمان رضي الله عنه هو أنه أضاف شهادته إلى النسخة التي كانت بحوزته، بعد أن اطمأنت نفسه إلى ما قدمه الصحابة من أدلة لا يشوب صحتها شائبة من الشك، مع مطابقتها التامة للنسخة التي دُونَتْ وُجِّعَتْ في مصحف بأمرٍ من أبي بكر رضي الله عنه، كما أنه منع تداول ما كُتِبَ من جميع أشكال القراءات الأخرى للقرآن الكريم عدا لغة الحجاز.

وبطبيعة الحال فإن السؤال الذي ينشأ هنا: كيف كان ترتيب هذه السور في النسخة التي دُونَ فيها القرآن الكريم وُجِّعَ في مصحف واحد زمن أبي بكر رضي الله عنه؟ فلو كان أبو بكر رضي الله عنه قد وضع الأنفال - لقصرها - مع السور القصار الأخيرة، وكتب البسملة في مطلع التوبة، ثم غير عثمان رضي الله عنه هذا الترتيب، وأسقط البسملة، لنقل ابن عباس رضي الله عنه هذه الحقيقة بكل تأكيد، بل لاعتراض أيضاً على حذف البسملة من بداية التوبة، وعلى الاختلاف في ترتيب السور، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. وهذا يدل على أن العبارة التي رواها الترمذي قد نُسِبَتْ إلى ابن عباس رضي الله عنه إما لسوء فهمٍ من أحد الرواة أو أنها زيادة أضيفت لاحقاً. والحقيقة - كما ذكر آنفاً - أن الأنفال والتوبة سورة واحدة، ويطلق على التوبة لفظ «سورة» بمعنى الجزء لأنها تُعتبر جزءاً متميزاً من الأنفال، لا سورة مستقلة بالمعنى المعروف لسائر السور الأخرى.

تاريخ النزول

الأنفال والتوبة (براءة) سورتان مدنيتان. وقد نزلت الأنفال قريباً من زمن غزوة بدر في السنة الأولى أو الثانية بعد الهجرة. وحيث ذكرت هذه السورة بعض الدسائس التي حاكها المشركون عند الهجرة في سبع آيات منها، ذهب بعض المفسرين إلى اعتبار هذه الآيات مكية. غير أن هذا الاستنتاج خاطئ، لأن القرآن الكريم يذكر وقائع وأحداثاً جرت زمن آدم وإبراهيم وموسى عليه السلام. فلو اعتبرت الآية مكية لمجرد أنها تصف أحداثاً وقعت في مكة، للزم اعتبار الآيات التي تصف أحداثاً وقعت زمن آدم أو إبراهيم أو موسى عليه السلام أنها نزلت زمن هؤلاء الأنبياء، وهو أمر واضح البطلان. ويعتبر الإمام البخاري أن سورة التوبة أو براءة من بين آخر ما نزل من القرآن الكريم، بينما كانت الأنفال من بين أوائل ما نزل بعد الهجرة.

ملاحظة إجمالية حول السورتين

ورد في سورة الأنفال نبوءة مفادها أن الله ﷻ سيهب المسلمين نصراً عظيماً وأن ممتلكات أعدائهم ستؤول إليهم في النهاية. وقد ظلت هذه النبوءة مصدراً مستمراً لتهمك الكافرين على المؤمنين، لأن الله ﷻ بحكمته البالغة وحسب سنته الأزلية قد أحرر تحقيقها إلى حين نزول الجزء الثاني من سورة الأنفال الذي ورد فيه ذكر هذه النبوءة. وعندما فُتِحَت مكة وتحققت النبوءة، نزل الجزء الباقي من السورة وبدأ بقوله تعالى:

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

ولعل من المناسب هنا ذكر أن بعض المفسرين قد اعتبروا إعلان البراءة المذكور في الآية يعني أن المشركين الذين يرتبطون بمواثيق مع المسلمين قد مُنحوا مهلة مدتها أربعة أشهر تنتهي بعدها جميع الاتفاقات والمواثيق بين الطرفين.

من الواضح أن هذا التفسير خاطئ تماماً، إذ لو كان المقصود من الإعلان مجرد إخطار المشركين بإلغاء المواثيق، لما كان هناك معنى لربطه بالأمر بأن يسيحوا في الأرض ويروا

بأنفسهم كيف تحققت مشيئة الله ﷻ. فمن يُعطى مهلة محدودة، يسارع للاستعداد للرحيل إلى مكان أكثر أمناً، ولا يسبح في الأرض ليرى ما فيها من معالم.

وكذلك إذا فُهمت الآية على أنها إشعار بإنهاء المعاهدات القائمة ومنح مهلة محددة للقبائل الوثنية التي أبرمت المواثيق مع المسلمين، فكيف يمكن تفسير الآية التي تليها مباشرة والتي تستثني من عاهدتهم المسلمون من المشركين من الخروج حتى انتهاء مدة معاهداتهم؟ من الواضح أن عبارة ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ الواردة في الآية الأولى من سورة التوبة لا تشير إلى أي اتفاقات أو مواثيق سياسية، وإنما إلى تلك الإعلانات التي أعلنها كل من المسلمين والمشركين ضد بعضهم بعضاً.

فقد أعلنت سورة الأنفال أن ممتلكات الكافرين ستؤول إلى المسلمين، في حين أعلن الكفار، في المقابل، أن الإسلام سيباد وأنهم سيستولون على ممتلكات المسلمين. وهذان الإعلانان المتناقضان هما ما أشير إليهما مجازاً بـ «العهد» في الآية المذكورة آنفاً، وقيل للمشركين أن يسبحوا في الأرض ويشاهدوا بأنفسهم ما إذا كان ما سبق إعلانه في سورة الأنفال من قطع دابر الشرك قد تحقق. لذا فسورة براءة ليست سوى إعلان عن تحقق هذه النبوءة العظيمة الواردة في سورة الأنفال، وليست سورة مستقلة بذاتها. وباختصار، ثمة صلة وثيقة بين هاتين السورتين اللتين تشكلان في الواقع سورة واحدة، لأنه، كما سبق ذكره، نزلت سورة الأنفال في زمن معركة الإسلام الأولى، أي غزوة بدر، وجاء فيها نبوءة عن قطع دابر الكافرين. ثم نزلت براءة بعد المواجهة النهائية مع مشركي مكة لتعلن تحقق هذه النبوءة ويزوغ عهد جديد.

موضوع السورة

تبدأ سورة الأنفال بوصفٍ لمعركة بدر، وفي الآيات (١-١٥) أخبر المسلمون بأنهم سينالون نصراً عزيزاً على المشركين، وأن ممتلكاتهم ستؤول إليهم، غير أن هذا النصر وكسب الثروة ينبغي أن لا يصيبهم بالطمع في الأشياء المادية. فهذه الحروب آيات من الله تعالى، ويجب أن لا تتحول إلى وسيلة لنيل المكاسب الدنيوية. وفي الآيات (١٦-٢٠)

أمر المسلمون بالقتال في سبيل الله ببسالة، وألا يغتروا بقوتهم وتنظيمهم، وألا يخشوا كثرة أعدائهم ولا براعتهم العسكرية، إذ إن نتيجة هذه الحروب بيد الله تعالى وحده. وفي الآيات (٢١-٢٨) تم التأكيد على أهمية طاعة السلطة مع تحذير المسلمين من أن ضعف القلة من بينهم قد يلحق ضرراً بقضية الإسلام بأكملها. وتلفت الآية رقم (٢٩) أنظار المسلمين إلى أن الإفراط في حب الأموال والأولاد مصدر ضعف للأمة، فعلى المسلمين أن يُبقوا حبهم لهذه الأمور في الحدود المعقولة. وفي الآيتين (٣٠ و ٣١) يبين الله ﷻ أن طاعة أوامره ﷺ تفتح للمسلمين سبل النجاح والازدهار، وتحميهم من مكائد أعدائهم ودسائسهم، تماماً كما حفظ رسوله ﷺ من المؤامرات السرية التي كان أهل مكة يدبرونها ضده. وتخبّرنا الآيات (٣٢-٣٥) أن العدو قد أخذه الغرور بعدده وعدته، فتوهم أنه على حق، حتى إنه دعا بنزول غضب الله على الكاذبين، ومثل هذا العدو المتعنت لن يكون من السهل عليه الاعتراف بالهزيمة. وتكشف الآيات الأربع التالية (٣٦-٣٩) زيف ادعاءات الكافرين التي تكذبها أعمالهم، وتُظهر أن هذا التناقض بين أقوالهم وأعمالهم يدل على أن الإيمان الذي يتشدقون به ليس إلا أوهاماً في عقولهم ولا مكان له في قلوبهم. ثم تحض الآية التالية المسلمين على ضرورة تبليغ دعوة الإسلام حتى وقت الحرب. وتبشر الآيات (٤١-٤٦) المسلمين بأن الحرب التي يخوضونها الآن لن تبقى سجالاً بين الطرفين، بل ستستمر حتى النهاية، وستقع معارك كثيرة لا بد لهم من خوضها، وسيكون النصر فيها دائماً حليفاً للمسلمين. وتحت الآيات (٤٧-٥١) المسلمين على طاعة الله ورسوله ﷺ والتمسك بالوحدة في العمل، مع التحذير من أن تُشَبَّط همتهم الأنشطة الخبيثة التي يقوم بها المنافقون.

وتعالج الآيات العشر التالية مسألة حرمة الالتزامات التي تفرضها المواثيق، إذ يخبر الله المسلمين بأن المشركين سينقضون عهودهم مراراً أثناء الحروب، غير أن هذا يجب أن لا يكون مدعاة لأن يخون المسلمون التزاماتهم، وعليهم ألا يتوهموا أنهم سيتعرضون للمعاناة إن لم ينتقموا لأنفسهم من خيانة المشركين لمواثيقهم بخيانة مماثلة، لأن الثبات على مكارم الأخلاق كفيل بأن يضمن لهم الفوز في النهاية. غير أن التمسك بالأخلاق

الحميدة يجب أن يصحبه أيضاً الاستعداد المناسب للحرب، لأن ذلك يتوافق مع السنة الإلهية. وتشتمل الآيتان التاليتان (٦٢ و ٦٣) على الأمر بقبول السلام إذا ما طلبه العدو أثناء الحرب. فإن نقض العدو اتفاق السلام الذي وافق عليه الطرفان وعاود القتال، فإن العقوبة ستصب في صالح المسلمين، ولن يسهم أي ضرر بسبب هذه الخيانة الجديدة التي أقدم عليها الكافرون. ويتضمن هذا التوجيه إشارة إلى صلح الحديبية الذي أدى نقض المشركين لشروطه إلى فتح مكة. وفي الآيات (٦٤-٦٧) يبين الله ﷻ أنه زرع المحبة والألفة في قلوب المؤمنين بعضهم لبعض، وأن هذا الفضل الإلهي هو الذي يعين المسلمين على الانتصار في مواجهة قوى وظروفٍ جبارة، ولذلك يجب ألا يتسرب اليأس إلى نفوسهم بسبب قلة عددهم. ويخبر الله ﷻ المسلمين في الآيات الخمس التالية (٦٨-٧٢) أن الأسرى سيقعون في أيديهم أثناء الحروب، وعليهم أن يعاملوهم بالحسنى. كما تحض الآيات (٧٣-٧٦) المسلمين على أن يكونوا أشد موالاةً لبعضهم بعضاً في زمن الحروب والاضطرابات كما يفعل الكفار فيما بينهم، لأن المسلمين ينعمون بفضل الله ﷻ في حين أن الكفار محرومون من ذلك.

إن وعود النصر التي وُعد بها المسلمون في سورة الأنفال قد أعلن تحققها في الآيات (١-٦) من سورة براءة، حيث ذكر أن المسلمين قد صاروا سادة الجزيرة العربية كلها، ولذلك طُلب من المشركين أن يسبحوا في الأرض ليروا بأنفسهم ما إذا كانت الجزيرة بأسرها قد خضعت لسلطان المسلمين أم لا. وتوبخ الآيات (٧-٢٩) الكافرين لنقضهم المتكرر للاتفاقات والمواثيق، وفي الوقت نفسه، تحذر المسلمين من إبرام مواثيق جديدة معهم، وتطمئنهم أيضاً بالأيساورهم القلق من أن خروج الكافرين من بلاد العرب سيؤثر سلباً بأي حال من الأحوال على رخاء البلاد وازدهارها، لأن الله ﷻ هو الذي يغني المسلمين من فضله.

وتذكر الآيات (٣٠-٣٧) بني إسرائيل، وتنبيه المسلمين إلى ألا يظنوا أن الحروب قد انتهت بفتح الجزيرة العربية وأنهم سينعمون الآن بالسلام، بل تشير إلى أن سلسلة جديدة من الحروب على وشك أن تبدأ بسبب الدسائس والمؤامرات السرية التي يحكيها

اليهود والنصارى. فقد اعتادت هذه الأقوام على الشرك، ولا تطبق رؤية تأسيس التوحيد الحقيقي الكامل لله تعالى على الأرض، فضلاً عما آلت إليه من فسادٍ أخلاقي، في حين يؤسس الإسلام دعائم الحرية والمساواة الحقيقية. فكيف لحكومة مسيحية أن تحتفل بقيام حكومة مجاورة تقوم على مبادئ الحرية والمساواة، مما قد يؤثر في رعاياها ويدفعهم إلى التمرد عليها؟ وبما أن على المسلمين احترام كل ما جعل الله ﷻ له حرمة خاصة، فإن عليهم كذلك إعداد الترتيبات اللازمة لمواجهة الحرب الوشيكة.

ولما كان هناك فاصل زمني بين نزول الآيات السبع والثلاثين الأولى من السورة وما تلاها من آيات، فقد ذكر في الآيات الأخيرة تحقق النبوءة الواردة في الآيات الأولى. وفي هذا السياق، قدّم عرضٌ موجز لغزوة تبوك والظروف التي تحققت فيها النبوءة المذكورة. وتنبّخ الآيات المنافقين وضعاف الإيمان من المسلمين الذين ارتعدت فرائضهم خوفاً من مملكة القيصر القوية. وحيث انكشف ضعف هؤلاء المنافقين، أمر المسلمون بألا يقبلوا معونتهم؛ فحتى من دون أي معونة منهم سيتفضل الله تعالى بجعل النصر حليف المسلمين على مملكة قيصر القوية (وقد عولج هذا الموضوع بتفصيل أكثر في سورتي الروم والفتح). وفي هذا السياق، جاء ذكر الدسائس التي حاكها المنافقون لإلحاق الضرر بالمسلمين. وتؤكد نهاية السورة أن النبي ﷺ لن ينتصر بعون البشر، بل بعون الله ﷻ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.



(٨)

﴿سورة الأنفال﴾

(مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

التفسير:

انظر تفسير البسمة في سورة الفاتحة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ
وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

نَقَلَ: يقولون نَقَلَ الرجل فلاناً أي أعطاه نافلةً من المعروف مما لا يريد ثوابه منه.

النَقْلُ: أعطاه إياه، يُقَالُ «نَقَلَهُ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ»؛ وَنَقَلَ الْإِمَامُ الْجَنْدَ: أي جعل لهم ما غنموا. نَقَلَهُ النَّقْلَ أو أَنْفَلَهُ النَّقْلَ: أعطاه إياه. وَنَقَلَهُ أَيضاً تعني زاده على حصته.

تَنَقَّلَ الرجل: صَلَّى النوافل. **النافلة** (التي جمعها النوافل): الغنيمة؛ العطية؛ ما زاد عن الواجب؛ ولد الولد (لأن الحفيد يكون إضافة إلى ما لدى المرء من أولاد).

النَّفْل (التي جمعها أَنْفَالٌ وَنِفَالٌ): غنيمة الحرب؛ الهبة؛ والزيادة. ومنه النافلة لأنها زائدة على الفريضة. النفل: ما شرع زيادة على الفرائض والواجبات. (أقرب الموارد)

النَّفْل: قيل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار، فإنه إذا اعتُبرَ بكونه مظفوراً به يُقال له غنيمة. وإذا اعتُبرَ بكونه مِنحَةً من الله من غير وجوبٍ يُقال له نَفْلٌ. (المفردات)

التفسير:

لا تتعلق هذه الآية بتقسيم الغنائم، إذ إن الأمر الإلهي حول ذلك ورد لاحقاً في الآية رقم ٤٢. أما الآية الحالية فتتعلق بالحصول على المكاسب والغنائم لا بتقسيمها. وقد نزلت بعد معركة بدر. وقبل هذه المعركة كان الله تعالى قد وعد المسلمين بالنصر على إحدى طائفتي المشركين؛ إما القافلة التي كانت في طريق عودتها من الشام بقيادة أبي سفيان، أو الجيش المكي الذي كان قد خرج من مكة بقيادة أبي جهل لقتال المسلمين. وكان المسلمون آنذاك في غاية الضعف، وكان من الطبيعي في ظل هذا الضعف الشديد أن يتساءلوا عما إذا كان مقدراً لهم أن يحققوا النصر على عدوهم وينالوا الغنائم؛ رغم الفارق الكبير بينهم في العدد والعتاد. وكان سؤالهم هذا يماثل سؤال زكريا عليه السلام عندما جاءته البشرى بولادة غلام له فقال: ﴿رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ (آل عمران: ٤١). ولا يقتصر السؤال الذي سألته المسلمون في الآية التي نحن بصددتها على النزال الذي وقع في بدر فحسب، بل يشمل كذلك جميع المواجهات اللاحقة التي ستقع حتماً بين الفريقين. ويجب القرآن المجيد على هذا التساؤل بقوله ﷺ: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي إن الله تعالى قد قدر للمسلمين أن يحققوا الانتصار على أعدائهم، ولا يمكن لشيء أن يحول دون ذلك.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى أن الانتصارات والغنائم آتية لا محالة، غير أن تحقق هذا الوعد مشروط بثلاثة شروط: أولها أن يتحلّى المسلمون بخشية الله؛ والشرط الثاني أن تسود بينهم علاقات المودة

والألفة، وأن يعيشوا معاً بحبة وسلام؛ ويدعوهم الشرط الثالث إلى ضرورة طاعة الله تعالى واتباع تعاليم رسوله ﷺ. فإذا التزم المسلمون بهذه الشروط الثلاثة، فإن الله ﷻ سوف يحقق وعده لهم بالنصر بكل تأكيد.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤﴾

التفسير:

انتهت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، وتبدأ الآية الحالية على نحو مناسب بذكر علامة أكيدة على الإيمان الحق، والتي لا بد من توافرها لتحقيق وعد النصر المذكور في الآية السابقة. فإذا ادّعى أحد أنه مؤمن بالله، بينما لا يظهر لاسم الله أي أثر في حياته العملية ولا يحرك في قلبه أي مشاعر، فإن إيمانه لا يكون صادقاً. إذ لا بد أن يكون الإيمان حقيقياً وناصباً بالحياة.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥﴾

التفسير:

تذكر هذه الآية والآية السابقة بعض خصال المؤمنين الحقيقيين الذين وعدهم الله ﷻ بالنصر في الآية الثانية من هذه السورة. وسوف يحقق الله ﷻ لهم هذا الوعد شريطة أن ينطبق عليهم الوصف الوارد في هاتين الآيتين. (انظر أيضاً البقرة: ٤).

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥﴾

التفسير:

تؤكد الآية أن الذين يتصفون بالخصال المذكورة في الآيتين السابقتين هم المؤمنون حقاً عند الله ﷻ، ثم تمضي في بيان أن المؤمنين الصادقين لا بد أن ينالوا جزاءهم وأجرهم، وأنهم سيعطون حتماً ثلاثة أمور: (١) درجات عند ربهم؛ (٢) مغفرة لذنوبهم؛ (٣) رزقاً كريماً.

وتشير الآية أيضاً إلى أن غنائم الحرب يجب ألا تلقى في النيران كما أمرت شريعة موسى ﷺ، بل يجوز الانتفاع بها عن طيب نفس، فالغنائم التي تم الحصول عليها بأسلوب شرعي هي في الحقيقة: ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

كما: «الأداة» تعني عادة «مثلما» وهي تعني أيضاً «بما أن» أو «بسبب» أو «لأن». تقول العرب: «كما تطيع الله يدخلك الجنة» (البحر المحيط).

التفسير:

هناك خلاف كبير في الرأي حول معنى كلمة «كما» الواردة في مطلع هذه الآية، وقد عرضنا معناها باختصار تحت شرح الكلمات. والأرجح أنها استخدمت هنا بمعنى «بما أن» أو «لأن»، وفي هذه الحالة يكون النصر هو الجواب المقدر في نهاية

الآية، أي إن معناها: بما أن ربك قد أخرجك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، فقد نصرك على أعدائك.

أما إذا أخذت الأداة على معناها المعتاد أي «مثلما»، فتُفهم الآية على أنها تقدم مثلاً عن كيف ينصر الله تعالى عباده وينعم عليهم بالغنائم والرزق الكريم (انظر الوعود المذكورة في الآيات ٢-٥ السابقة). وعلى هذا يكون معنى الآية: «إن الله تعالى يهب لعباده النصر والغنائم، ويرزقهم رزقاً كريماً كما فعل حين أخرجك من بيتك بالحق...».

وتشير كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ في الآية إلى أن خروج الرسول ﷺ من المدينة للقاء العدو قد تم بأمر إلهي وبوحي من الله تعالى. وعلى هذا تعني الآية أنه بما أن الرسول ﷺ قد خرج امتثالاً لأمر الله وبهدي وحيه تعالى، فإن الله ﷻ لم يكن ليتخلى عنه، بل سينصره على أعدائه.

وتتعلق الآية بغزوة بدر، حين خرج المسلمون من المدينة ولم يكونوا يعلمون أنهم سيحاربون الجيش المكي، فلم يكونوا على استعداد كامل للحرب. لذلك، عندما أطلعهم الرسول ﷺ في الطريق على أنهم سيقاتلون جيش مكة، سألوهم لماذا لم يخبرهم بذلك في المدينة ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة العدو. لم يكن قلقهم خوفاً على أنفسهم، بل حرصاً على سلامة النبي ﷺ الذي كان أحب إليهم من أرواحهم، ولم يريدوا تعريضه لأي خطر، ولا سيما في حالة عدم الاستعداد التي كانوا عليها. وما يدل على أن خوفهم وقلقهم كان منصباً على سلامة الرسول ﷺ لا على أنفسهم، وأنهم لم يكونوا يحبون خروجه من بيته في تلك الظروف، هو ما جاء في نص الآية نفسها: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فلم يقل تعالى: «أخرجكم ربكم». وبهذا تشير الآية إلى أنه لما كان الصحابة شديدي الحرص على سلامة سيدهم الحبيب ﷺ، فإن الله تعالى، لا يمكن أن يترك نبيه ﷺ بغير حمايته، فمحبة الله ﷻ لنبيه ﷺ أعظم، بلا شك، من محبة الصحابة له.

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٧﴾

التفسير:

لا تشير هذه الآية إلى صحابة النبي ﷺ كما ذهب إلى ذلك خطأ بعض المفسرين، بل إلى أعدائه. إذ لا يوجد أي دليل تاريخي على الإطلاق يثبت أن صحابة النبي ﷺ جادلوه في أمر قتال العدو. بل على العكس من ذلك؛ قد ورد صراحة أنه ﷺ لما استشارهم قبيل غزوة بدر، أعربوا جميعاً عن استعدادهم الكامل، بل وعن رغبتهم الشديدة في مرافقته لقتال العدو حيثما أراد. (سيرة ابن هشام ٢: ١٣). بل إن الكفار أنفسهم الذين خرجوا لقتال المسلمين، أقروا بأن المسلمين كانوا يبدون في أرض المعركة كقوم «يطلبون الموت» (الطبري). وعليه، فإن الآية تعني ببساطة أن أعداء الإسلام كانوا يبغضون الحق كما يبغضون الموت، ولذلك، فإن الموت نفسه سيكون عقابهم.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الشَّوْكَةُ: مشتقة من «شاك»؛ يقال: «شاكني الشوك» أي ضربي الشوك أو جرحني أو دخل جسمي. «الشوكة»: مصدر من شاك وهي أيضا مفرد الشوك. وتعني

«الشوكة»: الحسكة، الإبرة، سن الحرب، إلخ؛ سلاح أو أسلحة؛ حدة الأسلحة؛ القوة أو السطوة أو سورة الحرب وحدة القتال (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

الطائفتان المذكورتان في الآية هما (١) الجيش المكي الذي خرج لمحاربة المسلمين، (٢) القافلة المكية التي كانت في طريق عودتها إلى مكة قادمة من الشمال. أما الجيش فكان شديد التسليح ومزوداً بالعدة والعتاد، بينما كانت القافلة قليلة التسليح. وكان كلاهما من مكة ومعادين للإسلام.

وتبين الآية أن الله تعالى كان قد وعد النبي ﷺ بنصر المسلمين على إحدى الطائفتين، أي القافلة أو الجيش، وقد أنجز وعده ونصرهم على خلاف كل التوقعات. وهذا يدل على أن الله ﷻ قد أخبر الرسول ﷺ، وهو لا يزال في مكة، بالهجوم المتوقع من جيش مكة، وإلا لم يكن الله تعالى ليقول: ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾، غير أن الرسول ﷺ أبقى هذا الأمر سرّاً. كما تدل الآية المذكورة أعلاه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال: ٦) على أنه من المحتم أن يكون الرسول ﷺ قد تلقى وحياً من الله تعالى وهو لا يزال في المدينة، أبلغ فيه بالهجوم الوشيك من الأعداء، وأن الله تعالى هو الذي أمره بالخروج. كما تلمح الآية إلى أن الرسول ﷺ أبقى هذه الأنباء طي الكتمان، ولم يكشف عنها إلا لبعض صحابته المقربين.

وتلمح عبارة ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ إلى أن المسلمين كانوا يرغبون في مواجهة الطائفة الأقل شوكة، أي القافلة، التي كان من السهل التغلب عليها. غير أن الله ﷻ أراد أن يكون النزال مع الجيش الذي تصعب هزيمته، وكان غرضه سبحانه من ذلك ﴿أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾، حتى تتحقق - على خلاف كل التوقعات - النبوءات المتعلقة بهلاك العدو في ذلك اليوم، ويكون تحققها وسيلة لإثبات صدق

الإسلام. ولمزيد من التفاصيل عن أحداث غزوة بدر، انظر تفسير الآية ١٤ من سورة آل عمران، والآيات ٤٢ - ٤٥ من سورة الأنفال.

لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٩﴾

التفسير:

لقد تكررت هنا عبارة ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ الواردة في الآية السابقة، وذلك للتأكيد عليها وإبراز التباين الواضح بين معنى هذه الكلمات ومعنى ما يليها، أي ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

تَسْتَغِيثُونَ: مشتق من «غاث». يُقال «غاثه أو أغاثه» أي ساعده أو أعانه أو نجده أو نصره؛ أزال الله عنه كدره أو كربته. غوث أو غواث يعني صيحة لطلب العون أو النجدة. غياث يعني معونة أو نجدة؛ النجاة من كرب أو غم. «استغاثه» يعني رغب أو طلب العون والنجدة منه؛ أو استنجد أو استعان به (معجم لين وأقرب الموارد).

مُرْدِفِينَ: مشتقة من «أَرْدَفَ» المشتقة من «رَدَفَ». يقولون «رَدَفَهُ» أي ركب خلفه على نفس الحيوان؛ أو أنه تبعه أو جاء بعده. وتأتي أردف بنفس معنى ردف؛ مثلما يُقال «أَرْدَفَتِ النجوم» أي توالى. يقولون «أردفه أمر» أي حدث له أمر فيما بعد؛ أو أن حدثاً ما قد اكتنفه على حين غرة أو بغير توقع. «أردف الشيء بشيء» أي جعل

الشيء يتلو الشيء الآخر. «رديف» أي الشخص الذي يركب خلف الآخر على نفس المطية؛ النجم الذي يشرق حين يغرب النجم المقابل له أو العكس. «ردف» يعني تبعة أو عاقبة شيء أو حدث ما؛ الأتباع أو المساعدون أو المنجدون؛ الليل والنهار يتبع أحدهما الآخر؛ النجم الذي يتبع الآخر. وعلى هذا فإن كلمة مردفين تعني يتبع الواحد الآخر (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

للاطلاع على نزول الملائكة انظر آل عمران: ١٢٥ - ١٢٧، والأنعام: ١٥٩. وانظر أيضاً البقرة: ٣١.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ
قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ١٣٧ من سورة آل عمران. إذ قد يحدث أحياناً خلط بين الوسائل الوسيطة وبين المصدر الحقيقي للعون الذي هو الله ﷻ، ولذلك يولي القرآن المجيد أهمية بالغة لتذكير المسلمين بأن المصدر الحقيقي لكل عون وكل قوة هو الله ﷻ وحده.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ

رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

رَجَزَ: مشتقة من «رَجَزَ». يُقال: «رَجَزَ الناقة» أي المرض أو الحركة التشنجية التي في سيقان الناقة أو أفخاذها و«الرَجَز»: داءٌ يصيب الإبل في أعجازها فإذا ثارت ارتعدت أفخاذها ساعةً ثم انبسطت. «رجزت الريح» أي استمرت الريح أو دامت. «رجز» يعني هرج أو تهيج أو تشنج؛ التتابع في الحركات؛ العقاب الذي تهيج سؤرته فيثور نتيجة له هرج شديد؛ السلوك الذي يؤدي إلى العقاب؛ الإثم؛ القذارة أو النجاسة؛ الشرك أو عبادة الأصنام؛ الشيطان ووساوسه؛ الوباء أو الطاعون (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

قبل بدء أي معركة، ولا سيما المعارك الحاسمة، يسود القلق والتوتر لدى الطرفين المتحاربين؛ فتخفق القلوب اضطراباً ويغيب النوم عن العيون. ولذلك تذكر الآية نزول النوم على المؤمنين في معركة بدر بوصفه علامة على فضل الله تعالى. فقد جعل الله تعالى النعاس يغشى عيون المسلمين، فزال عنهم القلق، وغمرهم شعور بالثقة والأمان وهدأت نفوسهم. وقد كان لهذه الحالة النفسية أثر بالغ في الإسهام في تحقيق النصر.

والفضل الثاني الذي تذكره الآية الكريمة يتعلق بنزول المطر. إذ أنزل الله سبحانه الغيث فحقق به أربعة أغراض نافعة كما بينها الآية: أولاً أنه طهر المسلمين، إذ لما رأوا عون الله يتنزل عليهم ازداد إيمانهم بالله ﷻ وتطهرت قلوبهم التي غمرها اليقين. وثانياً أن الغيث الذي هطل عليهم أزال عنهم رجز الشيطان، أي أزال عنهم العطش، فقد وصف القرآن المجيد العطش مجازاً بأنه نُصِبَ وعذاب من الشيطان؛

فمثلاً حين أصاب أيوب عليه السلام العطش نادى ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤٢)، فاستجاب الله تعالى دعاءه قائلاً: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٣). فإزالة «رجز الشيطان» تعني إزالة العطش أو التخفيف من حدته. وتعني كلمة «الشيطان» أحياناً «مَن هم من الشيطان»، أي أعوان الشيطان وأوليائوه. وبهذا المعنى يكون المقصود: «إن الله دفع عنكم هجوم القوم الفاسدين»، في إشارة إلى أن الأمطار كانت وسيلة لإعاقة هجوم قريش على المسلمين، إذ جعلت الأرض الصلبة التي كان يشغلها أهل مكة زلقة، فحال ذلك دون شن هجوم ناجح على المسلمين. ثالثاً، أدى نزول المطر إلى الربط على قلوب المؤمنين، فازداد إيمانهم قوة وثباتاً لما رأوا آيات الله تعالى وعونه الخاص. رابعاً: ساعد المطر على تثبيت أقدام المسلمين إذ - كما تذكر كتب التاريخ - كانت الأرض التي نزلوا بها رملية، فجعلها المطر متماسكة صلبة، فتمكنوا من السير عليها بخطوات ثابتة. وقد تضافرت هذه العوامل كلها في تحقيق النصر للمسلمين.

وحرَّيُّ بالقارئ أن يتأمل الترتيب البديع لكلمات هذه الآية. فقد بدأت بتطهير القلوب، وهو أول أغراض إنزال الماء من السماء، وانتهت بتثبيت الأقدام والمشي بخطى ثابتة وهو رابع الأغراض من نزول المطر. وكأن فضل الله تعالى تنزل على القلوب ثم نفذ منها إلى الأقدام.

إِذْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَلْمَلَايِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ
فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا
مِنْهُمْ كُلُّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

فَوْقَ: مشتق من «فَاق»، يقولون «فَاقَهُم» أي أنه كان أو صار فوقهم. وعلى ذلك فإن «فوق» تعني الموقع أو المكان الذي يعلو شيئاً أو شخصاً. يقال: «فوق رأسه» أي الجزء الأعلى من الرأس (معجم لين).

التفسير:

تبين هذه الآية أن الملائكة يقومون بدور الوسيط بين الله ﷻ والإنسان، وأن عون الله ﷻ ينزل على البشر بواسطتهم. كما تومئ إلى أن من الملائكة من أنيطت بهم مهمة تقوية قلوب الصالحين وتثبيتها، في حين أوكلت لملائكة آخرين مهمة إلقاء الرعب في قلوب الأشرار. ولذلك أمر الله تعالى الصنف الأول من الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين، وأخبرهم بأنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب عن طريق الصنف الآخر من الملائكة.

وأمر الله تعالى المؤمنين بضرب الكفار ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ لأن الجزء الأعلى من العنق - أي ما تحت الرأس مباشرة - يعدّ أنسب موضع لتصويب ضربة السيف. ويختص هذا الأمر الإلهي بمن يستحق القتل من الأعداء، والذين بغير قتلهم لا يستطيع المسلمون الدفاع عن أنفسهم. وأما «ضرب البنان» فيعني إعاقة الأعداء وسلب قدرتهم على القتال. ويختص هذا الأمر بأولئك الأعداء الذين كان ينبغي -قدر المستطاع- تجنب قتلهم، والاكتفاء بإيقاع الحد الأدنى من الأذى فيهم. وقد نُفذ الأوامر على أكمل وجه، فعلى الرغم من حالة الضعف الشديد التي كان عليها المسلمون في بدر، استطاعوا قتل ٧٠ من الكافرين معظمهم من القادة، وأسروا عدداً مماثلاً. في حين لم يتمكن العدو من قتل سوى ١٤ مسلماً فقط.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِقِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾

التفسير:

انظر الآيات: النساء: ١١٦؛ محمد: ٣٣؛ الحشر: ٥.

ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾

التفسير:

يشير تعالى في هذه الآية إلى عقابين للكافرين: أحدهما في هذه الحياة الدنيا، والآخر في الآخرة. وحيث إن الوعيد بالعقاب الأول في هذه الدنيا قد تحقق، فإن من المنطقي أن يتحقق العقاب الثاني أيضاً. كذلك، قد وعد الله ﷻ المؤمنين وعدين: أولهما وعد النصر والفلاح في هذه الحياة الدنيا، وثانيهما وعد النعيم في الحياة الآخرة. وحيث إن الوعد الأول قد تحقق على نحوٍ يثير الدهشة والعجب، فلا بد أن يتحقق الوعد الثاني أيضاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

زَحَفًا: مشتقة من «زَحَفَ» أي مشى، سار أو ذهب على الأقدام متثاقلاً في ببطئه؛ تقدم زاحفًا على بطنه أو على أربع؛ أو ذهب الهويناً أو ببطء؛ سار أو تحرك بجهد؛ جرن نفسه على الأرض. يُقال «زَحَفَ العسكر» بما يعني أن الجيش تقدم ببطء بسبب أعداده الغفيرة. «الزَّحْفُ» يعني جيشاً أو قوة عسكرية تتحرك ببطء بسبب عددها الكبير؛ الجيش العرمرم غفير العدد (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير كلمة «زحفاً» - أي التقدم بقوة - إلى المؤمنين لا إلى الكافرين، كما ظن بعض المفسرين. وتؤكد الآية التالية، إضافة إلى صياغة هذه الآية، هذا المعنى تأكيداً قاطعاً. عندما يواجه الجيش المسلم - لا الكتيبة الصغيرة - جيش العدو، يمنع عليه منعاً باتاً الفرار من ساحة المعركة، بل ينبغي عليه المضي قدماً في القتال حتى النصر أو الموت؛ ولا خيار ثالث أمامه. ويُعد هذا الأمر من الأسرار العظيمة في تحقيق النصر، كما أنه وسيلة أكيدة لضبط النفس.

وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذِي الْقَعْدَةِ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ
مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ
جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ١٧

شرح الكلمات:

مُتَحَيِّرًا: مشتقة من «تحيز» المشتقة من «حاز». يقولون «حازه» أي جلبه أو جمعه مع بعضه بعضاً. «حاز الإبل»: ساقها. «تحيز أو تحوز» يعني أنه أو أن الشيء تلوَّى وصار مبروماً حول نفسه؛ أو أنه صار متمللاً متبرماً، لا يبقى في حال على الأرض؛ أو أنه انفصل بعيداً واعتزل أو انسحب. «تحيز إليهم»: تحوّل وانسحب وضم نفسه إليهم (مجموعة من الناس). «تحيز» تعني أيضاً أنه انسحب إلى مكانه أو إلى مكانه المناسب. «حيز»: مكان به شيء؛ مكان الشيء الطبيعي أو المناسب؛ الوعاء أو الحاوية التي تحتوي شيئاً ما (معجم لين).

فِتْنَةٌ: مشتقة إما من «فاو» بمعنى ضرب أو قرع أو فلق، أو إنها مشتقة من «فَاء» بمعنى عاد أو عاد إلى حالة طيبة. وتعني كلمة فتنه: الحزب، جزء متميز من الناس؛ الفرقة أو الحشد من الناس؛ الفرقة من الجنود التي تحارب في مؤخرة مجموعة أخرى أو فرقة

تستعين بها المجموعة الأخرى في حالة الخوف أو الهزيمة؛ أو مجموعة من الناس (في الحرب) يلجأون لبعضهم بعضاً طلباً للمساعدة (معهم لين).

التفسير:

تعود أهمية هذه الآية إلى أنها تحدد وتبين الظروف التي يُسمح فيها للقوة الإسلامية المحاربة أن تتقهقر أو تنسحب أمام قوة معادية، إذ لا يُرخص بهذا الانسحاب إلا في حالتين اثنتين: الأولى أن يكون الانسحاب مناورة قتالية أو حركة استراتيجية تغير فيها القوة الحربية موقعها لا فراراً من القتال، بل بقصد خداع العدو أو شغل موقع أفضل؛ والثانية أن تتراجع القوة الحربية بقصد الانضمام إلى الجيش الرئيس أو إلى قوة إسلامية أخرى قبل مواجهة العدو. ولا يُسمح بأي انسحاب أو تقهقر خارج هاتين الحالتين، إذ يتعين على المسلمين إما تحقيق النصر وإما الثبات حتى الموت. وأما الذين يولون الأدبار فارين، فإنهم يستجلبون غضب الله عليهم، «ومأواهم جهنم وبئس المصير».

ويحمل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ معنى مزدوجاً: (١) أن الذين ينسحبون من ساحة المعركة - إلا في الحالتين المستثنيتين - يكون جزاؤهم جهنم في الحياة الآخرة. (٢) وأن الفارين، وإن كانوا يظنون أنهم ينجون بأنفسهم من الخطر، فإنهم في الحقيقة يلقون بها في فكي النار، لأن انسحابهم المخزي هذا يشجع أعداءهم عليهم، ويفتح لهم الباب واسعاً لاضطهادهم.

وإن معركة تبدأ بفرد واحد - هو النبي المرسل من لدن الله تعالى - يقف في مواجهة قوى العالم أجمع، لا يمكن بحال أن تسمح في مرحلة لاحقة بتقهقر الفئة المؤمنة أمام جيش الكافرين بحجة عدم التكافؤ العددي. فحيثما وجد الإيمان الحق الصادق، لا يكون للعدد أي وزن، بل لا يمكن أن يكون له اعتباراً أصلاً. ولا بد أن يستمر القتال حتى النهاية، إذ لا ينتظر المؤمن إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة (التوبة: ٥٢).

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ
رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ
مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

يُبْلِي: مشتق من «بلا» المشتق من «بلاء». يقال «بلاه أو ابتلاه» أي اختبره أو امتحنه بشيء جيد أو سيئ. «أبلاه الله بلاء حسناً» أي أن الله تعالى صنع به صنعا جميلاً. «أبليته معروفاً»: أسديت إليه معروفاً أو منفعة. «البلاء» يعني الاختبار أو الامتحان؛ المحنة من أي نوع ويكون الغرض منها اختبار صبر المرء أو أي فضيلة أخرى أو إثباتها؛ فائدة ما؛ نعمة أو بركة؛ الحزن؛ فرض أمر صعب أو مزعج. «بلاء حسن»: نفع عظيم أو بركة أو نعمة من الله أو عطية طيبة من الله. «الابتلاء»: الاختبار، إثبات شيء أو الامتحان بشيء؛ الطلب أو الرغبة؛ اختيار (معجم لين).

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أن النصر الذي تحقق في بدر لم يكن نتيجة لأي جهد من جانب المسلمين؛ وإنما كان فعلاً خالصاً من الله تعالى. وعلى هذا - فكما جاء في الآية السابقة - ليس هناك مبرر يدعو المسلمين للفرار من أرض المعركة.

بدأت معركة بدر التي دارت رحاها في السنة الثانية للهجرة بمبارزات فردية، أعقبها هجوم شامل. وعندئذ أخذ النبي ﷺ حفنة من الحصى ورماها باتجاه العدو، فكان ذلك علامة على قرب نزول العون الإلهي، تماماً كما كان ضرب موسى ﷺ للبحر بعصاه علامة على قرب وصول عون الله ﷻ. فما أن ألقى النبي ﷺ حفنة الحصى، حتى هبت على الفور ريح عاصفة في اتجاه العدو مباشرة، فأعمت أعينهم بالرمال، مما

ساهم في إضعافهم وتحقيق انتصار المسلمين. وإلى هذا الحدث يشير قول الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، دلالة على أن يد الله القوية، لا يد النبي ﷺ، هي التي ألقت الحصى، وأن النصر إنما كان بفضل عون الله ﷻ للمسلمين.

وينبغي للقارئ أن يلاحظ أنه حين كان الحديث عن الصحابة في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ لم تنسب الآية إليهم أي عمل، بل نفت ببساطة قتلهم العدو، بينما في حالة رمي النبي ﷺ حفنة الحصى، قالت الآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، مشيرةً بذلك إلى أنه، على الرغم من أن النصر جاء من عند الله ﷻ، كان للنبي ﷺ نصيب فيه، إذ أسهم بأدعيته الصادقة في استدرار نزول العون الإلهي.

وهناك تشابه عجيب بين إلقاء النبي ﷺ حفنة من الحصى والرمال وضرب موسى ﷺ للمياه بعصاه. فكما كان فعل موسى ﷺ إشارة لهبوب الريح التي أدت إلى غرق فرعون وجنوده في البحر، كذلك كان إلقاء الرسول ﷺ حفنة الحصى إشارة لهبوب ريح عاتية أدت إلى هلاك أبي جهل (الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه فرعون قومه) وجنوده في الصحراء. وبعد انتهاء معركة بدر، ألقى جسد أبي جهل وغيره من قادة قريش في قاع غور أو بئر قديم، وهكذا تمت المماثلة بين مصير أبي جهل ومصير فرعون. إذ كما غرق فرعون وجنوده في أعماق البحر، كذلك ألقى أبو جهل ورفاقه في أعماق البئر.

وتشير كلمات الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى أدعية الرسول ﷺ التي سمعها الله ﷻ واستجاب لها بأن أنعم على المسلمين بنصرٍ فريد.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ
تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ
تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

تَسْتَفْتِحُوا: مشتقة من «استفتح» المشتقة من «فتح» التي تعني أنه فتح (الباب مثلاً) أو أزال الأقفال. «فتح الحاكم بين الناس»: حكم بين الناس. «استفتح»: طلب النصر أو طلب إصدار الحكم (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تخاطب الآية الكفار الذين طالبوا النبي ﷺ بآية تدل على النصر أو حكم الله، إذ قالوا: «لو كنت حقاً رسول الله، فلماذا لا يعينك وينصرك؟» وهنا تخبرهم الآية بأن حكم الله قد جاء حقاً في صورة النصر الذي تحقق، وأنهم إن انتهوا الآن عن القتال كان ذلك خيراً لهم. أما إن عادوا إلى الحرب، فإن الله ﷻ سيرهم آيات أخرى من آيات النصر، وسيهزمون وتلحق بهم المذلة رغم تفوقهم الكبير في العدد والعدة، لأن ﴿اللَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا
عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

التفسير:

بما أن الله ﷻ هو مصدر كل قوة وأن النبي ﷺ وسيلة فيها، أمر المؤمنون هنا بطاعة الله ورسوله ﷺ. فقد شهد المؤمنون حتى ذلك الوقت الكثير من آيات الله ﷻ، ويشاهدون الآن آية عظيمة في غزوة بدر. وبما أنهم قد رأوا العديد من هذه الآيات، كان التزاماً عليهم أن يكونوا طائعين لله ورسوله ﷺ.

وإن كل من اشترك في غزوة بدر كان من المسلمين المخلصين، ولم يكن بينهم من المنافقين أحد، إلا ربما شخص واحد. غير أن المنافقين كانوا سيظهرون في المعارك المستقبلية؛ ولذلك كانت هناك حاجة ماسة إلى أن يكون المسلمون على حذر وأكثر حرصاً في مسألة الطاعة. والحقيقة أنه حتى غزوة بدر كان عبد الله بن أبيّ، زعيم المنافقين، ورفاقه لا يزالون تحت وهم أن الإسلام لم يكن سوى مجرد عرض عابر، وأن الحفنة القليلة من المسلمين ستزول قريباً. لذلك جاء النصر في بدر بمنزلة صدمة شديدة لهم فتبددت آمالهم. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، صاروا أشد ضراوة في دسائسهم ضد الإسلام وضد النبي ﷺ. ومن هنا جاءت أهمية التأكيد على ضرورة طاعة الله ورسوله، ففي الطاعة والوحدة يكمن سر نجاحهم وازدهارهم في المستقبل.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾

التفسير:

تحذر الآية المسلمين المخلصين من اتباع مسلك المنافقين الذين يقولون إنهم يسمعون وهم في الحقيقة لا يسمعون.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير:

تتناول الآية في المقام الأول المنافقين؛ فلم آذان ولكنهم لا يسمعون كلام الله ﷻ، ولذلك فهم صم في واقع الأمر؛ ولهم ألسنة ولكنهم لا يسألون عن الحق ولا يتحرّونه، لذلك فهم خرس؛ ولهم قلوب ولكنهم لا يتفكرون في الحقائق، فكأنهم قد فقدوا حواسهم فلا يعقلون شيئاً. وفي الحقيقة، إذا غُطلت في الإنسان المواهب التي أنعم الله بها عليه من سمع وكلام وفهم، فإنه لا يكون أفضل من الحيوان، بل يكون في واقع الأمر ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾، لأنه رغم تمكنه من السمع والكلام وقدرته على التفكير إلا أنه لا يستعمل هذه القدرات.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

التفسير:

كلمة ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ في الموضع الأول من الآية الكريمة تعني أنه لو علم الله فيهم خيراً لأعانهم على سماع الحق وقبوله. وعلى هذا تبين الآية أن الله ﷻ لا يضل ولا يترك للضلال إلا الذين في قلوبهم مرض. أما الذين في قلوبهم أي خير، فإن الله تعالى يهديهم دائماً إلى قبول الحق.

وبين الجزء الثاني من الآية الكريمة أنه رغم أن الله تعالى يعين الأخيار على قبول الحق واتباعه، فإنه ﷻ لا يجبر أحداً على الضلال أبداً.

وعلى هذا فإن كلمة ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ في هذا الموضع الثاني من الآية تعني: لو أجبرهم الله تعالى، وهم في حالتهم الراهنة، على قبول الحق، لكانت النتيجة أن تظل قلوبهم بغير قناعة ولا هداية، ولن يكونوا أبداً مسلمين مخلصين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ
بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير:

رغم أن الآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الاستجابة لله وللرسول ﷺ فإنها لا تقول: «إذا دعواكم» أي الاثنان معاً، بل تقول: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ بصيغة المفرد. والضمير المستتر الذي تقديره «هو» يعود بلا شك إلى الرسول ﷺ لأنه هو الذي يقوم بالدعوة في واقع الأمر، ودعوة الله ﷻ تتم عن طريق رسوله. ويمكن أيضاً أن يعود هذا الضمير المستتر إلى الله ﷻ وإلى الرسول ﷺ كل على حدة، فيكون المعنى إذا دعاكم الله وإذا دعاكم الرسول ﷺ.

ويحتوي قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ على حقيقة كبرى؛ فإن الغرض من دعوة النبي دائماً هو أن يمنح الحياة لمن يؤمن به. وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار دائماً أنه حينما يُنسب إلى نبي من أنبياء الله أنه «أحيا الموتي» أو «منح الحياة»، فلا بد أن تفهم هذه الكلمات بمعناها الروحي، لا بمعناها الحرفي.

وقوله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ذو أهمية بالغة. فهناك قوتان في الإنسان: أولاهما قوة الإرادة لدى «الأنا»، وتكمن هذه القوة في العقل، ولذلك تشير إليها الآية بكلمة ﴿الْمَرْءِ﴾. أما القوة الثانية فتكمن في القلب. ف«الأنا»، أو قوة الإرادة، أو المرء، هو الذي يصدر الأمر، وللقلب أن يطيعه. ولكن القلب الفاسد لا

يطيع دائماً الأمر الصادر إليه من العقل، ولذلك جاءت كلمات الآية: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ لتبين أن الله ﷻ يأتي بين «المرء» وبين القلب. فليس لدى الإنسان القدرة على تطهير قلبه، أي إنه لا يستطيع جعل القلب يطيع أوامر قوة الإرادة وتوجيهاتها، إذ ليس له سلطة عليها. أما الله تعالى فله السلطان على القلب ويستطيع تطهيره. لذلك يتوجب علينا أن نطيع الله ﷻ لكي يظهر قلوبنا ويجعلها تتبع لقوة إرادة «المرء». والتعبير مجازي والمقصود به أن الله ﷻ وحده القادر على جعل توجيهات الـ«أنا» تؤثر على القلب بالشكل المطلوب.

وتومئ الآية أيضاً إلى أن على الإنسان أن يسارع إلى سماع الدعوة الصالحة وقبولها، لأن التأخر في ذلك، يفعل القانون الإلهي الخاص بمن يتردد في قبول الحق ويتخلف عنه، فيصيب القلب بالصدأ ويزيده عزوفاً عن قبول الحق.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ
خَاصَّةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

فِتْنَةً: مشتقة من «فَتَنَ»، يُقال: «فُتِنَ» أي امتحنه أو اختبره أو أثبت وجود صفة فيه. و«الفِتْنَةُ» تعني امتحاناً يكون الغرض منه التفريق بين الصالح والطالح. (انظر أيضاً البقرة: ١٠٣، ١٩٢؛ النساء: ٩٢؛ المائدة: ٥٠، ٧٢). لذا فالفتنة هي كل ما يكون وسيلة لتطهير الصالحين وتقدمهم، وكشف القوم الفاسدين واندحارهم.

التفسير:

تحتوي الآية على حقيقة هامة وعظيمة. فلا يكفي الإنسان أن يكون صالحاً بمفرده. فإذا كان محاطاً بأشخاص سيئين غير صالحين، فلن يستطيع تجنب العدوى منهم والآثار المترتبة على ذلك. ولذلك قد ينال العقاب الإلهي أحياناً حتى بعض الصالحين

إذا كانوا يعيشون بين قوم فاسدين ولا يجتنبون مجتمعهم. وعلى هذا لا يكفي أن نحيا بأنفسنا حياة تقية صالحة، بل علينا أن نسعى جاهدين لجعل الآخرين يحيون حياة صالحة أيضاً. ولا يكفي أن نصلح أنفسنا ونقومها بل ينبغي علينا إصلاح المجتمع الذي نعيش فيه والقوم الذي نحيا بينهم، إذ لا يمكننا أن ننعم بالأمن والسلام في بيوتنا إذا كانت النيران مشتعلة في البيوت المجاورة لها.

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي
الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ
فَتَأْوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾

التفسير:

تقول الآية هنا للمسلمين إن الله ﷻ قد أنقذهم حين كانوا مستضعفين في الأرض يحيط بهم الأشرار من الناس، فعليهم أن يسعوا لمعونة الضعفاء الذين تحيط بهم الأخطار. وتومئ الآية أيضاً إلى أن المسلمين سيزدهرون قريباً وينالون السلطة، فعليهم ألا ينسوا أبداً الأيام الصعبة التي مرت بهم، أي إن عليهم في أيام قوتهم، ألا يضطهدوا خلق الله من الضعفاء بل أن يعاملوهم دوماً بالعدل والرحمة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا
أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

التفسير:

تدعو الآية المسلمين ألا تتسم تصرفاتهم بالخيانة، لا تجاه أوامر الله ﷻ، ولا تجاه بعضهم بعضاً. فالمسلم في الحقيقة يجب أن يكون دائماً مخلصاً لله ﷻ ولأقرانه في الإنسانية.

ومما يسترعي الانتباه أن الآية حين تحدثت عن الإخلاص لله ﷻ قالت مباشرة: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾، ولكنها حين تحدثت عن الإخلاص للناس قالت: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، وذلك للإشارة إلى أن الإخلاص لله أمر مطلق وأزلي، يقوم عليه خلق الإنسان نفسه، بينما ينبثق الإخلاص للناس من الأمانات التي يحملها والتعهدات والالتزامات التي يعقدها أو يدخل فيها.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

فِتْنَةٌ: انظر شرح الكلمات في الآية ٢٦ أعلاه.

التفسير:

حيث إن الفتنة وسيلة للتطهير، فقد سُمِّيت أموالنا وأولادنا فِتْنَةً لأنهما وسيلة للتطهير الروحي وعن طريقهما نستطيع تقديم التضحيات من أجل الدين والإنسانية. إذ إننا إن لم نملك ما لا فلن نستطيع الإنفاق في سبيل الله أو من أجل إخواننا في الإنسانية، وإذا لم يكن لدينا أولاد فلن نتمكن من تربيتهم وجعلهم أفراداً صالحين يؤدون حقوق الله وحقوق العباد. وبالإضافة إلى ذلك، إن لم يكن لدينا أولاد نكون أحراراً من المسؤولية، ولا تكون أمامنا عقبات؛ ولذلك لا يمنحنا الإنفاق في سبيل الله في هذه الحالة من الفضل ما يمنحنا إياه لو كان لدينا أولاد وذرية. وبالتالي فإن

الأموال والأولاد يَمَكِّنَانَا من تقديم التضحيات في سبيل الله وفي سبيل الإنسانية؛ فهما نعمة وليستا نقمة، غير أنهما قد يتحولان إلى نقمة بالنسبة للأشرار من الناس الذين يكون حب المال وحب الذرية حجر عثرة لهم.

وتعني الكلمات ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أنه لما تفضل الله ﷻ علينا ورزقنا الأموال والأولاد بغير جهدٍ منا، فإنه قادر على أن يتفضل علينا بجزء أعظم إذا سعينا في سبيله وبذلنا جهدنا لكسب رضاه. أما إذا أخذنا كلمة فتنة بالمعنى السلبي، أي إنها حجر عثرة، فإن عبارة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تعني أنه إذا صارت أموالنا وأولادنا حجر عثرة لنا، فيجب أن لا نسمح لهما بالوقوف في طريقنا، بل علينا أن ننيب إلى الله تعالى الذي نجد لديه الأجر الكريم لهذه التضحيات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ
فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

فُرْقَانٌ: يعني: (١) ما يَمَكِّنُ المرء من التفريق بين الحق والباطل، والصحيح والخطأ. (٢) البرهان أو الدليل أو الحجة. (٣) العون أو النصر. (٤) الفجر (معجم لين). انظر أيضاً البقرة: ٥٤.

التفسير:

يمكن أن تؤخذ كلمة «فرقان» هنا بالمعاني الأربعة المذكورة أعلاه. فأولاً، إذا اتصف الإنسان بالتقوى وخشية الله تعالى، يمنحه سبحانه نوراً يستطيع به أن يُفَرِّق بين الصحيح والخطأ. وثانياً، إن الأتقياء الذين يخشون الله تعالى يتلقون منه البراهين والحجج والأدلة على الحق، هم لا يؤمنون إيماناً أعمى بصدق دينهم، بل تكون لديهم

البراهين والحجج البينة على صدق ما يؤمنون به. وثالثاً، الاتقياء الذين يخشون الله ينالون العون والنصر منه تعالى. ورابعاً، يزيل الله عنهم ظلام الشدائد، ويشرق عليهم فجر يوم السعادة والنعيم.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ
يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

يُثْبِتُوكَ: أي يسجنوك. «يثبتوا» مشتقة من «أثبت» المشتقة من «ثبت» وتعني استمر أو بقي أو كابد وصبر على شيء؛ أو أنه بقي راسخاً أو مستقراً؛ أو أنه كان أو صار موثقاً أو راسخاً. «أثبتته»: يعني جعله يستمر أو أبقاه أو حمّله؛ أو أنه جعله يبقى راسخاً أو مستقراً. يقولون: «أثبتته جرحه» أي أن جرحاً جعله غير قادر على الحركة. «ضربوه حتى أثبتوه» يعني أنهم انهالوا عليه ضرباً إلى أن صار لا يقوى على التحرك. «أثبتته بوثق» يعني أنه ربطه بقيود حتى إنه لم يعد يقوى على الحركة. «لِيُثْبِتُوكَ أَوْ لِيُثْبِتُوكَ» - التي هي قراءة أخرى للكلمة - أي ليصيبوك بجرح لكيلا تتمكن بسببه من التحرك هنا وهناك؛ أو ليقبوك في مكانك، أي ليسجنوك ويمنعوك من التحرك والسعي في الأرض (معجم لين).

التفسير:

لقد كان رسول الله ﷺ شبيهاً بجميع أنبياء الله تعالى، وقد أظهر ﷺ في معركة بدر معجزة شبيهة بمعجزة موسى عليه السلام، (انظر الأنفال: ١٨ أعلاه) بينما تشير الآية الحالية إلى معجزة أخرى تشابه معجزة يونس وعيسى عليهما السلام.

كانت قريش في مكة تتخذ مكاناً يجتمعون فيه يسمى «دار الندوة»، حيث كانوا يتشاورون فيما يمكن اتخاذه ضد الرسول ﷺ. ولما علموا أن الإسلام قد أخذ في الانتشار بالمدينة، حيث كان أتباع الدين الجديد يهاجرون إليها طلباً للحماية، عقد أبو جهل وزعماء قريش اجتماعاً في دار الندوة لتقرير ما يمكن اتخاذه من خطوة حاسمة لوضع نهاية للدعوة الجديدة. وتعالى الاقتراحات في ذلك الاجتماع، فاقترح بعضهم أن يُحجز النبي ﷺ ويُسجن؛ واقترح آخرون طرده من مكة؛ بينما ذكر اقترح ثالث أن يتم اختيار بعض الرجال الأشداء من مختلف قبائل قريش ليهاجموا الرسول ﷺ معاً ويقتلوه. وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح الأخير. وفي ليلة حالكة السواد حاصرت مجموعة من الرجال بيت الرسول ﷺ في انتظار خروجه ليقتلوه. وحيث إن الله ﷻ قد أبلغه بالخطر الوشيك، أعد ﷺ مع أبي بكر ﷺ بعض الترتيبات للهجرة من مكة في تلك الليلة نفسها، وطلب من ابن عمه عليّ ﷺ أن ينام في سريره، بينما أخذ هو يعد العدة للخروج. وكان المحاصرون للبيت ينظرون إلى داخله خلسةً من حين لآخر، فيظنون أن علياً ﷺ هو النبي ﷺ، فيواصلون انتظارهم لخروجه.

وبينما كانوا ينتظرون، غلبهم النعاس فناموا. وانتهازاً للفرصة فخرج من البيت بغير أن ينتبه إليه أحد. وكان أبو بكر ﷺ في انتظاره على مسافة. وبعد أن ودّعا مدينتهما الحبيبة، أويا - وفقاً لخطة معدة مسبقاً - إلى غار في منطقة وعرة على قمة جبل خارج مكة. ولما علم أهل مكة المتعطشون للدماء بخروجه، استعدوا للحاق به. وقد تبعوه مقتفين أثر خطواته التي قادتهم إلى الغار الذي كان النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ يختبئان فيه، ولكن، كما جاء في الأخبار، كانت عنكبوت قد نسجت بيتها على مدخل الغار. فلم يخطر ببالهم أن الرسول ﷺ قد أوى إلى ذلك الغار البعيد، والذي بدا أن أحداً لم يدخله منذ وقت طويل. وتجادلوا فيما بينهم قائلين إن قصاص الأثر الذي أحضرهم إلى مدخل الغار قد أخطأ، ولم يدر بخلد أحدهم أن ينحني ليلقي نظرة داخل الغار ليتيقن من خلوه. وبذلك حفظ الله عبده الحبيب من براثن الذئاب الضارية التي تتبعته لتقضي عليه بوحشية. ولما لم يجدوا له أي أثر،

عادوا أدراجهم إلى مكة. غير أن كثيرين راحوا يبحثون عنه في كل مكان، إذ أعلنت قريش عن جائزة قدرها مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ولكن الله تعالى تولاه مرة أخرى بحفظه، فلم يستطع أحد أن يمس به بسوء. وبعد أن قضيا في مخبأهما بالغار ثلاثة أيام، استأنف النبي ﷺ وصاحبه المخلص هجرتهما إلى المدينة المنورة متجنبين المسالك المعروفة، وأسرعوا بالوصول إلى وجهتهما، حيث استقبلهما المسلمون من الأنصار والمهاجرين، الذين كانوا قد سبقوهما بالوصول، استقبلاً يفيض بالمحبة والوفاء.

وهكذا حاولت قريش بالفعل اتباع الأساليب الثلاثة المذكورة في هذه الآية:

(١) حاصروه في بيته ومنعوه من حرية الحركة.

(٢) أخرجوه من مدينته التي وُلد وعاش فيها.

(٣) حاولوا قتله تنفيذاً لما قرّروه في دار الندوة.

ولكن الله تعالى أحبط جميع محاولاتهم. والذي خرج من مدينتهم مهاجراً لا حول له ولا قوة، عاد إليهم بعد ثماني سنوات منتصراً نصراً عظيماً حتى إنهم راحوا يتدللون له ليعفو عنهم، فنالوا بالفعل العفو منه. لقد دبّروا وتآمروا ضده كما تقول الآية؛ ولكن جميع تدابيرهم ومكائدهم أدت إلى دمارهم أنفسهم. لقد أخرجوه من مدينتهم، غير أن هذا الخروج نفسه كان سبب قوته ونجاحه، وكان العامل الذي أدى إلى انكسارهم واندحارهم. وبعد خروجه بمدة قصيرة تقدم جيش من مكة بتشايخ وخيلاء إلى منطقة بدر القريبة من المدينة، وما كان يخطر بباله أنه يتقدم إلى هلاكه.

لقد تم كل هذا بتدبير من الله تعالى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، فقد دبر ﷺ أن يعود الجيش، الذي جاء في موكب مهيب وباستعراض كبير للقوة، منسحقاً بالهزيمة، يسير بغير نظام. وقد ترك قادته الذين أعماهم التكبر إما قتلى على أرض المعركة، أو أسرى في أيدي أولئك الذين كانوا يكرهونهم ويحتقرونهم.

ومما يسترعى الانتباه هنا أن كلمة (مكر) الواردة في هذه الآية لا تعني بالضرورة التدبير المكروه، فهي عامة في معناها وتشير إلى التدبير الحسن والمكروه على السواء، إذ يتوقف الأمر على الغرض الذي من أجله يتم التدبير. فتدابير أعداء الحق، بطبيعة الحال، تدابير مشؤومة، ولكن الله ﷻ لا ينحو أبداً إلى التدابير السيئة، وإنما يدبر الأمور على نحوٍ يؤدي إلى إفشال تدابير الأعداء المشؤومة ويعمل على تحقيق النصر للإسلام. وإن الاستعمال القرآني الذي وضع كلمة «خير» قبل كلمة «الماكرين» يبين أن الكلمة قد استعملت بمعناها الطيب فيما يختص بالله ﷻ، لأن كلمة «خير» تأتي دائماً قبل الكلمات التي تستعمل للدلالة على شيء طيب. (انظر أيضاً آل عمران: ٥٥).

وقد جاء موضع الآية التي نحن بصددتها مناسباً تماماً بين الآيات التي تتعلق بمعركة بدر؛ فبعد الحديث عن هذه المعركة العظيمة، يُذكر القرآن النبي ﷺ وصحابته الكرام بالمؤامرات التي دبرها العدو ضده، ويلفت أنظارهم إلى الكيفية المعجزة التي أعانها بها الله ﷻ أثناء هجرته، وكيف أنه سبحانه قد أفشل جميع مخططات العدو وحولها لتصبّ في مصلحة الإسلام. وإنه ﷻ سيفعل ذلك مرة أخرى متى استدعى الأمر، وكانت غزوة بدر مثلاً آخر على ذلك.

وَإِذَا تُثْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا
مِثْلَ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾

التفسير:

يزعم الكافرون أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، غير أن زعمهم هذا ليس إلا تباهياً باطلاً، إذ لم يحاولوا أبداً أن يضعوه موضع التنفيذ؛ وظل تحدي القرآن المجيد، الذي سبق وأعلن أنهم لن ينجحوا في الإتيان بمثله أو بمثل سورة قصيرة من سوره، قائماً دون أن يستجيب له أحد منهم. وقد ظن الكفار أيضاً أن القرآن

الكريم لا يحتوي إلا على أساطير الأولين وأقاصيص السابقين. وتدحض الآية التي نحن بصدد هذا الادعاء، إذ تلفت أنظارهم إلى النبوءات العظيمة التي يحتويها القرآن الكريم والتي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه كلام الله تعالى حقاً، إذ ليس في طاقة الإنسان أن يصدر مؤلفاً يحتوي على هذه النبوءات العظيمة. وقد حققت غزوة بدر، على سبيل المثال، العديد من النبوءات القوية التي سبق أن ذكرها القرآن المجيد (مثلاً سورة القمر ٤٥-٤٧؛ سبأ ٣٠-٣١) وهي حقيقة جعلت من المستحيل على الإنسان أن يأتي بمثل له، وكشفت زيف الادعاء بأن القرآن أساطير الأولين.

وَإِذْ قَالُوا اٰللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ
عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَتِّنَا
بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ ﴿٣٣﴾

التفسير:

كان هذا هو دعاء أبي جهل، زعيم المشركين، الذي دعا الله به في بدر، وقد استجاب الله له. فقد دعا في ذلك اليوم الموعود أن يهلكه الله وحزبه إن كان محمد على الحق (البخاري، كتاب التفسير). ومن اللافت أن الله تعالى لم يعاقب أبا جهل وحزبه في بدر فحسب، بل - كما دعا أبو جهل - أمطر عليهم الحجارة؛ فعندما رمى الرسول ﷺ بحفنة من الرمال والحصى (الأنفال: ١٨) هبت على الفور ريح قوية قذفت الجيش حرقاً بحصى الصحراء الصلبة.

وَمَا كَانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيْهِمْ وَمَا
كَانَ اَللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ ﴿٣٤﴾

التفسير:

تحتوي الآية على سببين أساسيين للحماية من العقاب الإلهي. (١) لا ينزل العقاب الإلهي على قوم ما دام النبي المرسل من الله تعالى مقيماً بينهم. (٢) لا يصيب الناس العقاب الإلهي ما داموا يستغفرون الله تعالى. وفي معركة بدر، لم يكن الرسول ﷺ بين الكافرين، إذ كان كل من الكافرين والمؤمنين في جانب منفصل عن الجانب المعادي. أما في مكة فكان «بين» الكافرين، إذ كان يعيش هو ومعارضوه في نفس الظروف وتحت القوانين نفسها. ولم تستفد قريش في بدر من سبب الحماية الثاني لأنهم، بدلاً من طلب المغفرة من الله تعالى، دعوه سبحانه أنه إذا كان الإسلام ديناً صحيحاً فليدمرهم بعقاب شديد. فالآية تومئ إلى أن معركة بدر كانت وسيلة مناسبة لعقاب أعداء الإسلام.

وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا
الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير:

تريد الآية أن تقول إنه لما لم تستفد قريش من أي من السببين الأساسيين اللذين يحجبان نزول العقاب الإلهي (انظر الآية السابقة)، فقد نالوا بحق العقاب على معتقداتهم الزائفة وأعمالهم الفاسدة. كما تبين الآية أيضاً أنه ليس من حق قريش أن تتولى الوصاية على المسجد الحرام. وكان الأولى بهم - لو كانوا أوصياء على المسجد الحرام - أن يعبدوا الله الواحد الأحد؛ ولكنهم وضعوا أصناماً حتى داخل المسجد الحرام؛ وعلى ذلك، فضلاً عن أنهم لا يصلحون أن يكونوا أوصياء على المسجد الحرام، فإنهم يستحقون الطرد والعقاب على تدنيس الحرم المقدس.

وتحمل كلمات الآية: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ نبوءة تدل على أن المسلمين سيكونون قريباً أولياء المسجد الحرام. وتعني الكلمات: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه رغم أن معظم الكافرين لا يرون في الوقت الحاضر أن هذا الإعلان حقيقي، فإنه سيتحقق يقيناً.

وَمَا كَانَتْ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا
مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

مُكَاءً: من «مكا»، يقال «مكا الرجل» أي صقر بفمه؛ أو أنه وضع إصبعيه متجاورين ونفخ بينهما، ليصدر صفيراً (أقرب الموارد).

تَصَدِيَةً: مشتقة من «صدى» يقال «صدى بيديه» أي صفق بيديه. ف«التصدية» تعني التصفيق بالأيدي. «الصدى» هو الصوت الراجع بعد اصطدامه بجبل عند الصباح أمامه. (معجم لين). وتقول بعض الآراء أن تصدية مشتقة من المصدر «صد» (أي أعرض) وتعني كلمة «الصد» راحة أو مقدمة اليد (معجم لين).

التفسير:

تصف الآية الكريمة الاستعمال الدنس الذي كان المشركون يقومون به للبيت الحرام. فبدلاً من استعماله للعبادة والصلاة لله تعالى، استعملوه في الكلام والغيبة وفي الصفيق والتصفيق الأيدي.

وتعني الكلمات: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (١) أن ما كانوا يسمونه صلاة لم يكن في الحقيقة سوى صفيير وتصفيق؛ أو (٢) أنهم بدلاً من أداء الصلاة والقيام بأمور العبادة كانوا يقضون الوقت في الصفيير والتصفيق.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٤٧﴾

التفسير:

تتضمن الآية نبوءتين تتعلقان بالكفار: الأولى أن الأموال التي ينفقونها في حربهم ضد الإسلام لن تنفعهم شيئاً، بل ستكون مصدر غم لهم، وسوف يهزمون. والثانية أن مصيرهم في الآخرة سيكون جهنم جزاءً عن أعمالهم السيئة. وقد تحققت بجلاء النبوة الأولى التي تتعلق بالحياة الدنيا، مما يدل على حتمية تحقق النبوة الثانية المتعلقة بالحياة الآخرة.

لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا
فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير:

ترتبط عبارة ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ بالجزء الأول من الآية السابقة، إذ تبين الغرض من هزيمة الكفار وفشلهم. فالله تعالى سيجعل حروبهم ضد الإسلام تنتهي بهزيمتهم ليميز الخبيث من الطيب. وبالمثل فإن الجزء الآخر من الآية: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ يرتبط بالجزء الآخر من الآية السابقة، أي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. وتشير عبارة ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى أن الكافرين قد أجمعوا أمرهم وجعلوا غرضهم المشترك هو القضاء على الإسلام، ولذلك سينتهي أمرهم بأن يُجمعوا معاً كما لو أنهم حزمة من الحطب، ثم يُلقون في جهنم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ
مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾

التفسير:

بعد معركة بدر التي مُني فيها الكفار بهزيمة ساحقة، يوجه الله ﷻ إليهم الدعوة مرة أخرى أن يكفوا عن الحرب والقتال، ويعددهم بأنهم إذا انتهوا عن عدائهم للإسلام فإنه سبحانه سيغفر لهم ذنوبهم واعتداءاتهم الماضية، غير أن الآية تحذرهم أيضاً من أنهم إن عادوا مرة أخرى إلى شن الحرب فسيلقون المصير نفسه الذي لاقاه أعداء الأنبياء من الأمم السابقة. (انظر أيضاً الأنفال: ٢٠).

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾

التفسير:

تبين الآية أن القتال يستمر فقط ما دام الاضطهاد قائماً وما دام الناس يُمنعون من ممارسة شؤون دينهم بحرية. فإن كَفَّ أعداء الإسلام عن القتال، وجب على المسلمين التوقف أيضاً، فالإسلام لا يحارب إلا دفاعاً عن النفس ولإقرار حرية الفكر والعبادة. (انظر أيضاً البقرة: ١٩٤).

وتشير كلمات الآية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إلى أنه ينبغي للمسلمين ألا يخشوا أن يتظاهر الكافرون بالتوقف عن القتال، ثم يعاودوا الهجوم مرة أخرى متى تسنح لهم الفرصة. فإن الله ﷻ بصير بما يعملون، وسيأتي حتماً لنصرة المسلمين إذا ما تصرف الكفار بخيانة تجاههم.

وَإِن تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ
الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤١﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أنهم إذا أعرضوا ورفضوا قبول العرض المقدم إليهم، واستأنفوا شن الحروب والعدوان، فإن الله ﷻ يعد المسلمين هنا بعونه وتأييده إذا عاود الأعداء شن الحرب عليهم. ولا تصدر مثل هذه الوعود - التي كانت تتحقق دائماً - إلا عن إله قوي عزيز، وهي تقدم الدليل الواضح والجلي على أن القرآن المجيد كلام الله ﷻ وليس من افتراء الإنسان.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ
خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ
أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَاتِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٢﴾

التفسير:

تتعلق الآية بتقسيم الغنائم (انظر الأنفال: ٢)، حيث يجب أن يُنحى خمس هذه الغنائم جانباً ويوزع الباقي على الجنود المحاربين (الذين لا يتلقون أي أجر). وكان رائجاً في الجزيرة العربية قبل الإسلام أن يقوم قائد الجيش، قبل كل شيء، بانتقاء ما يشاء من الغنيمة، ويطلق على ذلك اسم «الصفية» أي الشيء المختار. ثم يأخذ القائد خمس الغنائم بالإضافة إلى الصفية. وقد ألغى الإسلام تقليد الصفية، والخمس أيضاً لا يذهب بأكمله إلى القائد، وإنما يشترك معه فيه آخرون. وكان الإجراء المتبع في حياة الرسول ﷺ أنه كان يأخذ جزءاً فقط من الخمس، ويوزع الباقي بين أقاربه والأيتام والفقراء والمساكين وأبناء السبيل. وأما أقاربه فهم نسل هاشم وعبد المطلب الأقربين من جدود الرسول ﷺ. وبعد وفاته كان الخمس يُقسم بين الخليفة أو الإمام وأقارب رسول الله ﷺ واليتامى والمساكين وأبناء السبيل. وحسب رأي الإمام مالك، لم يكن من المحتم أن يُقسم الخمس بالتساوي بين هذه الفئات، وإنما يُترك الأمر لما يراه الإمام حسب الظروف السائدة في ذلك الوقت. وكانت هذه هي سنة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين الأربعة ﷺ.

وتعود عبارة ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ إلى الإمام أو القادة لثذكّركم بالألا يستولوا على الخمس كله لأنفسهم، وإنما عليهم أن يعطوا الناس من الفئات الأخرى حقوقهم، كما توجه إليه الآية.

ويخدم قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ غرضين. أولاً: يبين أن عبارة ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ غير موجهة إلى الرسول ﷺ. ثانياً: يذكّر المسلمين بأنه حيث إن الله تعالى قد أعان المؤمنين في بدر، رغم جميع العوامل المادية التي تضافرت ضدهم، فإن عليهم أن يضعوا ثقتهم في عونه وأن يطيعوا أوامره المتعلقة بتوزيع الغنائم بطيب نفس ورغبة صادقة.

وقد سُمّيت معركة بدر «يوم الفرقان» لأن الله تعالى خلق ظروفاً وأموراً خارقة للعادة لتحقيق النصر لرسوله ﷺ ولكي يتبين جلياً أي فريق من بين الفريقين كان يقاتل في سبيل الله، وأيهما كان يقاتل في سبيل الشيطان. وتومئ عبارة ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ إلى أن الإمام أو القائد المسلم إذا حقق نصراً على أعدائه فعليه أن يعلم أنّ هذا النصر من عند الله ﷻ وبسبب عونه، وبالتالي عليه ألا يتردد في تقسيم الغنائم حسبما أمر الله ﷻ.

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى
وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ
فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى
مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٣﴾

التفسير:

في هذه الآية والآيات التالية يبين القرآن الكريم كيف أن الله ﷻ قد رتب ودبر وقوع المواجهة في بدر بين المؤمنين والكافرين، ليسحق قوة الأعداء، وتتجلى بذلك آية عظيمة تأييداً للإسلام.

تبدأ الآية برسم صورة لموقع كل فريق من الفريقين في بدر، ثم تبين أنه لو ترك الأمر للمسلمين لتحديد موعد هذه المواجهة لاختلفوا فيه يقيناً، ولفضّلوا تأجيلها، إذ لم يكونوا على استعداد للقتال، ولم يكونوا حينذاك في موضع قوة يتيح لهم خوض معركة مع عدو يفوقهم عدداً وأحسن منهم عدة وعتاداً. ولما كان الله ﷻ يريد أن يُري من لدنه آية قوة، دبر سبحانه وقوع هذه المواجهة في الوقت الذي كان فيه المسلمون في أشد الضعف وكان الأعداء في أشد القوة. وقد تم ذلك لكي تهلك الفئة التي ثبت بالأدلة البينة أنها على باطل وميتة روحانياً، ولكي تحيا الفئة التي ثبت أنها على الحق.

وقد ذكر القرآن المجيد أكثر من مرة صفة «السميع» في سياق الحديث عن معركة بدر، وذلك لبيان أن الدعاء كان له دور فعال في تحقيق النصر، وأنه يمكن أن يؤدي هذا الدور مرة أخرى.

إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ
كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ
سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

مَنَامِكَ: منام مشتقة من «نام». و«المنام» يعني: النوم؛ المكان الذي ينام المرء فيه؛ الحلم، الرؤيا (أقرب الموارد).

التفسير:

بينما كان النبي ﷺ في طريقه إلى بدر، رأى في الرؤيا أن جيش مكة أقل عدداً مما كان عليه في الحقيقة (جرير، المجلد ٩). ويعني هذا، في تعبير الرؤى، أن المسلمين سيهزمون الجيش المكي رغم تفوقه في العدد والعتاد. ومن جانب آخر، إذا رأى أحد في المنام أن جيش الأعداء أكثر عدداً، يكون تفسير الرؤيا أن الجانب الذي ينتمي إليه الرأي سيخور عزمه ويتغلب الأعداء عليه.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً
وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٥﴾

التفسير:

كانت الآية السابقة تتعلق بالشكل الذي ظهر عليه جيش الأعداء في المنام، وأما الآية الحالية فتتعلق بالشكل الحقيقي الذي ظهر عليه في أرض المعركة. فقد أبقي الأعداء ثلث جيشهم خلف بعض التلال، حتى إذا التقى الجمعان وجهاً لوجه رأى المسلمون من أعدائهم ثلثي جيشهم فقط. وكان عدد جيش مكة يبلغ ألفاً من الرجال الأقوياء، أي ثلاثة أضعاف جيش المسلمين الذي لم يتجاوز ٣١٣ رجلاً. غير أن المسلمين رأوا جيش مكة ضعف عددهم فقط، مما أدى إلى انتعاش الأمل في قلوبهم.

وكما ذكر آنفاً، أخفى الأعداء ثلث جيشهم حتى لا يصاب المسلمون بالرعب والقنوط فيفروا من أرض المعركة كما كان ظنهم. وكان الغرض من هذه الخدعة إغراء المسلمين واستدراجهم للانخراط في القتال ثم القضاء عليهم. وفي الواقع كان المسلمون حينها في أشد الضعف، وكان أهل مكة في لهفة شديدة لأن يطبقوا عليهم لإفنائهم من الوجود واستئصال الإسلام من الأرض. وقد بدا ضعف المسلمين أكثر

وضوحاً حينما رآهم أهل مكة، إذ رأوهم في الواقع أقل عدداً عما كانوا عليه. وقد أسهمت هذه الانطباعات لدى الطرفين في وقوع النزال بينهما، وذلك حتى يتحقق على نحو معجز الأمر الذي ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾

التفسير:

تنبه هذه الآية المسلمين إلى ألا يظنوا بأن الحرب مع الكفار قد انتهت بانتهاء معركة بدر؛ فالعدو سيعاود عدوانه وهجومه مراراً، وبقواتٍ أكبر وأكبر. كما تحض الآية المسلمين على الثبات وألا يترددوا أمام هجمات العدو المتكررة.

وتشير عبارة ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ إلى أن الأعداء سيدعون حلفاءهم للمساعدة وإسداء العون لهم، فعلى المؤمنين أن يذكروا الله كثيراً ويدعوه دوماً طالبين العون منه.

وتشير الآية إلى أن سر النجاح يكمن في أمرين: (١) على المسلمين ألا يركنوا أبداً إلى الاطمئنان بأنهم في منجى من هجمات الأعداء، بل عليهم أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لهم. (٢) عليهم أن يسألوا الله تعالى العون دائماً.

وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا
وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

رِيحُكُمْ: ريح مشتقة من «راح» أي أن اليوم كان عاصف الريح؛ أو أنه كان أو صار رطباً منعشاً بسبب هبوب الريح. «راح الشجر» أي ظهر تأثير الريح على الشجر. «راح» تعني أيضاً أنه كان أو أصبح نشيطاً، ذا حيوية، ذا فاعلية، أو أنه كان سريعاً (كما لو أنه أحس بتأثير الريح وانتعش بها). «الريح» تعني جو الهواء الذي بين الأرض والسماء؛ النَّفَس من الهواء (الذي سُمِّيَ كذلك لأنه يؤدي إلى الراحة)؛ الهبّة من الهواء؛ وأيضاً الغلبة والسيادة؛ القدرة والقوة؛ العون ضد العدو؛ النصر أو الظفر؛ التحوّل إلى الحظ السعيد. يقال «ذهبت ريحهم» أي أنهم فقدوا حظهم الطيب. «تذهب ريحكم» أي تزول قوتكم وتضيع سيادتكم (معجم لين).

التفسير:

تذكر الآية ثلاث طرق يمكن للمسلمين اتباعها للحفاظ على ثباتهم وتحقيق النجاح المنشود: أولاً طاعة أوامر الله ﷻ ورسوله ﷺ. ثانياً المحافظة على اتحادهم وألاً يتنازعوا فيما بينهم. ثالثاً أن يتمسكوا دائماً بأهداب الصبر والثبات.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا
وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

بَطَرًا: «بطر الرجل» أي ابتهج أو جذل كثيراً؛ أو أنه تصرف بصلف وعدم اعتراف بالجميل؛ أو تصرف بكبرياء واستعلاء؛ أو أنه صقع واختبل بثروته (وقوته) بعرضها في شكل خبيث أو تخصيصها لأغراض سيئة؛ أو أنه نظر إلى أمر بكرة واشمئزاز، بغير أن يستحق أي اعتبار؛ أو أنه سار باستعلاء واستكبار (معجم لين).

التفسير:

لطالما كان الكبر والرغبة في لفت الأنظار ونيل المدح مصدر ضعف في الإنسان، وتدين الآية هذه الدوافع بشدة. وفي المجال الديني، لا تكون الخدمة الحقيقية في مقاومة العدو بحماس وحمية فحسب، بل في أن يكون ذلك بغرض المساعدة في نصرة الحق وإعلاء شأنه. فالشجعان حقاً لا يفعلون شيئاً بدافع الأنانية والتباهي، وإنما بدافع نيل رضا الله تعالى وحده. وتصف الآية جيش مكة عند خروجه تحت إمرة أبي جهل وهو في حالة من الكبر والاستعلاء، وتحذّر المسلمين من الاقتداء بهم.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا
غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ
لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى
عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا
تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

جَارٌ: مشتق من «جَارَ» وتعني زاع أو انحرف. «جاوره» أي أصبح جاراً له أو عاش في جيرته. «جاوره» أيضاً أي عقد معه عهداً لحمايته. «جار» يعني الشخص الذي يسكن بجوار آخر؛ الشخص الذي يحمي شخصاً آخر؛ الشخص الذي يطلب الحماية؛ وأيضاً الحافظ (معجم لين).

نَكَصَ: «نكص عن الأمر» أي تحوّل أو انسحب أو انعزل عن شيء أو عن الأمر؛ أو تراجع أو انكمش عن الأمر في خوف. «نكص على عقبيه» أي ارتد عن أمر نذر نفسه له (معجم لين).

التفسير:

لتفسير كلمة «الشيطان» انظر البقرة: ١٥. وتعني الكلمة هنا الشخص المضلل أو من يبحث على أمر خبيث. والشخص الذي تشير إليه الآية هو سراقه بن مالك بن جعشم الذي حرّض أهل مكة ضد المسلمين، غير أنه اعتنق الإسلام فيما بعد.

لم يكن الجيش المكي قد غادر مكة بعد حين عبر بعض زعماء قريش عن مخاوفهم من أن يقوم بنو بكر - وهم فرع من بني كنانة وكانوا على عدااء مع قريش - بالانقضاض المفاجئ على مكة خلال غياب الجيش، أو أن يهاجموا الجيش من الخلف. غير أن سراقه، الذي كان أحد قادة بني كنانة، بدّد مخاوفهم وأكد لهم على أن رجال قبيلته لن يلحقوا بهم أي أذى (جرير، المجلد ١٣).

وتشير كلمات الآية: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ إلى أن سراقه، لما رأى على وجوه المسلمين العزم الأكيد والتصميم العنيد، استولى عليه الخوف، إذ أدرك أن المسلمين عازمون على النصر أو الموت. وهذا عين ما رآه أيضاً كل من عتبة وعمير، اللذين أخبرا قريشاً بأن المسلمين كانوا يبدون كمن يرغبون بالموت (الطبري). وقد نطق سراقه بالكلمات: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ لا لأنه كان يخشى الله تعالى حينذاك، بل لأنه أراد أن يجد لنفسه عذراً للانسحاب من أرض المعركة.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾

التفسير:

تشير هنا كلمات الآية: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ إلى أولئك الرجال في الجيش المكي الذين كانوا قد دخلوا الإسلام في مكة، ولكنهم لجبنهم ظلوا مع الكفار

هناك ولم يهاجروا، وخرجوا الآن مع الجيش لحرب المسلمين. وكان في الجيش المكي أربعة أو خمسة من هؤلاء الذين، حين رأوا الحفنة الصغيرة من المسلمين تصطف للحرب ضد المقاتلين المتمرسين المدججين بالسلاح والعتاد في جيش مكة، ظنوا أن من حماقة أن يقف المسلمون في مواجهة هذا العدد الهائل من المحاربين وقالوا: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. وترد الآية على قولهم هذا فتبين أن هذه الفئة القليلة التي اصطفت للقتال ضد القوى الجبارة للعدو لم يغيرها دينها، وإنما اصطفت لأنها وضعت ثقتها في الله تعالى وتوكلت عليه سبحانه العزيز الحكيم الذي وعدها بالنصر. ويومئ الجزء الأخير من الآية إلى توبيخ أولئك المسلمين ضعاف القلوب في جيش مكة، وتذكركم بأن نفاقهم ناتج عن عدم توكلهم على الله القوي العزيز، وعدم ثقتهم بقدرته تعالى.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا
الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥١﴾

التفسير:

تبين الآية أن الملائكة سيضربون وجوه المنافقين وأدبارهم جزاءً وفاقاً لأعمالهم الخبيثة. وتتوافق هذه العقوبة مع أعمال الكافرين الذين كانوا يواجهون المسلمين في القتال وجهاً لوجه، وكانوا من قبل يديرون إليهم أدبارهم في أنفة حين كانوا يدعونهم إلى الحق. لذا يحق للوجوه والأدبار أن تنال العقوبة الملائمة.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥٢﴾

التفسير:

تشرح هذه الآية ما سبق ذكره في الآية السابقة وتبين أسبابه.

كَذَّابٍ آلٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٣﴾

التفسير:

تبين الآية أن الله ﷻ قد عامل أعداء الإسلام بالطريقة نفسها التي عامل بها قوم فرعون. وهي تشير إلى معركة بدر التي دمر الله فيها أبا جهل وجيشه كما دمر فرعون وجيشه من قبل، وبذلك تشير الآية إلى المماثلة بين موسى ﷺ والنبي ﷺ التي ذكرها الكتاب المقدس في سفر التثنية، الإصحاح ١٨: ١٨.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا
عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ إلى العقاب المذكور في الآية السابقة. لقد رفض الكفار قبول آيات الله فدمرهم تعالى لتمردهم وأخذهم بذنوبهم. إن الله ﷻ يُنزل عقابه على قوم بعد أن يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم. وبذلك تشرح الآية القانون الإلهي العام الذي ينص على أن الله ﷻ لا يغير أبدًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا هم أولًا ما بأنفسهم إلى الأسوأ. فمثلاً، إذا أنعم الله بالعزة والقوة على قوم، فإنه لا يسلبها منهم إلا إذا تخلوا

عن صلاحهم وفضائلهم وصاروا من الأشرار. والآية تلفت أنظار المسلمين المعاصرين إلى هذا القانون الإلهي، ولا سيما أن الله قد سلب منهم العزة والقوة.

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ
كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٥﴾

التفسير:

تكرر الآية ما سبق ذكره في الآية السابقة مع إدخال بعض التغييرات:

- (١) فقد استبدل التعبير ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ الذي يعني أن الله ﷻ قد أنزل عليهم عقابه، بعبارة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ التي تعني أن الله تعالى قد دمرهم.
- (٢) أضيفت هنا عبارة ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ للدلالة على شدة العقاب والهلاك التام الذي أصاب الكافرين.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾

التفسير:

تشير هذه الآية إلى الآية رقم ٣٩ من سورة الأنعام، التي تقول إن الحيوانات التي تدب على الأرض والطيور التي تطير بأجنحتها أفضل من الكافرين؛ إذ إن الحيوانات والطيور لا تفهم لعدم امتلاكها قوة الفهم والإدراك، بينما يتمتع الكافرون بالقدرة

على الفهم والإدراك ولكنهم لا يستعملونها ولا ينتفعون بها. (انظر أيضا الآية ٢٣ من سورة الأنفال).

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي
كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

التفسير:

تزيد هذه الآية سابقتها شرحاً وتبييناً.

فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

شَرَّدَ: مشتق من «شَرَدَ». يقال «شَرَدَ» (الحصان مثلاً): أصابه الرعب فهرب وجرى على غير هدى؛ أو أنه هرب وجرى. «شَرَّدَ أو شَرَّدَ به» يعني أنه أفزعه فهرب؛ أو جرى على غير هدى؛ أو أنه طرده وشتته. «التشريد» تعني أيضاً التشيت أو التبديد. «شَرَّدَ به» أي شَهَّرَ به بالكشف عن آثامه وأخطائه. «شَرَّدَ بهم من خلفهم» أي فَرَّقَ أو بدد بهم أو بواسطتهم من خلفهم؛ أو فَرَّعَ بهم من خلفهم؛ أو سَمَّعَ بهم خلفهم (تاج العروس).

التفسير:

يستعمل القرآن المجيد كلمة ﴿تَثَقَّفَتْهُمْ﴾ (انظر البقرة: ١٩٢) التي تعني «تَمَسَّكَ بهم». فعندما يلتقي أحد من المسلمين أحداً من الكافرين في ساحة القتال، يوصف الكافر كما لو أنه في قبضة يد المسلم. ولذلك عندما يُفَرِّضُ على المؤمنين القتال،

يكون المتوقع منهم أن يحاربوا كالأبطال الصناديد، وأن يعتبروا أن الأعداء الذين يعارضونهم قد وقعوا في قبضتهم فلا يسمحون لهم بالإفلات من أيديهم. ويشير تعبير «التشريد» إلى هذه الحقيقة نفسها. إن المؤمن يكون دائماً بطيئاً في استعمال السلاح للرد على الأعداء؛ ولكنه عندما يفعل فإنه يقاتل بجرأة وبطولة، ولا يكتفي بأخذ العدو في قبضته الحديدية، بل يسدد إليه من الضربات ما يلقي الرعب في قلب من خلفه ومن يأتون بعده. إن الحرب الطويلة التي يكون القتال فيها ضعيفاً وواهنًا ليست أمراً محموداً، فإذا اقتضى الأمر الانخراط في الحرب، وجب أن تكون سريعة وحاسمة. لذلك تحث الآية الكريمة المسلمين على أنه إذا فُرض عليهم القتال فعليهم أن يقاتلوا العدو بجرأة وبطولة لكيلا يهزموا أولئك الذين اشتركوا في القتال فحسب، بل لكي يلقوا الرعب في قلوب حلفائهم ومن خلفهم. وفي الواقع، إن الإسلام لا يطلب من أتباعه أن يتفوقوا على الآخرين في الأمور الأخلاقية والروحانية فقط، بل يتوقع منهم أيضاً أن يتفوقوا عليهم حتى في المجالات المادية. فينبغي عليهم أن يكونوا مثلاً عليا في كل مجال. وإن كان لا بد من القتال، فعليهم أن يتفوقوا فيه أيضاً على الآخرين.

وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٩﴾

التفسير:

إذا بدأ قوم بينهم وبين المسلمين عهد بأعمال عدائية تجاههم، وخشي المسلمون من نيتهم الخيانة، فعليهم أن يعلموهم بكل وضوح أن العهد الذي بينهم وبين المسلمين قد انتهى. وعلى هذا، إذا حدث بعد هذا الإعلان أن قاتلوا المسلمين، فعلى المسلمين أن يقاتلوهم. لذا فإنه لا يسمح للمسلمين أن يشنوا هجوماً مفاجئاً على أي قوم بغير إعلان مسبق. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُفِرْط ولا تُفْجَأ»، أي لا تتجاوز

حدود القتال ولا تهاجم العدو على حين غرة. فحتى في الحرب يحث الإسلام على الالتزام الصارم بجانب العدالة والرحمة.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير:

تحتوي الآية على النبوءة العظيمة بأن أعداء الإسلام، الذين شنوا الحرب على المسلمين، لن ينالوا الظفر والانتصار أبداً. وإن هذه النبوءة ما كانت لتصدر من إنسان في مثل الظروف التي كان المسلمون يعيشون فيها. فمن الثابت تاريخياً أنه في الوقت الذي ذكرت فيه هذه النبوءة كان المسلمون في حالة ضعفٍ شديد من حيث عددهم وما في أيديهم من عتاد، ولا يمكن لبشر أن يتنبأ بأن مثل هذه الحفنة قليلة العدد، المفتقرة إلى السلاح، يمكن أن تهزم أعداءها الذين يفوقونها بأعدادهم الهائلة وعدتهم القوية. إن الله القوي العليم بكل شيء وحده هو الذي يمكن أن يُنبئ بانتصار المسلمين في الظروف الحرجة التي كانوا فيها. وقد تحقق هذا الانتصار فعلاً وصدقاً.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

رِبَاطُ الْخَيْلِ: لمعنى كلمة رباط انظر آل عمران: ٢٠١. خيل مشتقة من «خَال» أي تخيل وتصور. «اختال» أي تشاخ وتعجرف. «خيل» مجموع الخيول، وقد سميت هكذا بسبب التشاخ والخيلاء في مظهرها، وتطلق كلمة خيل على راكبي الجياد أيضاً (معجم لين).

التفسير:

تُخبر هذه الآية المسلمين أن خير الوسائل لمنع الحرب هو الاستعداد الفعّال والمؤثر. وتعلمهم أيضاً أنه ينبغي عليهم ألا يكتفوا بأعداد قوة قتال كافية للدفاع عن البلاد فحسب، بل عليهم كذلك أن يجعلوا أعداداً مناسبة من المقاتلين على التخوم والحدود، لكي يرتدع الأعداء فيمتنعوا عن الهجوم، وبذلك يستطيع المسلمون أن يعيشوا في سلام. كما تشير الآية إلى ضرورة الإنفاق بسخاء في وقت الحرب.

ومما يسترعي الانتباه أن الآية لا تقول فقط «عدوكم»، بل تقول: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. وهي بذلك تومئ إلى أن الكافرين لم يعتدوا على المسلمين إلا بسبب إيمانهم بالإسلام، الدين الذي ارتضاه الله تعالى. وتُلقي هذه الآية مزيداً من الضوء على الغرض الذي من أجله وقعت الحروب الأولى في الإسلام.

وبالإضافة إلى ذلك، تخبر الآية المسلمين أيضاً أن الوثنيين العرب ليسوا وحدهم أعداء الإسلام، فهناك أمم أخرى ستعتدي على المسلمين في المستقبل كما فعل العرب. فعلى المسلمين أن يحافظوا على حدودهم وتخومهم قوية محصنة، وأن ينفقوا بسخاء في سبيل الله. وتشير هذه النبوءة إلى الروم والفرس الذين تصادم معهم المسلمون بُعيد وفاة الرسول ﷺ.

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾

التفسير:

بالإضافة إلى ما تحتويه هذه الآية من مبدأ هام بشأن عقد معاهدات السلام، فإنها تلقي ضوءاً ساطعاً على طبيعة الحروب التي خاضها الإسلام. فما كان يحق للمسلمين أن يشنوا الحرب ليكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، وإنما لترسيخ السلام فقط. وعلى هذا، إذا اعتدى أحد على المسلمين ثم جرح للسلام بعد نشوب القتال، فعلى المسلمين أن يتوقفوا عن الحرب وأن يعقدوا معهم معاهدة سلام، رغم كونهم لا يزالون كافرين. وحتى احتمال أن يكون جنوح الأعداء للسلام ليس إلا للخداع وكسب الوقت، يجب ألا يصرف المسلمين عن إقرار السلام. وبين هذا أن ما كان يطلبه المسلمون لم يكن شيئاً غير السلام، وقد أمروا أن يرحبوا به رغم كل المخاطر. (انظر أيضاً الآية التالية).

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ
اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾

التفسير:

لا بد من قبول عرض السلام إذا طلب العدو السلام، حتى وإن كان هناك احتمال للخديعة. انظر تفسير الآية السابقة.

وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ
بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٤﴾

التفسير:

تريد الآية أن تزيل أي تردد من قلوب المسلمين فيما يتعلق بقبول عرض السلام من الأعداء. فإن نصره المؤمنين للنبي ﷺ ليست فضلاً منهم على الله أو على رسوله ﷺ؛ بل على العكس؛ إن من فضل الله عليهم أنه ﴿أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد أن كانوا قبل إسلامهم أعداء يعادي بعضهم بعضاً.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾

التفسير:

من الناحية اللغوية، فإن عبارة ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ معطوفة على ضمير المخاطب في ﴿حَسْبُكَ﴾. والمخاطب هو النبي ﷺ ومعنى حسبك: كافٍ لك. ولذلك فمن الخطأ فهم الآية على أنها تعني أن الله ومن اتبعك من المؤمنين يكفونك، وإنما المعنى الصحيح هو أن الله تعالى هو الذي يكفيك أنت ومن اتبعك من المؤمنين.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ
إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا

مِتَّيْنٍ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّتَّةٌ يَغْلِبُوا آلَافًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

حيث إن المشركين لن يتوقفوا عن القتال رغم دعوتهم إلى ذلك (الأنفال: ٢٠ و ٣٩) وقد عقدوا العزم على مواصلة شن الحرب العدوانية ضد الإسلام، فإن الآية تحت الرسول ﷺ على أن يحرض المؤمنين أيضاً على القتال دفاعاً عن النفس.

وتعد الآية المسلمين بتحقيق الغلبة على عدو يبلغ عدده عشرة أضعاف عددهم، وذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾. إذ ينبغي على المقاتلين أن يفهموا الغرض والهدف من انخراطهم في القتال، وأن يعتبروا الحرب التي يشتركون فيها حربهم، أن يدركوا الفوائد التي ستعود على أمتهم إذا أحرزوا النصر، والخسائر التي سوف يتكبّدونها إذا هُزموا. أما المرتزقة والرجال الذين يتبعون قاداتهم إلى الحرب اتباعاً أعمى دون أن يفهموا الغرض منها، وليس لديهم أي اهتمام شخصي بها، فلا يمكن أن يحققوا النصر. وكانت القوّات التي حاربت الإسلام تتألف في معظمها من رجال شاركوا في الحرب لمجرد أن قاداتهم المضللين الأشرار، الذين أعلنوا عداوتهم للإسلام، قد دعوهم لذلك. أما هم فما كان لهم في حقيقة الأمر أي اهتمام في أن يقاتلوا ضد الدين الجديد.

ومن الناحية الدينية، كانوا أيضاً قومًا ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، بينما كان المسلمون يدركون معنى الإيمان حقاً، فكانت تُحركهم محبة الله ورسوله ﷺ ودينهم الذي يؤمنون به. أما الكافرون، فلم يكن إخلاصهم للأصنام مثل إخلاص المؤمنين لله تعالى الذي كانوا يؤمنون به إيماناً حياً.

وتحدد الآية الرقم «عشرين» باعتباره الحد الأدنى للمسلمين لإحراز نصر مؤكد على أعدائهم، لأنه كان أقل عدد يُشكّل قوة محاربة منظمة. فإن قل عدد المحاربين عن عشرين لم تُعدّ هذه القوة قوة محاربة، وبالتالي لا تنطبق عليها قوانين الحرب.

وعلى ذلك، كان على مجموعة تتكون من عشرين شخصاً - وهو الحد الأدنى لتشكيل قوة محاربة - أن تنخرط في القتال إذا واجهت عدواً يفوق عددها عشر مرات، وكان ممنوعاً عليها الفرار. أما قرار الانسحاب أمام الأعداء فيجب ألا يقرره المقاتلون وإنما هو في يد قادتهم الذين عليهم أن يتصرفوا بما يرون فيه مصلحة الحرب. (انظر أيضاً الأنفال: ١٦).

الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا
مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٧﴾

التفسير:

لا تنسخ هذه الآية السابقة، وإنما تخفف عن المسلمين مؤقتاً نظراً إلى حالة إيمانهم آنذاك. فقد كان إيمانهم، رغم إخلاصهم وصدقهم، لا يزال ضعيفاً مقارنةً بحالته المستقبلية، حيث كان من المقدّر له أن ينمو ويتقوّى بعد رؤية المزيد من الآيات السماوية، وبعد أن يصبحوا أكثر تنظيمًا.

وتبين كلمات الآية: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ أن الآية السابقة لا تحوي نبوءة، وإنما تحتوي أمراً فقط. فهي لا تنبئ بأن المسلمين سيتغلبون على عدو يبلغ عدده عشرة أضعاف عددهم، وإنما تأمر بأنه إذا واجه عشرون من المسلمين مائتين من جيش العدو فعليهم أن يقاتلوهم، وأنهم إن ولوا الأدبار كانوا آثمين. أما في الآية الحالية فقد

خُفِّضَت النسبة بين الجيشين إلى ضعف عدد المسلمين، نظراً إلى حالة الضعف التي كانوا عليها آنذاك.

ويخبرنا التاريخ بأنه فيما بعد كان على المسلمين أن يحاربوا جيشاً يبلغ عدده أكثر من عشرة أضعاف عددهم، ومع ذلك كان النصر حليفهم. ففي معركة اليرموك كان جيش المسلمين يبلغ ثلاثين ألف مقاتل حسب أقل التقديرات، بينما بلغ عدد جيش الأعداء ستمئة ألف على الأقل (وكانت أعلى التقديرات تقول إن جيش المسلمين بلغ ستين ألفاً بينما كان جيش الأعداء مليون مقاتل) وانتهت المعركة بنصرٍ حاسمٍ للمسلمين.

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى
يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

أُسْرَى: جمع «أسير» المشتق من «أسر». يُقال «أسره» أي ربطه أو أوثقه أو اعتقله أو أخذه سجيناً. «أسير» هو الشخص المقيّد بالأغلال أو المعتقل (معجم لين).

يُثَخِّنَ: مشتق من «ثَخَنَ أو ثَخَنَ» وتعني أنه صار سميكاً أو خشناً أو صلباً. «أثخنه» أي جعله سميكاً؛ أو أصابه بالثقل أو الوهن أو ثَبَطَه؛ أو أنه تغلب عليه وأصابه بجراح كثيرة. «أثخن في العدو» يعني أعمل القتل في العدو وأصابه بجراح كثيرة. «أثخن في الأرض» يعني أنه قام بمقتلة عظيمة في الأرض أو في البلد؛ أو أنه قاتل بشراسة في الأرض (معجم لين). وعلى هذا فإن التعبير ﴿حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: إلى أن يقاتل الرسول ﷺ قتالاً نظامياً يصيب فيه العدو بجراح كثيرة.

التفسير:

كان التقليد الرَّائج بين القبائل العربية قبل الإسلام (ومن المؤسف أن هذا التقليد لا يزال مُتَّبَعًا في بعض أنحاء العالم) أن يؤخذ بعض الرجال أسرى حتى من غير أن تكون هناك حرب أو قتال، ثم يُجعل هؤلاء الأسرى عبيدًا. وقد أبطلت الآية هذا التقليد الفاسد، وبيّنت بكلمات واضحة صريحة أنه في الحرب فقط، وبعد الانخراط في القتال مع العدو، يمكن أن يؤخذ المقاتلون الأعداء أسرى، وأنه لا يجوز أن يؤخذ إنسان أسيرًا في غير حالة الحرب وبغير الانخراط في القتال.

لقد أسيء تفسير هذه الآية أيما إساءة، إذ زعموا أنه عندما وقع بعض رجال الجيش المكي في الأسر لدى المسلمين في بدر، استشار النبي ﷺ صحابته فيما يمكن أن يفعل بهم. فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوجوب قتلهم، بينما اقترح أبو بكر رضي الله عنه أن يُطلق سراحهم بعد أخذ الفدية منهم. وقد قبل الرسول ﷺ اقتراح أبي بكر رضي الله عنه وتم إطلاق سراح الأسرى بعد دفع الفدية. ثم زعموا أن الله تعالى قد أنزل هذه الآية ليعبر عن عدم رضاه بفعل الرسول ﷺ، معلناً أنه كان ينبغي قتل الأسرى وعدم قبول الفدية منهم. ومن الواضح أن هذا تفسير خاطئ؛ أولاً: لأن الله تعالى لم يكن قد أنزل حتى ذلك الوقت أمراً يمنع إطلاق سراح الأسرى نظير فدية يدفعونها، وعلى هذا فلا يمكن أن يعاتب النبي ﷺ على قبوله الفدية؛ ثانياً: لأن النبي ﷺ كان قد قبل الفدية لرجلين وقعا في الأسر في سرية «نخلة» قبل غزوة بدر، ولم يعبر الله تعالى حينها عن عدم رضاه عما فعله ﷺ؛ ثالثاً: لأن الله تعالى بعد آيتين فقط، أباح ذلك للمسلمين بقوله: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (الأنفال: ٧٠)، ومما لا يمكن تصوّره أن يلوم الله تعالى رسوله لقبوله مال الفدية، وفي نفس الوقت يعلن أن مال الفدية كان ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾. ومن الواضح إذن أن هذا التفسير خاطئ، وأن الغرض من الآية لم يكن سوى إرساء القواعد العامة التي تقرر أنه ينبغي عدم أخذ الأسرى إلا بعد وقوع القتال مع العدو واندحاره بعد إثنائه بالجراح.

لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٩﴾

التفسير:

ذُكر في الآية السابقة أن على المسلمين ألا يتسرعوا في أخذ الأسرى من بين الأعداء. وتومئ الآية التي نحن بصددتها إلى وجوب معاملة الأسرى بالحسنى والرحمة، وتبين أن المسلمين لم ينالوا النصر ولم يصيبوا الغنائم الكثيرة إلا بعون الله ﷻ الذي كتب لهم ذلك، وأنه لولا هذا العون الإلهي الذي سبق أن وعدهم به، لما استطاعوا الحصول على كل هذه الغنائم من غير أن يصيبهم على أيدي الأعداء عذاب عظيم وخسائر فادحة. وتشير كلمات الآية: ﴿كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ بوضوح إلى الوعد الإلهي بالنصر، الذي سبق إبلاغه للنبي ﷺ (انظر الأنفال: ٦). وعلى هذا فإن قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني العذاب الذي كان من الممكن أن يصيب المسلمين على أيدي الأعداء، وليس العقاب الإلهي. وتفيد الآية أنه لما كان العون الإلهي هو السبب في نصر المسلمين فعليهم أن يكونوا شاكرين لفضل الله، وأن يعاملوا الأسرى الذين وقعوا في أيديهم معاملة كريمة.

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

التفسير:

يشير حرف العطف «الفاء» الوارد في مطلع الآية إلى أن الأمر الإلهي الذي يليه متعلق بما ذكر في الآيات السابقة ونتيجة له. فكما أن الغنائم أخذت بعد وقوع قتال منظم، وتحقق النصر بعون الله تعالى وتأييده، فإن ما غنمه المسلمون في المعركة

من غنائم وأموال فدية الأسرى هو ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾. وقد وصف الله تعالى هنا بأنه ﴿غَفُورٌ﴾ لأنه سبحانه ستر ضعف المسلمين، وأظهرهم أقوياء في أعين الأعداء؛ ووصف ﷺ بأنه ﴿رَحِيمٌ﴾ لأنه منح المسلمين نصرًا حاسمًا على قوى تفوقهم في العدد والعتاد.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ
الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧١﴾

التفسير:

تُعد كلمات هذه الآية الموجهة إلى أسرى أهل مكة الذين وقعوا في أيدي المسلمين، نوعًا من التسرية والمواساة. فإن كان عليهم أن يقدوا أنفسهم بدفع شيء من المال لنيل حريتهم، فعليهم ألا يحزنوا لذلك، إذ لو علم الله أن في قلوبهم خيرًا، فلن يغفر لهم ذنوبهم السابقة فحسب، بل سيعوضهم أيضًا خيرًا وأضعاف ما خسروه من أموال الفدية. وكان من بين أسرى بدر العباس عم النبي ﷺ، وقد اقترح بعض المسلمين على الرسول ﷺ أن يطلق سراحه نظرًا لرابطة القرابة التي كانت تربطه به، ولأن العباس رضي الله عنه كان مؤمنًا بقلبه. غير أن النبي ﷺ رفض أن يُستثنى أحد من الأسرى، وقال إن عليه أن يدفع الفدية لإطلاق سراحه كالأخرين. ثم بعد ذلك، حين أعلن اعتناقه الإسلام، جاء إلى النبي ﷺ وطلب منه تنفيذ وعد الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإعطاء الأسرى خيرًا مما أُخذَ منهم. فاستجاب النبي ﷺ لطلبه. (جريد، الجزء العاشر، ص ٣١)

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ
فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٢﴾

التفسير:

الخيانة المذكورة هنا هي أن يرد الكفار بالإساءة على الإحسان الذي تلقوه. فقد كان شائعاً في الجزيرة العربية قبل الإسلام أن يقتل العرب من يقع في أيديهم من أعدائهم الأقوياء. وتفيد الآية بأنه إذا تصرف أعداء الإسلام تصرفاً يتسم بالخيانة، فإن الله تعالى سيمنح المسلمين الغلبة عليهم مرة أخرى؛ وعلى ذلك، فلا ضرورة تدعو المسلمين إلى قتل الأسرى كما كان العرب يفعلون في الجاهلية.

كان الله ﷻ يعلم أن الوقت سيأتي قريباً حين يعتنق هؤلاء الكفار الإسلام، ومن هنا جاء الأمر بالمحافظة على حياتهم، ومعاملتهم بالحسنى. أليس الله هو العليم الحكيم؟

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ
فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٣﴾

شرح الكلمات:

آوُوا: مشتق من «أوى»، يقال «أوى إليه» أي أخذ نفسه إليه؛ لجأ إليه للإقامة؛ المخبأ أو الملاذ؛ أو عاد إليه. «أواه أو آواه» أي أعطاه أو قدّم له مكاناً للإقامة أو مخبأً أو ملجأً أو مأوى؛ أو أنه وقاه، أو حفظه، أو تستر عليه. «أوى له» يعني شعر بالعطف والشفقة عليه (معجم لين).

التفسير:

ترسي الآية صرح مبدأ عظيم ينبغي أن يحكم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين؛ فهي تبين أن على المسلمين الذين يعيشون في بلد واحد وتحت إدارة واحدة، سواء كانوا من المهاجرين أو من المواطنين الأصليين، أن يعين بعضهم بعضاً عند الحاجة. وإذا وقع ظلم على أحد منهم، فعلى الآخرين أن يعينوه وينصروه. أما المسلمون الذين لم يهاجروا إلى بلد مسلم، وفضلوا أن يعيشوا بعيداً، فليس لهم الحق في طلب العون من المسلمين في أمور الدنيا. غير أنهم إذا طلبوا العون في أمور الدين، كأن يتعرضوا مثلاً للتنكيل والاضطهاد بسبب دينهم، فعندئذ ينبغي على المسلمين أن ينصروه. أما إذا كانوا يعيشون تحت حكومة غير إسلامية، وكانت بين المسلمين وهذه الحكومة معاهدة سلام، فلا يجوز للمسلمين تقديم أي مساعدة لهم، ولا حتى في الأمور الدينية؛ وفي هذه الحالة، يكون السبيل الوحيد أمامهم أن يهاجروا من ذلك البلد غير المسلم. وعلى القارئ أن يلاحظ مدى الاحترام والتقدير البالغ الذي يغرسه القرآن المجيد في نفوس أتباعه تجاه العهود والمواثيق؛ ولذلك كان من اللائق أن تنتهي الآية التي تحذر المسلمين من نقض العهود بهذه الكلمات: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ
تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٤﴾

التفسير:

يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلى ما ورد في الآية السابقة من ضرورة نصر المسلمين المضطهدين والمحافظة على العهد مع غير المسلمين. وتفيد الآية بأنه إن لم يتبع المسلمون هذا التعليم فستكون النتيجة أن تنتشر الفتنة، ويعم الفساد في الأرض.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٥﴾

التفسير:

لقد أثنى الله تعالى في هذه الآية على صنفين من المؤمنين، أولاً: أولئك الذين تعرضوا للاضطهاد فهاجروا من بلد لا يجدون فيه الحرية لممارسة دينهم. ثانياً: أولئك الذين يؤوون ويقدمون الملجأ والحماية لمن يلجأ إليهم. وقد سُمِّي المسلمون من الصنف الأول بالمهاجرين، بينما سُمِّي الصنف الثاني بالأنصار. وقد وصفت الآية كلا الصنفين بأنهم ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، لأنهم من المؤمنين الفاعلين الذين يقدمون التضحيات في سبيل الدين؛ ووعدتهم بالمغفرة والرزق الكريم. وهذا يبين أيضاً أن الذين لم يهاجروا من بلادهم التي لا يتمتعون فيها بالحرية الدينية، وفضلوا المنافع الدنيوية على الدين، لن ينالوا الرزق الكريم. وبالمثل، تومئ الآية إلى أن الذين أعانوا المهاجرين وقدموا لهم الملجأ والملاذ، ورغم إنفاقهم بسخاء على ما يحتاجه إخوانهم المهاجرون، سيجدون أموالهم في ازدياد مطرد، وسيستمر الله تعالى في الإنعام عليهم بالرزق الكريم.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

أُولَى: يعني يستأهل أوله حق أكثر أو أنه أشد استحقاقاً. وتعني أيضاً أكثر تقديراً أو أكثر إنصافاً. (انظر النساء: ١٣٦).

التفسير:

تبين الآية أن الوعد المقطوع للمهاجرين بأن ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (انظر الآية السابقة) لا يقتصر على المهاجرين الأول فقط، بل يمتد إلى المهاجرين المتأخرين أيضاً، وسيظل قائماً ما دام الاضطهاد قائماً وما دام الإخلاص في الدين قائماً.

وتقدم الآية توجيهاً آخر أيضاً، فحيث إن المؤمنين إخوة، كما أعلن القرآن الكريم (انظر الأنفال: ٧٣)، فقد يدفع ذلك بعض الناس إلى الظن بأنهم يمكن أن يرث بعضهم بعضاً أيضاً؛ لذا كان من المناسب التنبيه إلى أن الميراث لأقارب الدم فقط، وأن المسلمين الآخرين إخوة في الدين فقط، وليسوا ورثة.



(٩)

﴿سورة التوبة﴾

(مدنية)

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ
مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

شرح الكلمات:

بَرَاءَةٌ: مصدر من «بَرِئَ» التي تعني أنه كان أو أصبح محرراً من شيء، أو أخلى ذمته منه؛ أو كان أو أصبح محصّناً أو آمناً أو سالماً. «برئ من المرض»: تخلص من المرض أو العلة. «برئ الجرح» أي أن الجرح قد شفي أو تماثل للشفاء. «برئ من الأمر»: تخلص منه أو سلم منه أو صار غير مُتهم به أو غير مسؤول عنه. يقال «برئ من الدين» أي صار متحرراً من الدين أو أصبح معفياً من المطالبة. «برئ إليك من حقك» أي أنه أدى ما لك من حق عنده. وعليه فإن كلمة «براءة» تشير إلى كل المعاني السابقة ولكنها تستخدم خاصةً للتعبير عن السلامة من الذنب والعيب وغيرهما كما أنها تشير إلى التخلص من الشبهة (تاج العروس وأقرب الموارد).

عَاهَدْتُمْ: عاهد مشتقة من «عهد» (انظر سورة البقرة: الآية ٤١). ولم تستخدم كلمة ﴿عَاهَدْتُمْ﴾ في هذه الآية الكريمة بمعنى المعاهدة أو الاتفاق الرسمي، بل بمعنى التواعد أو الميثاق أو اليمين التي تستوثق بها ممن يعاهدك. ويُقال كذلك: عاهدت الله ألا أفعل كذا (لسان العرب).

التفسير:

لا تبدأ هذه السورة بالبسملة كالمعتاد، وقد سبق بيان أسباب ذلك في مقدمة سورة الأنفال.

وتتعلق الآية الأولى من هذه السورة بجميع المشركين في الجزيرة العربية، بمن فيهم الذميون الذين كانوا يعيشون تحت حماية الدولة الإسلامية، وكذلك القبائل العربية غير المسلمة التي كانت بينها وبين المسلمين عهود ومواثيق. وتُعلن الآية براءة الله تعالى ورسوله ﷺ الكاملة من أي التزام أو مسؤولية، أي إن جميع الوعود التي قطعها الله ورسوله ﷺ قد تحققت، وظهر صدقها كاملاً؛ وبالتالي، لا يحق للمشركين، أيًا كانت فئتهم، أن يوجهوا أي اتهام إلى الله ﷻ أو إلى رسوله ﷺ.

لقد كانت هناك وعود متكررة بهزيمة الكفار واندحارهم، وبالانتصار النهائي للإسلام. والآن، بعد تحقق هذه النبوءات والوعود جميعها، لم يُعد بإمكان كفار الجزيرة العربية الزعم بأن ما أعلنه النبي ﷺ عن النصر لم يكن سوى وعود خاوية. وتبين الآية أن تحقق هذه الوعود أثبت براءة الله ورسوله ﷺ التامة من تهمة الوعود الكاذبة.

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ
مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

التفسير:

تشير هذه الآية تحديداً إلى تحقق النبوءة المذكورة في الآية الثانية من سورة القمر. وهنا يقول الله ﷻ للمشركين إن عليهم أن يسبحوا في طول بلاد العرب وعرضها لمدة

أربعة أشهر - وهي المدة التي كان يستغرقها مثل هذا السفر في زمن الرسول ﷺ -
ليروا بأعينهم هل بقي أي أثر لحكم الكفار وسلطانهم في أي جزء في البلاد.
لقد عادى كفار الجزيرة العربية النبي ﷺ وأتباعه واضطهدوهم، ولم يدخروا وسعاً
في محاولة سحق الإسلام واستئصاله، غير أن الله ﷻ وعد رسوله ﷺ بالنصر، فكانت
النتيجة انتصار الإسلام ومحق كل معارضة.

وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

أَذَان: مشتقة من «أذن» التي تعني أنصت أو استمع؛ سمح بأو أباح؛ عرف أو أخبر؛ إلخ.
«أذن» تعني أنه أعلم به أو أبلغ أو أعلن. «أذان» تعني إعلان أو نداء أو بلاغ.

بريء: (سبق شرحها في بداية السورة). وبينما تدل الكلمة في الآية الأولى من السورة
على الإعفاء من جميع الالتزامات والوعود التي قطعها الإسلام، فإنها تعني في الآية
الحالية التي نحن بصدد تفسيرها، التحرر من شيء أو شخص، أي عدم وجود أي
صلة به. (معجم لين).

التفسير:

يختلف الإعلان الذي تتضمنه هذه الآية والآية التالية عن ذلك الوارد في الآيتين الأولى
والثانية السابقتين؛ فبينما تُعلن الآيتان السابقتان براءة الله ورسوله ﷺ من وعودهما

للمشركين، تتناول الآيتان الحالتان قطع الصلة معهم. غير أن قطع الصلة هذا لا ينبغي أن يُفهم على أنه تنصّل من الالتزامات التي أوجبتها المعاهدات، إذ يجب، كما توضّح الآية التالية، احترام المعاهدات في جميع الأحوال، وعدم انتهاكها أو خرقها. وقد رُوي أن الرسول ﷺ، عند عودته من تبوك في السنة التاسعة للهجرة، أرسل أبا بكر رضي الله عنه إلى مكة ليعلن في يوم الحج الأكبر أنه لن يُسمح لأحد بعد اليوم بالطواف بالكعبة عارياً. وقد نزل الجزء الأول من هذه السورة في أعقاب ذلك مباشرة، وعندئذ أرسل ﷺ علياً رضي الله عنه إلى مكة، وبصفته ابن عمه ومبعوثه الممثل له، تلا الآيتين اللتين تبدأ بهما سورة التوبة وأذاع الإعلانين التاليين في الحجيج المجتمعين في مكة من جميع أنحاء الجزيرة العربية:

(١) ألا يقرب أحد من المشركين المسجد الحرام بعد هذا العام.

(٢) الاستمرار في العمل بالمعاهدات والاتفاقات التي عقدها الرسول ﷺ مع قبائل المشركين، ومواصلة احترام جميع العهود والمواثيق حتى انتهاء مدتها.

لقد فقد المشركون في الجزيرة العربية والمنافقون في المدينة كل حق في نيل الصفح العام الذي أعلنه الرسول ﷺ، بسبب المؤامرات والمكائد التي دبّروها ضد المسلمين، وإصرارهم المتواصل على اتباع مسلك الخيانة والغدر. فعندما كان ﷺ غائباً عن المدينة في غزوة تبوك، أشاعوا كذباً أن جيش المسلمين بأكمله قد أُسر، وأن النبي ﷺ قد قُتل. وزاد الأمر سوءاً أن أبا عامر - أحد زعماء العرب الماكرين - توجه إلى الشام ليستقدم جيشاً مسيحياً للهجوم على المسلمين، وبدأت في الجزيرة العربية التحضيرات لثورة عامة.

ولولا عودة الرسول ﷺ في الوقت المناسب، لكانت تلك المؤامرات قد أفضت إلى اضطرابات واسعة وخسائر فادحة في الأرواح.

فلما علم ﷺ، عند عودته، بالمؤامرات التي كانت تُحاك لتوجيه ضربة قاتلة للإسلام، أمر ألا يبقى مشرك في الحجاز، منعاً لتكرار مثل هذه الدسائس؛ غير أنه استثنى من كان بينه وبينهم معاهدات، على أن يغادروا أيضاً بعد انتهاء مدتها.

ولم يكن هذا القرار مبرراً في ضوء تكرار مسلك الخيانة والتآمر والغدر من قبل المشركين فحسب، بل اقتضته كذلك اعتبارات سياسية وثقافية. فقد أصبح الحجاز المركز الديني والسياسي للدولة الإسلامية، وكانت مصلحة الدولة تقتضي تطهيره من كل عنصر أجنبي ضار ثبت أنه يمثل خطراً على المجتمع الإسلامي الوليد، الذي أُسس لينشر الدين الجديد في أرجاء الأرض.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ
لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَدًا فَاتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

التفسير:

تستثني الآية قبائل المشركين التي كانت لها معاهدات مع المسلمين، وهي: بنو خزاعة، وبنو مدلج، وبنو بكر، وبنو ضمرة، وبعض قبائل بني سليم. كما تُلقي ضوءاً ساطعاً على حرمة العهود والمواثيق في الإسلام، إذ يأمر الإسلام أتباعه باحترامها وعدم نقضها مهما كلف الأمر، ويعلن أن الوفاء بالعهود، عملٌ من أعمال التقوى التي تكسب رضا الله تعالى.

فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

التفسير:

«الأشهر الحرم» عموماً هي الشهور الأربعة الحرام: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. وترتبط الشهور الثلاثة الأولى بموسم الحج الأكبر، بينما كان العرب يؤدون عادة الحج الأصغر أو العمرة في شهر رجب. (انظر تفسير الآيتين ١٩٥ و ٢١٨ من سورة البقرة). غير أن تعبير «الأشهر الحرم» في هذه الآية لا يعني الشهور الأربعة الحرام، بل يعني الأشهر الأربعة التي سبق ذكرها في الآية الثانية من سورة التوبة. وهي فترة المهلة التي مُنحت للمشرّكين ليسيحوا في الأرض بأمان ويتبينوا انتصار الإسلام وتحقق وعد الله. وخلال هذه المهلة تتوقف جميع الحروب بين المسلمين والمشرّكين، ثم تُستأنف بعد انتهائها، باستثناء القبائل التي عقدت المعاهدات مع المسلمين. وحينئذ يكون من حق المسلمين استئناف قتال أولئك المشرّكين الذين كانوا في حالة حرب معهم، أو أسرهم حيثما وجدوهم.

مع ذلك يجب التنبيه إلى أن الأمر باستئناف القتال بعد انقضاء مهلة الأشهر الأربعة لا يعني محاربة جميع قبائل المشرّكين دون تمييز، وإنما هو استئناف القتال مع القبائل التي أعلنت عداها السافر للإسلام، وبدأت الأعمال العدوانية ضده، ونقضت عهودها، وتآمرت لإخراج النبي ﷺ من المدينة. وقد ذكر سبب هذا الإنذار النهائي في الآيات التالية (٨-١٣) من سورة التوبة. أما القبائل المشتركة التي لم تتورط في أعمال الخيانة والغدر والعدوان، فلها حق الحماية. (انظر الآيتين ٤ و ٧ من سورة التوبة). ومن المؤسف أن بعض النقاد اقتطعوا هذا الأمر بالقتال من سياقه، وجعلوا هذه الآية أساساً للطعن بالإسلام، زاعمين أنه يأمر بالقضاء على جميع غير المسلمين. غير أن القرآن الكريم والتاريخ يدحضان هذا الزعم الباطل تماماً.

وتعني عبارة: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أنه يتعين على المسلمين مراقبة تحركات العدو مراقبة دقيقة، كي لا يتمكن من الإفساد في الأرض، أو إشاعة الدعاية المغرضة ضد المسلمين. وتشير كلمات هذه الآية نفسها إلى وجود خطر كبير، ولا سيما أن تلك الفترة كانت عصيبة وحرجة على المسلمين. فمن ناحية كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تستعد للهجوم عليهم، ومن ناحية أخرى كان أعداء الإسلام في الداخل يحكيون المؤامرات للقضاء عليهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فيبين أنه حتى أولئك الأعداء الألداء الذين ذاق المسلمون على أيديهم أشد العذاب وأفدح الخسائر، يجب أن يشملهم العفو إذا تابوا واختاروا الدخول في الإسلام بكامل حريتهم. ويتضح من الآية التالية، وكذلك من الوصية الأساسية الواردة في الآية ٢٥٧ من سورة البقرة أنه لا يجوز الإكراه في الدين. والحقيقة أن عدداً كبيراً من المشركين كانوا يؤمنون في قرارة أنفسهم بصدق الإسلام، لكنهم لم يعلنوا إيمانهم صراحة، إما بدافع الغطرسة، أو خوفاً من الآخرين، أو لأسباب أخرى. وتهدف هذه الآية إلى طمأنة هؤلاء أنه إذا أعلن أيّ منهم إيمانه بالإسلام - حتى أثناء الحرب - فلن يعتبر ذلك نفاقاً، أو محاولة للنجاة من القتل. والدليل القاطع على وجود الكثير من المشركين الذين كانوا يميلون إلى الإسلام ويخشون إعلان إيمانهم جهراً خوفاً من الاضطهاد، هو الإقبال الكبير على الدخول في الإسلام كلما وضعت الحرب أوزارها. ففي العامين اللذين عم فيهما السلام بعد صلح الحديبية، أسلم عدد كبير من الكفار. فما كان لهم أن ينضموا إلى الإسلام بهذا العدد الكبير لولا إيمانهم الصادق، إذ لم يمنعهم من ذلك إلا الخوف من الاضطهاد. بل كانت هناك حالات سجلها التاريخ أعلن فيها بعض الأشخاص إسلامهم في خضم المعركة، ولم يتساهل المسلمون في البداية مع هؤلاء الرجال، ظناً منهم أنهم أسلموا لإنقاذ أنفسهم فقط. وقد عاتب النبي ﷺ هؤلاء المسلمين بشدة، وسألهم هل شققتهم على قلوبهم وتأكدتم من عدم

إخلاصهم؟ ولذلك يأمر القرآن الكريم المسلمين بعدم إيذاء من يعلن إسلامه من المشركين ويلتزم بأوامر الله، فالله وحده يعلم حقيقة إيمانهم.

وتدل الصفتان الإلهيتان الواردتان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في ختام الآية على أن سلوك المشركين يجعلهم مستحقين لأشد العذاب، وأن منحهم المغفرة بعد تركهم عبادة الأصنام إنما هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الرحمة.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ
حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

التفسير:

تُبَيِّنُ الآية بوضوح أن قتال المشركين لم يكن لإكراههم على قبول الإسلام، إذ تنص على أنه حتى في حالة الحرب، يُسمح لمن يرغب منهم في تحري الحق بالقدوم إلى معسكر المسلمين أو إلى مقرهم الرئيس. ثم بعد تبليغه الرسالة وإطلاعه على تعاليم الإسلام، يجب على المسلمين إيصاله سالماً إلى مأمنه إن لم يجد في نفسه رغبة في اعتناق الدين الجديد. وإنها لذروة الظلم، في ضوء هذا التعليم الواضح، أن يُتَّهَمَ الإسلام بالتعصب أو عدم التسامح، أو بأنه فرض تعاليمه بالقوة والإكراه.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ
وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

التفسير:

تبين كلمات الآية: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أن الحرب لم تكن جائزة إلا ضد غير المسلمين الذين خانوا عهودهم واعتدوا على المسلمين غدراً. أما فيما عدا ذلك، فقد أمر المسلمون بالالتزام بعهودهم معهم بكل دقة وإخلاص. ومما ينبغي ملاحظته أنه كما جاء في الآية الرابعة، فإن هذه الآية تبين أيضاً أن المحافظة على العهود والمواثيق تُعد من الأعمال الصالحة التي تكسب رضا الله تعالى، ولذلك لا عجب أن يحث القرآن الكريم المسلمين مراراً على وجوب الوفاء بالعهود.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ
إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ
وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

إِلًّا: «آله» أي طعنه بالآلة أي الحرية اللامعة. يقولون «آل الفرس» أي ذهب مسرعاً أو يَرِقَ (كناية عن سرعته). «آل اللون» أي أصبح صافياً براقاً. «الإلُّ» أي كل حالة ظاهرة من عهد حلف وقراءة. ويعني أيضاً العهد؛ الحلف؛ الجار؛ الأصل الجيد؛ القربة (معجم لين وأقرب الموارد ومفردات الراغب).

ذِمَّة: مصدر من «ذَمَّ» وهي تعني العهد؛ والأمان؛ والضمان. يقولون «ذِمَّة» ضد مدحه أي لومه أو عاب فيه شيئاً. ويقال «أَذَمَ الرَّجُلُ» أي أنه قال أو فعل ما يستوجب لومه أو العيب فيه. و«أَذَمَهُ» تعني أيضاً حماه؛ أجاره أي أعطاه عهد الأمان والحماية. «أَذَمَ لَهُ» أي وعده أو أخذ له عهد الأمان أو الضمان والحُرمة. و«الذِمَّة» تعني العهد؛ الميثاق؛ المعاهدة؛ الاتفاق؛ الالتزام؛ الحُرمة؛ المسؤولية؛ الحق أو الضمان الذي إذا أهمله الشخص صار مستحقاً للوم. ويُقصد بمصطلح «أهل الذِمَّة» المعاهدون من

النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيمون بدار الإسلام وأعطتهم حكومة الإسلام عهد الأمان على أموالهم وأعراضهم ودمائهم وحریتهم الدينية مقابل أن يُعطوا الجزية (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تبين هذه الآية بصورة أوضح أن الأمر بشنّ الحرب يقتصر على أولئك المشركين الذين لم يبدأوا الأعمال العدائية ضد الإسلام فحسب، بل كانوا في الوقت نفسه غدارين خونة، لا يعيرون أي اعتبار لروابط القرابة والدم، ولا يحترمون عهداً ولا ميثاقاً.

أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ٤٢ من سورة البقرة.

لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

مُؤْمِنٍ: اسم فاعل من «آمن» المشتقة من «أمن» التي تعني أنه أصبح مطمئناً غير خائف أو في مَنعة. «أمنه على كذا» أي اتخذه أميناً على هذا الشيء. «آمنه» أي جعله في أمانٍ أو أزال خوفه؛ صدّقه؛ وثق به. «أمن به» أي صدّقه. وعليه فإن «مؤمن» تعني المصدق؛ المؤمن؛ الذي يثق أو يصدق الآخرين؛ الذي يعطي الأمان والحماية.

و«المؤمن» اسم من أسماء الله الحسنى وتعني أنه ﷺ الذي ينعم بالأمان والحماية لعباده (معجم لين).

التفسير:

تؤكد هذه الآية - بإضافة كلمة «مؤمن» (أي الذي يثق بغيره) - مدى فظاعة الجرم الذي ارتكبه الكافرون، فهم لا يوفون حتى لمن منحهم ثقته. لذا تذكر هذه الآية والآيتان السابقتان الأسباب التي لأجلها أمر المسلمون بشن الحرب على هؤلاء المشركين في الآية رقم ٥ من سورة التوبة. وهذه الأسباب هي:

(١) أنهم كانوا خونة وغدّارين؛ ادّعوا ودّ المسلمين، وبمجرد أن أتحت لهم الفرصة لإيقاع الأذى والضرر بهم، تنكروا لوعودهم ونقضوا عهودهم، رغم أن المسلمين كانوا قد منحوهم ثقّتهم (انظر الآية رقم ٨ والآية الحالية).

(٢) أنهم لم يقيموا وزناً ولا اعتباراً حتى لروابط القرابة، فقتلوا أقاربهم لمجرد أنهم اعتنقوا الإسلام (انظر الآية رقم ٨).

(٣) أن غرضهم من شن الحرب كان منع الناس من الدخول في الإسلام (الآية رقم ٩).

(٤) أنهم كانوا المعتدين، أي هم الذين بدأوا بشن الحرب على المسلمين. (الآية الحالية).

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أن الأمر لا يقتصر فقط على توقف جميع أعمال الحرب والقتال ضد هؤلاء المشركين إذا أعلنوا توبتهم، بل يتعين على المسلمين اعتبارهم إخوانهم في الدين ومعاملتهم على هذا الأساس. (انظر أيضاً تفسير الآية رقم ٥ آنفاً).

وَإِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا
فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

التفسير:

لا تترك هذه الآية أي مجال للشك في أن أمر المسلمين بشن الحرب على المشركين إنما يعني فقط قتال المشركين الذين ينقضون عهودهم ويعتدون على المسلمين بقصد إيقاع الأذى بهم. كما تبين الآية بوضوح أن الغرض من القتال هو «كفهم» عن العدوان.

وأما قوله تعالى: ﴿طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ لا يراد به مجرد التهكم أو السب أو التوبيخ بالكلام، بل المقصود هو الهجوم الفعلي الهادف إلى الإضرار بالمصالح الحيوية للإسلام. وكلمة «طعن» تعني حرفياً «الوخز بالحِراب».

ولا ينحصر الوصف الوارد في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ في بضعة أفراد من القادة، بل يشمل جميع الذين أمر المسلمون بقتالهم. وقد وُصفوا بـ «الأئمة» لأنهم أولاً، كانوا في طليعة من قاتل المسلمين وتصدّروا شن العدوان عليهم، فحفزوا بذلك الآخرين على الاقتداء بهم. وثانياً، كانت عداوتهم للإسلام متجذرة وراسخة، مما جعلهم أئمةً للشر والعدوان.

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

التفسير:

لا يشير قوله تعالى: ﴿وَهُمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ إلى أهل مكة، بل إلى أولئك الذين تأمروا للقضاء على الرسول ﷺ عندما خرج في غزوة إلى حدود الشام، وذلك بحشد جميع قبائل الجزيرة العربية للوقوف ضده وقفة رجل واحد عند عودته (انظر تفسير الآيتين ٣ و ٤ أعلاه). أما أهل مكة، فلم يَهْمُوا بإخراجه فحسب، بل أخرجوه بالفعل (انظر الآية ١٤ من سورة محمد). وعلاوة على ذلك، كان أهل مكة قد دخلوا في الإسلام عند نزول هذه الآيات، وتوقفت جميع أعمال القتال بينهم وبين المسلمين. كذلك فإن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا يشير إلى أهل مكة، وإنما إلى أولئك الكافرين الذين كانوا يعيشون في المدينة وما حولها، سواء من جاهر منهم بكفره أو أخفاه. وتضيف الآية دليلاً آخر على أن الإسلام لم يكن يوماً معتدياً، بل كان هو المعتدى عليه. فالكافرون هم الذين بدأوا العدوان، وتصرفوا بالعدوان والخيانة، ولجأوا إلى شتى الوسائل الدنيئة لإبادته، وهؤلاء وحدهم هم من أمر المسلمون بقتالهم.

وحبذا لو قام النُّقاد المسيحيون بالمقارنة بين الحروب التي أمر بها الإسلام وتلك التي خاضها مشرعهم العظيم موسى ﷺ ضد قوم لم يرفعوا السلاح في وجهه قط، ولم يرتكبوا أي عمل عدائي ضده. ومع ذلك، ذُبح هؤلاء الناس بوحشية، ولم يُستثنَ حتى أطفالهم ونساؤهم (انظر سفر التثنية من الكتاب المقدس، الإصحاح ٢٠، الفقرتين:

١٦ و١٧). وعلى النقيض من ذلك، نجد أن رسول الله ﷺ لم يرفع السلاح إلا في وجه أولئك الذين بدأوا بالعدوان. وحتى في تلك الحال أمر ﷺ بعدم قتل النساء والأطفال والنساء المتعبدن في الأديرة، وبالمحافظة على أديرتهم (مسلم، الطحاوي، أبو داود). فهؤلاء الذين يرون أن حروب موسى عليه السلام كانت حروباً مقدسة لا يملكون أي حق في توجيه النقد لحروب النبي ﷺ.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ
وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

يَشْفِي: مشتقة من «شفا»، يُقال «شَفَّاهُ مِنْ مَرَضِهِ» أي أبرأه وأذهب مرضه. «شَفَيْتُهُ» تعني أرحته من الشك. و«شَفَّاهُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ» أي فرّج عنه حاجته. و«يَشْفِيكَ إِنْ قَالَ» تعني أنه سوف يسعدك قوله أي أن ما يقوله سوف يُرضيك (معجم لين).

التفسير:

تبين الآية أنّ أعداء الإسلام قد جعلوا أنفسهم مستحقين للعقاب الإلهي بسبب سلوكهم الغادر والظالم؛ ولم يكن القتال سوى العقاب الإلهي الذي قدره الله لهم وأنزله بهم بعد أن بدأوا هم أنفسهم بالعدوان. وبالتأكيد، لم يكن ذلك بدافع إكراههم على الدخول في الإسلام.

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

التفسير:

يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ إلى الكفار، ومعنى الآية أن الله قد يذهب بالقتال ذلك الغيظ المتأجج في قلوبهم ضد المسلمين. ويمكن أن يتحقق ذلك بطريقتين: (١) بسحق قوتهم تماماً وإلى الأبد. (٢) بأن ينتهي بهم الأمر إلى اعتناق الإسلام. وقد تحقق الأمران بالفعل، فهلك بعضهم وسُحقت قوتهم تماماً، بينما أبصر بعضهم الآخر النور فاعتنقوا الإسلام بحض إرادتهم. ومن الواضح أن قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يشير إلى الفئة الثانية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

وَلِجَنَّةٍ: مشتقة من «وَلَجَ»، يُقال «وَلَجَ البيت» أي دخله. «أولجته» أي أدخله. «ولجنة» تعني الشيء الذي يُدخَل في شيء آخر؛ الدخيلة؛ بطانة المرء وحاشيته، خاصته، أو من يتَّخذه معتمداً عليه من غير أهله (معجم لين).

التفسير:

تومئ هذه الآية إلى أن ابتلاءات المسلمين لم تنته بعد. إذ عليهم أن يواجهوا أخطاراً أكبر ومحناً أشد، ولن يصمد أمامها إلا المؤمنون المخلصون حقاً. لذلك تنبه الآية المسلمين إلى ضرورة الاستعداد لابتلاءات أعظم وتضحيات أكبر. لقد تعرض المسلمون للمحن في بدر وأحد والخندق ونجحوا في اجتيازها، ولكن مع بزوغ فجر

عهد جديد، مع غزوة تبوك على حدود الشام، تحثهم الآية على القيام باستعدادات أوسع، فالمحن التي مر بها المسلمون تعدّ في واقع الأمر بسيطة بالمقارنة مع ما ينتظرهم من أخطار وابتلاءات أشد وطأة وأكثر هولاً مما ذاقوه حتى الآن.

كما ينبه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ المسلمين إلى ضرورة تعزيز وحدتهم وترابطهم، وألا يسمحوا لأي عنصر أجنبي بالتغلغل بينهم أو تفريق صفوفهم في الأيام القادمة التي تحمل في رحمتها ابتلاءات وتضحيات كثيرة.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ
شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

التفسير:

تتعلق هذه الآية بالحجاج المشركين من عبدة الأصنام، وهي بمنزلة تهديد للإعلان الوارد لاحقاً في الآية ٢٨. إذ كما أعلن عليّ كرم الله وجهه على مسامع الحجاج المجتمعين يوم الحج الأكبر في السنة التاسعة للهجرة، لم يعد مسموحاً لأي مشرك أن يقرب الكعبة. (انظر تفسير الآية رقم ٣ أعلاه). وتبين الآية سبب هذا المنع، فالكعبة بيت الله الذي بُني لعبادة الله الواحد الأحد، ولا شأن لعبدة الأوثان به. فقد أعلنوا عداوتهم لوحداية الله تعالى، وشهدوا على أنفسهم بعقائدهم الوثنية، فآدانوا أنفسهم بهذه الشهادة. وبالإضافة إلى ذلك، بدلاً من أن يعلنوا توحيد الله تعالى، كان المشركون أثناء الحج ينسبون الشركاء إليه سبحانه. فمن الحقائق المسجلة في التاريخ أنهم بدلاً من أن يلتزموا بالتلبية المعروفة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» كانوا يضيفون إليها قولهم: «إلا من جعلته شريكاً لك». ورغم أن قوله تعالى:

﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ عام في مدلوله إلا أنه من الممكن أن ينطبق أيضاً على هذه الممارسة التي كان يقوم بها المشركون.

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن
يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

عَسَى: فعل ماض جامد غير مشتق، وهو من أفعال المقاربة من أخوات كاد، وفيه ترج وطمع، فيكون للترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه (أقرب الموارد). يقال: «عسى زيد أن يقوم» أي قارب زيد القيام؛ أو قد تأتي بمعنى لعل زيدا يقوم أو أطمع أن يقوم زيد. لذا فإن كلمة عسى قد تأتي بمعنى الظن واليقين أيضاً. أمّا إذا وردت في قول الله ﷻ، فإنها تدل على أمرٍ لا بد من حدوثه وتحققه (معجم لين). (انظر أيضاً معنى كلمة لعل في الآية ٢٢ من سورة البقرة). إذ إن الطمع والرجاء لا يَصِحَّان في حق الله تعالى، وعليه فإن «عسى» و«لعل» إذا ذُكرتا من الله ﷻ فإنه يَذْكُرُهُما ليكون الإنسان راجياً منه، لا لأن يكون ﷻ هو الراجي (المفردات).

التفسير:

إن عمارة مساجد الله، وبالتالي عمارة المسجد الحرام نفسه، إنما تكمن في تحقيق الغرض النبيل الذي من أجله بُنيت هذه المساجد، والذي هو تمجيد الله ﷻ وذكره ﷻ. ولا شك أن هذا الغرض يتحقق بحَثِّ المؤمنين على ارتياد تلك المساجد، وبنع الذين - بدلاً من تمجيد الله - ينسبون إليه الشركاء، من دخولها.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَوْلَىٰكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إلى أنه ما دام الله ﷻ قد قدر للمؤمنين النجاح والفلاح واليسر المادي، فإن الازدهار المادي للمسجد الحرام لن يتأثر باستبعاد المشركين من زيارته؛ لأن المؤمنين سوف يقومون بزيارته بأعداد متزايدة.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

التفسير:

رغم أن الخدمة المادية والظاهرية للكعبة أمر طيب يستحق التقدير، إلا أنها لا تُعد شيئاً يُذكر بالمقارنة مع العمارة الروحية التي لا يستطيع أن ينهض بها إلا المسلم الحق. ولو كان الحفاظ على الدين الحق يستلزم الهدم المؤقت للكعبة، لأجاز القرآن الكريم ذلك دون تردد، لأن المحافظة على الدين والإيمان هي الغاية العظمى في الإسلام، لا المحافظة على بيت مهما بلغت قدسيته. وعلى هذا، ترد الآية الكريمة على الادعاء الذي لا أساس له بأن الإسلام يولي أهمية كبرى للشكل الظاهري للعبادات دون جوهرها. ويجدر التنبيه هنا إلى أن حياة المؤمن الواحد أعظم حرمةً عند الله من الكعبة نفسها. ورد في الحديث الشريف، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: «مَا أَطْيَبَ وَأَطْيَبَ رِيْحِكَ مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ مَا لِي وَدَمِي وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا». {ابن ماجه - كتاب الفتن، الحديث رقم ٣٩٢٢}

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

التفسير:

ذكرت الآية السابقة أن المؤمنين لا يمكن أن يتساوا مع المشركين، حتى لو قام المشركون بخدمة الكعبة وسقاية الحجاج. وفي هذه الآية يُبين الله تعالى أن المؤمنين أنفسهم ليسوا على درجة واحدة، فبعضهم أعظم درجة عند الله من بعضهم الآخر.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ
فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾

التفسير:

انظر الآيات: آل عمران: ١٦؛ المائدة: ١٣؛ التوبة: ٧٢؛ يونس: ١٠؛ الحديد: ٢١.

خُلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

التفسير:

انظر تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى

الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير:

تتعلق هذه الآية بفئة من المشركين الذين أظهروا عداوة شديدة للمؤمنين، وسعوا جاهدين للقضاء على الإسلام. فقد أعلنوا الحرب على المسلمين الأبرياء، وبلغ حقدهم على الإسلام حدًّا جعلهم يتناسون روابط القرابة ويسعون إلى إلحاق الضرر بأقاربهم المسلمين. ولذلك مُنع المسلمون من إقامة علاقات الودّ والصدقة مع هؤلاء الأعداء اللدودين؛ لأن مثل هذا التصرف يُعدّ خيانة عظيمة للإسلام، ومن شأنه أن يلحق به ضررًا بالغًا.

أمّا المشركون الآخرون الذين لم يعتدوا على المسلمين ولم يحاربوهم، فإنّ تعاليم الإسلام تحثّ المسلمين على برّهم والقسط إليهم (انظر الآيتين ٩ و ١٠ من سورة الممتحنة). فالإسلام، في واقع الأمر، يولي الرقيّ والتقدّم الروحي منزلة أعظم من التقدّم المادّي، ومن الواضح أنّ إقامة علاقات صداقة مع أشخاص يفضّلون الكفر على الإيمان تؤدي بالضرورة إلى تأثير مدمر على التقدّم والرقيّ الروحي.

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ
اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

التفسير:

كانت روابط القرابة والدم تجمع بين المشركين والمسلمين. غير أن الآية تخبر المسلمين بوضوح أن هذه الروابط وغيرها من الاعتبارات الدنيوية كالثروة والتجارة والعقارات، يجب ألا تقف عائقاً في طريقهم متى اقتضى الأمر التضحية بها في سبيل روابط أسمى، وأهداف أعظم نبلاً، واعتبارات أكثر أهمية. فمحبة الأهل والأقارب ومتاع الدنيا يجب ألا تعيق المؤمنين أو تمنعهم من خدمة مقاصد الإسلام. أما «أمر الله» الوارد في آخر الآية، فقد تحقق بعد وفاة الرسول ﷺ حين تمرد القوم الفاسقون الذين دخلوا الإسلام سعياً لنيل المكاسب الدنيوية، فحلّ بهم العقاب الإلهي على يد أبي بكر رضي الله عنه، أول الخلفاء الراشدين.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ
حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ
عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا
رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

مَوَاطِنَ: جمع «موطن» المشتق من «وطن». يقولون «وطن بالمكان» أي أقام به واتخذهُ وطنًا. و«الوطن» يعني منزل إقامة الإنسان؛ مقره الدائم؛ بلد الإنسان؛ وتعني أيضاً

مربط الغنم والبقر. «موطن» تعني أيضاً كل مكان أقام به الإنسان لأمر؛ وتعني أيضاً ميدان المعركة أو مشهد من مشاهد الحرب (أقرب الموارد).

حُتَيْن: موقع شهد معركة مهمة بين الرسول ﷺ وبعض القبائل المشتركة من الجزيرة العربية في العام الثامن من الهجرة. ويقع إلى الجنوب الشرقي من مكة على بعد نحو ١٨ ميلاً منها. وقد شارك في صفوف المسلمين في هذه المعركة عدد من أهل مكة حديثي العهد بالإسلام.

التفسير:

تذكر الآية المؤمنين بحقيقة مهمة، وهي أن العدد وحده لا يعتد به، فعليهم ألا يظنوا أن وجود الكفار بينهم سيسهم في قوتهم أو ازدهارهم. ولذلك تلفت الآية أنظارهم إلى النكسة المؤقتة التي حلت بهم في معركة حُتين بسبب وجود ألفين من أهل مكة معهم، كانوا حديثي العهد بالإسلام ولم يترسخ الإيمان في قلوبهم بعد، بل إن نحو ثمانين منهم كانوا لا يزالون وثنيين (الزرقاني، المجلد الثالث، ص ٦).

بعد فتح مكة، خشيت قبيلتا هوازن وثقيف القويتان من ترسيخ أركان الإسلام في الحجاز، فتحالفتا وتقدمتا لمهاجمة المسلمين. فالتقى بهما رسول الله ﷺ في حُتين التي تبعد ١٨ ميلاً عن مكة، وكان معه جيش قوامه اثنا عشر ألف رجل بينهم ألفان حديثو عهدٍ بالإسلام كما سبق ذكره، وقد انضموا إلى الجيش في مكة. وخلافاً لنهج النبي ﷺ، أسرع هؤلاء بالهجوم على جيش العدو الذي بلغ قوامه عشرين ألف رجل، ولكنهم سرعان ما صُدوا ففروا من أرض المعركة في حالة من الفوضى العارمة مما أدى إلى ارتباك جيش المسلمين الذي كان يمر حينها عبر ممر ضيق فاضطر إلى التراجع. ونتيجة لهذا التدافع الشديد لم يبق غير الرسول ﷺ الذي صمد كالصخرة في ساحة المعركة محاطاً بمئة رجل فقط من أصحابه. وقد انهالت سهام الرماة كثيفة سريعة حوله من كل اتجاه، وكانت لحظة خطر عظيم، غير أن النبي ﷺ تقدم بثبات نحو العدو وهو يحث بغلته صارخاً بأعلى صوته: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد

المطلب». وصاح العباس، عم النبي ﷺ، وكان ذا صوت جهوري، ينادي المسلمين الفارين ليعودوا إلى أرض المعركة ويلبوا نداء سيدهم رسول الله ﷺ. وكان لهذا الصوت المدوي كالبوق أثر أيقظ المسلمين كما يوقظ الصور الأموات يوم القيامة، فتجمعوا مندفعين بسرعة نحو سيدهم الحبيب، وهاجموا الأعداء بشراسة أرعبت قلوبهم وأجبرتهم على الفرار في اضطراب شديد. وهكذا انقلبت الموازين وانتهى اليوم بانتصار باهر للمسلمين، وأسر ما لا يقل عن ستة آلاف من الكافرين (الطبري وابن هشام).

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

التفسير:

لقد أنزل الله سكينته على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين الصادقين وحدهم، فتميز بذلك المؤمنون من ضعيفي الإيمان؛ ثم سرعان ما أنزل الله عونه من السماء، فهزم الكافرون ونزل بهم العقاب الذي استحقوه.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ

خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

نَجَسٌ: مشتقة من «نَجَسَ» ومعناها كان أو أصبح غير نظيف؛ قدر؛ غير طاهر. لذا فكلمة «نَجَسٌ» تعني القدر؛ غير النظيف؛ غير الطاهر، وتعني أيضاً داءً خبيث لا دواء له (معجم لين). النجاسة: القَدَارَةُ، وذلك ضربان: ضرب يُذْرِكُ بالحاسّة، وضرب يُذْرِكُ بالبصيرة، والثاني وصف الله تعالى به المشركين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (مفردات القرآن).

سَوْفَ: حرفٌ يُخَصِّصُ أفعالَ المُضَارَعَةِ بالاستقبال ويُجَرِّدُهَا عن معنى الحال نحو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تنبيهٌ على أن ما يطلبونه وإن لم يكن في الوقت حاصلًا فهو مما يكون بعد لا محالة ويقضي معنى المماطلة والتأخير. وأكثر ما تستعمل في الوعيد نحو: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وقد تستعمل في الوعد نحو: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

يرى بعضهم أن «سوف» مرادف لحرف السين، ولكن يرى آخرون أن سوف أطول زمانًا من السين وتتميز عنها، ويضاف إلى سوف حرف اللام للتوكيد (المفردات وأقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن كلمة «نجس» كما ذكر في شرح الكلمات تعني إما «الشخص غير الطاهر روحياً» أو «المصاب بداء عضال لا دواء له». وعلى ذلك فقد جاء وصف الوثنيين هنا بأنهم: (١) غير طاهرين من الناحية الروحية، أو (٢) قد اعتادوا الوثنية لدرجة يكاد يكون من المستحيل عليهم التخلص منها. ولما كانت مكة مهد الإسلام، والشاهد على

إيمان إبراهيم عليه السلام العظيم بالله الواحد، كان من الضروري أن يظل هذا المكان طاهراً من الناحية الروحية، ولهذا السبب مُنع المشركون من دخول المسجد الحرام. وكان قدوم الحجيج إلى مكة مصدر دخل كبير لأهلها، وربما أثار هذا المنع الخوف في قلوب بعض المسلمين من أن يتأثر دخلهم ويقل بشكل كبير، ولذلك تُطمئنهم الآية بالألا يخشوا الفقر، فإن الله تعالى سوف يغنيهم من فضله.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

الْجِزْيَةُ: مشتقة من «جزى» ومعناه أعطى أو كافأ. يُقال «جزيت فلاناً حقه» أي قضيت له حقه أو دينه. «جزاه كذا» تعني دفع دينه؛ كافأه؛ عوضه. «الجزية» هي الضريبة التي تؤخذ من رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين نظير الحماية التي توفرها لهم الدولة الإسلامية (معجم لين وأقرب الموارد).

يَدٍ: تعني أيضاً المِنَّة (انظر الآية ٦٥ من سورة المائدة).

صَاغِرُونَ: جمع «صاغر» المشتق من «صَغُرَ» أي قل حجمه أو سنّه؛ صار أدنى منزلةً أو قدراً أو كرامةً (معجم لين). «صاغر» اسم فاعل من «صَغُرَ» وتعني الراضي بالمنزلة الدنيّة (المفردات).

التفسير:

تناولت الآيات السابقة موضوع قتال المشركين، بينما تبدأ هذه الآية بمعالجة موضوع قتال أهل الكتاب. وتشير إلى أهل الكتاب الذين كانوا يقطنون في الجزيرة العربية، والذين - شأنهم شأن مشركي تلك البلاد - كانوا يُعادون الإسلام عداوة شديدة ويسعون للقضاء عليه. لذلك أمر المسلمون بقتالهم إلا إذا وافقوا على العيش كرعايا موالين ومسلمين.

والجزية التي تشير إليها الآية الكريمة هي الضريبة التي كان على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين دفعها نظير ما يتمتعون به من حماية في ظلها، وقد أجاز الإسلام بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية كرعايا، شريطة دفع الجزية، في حين لم يُجْز ذلك للمشركين. أما في سائر أقاليم الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، فقد أُبِح لجميع غير المسلمين العيش كرعايا مقابل أداء هذه الضريبة. فلأن الجزيرة العربية هي مهد الإسلام ومركزه وحصنه الحصين، اقتضى الأمر أن تظل خالية من الوثنيين. وينبغي الإشارة هنا إلى أنه في مقابل ضريبة الجزية المفروضة على غير المسلمين، هناك ضريبة مفروضة على المسلمين وهي الزكاة، وهي أثقل من الجزية، وبالإضافة إلى ذلك، كان على المسلمين واجب أداء الخدمة العسكرية، التي كانت شاقة جداً في تلك الأيام، بينما كان غير المسلمين معفيين منها. وعلى ذلك، فقد كان حال غير المسلمين أفضل من حال المسلمين، حيث كانوا يدفعون ضريبة أقل، وكانوا أيضاً في حلٍّ من الاشتراك في الخدمة العسكرية.

وقد جاء التعبير القرآني ﴿عَنْ يَدٍ﴾ على سبيل المجاز، ويعني:

(١) ينبغي ألا تؤخذ الجزية عنوة من أهل الكتاب، وإنما عليهم دفعها بأيديهم، أي طوعية مع الإقرار بسيادة الدولة الإسلامية.

(٢) عليهم دفعها فوراً، أي نقداً حاضراً وليس بطريق الأجل.

(٣) أن ينظر إلى دفعها على أنه منّة عليهم من المسلمين الذين يتولون أمر الدفاع عنهم وحمايتهم، إذ إن كلمة «يد» تعني أيضاً المنّة.

وقد جاءت كلمة ﴿صَاغِرُونَ﴾ هنا لتشير إلى خضوع الرعايا غير المسلمين سياسياً للدولة، أي إنهم بمقام الرعية بالنسبة للمسلمين. أما بالنسبة للعلاقات الاجتماعية بين المسلمين والذميين، كما كان يُطلق على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين، فيمكن الحكم عليها من حقيقة أن النبي ﷺ نفسه كان يقف احتراماً عندما تمر به جنازة أحد الرعايا غير المسلمين (أبو داود كتاب الجنائز). كما أن الخليفة الرابع عليّ رضي الله عنه حمل على كتفه نعش أحد النصارى الذي توفي زمن خلافته.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

عُزَيْرٌ: ربما مأخوذ من اللغة العربية ومشتق من الفعل عزر. يقال: عزّره أي منعه؛ ردعه؛ علّمه الأوامر والنواهي الإلهية؛ أعانه؛ ساعده؛ نصره؛ قوّاه، عامله باحترام وتوقير (معجم لين).

عزرا (اسم عبري) ربما يكون اختصاراً لـ(عزريا) ومعناه «يهوه (الرب) يساعد» وهو من نسل سرايا، الكاهن الأعظم. ولأنه كان عضواً في السلك الكهنوتي، عُرف أيضاً باسم عزرا الكاهن. كان من أبرز الشخصيات في عصره، وكان له تأثير بالغ في تطور اليهودية، كما حظي بمكانة خاصة بين أنبياء بني إسرائيل. ويمثل عهده في الواقع مرحلة ازدهار في التاريخ القومي لليهود ويُعد من أكفأ رجالاته وأعلمهم بالناموس.

وقد قرن حاخامات اليهود اسمه بالعديد من المؤسسات المهمة. يذكر «رينان» في مقدمة كتابه «تاريخ شعب إسرائيل»: «لعل التأسيس الفعلي للدستور اليهودي لم يبدأ إلا من زمن عزرا». وفي الأدب الحاخامي يعد عزرا جديراً بحمل الناموس، لولا أنه أنزل على موسى. ووفقاً للتقاليد، عمل عزرا بتعاون وثيق مع نحميا، وعاش في القرن الخامس قبل الميلاد وتوفي عن عمر يناهز ١٢٠ عاماً في بابل. (دائرة المعارف اليهودية ودائرة معارف الكتاب المقدس).

يُضَاهِئُونَ: مشتقة من «ضاهى» المشتقة من «ضهى». يُقال «ضاهاه أو ضاهاه» أي شاكله؛ شابهه؛ قلّده؛ عامله بلطفٍ وحنانٍ وكياسةٍ. وفي الحديث الشريف المعروف، يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ اللَّهَ فِي خَلْقِهِ». أي الذين يحاولون تقليد أو محاكاة خلق الله تعالى (معجم لين).

قَاتَلَهُمُ اللَّهُ: قاتل: جذرها «قتل»، يُقال «قتله» أي أماته؛ جعله كالميت؛ حاول إماتته؛ قطع كل العلاقات معه. «قاتله» أي صارعه أو حاربه. و«قاتله الله» أي لعنه الله؛ أخزاه الله وطرده من رحمته (لسان العرب وأقرب الموارد). ومن معاني «قاتلهم الله» أيضاً: حاربهم الله، فإن من صار بحيث يتصدى لمحاربة الله فإن الله لا بد قَاتِلُهُ ومن غالبه الله فهو مغلوبٌ (المفردات). انظر أيضاً الآية ٦٢ من سورة البقرة.

التفسير:

بعد أن تناول القرآن الكريم بإسهاب معتقدات وممارسات الوثنيين في الجزيرة العربية، ينتقل في هذه الآية إلى بيان المعتقدات والممارسات الشركية عند اليهود والنصارى. فقد كان اليهود الذين يسكنون المدينة يعدون عزرا ابن الله، وبالمثل كان اليهود الذين يسكنون في حضرموت في جنوب الجزيرة العربية يعتبرونه أيضاً ابن الله. وقد استمر وجود بقايا من هذه الفرقة حتى نهاية القرن الرابع الهجري (القسطلاني وداود والظاهري). ولما كانت هذه العقيدة اليهودية، التي تبدوا إقليمية، بدعة مستحدثة ولم تستمر لزمان طويل، فإن المصادر اليهودية الحديثة لا تذكرها.

غير أن هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً. وفي موضع آخر يذكر القرآن المجيد أن اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء الله (المائدة: ١٨).

وتبين الآية الحالية أيضاً أن هذه المعتقدات التجديفية لم يعلمها أنبياء بني إسرائيل لليهود والنصارى، وإنما اقتبسوها لاحقاً من مصادر وثنية. وبالمناسبة، فإن هذا الإعلان القرآني دليل على مصدره الإلهي، إذ يذكر حقيقة لم تكن معروفة للعالم حتى قبل قرنين من الزمن، ولم تكشف إلا مؤخراً بفضل البحوث الحديثة. فقد بينت دراسة حول أصول الدين المسيحي أن كلاً من اليهود والنصارى قد اقتبسوا عقائدهم اللاحقة من مصادر وثنية بابلية ورومانية.

ويشير قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى لعنة الله، فحين يستخدم الإنسان مثل هذه الكلمات فإنها لا تعني إلا الدعاء باللعة. أما عندما يستخدمها الله تعالى فإنها نبوءة بهلاك الشخص أو الأشخاص الذين قيلت بحقهم هذه اللعة.

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا
وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

أحبار: انظر الآية ٤٥ من سورة المائدة.

رهبان: انظر الآية ٨٣ من سورة المائدة.

التفسير:

الأحبار هم علماء اليهود، والرهبان هم النساك المسيحيون. وكان اليهود والنصارى يجلّونهم ويعظمونهم حتى جعلوهم آلهة إلى جانب الله الحق.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى
اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ﴾ إلى سعيهم للنيل من الإسلام بإشاعة الدعايات الكاذبة ضده، وتحريض الآخرين على الإصرار به. وكما يشهد التاريخ، كان المسيحيون القاطنون في الجزيرة العربية يحرضون أبناء دينهم الأقوياء من الرومان في الشام ضد الإسلام، وسعوا بمساعدتهم إلى إطفاء نوره الذي أوقده الله ﷺ في الجزيرة العربية. غير أن هذه الآية تبين لهم أن مكائدهم ومؤامراتهم ستبوء بالفشل، ولن تفلح أبداً في إيذاء الإسلام. وقد قام اليهود أيضاً بمحاولة مماثلة، إذ أثاروا الفرس ضد رسول الله ﷺ. (انظر أيضاً الآية ١٠٣ من سورة البقرة).

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير:

انتهت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ بينما تنتهي الآية الحالية بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. ويعدّ النصارى قوماً كافرين لأنهم لا يؤمنون برسول الإسلام ﷺ، وهم كذلك مشركون لأنهم يتخذون لله شركاء. ويتبين الفرق بين الكلمتين من وجهة أخرى أيضاً، فكلمة «كافرون» (الواردة في الآية السابقة) مشتقة من «كفر» وهي تعني حرفياً: التغطية. وقد استعمل القرآن المجيد هذه الكلمة لتبيان أنه لا يمكن لهؤلاء الذين يسعون لطمس نور الله ﷺ أن يفلحوا أبداً في

إطفائه. أما كلمة «مشركون» الواردة في الآية الحالية فتشير إلى حقيقة أن النصارى لم يجمعوا عن اتخاذ شركاء لله (وهو ما يفيد ضمناً إمكان اشتراك غيره تعالى في الصفات الإلهية)، ومع ذلك لا يطبقون أن يروا غيرهم يشترك معهم في نوال نعمة النبوة، ولا يتقبلون فكرة أن يبعث الله ﷺ الأنبياء في أمم أخرى كما بعثوا فيهم. ولذلك تخبرهم الآية بجلاء أن الله ﷻ قد أنعم بالنبوة على أقوام غيرهم، شاؤوا ذلك أم أبوا.

والوعد القرآني للإسلام بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وعد قائم على مرّ الزمن. وقد تحقق هذا الوعد حين انتصر الإسلام في مهده على سائر الأقوام، بما فيها النصارى. وسوف يتحقق هذا الوعد مرة أخرى في الزمن الحالي، بعد أن بعث الله تعالى المسيح الموعود ﷺ الذي أسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، لنصرة الإسلام وخدمته. وسوف يكون هذا النصر تاماً ودائماً. وفي الواقع يتفق معظم المفسرين (راجع تفسير البيان) على أن التحقق النهائي والكامل لهذا الوعد، كما جاء في الآية الحالية، سيتم في زمن نزول المسيح.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لِيَأكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

التفسير:

تُلقي الآية الضوء على الانحطاط الأخلاقي لزعماء اليهود والنصارى الذين كانوا يعارضون الرسول ﷺ. إن انحلالهم الخلقي وفسادهم الروحي في حد ذاته دليلٌ

على صدق الإسلام، إذ حين يفسد قادة الدين أنفسهم، فلا سبيل إلى الإصلاح إلا بواسطة المبعوث السماوي. لقد عارض زعماء اليهود والنصارى الرسول ﷺ، غير أن فسادهم ذاته كان شاهداً على أنه قد بُعث في وقتٍ كانت الحاجة فيه ماسّة إلى المبعوث السماوي.

وترسم كلمات الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ صورة حيّة لحال اليهود والنصارى. فهم يَكْنِزُونَ الثروات ولا ينفقونها في سبيل الله، أي في نشر الحق ومساعدة الفقراء والمحتاجين، وتنذرهم الآية بعذاب أليم.

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا
جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ
لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

تُكْوَى: من «كوي»، يُقال «كواه» أي أحرق جلده بمحديدة أو نحوها (معجم لين). «كُوِيَتْ الدَّابَّةُ بالنارِ»: وسمتها أو علّمتها بمكواة أي بقطعة حديد ساخنة (المفردات). «كَوَتِ العَقْرُبُ فُلَانًا»: لدغته. «الْكِيُّ» مصدر وأصله «الْكُوِي» وهو إحراق الجلد بهدف التداوي من داء عضال أو وسم الجلد بقطعة حديد أو ما شابهها لوضع علامة على الدابة. تقول العرب: «آخَرُ الدَّوَاءِ الْكِيُّ» أي إذا أعضل الداء وأبى قبول الدواء، حُسِمَ بالكي آخر الأمر (أقرب الموارد).

التفسير:

لن يكون للجزاء والعقاب في الحياة الأخرى طبيعة مادية، بل سيكون كل منهما تمثيلاً روحياً لأعمال الإنسان في هذه الحياة الدنيا. ويتضح هذا من الآية الحالية

التي نحن بصدد تفسيرها، والتي تحدد ثلاثة مواضع فقط من الجسد للكوي: الجباه، والجوانب، والظهر.

ومن الواضح أن هذا التعبير مجازي. فعندما يمتنع الشخص الغني عن مساعدة السائل، فإن أول علامة تظهر عليه هي عبوس جبهته، ثم يدير جانبه، وأخيراً يُعرض عن السائل بظهره في استخفاف وازدراء. لذا فمن الملائم أن تذكر الآية هنا كوي الجباه والجنوب والظهر، أي أن في الحياة الآخرة سوف تبدو هذه الأجزاء وقد كُويت بالحديد الساخن، كما لو أنها تشهد على نفسها.

وتومئ الآية أيضاً إلى أنه حتى في هذه الحياة الدنيا، ستكون الثروات المكتنزة لليهود والنصارى مصدر عقاب أليم لهم. وفي هذا السياق، يمكن فهم الإنذار بالعقاب على أنه إشارة إلى الحروب المدمرة، كالحرب العالمية الثانية حيث استخدمت المعادن الحارقة بأشكالها المختلفة، فدمرت الشعوب الغربية وأصابتهم في جباههم وجنوبهم وظهرهم، سواء أكان ذلك عند مواجهة العدو أو حين الالتفاف بمنورة جانبية أو عند الانسحاب؛ والغريب أن اليهود قد تضرروا من هذه الحروب بقدر ما تضررت الشعوب المسيحية.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي
كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا
تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ
كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

كتاب: مشتقة من « كتب » وتعني (١) خَطَّ [صَوَّرَ اللفظ بحروف الهجاء]. (٢) أوجب أو سنَّ [قانوناً]. و « كتاب » تُطلق على الصحيفة أو ما يُكتب فيها؛ تنزيل أو أمر أو حكم إلهي (معجم لين). انظر أيضاً الآيتين ٥٤ و ١٣٠ من سورة البقرة.

التفسير:

تعني عبارة: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أن الله ﷻ قد قدر، يوم خلق السماوات والأرض، أن يكون عدد الشهور اثني عشر شهراً، أي إن قانون الطبيعة الذي وضعه الله ﷻ قد حدد هذا العدد وجعله متوافقاً مع كل من النظامين الشمسي والقمرى.

أما الأشهر الحُرْم فهي أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. وقد عدَّ العرب الذين ينحدر معظمهم من نسل إبراهيم ﷺ، هذه الشهور حُرماً منذ زمن سحيق، وقد أقر الإسلام حُرمتها. ويحرم شَن الحرب في هذه الشهور أو استمرار حالة الحرب فيها، إلا كما يقول القرآن المجيد إذا كان العدو هو الذي انتهك حرمتها أولاً. (انظر أيضاً تفسير الآية رقم ٢١٨ من سورة البقرة).

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاظِنُوا عِدَّةَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ
أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

النَّسِيء: اسم من «نَسَأ» بمعنى أَخَّرَ أو أَرَجَأَ أو أَجَّلَ. يقال: «أنسأ الله أجله» أي أَخَّرَ الله موته، أي أطال عمره. وتقول العرب: «بايعه بنسيئة» أي باع له وأَخَّرَ له دفع

الثلث. لذا فإن كلمة «النسيء» تعني تأخير الشهر أو تأجيله، أي نقل حرمة شهر إلى آخر؛ وهي عادة كانت عند العرب في الجاهلية. وتطلق أيضاً على الشهر الذي أخره العرب، وعلى تأخير وقت الحج وهي عادة أخرى كانت عند العرب؛ وتستعمل أيضاً بمعنى تأجيل سداد الدين أو تأخير وقت السداد أو دفع ثمن سلعة مباحة (معجم لين وأقرب الموارد).

يُؤَاطِئُوا: مشتقة من «واطأ» المشتقة من «وَطِئَ» أي داس أو دهس. يقال: «واطأه على الأمر» أي وافقه عليه. «تواطأ القومُ على الأمر»: توافقوا عليه (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير هذه الآية كما ذكر في شرح الكلمات إلى عادة قديمة من عادات العرب، إذ كانوا يرون أحياناً أن الأشهر الحرم الثلاثة المتعاقبة - ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم - فترة طويلة يصعب عليهم خلالها التوقف عن غاراتهم المعتادة. ولكي يحرروا أنفسهم من قيودها، كانوا يعتبرون أحياناً أحد الشهور الحرم شهراً عادياً، ويستبدلونه بتحريم أحد الشهور العادية. وقد أدانت الآية هذا التصرف باعتباره تحايلاً وتدخلًا في حرمة الحياة المكفولة في هذه الشهور الأربعة. وكان الإجراء المتبع لتأجيل حرمة شهر من الشهور كما يلي: عندما يعود الحجيج من منى في شهر ذي الحجة بعد أداء مناسك الحج، يقوم رجل من ذوي النفوذ من بين الجموع، وكعادة العرب يقول: «أنا الذي لا يُرد له قضاء». وحينئذ يطلب منه الجمع أن ينقل حرمة الشهر التالي، أي محرم، إلى الشهر الذي يليه، أي صفر. وبهذا تُنتهك حرمة الشهر الذي حرمه الله دون عقوبة. ولم يكن العرب يلجأون إلى هذه الحيلة كل عام، بل كلما وافق ذلك أهواءهم وخدم مصالحهم. وقد أدان القرآن الكريم هذه الممارسة باعتبارها بدعة فاسدة، ودليلاً على عدم جدارة الوثنيين العرب بالثقة، إذ كيف يُرتجى منهم الوفاء بعهودهم مع المسلمين، وهم لم يلتزموا بأحكام الله أصلاً؟.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
 أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
 أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٨﴾

التفسير:

لما كان على المسلمين الصادقين الامتناع عن الحرب حين يقتضي الأمر ذلك (انظر الآية السابقة)، فإنّ عليهم أيضاً أن يكونوا على استعداد دائم للتقدم إلى القتال في سبيل الله عندما يدعوهم الداعي لذلك. وتلفت الآية الحالية أنظارنا إلى هذه الحقيقة العظيمة.

وفي الواقع يبدأ القرآن المجيد في هذه الآية بإلقاء الضوء على ضعف الإيمان من أهل المدينة، بمن فيهم المنافقون، كاشفاً الأسلوب الذي اتبعوه للتهرب من مسؤولياتهم باعتبارهم أعضاء في المجتمع الإسلامي. وتوجه الآية الكلام إلى المنافقين على وجه الخصوص، مع الإشارة إلى غزوة تبوك، وهي مدينة تقع في منتصف الطريق تقريباً بين المدينة المنورة ودمشق. فقد بلغ النبي ﷺ خبر أن اليونانيين من الإمبراطورية الرومانية الشرقية يحشدون قواتهم على حدود الشام. ولما كان لهؤلاء اليونانيين، المعروفين باسم الرومان، جيش نظامي قوي، رأى رسول الله ﷺ ضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهةهم. وعلى غير عادته، أعلن ﷺ عن هدفه وصرح بوجهته، حتى يتسنى لجميع المشاركين أن يكونوا على بينة بطول الرحلة ومشقتها. وقد كان ذلك الوقت وقت ابتلاء عصيب، إذ اقتضى الأمر القيام برحلة طويلة وشاقة عبر الصحراء في شدة الحرارة. كان الموسم ينذر بالقحط والقلة لمن اشترك في الحملة، بينما يعد بالحصاد ووفرة الخير لمن تخلفوا.

لبي المسلمون الأتقياء نداء الرسول ﷺ مدفوعين بإخلاصهم للإسلام. وأما الذين تخلفوا دون إذن، فلم يكن من بينهم من المؤمنين الصادقين إلا ثلاثة فقط، وكان الباقون من المنافقين. وقد خرج النبي ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة على رأس جيش قوي قوامه ثلاثون ألف رجل. ونظراً للمشقة الشديدة التي تكبدها الجيش في هذه الرحلة الطويلة، سمي بـ «جيش العُسرة».

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ
قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

إِلَّا تَنْضُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

كلمة: انظر البقرة: ٣٨ و ١٢٥؛ وآل عمران: ٤٦؛ والنساء: ١٧٢.

التفسير:

تشير هذه الآية إلى هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، حين أوى مع صاحبه أبي بكر ﷺ إلى غار ثور. (انظر تفسير الآية ٣١ من سورة الأنفال). وتشير كلمة «اثنَيْنِ» في قوله تعالى: «ثَانِيَا اِثْنَيْنِ» إلى الرسول ﷺ وأبي بكر ﷺ، وقد ذكر النبي ﷺ بوصفه «ثاني» الاثنين، لأن التعبير القرآني يقدم الشخص الأهم في نهاية المجموعة المذكور ضمنها، أي إن الأهم يأتي أخيراً. انظر على سبيل المثال الآية ٧٤ من سورة المائدة، حيث جاء ذكر الله تعالى في نهاية الثالوث المسيحي، إذ يقول ﷻ: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ».

وتلقي الآية ضوءاً مهماً على المقام الروحي العظيم لأبي بكر ﷺ الذي صحب الرسول ﷺ في رحلته من مكة، إذ أشارت إليه الآية باعتباره أحد «الاثنين». ومما يجدر ذكره أنه عند وقوع الخطر، عبّر بنو إسرائيل لموسى ﷺ عن خوفهم فقالوا: «...إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ» (الشعراء: ٦٢، ٦٣). وفي موقف مماثل حين عبّر أبو بكر ﷺ عن قلقه، قال له رسول الله ﷺ بهدوء: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا». وهذا يدل على عظمة مقام أبي بكر ﷺ، إذ إن الضمير في قوله تعالى: «مَعَنَا» يدل على أن الله ﷻ لم يكن مع الرسول ﷺ فحسب، بل كان مع أبي بكر ﷺ أيضاً.

كذلك سجل التاريخ أن أبا بكر ﷺ كان يبكي وهو في الغار، فلما سأله رسول الله ﷺ عما يبكيه قال إنه لا يبكي خوفاً على حياته، فهو إن مات، فموته يعني فقدان حياة فرد واحد، أما إذا مات رسول الله ﷺ فسيكون في ذلك موت الإسلام والأمة الإسلامية جمعاء (الزرقاني).

ويعود الضمير في قوله تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» إلى أبي بكر ﷺ لا إلى الرسول ﷺ، فرسول الله كان ينعم دائماً بسكينة الله. أما الضمير في قوله تعالى: «وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ» فيعود إلى الرسول ﷺ، وهذا الاختلاف في استعمال الضمائر جائز بالعربية ويعرف باسم «انتشار الضمائر». (انظر أيضاً البقرة: ٧٥، الفتح: ١٠)

وتعني عبارة: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَحْبَطَ مَكَائِدَ الْكَافِرِينَ، ففشلوا في تحقيق مآربهم. (انظر أيضاً الأنفال: ٣١).

وتومئ الآية إلى أنه لو لم يصحب أحد الرسول ﷺ في غزوة تبوك التي حَفَّتْ بها المشاق والمخاطر، لكان أبو بكر ﷺ سيصعبه حتماً كما فعل في الهجرة من مكة. وعلى هذا، تقدم هذه الآية شهادة عظيمة على قوة إيمان أبي بكر ﷺ، وصدق إخلاصه.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

التفسير:

تأمر الآية المسلمين بالخروج للقتال في سبيل الله دون أن يسمحوا لأي عائق دنيوي أو اعتبار شخصي أن يمنعه من أداء هذا الواجب. ولكمتي ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ معانٍ عدة منها: شاباً وشيوخاً، فرادى أو جماعات، رجالاً على الأقدام أو على ظهور الخيل، بعدة كافية من السلاح أو دون عتادٍ كافٍ، وبما يكفي من المؤونة أو بالقليل منها، وغير ذلك.

لَوْ كَانَتْ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ
وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

عَرَضَ: مشتق من الفعل «عَرَضَ» (انظر الآية ١٧٠ من سورة الأعراف). و«العَرَضُ» هو أي شيء يحصل للشخص؛ حادث من أي نوع كان؛ الشيء المؤقت الذي لا يدوم؛ حطام الدنيا؛ المتاع الدنيوي؛ الأملاك أو الثروة سواء قليلة أو كثيرة؛ الغنيمة؛ الأمنية؛ المكسب؛ العطية (معجم لين وأقرب الموارد).

قاصِد: اسم فاعل من «قصد»، يُقال «قصده» أي توجه إليه؛ نحا نحوه؛ جعله هدفه؛ تعقبه. و«قصد الطريق»: استقام. يقولون «قصد في الأمر» ضد أفرط أي نهج الطريق المستقيم أو الصحيح؛ تناول الأمر باعتدال. «قَصَدَ»: مصدر من «قَصَدَ» وتعني الهدف؛ الوجهة؛ النية؛ الأمنية؛ الطريق المستقيم الموصل إلى الحق؛ الشيء الصحيح. «قاصد» تعني قريب. و«طريق قاصد» أي طريق مستوٍ أو مستقيم أو صحيح. «سفر قاصد» أي سهل وقريب (معجم لين وأقرب الموارد).

الشَّقَّةُ: مشتقة من «شقَّ»، يُقال «شَقَّة» أي قطعه أو قَدَّه أو شطره أو كسره. «شقَّ عليه الأمر» أي صعب عليه؛ ضاق به ذرعًا. «الشَّقَّةُ» تعني قطعة من الثياب؛ السفر الطويل أو البعيد؛ الطريق الصعب على من يسلكه؛ البعد والناحية يقصدها المسافر؛ المشقة؛ المسافة التي يقطعها السائر (معجم لين وأقرب الموارد).

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

عَفَا: تعني محو أو أزال أو طمس الأثر، ونحو ذلك. يقال: «عفا الله عنه» أي عسى الله أن يمحو ذنوبه أو أخطائه أو آثامه. وقد يُستعمل تعبير «عفا الله عنك» فيما لم يسبق بذنب ولا يُتصوَّر، كما تقول العرب لمن تعظمه: «عفا الله عنك ما صنعت في

أمري» أي أصلح الله أمرك وأعزك (أقرب الموارد). انظر أيضاً سورة البقرة الآيات ١١٠ و ١٨٨ و ٢٢٠.

التفسير:

كما جاء في شرح الكلمات، لا تعني كلمة «عفو» بالضرورة ارتكاب إثم من جانب الشخص الذي يُذكر العفو في حقه، فهي تستخدم أيضاً في حق من لم يرتكب إثماً، بل وحتى في حق من لا يمكن أن يصدر منه الذنب. وأحياناً يُستخدم تعبير «عفاً الله عَنْكَ» للتعبير عن المحبة أو الاحترام؛ ويشير هنا إلى الرغبة في أن يُعفى رسول الله ﷺ من همه والمصاعب التي تواجهه.

أما قوله تعالى: ﴿لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ﴾ أي بالتخلف، فهو تلميح إلى أن عدم إذن النبي ﷺ لهم كان سيؤدي إلى تحقيق الغاية المرجوة والتي هي كشف النقاب عن نفاق المنافقين. فقد جاء قرابة نصف المتخلفين يستأذنون النبي ﷺ بينما تخلفت الأغلبية دون استئذانه ومن غير تقديم أعذار أو مبررات لتخلفهم عن مرافقته.

لَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ^{فِ} لِلَّهِ
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي
رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ
كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

ثَبَّطَهُمْ: مشتقة من «ثَبَّطَ» وتعني أصبح أحمقاً أو ضعيف الهمة؛ متثاقلاً؛ بطيئاً أو كسولاً. «ثَبَّطَهُ عَنْ الْأَمْرِ» أي عَوَّقَهُ وبطأ به عنه؛ شغله وصرفه عنه؛ منعه عنه بتخويفه منه؛ حال بينه وبين هذا الأمر (معجم لين).

التفسير:

تُبَيِّنُ هذه الآية الكريمة زيف الأعداء التي قَدَّمَهَا المنافقون؛ فلو كانوا حريصين حقاً على الخروج، ثم حال دونهم طارئ في اللحظة الأخيرة، لكانوا قد أعدوا العدة وتزودوا بالمؤونة والسلاح. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، مما يدل دلالة واضحة على أنهم لم تكن لديهم نية أصلاً في الخروج، وأن أعداءهم لم تكن سوى غطاء يُخفون به نفاقهم.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا
خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ
لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

خَبَالًا: مصدر من «خَبَلَ» أي فسدت أخلاقه؛ تزعزع؛ أصبح مضطرب العقل. «خَبَلَهُ» مصدرها «خَبَلٌ» أي أصابه بالجنون أو أفسده أو جعله مضطرباً. «خَبَالٌ»: الفساد؛

الجنون؛ منتهى السوء؛ النقصان، لأن خبل العقل أو العضو هو نقص في الإنسان؛ الهلاك؛ العناء؛ الحزن؛ الأسى (معجم لين). انظر أيضاً سورة آل عمران الآية ١١٩.

خِلَالَكُمْ: خِلَالٌ مشتقة من «خَلَّ»، يقولون «خَلَّ الشيء» أي ثقبه ونفذه. «خلال» تستخدم كمفرد وجمع أيضاً، وتعني المنفرج أو الفراغ أو الفجوة أو الثغرة بين شيئين؛ التفرق في الرأي. يُقال «دخلت بين خلال القوم» أي دخلت بينهم. يُقال «هو خلالهم» أي بينهم. ويقولون «جئنا خلال دور القوم» أي ذهاباً وإياباً أو حول الديار أو ما بين بيوتهم (معجم لين).

التفسير:

تعلن الآية أن تملص المنافقين من الخروج لم يتسبب في أي ضرر للمسلمين، بل على العكس، كان في الواقع خيراً ونعمة. فلو خرج المنافقون مع جيش المسلمين لبثوا الفرقة وأثاروا البلبلة في صفوف المسلمين ولسعوا إلى خلق الفتنة والشقاق.

وبين الجزء الأخير من الآية أن بعض المنافقين أو ضعاف الإيمان قد خرجوا بالفعل مع جيش المسلمين، وكانوا على استعداد دائم للاستماع لزعماء المنافقين الذين تخلفوا في المدينة، فلو خرج معهم هؤلاء الزعماء أيضاً، لاشتراك الطرفان في العمل على الإضرار بالإسلام.

لَقَدْ أَتَبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ
الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

قَلَّبُوا: مشدد من «قَلَبَ». يُقال «قَلَبَهُ» أي جعل أعلاه أسفله؛ حَوَّلَهُ عن وجهه أو حالته. «قَلَبَتْهُ بيدي» أي حولته بيدي مراراً وتكراراً. «قَلَّبَ الفكر» في أمرٍ أي فكَّر ملياً في الأمر ونظر في عواقبه. «قَلَّبَ الأمور» أي تفحصها ودرسها وتمعَّن فيها للتوصل إلى القرار السليم. «قَلَّبُوا لك الأمور» تعني أنهم تدبَّروا الأمور ونظروا فيها بامعانٍ، وتصرَّفوا فيها كما يرون أو بناءً على ما دبَّروا من حيلٍ أو مكرٍ أو مكائدٍ؛ تدبَّروا الأمر واضعين العواقب في الحسبان (معجم لين).

التفسير:

تزيد هذه الآية بيان ما ذُكر في الآية السابقة من أن المنافقين لو خرجوا مع المسلمين لتأمروا على الإضرار بأهداف الإسلام في خضم المعركة، لأنهم كانوا دوماً يترصون لإثارة الفتنة ويتآمرون بما يسبب الأسى للنبي ﷺ.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا
تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

التفسير:

تذرَّع بعض المنافقين بحجةٍ واهية، وهي أن نساء الشام يتمتعن بجمالٍ فائق، وأنهم يخشون على أنفسهم الفتنة إن خرجوا إلى هناك، وكأنَّهم اختاروا التخلُّف حفاظاً على إيمانهم وأخلاقهم. لكن الآية تردُّ عليهم بإيجاز بليغ، مُشيرة إلى أن إيمانهم قد ضاع فعلاً؛ إذ كان الواجب عليهم أن يتحمَّلوا مشقَّة السفر في سبيل الله. فبرفضهم الاستجابة لندائه تعالى، لا يبقى في دعواهم أي إيمان يُعتدُّ به. لقد ضحَّوا بالأصل حفاظاً على الفرع، إن كانوا في الحقيقة يريدون الحفاظ عليه أصلاً.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا
وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

أَمْرُنَا: كلمة أمر لها العديد من المعاني منها: حُكم أو مرسوم؛ شأن؛ شيء؛ حالة؛ وضع؛ منزلة؛ ونحو ذلك. (معجم لين) أمّا هنا فكلمة أمر تعني الحذر والحيلة (الكشاف).

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

التفسير:

تعني عبارة: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أن الفوز الذي قدره الله تعالى سوف يتحقق مهما عظمت المشاق أو اشتدت العقبات. وتؤيد ذلك الكلمات التي تليها: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، وأيضاً قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢٢).

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ
وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيِدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا
مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير:

إِنَّ ﴿إِخْدَى الْحُسْنَيْنِ﴾ المذكورتين في هذه الآية هما: النصر أو الشهادة. فلا ينال المؤمنون في ساحة المعركة إلا إحداهما؛ فإما النصر والغلبة، وإما الشهادة في سبيل الله. وعلى هذا، لا يمكن للكفار والمنافقين أَنْ يُحَقِّقُوا أمانهم في هزيمة المسلمين، إذ تُؤَكِّد الآية أَنَّ الهزيمة لا تطال المؤمنين المخلصين، فهم إما شهداء مكرَّمون، أو منصورون مظفَّرون.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ
إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾

التفسير:

تعني عبارة: ﴿لَّنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ أَنَّ المنافقين، وإن عرضوا دفع الزكاة أو التصدَّق بشيء من أموالهم، فلن يُقبل منهم ذلك، ولن يُعَدَّ كَفَّارَةً عَنْ تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْمِشَارَكَةِ فِي الْغَزْوَةِ. وتستحق طبيعة هذه العقوبة التأمل، إذ لم تُفرض عليهم غرامة مالية، ولم يُسجنوا، ولم تُطبَّق عليهم أيُّ من العقوبات المعهودة في مثل هذه الحالات عند التخلُّف عن أداء واجب الخدمة العسكرية. بل اقتصر الأمر على إبلاغهم بأنهم، بعصيانهم أمر الله ورفضهم خدمة الإسلام وقت الخطر الشديد، قد خسروا، وأن زكاتهم، التي تمثِّل في حقيقتها تطهيراً للنفس ووسيلةً للفوز بالنجاة، لن تُقبل منهم. وهذا يُظهر بجلاء أَنَّ تعامل الرسول ﷺ مع المنافقين لم يكن قائماً على أي اعتبارات مالية أو دنيوية.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

التفسير:

الأعمال الصالحة نوعان: (١) ما يؤدي إلى تطهير النفس، وأهمها الصلاة. (٢) ما يؤدي إلى رفعة المجتمع، وأهمها الزكاة وغيرها من الصدقات. وتشير الآية إلى أن المنافقين كسالى ومتقاعسون في كلا النوعين.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ
وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

التفسير:

تُحذِّرُ الآيةُ المنافقين من أن أموالهم وأولادهم الذين امتنعوا عن الخروج للحرب خوفاً عليهم سيغدون وبالا عليهم وعذاباً. فأولادهم سوف يعتنقون الدين الذي يكرهونه ويكونون من أتباعه الأوفياء. وبالتالي ستُنْفَقُ أموالهم أيضاً في نشر وتقوية القضية التي يبغضها آبائهم. ولك أن تتصوّر وقع الصدمة على عبد الله بن أبيّ، زعيم المنافقين في المدينة، حين علم أن ابنه قد طلب من الرسول ﷺ الإذن بقتل أبيه، بعدما تفوّه الأخير في إحدى المناسبات بعبارات مليئة بالتهديد والإهانة الشديدة في حق النبي ﷺ، وسعى لإثارة الفتنة والخلاف بين المؤمنين.

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ
وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرِقُونَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

يَفْرِقُونَ: مشتقة من «فَرَّقَ» أي خَشِيَ أو فَزَعَ أو خَافَ. يُقال «فَرَّقْتُ مِنْكَ» أي خشيتك أو خفتك. «فَرَّقَ عليه» أي خاف عليه. «فَرَّقَ فلانٌ» تعني أيضاً أنه دخل في الفِرَق أي الموجة وغاص فيها (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

لما كانت للمسلمين السيادة في المدينة، اضطر المنافقون، الذين افتقروا إلى الشجاعة الأخلاقية، إلى إخفاء كفرهم، والتظاهر بالإيمان طمعاً في المكاسب الدنيوية. لم يكن في قلوبهم أي إيمان ولكنهم كانوا يفتقرون إلى الشجاعة للإفصاح عما يضمرونه.

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

يَجْمَحُونَ: مشتقة من «جَمَحَ»، يُقال «جَمَحَ الفرس» أي ركب رأسه لا يثنيه شيء؛ تغلَّب على راحبه وذهب به لا يثني. «جَمَحَ الرجل» أي ركب هواه فلم يمكن رُدُّه. «جَمَحَ مراده» أي أنه لم يثله. وعبارة ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ تعني: وهم يُسرعون إسراعاً، لا يردهم شيء كالفرس الذي فقد راحبه السيطرة عليه (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

حدثتنا الآية السابقة عن الخوف البالغ الذي ملأ قلوب المنافقين، ولما كان الخائف يفر عادة إلى ثلاثة مواضع للنجاة، تخبرنا الآية الحالية عن هذه الأماكن الثلاثة، سواء كانت حقيقية أو افتراضية، وهي: (١) الملجأ؛ (٢) المغارة؛ (٣) المدخل، وهو الجحر في الأرض. إن أول ما يخطر على قلب الشخص الخائف هو أن يلجأ إلى أصدقائه ليجد لديهم الأمن والحماية، وهذا ما تشير إليه كلمة ﴿مَلْجَأٌ﴾ في الآية. فإن لم يكن لديه صديق يلجأ إليه، فإنه يلتمس الحماية من الطبيعة بأن يختفي في مغارة، وهذا ما تشير إليه كلمة ﴿مَغَارَاتٍ﴾ في الآية. أما في الأحوال التي لا يتيسر فيها وجود كهف أو مغارة للاختباء، فإن الشخص الخائف يحاول الاختباء بأي وسيلة، ولو في جُحر في الأرض كما تفعل الحيوانات المذعورة، وهذا ما تشير إليه كلمة ﴿مُدْخَلًا﴾ في الآية. فالآية تشير إلى الذعر الشديد الذي يصيب المنافقين حين يُطلب منهم أن يلجأوا إلى القتال في سبيل الله.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ
أَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا
إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

يَلْمِزُكَ: مشتقة من «لَمَزَ»، يُقال «لَمَزَهُ» أي أشار إليه بعينه (كالغمز) أو برأسه، إلخ؛ عابه أو لامه؛ اغتابه أي تكلم عنه بسوء. ومن معاني لَمَزَهُ أيضًا: صَرَبَهُ أو دَفَعَهُ أو طَرَدَهُ. «اللَّمَزَةُ» (سورة الهُمزة: الآية ٢) أي العِيَاب للناس؛ النِّقَام؛ المُفَرِّق بين الأصدقاء والرفاق؛ الذي يطوف بين الناس بالكذب والافتراء لتشويه سمعة الآخرين (معجم لين).

التفسير:

لما كان المنافقون قد دخلوا الإسلام طمعاً في المكاسب المادية والديوية، فإنهم إذا أعطوا شيئاً من أموال الزكاة أو الصدقات رضوا وسكنت نفوسهم، وإن لم يُعطوا شيئاً، أبدوا الضيق والتذمر، وراحوا ينتقدون النبي ﷺ. وهذه إحدى العلامات الواضحة للمنافق.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا
إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ
عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ
اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

الصَّدَقَاتُ: جمع صدقة وهنا تعني الزكاة. انظر أيضاً سورة النساء الآية ٥.

الْفُقَرَاءُ: جمع «الفقير» المشتق من «فَقَرَ» أي حرث الأرض أو حفر بئراً ليسحب الماء إلى أعلى؛ أو ثقب أو خرم الخرز. «فَقَرَ أَنْفَ البعير» أي حَزَّ أنفه بحديدة حتى يخلص إلى العظم ثم يجعل موضع الحز وترّاً فلوى عليه حريراً لتذليله وترويضه. «فَقَرَهُ» أي كسر فقار ظهره. «فَقَرَ أو فَقِرَ» أي اشتكى الفقر أو أصبح محتاجاً. «الفَقْر» ضد الغنى أي الحاجة أو العوز أو الطلب؛ أن يكون للإنسان ما يكفيه بالكاد. «الفَقِير»:

المحتاج؛ من تسد حاجته بالكاد؛ من يجد قوته الضروري بصعوبة؛ الذي أقعده المرض؛ الذي لا حرفة له أو أن حرفته لا تقوم بسد حاجته. لذا فالفقير هو الذي بالكاد يجد ما يسد حاجته، ويختلف عن المسكين، وسوف يأتي الكلام عنه لاحقاً، فالمسكين هو الشخص الذي لا يملك شيئاً؛ المعدم تماماً. لكن البعض يرى خلاف ذلك التصنيف (معجم لين وأقرب الموارد). انظر أيضاً سورة البقرة الآية ٢٦٩.

المساكين: جمع «مسكين» المشتق من «سَكَنَ» أي قَرَّأَ أو انقطع عن الحركة أو استقر أو هدأ أو اطمأن. «المسكين»: البسيط أو المتواضع أو الخاضع؛ الحقير؛ الذليل أو في حالٍ من الحزي؛ الضعيف؛ المقهور؛ الفقير؛ المعدم الذي لا شيء له؛ الذي لا شيء له يكفي عياله؛ الذي أسكنه الفقر فقلل حركته. واختلف المفسرون فيما بينهم عمن يكون أسوأ حالاً الفقير أم المسكين (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

أشارت الآية السابقة إلى استياء المنافقين إن لم ينالوا نصيباً من أموال الزكاة. وتبيّن الآية الحالية الأوجه الثمانية التي ينبغي أن تُنفق فيها أموال الزكاة.

المصرف الأول من مصارف الزكاة هم الفقراء، وهم من أصابهم العوز أو المرض ولا يملكون ما يكفي لسدّ حاجاتهم الأساسية. والمصرف الثاني هو المساكين، وهم المحتاجون الذين أقعدهم الافتقار إلى الوسائل عن الحركة، مثل العاطلين عن العمل، أو الذين يستطيعون العمل ولكنهم لا يملكون الوسائل اللازمة لذلك.

وتشير عبارة ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ إلى أولئك الذين تستخدمهم الدولة لجمع الزكاة، أو الذين يديرون حساباتها، أو من يخدم في أي مجال يرتبط بها.

أما ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فتشير إلى الذين تميل قلوبهم بإخلاص إلى الإسلام، ولكنهم بسبب انفصالهم عن مجتمعاتهم السابقة، صاروا في حاجة إلى المساعدة المالية. ويشمل هذا التعبير الداخلين الجدد في الإسلام.

وتعني كلمة ﴿الرَّقَابِ﴾ العبيد، بالإضافة إلى الأسرى، ومن عليهم أن يدفعوا دية ليناأوا حريرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَارِمِينَ﴾ فيشير إلى من أثقلتهم الديون ولا يقدرأون على سدأدها، أو من تكبدوا خسائر فادحة في التجارة أو غيرها من المعاملات.

وتشير عبارة ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى كل عمل طيب أو صالح أمر به الله تعالى.

ويعني ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر الذي تقطعت به السبل أثناء السفر لقلة المال، وكذلك من يسعى في الأرض ابتغاء العلم والمعرفة، أو من يسافر من أجل بناء العلاقات الاجتماعية. (انظر أيضاً البقرة: ١٧٨).

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ
أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ
يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

التفسير:

كان المنافقون بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ يقصدون أن الرسول ﷺ كان يصغي دائماً إلى ما ينقل إليه من تقارير، حتى إنه، لكثرة ذلك، صار في نظرهم كما لو أنه عضو السمع نفسه. وترد الآية على هذا التهمك مؤكدة أنه بالفعل يستمع إلى التقارير التي تصله، ولكن ذلك من باب حسن الإدارة، إذ لا يمكن للحاكم أن يحكم بالعدل ما لم يكن على اطلاع دائم بما يجري حوله.

وباستخدام عبارة ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تشير الآية إلى أنه، رغم استماعه ﷺ لما كان يُنقل إليه عن التدايير والمكائد التي يخطط لها المنافقون، فإنه لم يحدث قط أن

عاقبهم بناءً على هذه التقارير وحدها دون التثبت من صحتها. بل وحتى عندما كانت تتبين له صحتها، كان كثيراً ما يعفو عنهم. لذلك، لم يكن للمنافقين أي حق في السخرية من اطلاعه على ما يدور حوله.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

التفسير:

كان المنافقون يسعون إلى إرضاء بعض المسلمين ذوي النفوذ بالتظاهر بالإيمان والتقوى. فتكشف الآية حقيقة نواياهم؛ إذ تقول: لو كانوا صادقين في إيمانهم، لكان الأولي بهم أن يسعوا إلى إرضاء قائدهم وسيدهم، رسول الله ﷺ. وحيث إنهم لم يفعلوا ذلك، فقد ظهر كذبهم وافتضح نفاقهم. لذا، تُحذّر الآية المسلمين من الوقوع في شركهم، وتنبههم ألا ينخدعوا بمداهناتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ
نَارَ جَهَنَّمَ خُلِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

التفسير:

انظر الآيات: المجادلة: ٢١، ٢٦.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير:

تكشف الآية النقاب عن المزاح الذي دأب عليه المنافقون في مجالسهم بحق النبي ﷺ والمسلمين. فكانوا يقولون فيما بينهم إذا اجتمعوا في خلوة: نخشى أن يُنزل الله سورة تُطلع النبي ﷺ على ما تُكنّه صدورنا. ولم يكونوا يظنون حقاً أنّ النبي ﷺ يمكن أن يتلقى وحياً من الله تعالى يخبره عما يجول في نفوسهم من أفكار، لأنهم لم يكونوا يؤمنون بأنه يتلقى الوحي الإلهي، وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء، كما تشير إلى ذلك كلمة ﴿اسْتَهِزُّوا﴾.

وتعني عبارة ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أنه لما كان المنافقون يتندرون على الرسول ﷺ في اجتماعاتهم السرية، مدّعين الخوف من أن يخبره الله تعالى عن استهزائهم، بينما لم يخالفهم في الحقيقة أي خوف على الإطلاق، فإن الله العليم سيكشف أسرارهم لنبيه ﷺ، وعندها سيكون للمنافقين سبب حقيقي ليزوقوا ما كانوا يتظاهرون بالخوف منه.

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
وَنُلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ
كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾

التفسير:

تعني الآية أنه إذا سُئِلَ المنافقون عَمَّا جعلهم يتفوّهون بهذه التعليقات المهيينة في حق الرسول ﷺ في اجتماعاتهم الخاصة، فإنهم يجيبون باستخفاف بأنهم كانوا يمزحون ويلهون لا غير. فتوبّخهم الآية متسائلة: ألم يجدوا شيئاً آخر يتندّرون عليه ويهزأون به سوى الله تعالى ورسوله ﷺ؟

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ
نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ «أنكم لم تؤمنوا بالله ورسوله إلا باللسان فقط، بينما بقيتم عملياً كافرين»، أو «لقد كان لكم شيء من نور الإيمان في أول الأمر ولكنكم بالتدريج جعلتموه يخبو حتى انطفأت جذوته».

وتلمح الآية إلى إمكانية توبة المنافقين، وأن توبتهم ستقبل. ويذكر التاريخ أن بعض المنافقين قد تابوا فعلاً وصاروا من المسلمين المخلصين.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

الْمُنَافِقُونَ: جمع «المنافق» المشتقة من «نَافَقَ» المشتقة من «نَفَقَ». يُقال «نَفَقَ الشيء» أي نفذ أو فني أو قَلَّ. «نَفَقَتِ السِّلْعَةُ» أي كثر الطلب عليها. و«نَفَقَتِ السُّوقُ» أي انتعشت وراجت تجارتها. «نَفَقَ الرجل» أي خرجت روحه (مات). «نَفَقَ اليربوع (الفأر)» أي خرج من نافقائه أي من جحره. «أَنَفَقَ مَالُهُ» أي صرفه وأنفده. «نافق في المحبة» أي أظهر الحب وهو يبطن الكراهية. «نافق الرجل في الدين» أي ستر كفره في قلبه وأظهر إيمانه بلسانه فهو «منافق». «نافق اليربوع» أي دخل في نافقائه أي في جحره. «النافقاء» جمع نَوَافِقٍ، و«النُّفَقَةُ أو النُّفَقَاءُ» هي إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها فإذا تعرض لخطر الهجوم من حيوان آخر أخفى نفسه فيها وهرب خلالها. و«النَّفَقُ» هو سرب في الأرض له مخرج من الناحية الأخرى يؤدي إلى مكان آخر. «النِّفاق» هو الدخول في الإيمان من باب والخروج منه من باب آخر؛ هو فعل المنافق الذي يكتم الكفر خلاف ما يُظهر من إيمان بلسانه فقط (أقرب الموارد وتاج العروس ومفردات الراغب). ورغم أن النفاق قد ذُكر في القرآن الكريم مبكراً حيث جاء الحديث عنه في سورة البقرة الآية ٩، إلا أن كلمة المنافقين قد وردت أول مرة في سورة النساء الآية ٦٢.

نَسِيَهُمْ: من «نسي» و«النسيان» وإن كان بصفة عامة يعني عدم التذكُّر، إلا أنه لا يعني ذلك دائماً. في الواقع كلمة «نسيان» تعني ترك التفكير في أمرٍ أو شخصٍ، إما لضعف الذاكرة وإما بسبب الغفلة. وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تتوقفوا عن فعل الخير لبعضكم بعضاً. أمَّا إذا نُسب النسيان إلى الله تعالى فلا يراد به عدم التذكر، بل هو تركه إياهم استهانةً بهم، ومجازاة لما تركوه. (المفردات).

التفسير:

تذكر الآية جملةً من العلامات التي يمكن من خلالها التمييز بين المنافقين والمؤمنين الصادقين؛ فالمنافقون:

- (١) يُنشئون فيما بينهم جماعةً مغلقةً يستبعدون منها المؤمنين الصادقين، ويقتصر تواصلهم على بعضهم بعضاً.
- (٢) يأمرّون بالمنكر.
- (٣) وينهون عن المعروف.
- (٤) ولا يُنفقون في سبيل الله، بل يقبضون أيديهم بخلاً وحرصاً.
- (٥) وينسون الله، أي يُهملون أوامره ويتغافلون عنها.
- (٦) ونتيجةً لذلك يُهملهم الله تعالى، فلا تنال أعمالهم تأييده.
- (٧) وهم يعصون الله، ويسعون دائماً إلى التملّص من أوامره ووصاياه.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ
نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

التفسير:

إضافة إلى عذاب جهنم، وهذا في حد ذاته عقاب أليم، سينال المنافقون لعنة الله، وهي أشد وطأة من عذاب جهنم. ولنقارن هذا بالوعد المذكور لاحقاً في الآية ٧٢ من هذه السورة: ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بالإضافة إلى الجنة. وكما أن لعنة الله أشد من عذاب جهنم، فإن رضوان الله أكبر من نعيم الجنة.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ
قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ

فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

الذي: إن كلمة «الذي» الواردة في قول الله تعالى: ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قد فُسرَت على عدة أوجه: (١) يمكن أن يكون معناها: «من» أو «ما» وجمعها الذين فيكون المعنى «وخضتم كالذين خاضوا»؛ أو (٢) أن تعود على ما قبلها أي على «الخوض»، فيكون المعنى «أنهم خاضوا كالخوض الذي خاضوه» أي تكلموا بنفس الكلام الفارغ الذي انغمسوا فيه؛ أو (٣) يُفهم مما قبلها معنى الفوج أو الفريق وعليه فيكون المعنى «كالفوج الذي خاضوا». (الكشاف والشوكاني).

التفسير:

قد يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على المنافقين بوجه عام، أو على عبد الله بن أبي - زعيم المنافقين - ورفاقه المقربين بوجه خاص. وسنتناول في الآية التالية شرح قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

الْمُؤْتَفِكَاتُ: مشتقة من «أَفَكَ». يُقال «أَفَكَهُ» أي صرفه وَقَلَبَ رأيه. يقال: «اتَّفَكَتِ البلدة بأهلها» أي انقلبت أو دُمِّرَتْ أو حُرِّبَتْ. «المُؤْتَفِكَاتُ» هي المدن التي أبادها الله تعالى وقلبها على أهلها. وتعني أيضًا الرياح التي تُقَلِّبُ الأرض، أو الرياح التي تختلف مهاجُّها فتهب تارة من هنا وتارة من هناك (معجم لين).

التفسير:

تشرح هذه الآية المقصود بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الوارد في الآية السابقة. أما الإشارة إلى المدن التي دُمِّرَتْ، أي ﴿الْمُؤْتَفِكَاتِ﴾، فتعني المدن التي أرسل إليها لوط عليه السلام والتي قلب عليها سافلها بسبب ذنوب أهلها وفسادهم الأخلاقي. وقد نجمت هذه الكارثة عن زلزال عنيف، وبحسب الكتاب المقدس كانت مدينتا سدوم وعمورة هما اللتان أصابهما الدمار والخراب. (التكوين ١٩: ٢٤-٢٥) ويُعتقد أن موقعهما هو البحر الميت (دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة سدوم). ويذكر القرآن المجيد أن هذا المكان يقع بالقرب من «سبيل مقيم» أي على طريق ثابت يسلكه الناس، كما ورد في سورة الحجر (٧٥-٧٧).

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

التفسير:

قارن هذه الآية والآية التي تليها بالآيتين ٦٧ و ٦٨ السابقتين. تعدد الآية الحالية بعض علامات المؤمنين الصادقين، وهي أنهم:

- (١) أولياء بعضهم بعضاً. (٢) يأمرن بالمعروف. (٣) وينهون عن المنكر.
- (٤) وقيمون الصلاة. (٥) ويؤتون الزكاة. (٦) ويطيعون الله ورسوله.
- (٧) وينالون رحمة الله تعالى.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

جَنَّاتٍ عَدْنٍ: عَدْنٌ مشتقة من «عَدَنَ»، يُقال «عَدَنَ بالأرض» أي أقام بها، مكث فيها، توطنها. «عَدْنْتُ البلد» أي اتخذتها موطني أو دار إقامتي. تقول العرب: «عَدْنْتُ الإبلَ بمكانٍ كذا» أي أنها لزمت هذا المكان ولم تغادره. «جَنَّاتٍ عَدْنٍ» أي جنات إقامة للخلود (معجم لين). انظر أيضاً سورة المائدة الآية ٦٦.

التفسير:

تعني كلمة ﴿طَيِّبَةً﴾ التي وُصفت بها المساكن أنها جيدة، ونظيفة، ومريحة. وتومئ الآية إلى أن مساكننا التي نعيش فيها في هذه الدنيا يجب أن تكون كذلك مساكن طيبة ونظيفة ومريحة للعيش. (انظر أيضاً تفسير الآية ٦٨ السابقة).

أما ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي جنات الخلود فتشير إلى أن دار الإنسان الدائمة هي الآخرة، وأن حياة الدنيا زائلة. كما تدل أيضاً على أن نعيم الجنة أبدي. (انظر أيضاً المائدة: ٦٦).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

التفسير:

لا تشير كلمتا ﴿الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ إلى فئتين مختلفتين من الناس، بل إلى المنافقين الذين هم في الحقيقة كافرون. في الواقع، فإن كلمة «المنافقين» الواردة هنا تفسر معنى كلمة «الكفار» التي تسبقها، وتبين أن المنافقين المذكورين هم في حقيقتهم كفار، وإن تظاهروا بالإيمان (انظر أيضاً الآية السابقة).

أما قوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فمعناه أن تعاملهم معهم يجب أن يكون قائماً على الحزم، أي لا تتساهل معهم بعد الآن أو تتغاضى عن إساءاتهم كما كنت تفعل سابقاً، بل يجب أن تحاسبهم على أعمالهم السيئة. ولا يقصد من هذا الأمر استعمال القسوة أو العنف أو حتى الغلظة في القول، وإنما المقصود هو الصرامة في الموقف والمعاملة.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ
وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُرِيدُونَ بِمَا كَفَرُوا

نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنْ يَشُؤْבוْا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

التفسير:

يبين قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أن الآية السابقة لا تشير إلى الكفار والمنافقين معاً، بل إلى المنافقين وحدهم، وكما توضح الآية أن بعض من آل أمرهم إلى النفاق، لم يكونوا غير مخلصين في البداية؛ غير أنهم مع مرور الوقت وتقدم الإسلام انحرفوا تدريجياً نحو الكفر والنفاق. فعلى سبيل المثال، كان عبد الله بن أبي الذي صار لاحقاً زعيماً للمنافقين، مؤمناً في البداية، لكنه لما رأى أن مبايعته للرسول ﷺ قد أدت إلى انحسار نفوذه وتراجع شأنه، اتخذ موقفاً معادياً للإسلام وبدأ يتآمر ضده.

وأما قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يُشير إلى أن قدوم النبي ﷺ إلى المدينة جلب الخير والبركة، فازدهرت الحياة، وانتعشت التجارة، وعمّ الغنى بين السكان.

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَضْلِهِ
لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾

التفسير:

تشير الآية إلى الفترة التي احتفظ فيها بعض الرجال، الذين انقلبوا لاحقاً إلى النفاق، بشيءٍ من الإخلاص في إيمانهم. انظر الآية التالية:

فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا
أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

التفسير:

تبين الآية حقيقة هامة، وهي أنه أحياناً يتبع اقتراف المعصية معصية أخرى، كنتيجة طبيعية لها. فقد حلّ النفاق محلّ الإيمان في قلوب أولئك الذين لم يفوا بالعهد الذي قطعوه مع الله. (انظر أيضاً الآيتين السابقتين).

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ
اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأنعام: ٤؛ هود: ٦؛ القصص: ٧٠.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

التفسير:

تبين الآية أن المنافقين سعوا إلى اختلاق الأعذار لانتقاد جميع فئات المؤمنين؛ سواء الذين أنفقوا بسخاء في سبيل الله، أو الذين لم تكن لديهم القدرة على ذلك. وتشير الآية تحديداً إلى غزوة تبوك، إذ قبيل خروجه إليها، دعا النبي ﷺ المؤمنين إلى التبرع لتغطية نفقات هذه الحملة العظيمة. فبذل عثمان رضي الله عنه ثلاثمائة جمل وعشرة آلاف دينار؛ وقدم أبو بكر رضي الله عنه كل ماله؛ وأعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصف ما يملك. غير أن المنافقين قد عزوا هذه التبرعات السخية إلى رغبة المتبرعين بالتباهي والتفاخر، ومن ناحية أخرى، لم يسلم من طعنهم حتى المؤمنون الفقراء الذين لم يكن في وسعهم سوى التبرع بالقليل، فعلى سبيل المثال، سخروا من أبي عقيق، وهو مسلم فقير، لم يجد ما يتصدق به سوى مقدار يسير من التمر، وهو كسب يومه كله، فجعله صدقة خالصة لوجه الله. ومع ذلك، استهزأ به المنافقون لقلة ما قدم. وهكذا تشير الآية إلى سخرية المنافقين واستهزائهم في تلك المناسبة.

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ
لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

التفسير:

تشير الآية إلى مسألة الدعاء للمنافقين في حياتهم، غير أن ذلك لا يشمل جميع المنافقين على الإطلاق، وإنما يخص أولئك الذين قُدر لهم الهلاك، والذين أوحى الله إلى نبيه ﷺ بأنهم سيموتون على الكفر (انظر الآية رقم ٧٧ أعلاه). فالدعاء لمثل هؤلاء المنافقين يكون في حقيقته مناقضاً لإرادة الله. أما ما يتعلق بالأمر الخاص بصلاة الجنازة، فقد جاء لاحقاً في الآية رقم ٨٤. وحدث أن مات عبد الله بن أبيّ، زعيم المنافقين، قبل نزول تلك الآية؛ ولما كان مسلماً في الظاهر، وكان ابنه من المؤمنين المخلصين، همّ رسول الله ﷺ بالصلاة عليه صلاة الجنازة، وعندما لفت عمر رضي الله عنه نظره إلى الآية الحالية، قال ﷺ: «إن الله قد ترك له الخيار ولذلك سيستغفر لعبد الله أكثر من «سبعين مرة». وتجدر الإشارة إلى أن تعبير «سبعين مرة» ليس حرفياً، وإنما للتأكيد على أن أولئك المنافقين الذين قضى الله تعالى بهلاكهم لا يمكن أن يُغفر لهم؛ غير أن رحمة النبي ﷺ بالمؤمنين كانت عظيمة، فانتهاز فرصة عدم وجود آية تنهاه صراحة عن الصلاة على المنافقين، وفسر كلمة «سبعين» بحرفيتها وصلّى الجنازة على عبد الله بن أبيّ الذي كان ابنه مسلماً مخلصاً.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ
وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ
جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

التفسير:

تحدث هذه الآية، والآيات التالية، عن الذين لم يرافقوا الرسول ﷺ في غزوة تبوك. وتشير صيغة المبني للمجهول في كلمة ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ إلى قوله تعالى أعلاه في الآية رقم ٤٦: ﴿كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾. ولم يكتف هؤلاء المنافقين بالتخلف عن الخروج فحسب، بل سعوا، كعادة الأشرار، إلى ثني الآخرين عن المشاركة في الغزوة.

فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

التفسير:

من الواضح أن الآية لا تتضمن أمراً، بل هي نبوءة بأن الوقت قد اقترب حين سيضحك المنافقون قليلاً ويبكون كثيراً، وأن هذا جزاء على أعمالهم الشريرة.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ
مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

التفسير:

ربما نزلت هذه الآية أثناء غياب الرسول ﷺ عن المدينة في حملته إلى تبوك، ولكن إذا أخذنا برأي بعض المفسرين الذين يرون أنها نزلت بعد عودته إلى المدينة، فإنها حينئذ

تشير إلى ما كان المنافقون يقولونه عن تلك الحملة، إذ كانوا يظنون أن النبي ﷺ لن يعود منها حياً، فيذكّرهم القرآن الكريم في هذه الآية بما قالوه عن النبي ﷺ ويخبرهم بعودته سالماً خلافاً لتوقعاتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الأداة «إن» لا تفيد الشك بالضرورة، بل تستعمل كأداة شرطية. وقد تُستعمل أحياناً من منظور المخاطب لا المتكلم. وقد استعملت هنا من قبل الله ﷻ، والله ﷻ لا يشك قطعاً في عودة نبيه سالماً. لذا يجب أن تؤخذ على أنها تعبير عن رغبة المنافقين.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا
وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

التفسير:

تنهى هذه الآية المسلمين عن أداء صلاة الجنازة على المنافقين الذين يبطنون الكفر. عندما نزلت الآية رقم ٨٠، ظن النبي ﷺ أنه له الخيار في الصلاة على المنافق إن شاء؛ ولذلك صلى الجنازة على عبد الله بن أبيّ. غير أن الله تعالى حرّم في هذه الآية تحريماً قاطعاً أداء صلاة الجنازة على المنافقين الكفار. ومن حيث المبدأ، فإن من يموت على الكفر (سواء كان كافراً ظاهراً أو ثبت نفاقه)، يسقط حقه في أن يُصلى عليه صلاة المؤمنين، وأمره بيد الله سبحانه، إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له. (انظر أيضاً الآية رقم ٨٠ أعلاه).

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ
اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية رقم ٥٥ أعلاه.

وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ
رَسُولِهِ أَسْتَأْذِنُكَ أُولُوا الطَّلُوبِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا
نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

التفسير:

يجب ألا تؤخذ عبارة ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ على أنها قول صدر فعلاً من أفواه
المنافقين، بل هي تصوير لحالتهم الفعلية، إذ جاؤوا إلى الرسول ﷺ يقدمون أعداراً
واهية، ملتجئين الإذن بالتخلف عن الخروج، والبقاء مع القاعدين.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

الْخَوَالِفُ: جمع «الخالف» وكلاهما اسم فاعل للفعل «خَلَفَ» الذي يعني قام مقامه أو
جاء بعده. و«الخالف» الذي يقعد بعد أو وراء الآخرين خاصةً بعد خروجهم للحرب.

و«الخَالِفة» مؤنث الخَالِف. لذا فالكلمة «الخَوَالِف» تعني أولئك الذين يقعدون ولا يخرجون للحرب؛ النساء أو الأطفال المتخلفين في البيوت أو الخيام. وتعني الكلمة أيضاً الشخص الفاسد أو السيئ (معجم لين). انظر أيضاً سورة الأعراف ٧٠ و١٧٠.

التفسير:

لشرح معنى ﴿وُطِبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ انظر البقرة: ٨ والنساء: ١٥٦.

لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأنفال: ٧٥؛ التوبة: ٤١، ١١١؛ الصف: ١٢.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

التفسير:

انظر الآيات: البقرة: ٢٦.

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ
وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

المُعْذِرُونَ: جمع «المُعْذِر» وهو اسم فاعل من «عَذَرَ» من «عَذَر». يقال: «عَذَرَهُ» أي سامحه أو رفع عنه الذنب واللوم أو قبل عذره. «عَذَرَهُ» أي ليس له عذر؛ لم يثبت له عذر؛ لم يأت بعذر صدق؛ تراخى أو تأخر أو قَصَرَ في الأمر؛ قَصَرَ وهو لم يُبَالِغ وهو يُرِي أنه مُبَالِغ. «مُعْذِرٌ» أي من اعتذر عن تقصيره في أداء ما عليه من واجبات دون أن يكون له عذر حقيقي. أمّا كلمة «مُعْتَذِرٌ» فهي تعني من اعتذر سواء له عذر أم لا (معجم لين).

التفسير:

تحدث الآية عن المنافقين وضعاف الإيمان الذين تخلفوا عن المشاركة في غزوة تبوك، فكان بعضهم كافرين في باطنه، وكان بعضهم الآخر ضعيف الإيمان فحسب.

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

نَصَحُوا: مشتقة من «نَصَحَ»، يقولون «نَصَحَهُ» أو نَصَحَ له، أي وعظه أو أشار عليه بإخلاص وصدق؛ أو عمل له بأمانة وإخلاص؛ أو قام بما فيه الخير له. «نَصَحَ الشيء» أي صار خالصاً أو بدون شوائب (معجم لين).

التفسير:

تحدّث هذه الآية والآية التي تليها عن الذين لم يستطيعوا المشاركة في الغزوة لعجزٍ حقيقي، فلا لوم عليهم. كما تُبيّن أن من لا يملك ما يُنفقه في سبيل الله يُعدّ من المجاهدين في سبيل الله، إذا كان صادق الإيمان ومخلصاً لله ورسوله.

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا
أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٦﴾

التفسير:

الآية عامة في دلالتها، غير أنها تشير على وجه الخصوص إلى سبعة من فقراء المسلمين الذين كانوا يتوقون بشدة إلى الخروج للجهاد، لكنهم لم يملكوا الوسائل ولا الإمكانيات التي تمكنهم من ذلك. فجاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يوفر لهم وسيلة للركوب ليخرجوا معه، فلما أخبرهم ﷺ أنه لا يملك ما يُعينهم، انصرفوا وهم في غاية الحزن، وعيونهم تفيض من الدمع. ويروى أنه بعد انصرافهم، قدّم عثمان رضي الله عنه ثلاثة جمال لرسول الله ﷺ، وقدّم مسلمون آخرون أربعة جمال، فأعطاهم لهؤلاء الرجال السبعة. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة ليبيّن الفارق بين إيمان هؤلاء الفقراء وإخلاصهم، وبين من قدّم أعداراً زائفة وطلب الإذن بالتخلف رغم امتلاكه الوسائل. كما تُظهر الآية أن المتخلفين في المدينة لم يكونوا جميعاً من المنافقين، بل كان فيهم مسلمون مخلصون، حال بينهم وبين الخروج افتقارهم إلى الوسائل اللازمة.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ
أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

شرح الكلمات:

لشرح معنى قوله تعالى: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ انظر سورة البقرة: ٨ وسورة النساء: ١٥٦.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا
تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ
تُردُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

التفسير:

نزلت هذه الآية قبل عودة النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة تبوك.

سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا
عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ
جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

التفسير:

المراد بقوله تعالى: ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ هو أن تعفوا عنهم ولا تحاسبوهم، أما قوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فيعني انصرفوا عنهم ولا يكن لكم بهم أي شأن. وعلى ذلك فقد استخدمت كلمة «إعراض» هنا بمعنيين مختلفين.

وفي طريق عودته من تبوك، لقي النبي ﷺ أحد الذين تخلفوا عن الخروج، فأخذ يقدم المعاذير لعدم استطاعته المشاركة، غير أن رسول الله ﷺ رفض الاستماع إليه. وفي المقابل، ورد أنه ﷺ قد قبل أعذار بعض المتخلفين عند عودته إلى المدينة. ويُعزى هذا التباين في موقفه ﷺ تجاه مختلف الأشخاص إلى أن المتخلفين، من المنافقين أو المؤمنين، كانوا من فئات مختلفة، فقد كان المنافقون ثلاثة أصناف:

(أ) عبد الله بن أبي وبطانته؛

(ب) المنافقون من أعراب الصحراء (انظر الآية ٩٠ أعلاه)؛

(ج) المنافقون الذين بنوا «مسجد ضرار» بنيّة جعله مركزاً لأنشطتهم المعادية للإسلام (التوبة: ١٠٧).

وبالمثل، كان المؤمنون الذين تخلفوا عن الغزوة ثلاثة أصناف:

(١) الذين أشار إليهم القرآن في الآية ٩١، وهم المستضعفون والمرضى والفقراء؛

(٢) من كان لهم شيء من العذر في التخلف، لكنه لم يكن كافياً لتبرير تخلفهم؛

(٣) من لم يكن لهم أي عذر على الإطلاق.

ولما كان هؤلاء المتخلفون ينتمون إلى فئات مختلفة، اقتضى الأمر معاملتهم على نحو مختلف.

يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

التفسير:

انظر الآية: التوبة: ٦٢.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا
يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

أجدر: مشتقة من «جَدَر» بمعنى أصبح أهلاً للشيء أو خليقاً به أو مناسباً له أو مستحقاً له أو متوافقاً معه. يُقال «جَدَرُهُ» أي جعله أهلاً وجديراً. يقال: «ما أجدره بالخير» أي أنه خليق وجدير بفعل الخير (معجم لين وأقرب الموارد).

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

مَغْرَم: مصدر من «غَرِمَ» ويعني دفع أو أدى الدية أو شيئاً إجبارياً عليه كدية القتل الخطأ؛ أو أوجب وألزم نفسه بأداء شيء ليس إجبارياً عليه وليس ملزماً به. يُقال: «غَرِمَ الدين» أي أنه أدى الدين. و«غَرِمَ في تجارته» أي خسر فيها. «مَغْرَمٌ أو غَرَامَةٌ أو غُرْمٌ» أي ما يلزم أداؤه من مال؛ ما يُعطى من المال على كره؛ الضرر والمشقة؛ الدين؛ الدية (معجم لين وأقرب الموارد).

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي
رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

قُرْبَاتٍ: جمع «قُرْبَةٍ» وهي مصدر من «قَرَّبَ أو قَرَّبَ» أي دنا منه مكاناً أو منزلةً. لذا فكلمة «قُرْبَةٍ» تعني الاقتراب؛ ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة (معجم لين).

التفسير:

يُنصف القرآن الكريم الجميع. فبعد أن وصفت الآية ٩٧ أعراب الصحراء بأنهم أشد كُفراً ونفاقاً، تُبين هذه الآية أن الأعراب ليسوا جميعاً سواء؛ ففيهم مؤمنون مخلصون يسعون دائماً إلى نيل قرب الله ﷻ.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

شرح الكلمات:

السابقون: جمع «السابق» المشتق من «سَبَقَ». يقال: «سبقه» أي تقدّمه؛ تخطاه في السباق. و«السابق» هو المتقدم على غيره في الإيمان والعمل (معجم لين).

الأولون: جمع «الأول»، و«الأول» ضد الآخر أي الأخير. لذا فالأول هو الذي يسبق كل الآخرين (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تذكر الآية صفتين مميزتين للمؤمنين البارزين:

(١) السابقون؛ أي الذين لهم سبق في المرتبة الروحية، لتفوقهم على غيرهم في الإيمان والعمل.

(٢) الأولون؛ أي الذين كانوا أول من آمن، ثم تبعهم الآخرون.

وعلى هذا تبين الآية أن صحابة رسول الله ﷺ أسوة للآخرين، لكونهم متقدمين في المرتبة الروحية، ولأنهم كانوا السابقين إلى الإيمان. وحتى التابعين الذين اقتفوا آثارهم قد صاروا أحباء الله وأوليائه. كما تشكل هذه الآية حجة قوية في الرد على اتهامات الشيعة الموجهة ضد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول وصحابة النبي ﷺ الكرام.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ
وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا
تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

شرح الكلمات:

مَرَدُوا: «مَرَدَ» يعني عتا؛ جاوز الحد من الغرور وعدم الطاعة والعصيان؛ أصبح عنيداً؛ فاق الآخرين في الزهو والعصيان. يقال: «مرد على شيء» أي مَرَنَ واستمر عليه. ويُقال: «مردوا على النفاق» أي مروا واعتادوا واستمروا عليه؛ أو أنهم جاوزوا الحد وبالغوا في نفاقهم. و«تَمَرَّدَ» تعني نفس ما سبق ذكره من معاني مرد ولكن بمبالغة. «مَرِدَ» تعني أن (الغلام مثلاً) بقي أمرَد أي بلا لحية زماناً ثم التحى بعد ذلك وظهرت لحيته (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

يشير الجزء الأول من الآية إلى خمس قبائل من الأعراب كانت تعيش بالقرب من المدينة، وهي: جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وغفار (المعاني، المجلد الثالث، ص ٣٦١). وبعد وفاة الرسول ﷺ اجتمع المنافقون من هذه القبائل وأغاروا على المدينة (ابن خلدون، المجلد الثاني، ص ٦٦).

إن كلمة «مرتين» الواردة في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ لا تشير إلى نوع العذاب، بل إلى مدته كما يتضح من الآية ١٢٦ حيث يقول القرآن المجيد: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾. وعلى هذا فإن كلمة «مرتين» في الآية الحالية تعني أن المنافقين سيعاقبون خلال مدة تتراوح بين عام وعامين، فإذا وقع العقاب مرتين في عام واحد، حل بهم العذاب الموعود في عام واحد؛ وإن جاء مرة واحدة امتد العذاب على عامين.

وَأَخْرُوتَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَأَخَرَسَيْنَا عَنِ اللَّهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

التفسير:

تشير الآية إلى المسلمين الذين كان لديهم عذر في التخلف، غير أنه لم يكن كافياً لتبرير تخلفهم (انظر تفسير الآية ٩٥ أعلاه). وقد تراوح عددهم، بحسب الروايات المختلفة، بين سبعة وعشرة. وكعقوبة ذاتية على ذنبهم، قيدوا أنفسهم إلى أعمدة المسجد في المدينة. فلما دخل النبي ﷺ لأداء الصلاة توسلوا إليه أن يعفو عنهم، فأخبرهم أنه لا يستطيع فعل ذلك إلا بأمرٍ من الله تعالى. فلما نزلت هذه الآية أمر ﷺ بإطلاق سراحهم.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا
وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

التفسير:

أحضر الأشخاص المذكورون في الآية السابقة بعض ممتلكاتهم، وتوسلوا إلى النبي ﷺ أن يقبلها منهم صدقة. غير أنه ﷺ أخبرهم أنه لم يتلق أمراً من الله بقبول شيء منهم، وعندها نزلت هذه الآية تأذن له بقبول صدقاتهم، وبأن يدعو لهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

التفسير:

تُبَيِّن هذه الآية للمسلمين الذين أعلنوا توبتهم أن السبيل الصحيح أمامهم هو أن يصيروا من عباد الله الصالحين؛ إذ إن عباد الله الصالحين وحدهم المستحقون لرحمته ومغفرته تعالى.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

التفسير:

رغم أن المسلمين المذكورين في الآيات السابقة قد تابوا وقبِلَ الله تعالى توبتهم، فإن هذه الآية تبين لهم أن التوبة لا تكتمل إلا إذا أظهرت أعمالهم اللاحقة أنهم قد أصلحوا أنفسهم حقاً. ولذلك تُحذِّرهم من أن أعمالهم المستقبلية ستكون موضع مراقبة خاصة.

وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا
يُتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

شرح الكلمات:

مُرْجُونَ: مشتقة من «أرجأ» المشتقة من «رجأ». يقال: «أرجأ الأمر» أي أخره أو أجَّله. «مرجون» (هي في الأصل مُرْجُؤُونَ) وتعني أولئك الذين أُجِّلوا أو أُرْجِئوا أي الذين أُجِّلَتْ أو أُرْجِئَتْ قضيتهم (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى مجموعة أخرى من ثلاثة مسلمين من أهل المدينة، وهم هلال ومُراة وكعب رضي الله عنه. وقد أرجأ النبي ﷺ البت في أمرهم، فأبقاهم في حالة ترقّب. وكان ما اعتراهم من قلق شديد خلال فترة الانتظار بمثابة كفارة لتقصيرهم، ثم نزل فيما بعد العفو عنهم (انظر الآية ١١٨). وفي هذه الأثناء ينتقل القرآن الكريم إلى الحديث عن فئة أخرى.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

شرح الكلمات:

إِرْصَاد: مشتقة من «أرصد» المشتقة من «رصد». يُقال «رصده» أي قعد له على طريقه؛ رقبه أو انتظره. «أرصد له الأمر» أي أعد الأمر له. «أرصده على كذا» أي كلفه بمراقبة أو حراسة كذا. «رصد أو مرصد أو رصد» تعني المكان أو الطريق الذي يمكث فيه من يقوم بمراقبة أو انتظار العدو. لذا فكلمة «إرصاد» تعني تجهيز مكان مراقبة، أو كمين للعدو (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تشير الآية إلى المؤامرة التي دبرها أبو عامر، وهو من قبيلة الخزرج^١ في المدينة، وكان من ألد أعداء الإسلام. وقد هرب إلى مكة بعد غزوة بدر، وأخذ يحرض أهلها وقبائل العرب على الثأر لهزيمة بدر، وكان ضمن الجيش المكي في معركة أُحُد. ولما علم بوجود منافقين في المدينة، تواصل معهم سرّاً للتآمر على الإسلام. وقد قام شركاؤه ببناء المسجد المزعوم في قباء، إحدى ضواحي المدينة المنورة، ليجعلوه مركزاً لمؤامراتهم السرية ودعاياتهم الكاذبة ضد الإسلام. واكتمل البناء حين كان النبي ﷺ على وشك الخروج إلى غزوة تبوك، فطلب منه بناء المسجد أن يباركه بالصلاة فيه، فوعدهم أن يفعل ذلك عند عودته من الغزوة. وفي أثناء ذلك نزلت عليه هذه الآية، فلما عاد إلى المدينة، أمر ﷺ بإحراق ذلك المسجد، الذي أصبح يعرف باسم «مسجد ضرار»، وتسويته بالأرض.

ويشير قوله تعالى: ﴿وَإِزْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى أبي عامر، الذي كان يحرض العرب ضد المسلمين منذ غزوة بدر، وشارك بنفسه في قتالهم في غزوة أُحُد. ويقال إنه كان حاضراً أيضاً في غزوتي الخندق وحنين. ثم فرّ إلى الشام عازماً على تحريض الروم ضد المسلمين، غير أنه مات طريداً ذليلاً في قنسرين. وروي أن أبا عامر قد دعا الله أن يميت الرسول ﷺ فقال: «أما الله الكاذب منّا طريداً وحيداً غربياً». فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال بهدوء: «نعم، فليكن ذلك». وقد استُجيب هذا الدعاء على نحوٍ عجيب، فكان دليلاً بيناً على أن أبا عامر هو الكاذب، لا رسول الله ﷺ (تاريخ الخميس، المجلد الثاني، ص ٤٤).

١. هو أبو عامر الراهب الأوسي وليس الخزرجي، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم «أبو عامر الفاسق» كان زعيم الأوس قبل الإسلام، وهو والد الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر الشهير بحنظلة الغسيل الذي استشهد في أُحُد. (الناشر)

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ
 مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
 يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

التفسير:

حسب بعض الروايات، فإنَّ قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ يشير إلى مسجد قباء، الذي بُني في الموضع الذي نزل فيه النبي ﷺ عند قدومه إلى المدينة مهاجراً من مكة؛ بينما تذهب روايات أخرى إلى أن المقصود بالآية هو المسجد الذي بناه رسول الله ﷺ بنفسه في المدينة، والذي عُرف فيما بعد باسم «مسجد النبي». ويبدو أن كلمات الآية الكريمة تؤيد الرأي الثاني.

أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ
 وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى
 شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا
 يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾

شرح الكلمات:

جُرْفٌ: مشتقة من «جَرَفَ». يقال: «جرف الشيء» أي ذهب به كله أو معظمه. تقول العرب: «جرفه الدهر» أي ذهب بثروته وتركه فقيراً. «الجُرْفُ» شقّ الوادي إذا حفر الماء في أسفله، كما يطلق «الجرف» أيضاً على جانب ضفة النهر المتآكل بفعل سيل الماء (معجم لين وأقرب الموارد).

هَارٍ: اسم فاعل من «هَارَ» وهو فعل متعدٍ ولازم، ومعناه دمر أو هدم أو حطّم البناء؛ أو أن المبنى تصدّع وانهدم. «هار» في الأصل هي «هاري» تعني انهدم؛ تصدّع ولم يسقط؛ على وشك الانهيار (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

تُقدّم الآية مقارنة بليغة وواضحة بين «مسجد النبي» و«مسجد ضرار»، فالمسجد النبوي أُسس على أساس راسخ من التقوى وابتغاء رضوان الله ﷻ، بينما بُني مسجد ضرار على شفا جرف هارٍ من الكفر والنفاق.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا
أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى أنّ قلوب المنافقين ستظلّ في حالة قلق واضطراب دائم ما لم تنقطع. أو أنّ هذا القلق لن يزول إلا إذا تابوا توبة صادقة بحيث تنقطع قلوبهم ندمًا وأسفًا.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ

مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أن كلاً من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم يشتمل على وعود واضحة بتأييد الله تعالى ونصره لمن يجاهدون في سبيله بأنفسهم وأموالهم. هذا الوعد عام في أصله، غير أنه أصبح خاصاً بالمسلمين بعد أن نسخت الشرائع السابقة ببعثة الإسلام. وقد يفهم من الآية أيضاً أن المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة - أي صحابة النبي ﷺ - قد ورد ذكرهم والثناء عليهم في هذه الكتب الثلاثة جميعها: أي ليس في القرآن الكريم وحده، بل في التوراة والإنجيل أيضاً.

الَّتَابِعُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ
الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

شرح الكلمات:

السائحون: جمع «السائح» وهو اسم فاعل من «ساح» ويعني سال أو فاض. يُقال: «ساح الماء على وجه الأرض» أي فاض أو جرى بغزارة على سطح الأرض. «ساح في الأرض» أي جال أو ذهب في الأرض واهباً نفسه لخدمة الدين. «سائح»: من طاف

في الأرض لخدمة الدين أو غيره؛ من خرج مجاهداً لقتال الكافرين أو طلباً للعلم؛ من كان كثير الصيام ملازماً للمساجد (معجم لين).

التفسير:

تبين هذه الآية التي تعدّ تنمة للآية السابقة، أن المقصود هنا هم صحابة الرسول ﷺ ومن تبعهم بإحسان. وقد ذُكرت فيها صفات المؤمنين النبيلة في ترتيب تصاعدي حسب أفضليتها، فالمرحلة الأولى من مراحل التقدم الروحي هي توبة المرء من ذنوبه. والمرحلة الثانية هي العبادة، ومعناها أنه بعد التوبة من الذنوب، يُسلم المرء نفسه لإرادة الله ﷻ. والمرحلة الثالثة هي الحمد، وتعني أن المسلم لا يسلم نفسه لإرادة الله فحسب، بل يثني عليه ويحمده حتى في المحن والشدائد. أما المرحلة الرابعة فتتعلق بصفة السائح التي تعني أن المؤمن في هذه المرحلة يترك بيته في سبيل الله ويكرّس اهتمامه كله ابتغاء مرضاته تعالى. والمرحلة الخامسة التي يبلغها المسلم هي أن يكون راکعاً، أي أن يعبد الله بروحه وجسده، فتغدو كل ذرة من كيانه مكرّسة لعبادته ﷻ (انظر أيضاً البقرة: ٤٤). وفي المرحلة السادسة يصير المؤمن «ساجداً»، والسجود أعلى مراتب القرب من الله تعالى، حيث لا يقطع المؤمن صلته بالدنيا فحسب، بل يتخلى عن ذاته ويلقي بنفسه إلى الأرض متمرغاً بالتراب خضوعاً وتذلاً. وقد ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ» {مسند أحمد}.

فإذا بلغ المؤمن مرتبة السجود أي القرب من الله تعالى، كان واجبه التالي هو إحضار «الشاة القاصية» وإعادتها إلى رعية سيده. وهنا يصير داعياً إلى الله، أمراً بالمعروف ونهاياً عن المنكر، وهذه هي المرحلة السابعة التي يمكن أن يرتقي إليها المسلم الحق، بل وينبغي عليه ذلك. وأما المرحلة الثامنة والأخيرة فهي مرحلة خليفة الله؛ أي المصلح الرباني، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي الذين يصونون حدود الله، أو الذين يلتزمون بأوامره تعالى التزاماً تاماً.

مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

التفسير:

إن المؤمن الذي يتصف بالصفات المذكورة في الآية السابقة لا يتردد أبداً في قطع صلته بالكافرين متى دُعي إلى ذلك. ويتبين أن أحد المشركين أو الكافرين من أهل النار بطريقتين: أولاً: إذا أخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن طريق الوحي أن مشركاً معيناً لن يؤمن وسيموت كافراً. ثانياً: إذا مات المشرك دون أن يتوب من شركه.

وفي كلتا الحالتين، لا يجوز للمؤمنين الدعاء لهؤلاء المشركين. أما في الأحوال العادية، فلا مانع من الدعاء للكفار. وقد ورد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. {البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء}. وفي الحقيقة، كان النبي ﷺ يشير بهذا القول إلى نفسه، مُستحضراً ما لقيه من أذى أهل الطائف، والدعاء الذي دعا به لهم وهو ينزف من الجراح.

وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

شرح الكلمات:

أَوَاه: صيغة مبالغة من «أَوَّه». يُقال «أَوَّه أو تَأَوَّه» أي أكثر من قول آه أو أَوَّه؛ شكا أو تَوَجَّع؛ أو أخرج زفرة طويلة من الألم أو الوجع. «أَوَّاه» أي الذي يُكثر من قول آه بسبب الوجد أو الخوف أو الأسى؛ الشخص الكثير الأنين أو الحداد أو الأسف أو الشفقة أو رقيق الفؤاد؛ الكثير الصلاة؛ الذي يكثر من تسبيح الله؛ الذي ينكب بكل تضرع إلى الله موقناً أنه تعالى سيتقبل صلاته؛ الذي يدعو دوماً للخير (معجم لين).

التفسير:

تُعلن الآية السابقة أنه لا يجوز للمؤمنين الاستغفار للمشركين بعدما يتبين لهم أنهم من أهل النار. وتوضح الآية الحالية سبب دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك إذ كان ذلك وفاءً بوعده قطعه له، غير أن إبراهيم عليه السلام لم يتردد لحظة في أن ينأى بنفسه عن أبيه ويتبرأ منه حين تبين له أنه عدو لله. وتختتم الآية الكريمة بالثناء الجميل على إبراهيم عليه السلام. (انظر أيضاً الأنعام: ٧٥).

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ
حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

التفسير:

انظر الآيات: الزمر: ٤٥؛ الحديد: ٣.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ
يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

التفسير:

من الواضح أن كلمة ﴿تَابَ﴾ لا تعني بالضرورة الرجوع بالرحمة بسبب قبول التوبة، بل قد تأتي أيضاً - كما في هذه الآية - بمعنى «إسداء الفضل على المرء والتكرم عليه بالإعانة»، وقد استخدمت بهذا المعنى هنا في الحديث عن رسول الله ﷺ والذين اتبعوه بإخلاص في ساعة العسرة. وفي واقع الأمر، لم تكن حال رسول الله ﷺ وأتباعه المخلصين في تلك الساعة حالة تستوجب المغفرة، بل كانت جديرة بنيل الثواب. ولما كانت تلك ساعة عسرة وشدة، سميت هذه الغزوة «غزوة العسرة».

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا
إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

تشير الآية إلى كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرة بن الربيع رضي الله عنهم، الذين سبقت الإشارة إليهم في الآية رقم ١٠٦. وكان هؤلاء الثلاثة من المسلمين المخلصين، غير أنهم لم يخرجوا في غزوة تبوك، لذلك أمر رسول الله ﷺ عند عودته إلى المدينة بمقاطعتهم مقاطعة تامة. وظلوا يعانون ألم هذه المقاطعة أكثر من خمسين يوماً إلى أن تقبل الله توبتهم بعد أن تابوا إليه توبة صادقة، وثبتوا على إيمانهم طوال تلك الفترة العصيبة فاجتازوا المحنة بنجاح. وقد روى أحد الثلاثة قصته، وهو كعب بن مالك رضي الله عنه، فقال:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبُ لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا إِلَّا مَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عَيْرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَيَتَيْنَ عَدُوَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاقَعْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا. كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَاللَّهُ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَقَارًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةً غَزَوْهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظُ يُرِيدُ الدِّيَانَ قَالَ كَعْبُ فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيُخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطُفِفْتُ أَعْدُو لِي أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ

يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْحُدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَعَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْعَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْجُلَ فَأَدْرِكُهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يَقْدِرْ لِي ذَلِكَ فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُطِفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ التَّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ فَقَالَ مُعَاذُ بَنِي جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِئْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَاسْتَعْنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْزِدُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضِعَّةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَّلَ سَرَارِيَّهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ فَقُلْتُ بَلَى إِي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدَرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلِكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالُ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا وَلَقَدْ

عَجَزْتُ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ. قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْجِبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأَكْذَبْتُ نَفْسِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَفِي هَذَا مَعِيَ أَحَدٌ قَالُوا نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلُ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ فَقُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعُمَرِيُّ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ فَذَكَّرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخْلَفُ عَنْهُ فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأُطَوِّفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَكْلُمُنِي أَحَدٌ وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَكَ شَفَّتِيهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ فَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَقَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْحِجَارَ قَالَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبٍ بَنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يَشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكٍ غَسَّانٍ إِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْضِعَةٍ فَالْحَقُّ بِنَا نَوَاسِكَ فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّوَرَّ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ أَطْلَقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلِ اغْتَرِلْهَا وَلَا تَقْرُبْهَا وَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ

اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَعْبٌ فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبُكَ قَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِمَرْأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِيَنِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَزْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أُمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يَهْتَوِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ قَالَ كَعْبٌ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ وَاللَّهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ وَلَا أَنْسَاهَا لَطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتُكَ أُمُّكَ قَالَ قُلْتُ أَمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَتْهُ قِطْعَةٌ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَخْلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي

الَّذِي بَخَّيَّرَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا تَجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَتْ فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَتْ. (البخاري - كتاب المغازي).

تقود هذه الرواية إلى استخلاص النتائج التالية:

- (١) كان رسول الله ﷺ يقيم نظامًا صارمًا بين صحابته، غير أن هذا النظام كان ممزوجًا بالرحمة.
- (٢) وعلى الرغم من هذا الحزم، كان رسول الله ﷺ محبوبًا ومبجلًا عند أصحابه إلى درجة استثنائية.
- (٣) وكان أتباعه المخلصون يسعون دائمًا جاهدين إلى أن يكونوا قدوةً في التضحية والإخلاص والتقوى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

التفسير:

ولما جاءت هذه الآية مباشرةً بعد الآيات التي تتحدث عن المنافقين وضعفاء الإيمان، فإنها تُقرّر واحدةً من أهم القواعد الأخلاقية والروحية التي تسهم في بناء شخصية الإنسان ونموه الروحي، وهي:

- (١) أن يبذل الإنسان جهده في استكمال تقواه، بأن ينمي في قلبه خشية الله تعالى.
- (٢) أن يلتزم صحبة الصادقين ويُلَازِمهم.

والحقيقة أن التزام صحبة الصالحين والصادقين الأتقياء أمرٌ في غاية الأهمية، إذ تزيل هذه الصحبة صداً القلوب، وتغرس فيها أثراً قوياً من الروحانية، وتقود المؤمن إلى نبع الطهر والتقوى، كما توفر له المناخ الروحاني والأخلاقي السليم. وقد كانت هذه من بين الميزات العظيمة التي نالها أولئك الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوة تبوك.

مَا كَانَتْ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ
الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا
يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا
يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

شرح الكلمات:

موطئ: مشتقة من «وطئ»، يقولون «وطئ الشيء» أي داسه برجله أو مشى عليه.
«موطئ»: الموضع الذي مُشِيَ عليه؛ موضع القدم؛ أثر القدم (معجم لين).

التفسير:

تُشير الآية إلى بعض المزايا العظيمة التي كان بإمكان المتخلفين أن ينالوها لو أنهم شاركوا النبي ﷺ في غزوة تبوك.

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ
أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

التفسير:

انظر الآية السابقة المرتبطة بالآية الحالية.

وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا
نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا
فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

التفسير:

لما كان ضعفُ الإيمان والعمل غالباً ناشئاً عن نقصٍ في المعرفة والتربية، بيّنت هذه الآيةُ كيفيةَ معالجة هذا الضعف.

فقد كان أعرابُ البادية يجهلون تعاليم الإسلام جهلاً كبيراً (انظر الآية ٩٧)، فجاءت الآيةُ تُوصي بطريقةَ فعّالةٍ لتعليمهم مبادئ الدين وأصوله، وذلك بأن يخرج عددٌ معيّن من كل قبيلةٍ إلى المدينة ليتفقّوها في الدين ويتعلّموا تعاليمه، ثم يرجعوا إلى قومهم فيُعلّموهم ما تعلّموه.

وقد كان هذا الأسلوب من أبسط الطرائق وأشدّها تأثيراً وفعاليةً في نشر مبادئ الدين الجديد ونقلها إلى الآخرين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ
الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ إلى المنافقين الذين عاشوا بين المسلمين واختلطوا بهم. وقد أمر المسلمون بمواجهتهم كمجموعة، لا كأفراد متفرقين، وذلك بكشف ألاعيبهم وأعمال النفاق التي يرتكبونها وإبلاغ الرسول ﷺ عنها. وتعني عبارة ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أنه كما لا يتأثر الشيء الصلب بالضغط عليه، على المسلم أن لا يسمح لنفسه بالتأثر برغباته الشريرة أو بالأشخاص الأشرار الذين يحيطون به.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ
زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

التفسير:

يشير السؤال ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ إلى ادعاء المنافقين بأن سور القرآن الكريم لا تزيد الإيمان. وقد جاء الرد على اعتراضهم مباشرة في الكلمات التالية من الآية.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

التفسير:

الوحي الإلهي كالمطر. فإذا كانت البذور صالحة والتربة خصبة، فلا بد أن يساعد المطر على إنتاج محصول وفير؛ وأما إذا كانت البذور والتربة رديئتين، فإن المحصول يكون رديئاً رغم غزارة المطر. ولما كانت تربة قلوب المنافقين نجسة وفاسدة، فإن ماء الوحي الإلهي لا يزيدها إلا رجساً. فبئزول هذا المطر السماوي يبدأ القدر الكامن في طيات قلوب المنافقين في الظهور.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

التفسير:

يُطرح هنا على المنافقين سؤال مهم: أليس وقوع أحداث بين الحين والآخر، يُختبر فيها إيمانهم ويُفَرَّق فيها بين المسلمين الصادقين المخلصين والمنافقين الكاذبين، كافياً ليكشف لهم حقيقة أن الله هو مُنزل الإسلام، وأنه، لحماية دينه وإنجاحه، يُمَيِّز دائماً بين المؤمنين والكافرين، حتى يتطهَّر المسلمون من كل دنس وشائبة، ويصبح الإسلام جماعة من الأتباع الصادقين المخلصين؟

وتُبَيِّن الآية أن هذه الحقيقة وحدها كافية لتثبيت إيمان من في قلوبهم بذرة من الصدق. كما تُسهم في تفسير الآية ١٠١ أعلاه، حيث ورد أن الله سيعاقب المنافقين «مرتين».

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ
قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

التفسير:

كان المنافقون يحرصون على الجلوس مع المسلمين حين يكون الحديث في أمور الدنيا، ولكن إذا بدأت تلاوة القرآن الكريم انسلوا خلسةً وانصرفوا. وتبين الآية أنه لما رفضوا الاستماع إلى كلام الله وأعرضوا عنه، عاقبهم الله تعالى بصرف قلوبهم عن الحق. وتساعد هذه الآية على فهم التعبيرات القرآنية مثل «يُضِلُّ من يشاء»، إذ إن هذا الضلال يعني أنه عندما يختار أصحاب القلوب الخبيثة الضلال ويصرّون على المضي في طريق الشر، فإن الله تعالى يتركهم وشأنهم حتى يبتعدوا أكثر عن الحق، فيجعلهم من الضالّين.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

التفسير:

تتوجه هذه الآية إلى المؤمنين والكافرين على السواء؛ حيث يتوجه الجزء الأول منها إلى الكافرين وجزؤها الثاني إلى المؤمنين. فهي تقول للكافرين إنه مما يحزن النبي ﷺ أن يراكم تقعون في العنت والمشقة؛ فمع أنكم أذيتموه واضطهدتموه، إلا أن قلبه مفعم بالرحمة، ولا يمكن أن يُكنَّ لكم أي عداوة، أو أن يتمنى لكم سوءاً. إنه في غاية اللطف والرحمة بكم حتى إنه لا يطيق أن يراكم تنحرفون عن طريق الحق والتقوى وتوقعون أنفسكم في العناء والبلاء.

وتقول الآية للمؤمنين: إن رسول الله ﷺ رؤوف ورحيم؛ أي أنه يشارككم آلامكم وأحزانكم برحابة صدر. كما أنه كالأب الحنون يعامل أبناءه بالرحمة والشفقة.

والصفتان ﴿رَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ المذكورتان هنا وصفا للرسول ﷺ هما أيضاً صفتان لله ﷻ. وفي الواقع تنقسم الصفات الإلهية إلى نوعين:

(١) الصفات التزهية، وهي التي تميز الله تعالى عن خلقه، مثل صفة «الرحمن» أي الذي تشمل رحمته جميع الخلائق، وهذه الصفة لا تنطبق على أحد سوى الله ﷻ.

(٢) الصفات التشبيهية، التي يتشابه فيها الله ﷻ مع الخلائق الأخرى إلى حد ما، مثل صفة «الرحيم»؛ فإن الرحمة صفة يمكن أن يشترك فيها الآخرون أيضاً ولو بنسبة محدودة.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

التفسير:

كأن هذه الآية، وهي آخر آيات السورة، تقول للكافرين إن النبي ﷺ يدعوهم إلى الحق لمصلحتهم ولما فيه خيرهم، وأنهم برفضهم الاستماع إليه لن يصيبوه بأي ضرر. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يحمل ضمناً رداً جميلاً وتفنيداً بليغاً للاتهام الذي وُجِّه إلى رسول ﷺ بأنه كان يبتغي الملك الدنيوي. ويمكن فهم الجملة على النحو التالي: «إنني لا أرغب في أن أقيم ملكاً دنيوياً في الجزيرة العربية ولا في أي مكان آخر. بل هدفي هو إقامة ملكوت الله على الأرض، الذي يعقبه ازدهار ونصر وملك أعظم لي ولأتباعي، ولا توجد على وجه الأرض قوة تستطيع أن تمنع ذلك».

والعبارة التي تنتهي بها السورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾
تقدم أيضاً جوهر روح الإسلام، أي أن إله الإسلام هو الأعلى فوق الجميع وأن المسلم
الحقيقي يجب أن يضع ثقته وتوكله في الله وحده.